الظمأ العاطفي

في شعر الفضول وألحان أيوب

توزيعات
كشك ٧ يوليو
صحف - مجلات
علمية - تعليمية
سلسلة تعليمية
ت: ٢٨٤٧٦٧
صنعاء - ميدان التحرير
جوار أمانة العاصمة
خدمة العلم في عصر المعلومات

الظمأ العاطفي

في شعر الفضول وألحان أيوب

رحلة في شعر وحياة عبدالله عبد الوهاب نعمان وأيوب طارش

محيي الدين علي سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

تأسست المكتبة الأم في عدن قبل عام 1890
تأسس المركز في صنعاء عام 1994

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء 341/ 2002

الطبعة الأولى 1424هـ الموافق 2003م
الطبعة الثانية 1427هـ الموافق 2006م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها إلا بإذن خطي

مركز عبادي للدراسات والنشر

ت: 219618 / فاكس: 219619
ص. ب: 662 صنعاء الجمهورية اليمنية

التنفيذ الطباعي: مركز عبادي للدراسات والنشر

الإهداء

إلى روح الشاعر العظيم/
عبدالله عبدالوهاب نعمان (الفضول)

إلى الهديل أيوب طارش...

إلى عملاق الثقافة اليمنية
الدكتور / عبدالعزيز المقالح.

إلى صديقي صالح البيضاني
وإلى كل العارفين بالشعر العظيم، والفن الأمثل
والمحبين للشاعر والهديل الجميل.

محيي الدين

المحتـــــويات

الإهداء ٥
تقديم/ فيصل سعيد فارع ٩
محي الدين "الفضول" / سمير رشاد اليوسفي ١١
مقدمة المؤلِّف ١٣
التأصيل لمدرسة تعز الفنية (أيوب طارش من القرية إلى آخر الأوراق).... ١٦
الباب الأول: وادي الضباب (جنحت/ طال الفراق/ دموع العندليب...) ٣١
الباب الثاني : باب عدن ٥٢
الباب الثالث: الحالمة تعز (الفضول وأيوب) ٨٠
الباب الرابع: الظمأ العاطفي ٩٥
الباب الخامس: الهم الوطني..... ١٤٧
الباب السادس: المزاج الغنائي في شعر الفضول ٢٠٣
الباب السابع: فلسفة الحب في شعر الفضول ٢٣٠
الباب الثامن: الفضول الساخر (صحفياً وشاعراً) ٣٦٣
الباب التاسع: الفضول والمتنبي ٣٠٠
الباب العاشر: فلسفة الطبيعة في شعر الفضول ٣٢٥
الباب الحادي عشر: الروح العربية في شعر الفضول ٣٦٧
الباب الثاني عشر: كم في شعر الفضول ٣٨٤
الباب الثالث عشر: فلسفة العتاب للوطن ٣٩٢
الباب الرابع عشر: الفضول (ثقافته من شعره) ٤٠٧
الباب الخامس عشر: الاشتقاق الفصيح ٤١٤
الباب السادس عشر: موج البحور وصدق الشعور ٤٢٨
الباب السابع عشر: الحكمة في شعر الفضول ٤٤١

ملاحق الكتاب

أيوب طارش: من الدندنة إلى المئذنة(*).....٤٥٥
قصة الحب الكبير بين الفضول وملهمته الصغيرة.....٤٧٦
ملحق خاص بقصائد سياسية وغنائية للشاعر ٤٩٢
قائمة بالمراجع والمصادر ٥٣٨
فهرس أعمال أيوب طارش مع الفضول / ومصادر إضافية للقصائد ...٥٣٩
قصائد الفضول مع مطربين آخرين.....٥٤١

(*) حوار من الدندنه إلى المئذنه أجراه رئيس تحرير صحيفة الثقافية الأستاذ/ سمير رشاد اليوسفي.

تقديم

فيصل سعيد فارع[1]

حظي الأدب اليمني بمختلف موضوعاته بقدر من التناول يكاد يكون غير كاف، رغم ما كتب فيه من مؤلفات عدة، قامت عليه أسماء كبيرة من الأدباء اليمنيين والعرب.

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي منحني الأخ العزيز الباحث والناقد الأستاذ/ محيي الدين علي سعيد ثقته، وشرفني بتقديمه للقارئ الكريم بالنظر إلى طبيعة موضوعاته وما يتناوله من نتاجات إبداعية ستجعله يتبوأ موقعاً مرموقاً بين الإصدارات اليمنية بما يضيفه نوعياً إلى موجودات المكتبة اليمنية التي هي بمسيس الحاجة إليه وبخاصة وهو يتناول النتاج الإبداعي لشاعر اليمن الكبير/ عبدالله عبدالوهاب نعمان (الفضول) في عمل هو شكل من انتشار النص خارج "الحدود العرفية" لما يسمى بـ((الفن الشعري)) قام بجمعها ومقارنة نصوصها دراسة وتمحيصا وخلال أمد زمني طويل المؤلف الموقر، إضافة إلى تناوله وإلقائه الضوء على مسارات وتعبيرات وأشكال تجلي علاقة الشاعر بالفنان اليمني الكبير/ أيوب طارش لتبين تعبيرات خروج القصيدة من شكلها التقليدي المقروء إلى ما أضحى جزءاً من النتاج الإبداعي الفني اليمني في الفترة الممتدة من أواخر عقد الستينيات حتى منتصف العقد الثامن، وقبل هذه الدراسة لم يكن متأتياً للكافة من مهتمين ومتخصصي أن يحيطوا بحياة الراحل الجليل ونتاجاته الإبداعية لندرة ما كتب عنه سوى بعض التناولات التي لا تفي قامة سامقة كالفضول، وهو مالم يتأت قبل هذه الدراسة الموسومة بـ((الظمأ العاطفي)).

---

(١) مدير عام مؤسسة السعيد – أمين عام الجائزة

وبما جعلنا لا نوفي مبدع النشيد الوطني والشاعر الـذي حررنـا مـن قهرنا، ودراسة كهذه تكتسب قيمتها الاستثنائية أيضاً لأنها تناولـت العلاقـة الفريدة التي جمعت بين الشاعر والفنان المبدع "أيوب" الخدنان الوميقان اللذان جمعا على أرض الموسيقى المحايدة تدفقات عواطفهم المختلفة فـي صـور متطابقة، كونها قدمت لنا الحياة ذاتها وصورت الإنسان كما هو فـي عـالم المشاعر التي لا يمكن لمسها والتعبير عنها بلغة الكلمات وحدها.

إن الأعمال الفنية المشتركة للمبدعين أيوب والفضول هي بمثابة حالـة انسياب وتوافق بين وجدانين خلاقين استدعت ضرورات الاتساق بينهما إلى شكل لحني غنائي برر وجودهما معاً ، ولذلك فكلاهما يتربع على عرش من عروش الإبداع. أما باحثنا الناقد والمبدع محيي الدين سعيد المحاضـر فـي الأدب العربي، وعضو اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، وعضو نادي القصة، مؤلف هذا الكتاب فله في عنقنا دين ليس مرده كونه ممن أوغلوا في عـشق النساء وعشق الأرض حتى عصرت يديه، وشكلت أطراف أصابعه ليبـدع روايته الأولى (عرق الأرض)، ولا لأنه كاتب يمتلك الجرأة علـى اقتحـام مواضيع حساسة بقدر كبير من الشجاعة الموضوعية وهي أمور ميزته منذ أن باشر كتاباته، بل لأنه قبل ذلك كله أبعد عنا صفة الجحود، وعدم التقدير، والجهل التي وسمتنا بعد أن مضى الفضول إلى مستقره الأبدي، أولاً بجنوحه تجاه الفضول عاملاً بدأب ومثابرة باتجاه إشباع ظمأ عواطفنا من شعره فـي علاقته بالفنان الكبير أيوب طارش محققاً لنا بعض ما ينبغي ونشتهي فإليـه التحية والإعزاز.

محيي الدين "الفضول" ..!!

سمير رشاد اليوسفي

جادت اليمن عبر تاريخها الطويل بأدباء وعلماء وفقهاء ومؤرخين وسياسيين، برع كثير منهم في تخصص منفرد، وبعضهم في تخصصين أو ثلاثة، .. إلا أن هناك قلة منهم جمعوا في صدورهم وسطورهم معارف مختلفة وفنوناً شتى شكلت مدارس يصعب في عالم اليوم رغم تطوراته المذهلة الإتيان بمثلها. فكانوا رغم طبيعة حياتهم القاسية نوابغ وفلتات لا يمكن تكرارها بسهولة..، ومن هؤلاء مبدع بألف عام هو عبدالله عبدالوهاب نعمان. والوصف هنا للأستاذ/ عبد الرحمن طيب بعكر، فالرجل لم يكن شاعراً، ولا ناثراً، ولا صحفياً، ولا خطيباً وحسب، فقد كان أيضاً مناضلاً حراً وسياسياً لبيباً، وعاشقاً طروباً، وساخراً حتى من ذاته، له بصمة في كل فن وذراع في كل إبداع، وفضول في كل قول.

بدأ عبدالله عبد الوهاب نعمان كاتباً في صوت اليمن ، وبعد إغلاقها فكر في إصدار صحيفة تحت اسم المقبرة، ثم عدل عن ذلك إلى مسمى ((الفضول))- تيمناً بحلف الفضول الذي شارك فيه الرسول لمناصرة المظلوم في الجاهلية، والاسم ذاته عرف به مبدعنا، وطغى على اسمه حتى اليوم- هذه الصحيفة التي انتهجت أساليب الإثارة في عناوينها، والتهكم والسخرية في مواضيعها، وألحقت بصاحبها صنوفاً من الأذى والتعذيب النفسي والجسدي، لم تكن الإصدار الوحيد له، فإلى جانبها أصدر صحيفة (الزبج) التي كانت إلى جانب "الفضول" سوط عذاب يلسع ظهور الجلادين من الأئمة والمستعمرين بألسنة من لهب.

ويعد الفضول أول من استخدم في بلادنا فنون الدعاية بما فيها من خيال خصب حرك به الركود المجتمعي وخلق من خلاله رأياً عاماً لمناصرة القضية الوطنية، وهذا الخيال الذي وظفه في الصحافة جاء من كونه أديباً أصيلاً وشاعراً مطبوعاً بالفطرة، فهو لا يجهد ذهنه في البحث عن المعاني والمفردات كما هي طبيعة الأدباء المقلدين أو الباحثين عن الشهرة بلا قضية، ولكنه كان

متشبعاً بالهموم والقضايا التي كانت تمده بالمفردات والمعاني من واقع الحياة البسيطة.

ولعل الكثيرين من أبناء الجيل الحالي لم يسمعوا بالفضول ولم يعلموا عنه أكثر من كونه شاعراً غنّى له الفنان القدير أيوب طارش عبسي – وهذا في تقديري– تعود أسبابه لأجهزة الثقافة والإعلام التي تجاهلت الرجل ولم تعطه ما يستحق من الذكر رغم أنه كان وزيراً للإعلام ذات يوم .

الحقيقة أن الرجل لم يكتب الشعر بغرض التسلية أو البحث عن النجومية، ولكنه وجد نفسه ذات يوم عاشقاً رغم أنفه، فلم يجد ثمة مفر من البوح عن مكنونات نفسه عبر قوالب وصور فنية تحولت دونما قصد إلى نفائس يشدو بها الملايين تماهياً مع شحرور اليمن الفنان أيوب طارش، والذي أضفى عليها بصوته الشجي نوعاً من السحر لا يجيده غيره، وقد يكون ذلك سبباً رئيسياً جعل الفضول ينتقيه دون غيره من المطربين، حتى الأكثر شهرة على المستويين المحلي والعربي، يعزز ذلك رفض الشاعر منح سيدة الغناء العربي أم كلثوم إحدى قصائده التي كانت قد اختارتها –دون مقابل ليس عن حاجة المال، ولكن اعتزازاً بنفسه التي لم يكن يراها أقل شأناً ممن غنت لهم، ولربما كان يجد في أيوب ضالته وتوأم روحه، لقدرته الفائقة على توصيل ما يريد قوله لأولئك البسطاء، ولو لم يجنِ أيوب على نفسه بزهده لكان اليوم أطرب من عبدالوهاب وأصدح من محمد عبده.

وفي هذا السياق أجد نفسي ملزماً بشكر الكاتب والناقد/ محيي الدين علي سعيد، الذي نصب من نفسه "فضولياً" ليقدم الفضول للقراء مهموماً بالوطن وظامئاً بالعاطفة التي مات ولما يرتو منها بعد، مع أنه كان من الأجدر أن ينشغل بهذا الفعل أبناؤه بدلاً من احتكارهم الشخصي لنتاج والدهم الذي لم نعرف منه سوى ((الفيروزة))، الديوان الذي شاءت له الأقدار أن يصل للقراء، فالفضول أكبر من أن يحتكره أشخاص ولو كانوا أبناءه الذين منعوا أيوب التغني بما تبقى من قصائد لديه وطالبوه بإيرادات لم يكن يحلم بها.

كما أجد نفسي مكبلاً بالاعتذار أمام كل قارئ ليس لشيء ما، ولكن لشعوري أن عملاقاً بحجم الفضول يصعب اختزاله في مقالة أو اختصاره في كتاب.

مقدِّمة المؤلف

لا يهم القارئ التفاصيل الشاقة .... حتى وصول هذا الكتاب إلى يديه، ولكنّه يهتم بمضمون الكتاب، ولأنّ هذا الكتاب هو الأوّل عن شاعر بحجم عبد الله عبد الوهاب نعمان (الفضول)، ولأنّ المكتبة اليمنية فارغة من عبقريات شاعرنا العظيم، ولأنّ هناك من المعجبين بهذا الشاعر إلى حد الهوس وبشعره الذي يتغنّى به أجمل وأعذب عندليب هو أيوب طارش... ولعشرات الأسباب رأينا أن نفرد لشاعرنا ثلاثين باباً في إشارة لغزارة موضوعات البحث والعبقرية في شعره - دون فصول - في إشارة أخرى لأجيال جديدة لمتابعة البحث... ولكنني عند مرحلة معينة أحسست بأنني يجب أن أتوقف وبقيت بعض الأسئلة تدور في ذهني في مقدمتها هل نجحت في إيصال رسالتي إلى الناس عن هذا الشاعر العظيم ؟ وإنني أعترف أن هذا الكتاب ليس دراسة نقدية كاملة بقدر ما هو محاولة للأقتراب من عوالم الشاعر ولم يتسنَّ لي التعمق في الكتابة النقدية الكاملة عنه حتى الآن لأنني ما زلت في طور تعريف الأجيال القادمة بهذا الشاعر وأن أصحِّح بعض ما ألتصق خطأ في أذهان البعض - وقصده بعض معاصريه من خصومه - وحاولوا وضعه في اطار ضيق يحب ويكتب الأغنيات فحسب... وهذا فيه اجحاف كبير لشاعر سياسي في المقام الأول وصحفي فذ وأديب ساخر وكاتب ناثر من الطراز الأول ودعونا لا ننسى ما قاله أحد فلاسفة الصين: ((أنا لا يهمني من يشرِّع أو يضع القوانين للناس ما دمتُ أنا الذي أكتب لهم الأغنيات)).

وبسبب العلاقة التي قامت بينه وأيوب طارش - وهي علاقة روحية وانسانية - في مجالات الغناء والأناشيد، ارتبط اسماهما معاً فتجانسا نفسياً وعاطفياً وروحياً وفنياً(٦٧-٨٢م)، وفي كثير من أبواب الكتاب كانا - الفضول وأيوب - وسيظلان مهيمنان معاً على صفحات القلوب وأدعو الله أن يكون مرجعاً للباحثين وللقراء جميعاً ويكون أساساً صلباً وأرضية يقف عليها الدارسون، ولو كنت أقدر على ايجاز ما كتبته عن الشاعر والمطرب الهديل ما كنت أصدرت هذا الكتاب ....!

ولمّا كان ذلك كذلك ...

كان لزاماً علينا أن يكون كتاباً جامعاً للشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان وللمطرب الهديل أيوب طارش لعدد من الأسباب منها أنهما اجتمعا وامتعانا أحياءً، ولسوف يبقيان كذلك _ إن شاء الله _.

وبقدر ما اجتمعا على الجمال فقد كان لكلٍ منهما جماله الخاص، وعبقريته المميـــزة وهذا ما أضاف للجمال المشترك الذي أمتعانا به وحرمانا عشرات الروائع التي لم ترَ النور.

لقد كان للايمان المطلق الذي حمله أحدهما لمواهب وعبقرية الآخر أكبر الأثر في كل ما جمع بينهما من أبوة وأستاذية وفن وشعر.

كان الفضول مدمناً على التراث حتى أُذنيه، كان يجد متعته الكبرى وهو يستمع إلى عزف منفرد على العود من كبار العازفين في عدن، فصنع ذلك انسجاماً من نوع خاص في نفسه وهو ذات الانسجام الذي جاء به أيوب محمَّلاً به – عازفاً له على الناي – من قريته (المحربي) وجبالها وأغنامها.

في هذا الكتاب وفي مكان ما تعمدتُ حشر بدايات الشاعر الخجولة مـــع القـــصائد الغنائية – وين شبَّان القبيلة – وأغفلتُ – شق البحر شقه – التي غنتها رجاء باســـودان، وهذا الخجل لفت نظري في بدايات أيوب مع الغناء، أحدهم تسآءل: ماذا لو لم يتعامـــل أيوب مع شعر الفضول..؟! وما زلت على يقين أنَّ أيوب طارش (لم يستـــسلم لمراهنـــات أعداء الفن) بشكل ما.

كانت الجمل الموسيقية والمزاج الغنائي وقامات حنجرة الهديل وطبقات صوته والبيئة والمعاناة والايمان المطلق والمشترك بالتراث والأصالة بين الفضول وأيـــوب، ممـــا جعلـــهما قادرين خلال عشر سنوات على تأسيس أو لنقُل إرساء معالم مدرسة فنية يمنيـــة متطـــورة ومنسجمة ولها سماتها الخاصة هي مدرسة تعز الفنية التي استوعبت المدارس الأخرى.

لا يسعنا أن نتعصَّب في حين أنَّنا نتحفَّظ حول بعض النقاط منها الثقافة الفنية عنـــد أيوب طارش وقضايا أُخرى.

كلُّنا مفتونون بشعر الفضول وبصوت الهديل وبالثقافة المشتركة التي جمعت بينهما.

ولو سئلتُ: من فتنك من الشعراء جميعاً لقلت على الفور: أبو الطَّيب المتنبي/ أبـــو القاسم الشابي/ عبد الله عبد الوهاب نعمان.

ما زال هناك شعراء مهضومين حتى اليوم منهم شاعرنا/ وطرفة بن العبد/ وســـحيم عبد بني الحسحاس/ ودعبل الخزاعي/ وأحمد برداد .... أمَّا عن شاعرنا فلأنَّـــه ((لم يـــأت كشاعر بمرسوم من رئاسة مجلس الوزراء أو مجلس قيادة الثورة أو عن طريـــق حـــزب أو اتحادات الكتاب أو أجهزة المخابرات ...

... ولن يكون بوسع أي شاعر أن يحصل على نـــسبة ٩٩،٩٩% مـــن أصـــوات الناخبين إلاَّ الشاعر العظيم أبو الطَّيب المتنبي، لقد فاز المتنبي في انتخابات الـــشعر دون أن يقوم بحملة انتخابية أو يظهر على شاشة التلفاز أو يلصق صورة على الحيطان أو يـــشتري أصوات الناخبين بمبلغ مئة دولار لكل صوت ...

شعر المتنبي بحد ذاته قوّة عظمى وإمبراطورية شعرية لا ضفاف لها ولذلك سقطت كل الإمبراطوريات وظلّت سلطة المتنبي الشعرية تتحكم بنا وبأذواقنا وبثقافتنا حتى اليـــوم، إذا كان المتنبي قد أحتلّ العالم العربي كله شعرياً – من المحيط إلى الخليج – فلأنّه لم يكن شاعراً سرياً ولا سريالياً ولا من شعراء قصيدة البياض، وإنما كان شاعر الزمن كله، شاعر الوطن كله، وشاعر الانفتاح الثقافي العربي على الدنيا كلها قبل أن تكـــون الولايـــات المتحـــدة الامريكية))[1]

وهذا ينطبق أيضاً على شعر عبد الله عبد الوهاب نعمان ... وإلاّ دعونـــا نتخيّـــل أنفسنا – نحن اليمنين – دون شعر الفضول وأناشيده وأغنياته وقصائده السياسية.

ولا يمكن لعاقل أن ينكر دور شاعرنا وهديله في جغرفة أحاسيسنا والتئامها واعـــادة هيكلة التوازن النفسي الذي مزّقنا بالسفر وشد الرحال وخيانات الوطن الذي يمشي على العكاكيز لا على المحركات ... كُلّما قلتُ انتهى السوءُ عليها ....!!!

في ختام هذه المقدِّمة أشير إلى القارئ أنني حرصتُ على أن يحصل على أكبر قدر من المتعة والفائدة .... متى بحث عنها، وأُحب أن أشكر عدداً من الذين كانوا سبباً في خروج هذا الكتاب إلى الوجود وانجاز البحث وفي مقدمتهم الأديب والصحفي اللامع – سمـــير رشاد اليوسفي – رئيس تحرير صحيفة الثقافية الغرّاء الذي أمدّني بالحماس والجمـــاهير، ثم أخي محمد علي سعيد – أبو عنود – الذي منحني الوقت وأمدني بالعون في كل مراحـــل البحث والكتابة، وأيوب طارش – حبيبي – وصديقنا المفضّل محمّد الجنيد والملهمة عزيزه النعمان وعبد الحافظ الصناعي وعارف الهلالي الذي ساهم بإخراج هذا الكتـــاب بهـــذه الحلة وفؤاد منصور الزمر وكافة قرائي وأحبتي الذين ينتظرون هذا الكتاب.

واسمحوا لي بالاعتذار من والدي – علي سعيد – الذي خيّبـــتُ ظنّـــه في تجارتـــه وانصرفت إلى مادة هذا الكتاب الذي لم يتردّد الناشر نبيل عبادي في احتضانه سائلاً المولى أن ينفع به البلاد والعباد.

محيي الدين

تعز- ٥/٧/ ٢٠٠٢م

(١) من يتزوج قصيدة الحداثة/ نزار قباني/ الحياة اللندنية ٢٦ يونيو ١٩٩٣م.

تأصيل لمدرسة تعز الفنية (*)
أيوب طارش
من القرية إلى آخر الأوراق!

هذه الأوراق اشارك بها لارساء دعائم مدرسة تعز الفنية التي تناقش حولها كثيرون لتكون رافداً للفن اليمني والمدارس الأخرى تأخذ منه وتمده وتساهم في رسم بقية الملامح الناقصة في وجه الفن.. ولأن أيوب طارش هو الأستاذ المؤسس.. فإنني أتقدم بهذه الأوراق ليكون باباً أو فصلاً في كتاب (الظمأ العاطفي في شعر الفضول وألحان أيوب) آملة أن يخرج الكتاب إلى الناس ليملأ فراغاً هائلاً في المكتبة اليمنية المعاصرة وليكون خير بقعة يجتمع فيها أيوب طارش وعبدالله عبد الوهاب نعمان فيما تبقى من الدنيا ولكي يكون قدوة لمريديهما بشعرهما السامي وفنهما الأصيل ولأنهما قل أن يجود الزمان بمثلهما.

لوجئنا لنقارن بين حديث الإنسان عن نفسه وحديث الآخرين عنه وعلى وجه الخصوص إذا كان الآخر متخصصاً ويعرف ما يقول لوجدنا فرقاً هائلاً في ثنايا ماقيل، وما كان الإنسان ليقوله عن نفسه.. خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالفن سواء كان شعراً أو موسيقى أو نحتاً أو غناء.

وعندما نقرأ ما قاله ايوب طارش في الجزء الخامس الموسوم بـ ((من الدندنة إلى المئذنة)) وكذلك في كل اللقاءات التلفزيونية والإذاعية معه. نكتشف كم يجهل الإنسان نفسه لأنه يكتفي بسرد محطات حياته ببساطة ويكتفي بالوقوف عند الظواهر من الأمور بكل تجرد وبراءة.

وليس عيباً أن يحدث ذلك إنما العيب هو إلا نقف نحن لقراءة الطبيعة النفسية والحالات الفنية والثقافية والروحية التي ملكت زمام أيوب وسيطرت عليه.. لذلك

يجب أن نقف أمام الطبيعة النفسية والظروف التي شكلت هذا الطفل وأن نقف أمام ثقافته النفسية التي جعلته يعيش بصدق فني.. وكيف تملكه الخجل الشديد وهو يسمع الشيخ محمد سالم البيحاني معلمه آنذاك يمتدح صوته وأنه أوتي مزمار من مزامير داوود إلى درجة أنه اختبأ بعيداً.

هذا الموقف يقودنا إلى فهم خاص لطبيعة أيوب البسيطة والمتواضعة، فهو لم يشعر بالغرور وإنما شعر بالخجل الشديد.. فانسحب ذلك كله عليه بقية حياته.

(*) نشره المؤلف بأسم مستعار في الثقافية ع ١٠٧/ ٣٠ – ٨ – ٢٠٠١م ... على ثلاث حلقات

أيوب بما امتلك من أحاسيس شفافة عاش مسالماً في غابة لا شك أن فيهـا مـن لا يطيقون نجاحه ولا يقبلون به متربعا على أذهان واحاسيس الناس.. وإذا كان قـد رضـع أيوب لبناً فإنه إنما رضع التراث اليمني منذ نعومة أظفاره.

من الجبل وهو يرعي الأغنام ويعزف بالناي الحان تذيب الأحجار ولا نعتقد أن جامعة في الموسيقى يمكن أن تصنع بعض ما صنعه ذلك الناي وتلك الألحان التي تجعلك تبكي.. وهذه اللمحات البسيطة.

على بساطتها.. تصنع عالماً في النفس والوجدان وهذا ما حدث مع أيوب وكـان انتقاله إلى مدينة عدن وتاثره الكبير بـ محمد عبد الوهاب.

نقله إلى مرحلة متقدمة من التفكير الموسيقي الجاد.. وتعلم العزف بالعود وأجـاده بسرعة فائقة لأن التراكمات والموهبة والاستعداد الخاص الذي لديه سرع بذلك واقحمـه عالم الغناء كما هو متعارف عليه هذا يقدمه إلى هؤلاء ثم يقدمه هؤلاء إلى آخرين وهكذا.

وكانت الثقافة الفنية التي اكتسبها حتى الآن.. متوافقة مع مواهبـه واسـتعداداته ومجالسته لعدد من العازفين الذين تعلم وأجاد على يدهم العزف بالعود بمعنى أنه أخذ عنهم ما يعرفونه..

والسؤال الآن هل حاول أيوب طارش أن يتعلم أكثر وأن يرفع من معارفه الفنية؟!

كان التراث اليمني مفتوحاً على مصراعيه لكل مطرب والمطرب يحكمه ذوقه الفـني لينتقي ما يشاء.. كان أيوب مميزاً منذ البداية وليس مقلداً.. إلى حد نجده يتميز مـن أول أغنية يؤديها وهي التي كتب كلماتها أخوه محمد طارش الذي علق عليه أيوب طارش بأنـه كان بتول الأسرة وهذا يظهر لنا الروح الساخرة والمرحة في أيوب.. وصادف أن بـدأت مسيرة أيوب طارش الفنية مع ظهور مؤقت لمواهب أخيه الشعرية.. ((بالله عليك وامسافر/ لا تؤشروالي)).

احسسنا منذ البداية أن أيوب صاحب نكهة خاصة فاللحنان اللذان جاء بهما مـع الأغنيات الأولى يكشف لنا التماثل التام والتعبير الخالص الذي يشارك النـاس غربتـهم ومشاعرهم وأن أيوب طارش كان واحداً منهم.

وأياً كان مصدر اللحن تراثياً أو منتزعاً من التراث أو معدلاً أو أي شيء فإن ذلـك يقودنا إلى إقرار الذوق الخاص والأصيل الذي حمله أيوب وعاش له وامتعنا به.

إذن هناك جوانب نفسية هي التي سجنت أيوب في الالحان الأصيلة أضف إلى ذلك ثقافة فنية كانت سائدة، ومتطلبات وجدانات الناس وما يرتبط ويتعلق بحيـاتهم وطريقـة تفكيرهم ومعاناتهم واحاسيسهم وكذلك يفعلون هم.

كان صوته الجميل والعذب والذي انسجم مع الحان التراث واصالة المفردات الغنائية بغض النظر عن مستواها الفني شعرياً.

لم يلتق أيوب طارش بالفضول في عدن.

لكن أيوب طارش وفي أحد الأيام اصطحبه أحد الأصدقاء إلى منزل صديق آخر مهتم بالفن والتراث والغناء وكان مرتباً من قبل بوجود مطربة يمنية تمتلك صوتاً ينوح بعزف الأرض اليمنية التي يشقها المحراث والتقى أيوب طارش ومنى علي وهما في زهرة الشباب.. ووجد أيوب أمامه قصيدة لشاعر اسمه عبد الله عبد الوهاب نعمان ويعرف بـ ((الفضول)) مطلعها ((روح لك بعيد)) وكانت ملحنه وقد حفظتها منى علي.. وبدأ أيوب رحلته مع شعر الفضول وليس مع الفضول.

ومر وقت طويل قبل أن يسمع الفضول صوت أيوب طارش.. كانت الأحوال السياسية متقلبة، وكان الفضول يخرج من مستنقع السياسة، ويغوص في بحر من الحب اللذيذ.

كانت المصادفة كبيرة في هذا الجانب.. ففي الوقت الذي يبدأ أيوب فيه بالظهور يبدأ الفضول بكتابة قصائد غنائية حارة العاطفة.. واصفاً فيها ماهو عليه من حب وهيام.

كان الفضول يقترب من الخمسين عاما وأيوب يغادر العشرين ويدخل العقد الثالث من عمره.

الاعجاب الذي أبداه الفضول بأيوب طارش جعله يبحث عنه لأنه أحس أنه قد وجد ضالته بالفعل أنه وجد من يترجم أشواقه وعواطفه ويبلغها للناس بهذا الصوت الساحر.

التقيا كما يلتقي الناس عادة.. وبدأ الفضول يسمع أيوب قصائده التي كانت مكتوبة منها ((وادي الضباب، ومدارب السيل، طاب البلس، دق القاع دقه)). ومن هنا بدأت رحلتهما معاً في اسعاد الناس وتأسيس مدرسة تعز الغنائية لم يكن بينهما جدل مادي بخصوص المال.. كان الفضول يكتب شعراً، وأيوب يغني.

لم تكن العلاقة بينهما علاقة عادية على الاطلاق بل كانت علاقة غير عادية واستثنائية إلى أبعد الحدود كان الفارق الزمني في السن يخلق نوعاً خاصاً من التعامل.

كان أيوب يأخذ القصيدة من الفضول بعد قراءتها وضبطها وينصرف إلى عالمه الخاص يداعب الأوتار ويفتش على نغماتها حتى يعتقد أنه انتهى.. كان الابداع الفني يتطلب التنحي جانباً بعيداً عن الضجيج والاجتماعات والملتقيات.

كانت الطبيعة الخاصة تجاه التراث تجمع بينهما.. كما ذكرنا ذلك في مكانه والتنشئة البيئية والمعاناة المشتركة والاحساس العام والتوافق النفسي والتخلي عن الجوانب المادية.. وغيرها عوامل تخلق أو تساعد على الابداع والامتاع.

وكما قلنا عندما يعتقد أيوب أنه انتهى يلتقي بالفضول لقاءً فنيا، كان اللقاء يحمل روحاً خاصاً فهو لقاء بين الأستاذ وتلميذه ولقاء بين شاعر ومطرب ولقاء بين إنسان وإنسان.. فتتوحد الأمزجة وتتفق الأرواح.

لم يكن الفضول يعزف العود اطلاقاً وإنما كان مستمعاً ممتازاً.. وكذلك كان يستمع من أيوب طارش، يسمع بطريقة خاصة.

كانت النقاط المشتركة التي تجمعهما في حدود ٩٠% على صعيد الجانب الفني والقيم الفنية المشتركة، والتشابه في الوجدان والأحاسيس.

كان الفضول يسمع ويبدي ملاحظاته فقط نحو المد هنا والمد هناك، كان الفضول يسمع ويجري تعديلات في بعض الكلمات التي يحس أو يدرك أن أيوب يجد صعوبة في لفظها بسلاسة ومرونة.. كان التعديل يشمل المفردات ونادراً ما كان يمتد إلى اللحن.. لأن التراث كان قاسماً مشتركاً بين الأستاذ والتلميذ، وكانا يحتكمان إليه.. كانت الأصالة هي ما يحاول الشاعر دوماً جر أيوب إليها.. وهكذا حتى تكتمل القصيدة وتخرج مغناة إلى الناس.

كانت الظروف الموضوعية التي تجمع بين الشاعر والمطرب سبيلاً لتكوين مدرسة فنية لها سماتها الخاصة ولها معالمها وهي مدرسة ليس لها حدود جغرافية.. بدلالة الانفعال المشترك الذي يجده اليمنيون في نفوسهم أينما كانوا وهم يسمعون وينفعلون.

بعد سنوات قليلة من العطاء في تعز بين أيوب والفضول وهي سنوات تقتطع من ١٥ عاماً هي عمر السنوات التي جمعت بينهما ومن استقراء النتاج الذي خرج به أيوب فإنه انتاج غزير إذا ما علمنا أن أربعين عملاً غنائياً نتج عن هذه السنوات تقريباً.

بعد أربع أو خمس أغنيات كان لا بد لأيوب من تطوير ذاتي على مستوى المعارف الفنية والموسيقية ودراسة النوته.. وحتى لا تصبح الألحان قائمة على عشوائية ومعتمدة على فطرة بيضاء فقط.. سافر أيوب للدراسة بالقاهرة وبقي في حدود ثلاث سنوات، وكانت القضايا الفنية هي محل الدراسة كالنوته وإجادة العزف وعلاقة الأوتار ببعضها.. وليس معلوماً الكم الفني من المعلومات والمعارف التي حصل عليها أيوب طارش وما الذي عاد عليه فنياً من دراسته وهل أحس بأنه تجاوز مرحلة معينة وانتقل إلى مرحلة جديدة كل هذه القضايا الدقيقة ستكشفها طبيعة الأعمال الفنية التي أنجزها أيوب لاحقاً ولكن مما يبدو ظاهرياً.

إن أيوب في داخله نوع من التمرد على التعليم والدراسة فهو لم يكمل دراسته في المعهد الديني في عدن وكذلك نفر من الاكاديمية الفنية التي تقيد البعض من الذين يحبون الانطلاق للتعامل مع الحياة مباشرة باعتبارها المعلم الكبير للإنسان في هذه الأرض، واكتفى بحد معقول وعاد.

في القاهرة غنى أيوب طارش (طير مالك والبكاء) للفضول.. واضطر الفضول طوال سنوات غياب أيوب للتعامل مع عبد الباسط والحارثي.

كان الفضول يحترم نفسه وشعره ولم يكن يسعى لعرض شعره على أحد ولكنه لما اقتنع بأيوب تعامل معه بلا قيود.

في بداية لقاء أيوب والفضول كانت أحوال الفضول المادية جيدة، وكان أيوب في بداية الطريق ولم تكن المادة تقف حجر عثرة أمامهما.

امتدت حساسية أيوب تجاه كل شيء.. فلم يكن يتصور أن يأتي يوم ويكون هناك نوعاً من تنظيم العلاقة المادية بينه وبين الفضول.. مما أوجد نوعاً من الاختلاف صمت حوله أيوب طويلاً.. وانتظمت العلاقة الفنية بينهما ولم يكن الفضول يعول كلياً على علاقته المادية بأيوب إنما كان يعتبرها شيئاً لا بد منه.

كان التجانس الروحي بينهما قوياً، لكن عندما نتطرق إلى العلاقة على الصعيد الاجتماعي فيكفي أن نعرف أن أسرة أيوب وأسرة الفضول لم تلتقيا في أي مناسبة اجتماعية رغم أنهما يقيمان في مدينة تعز ولا يفصل بينهما سوى شارع طويل طوال السنوات التي جمعت الاثنين معاً.

وهذا أمر ليس له علاقة بالجوانب الفنية إنما له علاقة بفضح وشرح نفسية أيوب والفضول وسبق أن قلنا أن لفارق السن دور كبير في تقنين العلاقة بينهما وضبطها.. ومن خلال بحثي في كثير من التفاصيل التي قد تبدو بسيطة وجدت أن أيوب لا يعرف الكثير عن الفضول وعن علاقاته وتفاصيل حياته السياسية وإن كان شديد الإيمان واليقين بموهبة وعبقرية الفضول الشعرية.

لذلك كثير من الأسئلة البعيدة عن العلاقة الفنية لم أكن أجد لها إجابة عند أيوب.

وبدا على أيوب أنه متكتم أكثر من اللازم عن تفاصيل علاقته بالشاعر وقصائده وعلاقة الشاعر باخرين.

وأود القول أن أيوب لم يكن ليصل بمستوى النشيد الوطني إلى ما وصل إليه لو لم يكن قد أفاد من دراسته في القاهرة.

واعتقد أن الصمت على الخلافات التي دبت بين الاثنين وهي خلافات عادية جداً لكن الصمت عنها حولها إلى مرض أصاب العلاقة الروحية التي قامت بينهما وخاصة بعد موت الشاعر عام ١٩٨٢م.

واستطيع القول الآن أن العلاقة التي ربطتهما كانت علاقة مثالية رغم ما شابها من مآزق مادية أخذت تكبر بالصمت ولولا ذلك لما ترك الشاعر لأيوب أكثر من عشرين قصيدة بعضها شبه جاهزة – أي أن العلاقة المادية كانت نسبية.

وكان أيوب مقلاً في إنتاجه الفني من شعر الفضول في حياته مقارنة بما تركه لديه وما في جعبة الشاعر من قصائد غنائية لا حصر لها حتى الآن.

كان الشاعر أحمد الجابري وعلي جحاف وعباس والمطاع من الشعراء الذين احترمهم الفضول ولكن لم يكن راضيا عن كثير من الأعمال التي وقع أيوب في دهاليزها وسطحيتها.

كان دافع أيوب للتنوع هو بحسب الثقة بالذات وهي خاصة بالتعامل الإنساني.. وكان الفضول يلومه كثيراً متهماً إياه ((بالملفلف)) قائلاً:

نحن نريد أن نرفعك وأنت تريد أن تنزل.. وهنا كانت الأستاذية تتجلى في أبهى صورها.

لقد استطاع الفضول أن يشكل ذوق أيوب وأحاسيسه بشعره الجميل.. كانت فطرة أيوب التي فطر عليها قابلة للتشكيل تماماً.. ولذلك وجدنا أيوب يتعامل مع قصائد عظيمة لكبار الشعراء أمثال أبي فراس الحمداني وشعراء الأغنية الصنعانية وقصائد الشيخ أحمد بن علوان لقد أصبح يعرف الشعر دون أي تعليق آخر أو إضافة لا لزوم لها.

أريد أن أوكد حقيقة هامة في هذا الجانب وهي أن القلب الصافي والشديد البياض الذي يسكن صدر أيوب والمؤثرات الخارجية التي انعكست على نفسه مثل الطبيعة الخضراء وزقزقة العصافير وثغاء الأغنام وخرير الجداول والتقائه بشاعر يحترم المعاني ويقدس الشعر والحب ويسمو به كل ذلك شكل رديفا أضاف إلى أيوب أرصدة من القدرات الهائلة وجعلته متسماً بالوفاء للتراث والأصالة معبراً عن معان كانت تكبل عدداً هائلاً من الناس فغنى لهم وامتعهم وجعلهم أوفياء لأرضهم ومن هنا كانت حرارة أناشيده الوطنية.

ولقد أتاحت إقامة أيوب بالقرب من الفضول في تعز أتاحت لهما قدراً كبيراً من التواصل الفني ومن اللقاءات الحميمة التي كانت تجمع بينهما في المقايل.

لقد أخلص كلاهما لرسالتهما فهذا أخلص للشعر وذاك أخلص للحن والفن وإن كان الشعر ركناً من أركان الفن الأصيل.

في هذه السنوات التي غادر فيها الفضول مستنقع السياسة وغاص في الحب باحثاً عن ماهية الإنسانية كان يكتب شعراً سياسياً ويعمل على تنقيحه وإعادة النظر فيه مرات ومرات ولم يكن ينشر منه شيئاً واكتفى بقراءته على بعض أصدقائه في مجالسه الخاصة.

أذكر يوماً أنني سألت أيوباً إن كانت هناك أشرطة كاسيت بصوت الفضول يقول فيها شعراً.. فأجاب بأنه ليست لديه فكرة وكان صادقاً والحقيقة أنني حصلت على عدد من الأشرطة التي تضمنت قصائد أعاد تنقيح بعضها فيما بعد.. وهذا يوضح لنا طرفاً من لا مبالاة أيوب أحياناً أو لنقل عدم اهتمامه بتفاصيل حياة أستاذه الشاعر.

إني أراهن على الحب الكبير الذي كان يحمله أيوب لشاعره وقد بدا واضحاً أثناء لقاء أجراه معه أحمد الذهباني في أوائل الثمانينيات بعد فترة قصيرة من وفاة الشاعر

والدموع تنساب من عيون أيوب على صديقه وأستاذه وشاعره الكبير وهو لا يصدق ما حدث.

لم يكن أيوب في حسبانه مرض القلب الذي يعاني منه الشاعر ولم يكن في حسبانه فارق السن بينهما ولم يكن في حسبانه كل شيء.. فلذلك لم يخطط لشيء مستقبلي وترك موهبته في مهب الرياح.

إن عدد الأغنيات التي أداها بعد وفاة الشاعر لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة وفي جعبته أكثر من عشرين قصيدة.. وهنا تبدو السلبية التي يعاني منها أيوب.

إن الخجل والحياء والسلبية لم تجعله يصمد طويلاً أمام الأحداث التي أعترضت طريقه وعلاقته الفنية مع شعر الفضول ولكن قبل كل هذا دعونا نعود إلى الوراء قليلاً.

هناك من اعتقد خطأ أن توقف ايوب الفني بعد وفاة الشاعر أنه كان يعتمد عليه في التلحين أو مساعدته وهذا باطل كبير وظلم واجحاف لموهبة أيوب.

فالفضول كان مجرد متذوق للألحان..ويدعو إلى الأصالة والمحافظة عليها.

إن عدداً من القصائد التي لدى أيوب ملحنة وجاهزة ولكنه لم يخرجها ولو كان ذلك صحيحاً لأفرغ جعبته من القصائد الملحنة على أقل تقدير إن أيوب كان صاحب شخصية فنية مستقلة ويعرف ماذا يفعل تماماً إلى حد أنه كان يخالف الفضول في بعض القضايا الفنية منها أنه كان يحذف أبيات من قصائده لأسباب فنية ولأنها تفتقد إلى السلاسة المطلوبة فنياً وكان الفضول يوافقه على أسبابه الفنية.

ونعود إلى العلاقة المادية مرة أخرى التي اتسمت رغم الخلاف حولها بالمثالية ولو لم تكن كذلك لما كان بحوزة أيوب هذا العدد من القصائد وسنأتي إلى تفاصيل هذا الموضوع لاحقاً.

وفي عام ١٩٧٧م كانت قد مرت عشر سنوات من العلاقة الاستثنائية بين الرجلين.. إنها ليست بالسنوات الطويلة ولكنها كذلك إذا أعدنا النظر في أحداثها وتقلباتها.

لاشك أن هناك نوعا من التحفظ الذي كان سائداً بين أيوب والفضول في التعامل مع بعضهما. محاولين قدر الإمكان الاكتفاء بعملين أو ثلاثة في العام الواحد – ولكنهم لم يعملوا حساباً للقدر والموت أبداً.. ومن هذا الذي يعمل حساباً ليسابق الموت وهازم اللذات؟!

مازلت أذكر آخر لقاء بينهما إنسانياً عندما ذهب أيوب إلى عدن لتسجيل بعض الأغنيات والأناشيد الوطنية.

لقد كان أيوب جامعاً مشتركاً بين الناس من هناك كان ذلك قبل دخول شهر رمضان من عام ١٤٠٢هـ وكان الفضول قد نبه أيوب إلى أنه لدى عودته سينتظر التمباك العدني ليستمتع به في ليالي رمضان.

مضت أربع عشرة ليلة من ليالي شهر رمضان ولم يعد أيوب طارش بعد من عدن.. ولم يعد التمباك بل عاد بالدموع الغزيرة التي تبكي هذا الفراق المؤلم الذي لم يكن في الحسبان أبداً.

كان الحزن يعتصر اثنين في هذا العالم بصدق على رحيل الفضول هما أيوب طارش وعزيزة النعمان.. فكلاهما على ما يبدو لن يكون له مستقبلاً ولن تقوم لهما قائمة من بعده.

كان أيوب في عام ١٩٧٧م قد دلف إلى الثلاثين عاماً وجاوزها أي أنه كان ناضجاً فنياً.. وهي المرحلة التي صادفت ايضاً اهتماماً بالأناشيد من الشاعر والفنان فخرجا لنا بسلسلة من الأناشيد الوطنية الضخمة، وعلى الرغم من ذلك فمازالت هناك مجموعة من الأناشيد التي لم تجد لها صاحباً وهي أكثر من التي ظهرت.. وفي بعضها أبعاد سياسية..

وطبيعة العمل الفني تحتاج إلى شفافية خالصة بين الشاعر والفنان وهو ما لم يكن موجوداً بين أيوب والفضول ونقصد بالشفافية الصراحة والوضوح..

وعندما تم تكليف أيوب طارش وعثمان أبو ماهر للقيام بتوثيق كل ما يتصل بالتراث اليمني وقطعا شوطا وصلا فيه إلى تهامة وحجة ومناطق عديدة لا شك أن هذه المهمة أضافت إلى أيوب رصيداً ضخماً من الموروث الشعبي جعلته يقتحم بيئات أخرى مثل تهامة وهي زاخرة بالفن والتراث.. ولم تكمل المهمة رسالتها.. وكان من نتاج هذه المهمة أن أخرج لنا أيوب طارش وعثمان أبو ماهر عدداً من الأشرطة التي تم فيها توظيف التراث في الشعر فغنيا معاً للزراعة والفلاح.. ثم توقفا لأسباب غير معروفة حتى الآن بسبب تحفظ الطرفين وخاصة أيوب ويشك البعض بأنها لأسباب مادية..

كان صوت أيوب قد أتم مراحل النضج بحق، كان في زهرة العطاء والبذل الفني..

لم يكن هناك شرط ليخرج من جلده نقصد التراث اليمني ويجاري مالم يخلق له..

سيجد القارئ العزيز في أبواب أخرى تفاصيل كثيرة للجوانب الفنية التي تتعلق بأيوب طارش.. إلى جانب خلفيته الفنية..

كان أيوب لديه الاستعدادات الفنية اللازمة..

لقد أجاد الصنعاني والحضرمي واليافعي والعدني والتهامي واللحجي.. غنى لأشهر شعراء الغناء الصنعاني، متنقلاً بين ألحان عديدة في الأغنية الواحدة.. غنى ليحيى عمر والآنسي وسبيت.. أمتلك طبقات صوتيه هائلة قادرة على التعامل مع أجناس مختلفة من المقامات وقادراً على التنقل ويمتلك قدرة في مخارج الحروف.. وللألفاظ في فمه معنى خاصاً. كان متواضعاً إلى حد أنه تورط في غناء بعض القصائد التي ليست بمستواه ولم تكن هي بذلك السوء.. أعطى لبعض القصائد البسيطة بعداً وعمقاً لم يكن يحلم بهما أصحابها من الشعراء.. ليس بالضرورة أن نذكر أسماء الشعراء.

ولكن لاشك أنه أضاف لبعض الشعراء رصيداً هاماً في حياتهم وأدخلهم في بعض أعمالهم الوحيدة تاريخ الأدب والفن.

كان قادراً على التقلب مع الرياح أينما اتجهت وكيفما سارت حتى في انقلابه الصوفي الأخير تعامل مع التراث الصوفي وأضفى عليه طابعاً حيوياً. فلا يجعلك تعيش خارج زمنك بل يعود بك إلى قريتك محمولاً على أوتاره الصوتية ومدفوعاً بذبذبات أثير حنجرته القاهرة والآسرة.

إن الذي جمعه بالفضول أكثر من أي شيء آخر أو مع شعره على الأصح هو ماجعل الناس تعتقد أن كل ما غناه كان من شعر الفضول – هذا ما دفع البعض أو مازال يدفعهم لنسب بعض القصائد للفضول بينما هي لغيره من الشعراء..

المقامات الفنية المشتركة.. والتي كانت تجبر أيوب ليعود إليها لأنها الأقرب إلى الأصالة والتراث وهو الأمر الذي يجعله متميزاً عن غيره. وتلك المقدمة التي اعتمدها في كثير من أغانيه.. مما جعل كل أغانيه كأنها تصب في مدرب واحد من مدارب السيل..

لكنه لم يكن بعيداً عن أولئك الرسامين العظام.. وبقدر ما أجاد في رسم لوحات القصائد الغنائية بكل ما امتلكه من قدرة على التلوين والتنقل والتنويع.. كما هو حاله مع القصيدة التي غناها في بداية علاقته بالشاعر العظيم ((مدارب السيل)).

هنا تتجسد عبقرية أيوب الفنية وكيف مزج القصيدة بأحاسيسه ووجداناته.. وجعلنا جزءاً منها قبل أن تكون هي جزءاً منا..

لكن هناك أمراً أريد أن أشير إليه.. وهو أن كثيراً من الأخطاء الفنية التي ارتكبت في الغناء اليمني وفي بعض أغاني أيوب.. كان سببها عاماً أو ما يتعارف عليه في فن الطرب على سبيل المثال.. وله علاقة بتفكير تجاري.. وذلك بحشر عدد من القصائد المغناة في كاسيت واحد وبطريقة غير فنية أضف إلى هذا كله أن يقوم المطرب بحشر أغنية جميلة في مساحة ضيقة جداً من الشريط ويؤديها وكان هناك من يطارده مما يفقد القصيدة صدقها الشعوري الخاص إلى حد كبير.. وسنضرب مثلاً بأيوب طارش ففي أغنيته المشهورة ((الليل والنجم وهمس النسيم)) نجده يحشرها في أخر الشريط ويؤديها بعجلة شديدة ولا يعود إلى أجزائها فليس شرطاً أن تؤدى القصيدة بهذا الترتيب فقد يكون هناك ترتيب أمتع من الأول.. وكذلك يفعل في كثير من القصائد المقدمة ثم يكمل ويعود إلى المقدمة بغير اللحن الأول.

وغالباً ما يرافقه العود وأحياناً يضيف تلك الدربكات وكثيرون من الناس يفضلون أيوب والعود.. وهذا له جانب أكاديمي.. لكن ما نعرفه التشابه في الألحان بين كثير من القصائد فهذه ((وادي الضباب)) وكذلك ((عدن عدن)) وأيضاً نجم الصباح قل للصباح

إن لاح.. نريد مبرراً من أيوب لهذا، كان يمكن أن يكون هناك تشابه ولكن كان لا بد من الخصوصية لكل قصيدة..

والمطرب الممتاز هو الذي لا يجعل المستمع له يمل منه.. مع أن الجانب النفسي له دور كبير في المستمع لأنه لا يمل من المطرب الذي يعبر عنه وعن حالته الخاصة.. فرحاً وحزناً وشوقاً..

أيوب طارش لم يكلف نفسه عناء البحث عن العلاقات المشتركة التي تربط بين ألحان التراث والمدارس الفنية من الناحية النظرية على الأقل.. لأن الروابط التي تجمع بين الشعوب بحاجة إلى نوع من التفكيك وإعادة التركيب..

والانكماش في بيئة واحدة لم يكن يقصده أيوب على الإطلاق بدليل اغترافه من فنون كل المدارس وممارسته لها باتقان ونباهة وتعبيره الفني بكل الألوان.

لكن المسحة الإلهية كان لها دور بإنغماسه في بساطة الريفي وانتماءه القوي إلى قريته وبقائه في تعز وعدم اختلاطه بكم هائل من المؤثرات الثقافية الفنية سوى رحلته الدراسية إلى القاهرة وعودته ثم مهمته مع عثمان أبو ماهر في جمع التراث وهي تجربة إن لم يكتب لها النجاح بالمعنى العام فقد حققت بعض أهدافها وخرج منها أيوب بعدد هائل من الألحان والتي لم يوفق في البحث عن التجانس والعلاقات المشتركة التي قد تربط بينها..

ولكن بسبب غياب التكريس الإعلامي لطرب معين أو فن في اطار جغرافي محدود، يحدث أن ينظر إليه الناس بشكل غريب أنه غارق في المحلية..

والحقيقة التي يجب أن نعترف بها جميعاً هي أننا في اليمن لم نحسن توظيف الثروة الهائلة من التراث الفني حتى الفن الحضرمي الذي حقق بعض الانتشار على صعيد الخليج بفضل أبنائها مثل ((أبو بكر والشاعر حسين المحضار الملحن)).. وغيرهم.

بينما مازالت الأغنية الصنعانية رغم أصالتها تعيش في اطار المحلية وإن كانت قد أحدثت نوعاً من الأثر في المدارس الأخرى. كمدرسة تعز أو عدن وكذلك حال المدرسة اللحجية..

وغياب هذا التكريس الإعلامي جعل فنوننا تبقى في نطاق ضيق من المحلية.. والتكريس الإعلامي الشامي والمصري جعلنا نعتاد على فنونهم المختلفة ونتعصب معها وكذلك لو فعلنا نحن. وكما فعل أبناء الخليج حيث بدأنا ندمن على أغنياتهم ومفرداتهم بينما لم نفعل نحن ذلك.. أبداً على المستوى الفردي أو الجماعي أو المؤسساتي..

القضية ليست لها علاقة بالمناطقية وغيرها من أساليب التفكير الماضوية إنما لها علاقة بالتنوع والخصوبة والارتباط. لها علاقة بتشكيل وجدان الناس وتوحيد هويتهم ومشاعرهم وربطها خاصة وبوسيلة جميلة.. يجب علينا ألا نقف أمام الأمور من ظاهرها فقط بل لابد أن

نسبر أغوارها.. وفي هذا الإطار لابد أن نذكر أنه في إحدى السنوات الجميلة التي جمعت بين أيوب والفضول..

طلب أيوب – وهو على وشك السفر لأول مرة – قصيدة تعبر عن الاغتراب الذي يجتاح الإنسان وهو يفارق أرضه ووطنه وأهله.. ويجتاح الإنسان الذي فارقه.. ومن أكثر من أهل اليمن فراقاً للوطن وبعداً عن الأهل..؟! كلاهما أحسا بالمعاناة بصدق..

كلاهما ينتميان إلى الريف، ويحبان القرية، ويشتاقان إلى الأغنام والأبقار والآبار والأرض الزراعية يهفوان إلى الحياة الهادئة ولكن طموحهما وسنة الحياة تحول دون ذلك..

عندما تحس لايسعك إلا أن تكون صاحب موهبة لتترجم أحاسيسك..

كان أيوب قد لامس في الفضول الوتر الحساس للغاية وهو يطلب تلك القصيدة..

نعود إلى التكوين الخاص الذي كان عليه أيوب طارش، الإحساس المبكر بالاغتراب، الاختلاط المستمر ببيئة فنية ليست غريبة عنه وإنما أقرب ما تكون إليه استلهامه للموروث الشعبي المضاف إلى استلهام الشاعر في قصائده ممّا أعطى لأعماله بعداً من الأصالة.. وبسبب ثراء وسعة الموروث الشعبي في تعز ولما يحيط بها وبخاصة في الحجرية المترامية الأطراف والتي تختزل كماً هائلاً من الفن والألحان والمهاجل والدندنات والمواويل والأناشيد وأغاني الرعاة ومهاجل الفلاحين واختلافها وتعدد موسيقاها كما رأينا ذلك في بحث الأغاني الشعبية التي جمعها ووثقها مهيوب القدسي ومن قبله عارف الحيقي الذي لم ينحصر في الحجرية بل تعداها إلى مناطق جبلية عديدة.

وبتركيبة نفسية خاصة في أيوب طارش اختزل وشكل المدرسة الفنية في تعز ولولا أنها تعثرت في مرحلة ما وغاب التنظير الفني لها ولم يول أيوب جانب رعاية الموهوبين والتواصل معهم ومدهم بذلك المدد الروحي الذي يسكنه ويختبئ في داخله، وكذلك انزعاج بعض المنتمين إلى مدارس فنية أخرى من ظهور وبزوغ نجم هذه المدرسة على حساب مدارسهم – كما يظنون – مع أن أيوب أضاف إلى مدارسهم من مدرسته مع الفضول.. وأغرب ما في الأمر هو الإصرار على أن تراث تهامة يشكل مدرسة وهذا أمر صحيح رغم أنها لم تجد من يبعث هذه الثروة بقوة وإن كان ما يقوم به البعض محاولات.. بينما ينكرون على تعز وما حولها على سعتها الجغرافية وتنوعها البشري والفني أن تكون لها مدرسة تميزها وتجعلها إضافة ممتازة للفن اليمني عامة..

في تعز مدرسة فنية ولكنها لم تجد من يقف خلف اكتمالها لأسباب لها علاقة بقصور الوعي وإغفال مثل هذه الأمور التي هي لدى البعض نوع من الترف الذي لا نحتاج إليه وغياب جهة تنظّم هذا الجانب وتجعله هدفاً لها وتخلص له.. فهذه لحج على سبيل المثال وجدت في سلاطينها وعلى رأسهم الشاعر الملحن الأمير / فضل القمندان وبجهوده المادية

والفنية والتفاف طائفة من الناس وتواصل المدرسة بتلاميذها وتلاميذ تلاميذها بينما ليس هذا موجوداً في تعز.

ونعود هنا إلى التذكير بأن أيوب طارش يشفع له كل أخطائه أنه لم يعتبر نفسه محترفا للفن وإنما عاش له هاوياً بدافع قوي من موهبته الأصيلة ولم يفكر أن يحترف الفن وإن قضى في محرابه زهرة شبابه وخير أيامه الفنية.. وإن كان أيوب قد احترف الفن دون أن يدري، لقد أحب أيوب الفن هاوياً ولم يرض عنه محترفا لأن أيوب لم يفكر في الغد وفي أهم انعطافات حياته الفنية آثر الدعة والراحة والانصراف، قرر أن يعيد حساباته مبدداً أخصب أيامه وإن كان قد التقى بتلميذ أو مريد يواصل طريقه فحدث ذلك بعد أن فقد أيوب إيمانه الخاص بالفن.

إن الذكاء الذي توفر لأيوب في التفاعل مع التراث لن يتوافر لغيره في القريب العاجل والشاعر الذي توفر له لن يحظى به موهوب آخر والزمن قل أن يجود بمثلهما، والتكوين الخاص الذي عليه أيوب سلوكاً وعملاً نادراً ما يكون عليه اثنان أو أكثر.

أيوب عاش بعيداً عن الشللية التي قد تفسد روح الفنان الطيب والحقيقي وتوحد مع التراث والشعر الأصيل ومن أخطائه أنه لم يدرك حجم الاصطدام الثقافي بالمدارس الفنية المختلفة من الناحية الإبداعية وإن كان قد تأثر فهو تأثر غير واضح المعالم.. لم يدرك ما يصنعه التنوع الثقافي حتى وإن كان حاملوه ينتمون إلى بيئة أو ثقافة واحدة ولولا أنه تعامل مع التراث بمدارسه المختلفة لقضى مختنقاً.. نقصد أن أيوب في كثير من القصائد وخاصة قصائد الفضول وغيره اعتمد في تلحينها على نفسه وحسب ما نرى فقد حقق نجاحاً كبيراً ولكن سجنه لنفسه في داخل ثقافة أيوب وموهبته لم يكن في صالحه كان يبدو مقياساً مزعجاً أن يطلب مطرب لحناً من آخر على ما يبدو وأنه عجز ضاربين عرض الحائط بالتنوع والتجديد والتكامل وهناك عذر يقف في صف أيوب يتعلق بغياب مشروع ملحن من المدرسة التي أقامها أيوب طارش.. كان هناك في فترة مبكرة من حياة أحمد فتحي مشروع للتلحين لأيوب طارش، كانت آنذاك عبقرية أحمد فتحي قد لفتت الإنتباه وصارحه الفضول بقوله ((ستكون ملحناً كبيراً في المستقبل أما الغناء فأصارحك ستغني ولكن بصعوبة..))

أيوب ليس من المثابرين في علاقتهم بالآخرين بدوافع وأسباب عديدة.. رغم أنه في بداية حياته لحن قصائد وكانت ألحانها لآخرين أيوب لم يكن قادراً على إدراك خلق فرص تعاون مع الآخرين لأنه لم يعتبر الفن تجارة رابحة وإلا لكان قد ساوم وأخرج ما في جعبته من شعر الفضول وخاصة الملحن، أيوب قد لايهمه هذا الأمر في شيء.. ولكن مجموعة من الظروف الموضوعية وغير الموضوعية ساعدت في حرماننا من تنوع أكبر وأغزر من أيوب.

وكثير من القصائد الغنائية المتأخرة ليست سجينة لإطار فني بل هي صالحة لمدارس ومذاهب وبلاد مختلفة في الوطن العربي. وكان أيوب يستطيع أن يمد جناحيه إلى خارج الوطن بالاستغلال الأمثل لإمكانياته.. لأن البعض يرى أن مدرسة تعز الفنية متضمنة التكوين الخاص لأيوب وساكنه في طبقاته الصوتية المتميزة والمديدة والطابع الذي يميل إلى وقار الحزن في صوته.. أيوب لم يكن أبداً أنانياً في الفن بل كان هاوياً معه لم يكن يقبل إلا ما يقتنع به وما أخرجه ولم يرق لنا كان رغماً عنه وتحت ضائقة الإحراج.

أيوب احتاج دوماً إلى من يحثه. ولا يفكر إطلاقاً بلغة السوق التي يفهمها تجار الفن هذه الأيام.. المناخ الفني الذي وجد أيوب نفسه فيه كان بسيطاً والظروف الموضوعية والخاصة للانتشار غير متوفرة، مناخ فيه العرومة والسنيدار وعوض أحمد والمرشدي والحارثي والأخفش ماذا يمكنه أن يصنع.. ويبدو أن أيوب خلق ليقدم لنا ما قدم وكفى.. أما على صعيد الأغنيات الوطنية والأناشيد الحماسية فإن أيوب قد بلغ بها منتهاها ولو توفرت له وسائل فنية مع إجادة في توظيفها والمحافظة على أصالتها ودفئها وحرارتها.. لحقق للوطن هدوءه النفسي بها.. وهي هكذا كاملة وبدا في وطنياته متنوعاً لأنه لم يتعامل مع تراث بل تعامل مع روح القصيدة.

كان الفضول يمتلك موهبة جارفة وأحاسيس ملتهبة ونضجاً كبيراً، كان قد انتصف الخمسينات من عمره. فكتب قصيدته الشهيرة جداً والتي اكتسحت الوجدان اليمني المهاجر بعيداً عن الوطن أو حتى في المدينة ((جنحت واجناحي حديد لاريش)).

وقام أيوب بكل وجدانه المسافر في مدينة صوفيا في بلغاريا وهي المرة الأولى التي يسافر فيها خارج اليمن وهذا كان قبل دراسته في القاهرة على ما يبدو، وأيضا يشير ذلك إلى إقامة علاقة في اللحن والعزف.. قام بتلحين تلك القصيدة التي تذيب قلوب المهاجرين من البكاء ولم تكن مفصلة على أبناء تعز وحدهم بل كانت على مقاس كل اليمنيين بكل أحاسيسهم.. ولي هنا أن أعترف بشيء طالما دعاني للاعتراف به يعتب البعض علي أيوب طارش كسله الثقافي لا يبذل جهداً في الثقافة الفنية ليس مدمناً للقراءة ليس مدمناً على تقليب دواوين الشعراء ولن تشفع له ذائقته الممتازة إهماله لتطوير أدواته الفنية والقولية.. لقد صارحني أحدهم يوماً بالقول:

((أيوب طارش مطرب غير مثقف)) وبغض النظر عن مفاهيمه للثقافة.. لكن الحقيقة أن أيوب طارش مثقف بطريقة خاصة ولن يكون هو صاحب أكبر وزر في قصور ثقافته الفنية لأن البيئة التي عاش بها.. تركت بصماتها عليه لم يسع أيوب إلى الشهرة ولا النجاح كما يفعل غيره اليوم في الخليج ومصر.. بل هي التي جاءت إليه.. وخطأ أيوب افتقاده لدبلوماسية العلاقات مع الآخرين لم يعرفوا طبيعته الخاصة. ومكوناته الوجدانية.. والتركة التي مازالت باقية كبيرة ولم يأت بعد من يعمل بها.

إن إحساس أيوب الشديد بالنهاية التي تمثلت له بشاعره المفضل جعلته يعيد حساباته منذ وقت مبكر.. قد لا يكون للأمر علاقة بالمادة إطلاقاً وإنما أخذها أيوب مبرراً أمام المنتفعين به مادياً ولم يجد الشاعر الذي يملأ نفسه كما فعل الفضول، كانت السنوات العشر الأخيرة في حياة أيوب هي نوع من التصوف، إحساسه الرقيق لم يجعله قادراً على الصمود أمام ما يطلقه عليه بعض اللابسين رداء الدين.. أعتبر أن خطأه في قصيدة عبد الحميد الشائف ((صابر صبر أيوب)) بمثابة جرس إنذار حتى أنه تحول بعدها مشكلة أيوب أنه يثق بمن يظهر له الحب وإن كان حباً من ورائه فائدة.

أعتبر أيوب السنوات الكثيرة التي مضت وقفة لمراجعة حساباته أو محاسبة للذات وهو مقتنع تماماً بسمو الحب الذي يتحدث عنه وفي نفس الوقت يعيش صراعاً نفسياً بسبب ما يلقى إليه من فتاوي ونصائح على هيئات مختلفة، يعيش صراعاً بين قناعاته وبين ثقته بقناعاتهم يعيش صراعاً بين متطلباته الاجتماعية واعتقاداته الدينية أيوب غير قادر حتى الآن على تحديد خياراته بين الفن أو الدين رغم يقينه بأنه لم يخطئ في فنه أو طريقة تقديمه له.

أيوب يعتقد اليوم أن ارتباطه بالفضول قد يكون جلب له بعض المتاعب.. فهناك بعض المقربين من الفضول يشيعون بدافع الحقد بأنَّه لم يكن وفياً مع الفضول وشعره مع أن بعض القصائد ملحنه، بغض النظر عن الخلافات المادية مع ((بعض)) أبناء الشاعر وليس جميعهم وأن المسائل المادية يمكن أن تحسمها جهات على دراية بشئون الفن وماهو لهؤلاء أخذوه، وما ليس لهم تركوه.. بينما يرجح البعض بأن الأمر له علاقة بحدة الجشع حول المقابل المادي للقصائد الشعرية وأن القضية دخلت في باب العناد والتحدي بين الطرفين وأن الخسران هو الناس وكأن الجميع اتفقوا على خيانة عبد الله عبد الوهاب نعمان.. ولعلني لن أنسى تلك العبارة التي قالها الفضول في سنواته الأخيرة نقلها أحد المقربين منه.((إن أكبر خديعة تلقيتها في حياتي هي خديعتي....)) بل خدعه حتى الوطن بينما يلقي البعض باللوم على أيوب طارش لأنه – حسب قولهم – اعتاد على قصائد مجانية وقد تكون الحقيقة غير ذلك كله.. قد تكون انطفاء التوهج الذي كان في النفس عندما سمعت أيوب يعيد تسجيل بعض أغنياته أو تجديدها لم يكن أيوب يعيد تسجيل بعض أغنياته أو تجديدها لم يكن أيوب الذي أسمع كان إنساناً آخر حتى أنهم أعادوا طبع التسجيلات القديمة وسحبوا المجددة من الأسواق.. أدركت أمراً واحداً هو أن قلب أيوب قد توقف، أنه فقد إيمانه برسالته الفنية التي خطها له الفضول، وأنه لم يخطط ليكون ما حدث وإنما الأقدار ساقته إلى ذلك الطريق ولذلك فهو يعتبر نفسه هاوياً وليس محترفا، وحتى الآن لم يدرك أيوب أنه لم يغو أحداً ولم يمنع أحداً من دخول المسجد ولم يقدم ما يشين وأن عطاءه الفني للوطن كان يجب أن يستمر، هناك قصائد مغطاة بالعاطفة وهي سياسية وأيوب بدا متحفظاً عليها وأنه مندهش لجمالها مثل قصيدة ((غدار)) أنا لا أعتقد أن أيوب قادر على أن يرد على بعض الموتورين إلا بإثبات العكس لهم.

وهناك أمر آخر يتعلق بصوت أيوب وهذا سنفرد له فصلاً خاصاً به فمازال أيوب يحتفظ بدرجة عالية من نقاء صوته لكنه عندما لا يكون مؤمناً بما يفعل أو سيفعل سنعتقد العكس، وهو ليس في سنوات متقدمة من عمره.

مشكلة أيوب الحقيقية أنه لا يواجه ويبقي آلامه في داخله، وأنه يتّسم بالغموض وبالدهاء أحياناً وبالتواضع إلى حد كبير وإن كان مقلاً في الكلام فهو قادر على تحديد ما يريد بقليل من الألفاظ.

ومع شعوري بأنني كنت قاسياً للغاية أحياناً مع أيوب طارش لكنها قسوة المحب وأيضاً من العيب أن نبقى صامتين دون مواجهته بأخطائه، وألا نكتفي بمدحه.

إن أيوب يستحق المدح كإنسان وفنان ولكنه أيضاً في إطار الواجب الفني يجب أن نوجه إليه النقد وإلا متى سوف نتحدث عن أخطائه؟.. أو لعل مواجهته بأخطائه التي يبدو أنه لم يعد يؤمن بما يتعلق فيها أفضل كثيراً من إظهارها بعد غيابه.. لا قدر الله.

إنني أريد أن أقول إن أيوب طارش كان في حاجة شديدة لمدير أعمال ينظم له علاقاته وأعماله الفنية منذ وقت مبكر ليتفرغ هو للعطاء الذي كان سيجد نفسه في مواجهة مباشرة وهنا فقد تتجلى مواهب أيوب طارش الكبيرة.

شيء ما يعيدني إلى التركيز على بؤرة نفسية هامة في صورة العلاقة بين أيوب والفضول على الرغم من معاصرة الفضول لأسماء غنائية كانت واسعة الانتشار لكنه لم يفكر في التعامل معها مثل علي الأنسي والمرشدي والأخفش وأحمد قاسم وغيرهم هنا وهناك.. فقط أعطى لرجاء باسودان قصيدة ((شق البحر شقه)) على مافيها من ركاكة أو أنه لم يكن بعد قد عشق أو أنه لم يكن قد أدرك موهبته تماماً.. ثم لماذا بعد ذلك لم يتعامل مع الأنسي مثلاً وهو كان جديراً بذلك..

لماذا أيوب الوحيد الذي شده بصوته ولونه وخصوصيته وسعى إليه؟ هنا التكامل الفني والروحي والإنساني.. أيوب كان مؤمناً بعبقرية الفضول الشعرية ولكنه آمن بها أكثر بعد موت الفضول بينما الفضول آمن بموهبة وأصالة أيوب من الوهلة الأولى التي سمعه فيها.. هل كان الفضول يفكر في إرساء دعائم مدرسة تعز الفنية وهو يقتصر على أيوب؟ أم لأنه – أيوب – يلبي المزاج الفائق والخاص للفضول.. لقد كانت بينهما علاقة إبداعية وفنية وروحية.. لقد كانت هناك عوامل هي التي تصنع هذا الثنائي الجميل في حياتنا ونحن في حاجة لنبحث فيها بحثاً منهجياً وعميقاً.. لاعتقادي أن لدى أيوب الكثير ليقوله لنا لنكون قادرين على الصياغة العلمية والتأصيل المنهجي للأصول التي قامت عليها مدرسة تعز الفنية..

لماذا لم يكتب الفضول لأبي بكر سالم وعبد الرب إدريس وتلك الأسماء العديدة..؟

ألا يرجح نفي هذه الأسئلة لما ذهبنا إليه من تفكير خاص بتأسيس لمدرسة تعز الفنية.!

الباب الأول

وادي الضباب

قد يفزع القارئ من هذا العنوان متأثراً بفجأة إقحام الطبيعة بالأسماء، وإقحام الزمن بما يلوح قريباً من القلب .... قرب وادي الضباب من قلب القارئ الذي تربطه السنين التي ارتبطت بالذهاب والإياب خلال السفر أثناء الرحيل والترحال، وسفر الروح في الطبيعة الرائعة التي (كان) عليها وادي الضباب، فتبقى تلك الصورة بل وتلك الصور وتلك اللوحات التي رسمها الله سبحانه وتعالى في وادي الضباب .... فلا يبقى في قلب الغائب عن أرضه إلا نبض التعلق الوجداني والروحي بوادي الضباب وما وراء وادي الضباب مثل وادي المسراخ –وادي الكلائبه– وادي محجر –وادي ابن خولان –وادي نهر البركاني –وادي الصافية .... وكل الأودية التي تنساب المياه فيها كما تنساب الروح في الجسد، فتبعث الحياة والخلود والشعور بكل ما فيها من جمال وفن وخضرة وجمال الطبيعة الساحر الذي كان يعوض الإنسان اليمني عن قسوة الحياة والناس والحكام من الأئمة وأذنابهم ... وحتى لا نذهب في مذهب سنأتي أليه عبر رحلتنا الرومانسية التي ألهمتنها القيام بها (حبيبة) تمنت علينا أن تسمع وترى الأرض التي أنتمي إليها والجبال التي نصعد الى قمتها الشماء، والآبار التي نشرب منها، والبيوت التي نسكن فيها و ... و..... الخ، فما كان لنا من خيار إلا أن ندعوها إلى أرضنا وقريتنا و أنهارنا و آبارنا وأغنامنا وأبقارنا وأمطارنا ومزارعنا وسيولنا ولما كانت الزيارة عصية، والأمنية أضغاث أحلام، أو أحلام حب وهيام وشباب ومستحيل ..... أهديناها كل ذلك في هذه القصائد التي نسجها الفضول من غربة روحه وأشواق نفسه الى قريته .... (مدارب السيل –جنحت وجناحي – قلبي يسائلني عليك – طاب البلس – إن كان قلبك قنعني – أذكرك والليالي – هيمان ..... و ..... و .....الخ وسنأتي على كل ذلك وحتى لا نوغل في طريق لم يأت بعد.... نعود إلى وادي الضباب.

إن الفضول (عبدالله عبد الوهاب نعمان) ... وهو يغادر قريته ومسقط رأسه والأرض التي نهل فيها أول معارفه. و استنشق هواءها الذي ظل باعث أشجانه حتى النهاية. وكل من مر في؟ ذهابه؟ يحس أن وادي الضباب هو آخر الأودية التي فيه يشعر بنقاء الهواء القريب من مسقط الرأس، وفي الإياب يحس الإنسان كأن لوادي الضباب هواء يتميز به

وحده دون سواه .... من أودية الأرض قاطبة، لأن وادي الضباب (نصه سيول والنص دمع الأحباب)[1] ولآن الفضول ... خرج من بين أفنان و أغصان وأنهار كل الأودية التي ذكرناها من قبل وكان آخر الأودية هو وادي الضباب ... في رحلة عملاقة مع الوحدة والقسوة والبطش والظلم والثورية والعنف و النضال والاغتراب وتساقط رؤوس الشهداء .... وعلى رأسهم رأس أبيه الشيخ الوقور المحب لابنه المحب – عبد الوهاب نعمان ... فكانت هذه الدروس الأولى أعنف الدروس الوجدانية للفضول ولم ينس الفضول روعة وادي الضباب على مدى مسيرته التعليمية والثورية والشعرية والإنسانية، فظل هذا الوادي معلم بارز من معالم الاغتراب، وفي نفس اللحظة يمثل أملاً عظيماً يراود كل من يدعوا الله أن يعيده إلى أهله وأحبابه ودياره وقربته .... مهما تباعدت الأمكنة وشطحت بقرونها الأزمنة ..... ولأنَّ الغياب محفور في وجدانه وأثر هذا الغياب والسفر منقوش على جدار قلبه، فما إن طلب منه رفيق دربه أيوب طارش قصيدة تذكره بوطنه وأرضه أثناء غربته أو رحلته القصيرة الى صوفيا – إحدى العواصم الأوربية – ليعمل على تلحينها بما يتناسب مع مشاعر المغترب تماماً، ولأن الشاعر موهوب وابن قريته التي ما غادرت خاطره الذي أرقته السنون فما أسرع ما تجاوبت أشجانه مع هذا الطلب المعبر عن حس فني بديع فكانت هذه الأبيات (التي نعشق أداءها).

جنَّحتُ واجناحي حديد لا ريش فارقت أرضي حيث أحب واعيش
لا أين لا أيِّ البلاد مدريش كوخي حديد غنيَّت ما سمعنيش

حديد من أين للحديد يطرب
حديد لا ذاق الهواء ولا حب

لاشئ في روحي سوى اشتياقي للنهر للرعيان للسواقي
ولهفتي لفرحة التلاقي لمن فؤادي في هواه باقي
شاعود للخلان والأحبه شاعود يكفيني شجن و غربة
شاعود للأشجار والعصافير ملونات الريش والمناقير
وللحمام البيض والشحارير وللمواشي السائمات والبير

راجع لشمس الصبح والمغارب راجع لبرد الظل في الشواجب

شُبَّابه الراعي افصحي وهاتي ورددي لحني واغنياتي
لفجر عمري لصبا حياتي لقريتي لجدولي لشاتي

(١) أنظر لقائنا مع ملهمة الفضول عزيزة النعمان – قصة هذه القصيدة

هنـــاك أحلامـــي وزرع حُـــبيٍّ هنـــاك الهـــامي ووحـــي قلـــبي[١]

هذه الأبيات الفنية رائعة التصور، بديعة الصور، قريبة إلى ذهن القارئ والسامع، مجسدة لمشاعر الأشواق التي تعتري البعيد عن وطنه وأرضه ..... ولأن مغادرة الوطن أمر غير يسير، وهو أمر صعب، ولا يطمح إليه إلا المضطر والمحتاج واللائذ والهارب والباحث عن فوائد السفر السبع التي ذكرها فيلسوف المغرب العربي أو عن الفوائد الخمس التي أوردها الأمام الشافعي ... ومع ذلك فلسان حال المفارق طوعاً أ وكرهاً:

((بلادي وإن جارت على عزيزة وأهلي وإن خابوا على كرامُ))

كما قال الشاعر أبو السمح الخولاني.

ولأنّ، المفارق والمغترب والمهاجر أضطر الى هذا الفراق فإنه صنع له أجنحة من الحديد بدلاً من الريش الطبيعي، ولأن هجرة الإنسان للحث عن الأفضل من أجل العيش كهجرة الطيور الباحثة عن الحياة الكريمة .... فيتحدث الشاعر على لسان الطائر المفارق الذي فارق أرضه التي يحبها ويعيش في أحضانها، دون علم بوجهته التي ينتويها، ولأن هذا الطائر له أجنحة من حديد فإن عناءه ومطالبه العادلة التي يبحث عنها ويطالب بها لا يسمعها أحد ... ولأن هؤلاء الحكام (الأماميين) من حديد فمن أين للحديد أن يطرب للغناء، فالحديد لم يذق الهوى ولم يعرف الحب .... ولأنني هكذا، فلا شيء في روحي سوى اشتياقي للنهر للرعيان للسواقي، وهذا هروب من الواقع المرير والمؤلم الى أحضان الطبيعة (النهر – الرعيان _ السواقي – الأشجار – العصافير الملونة الريش والمناقير – الحمام البيض – الشحارير – المواشي – الآبار – شمس الصبح – شمس المغرب (إشراقة الصبح وسحر الغروب) – برد الظل في شواجب وزوايا المدرجات الزراعية – شبابة الراعي بألحانها وأغانيها ومواويلها – لفجر عمري – لصبا حياتي – لقريتي – لجدولي – لشاتي – حيث الأحلام وزرع الحب، حيث الإلهام ووحي القلب؟؟؟ كل هذه المفردات تحتوي على تفصيل دقيق وواضح لحياة الشاعر الأولى حيث مسقط رأسه وحيث تفتحت عيونه على تلك التفاصيل المتكاملة في لوحة شعرية وغنائية عارمة الأشواق، إلى تلك الحياة التي نادى بها الشعراء الرومانسيين وقدسوها واعتبروها المنقذ من غربة الروح في منهل الحياة القاسية، وجعلوا منها مصدر إلهامهم حيث زرعوا حبهم في تلك الطبيعة، واعتمدوها موحياً إلى قلوبهم الهائمة في الأحلام والإلهام، وهذه اللوحة تجسد ما وصل إليه الشاعر من إحساس بالألم من الحياة التي انتهت إليها أماله العاثرة وأماله التي مزقتها صدمات الواقع الذي صار فيه بعد تلك السنوات الطويلة من النضال والكفاح والتضحيات الغاليات التي

(١) الجمهورية الثقافية – (من الدندنه إلى المأذنة) ص. ١٥– ٢٨/ ٨/ ٩٧م.

أيقن الشاعر أنها ذهبت هباءً منثوراً ... والإنسان عندما يصل الى طريق مسدود لا يسعه إلا أن يقفل عائداً إلى أحضان الطبيعة التي ترعرع فوق أعشابها واستظل تحت أفيائها الباردة، وارتوى من جداولها وآبارها التي تترقرق بالعشب والضفاف وكأنها همس من النعيم ... ورغم ذلك فالشاعر يجسد روح الانتماء الى الأرض كأروع ما يكون عليه التجسيد المتكامل فلم ينس نفسه بل أعطى للناس أجمل ما يأملون ... فشاعرنا ظل ظامئاً حتى آخر رمق من حياته / فهو هيمان حتى لو يسكن السحاب، وسنتناول الظمأ العاطفي للشاعر في باب خاص به فيما بعد.

وسنة الحياة تدفع الناس الى مغادرة أرضهم وديارهم ليضربوا في مناكب الأرض وليبتغوا من فضل الله، وكثيرون من الناس قضوا نحبهم بعيداً عن الأرض التي ربت فيها أحلامهم ونمت فيها آمالهم، وزرعوا فيها بذور الإلهام التي ينتظرونها لتكون مصدراً لإلهامهم ووحي قلوبهم النابضة حيث الأرض والطبيعة والحياة.

وروعة الشاعر وعمق موهبته وصدق إحساسه تجلت في سرعة خاطره وقوة بديهته ولماحة فكره التي جعلته وفي أسرع وقت ممكن ينظم هذه الأبيات التي يحس الإنسان العادي بقربها منه، وكأنها تتجسد فيه، وكأنه هو بلحمة ودمه وأشواقه وأفراحه وأحزنه ،آهاته وأمانيه؟؟؟ولأن المعاناة غير بعيده عن متناول اليد، فلم تكن تلك الكلمات السهلة والممتنعة معاً وليدة لحظة او مصادفة أو فن على طريقة المقاولين الجدد ... لأن معاني القصيدة محفورة في جوانب المعاناة، ولم يتبق إلا أن يطلب الشاعر ألفاظها وهي غير بعيدة والشاعر ابن بيئته، فبقدر ما بسط الكلمات فإنه عمق المعاني فكان العمق في النفس وفي القصيدة وفي اللحن وفي الصوت فاكتملت وسائل الارتقاء بالمعاناة التي صدرت عنها والمعانة التي تلقتها ... ولذلك يحكي بعض بل كل (المهاجرين والمغتربين و ...) بأن سماعهم لتلك الأبيات يصنع لهم عالماً في نفوسهم – كما يتمنون – فيعيشونه في نفوسهم، وتعيش فيه أنفسهم، فيسحون _ ولو لدقائق _ أنهم لم يغادروا قراهم ولم ينسوا أغنامهم وأبارهم وشبابه الراعي و الحمام البيض والشحارير والعصافير ذات المناقير الملونة والريش البديع الألوان، ولم ينس الشاعر تلك المفردات التي تجعلك تحس وكأنه لم يدع معلماً من معالم حياة الريف إلا وجاءه وأوصله إليك وهنا قدرة الشاعر، لأن الشاعر لا يمكن أن يجمع كل ما حوله، و موهبة الشاعر حينما يريد إدخالنا عالمه أو أن يدخل عالمنا فإنه يكتفي بما يجعلك تحس كأنك تعيش حيث تسمع ويجعلك تتخيل كلماته وهي تتحدث معانيها وتريك خطوطها وكأنها لوحات فاتنة، تخرجك من أحزان وآلام نفسك لتدخلك في عالم معانيها، برغبة في الدخول أو رغماً عنك، فالداخل في تلك المعاني مولود والخارج منها مفقود، فكانت هذه الأبيات لحظة دخول الشاعر في عالم كان قد خرج منه قبل أعوام. وكان الباب الذي خرج منه هو

وادي الضباب ... ولكنه رغم قربه منه فقد ظل يشتاق إلى أفيائه وأندائه وأحيائه من الناس الذين أثبتوا جدارتهم ببقاء الشاعر لهم (ولهفتي لفرحة التلاقي بمن فؤادي في هوه باقي – شاعود للخلان والأحبه _ شاعود يكفيني شجن وغربه) وهي كلمات تتحدث عن بعض الذي نكثوا بعهودهم عن مواصلة النضال والدعوة الى الخير، واشتياقه لمن ظلوا على عهدهم، وفيها أيضاً دعوة لمن هم خارج اليمن بالعودة التي ستغنيهم عن الشجن والاحتراق بنار الغربة ... وفي كثير من القصائد الغنائية للفضول، نجده يعرِّض بالذين تخلوا عن واجبات النضال وتنكروا لتضحيات الرجال ....

كم شهيد من ثرى قبر يُطلّ ليرى ما قد سقى بالدم غرسه
ويرى جيلاً رشيداً لا يضلّ للفداء الضخم؟؟ قد هَيأ نفسه
ويرى الهامات منا كيف تعلو في ضحى اليوم الذي أطلع شمسه

ولأن الفضول خرج من وادي الضباب – كما قلنا – ولم يعد إلى مسقط رأسه مجازاً، فقد ظل وادي الضباب مصدر إلهامه الكبير لأشواقه الوجدانية و أشواقه الإنسانية بدعوة الناس إلى أرضهم التي تركوها لنار الهجرة والفراق هكذا:

لمع البروق على جبال الاحيوق خلّي الجبال تنزل رماد مسحوق
هذي الجبال الشامخات الاركان من خلفها وجه الحبيب قد غاب
وادي الضباب ماءك غزير سكاب نُصَّك سيول والنُصْ دَمع الأحباب
نُصَّك دموع من عين كل مشتاق تجري على خَّده دموع الأشواق
مثلي أنا والعاشقين مثلي كم أطلقوا نهر الدموع قبلي
قد ذبت من شوقي وحر ناري لا الليل لي ولا النهار نهاري
يبكي معي ليلي وضوء فجري ودمعتي تشكي ضياع عمري
أبكي، أهيم وأئن من جراحي ونهدتي تمتد الى صباحي
يا نهر يا وديان يا سوائل قلبي يهيم بعد الحبيب يسائل
لو فاتني شاموت عليه وافوت واسكب على روحي رصاص وباروت
إنْ كنتْ من حظّي ومن نصيبي لا بد ما ألقاك واحبيبي
واعيش لك ونسى معك شجوني واصون هواك واغمض عليك جفوني[1]

وهذه الأبيات تمثل نقلة نوعية جديدة في حياة الشاعر ليس على المستوى العاطفي بل على المستوى الوطني أيضاً، فالشاعر بعد أن اتضحت له معالم عصر جديد وأن خروجه الأول فقد معانيه، وأن لكل عصر دولة ورجال ... فقد تحول الشاعر إلى خط جديد يتعلق

(١) الجمهورية الثقافية (من الدندنه الى المأذنه) ص: ٩٧/٨/٢١/١٥م

بالإنسانية، لم ينس خطة ومنهجه الوطني الذي بدأه منذ وقت مبكر، فلا يوجد فارق أو اختلاف بين المنهج الوطني من أجل الإنسان والمنهج العاطفي من أجل الإنسان أيضاً، ورغم الانتماء الوطني العميق وأيضاً الانتماء العاطفي العميق أيضاً، إلا أن الفضول ظل يرنو إلى الفوز المبين الذي يحلم به بين الأخوان، ألم يقل وهو يمد يده معاهداً الزبيري والموشكي:

ستعانقُ الفوزَ المبينَ نفوسُنا حتما كما يتعانق الأخوان

وقال الزبيري:

بالله بالدين بالأوطان لَنُحَطِّمَنَّ معاقلَ الطغيانِ

وقال الموشكي:

ستطير أرواحنا إلى أوجِ العُلى أولاً فأرواحُنا إلى رضوان

وعندما دالت الأمور وتغيرت طريقة العمل، وجدنا للعواطف طريق شائك في درب الفضول ...

ولكن ألا يتساوى حب الوطن مع العمل على الارتقاء بأحاسيس وأذواق الناس؟! كان الفضول يقدس الكلمة الجميلة والمعنى الرائع واللفظ الموحي والجزالة المشرقة، كان مطبوعاً على عشق جمال الطبيعة التي عاش فيها و ترعرع بين شعابها. والمطبوع على عشق هذا الجمال و على تقديس معانيه فإنه يكون معتنقاً وعاشقاً لكل جميل (كن جميلاً ترى الوجود جميلاً) وهذه القاعدة الفلسفية هي من الأصول الثابتة في نفس الفضول، فجمال نفسه مشرق كإشراقة الصبح وسحر الغروب. وكانت نفسه تهفوا الى الجمال المثالي – فكأنه يرى كل شيء بمنظار جميل وكان يستأ عندما يسمع كلمات رديئة وتشبيهات قبيحة ومعاني فاسدة وحروف متنافرة.. كما حدث أن كان أيوب طارش يغني هذه الكلمات:

يا خو القمر شلوك قبال عيني مازاد وقف دمعي ولا حنيني

وسمعه الفضول،

فأخذ الورقة التي كانت مكتوبة عليها هذه الأبيات قائلاً: (أيش هذا الكلام أخذوك قبال عيني وأنا أتفرج ... ارجم ... أرجم)، وطلب منه أن يغني هذه الكلمات: (طال الفراق) – على نفس اللحن والوزن – في اليوم التالي:

طال الفراق وانا اليك مشتاق صابر وصبري يا حبيب قد ضاق
أظمأ وتسقيني الحياة أشواق واضحك نفاق والقلب ملئه احراق
أين الحنان خلّيتني مُضَيَّعْ أشتي أمان من تحت دارك أجزع
شاعطيك من روحي سلام مُربَّع وارش طريقك بالدموع وارجع
ظنيتني شانساك خاب ظنك أمسي واحلامي بعانقنَّك
وأصبح واشواقي يدورنَّك واسمع دموعي يسألين عنَّك

أصبحت أنا كلـك وأنـت كُلّـي فـأين تـولي أنـت وأيـن أوليّ
ما اشتيش وطن ولا أهيل يقـع لي حُبَّكْ وطـن قلـبي وأنـت أهلـي[١]

وبالعودة الى قصيدة وادي الضباب الغنائية، فنحن عندما نستقرئها نجد فيها الهروب الحاد إلى أحضان الطبيعة (لمع البروق _ الجبال الشامخات التي يختفي وجه الحبيب خلفها أو تختفي الأمنيات خلف تلك الجبال الشامخة ... حيث صعب المنال، ونال الجهد من الشاعر منالاً عظيماً ... أمام هذه اللوحة أو الصورة المستحيلة للواقع الإنساني والوطني والعاطفي.. لجأ الشاعر الى أفياء وادي الضباب حيث الماء الغزير الذي يجري، وخرير مائه تهز أعصاب قلب كل مسافر ومهاجر ومفارق للوطن والأرض، وهذه المياه تجمعت من أتجاهين، الاتجاه الأول من السيول التي تنهر من السماء ومن رؤوس الجبال ومن الأودية والشعاب والاتجاه الثاني من العيون التي تفيض_مثل المطر_ بدموع الفراق والبعد والألم والوحشة والوحدة، والأحباب لفظ يجمع من رحلوا ومن ظلوا وجمع بينهم الحب الكبير، وأرتوى بدموعهم وادي الضباب وينادي الشاعر وادي الضباب. ويؤكد ... (نصك دموع من عين كل مشتاق) هي دموع وقد تحولت الى دموع الأشواق التي تكوي الجوانح، والشاعر مثله مثل كل العشاق الذين أرهقوا وسكبوا نهر دموعهم من قبل ومن بعد، وقد ذابوا من أشواقهم وحرارتها، حيث تبدلت الليالي وتقلب النهار رأساً على عقب وتتابع الصور الفريدة والبديعة والتي نسجتها مخيلة الشاعر بفرادة وموهبة رائعة وحس فني دقيق حيث يبكي الليل وضوء الفجر حتى أن الدموع تشكو ضياع العمر.. فما هو ضياع العمر عند الفضول؟! أليس ضياع العمر هو ضياع تلك التضحيات الغاليات التي لم تحقق آماله الوطنية الكبيرة و هل ضياع العمر يكون بفقدان الإنسان للحبيب أو الحبية؟!.

أن الإنسان إذا أحب ذاب من فرط الهوى، وإذا فارق نسى من يهوى وضياع العمر يكون بضياع الأماني والأحلام الكبيرة التي تتسع لكل الوطن ولكل من يعيش فوق وتحت سمائه.

فالشاعر يمشي ويهيم ويئن من جراحه العميقة، ونهدته تمتد إلى الصباح... وهذا كله من قاموس حب الوطن وحب الإنسان أيضاً.. ولكن ما أسرع ما ينسى الإنسان حب الإنسان و يبقى حب الوطن إلى نبضات القلب الأخيرة ....من الحياة القصيرة ... وهنا هروب عنيف إلى الرومانسية في وادي الضباب كما فعل قبله الشابي وفيكتور هوجو الذي بدأ حياته واقعياً ثم قضاها سيداً للمذهب الرومانسي في أوروبا، (يا نهر يا وديان يا سوائل، قلبي يهيم بعد الحبيب يسائل) ... ترى أي حبيب هذا الذي أوصل صاحبه إلى أن يسأل عنه الأنهار والوديان والغيول (والسوائل)[٢]؟!

---

(١) الجمهورية الثقافية (من الدندنه إلى المأذنه) ص: ١٥ / ٩٧/٨/٢١م
(٢) جمع سائلة وهي مكان يشبه مجرى النهر .

الحبيب هو الوطن رغم ما قد يتضح جهاراً بأن المفقود هو حبيب وليس وطناً ولـذا نقول وما الفرق بين الحبيب والوطن؟!

ولكن ما الذي دعاني إلى مثل هذا التأويل الذي قد لا يرضي البعض؟!. أقول دعاني إلى هذا ... هذه الأبيات من الفيروزه أو من دموع العندليب:

أيـن أشـواقنا و أيـن هوانـا كيف سرنا الى الـدُّجى مـن ضُـحانا
أين ما كـان فرحـةً تمـلأُ الحـسَّ كأنَّـا بهـا نزلنـا الجنانـا
ووعـائين فيـه مـن أخـضر اليـاقوت –كنَّـا–وضـوءهُ محتوانـا
بـدءُنا –كـان حبُّنـا – فَلِـمَ قـد جعلنـا فُراقـه منتـهانا؟
والهـوى كـان أمنُنـا فغـدرنا بهوانـا حـتى فقـدنا الأمانـا
وقـسمنا الـدموع ارثـاً حزينـاً بـين أشـواقنا وبـين منانـا
سوف نبقى بعد الهـوى يـا حبـيبي لا نلاقـي علـى ظـلال مكانـا
وسيمشي مـع الندامـة والأحـزان في ذمـة الـضياع كلانـا
لا نلاقـي لنـا حيـاةً ولا الحـبُّ يلاقـي حياتـه في سـوانا
وسنمـضي في غربـة وسـيبقى حُبُّنـا كالـضرير حـتى يرانـا
يـا حبيبـاً بـه هزئـتُ بحـزني وتمزقـتُ بعـدَهُ أحزانـا
ثـروةً كنـتَ في يـد الحـب كـأنِّي بهـا ملكـتُ الجنانـا
وثـرآءت مـن النفـائس نفـسي تحتويهـا جـواهراً وجمانـا
لم يعـد منـك لي ولا لـك مـني غـير أطلالنـا. وغـيرُ بلانـا
أو نـدى أدمـع نحـاول أن نطفـئَ أشـواقَنا بهـا وجوانـا
لن تعيـدَ الـدموعُ حبـاً غـدرناه وقـد أجهـزت عليـه يـدانا
نثرتنـا الريـاحُ لليـل لا نعـرف فيهـا بـأيِّ فـجٍ رمانـا
كبريـاءٌ مـني ومنـك أطعناهـا فجئنـا ضـلالنا مـن هـدانا
خـدعتنا الظنـونُ أنَّـا بهـا أكـبر مـن حبنـا وأكـرم شـانا
ورأينـا علـى الحقيقـة أنَّ الحـب مـن لوحـه العظـيم محانـا
وسـقطنا مـن الـسماء وقـد كان علـى وجـه فجرهـا مـستوانا
وسـرحنا في ردة واكتـسينا بـدل الـضوء مقتـها واكتـسانا
وذبحنـا أشـواقنا ومـشينا فـوق أشـلائنا وفـوق دمانـا
ورزحنـا تحـت الخطيئـة في الأ رض كأنـا بهـا صـلبنا أبانـا
لا نـرى مأمنـاً ولـو أن للغفـران أرضـاً لكـان عنـها نفانـا
كم رهنَّا للحـب أن يقهـر الكـبرَ فينـا ولكننـا خـسرنا الرهانـا

وتركنـــا الظـــلال تبكـــي علينـــا بعـــد أن كـــان فيئُهـــا ملتقانـــا
وهجرنا الضحى –وحيـــداً – وقـــد كـــان حبيبـــاً لنـــا وكـــان أخانـــا
والبقـــاع الـــتي ألتقينـــا عليهـــا لم يعـــد عطرنـــا بهـــا حيـــث كانـــا
فـــإذا زارَ وجهَهـــا عنـــدليبٌ أســـبلَ الـــدمعَ فوقهـــا وبكانـــا
ورأى البـــومَ والزواحـــفَ والـــ أشـــباح تـــأوي بحيـــث كـــان هونـــا
مزقـــت طيلـــسانَها الريـــاحُ وقـــد كـــان عليهـــا ريحانُهـــا طيلـــسانا
وغـــصونُ الحُـــزام جفّـــت ومـــا عـــاد علـــيهن يـــا حبـــيبي نـــدانا
والفراشـــات لم يعـــدن يـــلا قـــين بهـــا سوســـناً ولا أقحوانـــا
وعيـــونُ الظبـــأ تـــسرحُ في كـــل اتجـــاه لعلـــها أن ترانـــا
واذا مـــا سمعـــن خطـــواً تنـــصّتن عـــسى أن تكـــون تلـــك خطانـــا
لـــو فقرنـــا مـــن الوجـــود وكـــان الحـــب عـــد عـــاش بيننـــا لكفانـــا
لم يكـــن مـــا بنـــا مـــن الحـــب إلاّ لؤلـــؤاً ... فوقهـــا أدرنـــا رحانـــا
كم ملأنـــا الحيـــاةَ زهـــراً وعطـــراً وهنـــاءً، ونـــشوةً، وافتتانـــا
وأضـــآءتْ فينـــا البـــشاشةُ فجـــراً ضـــوءهُ فـــوقَ كـــل ضـــوء أتانـــا
وكأنّـــا نعـــيش في العمـــر عمـــراً أخـــضراً لـــيس فيـــه إلا صَـــبانا
فكفرنـــا بنعمـــة الحـــبِّ كفـــراً كـــان مأســـاتنا وكـــان أســـانا
إذ صغرنا بـــه علـــى الحـــب كـــبراً فانتـــهينا حرائقـــاً ودخانـــا
وهوينا مـــن الـــسماء وقـــد كـــان علـــى وجـــه فجرهـــا مـــستوانا
وســـقطنا علـــى التـــراب رمـــاداً بـــل وأدنى مـــن الرمـــاد هوانـــا
والمحبـــون أهـــونُ الخلـــق في الخلـــق إذا كـــان فـــيهم الحـــب هانـــا[1]

*** ***

كانت الدماء والجماجم أبرز ما في تلك التضحيات ... وهذه القصيدة الموسومة بقصيدة (الفيروزه) هي اسم على مسمى، لأنها فيروزه الفضول من حيث أنها ملتقى أفكاره وهمومه وأحلامه و أشواقه وجبه الكبير وهي في نفس الوقت الدليل الكبير على أن الفضول لم ينسحب من الواقع الراهن الذي صار فيه بل استمر بأشعاره التي أصبحت لها قسماتها وسماتها الخاصة و الفريدة والتي تتحدث بلسان وحال شاعر أمتلك أدواته بدقة، و أستغل موهبته أحسن استغلال، وأمتد بأبيات قصائده التي نشرت في ديوان الفيروزه.

وتضمن الديوان في حدود (١٣) قصيدة ... بنفس شعري طويل وقوي وموسيقى عميقة وهمٌ كبير.. وهذه القصائد تمثل نضج التجربة ومرحلة السيطرة المطلقة على المعجم

(١) ديوان الفيروزه – ص ٢٩-٣٤.

الشعري الذي ينتمي إليه الفضول برومانسية مفعمة بالألم وبالأمل الذي كان بين يدي الشاعر فأفلت مه ومن كل الناس ... عام ١٩٤٨م.

ومن يقرأ ديوان الفيروزه يصطدم بصعوبة فتح باب الدخول إليه، وهذا ما دعا عبدالعزيز المقالح الى القول بأنه الاختيار الذي ظلم الفضول لأنه أحتوى على قصائد غير معروفه وغير القصائد الغنائية، والحقيقة التي يجب عدم إغفالها أن ديوان الفيروز عالم من عوالم الشعر. ولو لم يقل الفضول غيره لكفى... لكن الديوان يحتاج الى قراءه عميقة، وهانحن بدأنا المشوار من القصيدة التي تحمل أسم الديوان... فأين الاختيار الذي ظلم الفضول؟! وهل حاولنا قراءته مرات عديدة؟ وهل حاولنا أن نفهم دون أن نترك أنفسنا معلقه بالقصائد المغناة.

وقد يذهب البعض الى تحليل هذه القصيدة (الفيروز)، فيجعلها رمزاً للحب الذي يكون بين رجل وأمراه ... كما فعل المقالح[1] حيث قال:

((كل شعر لا ينبع من القلب لا يكون مختلطاً بصوت الوجدان– مهما كان غرضه – لا يصل إلى القلب ولا يتجاوز التلاعب الصوتي بالألفاظ. ولكن بالرغم من ذلك التجديد المطلق فإن ما يسمى بشعر الإفضاء عن الاحساسات والانفعالات التي يستخدمها الشاعر من معاناته العاطفية، وتتبلور في صيغة فنية تعكس صدق التجربة مع الحب والحبيب ... وهذا نموذج واحد من شعر الحب عند الفضول وهو نموذج منتزع عشوائياً من بين عدد غير قليل من النماذج العاطفية، وهي غير تلك النصوص الغنائية التي تتردد على حناجر الغنائيين الموهوبين ... وفي مقدمتهم الفنان الكبير أيوب طارش ... ويتابع المقالح قائلاً: وهذا هو نص القصيدة العاطفية التي يروى فيها الشاعر حكاية حب كبير لم يكتب له البقاء ولم يعمر في واقع الحياة طويلاً)).

ويستطرد المقالح بعد استعراضه لجزء كبير من قصيدة (الفيروزة) التي أوردناها نقلاً من ديوان الفيروز ة).

((إن رنه الصدق في هذه القصيدة – وهو صدق فني – تظهر بجلاء أبعاد موهبة الفضول وتضعه بين أقرانه من الرعيل الأول لشعراء التجديد في اليمن ذلك الرعيل الذي آلى على نفسه في الأربعينات من هذا القرن أن يخرج على أساليب الحياة الجامدة وعلى نظام الحكم وعلى أساليب الشعر التقليدي المنظوم، وقد استطاعت هذه القصيدة أن تصور لنا كأصدق ما يكون التصوير حكاية الحب الذي كان قوياً ورائعاً وكانت الحياة جميلة ومشرقة، ثم ضاع فجأة وضاع معه (الحبيبان)، وليس ذلك وحسب بل لقد محاها الحب من وجهة العظيم – ولعل المقالح يقصد لوحه العظيم كما في القصيدة من الديوان – وسقطا

(١) من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي –د/المقالح – دار الكلمة. صنعاء ص ١٢٦–١٢٨

من السماء وقد كان مثواهما في فجرهما المضيء، وفي القصيدة تتناثر مجموعة من التعابير الشعرية المبتكرة والصور البديعة التكوين كتلك التي تتحدث عن تقسيم الدموع وعن الإرث الحزين وندى الدموع، والحب والمغدور وذبح الأشواق وبكاء الظلال وعيون الظبأ.....)).

وهذه السطور هي التي انتهى إليها المقالح في عرضه لتلك القصيدة التي جاءت ضمن دراسة أو قراءه أولى في شعر الفضول (اختناق الهديل) وهي دارسة قصيرة، ولعلنا نختلف تماماً مع المقالح في كون الشاعر يتحدث عن (امرأة) كما يتضح لنا من سرده السابق، ونؤكد على أن الفضول يتكلم عن قصة حب حقيقة ولكنها قصة حب الإنسان للوطن والأبيات واضحة كالشمس في كبد السماء ولكن ما عرف عن الفضول بحبه الدائم وغنائيته الملتهبة، صور للبعض أن حبه كله موجه للمرأة ... ونحن هنا نحاول تجلية الموقف وبسط العرض وأريحية التفاعل الحقيقي الذي كان بين الفضول ووطنه اليمن ... الذي ما قامت فيه الثورة إلا و ذبح المناضلون بأسلحة إخوانهم وهي معركة استمرت سنوات عديدة بعد قيام ثورة سبتمبر، وكذلك تلك التصفيات التي كانت تحدث بين آونة وأخرى حتى عام ٨٦م، باعتبار الوطن اليمني الكبير، فذهبت أشواق الحرية واختفى هوى التقدم التطور والخلاص فهوى كل المناضلين فكان المسير من ضحى الثورة إلى دجى الضلال والخوف، وكانت الثورة والتحرير فرصة تملا الحس فكأن الإنسان وبني الإنسان قد نزلوا الجنة بل الجنان، لكن بدلاً عن الحب كان الفراق وكان الخوف وفقد الأمان، ولم يكن نصيب أشواقنا ومنانا غير الدموع الحزينة على حلم ضاع من بين أيدينا فلا ظلال ولا حياة ولا حب، ولا ثروة ولا جواهر ولا جمان.. ولم يعد غير الدماء و الخراب والأطلال ... و.... و ..... و بقراءة القصيدة بتأن وعمق و أدارك سنجد أن الوطن هو الحبيب ... وهو اللآلئ اللؤلؤ التي أدار الناس فوقها رحى الحرب والتمزق والضياع والصراع – كل ذلك جعل الشاعر يتمزق على واقع صار إليه، وضياع سار إليه، وألم يعيش تحت سعيره.

وضياع أمل الثورة دفع الشاعر نحو الطبيعة والحب الإنساني، فتحول الشاعر من مخاطبة العقول إلى مخاطبة القلوب التي كان يأمل أن تكون أكثر قدرة على التفكير من عقول حولت الأرض الخضراء إلى أطلال وبقايا رماد .... هكذا:

وهوينا من السماء وقد كان على وجه فجرها مستوانا
وسقطنا على التراب رماداً بل وأدنى من الرماد هوانا
والمحبون أهون الخلق في الخلق اذا كان فيهم الحب هانا

والحب هنا لا يقتصر على الوطن اليمني بل يتعداه الى الوطن العربي كله، وتبدى ذلك فيما سنذكره من قصائد الفيروزة الديوان.

ألا يدفعنا ضياع أحلامنا الإنسانية الى الهروب نحو الطبيعة لنبحث عن أحلامنا فيها؟! أليست الطبيعة ملجأ الذين قهرهم آمالهم العريضة وطموحاهم التي تحطمت بالجهل وسواء قلوب بعض بني الإنسان الذين يتشدقون بما ليس في قلوبهم.

طاب البلس:

قد يتبادر إلى الذهن قول القائل: طاب المقام:

ولكن إذا لم يكن المقام قد طاب ... فلا شك أنه حينئذ سيكون هكذا طاب البلس وهذه مدخل آخر وان تباعدت المداخل واختلفت المخارج. فهذه القصيدة لوحة فنية تصور الحياة الجديدة التي يعيشها الشاعر والناس حيث فقد الشاعر حب كل شيء ولم يبق لديه غير الرغبة الجارفة الى تناول البلس القادم مع بنات جبل صبر الفاتنات اللاتي يملأن وملأن أسواق تعز بفتنة نساء الجبل. ورغم وصف الشاعر لبنات صبر. إلا انه خلع رغبته الإنسانية وتمرد على الحب الإنساني لإنه قد شرب منه حتى قال (بس)، سواء حب الوطن او حب المرأة، وهذه ليست سوى تعبير لا شعوري عن الظمأ العاطفي الذي أجتاح قلب الفضول ووجدانه. وما إعلان هذا الامتلاء إلا تمرداً على الواقع المؤلم الذي صار إليه هو وكثير من الناس الذين صنعوا من التضحيات نبراساً وأملاً كبيراً سرعان ما انطفأ.. فدفع ذلك الانطفاء شاعرنا إلى إعلانه الاكتفاء من الحب الذي يحمل معنى جديداً ومرحلة جديدة للظمأ العاطفي الذي بدأ يسيطر سيطرة كاملة على كيان الشاعر ... والقصيدة هي بحد ذاتها هروب كامل وبأجنحة من الإحباط الى عالم آخر ليس فيه حتى دعوى الحب الذي فقد معناه ولم يتبقى منه للناس إلا أن يأكلوا دون التفكير فيما هم فيه وما يحيط بهم وما هم عليه:-

طاب البلس طاب واعذارى طاب هيا صبحونا بلس
والفرسك اخضر وحالي فر اسكك واصبرنا ما تسبب ضرس
محلي بنات الجبل حما يطوفين المدينة بالثياب الدمس
خدود مثل الورد ضوء الفجر أرواها واعطاها المشاقر حرس
محوطات الوجوه البيض بالكاذي المسقى ببرود الغلس
يسقيك محلى ورودك وغرسك واصبر يرحم ابوه من غرس
كم فيك من حسن كم فيك من ألوان فتنه ليت قلبي نفس
لكن قلبي ملآنه حب من حين ما في الحب قلبي غطس
حبيت واني احتكم قلبه لقلبي في الهوى واحتبس
لوجيت انسى هواه حتى لبعض الثواني دق قلبي جرس
هواجسي كلها عنده ويغلط نبض قلبي لو بغيره هجس

إذا ابتسم تبتسم روحي ويتضاحك وتبكي مهجتي لو عبس
كم يا نجوم زاورت روحي وما شي نجم غيره وسط روحي جلس
وكم بدور ضيفتني بعد ما حبيت قلبي من هواها خنس
أشتي بلس بس أما الحب قلبي قد شرب منه لحتى قال بس [1]

***

وهنا تتحدد المعاني.. ويتضح لنا أن الحب الإنساني – حب المرأة – ليس هو الذي يبحث عنه الشاعر ... فهناك حب الوطن الذي لا ينساه حتى لبعض الثواني، فهواجس الشاعر كلها عند حب الوطن، ويخطئ نبض القلب لو هجس بغير حب الوطن، ومن المعلوم أن الشاعر الذي ترهقه حياته وطموحاته يعود مباشرة الى مرحلة الطفولة التي ((تعد من أجمل مراحل العمر في حياة أي إنسان،فهي تتميز بعدم نمو القدرة على تأمل الأحداث وتقدير الأمر))[2]. او نحو الماضي أو نحو الطبيعة.

وقد يفهم الناس أو بعضهم بعض هذه القصائد أو كلها على إنها قصائد ذات توهج عاطفي، ونبرة عاشق ألهمته الطبيعة الجميلة خيالها وحسنها الذي يتبدى في كل شئ، كما هو الحال مع شعراء الصوفية الذين بلغوا مراتب عليا في عشقهم للذات الإلهية، فيعتقد العام أن تلك المناجاة بشرية الرغبة إنسانية المنطلق ولكن حينما نتأمل قليلاً ونتأنى في الرؤية التي تستنطق ما حولها نتكشف من حولنا كثيراً من المفاهيم المتعددة، وتبقى لدينا رؤية واحدة محصورة في كثير من القراءات لكثير من الأشعار التي أنطقها وأستلهمها أصحابها لتعبر عن مكنونات الضمائر التي تتقد بالنبل والتضحية أ والرغبة في التضحية المستمرة من أجل هدف أو غاية منشودة وبصور متعددة تبدأ بالحب الإنساني وتنتهي بالحب للوطن والأمن والخير، وما من شاعر أحب الوطن بقوة إلا واحب فيه كل شيء.

والفضول بدأ حياته التعليمية في ريف تعز الجميل على يد الأستاذ/ أحمد محمد نعمان ولما كانت مواهبه قد تجلت مبكرة. كان سفره الى صنعاء والى زبيد –آنذاك – مع صعوبة الرحيل والسفر – لطلب العلم. ونشأ في أسرة تتمتع بقدر كبير من النفوذ الذي يتناسب مع مركزها الاجتماعي في تلك المنطقة. وإحساسه بالظلم الكبير الواقع على الشعب، وتشربه للرفض المبكر لهذا الظلم الذي كان يدركه بحكم صلة أبيه السجين ثم – تحت الإقامة الجبرية – بفلاسفة الثورة الدستورية ولما رأى الرحيل الى عدن –كما كان حال الكثير من الرافضين للنظام الأمامي القائم – وهناك التقى بزيد الموشكي وبأبي الأحرار الشهيد / محمد محمود الزبيري فتتلمذ على أيديهما وطنياً وزاملها شعرياً وكانت موهبة

(١) الجمهورية الثقافية / من الدندنه إلى المأذنه.
(٢) انظر. د. زكريا إبراهيم /مشكلة الحب /٢٥٢

الفضول مازالت في مرحلة مبكرة؟ ولذلك فقد أصابه قبس من وطنية الزبيري والهامة الثوري العنيف سواءً في مرحلة الأيقاظ الجماهيري أو في مرحلة المواجهة والتحرير. وانعكست أيضاً عليه فلسفة زيد الموشكي..... و ازدادت مشاعره التهاباً، و أخزانه أشجاناً باستشهاد والده (عبد الوهاب نعمان) وصديقة زيد الموشكي وسقوط تلك الجماجم والعقول النيرة بعد ثورة ١٩٤٨م... وظلت حياته التي قضاها في التدريس وفي الصحافة عبر صحيفة الفضول التي كان مؤسسها وصاحبها[1] تدفعه الى بذل الكثير من الجهود والتضحيات الغاليات، وهذه أمور سنتعرض لها في الصفحات القادمة – بإذن الله – ولنؤكد ما ذهبنا إليه سنثبت هنا قصيده للشاعر كتبها في مرحلة متأخرة يتحدث فيها عن ثورة ٤٨م عارضاً رؤاه وفلسفته لها، ولنرى اثر الثورة الدستورية في نفسه والذي ألهمه حب الوطن بغنائيته والتي تعددت وتلونت بألوان الطيف. وبصوت فيه من مزمار داود عليه السلام ... فإلى قصيدة (في ذكرى ثورة ١٩٤٨م) التي تمثل نفساً شعرياً مديداً، وفيها الحزن والدموع وولع النفس والذكرى المؤلمه التي هزت كيانه في مرحلة مبكرة من عمره وخاصة إذا ما عرفنا أن الشاعر الفضول من مواليد العقد الثاني من القرن العشرين.

وعدد أبيات هذه القصيدة (٧٦ بيتاً) من بحر الكامل وهي الوحيدة للشاعر بهذا الوزن العميق الأداء مما بين أيدينا من قصائده حتى الآن:

في مشرق الإصباح صغتُ بياني ... وحبكته في ضوءه الفتان
ونسيت أحزاني بها وكم ولعَت ... نفسي وكم جَنحتْ الى أشجانَ
فإذا مضى حزنُ أطال مُقامَه ... في مقلتي دمعت لحزن ثانَ
ليكاد يرجع كل من هملَتْ له ... منى الدموع معاتباً أجفاني
أسرفتُ فيها ثُمَّ عدت بمقلة ... تشكوا الجفاف لمدمع ظمآنَ
أعطيتُ كلَّ الواهبين نفوسهمً ... صرف الوفاء، ومطلق العرفانَ
أحنَتْ لهم كلِمي العروش واركعت ... لهم السيوف وصولة التيجانَ

**** ****

حملوا المشاعلَ في الطريقِ عريضة ... اللهبات فوق مسارح الغيلان
لأكاد ألمح في الشعاع وجوههم ... تحت الضحى، يمشون في الأكفانَ
يَذرُون طيبَ المجد حيث تساقطو ... عبقينَ مثل ضمائم الريحانَ
سكَنْت حميَّتهُم شغافَ قلوبهم ... سكني السيوف عواتق الشجعانَ
مِنْ كلِّ أروعَ باذلٍ في روحه ... وطنٌ أوَتْه خصائص الأيمانَ

(١) كان للفضول صحيفة قبلها هي (الزبج) – استمرت شهرين ومعناها العام النكتة أو المزحة الثقيلة وفي اللغة يزبجه أي يجمع الشيء من أطرافه.

تحميةَ من صيد الضلال كما عَزَتْ ... تحمي العقاب مناعةُ الأكفان
ما جاء مطفيه العُرامُ ولا مشت ... في جانبيه غرارةُ الصبيانَ
متثبتٌ وَرِعَ الخطى لم يُخزني ... منه الذي في غيره أخزاني

****

كم بازغٍ بدأت به أيامُه ... مكسوة غُرراً من الإحسان
غنَّيته وشغلتُ أوتاري به ... وطرحته نغماً على أوزاني
وحسبتُهُ أمْنَ الجموع فجاءني ... صدق اليقين معاتباً حُسباني
ومشى الغرورُ يريقُ فوقَ طباعه ... جُرَعاً تؤول به الى الإدمان
حُزْني لَمنْ رَفَضَتْ طفولتهُم بهم ... أن يكبروا فيما سوى الأبدانَ

****

مالي وللعجز الثريِّ غباؤه ... إن لازمته حداثةُ الغلمان
ماذا يريدُ العاجزون ومالُه ... لا يستقر ترنحُ العرجانَ
يا عجز ... كم سرحت بقاعك ... أنفس وحلية تأويك كالجعلانَ
لا تستريح إلى السمو ولا ترى ... من شرف أو نائف بمكانَ
يا عجز ... إنك كالخصآء، ولم تزل ... في العاجزين كعقدة الخُصيانَ
وإذا نواطيرُ الخمائلِ هوَّمت ... يقظاهُا، فس حسِّها اليقظانَ
سرحت دواب الحي تفسد خيره ... لا تنثني عن سوئها بعنانَ
لا تطلقنَّ على غراسك دابةً ... تأتي نواجذُها على الأغصانَ
ودع الدواب إلى أليف ورقابها ... أدبُ الدواب مذلةُ الأرسانَ
والخير خصم السيئين، فما يُرى ... قبسٌ يضئ بمكمن الثعبانَ
ومتى أفاض على المجانة غبطة ... سوطٌ يَحُدُّ مباذلَ المجانَ
أو عانق الذوبانُ يوماً راعياً ... يقظاً أطالَ مجاعةَ الذوبانَ
حقدُ القصور على التفوق محنةٌ ... تلقى الحياء بسؤة العريانَ
ولطالما لاقى الكمالُ خصومه ... شتمته فوق منابر النقصانَ
لا يحمل السيف الشريف غضاضةً ... إن طاولته هشاشةُ العيدانَ
ويُرى ثبوت الصدق فوق غرارهً ... يعطي العصيَّ قناعةَ البطلانَ

****

وطني، أرحني من سؤال حائر ... متقادم قد شابَ فوق لساني
ما للحقيقة فيك لا يبدولها ... ألقٌ ... وما للزور في لمعانَ
كم دُلِّل الأطفالُ فيك وألبسوا ... بدل السُّخاب قلانس الفرسانَ

وتوثنت فيك الصغارُ وكُلِّف ... الرشدُ الكبيرُ سدانه الأوثان
وجثا شموخُ الصادقين كما جثت ... للانتصار ضراعةُ الخذلانَ
ومشى ترآءُ العقل فيك منابَذاً ... والمفلسون ... فوارسُ الميدانَ
وتبادل الناسُ الركاكةَ عملةً ... معصومةً – أبداً – من الخسرانَ
فسما هبوطُ الجهل، واضطهدتْ به ... ضوءَ العيون ضراوةُ العميانَ
والعابثون تجمَّلوا وتحملوا ... سُبُحَ التقى، وقلانسَ الرُّهبانَ
وتسربلوا من كل لفظ فاخر ... تبكي الحروف به من البهتانَ
وأتت حقائقهم ليفتضحوا بها ... قبحاً ... بلا سبحٍ ولا صُلبانَ
كم تشبعُ الأخلاقُ وزراً حينما ... تهبُ الأثيمَ سماحةَ الغفرانَ
وتصادق الأثم الكبير يذلها ... وتسوسها قربا كل هوانَ
**** ****

يا واحة الطاؤوس كم هو فاضحٌ ... إن تحفلي بدمامة الغربانَ
وتُرى العناكبُ فيك قد فرشَتْ لها ... فوق الظلال شقائق النعمانَ
ولكم يهون الخيرُ أن تصغي إلى ... دود الجذوع.. حمائمُ الأفنانَ
للشعب ملحمتي العظيمة صاغها ... متلألأُ الاشراق في وجداني
سيظل شعبي مثلما عايشته ... شهماً كسبتُ عليه كلَّ رهانَ
يضع السياطَ بكل وجه فاجر ... فحشَتْ عليه نذالةُ الطغيانَ
لا يستقر به أخو صلف – ولا ... يفضي به صبر إلى أذعانَ
يأتي الطغاة إلى أصالته كَما ... تأتي الضفادع أوجه الغدرانَ
ويؤرخون ظواهراً موبوءةً ... تمشي على التاريخ كالغثيانَ
إن قال اصحاب الكلام أروك ... أعماق الرسوخ وذروة الامكانَ
وأتاكَ جُهدُ العقلِ في اقلامهم ... ليريك كيف جلالةَ العرفانَ
واتى أباطرةُ الغباء تسلُّقاً ... يتبئون آرائك الهذيانَ
يلدون جهلاً حيثما وقعوا بها ... ويقاتلون فضائل الإنسانَ
تلقى بهاجهدَ الضحالة مسنداً ... هدم السدود لصولة الفيرانِ
**** ****

يا أيكتي.. كيف الغناء وحولنا ... يدمي الثغاء حناجر الخرفانَ
يا ببغآء الغاب.. لا يكفيك ما ... أوتيت من ريش ومن ألوانَ
لتعلّمي البلغاء يوم عكاظهم ... نطق الحروف وصحة التبيانَ
هان الكلام وسال فوق طروسه ... متلبكاً بعفونه الديدانَ

مـــا للحـــروف إلى المذلـــة هـــاجرت مبـــــهورةً ببـــــسالة القرصـــــان
مبـــهورة بـــالأثم ... منتـــصراً لـــه زهـــو يهـــز جوانـــب الـــشطانَ
مـــن أيـــن لي قلـــم أعـــيش عليـــه معتنقـــاً بـــه عـــدداً مـــن الأديـــانَ
لو شـــئت مـــن شـــعري لأثم مدحـــة بـــصق الـــيراعُ مـــشيئتي وعـــصانيَ
وحييـــت أيـــامي يخاصـــمني بهـــا صدقي الـــذي عـــن وجهـــة اقـــصانيَ
ولقـــد صـــبرت لكـــي أرى مـــن تُرزق الأقلامُ ضوءاً منـــه فـــوق بنـــانيَ
تثـــري مزايـــاه الخيـــال كأنهـــا خـــصبُ الـــسهول وخُـــضرةُ الوديـــانَ
وأذقـــت أقلامـــي الطـــوى حـــتى أرى هـــذا الطـــرازَ مـــن الرجـــال أتـــانَ
رزقُ السيوفِ علـــى الـــشجاع ومـــا أتـــى رزقٌ اليهـــا مـــن ذراع جبـــانِ[1]

هكذا يتجلى لنا في قصيدة (في ذكرى ثورة ١٩٤٨م) التي نظمها الفضول في مرحلة النضوج الشعري الذي وصل اليه، وهي مرحلة اكتملت فيها موهبتـــه ونـــضجت ورأت وتفاعلت وتلونت بألوان الطيف، وتعمقت فيها المعاني الوطنية والسخرية المريرة من الواقع المؤلم الذي صار أليه الحال ... بعد أن تساقطت رؤوس الحاملين لمشاعل النور، فـــسكنت نخوتهم وثورتهم شغاف قلوبهم الشجاعة، حيث انتشرت بعد ذلك كله الدواب لتفسد الخير الذي زرعه أولئك الرجال ... ويظل هذا الواقع المؤلم كسؤال حائر قديم إلى حد أنه قـــد شاب وهرم فوق لسان صاحبه، فيوجه هذا السؤال الى وطنه، ويساله عن الحقيقة الـــتي لا يبدو لها في هذا الوطن أثر وكيف أن الزور في لمعان شديد، وأضحى صغار العقل الفكـــر والقلب أوثاناً، بينما أولئك الكبار في عقولهم وقلوبهم وحبهم للوطن قد تحولوا الى ســـدنه وخدم لتلك الأوثان. وصار المفلسون هم فوارس الميدان، وفشت العملة الركيكـــة مـــن الأخلاق والمبادئ حتى أنهم بهذه الصنعة و الإفلاس أمنوا على أنفسهم من الخسران، فارتفع شأن الجاهلين وسما وعلا شأنهم فأمسوا مصدر اضطهاد لأصحاب العقول الـــنيرة فـــصار الأعمى هو الذي يقود المبصر، والعابثون ارتدوا قلانس الرهبان، وتسبحوا بمسابح الأتقياء بهتاناً وزراً. وتسربلوا بالألفاظ الفاجرة الى حد أن الحروف تبكي من البهتان الذي ينتهك حرمتها، فأصبحت الأخلاق تشبع وزراً وظلماً حينما تهب الآثمين سماحة الغفران، وأمسى الجمال يتمثل بالغربان بدلاً من الطاؤوس، والعناكب تفرش شقائق النعمان، ودود الجذوع يستمع أليها حمائم الأفنان.. كإشارة واضحة الى انقلاب الوضع ولسان الحال، فأضـــحى العزيز ذليلاً، والذليل عزيزاً شجاعاً، والأبكم فصيحاً، والفصيح أعيته لـــسانه الملتهبـــة.. وأضحى النفاق سلعة الأيام وشمس النهار فكراً وعقلاً وقلباً ... أما الفضول فلسان حاله هكذا:

(١) قصيدة (في ذكرى ثورة ١٩٤٨م) / ديوان الفيروزه ص ٨٩ _٩٩.

((من أين لي قلم أعيش عليه معتنقاً به عدداً من الأديان))

والفضول بنفسه الأبية التي نهلت من منابع الوطنية مبكراً.. رفض النفاق والمرح للآثم والآثمين الى حد انه لو أراد أن يمرح اثماً فان يراعه يبصق تلك الرغبة في مدح الآثم، ويستعصي عليه القلم وهي التفاته الى مدى ما يتمتع به الشاعر من رفض للنفاق وتزوير للضمائر ولأنّ انقلاب الحال الذي كان يأمل فيه الفضول.. ألقى به رغماً عنه الى أحضان الطبيعة والى أحضان الأفراح الاجتماعية ومشاركة الناس أفراحهم البسيطة والبريئة بعد أن عجز عن تحقيق الأحلام الكبيرة التي في حجم حب الوطن ... لذلك ولغيره أنصرف الشاعر الى هذه الألحان والابتسامات والأفراح التي تسكن كل القلوب بلا استثناء كهذه الأبيات التي نظمها عندما اكتملت فرحته بحبيبة قلبه التي تدق القاع وهي تمشي[1]:

واصبايا واملاح هيا اقطفين لي مشاقر وارصفين الورود الحمر وسط المزاهر
واطرحين الكواذي البيض بين المباخر لحبيبي هو حبيب القلب أول وآخر
واعملين لي كبوش الفل مفرش منقش بالعطور بالندا مبلول مسقى مرشرش
فرحتي فرحة الطائر رأى الفجر غبش ضيف قلبي أتى عندي مقيل وسامر
صوت قلبي يغني لي اسمعين صوت قلبي والمغاني الملاح يأتين من أجل حبي
والحبيب تحت ضوء الحسن منصت بجنبي سحر عينيه واصبايا قد غلب ألف ساحر
يا قمر يا نجوم يا شمس بالله غيبي لفلفي ضوءك من الدنيا ويكفي حبيبي
ليت كل القلوب يا ناس كانت قلوبي ربما يوسعين حبي فهو بحر زاخر[2]

ولو سئلت عن مدى حب الفضول لوطنه، وطُلب إليّ تلخيص الأجابه في بيت شعري فقط لما ترددت لحظة واحدة من ايراد البيت الأخير من القصيدة السابقة الذي يقول فيه:

ليت كل القلوب يا ناس كانت قلوبي ربما يوسعين حبي فهو بحر زاخر.

والقارئ العادي يلفت أنتباهه القريب الى ذهنه ... ورغم مشاركة الفضول للناس في أفراحهم الا انه ظل يتجرع مرارة حبه الكبير للوطن والذي يتجسد في كثير من قصائده التي تبدو من ظاهرها عاطفية أو غنائية لكنها في أحشائها (اليمن) أرضاً وانساناً، لأن الشعر يومئ بعضه الى بعض، وكما قادتنا السطور الى قصيدة ذكرى ثورة ١٩٤٨م تقودنا هي الى قصيدة (واصبايا واملاح).. وهذه أيضاً تفتح لنا آفاق قلب الفضول لننظر في سمائه التي هي جزء من سماء اليمن الموحد.. فكان يتمزق قلبه عندما ينظر الى الاخوان وهم يتقاتلون ويسفك أحدهم دم أخيه.. فكانت بعض هذه المواقف تفجر قلب الفضول.. الذي ينبض بحب اليمن الواحد بل ويتخيله هكذا قبل أن يكون ويخاطبه برائعة شعريه من روائعه التي

(١) أنظر لقاءنا مع ملهمة الفضول عزيزة النعمان .... آخر الكتاب
(٢) كتاب اغنيات أيوب طارش – مكتبة الفكر – تعز ١٩٧٤م

تهز جذور القلوب الوطنيه البيضاء لتملأ الدنيا ابتساما هكذا:

امـــلأوا الـــدنيا ابتـــساماً وارفعـــوا في الـــشمس هامـــا
واجعلـــوا القـــوة والقـــدرة في الأذرع صـــلباً خـــيراً وســـلاما
واحفظوا للعز فيكم ضوءه
واجعلوا وحدتكم عرشاً له
واحـــذروا أن تـــشهد الأيـــام في صـــفكم تحـــت الـــسماوات انقـــساما
وارفعـــوا أنفـــسكم فـــوق الـــضحى أبـــداً عـــن كـــل ســـوء تتـــسامى
أيها الخير الوفير أرضنا واحـــةُ خيـــر كـــلِّ خـــير علـــى أجنابهـــا قـــد أمرعـــا
أيها المجد الكبير أرضنا ســـاحةُ مجـــد كـــلِّ مجـــد دنـــا تحـــت سماهـــا اجتمعـــا
أيها الشَّرُّ المغـــير أرضـــنا أرضُ تحـــدٍّ كـــلُّ شـــر تحـــدَّ الخـــيرَ فيهـــا أنـــصرعا
كـــم أبيٍّ قبلنـــا فيهـــا أبى أنَّ يـــرى للقهـــر فيهـــا ملعبـــاً
فـــإذا مـــا البغـــيُ فيهـــا طالبـــاً فيئـــة في الظـــل لاقـــى اللـــهبا
كـــم عليهـــا مـــن جـــذوع عانقـــت جـــسم شـــهم فوقهـــا قـــد صُـــلبا
والـــشهادات بهـــا كـــم شـــاهدت جـــدثاً قـــد طـــمَّ إبنـــاً وأبـــا
لم يجـــئ يـــوم بخلنـــا بالـــدماء فيـــه أوكنـــا نكـــصنا عـــن عطـــاء
أو ركعنـــا في هـــوان الـــضعفاء أو حملنـــا فيـــه رجـــس الجبنـــاء

يا بسالات الفـــداء إننـــا شـــعب فـــدا احلامنا نبتت فوق قبـــور الـــشهداء
يا جلالات العطاء إننـــا شـــعبُ نـــدى أيامنا لم تلد غـــير نفـــوس الكرمـــاء
يا رسالات السماء إننـــا شـــعبُ هُـــدى أحلامنا أزهرت فيه أمـــاني الأنبيـــاء

أنـــت ارض الـــسماحات الـــتي أنفقـــت أرواحنـــا بـــذلاً وجـــودا
إن رجفنـــا الـــساحات بنـــضالاتنا أو عكفنـــا في المحاريـــب ســـجودا
لـــن يـــضيع الفجـــر مـــن أفاقنـــا فيـــك لـــن نرجـــع لليـــل عبيـــدا
نحـــن أتبـــاع ضـــلال وهـــدى إن أتـــى رشـــدٌ رآنـــا رَشَـــدا
أو أتـــى غـــيٌّ مـــضى فينـــا ســـدى مـــالوا زنـــداً ولا شـــلَّ يـــدا
مـــات في أنفـــسنا معـــنى الـــضياع وانتفـــت مـــن بيننـــا روح الـــصراع
وتساوى قدرنا في الارتفاع
لم نعـــد صـــنفي ســـرات ورعـــاع أو رعايـــا سُـــخرت للانتفـــاع
إن مـــشى الحـــق علـــى ســـاحاتنا ينـــصف الأكـــواخ مـــن ظلـــم القـــلاع[1]

(١) مخطوطة (صحيفة الجمهورية / ٩٧ م).

دخلنا من باب وادي الضباب الذي خرج منه الفضول يحدوه الأمل بحياة جديدة مشرقة فيها الابتسامة التي تملا الدنيا، والشمس التي تساوي الكبرياء الغزه فيه يمضي الشعب في طريق السلام.. والتحذير من أن تشهد الأيام في صف الشعب اليمني تحت السماوات انقساماً ... داعياً الى أن يرفع الشعب نفسه فوق الضحى تسامياً عن كل سوء. وينادي الخير والمجد اليمني العريق ويهدد الشر المغير، ويتذكر الأباة والأبطال الذين رفضوا أن يكون اليمن ملعباً للقهر والذل، لأن اليمن أرض خير وفيها الخير قد أرتفع بخضرته على كل الجوانب، وحيث لم يبخل الوطنيون الأحرار بالدماء، ولم ينكصوا عن العطاء والتضحية والفداء ولم يركعوا في هوان وذل الضعفاء ولم يكن الأحرار يوماً في رجس الخبثاء والجبناء وأن أحلام الشهداء قد نبتت وأرتفعت فوق قبور الشهداء ... ونداءات الفضول لا تتوقف ... يابسالات الفدا – يا جلالات العطاء – يا رسالات السماء ي يا أرض السماحات – وهو يتشبث بالفجر والحرية التي روتها الدماء الزكية..:

لن يضيع الفجر من آفاقنا فيك لن نرجعَ لليل عبيدا

وهو يدعو الحق أن ينصف الفقراء من الأغنياء أو بتعبيره (ينصف الأكواخ من ظلم القلاع والقصور ...).

إن فلسفة الفضول للعدالة الوطنية والعدالة الاجتماعية وغيرها هي التي بدأت تتكون في نفسه منذ تنفس من نسيم وادي الضباب وهو في طريقة الى تعز المحطة الأولى التي بدأ منها الفضول مرحلة كفاحه الوطني بالموقف والكلمة الشجاعة والرأي الحر والأرادة الصلبة والقلب الذي يهفوا إلى أن يكون اليمن كله بيتاً واحداً.. ليكون مع الحب في بيت وهذه الابيات تؤكد مدى صفاء قلب الفضول ذلك القلب الذي ارتسمت فيه حروف أشعاره كلها.. رغم ما واجهه من ظلم وغبن وعدم إنصاف أو تقدير الى الدرجة التي لم تدفع حتى أقرب الناس اليه أو الجهات الثقافية في الدولة الى تبني طباعة أعماله الشعرية وهو الذي ظل يهيم في حب البيت اليمني الكبير.. والعظيم هو الذي يتجاوز عن كل السيئات التي عرض لها وقابلها بالسماح والعفو لأن موقف الفضول الوطني لم ينته بقيام الثورة، وأنما ببقائه تحت ظلال وأفياء بيت كبير من الحب نظم في داخله وأرسل من نوافذه أحلى المشاعر الإنسانية التي لا حدود لها مبنىً ومعنىً.

حبيت حبيت حبيت ماشي حلمت أو ترأيت

ولا تمنيت يا ليت

حبيت يا ناس حبيت وانا مع الحب في بيت

مهـــنى حبـــيبي وســـط داري يحـــوم كأن عنـــدي كـــل ضـــوء النجـــوم
والنـــهر والزهـــر وقطـــر النـــدا ورونـــق الـــشمس وظـــل الغيـــوم
يا مـــا أحـــب النـــاس مـــن قبلنـــا وقـــد يحـــب النـــاس مـــن بعـــدن
لكننـــــا في حبنـــــا وحـــــدنا ولـــيس عنـــد النـــاس مـــا عنـــدنا
إذا وهبنـــــا النـــــوم أجفاننـــــا أمـــسى هوانـــا تحتـــها لا ينـــوم
وإن أتانـــا الـــصحو خلّـــى لنـــا قيامـــة الأشـــواق فينـــا تقـــوم
مـــن مثلنـــا في الحـــب مـــن مثلنـــا لقـــد لقينـــا في الهـــوى رغـــدنا
لا زهرنـــــا يظمـــــأ ولا وردنـــــا كأنمـــا رعـــد الـــسماء رعـــدنا
ما تـــشرق الـــشمس علـــى دارنـــا إلا وضـــمتها اليهـــا ضـــموم
ولا يمـــر الليـــل مـــن بابنـــا إلا دعـــا لحبنـــا أن يـــدوم
والفجـــر مـــا يبـــدأ إلا بنـــا يطوف حولينـــا طـــواف القـــدوم[1]

*** ***

نعم لا يمر الليل من بابنا وادي الضباب وكل أودية اليمن الموحد الكبير إلا ودعـــا لحبنا أن يدوم.. ولهذا يقول الفضول أنا مع الحب وعندما يطلب من أيوب طارش أن يغني أبيات الفضول فإن أول ما يتبادر الى ذهنه قوله (أنا مع الحب) نعم، وكلنا مع الحب ... لكن حب الفضول لليمن (عطره فريد – يا حب يا ضوء القلوب).

وما ضوء القلوب غير حب الأوطان الذي أمر به الخالق وأقرته كل الشرائع.

(١) في القصيدة بخط الشاعر أبيات استبعدها الفنان لأسباب فنية وسيتم إضافتها الى القصيدة عندما يخـــرج ديوان الشاعر

الباب الثاني

بـــاب عـــدن

كانت عدن مطمح الطامحين للخروج من ظلام النظام الإمامي وكانت الرئـــة الـــتي يتنفس العاشقون للحريه من هوائها الملون .... كما وصفه الفضول فيما بعد:

عدن عدن فيهـــا الهـــوى ملـــون لكـــن لمن أسلوا بهـــا أو أشـــتكي وأحـــزن
لا أشـــــتد لي فيهـــــا وتـــــر ولا رن القلـــب أن ومـــا عليـــه لـــو أن
عيشي حزن لا البعد هـــان ولا الوصـــال أمكـــن
لو مـــا عرفـــت الحـــب كـــان أحـــسن صنعا الـــيمن قلـــبي لتربتـــك حـــن
يكفي شجن ما لاح بارق فيـــك أو مطـــر شـــن
وانـــــا واشـــــواقي أنـــــام وأذهـــــن من ذي يزن فيـــك الهـــوى تمكـــن
حتى الزمن غـــنىً علـــى صـــنعا الـــيمن ودنـــدن
أرض المـــــلاح الغيـــــد جنـــــة الفـــــن[1]

هل نبدا من هروب الفضول من تعز الى عدن؟

أم نبدأ بنضال الفضول المبكر الذي بدأ في مدينة تعز وأكتمل في عدن للسير في طريق الحرية؟ أم نبدأ من اليوم الي قيل عنه فيه (النجم الذي هوى)[2]؟

((أحيانا تكون الفاجعة في عزيز بل كل فجيعة أكبر من أن تعبر عنها الكلمات وهذه هي حالتنا ازاء الموت المفاجئ الذي داهم عبدالله عبدالوهاب نعمان وهو في قمـــة مرحـــه وهزله وقد عبر المرحوم عن الفجيعة التي تلجم اللسان من التعبير في مرثاته لصديقة المرحوم محمد أحمد نعمان الذي اغتيل في بيروت في ٢٨ يونيو ١٩٧٤م إذ عبر عن فجيعتين فيـــه بقصيده مطلعها[3]

(١) كتاب أيوب طارش – دار الفكر – ١٩٧٤م – تعز (ج.الثقافيه ٩٨/٤/٣٠م).

(٢) من موضوع كتبه عبدالرحمن أحمد نعمان لعدد خاص صدر فـــي أربعينيـــة الفـــضول المتـــوفى فـــي ١٩٨٢/٧/٥م. (بتصرف)

(٣) من قصيدة غير متواجدة في هذا الكتاب – واذا ما حصلنا عليها سنضم ابياتها الى دراستنا في الطبعـــة القادمة.

(صاحبي مات فماتت كلماتي وخبا ومضى فناحت أغنياتي)

مهما حاولنا لن نستطيع أن نعبر عن فجيعنا بوفاة عبدالله عبد الوهاب، وسأكتفي بسرد نبذه عن حياته ومواقفه السياسية وأعماله الأدبية ونشاطه الصحفي كما عرفتها وعاصرتها وعايشتها.. مات عبدالله عبدالوهاب نعمان في ٥ يوليو ١٩٨٢م بالسكتة القلبية عن عمر يناهز الخامسة والستين، وعبدالله عبدالوهاب اشهر من أن يعرف فإلى كونه أحد رجال حركة الأحرار ومن أبرز كتابها فهو أديب وشاعر وصحفي جاد وساخر .....

وعمله بالصحافة واصداره جريدة (الفضول)[1] في احلك مراحل الحركة الوطنية أكسبه شهرة وألصق اسم الجريدة بشخصيته، تلقى دارسته في الحجرية مسقط رأسه على يد وتحت أشراف أخيه وابن عمه الأستاذ/ أحمد محمد نعمان ، وفي صنعاء معتقل والده، وزبيد مدينة العلم المشهورة يومئذ ... وفي أوائل الأربعينيات كان من ضمن الشباب المستنير الذين تجمعوا في تعز مقر ولي العهد السيف أحمد من اليمن كلها أمثال الأستاذ/ نعما والزبيري والفسيل والموشكي والحضراني والشامي وغيرهم، وقد ساهم في النشاط الأدبي القائم هناك يومها الى جانب قيامه بالتدريس بالمدرسه الأحمديه بتعز في الفترة ما بين ١٩٤١-١٩٤٤م.

وقد أنفض ذلك التجمع من حول ولي العهد بعد قولته المشهورة: ((والله لا خضبن سيفي هذا بدماء العصريين حتى القى الله وهو راضٍ عني)).

وبعد نزوح الأستاذين الزبيري والنعمان الى عدن اجتاحت البلاد موجة من الاعتقالات شملت الأحرار المتواجدين في الداخل وأقارب النازحين الى عدن وكان من ضمنهم (١٢) شخصاً من أقارب الأستاذ نعمان الى جانب تجديد اعتقال الشيخ عبدالوهاب نعمان في صنعاء حتى سمى ذلك العام، أي عام ١٩٤٤م عام اعتقال الأحرار ... إذ ما من سجين من هؤلاء الأحرار إلا وسيق مكبلاً بالقيود وبعضهم بالسلاسل المربوطة من عنق الى عنق حتى سجون حجة، فودعهم عبدالله عبد الوهاب نعمان بقصيدة يقول فيها:

سيروا فما الاغلال في أعناقكم إلا لمجدكم العظيم فخار[2]

وأرسل القصيدة الى عدن لتنشر في (فتاة الجزيرة). الجريدة الوحيدة التي تصدر في عدن والتي احتضنت قضية الأحرار منذ بدايتها على شكل معارضة علنية، وكانت نسخ منها قد وزعت بتعز قبل إرسالها الى عدن، فوصلت نسخة منها الى يد ولي العهد السيف

---

(١) الفضول: نسبة الى حلف الفضول الذي كان في الجاهلية في مكة، وليس معناها التدخل في شئون الآخرين. وهي من الفضول – بضم الفاء كما ذكر احد ابنائه – وغلب الفتح

(٢) من قصيدة لم نعثر على بقيتها بعد

أحمد فأشتد حنقاً من ذلك وأمر باعتقال الفضول إلاّ أنّ صالح محسن السكرتير الخاص لولي العهد السيف أحمد آنذاك، وكان موالياً للأحرار سراً قد حذر عبدالله عبدالوهاب نعمان ونصحه بالهروب الى عدن، وبذلك أسسوا حزب الأحرار اليمني، و أقسم كل من الأستاذ محمد محمود الزبيري والسيد الموشكي وشاعرنا على المصحف الشريف وتعاهدوا على الصمود والتضحية في سبيل الشعب والوطن وقد لخص كل منهم ذلك شعراً – كما ذكرنا سابقاً –.

وعلى اثر النشاط الذي كان يقوم به حزب الأحرار اليمني أنزعج الإمام يحي وولي عهده أحمد فأرسل كلاً من القاضي حسين الحلالي والقاضي محمد عبدالله الشامي والشيخ على محمد نعمان (الأخ الأكبر للأستاذ أحمد محمد نعمان) ... لمراجعة الأحرار والعودة الى تعز ..... وعاد معظم الأحرار ولم يبق سوى الزبيري والنعمان والفضول وتكفل أحمد عبده ناشر العريقي بكل موارد العيش لهم وبعث مع هذا التكفل بمبلغ يقيم اودهم لمدة ثلاثة أشهر ... من الوقت الذي حلت فيه السلطات البريطانية حزب الأحرار اليمني فقال الفضول قصيدة يسخر فيها من الإمكانيات الحربية للأمام يقول مطلعها:

باللحي باللحي نبيد قواهم بالمساويك نزل الطائرات
فمساويككم أشد وأقوى والحاكم من أبهر المعجزات

سخرية من إمكانيات الدولة المتوكلية التي تهدد بدخول الحرب الى جوار المحور ضد الحلفاء في العالمية الثانية. وكان أبرز قادة الأحرار قد التحقوا في سلك التدريس في مدرسة (بازرعة الخيرية) فور نزوحهم الى عدن ليضمنوا لأنفسهم لقمة العيش الضرورية وكان عبدالله عبدالوهاب نعمان واحداً منهم إلاّ أنّ مدير المدرسة رحمه الله وسامحة كان من مؤيدي الأمام يحي وولي عهده ويعارض حركة الأحرار ، فأخذ يضايق من التحق منهم في سلك التدريس وبالتالي يضايق الطلبة المريدين لهم، فإلى جانب مختلف المضايقات أسند الى عبدالله عبدالوهاب نعمان أن يعلم في الصفين الأول والثاني من المرحلة الابتدائية فسبب له ذلك ضيقاً شديداً. وكان يخرج من الصف الى ساحة المدرسة في الاستراحة أو نهاية الدراسة وهو يحمل على كتفه القميص والكوت والمشدة –إذ كان يومها لا يزال يلبس الزي التقليدي للواء تعز مكتفياً بالفنيلة والسروال بسبب حرارة الصيف – وهو يصب غضبه وسخطه على مدير المدرسة، مخاطباً نفسه بلهجة أبناء الحجرية (يأمرني أعلم أولاد زغار وأنا قادر على تعليمه وتعليم اكبر منه). وأنفصل مع زملائه الأحرار من سلك التدريس وأثناء هذه الفترة أي في عام ١٩٤٤م، ١٩٤٥م وحتى صدور جريدة صوت اليمن عام ١٩٤٧م كان يكتب الخطابات السياسية والمقالات المفتوحة المطولة الموجهة للحكام المتوكليين في (فتاة الجزيرة) بتوقيع (يمني بلا مأوى).

وعندما أسست (الجمعية اليمنية الكبرى) مطبعة (النهضة اليمانية) التي صدرت منها (صوت اليمن) الناطقة بأسم الجمعية عمل مع الاخوان علي عبدالوهاب طارش ومحمد عبدالله الفسيل وهاشم محمد طالب وحسين عبدالحق الحروي وعبدالعزيز الحروي (رحمة الله) وعبدالرحمن أحمد قاسم وأحمد أمين عبدالواسع نعمان وسليمان طربوش والأستاذ/ سعيد الدمشقي والأستاذ / عبدالله طاهر في رصف حروف الجريدة وتشغيل المطبعة وادارتها، هذا الى جانب كتاباته فيها بل انه كان يتخصص في الرد على جريدة (الايمان) المتوكلية التي تهاجم الأحرار ويتولى الرد عليها بقسوة وسخرية ومن ذلك مقال نشرته (الايمان) بعنوان (عين الحقيقة) فرد عليه صوت اليمن بمقال عنوانه (عين الحقيقة العوراء).

وبعد قيام ثورة ١٩٤٨م وطلوع كل القادة الأحرار الى صنعاء طلع هو لبضعة أيام زار خلالها والده الشيخ الشهيد عبدالوهاب نعمان، وعاد الى عدن ليتولى إصدار جريدة (صوت اليمن) وبعد فشل حركة ١٩٤٨م ووصول الأستاذ / محمد محمود الزبيري الى عدن من جدة الذي أتفق مع الحاج عبدالله عثمان وعبدالله عبدالوهاب نعمان ومحمد سلام حاجب وعبده حسين الأهدل قبل سفره الى باكستان بأنه سيوافيهم بأخباره ومحل أقامته أولاً بأول وألاّ يخبروا أحداً بذلك خوفاً من أن يلحقه أذى من قبل الإمام أحمد وأذنابه، وقد نشطت المراسلات بينهم يوافيانه الى منفاه بكل ما يجد في الساحة اليمنية وينقلون أخباره ورسائله الى الأستاذ / نعمان في سجن حجة والى أسرته في صنعاء.

وفي عدن أصدر عبدالله عبدالوهاب نعمان جريده (الفضول) وهذه التسمية تعود الى الحلف الذي كان قائماً في الجاهلية مهمته إنصاف المظلومين، ولم يكن لجريدة الفضول مكتب أو إدارة أو صندوق بريد خاص بها او تلفون، اذ كان هو هيئة التحرير وحقيقته التي لا تفارق يده والتي كان يسمها (خرج الفضول) – بضم الخاء – وكانت إدارته واثبت جدارة ومقدرة وطاقة من النشاط والإمكانيات الأدبية المتنوعة، وبذلك كان هو بنفسه فريق كامل من المحررين ذوي المواهب المختلفة والكفاءات المتخصصة مزج فيها بين الجد والهزل وإن بدت في أول أمرها فكاهية هزلية محضة ...[1]وأذكر أن أول مقال سياسي جاد نشر فيها كان عنوانه (كعك الرماد) في الصفحة الأولى وكان بمناسبة الاحتفالات المقامة بعيد نصر الأمام على الأحرار والتي أقامتها جمعية الشباب اليمني الناطقة بأسم الأمام أحمد والمعارضة لنشاط الأحرار وقد كان من بين قوات الاحتفال القوة التي تكلم فيها رجال الدين أمثال مفتي الديار الحضرمية – آنذاك – عبدالرحمن ابن عبدالله السقاف والشيخ باحميش قاضي عدن منددين بالأحرار ومشيدي بفضائل الأمام أحمد إذ خصص لذلك الاحتفال مقالاً عنوانه بين المطرقة والسندان – استهله ببيتين من الشعر

(١) ذكرنا أن الفضول أصدر من قبل صحيفة أخرى هازلة بأسم صحيفة (الزبج) ولم تستمر أكثر من شهرين.

للأمام محمد عبده:

ولـــستُ أُبـــالي أن يقـــال مـــن أبل أم اكتـــضت عليـــه المـــآتمُ
ولكن للاسلام أرجـــو ســـلامةً مخافة أن تقضي عليـــه العمـــائم

وأردف بعد ذلك بقصيدة عارض فيها قصيدة المتنبي التي مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ..... بقوله:

على قدر عرض الحقو تـــأتي المحـــازم وتأتي على قدر النفـــاق المكـــارم

في معارضه سافره.

وحوت جريدة الفضول الأبواب شبه الثابتة والتي كان أبرزها مايلي:

(المقال الافتتاحي – بين المطرقة والسندان – ملحمة الإعراب – المعلقات – المقامات – إذاعة سوق الكدر) وقد حول الأبواب الثابتة والأدبية واللغوية مثل الملحمة والمقامات والمعلقات وصاغ على منوالها قصائد هزلية تندد بأساليب الحكم الامامي وأدواته القاســـية الظالمة من تنافيذ وخطط وأجور ضرائب ومشتقات الضرائب من بقايا وبدل ومآمير تقدير كالمثابرة ومآمير تحصيل مثل مأمور الصلاة (الغزالي) إذ جاء في ملحمة الفـــضول تعريفـــاً للدفع المعروف في ملحمة الإعراب كما يلي:

(مثل قولك يرفع العسكور عن مترلنا)

وقد عرضه أسلوبه هذا وموقف الصلب من أساليب حكم الإمام والامامه للـــضرب والاعتداء مرتين شجَّ في الأولى رأسه وكسرت بعض أسنانه في الثانية ووقع الاعتداءان في مكان واحد بالقرب من سينما (هريكن) أثناء عودته – في المساء من مطبعة (فتاة الجزيرة) التي كانت تطبع فيها (جريدة الفضول) سيراً على الأقدام الى مترلة الكائن أمـــام ميـــدان الباصات (بخار) أو مخزن بضائع حوله الى سكن في عمارة (خدابخش) وفي كلا الحالتين رقد في المستشفى ... (وقد جعل الفضول من هاتين الحادثتين مادة صحفية ساخرة وعـــارض أشعار الجاهليين كقولة في معارضة امرئ القيس في معلقته):

(قفا نبكي من قهر العساكر يا علي ومن جيب مخزوق الجوانب مشعتل)

وهكذا صنع في بقية الأبواب أستغلها في معارضتها استغلالا جيداً للتنديـــد بحكـــم الأمام وأساليبه بموهبة فريدة وسخرية بالغة القسوة.

ولقد ساعد طابع السخرية والفكاهة التي اتسمت بها جريدة الفضول على انتشارها كما أعطته شهرة واسعة إذ لصق به أسم الفضول فطغى على اسمه الحقيقـــي وأدرك هـــو ذلك فراح يستغل الأسلوب الساخر في تحرير الفضول، حـــتى في الإعلانـــات التجاريـــة كإعلان عن المشاط السحري، وأشهر حمامه – حوم يا حيدرة حوم – حيدرة –عكبور – عاقل الممدارة – الدرين – بائع الخردوات – خطاب مبجوش لمجلس الامن –) وخطابـــه المفتوح لمجلس الأمن وقوله:

(والله وبالله وتالله ماأرضى بك شوكي دار على شقادف الدرين) – شوكي يعني حارس– واما المشط السحري فهو خاص بإزالة الشعر الأبيض (الشيب) من الرأس.

ومما أسف له الكثيرون أن الجريدة لم تعمر طويلاً إذ أن السلطات البريطانية قد أغلقتها ولكن بقي اسمها ملتصقاً بأسم عبدالله عبدالوهاب نعمان حتى اليوم (وقد أدعى بعض المتسلقين أنهم كانوا وراء إقفال الجريدة بطرق عديدة وقد أتهم الفضول نفسه شخصية يمنية بأنها كانت السبب في اقفالها).[١]

ثم قام الفضول بالأشراف على جريدة الكفاح التي كان يملكها حسن على بيومي ويرأس تحريرها حسين علي بيومي– فأصطدم بهما الفضول لمالاقا للسلطات البريطانية))[٢] ((عرفته رحمه الله أنه إذا تحمَّس لأي فكرة أو موقف تفاعل معه وحصرَ كل فكره وهمه فيه وسخر كل طاقاته له،حدث ذات مرة أنه كان يمسك مقود سيارته بيد واليد الأخرى يفحص بها شعرات رأسه ونحن في طريقنا لتناول الغداء وكان معنا عدد من الضيوف، وإذا به يحيل مقود سيارته الى جانب الطريق فيكتب بيتاً أو بيتين من الشعر أو سخرية قاسية في خصومه من الكتاب وهو يتمتم سأسجلها قبل أن تطير من رأسي.

فسألته ذات يوم وهو يقف بسيارته جانباً:

ماذا تصنع لو جاءت القريحة وأنت في الحمام؟ فأجاب لتوه: إذا كان القلم معي أسجلها لساعتي وإذا لم فلا أشغل ذهني بغيرها.

وفي أوائل عام ١٩٥٩م كان قد أعتزل الصحافة تحريراً وكتابةً، ولكنه لم يعتزل العمل الوطني))[٣] ويذكر بعد هذا –عبدالرحمن النعمان – قصة عن موقف الفضول حينما نصح محمد الشامي مفاوض المحميات والبريطانيين بعدم تلبية دعوة غذاء رسمية وجهت له للحصول على اعتراف دبلوماسي من حيث الدلالة. ولما خاب أمل السلاطين والبريطانيين خرجت الصحف في اليوم التالي حافلة بالتعليقات على ذكاء القاضي الشامي ودهائه.

((وفي عام ١٩٥٩م ساهم في الحملة الإعلامية التي قامت من أجل بناء (كلية بلقيس) في الشيخ عثمان، فأصدر كتيب بعنوان (المعرفة سلاح المعركة) إلا أنه لم ينشر باسمه.

أنتقل الى صنعاء أواخر الستينات، وتقلد كثيراً من المسئوليات منها وزارة الأعلام وساهم في كتابة كثير من التعليقات السياسية التي امتازت بالمسؤولية.

ومنذ عام ١٩٦٨م كان يتفرغ لكتابة الشعر الغنائي والأناشيد الوطنية إلا أنه كتب بعض القصائد الشعرية التي كان يكتفي بقراءتها على الأصدقاء.

---

(١) للإلمام بجريدة الفضول يتم الرجوع الى إصدارات الجريدة المجموعة في مجلد بدار الكتب، صنعاء.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) عدد خاص عن الفضول أصدرته مؤسسة سبأ للأنباء بالتعاون مع وزارة الأعلام، عبدالرحمن النعمان.

ولم يكن انقطاعه أو توقفه عن مزاولة النشاط الصحفي والسياسي عن عجز و إنما عن قناعة وشجاعة، إذ كان يردد (علينا أن نعترف بدون مكابرة أن دورنا انتهى).

ويتحدث عبدالرحمن نعمان قائلاً ((وقد حرص الفضول منذ مستهل هذا العام ١٩٨٢م على جمع أشعاره المبعثرة في قصاصات استعداداً لطبعها، كما كان ينوي إصدار كتاب يسميه (مختارات الفضول) يجمع فيه بعض كتاباته في الصحف منذ الأربعينات وبالذات الفضول، إلا أن الأجل وافاه قبل أن يحقق ذلك ..

كان رحمه الله قمة في مواقفه السياسية وأعماله الأدبية، قمة في هجائه، وقمة في شعره العاطفي، وقمة في شعره السياسي، وقمة في شعره الوطني. إلا أن قوة أعماله التي تعرف بشخصيته وتبرز مواهبه ومقدرته ونبوغه، كانت تدفعه الى الأضواء وتعرف الآخرين به رغم كل محاولات التواري))[1] وقد رثاه الكثير من الأدباء أمثال عباس المطاع وحسن الشرفي وإبراهيم الخضراني وغيرهم.

ولأن المراحل التاريخية تتميز بالاختزال وفقدانه الأثر والمصداقية التي تطحنها الأيام – فقد حاولنا أن نكون منصفين للفضول من خلال التوثيق لمرحلة عدن التي حاولت القصيدة الغنائية للفضول أن تخفي بعض معالمها بدون قصد – لكنه التحول التاريخي وتقلبات الأيام....

فما الذي دفع الفضول الى كتابة القصيدة العاطفية المغناة – بعد تلك المرحلة المريرة من الكفاح..؟!

والإجابة أو بعضها في قول عبدالعزيز المقالح:

((كان الشاعر عبدالله عبدالوهاب نعمان، الشهير بالفضول، قد اتجه قبل وفاته بسنوات الى كتابة القصيدة العاطفية المغناة، وكان بعض أصدقائه والأدباء منهم بخاصة – قد رأوا في هذا الأتجاه بدية مرحلة جديدة مع الإبداع يخوضها الشاعر الفنان المرهف الحس، بعد أن أقتنع بالتخلي عن الصحافة والسياسة مفسراً ذلك الاقتناع – بعد الظروف النفسية التي مر بها الوطن (٦٢-٦٩)، بأن لكل عصر دولة ورجال، وكانت المحاولة ناجحة ومتميزة وضعت الشاعر الساخر، الكاتب السياسي أمام انعطاف حاسم في حياته الأدبية والفكرية وجعلته يبدع عدداً كبيراً من الأغاني والأناشيد المستلهمة من وجدان الشعب ومن روح الوطن المنتصرة ولقد نسي الكثيرون الفضول الشاعر. والفضول الكاتب، والفضول الصحفي، ولم يعودوا يتذكرون منه سوى هذا الهديل الجميل الذي يتردد عذباً قوياً من أجمل حنجرة يمنية، والفضول لم يتوقف عن كتابة القصيدة غير الغنائية، وإن كان قد توقف عن الكتابة النثرية إلا أنه لم يكن ينشر شيئاً من تلك القصائد مكتفياً

(١) نفس المصدر السابق

بهذه الأغاني لعله بكلمات الحب الفياضة يستطيع أن يكبل المـوت ويحاصـر التخلـف والكراهية، ولكنه كان قد نجح في محاصرة التخلف والكراهية فإنه لم يـنجح في محاصـرة الموت ولا حتى في تأخير موعده وهيهات للإنسان أن يستطيع، لقد نجح الهديل الجميل في النفاذ الى القلوب وفي تحرير الأغنية العاطفية من طابع الحزن والأسى لكنه فشل في مد حياة الشاعر، وأثبت الموقف الفاشل للهديل الجميل أن الموت حقيقة مؤكدة لا مفر منـها ولا جدوى من نشدان البقاء بعداً عنها.

وهل استطاع الفن والشعر العلم والذكاء والمعرفة أن تضمن للإنسان المبدع سـوى هذا القدر الضئيل من الخلود الإنساني وهذا الخلود الأدبي؟! إذا تحقق رمز وفاء عميق من الحياة للراحلين من البشر، فمن يحاولون ألا يتركوا العالم إلا وقد أصبح بعد وجودهم فيه أكثر نضجاً وأكثر امتلاء بالفن والمحبة والجمال، فالفن بمختلف أشكاله القوليـه واللونيـة والصوتية هو المقياس الوحيد الحميم والأبدي في هذا العالم الذي يبدد أكثر ما يكون جمالاً في الصورة والنغم وفي الكلمة والإيقاع))[1]

ولأن المقام ليس في مجال المقال الذي نريد إثباته هنا وهي طريقتنا في تقـديم هـذه الدراسة الى القارئ، فهم يدركون بلا شك أن موقع بعض القصائد قد يكون في غير المكان الذي وضعت فيه، ولكن المراد والمؤمل من دراستنا هذه إيضاح صورة ستتـضح أكثـر بالاستمرار في القراءة المنظمة من خلال الأبواب القادمة ....

ولأن الهديل قد أختنق يوم ١٩٨٢/٧/٥م، فلا يسعنا إلا أن نقرأ هذه الأبيات وإذا كان للبعض صوت جميل فليسمع الآخرين معه هذه الأبيات التي تعبر عن حقيقة الفضول الذي لم يجد نفسه إلا في حب الوطن .... ويوم أكتمل حبه للوطن لم يدرك نفـسه إلا في حب الوطن.. ويوم أكتمل حبه للوطن لم يدرك أنه لن يستمر ... وأن من يبحث عنه لن يجد أمامه غير كلمة مهلنيش:

مهلنـيش بـين الهنـا والافـراح أيـن الـسلا مـني ومـن زمـان راح
واين الحلا والروح كلـها جـراح مهلنيش
لا تـسأليني يـا حمـام أيـني ما فيش طريـق بـين الفـرح وبـيني
مادام حبـيبي مـش قبـال عـيني مهلنيش
حبـايبي أرتـاحوا وعـذبوني ووسـعوا جرحـي ونكئـوني
وباعـدوا عنّـي وباعـدوني ببعـدهم عـن الهنـا والافـراح
لمـن تـضوي يـا صـباح بـالنور لمـن تغـني يـا حمـائم الـدور
لمـن لمـن نـسيماتي يـا حـور وتقطفـين زهـر الخـزام ممطـور

(١) من أغوار الخفاء الى مشارف التجلي – د.المقالح – دار الكلمة – صنعاء.

وأنا مـــن الـــدنيا قلـــبي مهجـــور قـــبري بوديـــان الـــضياع محفـــور
قبل الهوى والحب كنـــت مرتـــاح وكنـــت عربيـــد الفـــؤاد صـــداح
واليـــوم مـــابي غـــير آه أو آح مهلنيش
يا صـــوت أوتـــاري ويـــا لحـــوني كفـــي كفـــى مـــا كـــان في شـــجوني
كفي رشاش الـــدمع مـــن عيـــوني لا تـــذكري مـــن لـــيس يـــذكروني
وإن ســـــآلوا عـــــني ودوروني مهلنيش
يـــا مـــن جفـــوا قلـــبي وســـيبوني وأحرقـــــوا ليلـــــي وســـــهدوني
لا تاخـــذوا عقلـــي إلى جنـــوني انـــسى الجـــوى منامهـــا جفـــوني
تـــصدقوا بـــالنوم وارحمـــوني مهلنيش[1]

فحياة الشاعر اختزال طبيعي لحركة الوطنين حيث واكب مسار الحركة منذ بداياتها ثم اندفاعها وسقوط محاولتها الأولى، ثم النكوص فالإحباط فالتجديد وما رافق ذلك مـــن تناقض وتوتر وانفعال بين عناصر التغيير وقسوة الظروف وطموح الطاقات الطلائعية مـــن أبنائه الذين قاوموا حالة الموت وبشروا بالتطور في اتجاه الحياة الجديدة، وكانت أعمـــارهم القصيرة وقوداً جميلاً لهذا التغير الحافل بكل الأفكار، وبكل أشـــكال التطـــور المختلفـــة، الناقص منها والتام، الإيجابي والسلبي النافع والضار، المعقول واللامعقول))[2].

و((كان الفضول أحد الأبناء الأكثر نباهة لذلك المجاهد الشهيد وفي ظل الظـــروف القاسية التي عاش فيها الوالد تعرض الطفل للخوف صغيراً، وعانى من شـــعور التمـــزق والضياع، وتحملت الطفولة الباكرة من صنوف الاضطهاد وسلبيات الواقع المر ما غذى في نفسه الإحساس بالثورة في وقت مبكر، وما جعله يصبح جندياً من جنودها قبل أن يـــصل الى السن القانوني للتجنيد، وإذا كان الكتاب والدارسون سوف يواجهـــون كـــثيراً مـــن المشاكل عن متابعة شباب عدد كبير من رجال الحركة الوطنية، فان الأمر يختلف بالنـــسبة للشاعر عبدالله عبدالوهاب نعمان، فقد أعطاه ارتباطه المبكر بالحركة الوطنية موقفاً متميزاً يجعل أي دارس يعلم الكثير من مرحلة شبابه، ويتعرف – وهذا هو الأهم – على الكثير من ملامح تطوره الثقافي والنفسي، وستكون مرحلة إقامته الطويلة في صنعاء و زبيد – هـــي اخصب مراحل حياته واحفلها بالنشاط السياسي والثقافي، وقد بدأت هذه المرحلـــة مـــع أواخر النصف الأول من الأربعينيات، وهي الفترة التي أنتقل فيها عدد من المناضلين اليمنيين من تعز الى عدن في طريقهم الى مصر لتأسيس او تنظيم سياسي علني واقامة جبهة من الأحرار والمهاجرين لمقاومة نظام الإمام يحيى، أغرب أنظمة التخلف والخرافة في القرن العشرين))[3].

(١) مجلة المعرفة – عدد ١٧ – ملف عن الفضول ص (١٢٦) – صادرة من تعز شهر (٩-١٢) ٩٣م.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق.

وعند قرأتنا لقصيدة الفضول التي أوردناها سابقاً (في ذكرى ثـورة ٤٨م)، نـشعر بحقيقة عكسية لما صار إليه واقع الحال وما كان يجب وذلك يعود إلى ((نـشأة الفـضول الشاعر والكاتب والصحفي والذي لم يظهر دوره واضحاً وجلياً إلا بعد فشل حركة فبراير ١٩٤٨م فقد تسلم الراية وحيداً وظل يقاوم الليل الذي جد على اليمن بعيد رحيل ليـل الإمام يحيى، حتى ظهرت أجيال جديدة تتحمل عبء القضية مـن منظـورات أخـرى، وبأساليب تختلف عن أساليب ومقومات الآباء))[١].

و((كانت الهزيمة الناتجة عن فشل الحركة الانقلابية الأولى تنطوي على مخاطر رهيبـة ليس أهمها استئصال جذور الأحرار بالقتل والسجن والتشريد، و إنما إجهاض الإحـساس بضرورة الثورة على الطغيان والشعور باليأس من محاولة التغيير، ومن هنا من هذا الموقـف الخطر يتكشف أهمية الدور الذي قام به عبدالله عبدالوهاب نعمان من خـلال صـحيفته المتواضعة (الفضول) والتي سيتخلى من الآن عن اسمه العائلي المشهور ليحمل اسمها وتصبح تعبيراً عنه كما يصبح هو تعبيراً عنها يشكل حضور أحدهما الحضور الغائب للآخر...[٢].

وكان سقوط حركة ١٩٤٨م بالنسبة للغالبية الساحقة من أبناء اليمن مأساة عامـة لكنها بالنسبة للفضول ولعدد من زملائه كانت مأساة عامه وفي ذات الوقت مأساة خاصة، فقد قتل الطغيان بعد أسابيع من سقوط الحركة والده المناضل الجسور، كان شيخاً طاعناً في السن، أقتاده الزبانية من السجن بعد أن جردوه من قيوده وجروه بحبل وسـاروا بـه الى ميدان الإعدام حيث وضعوا عنقه النحيل في خشبه جافة، وجاء السياف الأسود ليـضع سيفه الحاد على العنق الكريم ويفصله بضربة واحدة، ظل يتحدث كثيراً عن براعتها ودقة إحكامها، كان الابن ما يزال في عدن وحيداً وصلت إليه الأنباء الفاجعة، حزن كثيراً وتألم كثيراً، لكن حزنه لم يتفجر يأساً وخوفاً و إنما تفجر غضباً وسخرية، وعلى ضوء الدم المراق وأحلام الغربة بدأ رحلته الجديدة مع(الفضول) في فضح نظام القتل والتخلف، و لأنه كان من اعرف الناس بالمستوى الثقافي والمتدني للناس في بلاده فقد رأى أن يتبسط في حديثه الى الشعب وأن يكون قريباً الى الوجدان العام سواء في شعره أو نثره، في جده أو هزله وقـد رأى كذلك أن يجعل الشعب يشعر أنه في محنه خانقة وفي بلية منقطعة النظير، وذلك مـن خلال محاولته الدءوبة على إضحاكه من أوضاعه اللامعقولة (وشر البلية ما يضحك) كما يقول القدامى وكما قالت ذلك الفضول في كل أعدادها ولعلّ التناول الجـاد للأوضـاع القائمة في البلاد بعد المذابح الرهيبة، والقمع المرعب كان كفيلاً بخلق موجة من اليـأس،

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) بعودة القارئ الى الصفحات السابقة سيتعرف على ملامح الصحيفة (الفضول) ومجلـدها القـابع بـدار الكتب بصنعاء.

لذلك فقد كان الأسلوب الساخر العميق، والتناول الفكاهي المرح، خير وسيلة لتجسيد الغضب وامتصاص نوبة الخوف من أعماق النفوس، وقد نجح ذلك الشاب المفجوع – بوالده– بعد فترة من الذهول الى هذه الطريقة التي حررته من الكابوس العنيف))[1]

وكابوس ١٩٤٨م لم يكن يمنياً فقط بل كان عربياً أيضاً، ((فقد كانت النكبة اليمنية الأولى المحلية في مارس ١٩٤٨م بسقوط فلسطين وقد استطاع الفضول أن يزاوج بين المأساتين، وأن يفضح الموقف العربي المتفرج من اليمن ومن فلسطين على السواء فقد شاركت الدول العربية آنذاك كما شاركت المنظمة المدعوة بالجامعة العربية بنصيب تاريخي في ذبح أحلام الإنسان العربي في اليمن وفلسطين))[2].

وقبل أن نطوف في بعض النماذج من الشعر الساخر للفضول والذي بدأ حياته الشعرية به كما يبدوا، وجب علينا انتقاء قصيدة من ديوان الفيروزه لنعرضها هنا بمناسبة الكلام السابق والتي نتبين من خلالها وحدة الأرض العربية وحدة الهم الذي كان يعيش به الفضول.. وإن كانت القصيدة قد بلت في مرحلة تالية، فإنها تعبر عن الواقع العربي الذي كان وما زال: –

صاحبي من راح يسدي لي عيوبي ويريني دربها بين دروبي
من أتى ممتدحا في حياءٍ سلامي، لاوقاحات حروبي
لا الذي أفقد تمييزي به فأرى التقوى على وجه ذنوبي
وأميني من مشى به صدقُه نحو اشراقي، لا نحو غروبي
ليس من يسرقني أمني ويرهب احساسي بذعر المستريب
كم أتى الرَّيبُ ارتجافاً في طمأنينة النفس، وفي لُبِّ اللبيبَ
كم أرآبَ الناسَ في الناس وأمعن فيهم حاطباً أمنَ القلوبَ
لن يتمَّ المرءُ إلاَّ قاتلاً وحشه الكامنَ في الشك المريبَ
كلَّ نفس وبها وحشُ من الشك يعطيها ضراوات النيوب
كم سيبقّى السوءُ في الناس صناعهَ يهبُ الهابطَ في الناس رَفَاعهَ
فيُرى الصدقُ انحداراتٌ والعفافُ عن الأثمِ هبوط ووضاعه
ويسير الخير عُرياناً كضيف لصوص سرقوا منه متاعه
صانعوا الأحزان كم سرتم على شرف الخيرِ بذآءات ورقاعه
وسكبتم عهْراً من سؤكم في مزاياه وأخزيتم طباعه
كم وضختم أنكم في الضوء عجز وأعيآءُ، وفي الليل استطاعَه

(١) من أغوار الخفاء الى مشارق التجلي المقالح – دار الكلمة – صنعاء (١٠٢).
(٢) المصدر السابق نفسه.

يـــا خفـــافيش ويـــا أكثـــر منـــها ردآءات، وقبحـــــاً وبـــــشاعَه
اتركـــوا الفجـــر علـــى ملمعـــه ألقـــاً، في دربكـــم يـــذري شـــعاعه
لا تمـــدَّوا الليـــلَ في مطلعـــه فتَـــرى أفـــاقُكُمْ تبكـــي ضَـــيَاعَهْ
ودعـــوا الفاضـــلَ في مركعـــه وأحمدوا فيـــه عـــن الـــسوء ارتفاعَـــه
لا تَـــسُلُّوا فـــضلَهُ مـــن طبَعـــهَ وتدسُّـــوا فيـــه للـــسوء انـــصياعهْ
وذروا الفـــارسَ في موقعـــهَ ظـــافراً، يحتـــضنُ النـــصرُ قلاعـــه
لا تفيـــضوا عجـــزكم في وســـعه خـــشْيَةً ضـــارعةً تلـــوي ذَراعـــه
لا تَحَلُّـــوا وهَنَـــاً في درعـــه وتَخيْلـــوا رفـــضه القـــاهرَ طاعـــه
لا تـــسوقوه الى مـــصرعه تحـــت عـــشوائية تخفـــي التماعـــه
لا تُذلُّوا نـــصره لا تغمـــدوا ســـيفَه في وحَـــل يـــسكنُ قاعـــه
كـــم سَـــنَبقى لا تُـــرى أســـواقُنا غـــير ســـوقياتنا فيهـــا بـــضَاعَهْ
وترى أجـــبنَ النـــاسِ تمـــارسُ فيهـــا الغـــشَّ- شـــارين وبَاعـــه
ليعـــيشَ الـــصدقُ كـــذَّاباً وفحـــواه لغـــوٌ، رفـــضَ الـــسمعُ سَـــمَاعَهْ
وهويَّـــات المغيريـــنَ علـــى الخـــير في النـــاس مَهابـــاتُ مُطَاعَـــهْ
فـــشل الرَّفَّـــآء في ترقيعنـــا ونَفَـــتْ عوراتنـــا عنـــها رِقَاعَـــةْ
وتَمَـــشَّينا عرايـــا فوقهـــا ورفـــضنا الـــسترَ بـــالعُرىِّ قناعـــه
هـــل أتـــى خـــيرُ الينـــا لم نجـــده لنـــا خَـــصْمَاً.. تجـــشَّمنا صـــراعه
أو أتانـــا خَيِّـــرٌ، لم يقـــدر الحقـــدُ فينـــا مـــن علـــى الأرض اقتلاعـــه
وفَهِمْنـــا دون قـــصد أنَّ فينـــا عـــن الأدراك والفهـــم مَنَاعَـــهْ
كـــم طـــوالُ نحـــنُ والطُّـــول بنـــا لم تـــزل فيـــه إلى الثـــدي مجاعـــه
قَـــصُرَ الرُّشـــدُ علـــى قاماتنـــا ومشى في طولهـــا سِـــنُّ الرضـــاعه(١)

وللشعر الساخر الذي بدأ به الفضول حياته الصحفية متأثراً بأستاذين جليلين هما الشاعر زيد الموشكي و الشاعر محمد محمود الزبيري. ومنتمياً إلى ذاته التي كانت مطبوعة على السخريه أصلاً – وسنتحدث عن هذا الجانب في باب الفضول الساخر من حيث الانتماء لهذا الفن، ولكن لأن موضوعنا الآن خاص بمرحلة نضاله التي كانت عدن مركزها وبداية انطلاقها، و قوى موهبته الشعرية الساخرة .....

وفي بعض بل أكثر القصائد الفضولية التي نشرها في عدن نجد ألفاظاً كثيرةً حفلت بها تلك القصائد التي كان ينشرها في جريدة الفضول – ولا يوجد سبب لهذا غير رغبته في

(١) ديوان الفيروزه – قصيدة صانعوا الأحزان – سؤال عربي – المطبعة العصرية (١٠٧-١١٢).

مخاطبة عامة الناس الذين كان يوجه إليهم خطابه لاشعارهم بما هم عليه من واقع مؤلم وبنفس الوقت فإن الأفكار المطروحة في تلك القصائد ذات أثر على مختلف الفئات الاجتماعية ... كهذه القصيدة التي يخاطب بها الشعب على لسان الإمام يحيى ...

فرش التراب وبالحصير تأزرا شعب بحمد الله يمشي للورا
أدبته بالفقر حتى يرعوي وحملته بالجوع كي لا يبطرا
ومشيت فوق ضلوعه مترفقاً وملأت أكواخ العجائز عسكرا
وجلدت ظهر أبيه حتى لم يقم أحد ينطق أو يحرك مشفرا
وقطعت دابر كل لص أصغر ليصير جيبي فيه لصاً أكبرا
ساويت بينهم بفقر ساحق يضحوا سواسية به فوق الثرى
هذي المساواة التي لم يستطع بطل يحققها لشعب في الورى
قسماً بظلمه كلّ سجن لن يري أحد لهذا الشعب إلاّ ما أرى
إنّ القيودَ أو اللحود وقاية ممن يحاول فيه أن يتغيرا
شعبي العزيز: وقيت من حرية ووقتك جدران السجون تحررا
أرقد ونم وأهنأ ودُمْ في نوم أهل الكهف في وجل الشقا مسمرا
ثم الصلاة على النبي وآله مادق قيد في السجون وصرَّرا[1]

كانت تلك ((هي خطبة العرض الأمامي كما نظمها الشاعر الفضول، وللأمانة الأدبية فإن اكثر من شاعر يمني يتنازعها ويدعيها إلا أن العارف بأسلوب الفضول وبطريقته الساخرة لا يستطيع إلا أن يحكم بها للفضول فهي أقرب الى ما كتبه من شعر ساخر، فضلاً عن كونها صورة من نفسه –الساخرة– الثائرة الهازلة، ولم يبرع شاعر من شعرائنا في مجال السخرية الشاعره ولا في مجال التبسط في انتقاد النظام الأمامي كما فعل الفضول في كثير من شعره، وفي معظم كتاباته النثرية وهذه الخطبة الشعرية هي بعد هذا وذاك تشبه قصائد نهج تقليد القصائد العربية القديمة والجاهلية الطللية بصفة خاصة وربما لأن جزالة اللفظ وبساطة المعنى الى الإسفاف يخلق المفارقة الظريفة الباعثة على الإضحاك كما في هذه القصيدة اللامية التي عارض بها لامية عنترة الشهيرة ونقل أحداثها من ميادين المعارك والقتال الى ميادين البطون والموائد، وقد وصفها الفضول نفسه – ساخراً – بأنها ستقلب تاريخ الأدب وترد وجهه في قفاه وتجعل رأسه في الأرض ورجليه في الهواء – قال عنترة:

حكم سيوفك في رقاب العذل وإذا حللت بدار ذل فانزل

(١) مشارف التجلي .... د. المقالح ص ١١٢،١١٣. دار الكلمة – صنعاء

وقال الفضول:

حكم أكفك في صحون المأكل وإذا حضرت على أكال فانزل[١]

والسؤال الذي يبحث عن جواب هو أن الفضول إن ظل في عدن في فترة ما بعد إيقاف الفضول الجريدة ظل يمارس السياسة بطرق مختلفة فما الذي أسكته صحفياً حتى قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ... وإن كان موقعه بعد الثورة التي كانت نتاجاً لتلك المواقف الوطنية التي قام بها هولاء الأفذاذ ....؟! وأين شعره بين عامي ١٩٥٠و١٩٦٥م.

وقد أشار المقالح الى ذلك بقوله ((لابد من الإشارة الى فترة التوقف غير القصيرة التي أنصرف فيها عن كتابة اشعر، وربما الكتابة بمختلف أنواعها، وقد أدركته هذه الفترة في السنوات التي سبقت ثورة سبتمبر وفي السنوات التي تبعتها، وكان يومئذ قد أنصرف عن الشعر والأدب الى بعض شئون الحياة، ربما حدث ذلك يأسا من جدوى الشعر، وتعبيراً عن عبث الكلمة بعد محاولات التغيير الفاشلة، وبخاصة تلك التي سبقت الثورة وذهبت بعشرات الرؤوس. وقد واصل الفضول انصرافه عن الشعر بعد الثورة ولم يعد اليه سوى في السبعينات عن طريق الأغنية التي أعادته الى الشعر، وجعلته يعود الى تفجير غضبه الشعري. كما فعل في قصيدته الأخيرة التي تصاعدت معها آخر أنفاسه المحترقة في هول الجحيم الفلسطيني اللبناني – عام (٨٢م)–:

هذه كل المرايا فاكسروها فلكم تبدون فيها بشعينا
واقروا هذا بمقت والصقوا كل حرف معكم كان أمينا
والعنوه، والعنوا الصدق به طالما للصدق كنتم لاعنينا
وقطعتم داخل الاظلام عُمراً وعشتم خارج الضوء سنينا
وسقطتم... فادخلوا أجحاركم وانشدوا فيها نشيد الضائعينا[٢]

ويبدوا أنَّ الحياة علَّمت الفضول معنى الفرح الصافي العظيم وهو يعثر على صديق صدوق في زمن الخداع والغش والزيف:

يا من ركنتُ الى اخائه ووجدتُ أمني في وفائه
فإذا أتت ظُلَمُ على داري هَلَّل في سَمائه
نجماً يُضئ مسالكي فتسير خطوي في ضيائه
وإذا ظمئتُ أتى كغيث المزن ينصحني بمائه
وأسالَ فوق خميلتي سيلاً تنظف من غنائه

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق نفسه.

وتجيـــئني منـــه الـــصنيعةُ في ثيـــاب مـــن حيائـــه
يعطـــي الإخـــاء حقوقـــهَ موفـــورةُ قبـــل اقتـــضائه
كـــم ســـرت في معروفـــه أجتـــر ذيـــلاً مـــن ردائـــهَ
أنـــا بلبـــلُ لا شـــئ الاَّ أنـــت يُـــسمعُ في غنائـــهَ
في صـــبحه يـــشدوك أُغنيـــةً ولحنـــاً في مـــسائه
وإذا تـــرنَّم أو شـــدا بـــسواك أخطـــأ في أدائـــه
يـــا قلبـــك المخـــضلّ كـــم أعطـــي لقلـــبي مـــن عطائـــه
وحـــنى عليـــه كأنَّـــه فـــرخ تولَّـــد في غـــشائه
كم باخل حـــسب النـــزو ع إلى المـــرؤة مـــن بلائـــه
في الخـــير أُمـــي، ويلثـــغ نطقـــه في لفـــظ رائـــه
ويـــراه ورطتـــه الـــتي في بعـــضها كـــل انتهائـــه
كالليـــل ممقـــوت الـــدَّجى يأتي الـــصباح مـــن اختفائـــه
يـــا مـــن يعـــاجز نبلـــه قلـــبي فيعجـــز عـــن جزائـــه
لم يلـــق مـــا يعطيـــك غـــير محـــبتي وســـوى ثنائـــه
أنـــت الأعـــزُّ لديـــه والأوْلى بـــه مـــن اقربائـــه
يـــأتي القلـــوب مباهيـــاً بـــك رافـــلاً في كبريائـــه
يـــا ضـــخمُ مـــا ســـاواك في قلبي الكـــبير ســـوى آبائـــه

((يغفر لي القارئ بعد أن يصل الى البيت الأخير في القصيدة أي مبالغة للاحتفاء بهذه القصيدة النادرة في شعرنا الحديث، والتي أراه في بنائها المتين وفي صورها الشعرية المبتكرة نموذجاً بديعاً للقصيدة اليمنية الخارجة عن المسار التقليدي لا بما تقدمه من نفحات شعرية جديدة التعبير والأخيلة، وإنما بما تشيعه من صدق المشاعر ودفء الوجدان، وبما تـــسنه أو تشرعه – في زمن الجمود – من ضرورة الوفاء بالجميل حتى لا يموت الجميـــل في أفعـــال الناس وفي قلوبهم))[1].

والآن ونحن في باب عدن ألا يحق لنا أن نستروح في ظلال تلك الأغنية التي ألهبـــت مشاعرنا يوماً ما ونحن في عدن، فتسمع المغرمين وهم يرددونها في حافة اليهـــود وحـــسين والقاضي والسوق الطويل والزعفران – كان ذلك في منتصف الـــسبعينات مـــن القـــرن العشرين.. والقلب ينبض ببراءة الطفولة المقدسة: كما قال الشاعر أحمد الجابري:

(١) المصدر السابق نفسه.

أشكي لمن والنجيم الصبح قلبي الوَلُوع لا ذقت راحة لا جفّت بعيني الدموع
من يوم غاب خلّي واعذابي أنا والشوق ذايب بقلبي في حنايا الضلوع
كم جَرّح السهد جفني واعتراني الضنا والهجر في الحب بلوه والتعب هو لنا
من قال إنّ المحبة للمولُه هنا فالحب عندي مُجربٌ واسألوني أنا
أفنيت عمري سدى والقلب ظامئ الفروع أبكي زماني مضى في الحب كله عنا
واسأل عليَّ دموعي والليالي شهود أرعَى نجوم الأحبه في طريق المنى
واسنِّبْ الليل كله في انتظاره يعود ود الأحبه وفا إلاّ حبيبي أنا
لا عاد يذكر موده في الهوى أو عهود فرق الأحبة قدر ما بعده إلاّ الضنا
يكفيك يا قلب ما قد صار في حبنا كفكف دموعك وخَلّي العمر يفرح بنا
لا تبكي ماضي ولا تسأل على أمسنا خلّيك سالي عسى بكره يكون الرجوع
الحب في الوصلَ جَنّة دانية الجنا والنار في البعد عنها يستريح الحسود
أضناني ليلُ النوى كم لي أقاسي أنا ساهر لوحدي وغيري ما عليهم رقود
من لي على الصبر مثل أيوب وانسى العنا شارُدْ روحي دقيقه من عذاب الضنا
والصبر إنْ طالَ لابد ما يكون له حدود[1]

إيه والله (أفنيتُ عمري سدى والقلب ظامئ الفروع .....)
أمّا الأن فنعود الى الفضول ....

تلك كانت السنوات الثائرة في حياة الشاعر وهي سنوات أخذت من تجارب الحياة كل ما فيها من يأس واحباط، فكان الأثر كبيراً على الفضول الذي غاب عن الساحة الصحفيةُ والأدبية لسنوات عديدة .... ولاشك أن العشرين سنه من (١٩٤٤م إلى ١٩٦٤م) مثلاً قد زادت موهبة الفضول اتقاداً ومراساً ومراناً وسعة اطلاع وثقافة بحكم التنشئة التعليمية الأولى التي كانت قد بدأت بالعلوم العربية والنحوية على يد مشايخ صنعاء ثم زبيد، وبعد ذلك فتحت ثقافة الأحرار عليه أبواباً جديدة من المعرفة ابتداءً بذلك اللقاء الذي جمعة بالشهيد زيد الموشكي وبالشهيد محمد محمود الزبيري ... وهذان الثائران والشاعران، كان رافداً عنيفاً وقوياً لموهبة الفضول المفطور عليها من الصبا الباكر والذي نشأ معها في أودية وسهول وجبال وانهار الحجرية وذبحان والتربة والنشمة والشرف والبركاني ووادي الضباب ووادي ورزان.... جمع الفضول ثورية الزبيري الشعرية وصوفية زيد الموشكي الساخرة من الوضع القائم، وإنه لأكيد، إن نفحات الأثنين هي التي دفعت

(١) للشاعر أحمد الجابري اللتي غنى له أيوب عدداً من القصائد الجميلة التي يعتقدها البعض من كلمات الفضول .

بالفضول – وبما أمتلكه من مواهب وحضور بديهه الى صقل موهبته الشعرية بالقراءة والتثقيف بجوار العمل السياسي والعمل للحصول على لقمة العيش التي يضمن بها حياة كريمة ... ثم كانت قد تكونت لدية مبادئ واعتقاد بانتهاء الدور على من هم في جيله بقوله (علينا أن نعترف وبدون مكابرة أن دورنا انتهى) ... فهل حقيقة أن الفضول كان يعتقد ذلك؟!

وإذا نظرنا إلى هذه الفترة فعلينا أن ننظر إلى آفاق الستينات (٦٢–٦٨). حيث كانت الحرب الأهلية تطحن برحاها كل الآمال والأحلام الثورية، ثم جاءت أحداث أغسطس الدامي التي أكلت الأخضر واليابس في نفس عبدالله عبد الوهاب نعمان (الشاعر ،المحب، المسالم، الباحث عن الحب في كل مكان، وكانت قبل ذلك صنعاء قد ارتجفت مشاعرها واختنقت نبضات قلبها بحصار السبعين الذي ترك أثره البالغ من الحزن والألم – في نفس الفضول حتى اندحار الأعداء.. حتى كتابته قصيدة (شعلة السبعين – وعن موقفه المتألم منها وفرحه بالانتصار، ولكن أحداث أغسطس كانت لفرصته بالمرصاد ... إلا أن فرحه ظل قبساً من الوطنية الملتهبة في آفاق السماء اليمنية الواحدة .... وهذا هو الحس الوطني الذي لم تطفئة أحزان الأيام وانكسارات السنين:

منبعُ الموت آراني ألف ثُلّه ثلاً فيها رأيتُ الموتَ كُلّه
إن فيها أعين الموت مُطله كلُّ فرد ضيغم يلبس حُلّه
هابطاً من جوف صقر في مظله آخذاً في حومة الموت محله
وخصام العقل في دفع مَذلّه قمّة في العقل والعقل أحَلّه

إنّننا وجلُ يرهبه كلُّ وجل
هاهنا في رحاب السهل أو صدر الجبل
كُلّنا بطلُ يسبق للموت بطل
همُّنا أنْ نلقى النصر أو نلقى الأجل

في سمائي سوف أمضي وسأمضي فوق أرضي
حامياً أرضي وعرضي مُعطياً للذل رفضي
أبداً أحمل ايماني معي وضميري ساجدُ في أضلُعي
لا أُبالي أين ألقى مصرعي في عجاج الزحف أو في مركعي
إنّ محراب صلاتي موقعي ومعي فيه يُصلّي مدفعي
حذر قادحة في اصبعي .....(١)

(١) كما وردت في المصدر.

أمتي لن تـــشهدي إلاّ انتـــصارا
وأكـــاليلاً وأزهـــاراً وغـــارا
شعلةُ الـــسبعين لم تـــبرح منـــارا
مالئـــاً تاريخنـــا نـــوراً ونـــارا
خلفهـــا كـــلُّ شـــهيد يتـــوارى
قـــسماً منَّـــا جديـــدا لـــكَ لـــن ننـــسى شـــهيدا
وســـنعطيك الخلـــودا ومـــن المجـــد مزيـــداً [1]

غابة الوجدان الإنساني النبيل الذي يكون في الضمير ما يبرزه الى الوجـود بـصور عديدة، ولأن الفضول كان كالسيل في غزارة إنتاجه الشعري البديع منذ ١٩٦٨م وحتى لفظ آخر أنفاسه، وهو انتاج شعري، لا يحتاج إلى ذلك التصفيق الخائـب، لأن موهبتـه تتحدث وأشعاره تتحدث، ونكاد نرفعه الى قمة شامخة لم يرق إليها – من أولئك الكبـار الذين نفخت لهم الأبواق الاعلامية – أحد، وهذه أمور سنتناولها في أبواب قادمة ... لكن التمزق الروحي الذي عانى منه الشاعر كان يمثل الحجر المتقد الذي يشعل في دم الفضول نيران المشاعر المتدفقة بالوفاء للأرض والإنسان والأصدقاء والأخوان والمرأة..، ولكل مـا يخطر على بال رقيق الإحساس (يا صدق حبي لا سراب وهمي) .... وشـاعر في حجـم وموهبة الفضول. ومن نفس ((النبع العاطفي الرقراق، وهو هذه المرة يترقـرق دموعـاً، ويتشكل وجعاً حزيناً، ويتكسر على طريق الموت، بعد أن أختطف الأخير واحداً من هؤلاء ـ (وما أكثرهم في حياة الفضول) – الأحباب الذي تكون الحياة بوجودهم معنـا أكثـر إشراقا وجمالاً، وبعد رحيلهم الفاجع تغدو سجناً كئيباً، وتفقد كل بريق لها في العيون، ومن هؤلاء ذلك الانسان السعيد الذي لم يُجرَّب البكاء على الأحباب ولم يُجَّرب رؤية الشفق في الظهيرة، ورؤية الليل في منتصف النهار – كما في القصيدة التالية:

والقصيدة لم تحدد اسماً للراحل الذي بكت فراقه الطويل، وماذا تجدي الأسماء، يكفي أن جزءاً من القلب الشاعر قد تفتت وأنّ جرحاً آخر قد أضيف إلى بقية الجراح الساخنة، وأنَّ الدنيا قد صارت أقل جمالاً مّما كانت عليه))[2]

وهذه الأحزان التي طافت وحومّت في سماء الفضول بدأت بأحزانه باستشهاد أبيـه الشيخ عبدالوهاب نعمان و انتهت بمرثاته لنفسه بقصيدة (يا من رحلت إلى بعيد)، ولنا مع أحزانه جولات. ولكن الآن دعونا نجول في هذا اللحن الحزين:

راح مَنْ رونقَ بـالأخلاق عُمْـرَه ومضى من أسكن الإيمـانُ صـدره

(١) مجلة المعرفة – العدد ١٨/١٧ ص ١١٩ – ملف خاص عن الفضول – ١٩٩٣م.
(٢) من أغوار الخفاء الى مشارف التجلي –د.المقالح – دار الكلمة ط. ١–١٢٤

ليـــتني أمتلـــك الأفـــقَ وفجـــره كنت لقيتُ بـــروح الفجـــر ذكـــره
ليت أنّي أمتلـــك الغـــيم وقطـــره كنتُ ظلّلـــت بكـــلّ الغـــيم قـــبره
يـــا لقلـــبي لم يـــزلْ مـــن فقـــده ساخن الجـــرح ولم يـــبرح وجيعـــا
لَمَ وحـــدي أحمـــدُ الحـــزنَ بـــه وعيوني وحـــدها تـــذري الـــدموعا
ولقـــد جمعنـــا في صـــدره قلبُـــه الـــصادقُ فلنبـــكِ جميعـــا

هـــذه الأحـــداث لم تتـــرك بابـــاً مـــن حُبـــورا
فوقهـــا تـــسحبُ أكفانـــاً وموتـــاً وقبـــورا
لكأني ساحرُ سوف يلاقي النـــاس بعثـــاً ونـــشور

كُلّمـــا أُحـــسنُ في الأيـــام أمعنَـــتْ الأيـــامُ ســـوءاً في عقـــابي
وصـــحابي كثـــرة لكنّهـــا نزعت من بينـــهم أغلـــى صـــحابي
وجعـــي يمـــضغُ أعـــصابي ويغري بأحاسيس عظمـــي وإهـــابي
بعد صحبي لم يعـــد عـــيش ســـوى سفرٌ في الـــشوك أو لعـــق شـــرابِ

لم أزل أحتمل الأحـــزان مـــا جـــار ومـــا خَـــفْ
وجعي في فقد أصـــحابي (رى)[1] نفـــسي وأتلـــف
فلمـــاذا أنـــا بـــاق؟ ولمـــاذا اتخلّـــف؟
ورحيلـــي بعـــدهم أحـــنىً علـــى حـــسّي وأرأف
يَبسَت عيني ومجرى الـــدمع في عـــيني قـــد جَـــف
لم يعد في مقلـــتي شـــيء علـــى البـــاقين يُـــذرف

أنـــا فيـــه لا أُعـــزّي أهلـــه أنـــا أدعـــوهم ليـــأتوا لعزائـــي
ليُعَـــزُّوني بفقـــداني فـــتىً نبلُهُ قـــد كـــان ســـترى وكـــسائي
قبلَـــهُ مَـــا هـــدَّني حـــزنٌ ولا تَعبَتْ عينـــاي مـــن طـــول بكـــائي
ولـــئن أطفـــأت الـــدمعُ لـــه ضـــوءَ عـــيني فـــذا أدنى وفـــائي
فلقـــد أعطـــى وداداً لم يَـــدَعْ بعـــده فـــضلاً لمعـــط وعطـــاء[2]

وفقدان الفضول لهذا النبيل الذي أعترف له بأنّه بنبله كان ستره وكساوءه وهـــذه القصيده صدرت عن ((نبع واحد، نبع يتحدد من القلب النابض بمختلـــف الأحاســـيس والمشاعر النبيلة، وقد كان الحزن وسوف يبقى أنبل المشاعر الإنسانية، واصدقها تعبيراً عن ضمير الإنسان ونقاء روحه وفي شعرنا المعاصر الكثير من قصائد الأحزان، ولعـــلّ الناقـــد الأدبي الذي لا يعرف أوضاع بلادنا، وما حفل به تاريخها الحديث من فواجع خاصة وعامة،

(١) كما وردت في المصدر السابق وهي بمعنى مزّق.
(٢) المصدر السابق (من أغوار الخفاء).

لعلّه قد يدهش لكثرة القصائد التي تتسربل بأردية كثيفة من الأحزان، وقد يكشف فيها نزوعاً تاريخياً إلى البكاء أو ميلاً فطرياً نحو الألم، وكأن الشاعر لا يخرج من قصيدة حزينة إلاّ لكي يدخل في قصيدة حزينة أخرى، وحقيقة الآمر أن هذه القصائد تصدر عن مواقف معينة وعن تجارب لا زيف فيها فالشاعر في بلادنا محكوم بالحزن،فهو ينتقل من حزن إلى آخر، ومن مأساة إلى مأساة، وذلك واضح وبشكل بالغ العمق من لون أشعاره وممّا تعكس تلك الأشعار من صور القلق والشجن))[1]

ولأن الموت والاستشهاد الذي جندل الأب والأخ والصديق، وبخاصة استشهاد الأب في مرحلة كان الفضول يرى فيه نبع الحنان الدافق والنضال المستميت، فكانت صدمه رهيبة يوم سقط شهيداً بالنسبة للفضول، حث تمثل هذه الحادثة لنا منعطفاً نفسياً رهيباً في عالم الشاعر الذي كان يستظل ويتفيأ بأفياء أبيه المجاهد الوقور... وظل هذا الحادث يتمثل للشاعر في مختلف المناسبات الوطنية والذاتية، في لحظات الحزن والفرح، ويمثل إلهاماً ودافعاً نحو التغني بأحزان وأمجاد الوطن معاً.... وهو في قصيدته (أمتي لا تفزعي) التي نظمها بمناسبة يوم الجيش... يربط بين مجدين مجد التضحية وهذا وذاك يذكره بأحزان بأقرب الناس إليه... وهي قصيده فيها الفضول يتحدث ويستنطق كبد الوطن في بحث دؤوب لاستكناه حقيقة النضال والمناضلين الذين ينتظرون من الجيش اليمني العمل على تحقيق آمالهم التي فجعتهم بها الأيام السوداء وخذلهم الأطفال الذين لبس كل مهم عُدَّة الفارس في الليل وارتدوا قلا نس الرهبان، ونجد الشاعر لم تعد ترهبه ألوان الدماء الزكية أو صوت الغناء أو دفن الشهداء داعياً الى التضحية التي لا حدود لها ... فهيَّا إلى القصيدة التي يدعونا إليها

داعٍ سنعرف هيئته من بين سطور القصيدة، ولون الموهبة وحجمها فأضحت في القمة الشماء ترنوا إلى عالم من البلاغة والفداء:

لم يعد يرعبني لونُ الدِّماء ... لم يعد يرهبني صوتُ الفناء
لم يعد يفجعني موتٌ فقد ... أدْمَنَتْ كفاي دفن الشهداء
وحياتي نشَرَتْ أحزانها ... ملء أيامي فما معنى بكائي
كُلمَّا ودعتُ تابوتاً أتى ... غيرُهُ يُخرسُ دمعي ورثائي
يا لعيني لم تعُدَ بكاءةً ... فوق طرسي – كعيون الشعراء
قد كرت الدَّمع في محجرها ... وبه قد كان معروفاً سخائي
إنَّه لولا جلالُ الموت ... لولا مهابات السماء لولا حمائي
كنتُ شيَّعتُ التوابيت ... التي لُمت الأشلاء منهم بدمائي

(١) المصدر السابق نفسه.

أغنيـــاتي هـــم ولحـــني وخلـــودُ أناشـــيدي وصُـــنَّاع بقـــائي
انهـــم مجـــدي ومَـــنْ عَلَّـــم قلـــبي حـــب المجـــد إلاّ شـــهدائي
انهـــم كـــانوا صـــداقاتي وما برحوا في رمسهم مـــن أصـــدقائي
لم تـــزلْ أرواحُهُـــمْ زائـــرةً لطيفـــي ســـاعات نهـــاري ومـــسائي
ليكـــاد الـــضيمُ في أكفـــانهم منـــه يـــذري عبقـــاً فـــوق كـــسائي
وأحاسيـــسي بمـــا يـــذبحها مـــن أذى الأهـــلِ وحقـــد الغربـــاء
لم تـــزل ضـــاحكةً أغـــسلها في ندى الفجـــر وفي صـــفو الـــسماء
كلّمـــا راح شـــهيد جـــاءاني منـــه في شـــعري شـــعورُ الكبريـــاء
وازدهـــاني منـــه فخـــراً أنـــه زاد رقمـــاً في رصـــيد العظمـــاء
أنـــا مـــن أرض الـــتي مـــا لبـــست روحُهـــا ثـــوبَ حـــداد أو عـــزاء
لم يلـــح في وجههـــا ثكـــلاً ولا درَّ فيـــه الـــدمع ضُـــعْفُ الجبنـــاء
كلمـــا فـــاد مـــضى شـــدَّ علـــى يـــدها المجـــد فخـــوراً بالفـــداء
وستمـــضي أبـــداً ولادةً كـــلُّ فـــوج مـــن نفـــوس البـــسلاء
فـــاذا زدنـــا عطـــاءاً زادنـــا طبعُهـــا البـــاذلُ عـــشقاً للعطـــاء
كيـــف أصـــبحنا خـــصومات وأرقـــام غُـــرم في مفـــاهيم الغبـــاء
إنهـــا آفاقُنـــا كُنَّـــا بهـــا في وجـــوه الحقـــد أقـــسى الغرمـــاء
إنهَّـــا أخلاقُنـــا قـــد مزقـــت عرضـــاً عـــن صـــبحة كـــل غطـــاء
********* *********

بَـــشعُ أنْ يُـــصبحَ الحـــلَّ رصاصَـــا وحـــوارُ النـــاس غـــدراً واقتناصـــا
كـــلُّ ذي عقـــل غـــدا في كـــل ذي جنَّـــة عـــاراً يـــرى منـــه الخلاصـــا
والـــضلالات الجريحـــات تـــرى أنَّ في سَـــحقِ المـــضُيء اختـــصاصا
أنـــت يـــا أحقـــادُ مـــوتي أوخُـــذي لك عـــن ارضـــاعك الـــشرَّ مناصـــا
أنـــتَ يـــا طـــيرُ الـــدمامات وقـــد مَزَّقَـــت ثـــدييك رضَـــعاً و امتـــصاصا
كـــمَ لحـــودٍ وأخاديـــدَ مـــلأت وأشـــبَعْتِ ولم تـــبرح مناصـــا
********* *********

ســـاحتي لا تفزعـــي كـــم ســـاحة فاتـــكُ بالـــدَّم أرواهـــا هنـــا
أُمَّـــتي لا تفجَعـــي كـــم أُمَّـــةً غـــادرُ جـــرَّ عليهـــا حزنـــا
رايـــتي لا تفزعـــي كـــم مـــرةً كنـــت فيهـــا لـــشهيد كفنـــا
كَـــلُّ أرضٍ أصـــبحتْ موبـــؤةً يقتـــلُ الـــسيءُ فيـــه الحَـــسَنَا
مهجـــتي لـــن تبرحـــي عاصـــمةً للأســـى أو للمآســـي وطنـــا
********* *********

صـــاحبي مـــات شـــهيداً وأبي ... مات شـهيداً وأخـي مـات شـهيدا
وأحبـــائي مـــصوا في الـــشهداء ... ولـمَ أبـقَ علـى الـدرب وحيـدا
فهنـــا قـــافلتي تمـــضي ... وأدرُعُهـا تحتـضن الفجَـر الوليـدا
وهنـا شـعبي وركـبي وأهـازيجُ ... فـؤادي تمـلأُ الـدنيا نـشيدا
وهنـا أكفـانٌ مـن مـاتوا ... يَلُحْنَ على الزحـف الى الخـير بنـودا
لم يُمـتْ شـعبي مـن المـوت ... وقد عـاش يعطيـه نعوشـاً ولحـودا
انـت يـا أرض الـسماحات الـتي ... أنفقَـتْ أرواحَنـا بـذلاً وجـودا
إن رجفَنـا الـساح في غاراتنـا ... أو عكفنـا في المحـارب سـجودا
لم يـضعْ الفجـر مـن قبـضتنا ... فيـك أو نرجـع لليـل عبيـدا[1]

********* *********

كـم شـهيد مَنَـا قـد ذهبـا ... دون مـن هُـم للـذي قـد وهبـا
وطنيـاً مـاتَ حُـرّاً رافـضاً ... أنْ يـرى حقـاً لنـا قـد غُلبـا
كـم جـذوعٍ هاهنـا قـد حملـت ... جـسمَ شـهمٍ فوقهـا قَـدْ صُـلبَا
كـم مـشى الأثمُ علـى سـاحاتنا ... يوقـدُ النـارَ ويـذكي اللـهَبا
ومـضى الأثم والآثمُ وكانـا ... لمـا قـد أضـرماه محطبـا
وبقينـا وسـيبقى معنـا ... كـلُّ خـير قـاهراً لـن يُغلَبَـا
وسـيبقى قوتُهـا كـلُّ دمٍ ... سـال منَّـا مَـشْعَلاً مُلتـهبا

********* *********

وسـنبقى أكـرم النـاس صـدوراً ... وسـيبقى النـاس أوسـع صـدورا
وسـيبقى بـذلنا أسـطَورةً ... تمـلأُ التـاريخ نفعـاً وذكـوراً
كلمـا طافـت بنـا مكروهـةً ... مُلئـتْ أرواحُنـا صـبراً جـسورا
هكـذا الأيـام قـد جـاءت بنـا ... بَـشَرُ يلقـاهم المـوت صـغيرا
أوفرُ الأحيـاءِ و المـوتى بهـا كَرمـاً ... تمـلأُ أجـداثاً ودورا
هكـذا عـشنا ومـن يكبرنـا ... شـهداءً وفـداءً وقبـورا ؟[2]

في هذه السيمفونية الشعرية الخالدة[3] – إن جاز لنا التعبير – وهو جائز لا محالة مع الفضول وفكره و وجدانه شعوره و انتماءه، فلسفته و منطقه، شجاعته واقناعه، موهبتـه

---

(١) هذا البيت وبيتان قبله متصلان بنشيد (املأوا الدنيا ابتساما). المذكور سابقاً بل و هذا النشيد كله.
(٢) مجلة المعرفة – فصلية – تصدر في تعز (٩–١٢) عدد (١٧–١٨) – ص. (١٢٧–١٢٨).
(٣) قصيدة أمتي لا تفزعي كتبها الشاعر في ذكرى يوم الجيش الذي قام فيه إبراهيم الحمدي يوم ٢٧ ابريل ١٩٧٥م بتظهير الجيش من مراكز القوى القبلية والولاءات البعثيه.

وغصونه رؤيته الشاملة لما هو عليه واقع الحال.... التضحيات والاحباطات، الدعوة الى الحب وهو في قمة الألم الإنساني... وأيضاً في هذه القصيدة يمكن للناقد أن يقف لأن فيها خلاصة إنسان شاعر موهوب اسمه الفضول والروعة في القصيدة (معنى ومبنى).. الألفاظ – اللغة، الدلالات، الاستعارات، الكنايات الثقافة، الرؤية الثاقبة. الأغراض الفنية، والموضوعية وفي هذه القصيدة يتجلى لنا الهم الوطني الذي دخله الفضول من همّة الذاتي وأدخل الذاتي ليكون أكثر ارتباطاً بالوطن، ولنا مع الظمأ الذي بدأ يشق عنهما معاً منذ السطور الاولى.. أقصد الظمأ العاطفي والهم الوطني .... فأين الفضول من امرئ القيس وهو يقول: (لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر). مع مراعاة التباعد الزمني والفكري والنفسي واللغوي .... والشخصي؟! ألا يمثل لنا الفضول صورة ناطقة بلسان تقلبات الأيام وهم لا يدركون أن معهم جوهرة لا يجب التفريط بها أبداً .... وكل قصيدة في شعر الفضول جوهرة منضّده لا تقدّر بثمن، ولا يستطيع ناقد أدبي مهما بلغ شأنه أنّ يتجرأ ويلمح صورة إلاّ وجدها تستحق الاعجاب الجديد بذلك العبقري الذي كوّن لنا لالئاً ودرراً نفيسة، ونثرها في عدن وصنعاء وتعز والحديدة والحجرية ووادي الضباب وجبل صبر.. وتركها لنا ورحل ... إلا يستحقُّ هذا العبقري أن نجمع جواهره ولالئه ونصفها في عقد يتزين به تاريخ الأدب اليمني الذي قتله الخمول والترهل والتداعي ... وكأن الشابي كان ينظر بقلبه و عين خياله إلى ما سيصيب بعض العباقرة الأفذاذ فقال فيهم:

ما قدس المثلُ الأعلى وجَّملَهُ ... في أعين الناس إلاَ أنّه حُلُمُ
ولو مشى فيهم حيّاً لحطمه ... قومُ وقالوا بخبث إنّه صنمُ
الناس لا يعبدونَ إلاّ كل منعدم ... ممنعٌ ولمن حاباهم العدمُ
حتى العباقرة الأفذاذ حبهُمُ ... يلقى الشقاء وتلقى مجدها الرِّمَمُ
الناس لا ينصفون الحي بينهم ... حتى إذا ما توارى عنهم ندموا

وحتى هذه لم ينل الفضول منها شيء، فأصبحت ثروته الفكرية حكراً على بعض الذين يساومون بها طوحين الهوى والهواء..

ونقول لهؤلاء وأولئك اقرأوا هذا ((إنّنا حين نغضب من الآخرين حينما نراهم ينسبون أفكارنا وعقائدنا إليهم ... إن ذلك حين لا يكون ايماننا بها كبيراً))[1].

إن الفضول حتى هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين وقد مضى على رحيله أكثر من (١٦عاماً) ... لسان حاله – كقوله هو – في قصيدة أرسلها إلى الأستاذ والأب أحمد محمد نعمان يقول:

(١) من أقوال سيد قطب – أفراح الروح – بتصرف.

أين يمشي يعبُر الدرب وحيداً يطأُ المجهولَ ليلاً وجليداً
مُلقياً فيه مُنىً ملهوفةً ومصيراً في ذراعيه وليدا
حاملاً كربَ حياةٍ عاشَهَا لحياة الناسِ مصلوباً شهيدا
**** ****

يا أبانا إين تمضي ونُهانا أنت يستصحبكَ الضوءَ دجانا
كلّمَّا سرنا إلى غيٍّ نهانا فيك عن منتجع الغيِّ حِجَانا
**** ****

يا وقارَ الناس إنْ زلزلها هرَجٌ، علّمْتَهَا الخطوَ الرشيدا
وإذا أبلى هواها عقلها نَزَقاً، أعطيتها عقلاً جديداً
**** ****

قل إلى أين الخطا منتقلا هرباً، ضاقَ بنا ذرعاً وصبرا
ولماذا لا ترينا جبلاً ضاق بالعاصف والأنواء صدرا
أيُّ صقر أنت ترضى بدلاً من سماواتك أحراشاً وقفرا
تتركُ القمَّةَ تؤوي حجَلاً وقطاً ... يبني على القمَّة صَقرَا
من أحقُّ الطير فيها نزلا من ترى عندك للقَمَّةَ صقرا
لن يضيءَ الناس إلاّ رجلُ مُشرقُ في قلبه يحملَ فجرا
**** ****

أنتَ للشعب الذي أعطيته من ضحى عمرك ريشاً وجناحا
فمضى في شأوه مستنبتاً في حقول الشمس ورداً وأقاحا
حظُّنا من رشد الأمر ومن أمل الأرض وتدبير السماء
هو في روحك مكنون وفي قلبْك المعطاء دفّاقُ السخاء
كترَثْهُ فيك مذخوراً لنا حكمةُ الرسل وصدقُ الأنبياء
**** ****

عُدْ إلى الفجر الذي أطلعته من دُجى التاريخ فردوساً وسحرا
فاحتوى أحلامنا في حضنه حانياً يرضعها ضوءاً وعطرا
وإلى القمَّة من أولى بها قدرة منك؟! ومَنْ أكرم قدرا؟
لن يكونَ العمرُ في محسوبها نحن نُعطيك من الأعمار عمرا[1]

ولكن ما معنى هذا؟

(١) عدد خاص بمناسبة أربعينية الفضول – صدر عن مؤسسة سبأ ووزارة الإعلام – ١٩٨٢– ١٠٣.

حسناً.. أقرأوا هذه الرسالة، والحليم تكفيه الإشارة.

لأن فهمنا لهذه الرسالة ولتلك القصيدة سندخل من خلالها إلى مدينة أخرى بعد أن نقطع – جميعاً – تذكره سفر من ديوان الفيروزة الرائع أو دموع العندليب اللذيذ

وهذه الرسالة هي جواز السفر الذي سنعبر به إلى (مدينـــه الفـــضول ... تعـــز) و سنتعرف في رحلتنا على مالا يتسع له المقام هنا ... فهَّيا معنا

هي رسالةُ موجهة من الفضول (عبدالله عبدالوهاب نعمان) إلى الأستاذ / وتحمل هذا العنوان (رسالة إلى الأستاذ).. فمن هو الأستاذ؟! إنه أحمد محمد النعمان رفيق درب الزبيري وغيره من المناضلين، وهو الأب الروحي للثورة اليمنية، وللأحرار اليمنـــيين.. وفي هـــذه الرسالة نضع أيدينا وعيوننا على قلب الفضول الظامئ الذي هرب منه و إليـــه وإلى همـــه الوطني الذي نراه في هذه الرسالة كأصفى ما يكون:

((إلى عذاب الماضي ...

وضياع الحاضر ...

إليك أشواقي الحائرة يا حزني الكبير ..

كم أتمنَّى لو أنَّي لم أُمسك القلم لا كتب إليك

إنني أتأمله الأن فوق أناملي، وكأنَّه يعاتبني..

إلى من تراني به أكتب.. ولم أخط به ألفاظي لتسرحَ إلى الضياع ؟!

أيُّها الهاربُ من حاضرك وماضيك ...

إنَّ ماضيك ما برح في مواطن الشروق..

وحاضرك لا يدري لمن يَصنع، ولا لمن يَهبُ ما يحمله لك من تبجيل ...

فلقد هزلت حتى ولد هزلُك الحقيقة

ولقد جدَّيت حتى بدا جدُّك على هذه التربة من صُنَّاع التاريخ..

المشكلة أنَّك لا تدري كم هو وزنك؟!

إنَّ ميزانك ليس في يديك، ولكنَّه في يد الآخرين ... ليزنك به الآخرون.

في رسالتك الأخيرة التي نُشرَتْ في (اليمن الجديد) ... عرفتُ كـــم هـــو جهلـــك لوزنك؟! أو كم هو ضياعك داخل نفسك ... أيُّها الضائع.. الكبير – الكبير، لا أستطيع أن أجد الكلمات الكافية التي يمكن أن تحمل لك العقاب، ولكني سآتي إليك لتعـــاونني في جمع ما يكفيك للعقوبة من هذه الكلمات ...

كنت أريد أن أرسل لك البعض مما يمكن أن يكون شـــعراً أو يـــدخل في حـــساب الشعر...

ولكنيِّ أجَّلتُ ذلك إلى لقاء..

ثم ماذا يضيرك لو أتيت؟!

لترى كم أنت في الناس وللناس وفي معايير التاريخ..

إنَّ الليل هنا في حاجة إلى المضيئين ... وقد كنت فيما عرف واحداً من هؤلاء ... فهل بقي في روحك للناس شيء من الضوء.. إن موقعك ليس أبداً حيث أنت، إنَّ كلَّ المرايا هنا كابيه (لا يرى الحاضر) وجهه في زجاجها الذي صنعه التزييف.. فتعال بصدقك ليرى الناس أوجه حقائقهم على مرآته المتلألئة.

لا أستطيع الاستمرار في الكتابة، لكي لا أرى قامة كذبي، وقد امتَّدت طويلة طويلة... طويلة على السطور، إنني شديد الشوق إليك ...

دعنا نأخذ ما بقي لنا من أيام في هذه الحياة ونحن على تواجد وقُربْ

إنَّ في فقدنا لنكهتك من بيننا وحشةً قاسيةً لا تطاق..

وإنَّ في إصرارك على أن نفتقدك من بيننا جناية بل جريمة تقترفها

ضد نفسك وضدَّ تاريخك.. وماضيك، وضد الآخرين ...)) أ.هـ [1]

هكذا ندرك أن القصيدة التي سبقت هذه الرسالة هي القصيدة التي كان الشاعر يريد أن يكتبها للأستاذ النعمان.. لأنها تحمل ما في قلب الرسالة من نبضات، ولأن القصيدة تأتلف وتحتوي ألام الرسالة التي بلغت مبلغاً عظيماً وحداً كبيراً من القسوة المعنوية.

وبهذه الرسالة وبتلك القصيدة نفتح لنا باباً لندخل منه فحواه ... إن الفضول لم يكن يعتقد في داخل نفسه بما قيل عنه وأنه قال (علينا أن نعترف بدون مكابرة أن دورنا انتهى) أو قوله (أن لكل عصر دولة ورجال). والدليل هذه الرسالة التي تدحض تلك الأقوال إن كانت قد قيلت – إلا أنها لم تعبِّر عمَّا في نفس الفضول – إن كانت قد قيلت فعلاً، وكذلك فإن القصيدة تحمل نفس التفكير والمعاني التي في الرسالة – فالرسالة والقصيدة وجهان لعملة واحدة – وهي الحقيقة التي أسعفتنا بها الأقدار لندخل قلب الفضول الظامئ ونحن ممسكين بأوثق البراهين وأنصع الأدلة وأوفر الإمكانيات النفسية ... وكما ذكرنا قبل ذلك سنطوف في رابيه من روابي ديوان الفيروزة الذي تضمن (١٣) قصيدة عمودية ذات نفس طويل للفضول – لنقتطف وردة جميلة أو قل قصيدة جميلة.. ولتكن وثيقة الشمس التي تلتقي مع قصيدة الفضول الأخرى للأستاذ النعمان في كوكب واحد ... هو الشمس:

كم يحزنُ الليلُ، ويبكي القمر ويمسح النَّجمُ دموع الدُّرر

وتسأل الغيماتُ وجهَ السماء وتسألُ الأرضُ نسيمَ السحَرْ

وتسأل الأوراقُ قطرَ النَّدا عنَّا، ويبكي الفجرُ فوق الزَّهر

---

(١) القصيدة والرسالة تطرحان قضية سياسية تتعلق بوضع الأستاذ النعمان وجدارته كأب لامساك زمام الأمور، ودعوة له ليعود لأكمال رسالته الوطنية ودوره السياسي ونبذ فكرة الهروب حتى النهاية. والقصيدة تجسيد قوي للعلاقة بين الأستاذ و الشاعر وهي مرتبطة أيضاً بقصيدة (يا من رحلت إلى بعيد).

ومُـــذْ تغيبنـــا عـــن الملتقـــى والعـــشبُ ينـــسى شـــوقَهُ للمطـــر
والـــوردُ في أكمامـــه كُلَّمـــا أســـقاه قطـــرُ الغـــيم فيهـــا ضَـــمَرْ
والرَّنـــدُ تـــذري الـــريحُ أوراقهـــا محروقـــــة في ضِـــــفَّتي النَّهـــــرْ
والظـــلُّ يلقـــى أنَّـــه قـــد خـــلا منَّـــا.. فُيلْقـــى روحَـــه في سَـــقَرْ
وإنْ أتيتُ النـــهرَ وحـــدي لـــوى عَنَّـــي ... وغطَّـــى وجهـــه بالـــشَّجَرْ
وفي مراعيها عيـــونُ الظَبـــأ يبكـــي الرَّنـــا فيهـــا، ويبكـــي الحـــوَرْ
وإنْ أتـــى وجهـــي اليهـــا تـــولى الـــدَّمعُ مـــن أهـــدابها وانحـــدرْ
وقـــد جَثَـــتْ حـــولي كلـــو إنَّهـــا جَثَـــتْ حـــوالي راهـــب مُحْتَـــضَرْ
هيهـــات أنْ أنـــساك إلاَّ إذا تزنـــدقتْ نفـــسي، وقلـــبي كفـــر
كم عِشْتَ في عـــيني تـــؤآخي بهـــا انسان عيني – حيـــثُ ضـــوء البـــصرْ
وكنـــت تـــأتي في جمـــال الـــضحى عنـــدي، فتُخـــزي لي شمـــوع الـــسَّمَرْ
وكنـــتَ أنْ خلَّيـــتَ داري أرى داري كـــأنَّ الكفـــرَ فيهـــا اســـتقر
وإنْ أتيتَ الـــدَّارَ، ضـــاءَت كمـــا لـــو واجهَـــتْ مَهْـــديَّها المُنْتَظَـــرْ
يا حبَّـــك الجبـــار كـــم عـــاش في معـــارك الحـــبِّ، وفيهـــا أَصَـــرْ
وبـــارزَ الـــدُّنيا، وفي روحـــه لطفُ الندا، يـــأوي، وعنـــفُ القـــدر
أدمْـــتَ لي أســـفار حـــسِّي، فمـــا نفضتَ عـــن حـــسِّي غُبـــارَ الـــسَّفَرْ
والنـــومُ في عـــيني يُـــوَلِّي لكـــي يُمسي يـــذُرُّ الـــشوكُ فيهـــا الـــسَّهَرْ
وتنحتُ الأشواقُ روحـــي ويـــأتيني مـــن الأعمـــاق صـــوتُ الـــذِّكر
في أضـــلُعي تبكـــي كلـــو أنَّ قدَّيـــساً كـــبيراً في ضُـــلُوعي انتَحَـــرْ
ســـنلتقي، إنْ طـــال في عُمرنـــا عُمْرُ الهوى .... والـــصبرُ فينـــا صَـــبَرْ
وتُـــشْهِدُ الفجـــرَ علـــى حُبِّنـــا وثـــائقُ الـــشَّمس بِخـــتْمِ القَمَـــرْ[1]

(*)نعم الليل حزين، والقمر باك، والنجوم تمسح دموع العيون التي كالدُّرر والغيوم تسأل وجه السماء، والأرض تسأل نسيم السحر، والأوراق تسأل قطر الندا... ولكن لماذا تلك تسأل هولاء؟! تسأل عنَّا؟! وعن ضياعنا الذي انتهينا إليه، ولذلك فإنَّ الفجر يبكـــي فوق الزهر، وغيابنا عن ذلك الملتقى الذي ترك نفوسنا آسيانة حزينة بعد أن فرَّقنا وضيعنا ولهذا فالعشب قد نسي حاجته وشوقه للمطر الذي لن تستمر حياته إلا بـــه، فـــشاركتنا الطبيعة أحزاننا المريرة مع الفراق فأضحى الورد ذابلاً رغم قطر الغيم الذي يزوره بين حين

(١) ديوان الفيروزه – وثيقة الشمس – اليمن العصرية – صنعاء – ٨٥:٨٨ .

(*) التزم الشاعر في ديوان الفيروزه – دموع العندليب – كتابه قصائده بطريقة فن الالقاء نجعل التفصيلات والسطور تخدم هذا الفن دون اخلال بالتفاعيل والأوزان الكلية للقصيدة.

وآخر، فتغيرت الطبيعة فالرنا تذروه الرياح، والظل يلقي نفسه في جهنم (سقر)، ولهذا يغطي وجهه بالشجر إذا ما رآني قادماً لزيارته خجلاً مني، ومن الأيام التي صنعت بنا هذا، وعيون الظبأ الجميلة يبكي الرنا فيها ويبكي الحور، و إذا ما رأتني تلك العيون الجميلة الباكية أنحدر الدمع الهتون، فتحولت تلك الدموع المنسكبة المسفوحة إلى راهب يحتضر وهو جاث على ركبتيه أمامي ...

فهيهـات هيهـات أنْ أنسـاك إلاّ إذا تزندقت نفسي وقلبي كفر

وهذا هو المستحيل، لأنه الموت ...ثم يتابع الفضول في وثيقة الشمس وصف درجة القرب التي عليها ذلك الإنسان العظيم الذي في قلبه... ولكن من هو؟!.

فما ابتعدنا من القريب.. وإذا قلنا هو ذاك الشهيد البيروتي ... فما نحن يغافلين عن هذا البيت:

صاحبي مات شهيداً وأبي مات شهيداً، وأخي مات شهيداً [1]

وسؤال الأسئلة الذي واجهناه في باب عدن التاريخي – الذي دخل منه الأحرار بصحبة الفضول أو في معيته ... إلى أين قادت الأحزان وخيبة الأيام والشعور بعدم جدوى الكلمة عبدالله عبدالوهاب نعمان ... بعد أنْ صفعته الخيبة والحظ التعيس؟.

(١) هو الشهيد محمد أحمد نعمان (النعمان الابن) الذي رأى فيه الشاعر (والنعمان الأب) أملاً من الحركة والذكاء والطموح، فكان دينامو السياسة في عصره ولكنه مات شهيداً في بيروت بخمس رصاصات قاتله غادرة يوم ٢٨ يونيو ١٩٧٤م.

الباب الثالث

الحالمة تعز (الفضول وأيوب)

الفخر لمن صادق القلم ومجد القلم، لأن عروش الصدق لم تنهدم، فالحرف لا يوآخي سوى قمة فوق القمم.. هكذا بقي الفضول في حبةً للوطن حتى آخر أيامه.. هذه القصيدة من نتاجات الفضول التي تشير إلى اكتمال البنية المعمارية للنص الشعري، وفيها قول ما يجب أن يقال.. عندما يكون الصدق هو سفينة الحياة، وهو صدق لم تفلح الأسماك المتوحشة في ايقاف مداه، ولذلك بقي الفضول فاخراً معتزاً بما قدمه للوطن و إن لم يحصل على ما يتنافس عليه المتنافسون فوق الموائد الفارهه، فتبدوا عليه من النص معالم اعتزازه بذاته وبموهبته وبكرامته وبرسالة الشعر، فكان روح المتنبي تقمصته أو العكس:

فاخراً جئتُ مزيراً كلمي ... وجه من صادق مجد القلمِ
وجه من أقنعَ صدقَ الحرف ... إنّ عروشَ الصدق لم تنهدمِ
لا يؤاخي عفةُ الحرف سوى ... قمة يربضُ فوق القمَم
قَبلتْهُ الغيم فيها لم تدع ... جانباً من وجهه لم يُلْثمِ
وأجَلُّ الناسِ في قلبي فتىً ... لم يلُج بي ودُّهُ في مأثمِ
أو تُكلفني به الأخلاق ما ... أختفي منه وراء اللثم
لم يكُنْ يوماً لنفسي خزيةً ... أو يُذقها لحظةً من ندمِ
لم أهُنْ في نفسه بل خالطت ... نفسُه نفسي وآخت شممي
لم يلوُّثني من الافك ولا طرحَ ... الزورُ سواكاً في فمي
غير هذا ... مارآني و إلى ... غيره ما سَرَحتْ بي قدمي

******** ********

ليسَ أي الناس قد تأتي إليه ... حروفي كالفراش الحوَّمِ
ليس أي الناس قَدْ يلقاه ... كبر يراعي في خشوع المحرمِ
ما أرى الكثرة إلاّ حُفراً ... أبداً فاغرة لم تُردمِ
وبحوري ليسَ تعطي لؤلؤي ... غير بحرٍ ملء أرضي يرتمي
هادئ الأعماق والأفواق لـ ... ـيس بمَوَّار ولا مُلتَطمِ
إنّ شعري معقلُ ساحته ... حَرَمٌ ... فيها جلالُ الحَرَمِ

بعـــد نفـــسي لم أبـــوئ عرشـــه غـــيرَ شـــهمٍ نُبْلَـــهُ لم يـــأثمِ
أبـــداً مـــا هُـــزِم الخـــير، ولـــيس أمـــام الـــسوءِ بالمنـــهزمِ
فرقـــديُّ تهتـــدي النـــاسُ بـــه إنْ تمـــشَّتْ في المـــسار الأيهـــم
أو وفيُ عـــايش النـــاسَ بقلـــب حمـــي لا بقلـــب شَـــبم
سارحاً ينمـــو وجـــوداً مـــن مزايـــا نفـــسه – لا ســـارحاً في العـــدمِ
ماجـــداً مـــا هـــض الجهـــد بـــه بـــاهضُ ... غـــيرُ جـــلال القـــيَمِ
نَهمَتْ نفـــسي إلى الـــصدق فجـــاءَ بـــه الـــصدقُ ليكفـــي نَهمـــي
ذاك مـــن تُلقـــي عـــصا ترحالهـــا عنـــده نفـــسي ويـــأتي مَقـــدمي
لـــيسَ يـــأتي الـــضخمُ إلاّ ذروةً تتعـــالى فـــوق وكـــر القـــشَعمِ
وضئيلُ الـــنفس يـــأوي كـــل مـــن حـــدرٍ مـــستروحاً للـــوخمِ

******** ********

إنَّـــني كـــلُّ الـــذي أبقـــاه مـــن عبـــق الفـــردوس ســـيلُ العـــرمِ
خبـــأتني روحُ أرضـــي مثلمـــا يخبـــأ الألمـــاسَ جـــوفُ المـــنجمِ
بَخلَـــتْ بي أن تـــرى جوهرهـــا في مكـــان غـــيرَ صـــدر الكـــرمِ
أو كـــأنّي ظلـــتُ مـــذخوراً بهـــا لمـــضيءٍ روحـــه لم تُظلـــمِ
باذخ أحـــسبُهُ يومـــاً أتـــى الفجـــر أو زار مـــدارَ الأنجـــمِ

******* ********

لم تقـــل زوراً يراعـــاتي وميـــ زاهـــا قـــسطاسُةُ لم تَظْلـــمِ
إنَّهـــا معـــصومة إن ترتئـــي ورعَ التقـــوى بـــشدقي أرْقَـــمِ
إنَّهـــا مـــا ضـــرغمت عـــزاً ولا وصـــمَتْ ليثـــاً بطبـــع الغـــنمِ
كم يكـــون القـــبح في الحـــرف إذا قَـــدَّر الـــدينارَ قـــدر الـــدرهم
إنْ رأى البـــوم طـــواويس و إنْ ألحـــقَ البـــازَ بـــسرب الـــرَّخم
أو تمـــادى في نفـــاق لاثـــمٍ سُـــبْحَةَ القُـــس ونَـــصْلَ المجـــرمِ

******** ********

كم بيان ســـقطتْ منـــه الكرامـــةُ في الافـــك ... ولَّمـــا تَقُـــمِ
وســـطور فـــاجرات لم أجـــد فوقهـــا غـــيرَ حريـــق الـــذَّممِ
ولكـــم أحـــزنني شـــعر يعمِّـــمُ بـــالخزِّ رؤوسَ الـــنعَمِ
ولكـــم أحـــزنني شـــعر تبـــيعُ الخطايـــا يـــا ضـــوءُ ه َ بـــالظُلَمِ
ولكـــم أحـــزنني شـــعر بـــه نكهـــةُ الخبـــز وريـــحُ اللُّقَـــمِ
مـــا أراني أُلـــبسُ الـــشعَر ســـوى شـــرفَ الـــصدقِ ونُبْـــلَ الـــشَّيمِ

إنَّـــهُ العـــزُّ فـــلا أكـــسوا بـــه رأس ذي ظلـــف ولا ذي مَنْـــسم
ليسَ في شـــعري ولا نثـــري ســـوىَ لبـــدةٌ[١] أطرحُهَـــا في ضَـــيْغَمِ[٢]

توضيح(*).

إنّ النَفَس – بفتح الفاء – الشعري الذي ينساب في روح القارئ وهو يقرأ القصيدة السابقة لهو نَفَسُ – بفتح الفاء – يخرجُ من مشكاة، خرج منها من قبل أبو الطيب المتـــنبي وهو يرتدي ثوب ذلك العصر المليء بالآلام العربية، وهذا الذي خرج من نفس المـــشكاة فإنّه يتنفسُ هواء كل العصور، وهو في نفسه من الآلام الطاحنة والطموحات التي ليس لها حدود، والعزة والكبرياء والفخر والاعتزاز بالذات وبالصدق، وبالـــشاعرية الرائعـــة، و باليراع.. وبكل ما تحفل به النفوس الخيرة...

إنّ حظ الفضول الذي بلغ مبلغه من الشقاء لم يثنه عن خوض غمار البحـــار حـــتى النهاية، بحار الكلمة الثائرة والكلمة الوطنية ،والكلمة الصادقة، والكلمة، الحزينة، والكلمة العاشقة والكلمة الهائمة، والكلمة المتألقة في سماء النفوس كما تتألق النجوم في سماء الأرض التي نعيش فوق خيراتها وجبالها وسهولها ووديانها.. إنّ القصيدة ليست في حاجة إلى مـــن يمدح فيها وفي صاحبها بقدر ما هي بحاجة إلى من يقرأها ليرى الفضول الذي عشق الأرض والنجوم عشق الحب والوفاء، عشق الصدق والعفاف.. هي بحاجة إلى من يقرأها بانصاف ويعيش تحت أفيائها بإجلال وتقدير العارف بالمعاني والمباني وبمعمارية الشعر و القـــصيدة، الوزن والقوافي، النفس و الألم، الطموح والشوق العفة والمثالية.

إنّ الفضول من أولئك الأفذاذ الذين خذلهم زمانهم الوقح، ويكاد النـــسيان يلقـــي بأتربته على جواهر الفضول التي لم يقدر قيمتها بائعوا الفحم ونافخوا الكير، والباحثون عن المكسب والراكضون خلف المطمع.. لأنّ من في مثل موهبة الفضول وثراء انتاجه الشعري وجودة أشعاره التي تبلغ تلك الدرجة التي لا يسعك كمتذوق للشعر إلاّ إنْ تردد (رددي أيتها الدنيا نشيدي ... رديه وأعيدي وأعيدي ...).. إنّ الفضول نشيد الـــيمن الأزلي الذي ما سبقه ولن يلحقه بدون مبالغة – من يمتلك ناصية الحرف المضيء و الكلمة السامية والشعور العميق و الوجدان الثامل بنشوة الشعر المتفوّق ... كما أمتلك ذلك كله عبدالله عبدالوهاب نعمان (الفضول)، وأكاد أجزم أنّه لو كان لأبيات من الشعر أن تقتسم بـــين شاعرين لأنها تعبرّ عن نفسيهما ... لقلنا إن الأبيات أو البيتين التاليين (قالهما وهي لـــسان

(١) لَبْدة: علامة يتميز بها الأسد أو الضيغم وهي بمعنى: لا أمدح المرء إلاّ بما فيه.
(٢) قصيدة فاخرا جئت – كتاب الفضول الذي صدر في أربعينية الشاعر عن سبأ والاعلام – ١٩٨٢م.
(*) هذه القصيدة مدح بها الشاعر الرئيس إبراهيم الحمدي .... وعندما لم يطاوعه قلبه يمدح رئـــيس آخـــر أوهم غيره بهذه _ (قرأ باب الفكر السياسي في شعر الفضول).

حالهما) أبو الطيب المتنبي والفضول – مع ما بينهما من أزمنة وأمكنه ...

وما الدهُر إلاّ مـن رواة قـصائدي إذا قلتُ شعراً أصبح الـدهر منـشدا
وسارَ بـه مـن لا يـسيرُ مُـشَمِّراً وغَنَّـى بـه مـن لا يُغَنِّـي مُغَـرِّدا

ولو كان المتنبي حَيّاً لما تردد في قبول تقاسم مملكة الـشعر والـدنيا والنـاس مـع الفضول... الذي قال:

وبحوري ليس تُعطـي لؤلـؤي غيرَ بحر ملء أرضـي يرتمـي
فَرْقَـديُّ تهتـدي النـاسُ بـه إن تَمَشَّت في المـسارِ الأيهـمِ

أليس في ذلك الحقُّ ...؟!

إنّ هذه القصيدة لهي أخت وقرينة قصيدة المتنبي التي يقول مطلعها:

واحرَّ قلباه ممَّن قلبُـهُ (شَـبِمُ) ومن بجـسمي وحـالي عنـه سـقمُ
يا أعدل النـاس إلاّ في معـاملتي فيك الخصام وأنت الخـصم والحكـمُ

.... أليس في (شبم) قصيدة المتنبي وما في قصيدة الفضول .... هكذا :

(أو وفيّ عايش الناسَ بقلب حَمي لا بقلب شبم)

وهناك القافية وهاك البحرَ الشعري وهناكَ الروح التي ألهمت الشاعرين قول ما قيل أليس في هذا مبرراً لما قلناه لكن ذاك شغل الدنيا والناس في زمن كان فيه الناس أمـوات بالفرقه والتمزق ..... وهذا هكذا: صاحبي مات فماتت كلماتي.. وخبا ومضى (فمضت) كلماتي لأنّه جاء في زمن الناس ليسوا فيه أموات فحسب بل وبلا هوية إنسانية وبلا عنوان لمعنى الإنسانية لديهم ... زمن فيه ماتت الضمائر ولم يتبق منهم غير الأجساد التي يعلـم القارئ ماذا تصير إليه من بلاء ورممْ.. أما قال أبو العلاء:

أما رُبَّ قبر قد صار قَـبراً مـراراً ضاحكاً مـن تـزاحم الأضـداد[1]
خَفِّـف الـوطء قلـيلاً فـأديم الأرض مـن هـذه الأجـساد

ولعلّنا نسأل أنفُسَنَا ... ما الذي أوحى إلى الفضول لقول:

كم شهيدٍ من ثرى قـبرٍ يطـلّ ليرى ما قد سقى بالـدَّم غرسـه

إنّ قراءةً عميقة لهذا البيت الشعري الذي أحتفل به كما لو تحتفل به الإنسانية كلها.. لجديرة وهي كفيلة... بقراءة نفس الفضول الذي يبحث عن جدوى التضحيات.. وهـل آمل أن يرى أولئك الشهداء آمالهم بحياته كل شيء – إلى لا شيء – فتلك هي المأسـاة التي دفعت الفضول إلى أحضان الحالمة تعز في مرحلة كانت تعز – وما زالـت – تلـك الابتسامة الكونية الجمال التي كأنها ابتسامة ترتسم على ثغر طفل في عمر البراءة وفي عمر

(١) ضاحكاً – بالنصب حسب ما قبلها، وضاحك بالجر إذا قدرناها تتبع (رُبَّ قبر).

الزهور ... إنَّ الابتسامة وهي ترتسمُ على الثغر الجميل كفيلة بإعادة الحياة إلى من كان قد فقد جدواها ومعناها ... كان الفضول في تعز كالذي يعيش في كنف ذلك الشيخ الجليل الشهيد (عبدالوهاب نعمان)... لكنه رحل بعد أن تدحرج رأسه على بساط ميدان حورة بحجة عام ٤٨م وشهد على ذلك.. ذلك الجبل الشاهق الذي يحتضن تعز وكل من يلجأ إلى أحضانها.... من الشعراء.... فوجد الفضول أفياء جبل صبر وهي تمتدُّ إلى باب موسى، والباب الكبير والأجُينات وشارع المصلى وشارع محمد علي عثمان ... وفي تلك الأفياء التي لا حدود لروعتها وبرودة هوائها .... بدأ الفضول حياته الشعرية العاطفية الغنائية بعد أن وجد رفيق دربه الفنان الكبير أيوب طارش[1]... فكانت الإقامة الطيبة التي طابت كما طاب البلس.. وذكرنا ذلك في باب وادي الضباب .... ومحلى بنائك واصبر حمًّا يطوفين المدينة بالثياب الدمس ... محلى ورودك وغرسك وأصبر يرحم أبوه من غرس).[2].

... لكن متى دقَّ قلب عبدالله عبدالوهاب نعمان ... ومتى أحب ؟!

وكم أحب؟! ولا عجب، لأنَّه الإنسان الشاعر المرهف الظامئ يعيش عمره كله وهو محب ... فمتى أرتمى الفضول لأول مرة في أحضان الحب ...؟!

وقبل أن نلج علام الفضول العاطفي.. نسأل سؤالاً ... كيف أنسحب الفضول من عالم السياسة والكفاح والمسؤولية؟! ولماذا؟ وهل كانت طبيعته العاطفية ونفسه الدائخة في عالم المثل والرومانسية – السبب في ذلك؟ وهل يمكن للإنسان أن ينسى أحزانه وآماله...؟! و الإجابة أو بالأصح بعض الإجابة في أبيات أبي القاسم الشابي التالية:

ما كنتُ أحسبُ بعد موتك يا أبي ... ومشاعري عمياءُ بالأحزان
أنّي سأظمأُ للحياة. وأحتسي ... من نهرها المتوهِّج النشوانَ
وأعود للدنيا بقلب خافق ... للحب والأفراح والألحانَ
ولكلّ ما في الكون من صوَر المنى ... وغرائب الأهواء والأشجانَ
حتى تحركّت السنونُ وأقبلَتْ ... فتَنُ الحياة بسحرها الفتَّانَ
فإذا أنا مازلتُ طفلاً مولعاً ... بتعقّب الأضواء والألوانَ
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ... ضربُ من البهتان والهذيانَ
إنَّ ابن آدم في قرارة نفسه ... عبد الحياة الصادق الإيمانَ

وعندما نقرأ ونستمع إلى غنائيات الفضول لا يسعنا إلاّ أن ندخل في عالم الكلمة واللحن فتتجسد لوحه بديعة من الألفاظ الأنيقة التي وُضِعَت في مكانها لتنقل إلينا عالماً من

(١) سنتناول قصة لقاء الفضول وأيوب في ملف (من الدندنة إلى المئذنة) عن حلقات نشرته الجمهورية الثقافية – تعز في ملاحق الكتاب.

(٢) راجع كلمات طاب البلس في باب وادي الضباب.

الجمال المؤبد سواءً من جمال الطبيعة أو جمال المرأة. أو تنقلنا – نحن – بكل ما نمتلكه من خيال إلى عالم آخر جئنا منه من متاعب الحياة و سُنَنْ الدنيا التي أتعبتنا و أتعبت قلوبنا... فلم نعد قادرين على عتاب، أنعاتب الأيام أم نعاتب القلوب أم نعاتب الأحباب، او الماضي أو الحاضر.. فيكف كان عتاب الفضول.....؟! ولِمنْ؟! وكما قال الشاعر الغنائي أحمد الجابري[1]

أيش معك تتعب مع الأحباب (ياقلبي) وتتعبنا معك
لا الضنا يروي ظمأ روحي، ولا الدنيا يعيني توسعك
لا متى شاصبر وانا أجري ورا حبك أطيعك وأتبعك
أيش بقى لي في الهوى غير الشجن زاد يلوعني معك
خُذ حياتي لا تُعذبني بأشجانك وتضني مضجعك
شفّني وجدي فكم أضنى الجوى روحي وأشجى مسمعك
عَلّني حُبّك وأضناني بلا معنى وأحرق أضلُعكْ
ليتني أقدر على النسيان يا قلبي وتنساني معك
طائر الأشجان ما يشجيك في تيك الرُّبا مَنْ لوَّعَكْ
تشتكي مثلي ضنى الأيام في حُبّك وتبكي مربعك
من لأحراقي وأشواقي يطفيها ويمسح أدمعَكْ
أيش معك غير الذي عندي يكفيني ويكفي ما معك
لو يقع لي أدفن الأشواق أطويها وأنسى موجعك
ضاعت الأيام من عمري سدى ضاعت وحبّي ضيعك
روح لك بلله بعيد عني وحُل عن موضعك
أيش معك يا قلب تضنيني أنا هالِك وهالكني معك

***

لن أخفي إعجابي الجدير بهذا اللون الجديد من الأدب الروحاني الذي حوّل القلب إلى آخر، لا يمكن السيطرة على مشاعره وأفكاره، وكذلك هو القلب... أما خاطب السلطانُ العاشق عمر بن الفارض سلطان الشعراء الصوفيين قلبه قائلاً:

يا قلب أنت وعدتني في حبهم صبراً فحاذر أن تضيقَ وتضجرا
إنّ الغرام هو الحياةُ فمتْ به صَبّاً، فحقك أن تموت فَتُعْذرا

(١) بعض قصائد هذا الشاعر الجابري يعتقدها أناس أنها من شعر الفضول لجمالها والجابري في حاجة إلى انصاف أدبي رغم أنه مقل ولم يتفرغ للشعر المغناه .

أليس في تلك القصيدة من هذه النفحات الصوفية من باب آخر؟! أليس في مخاطبة القلب توهج الوجع؟! وذلك القلب الذي ظل رفيق العمر والسمر صاحب الفتوحات الشعرية في اليمن الجديد ... وآه من اليمن الجديد الذي ما كلف خاطره أنْ يلتفت إلى ما تركه ذلك القلب الذي تعب مع الأحباب وأتعب صاحبه معه.

ولكن من هي تلك المرأة التي أضاءت صاحبنا؟

أليست هي التي قال فيها وهو يصف خطواتها وهي تعزف ألحان الصبا...

ترنيم ومغنى من أغاني صبا الفاتنات ... هكذا:

دق القاع دقة لا تمشي ولا
دق القاع دقه مادامك حلا
واعط القلب حقه من دنيا السلا

وأعمل لحسنك حرز خوف العيون واحرز معك عقلي فحسنك جنون
فيك الحلا قد شن مائه شنون واعطاك من فنه وسحره فنون
تمشي كأنَّ الأرض لك لا سواك وكبرياء الحسن تمشي معاك
مُلَحَّن الخطو كأنْ في خُطاك ترنيمُ ومغنى من أغاني صباك
إشراقةُ الصبح وسحر الغروب وراحة الغفران بعد الذنوب
ونشوة الحب وشوق القلوب كم ارتوى منها صباك الطروب
شفاف كلأنداء فوق الزهر رفّاف أحلى من نسيم السحر
مضوأُ الحسنِ كأنَّ القدر أسقاك كأساً من شعاع القمر
يا بدر كم ذا قاسمتك البدور تمامها عند انتصاف الشهور
فاعط زكاة الحسن واوف النذور ما فاز باللذّات إلاّ الجسور
كم قَطَّر الورد الندا فَي فمك والشمس كم أروى ضُحاها دمك
والحسنُ كم ضَمَّك وكم لملمك يهندس الفتنة على مبسمك[1]

أكاد أجزم أن مثل هذه المرأة وبهذه المواصفات التي نثرها لنا الفضول ليست من النساء اللائي يذهبن العمر سُدى، وليست من اللائي يُضعن الأيام على من يعيش في عالمهن الفريد من السحر والجمال والدلال والحسن .... عقل نم غرق في عالم الحسن الذي سلب الألباب.

ولكن ما هي مواصفات الحسن الذي يراه الفضول، أو كما يراه:

أولاً: (الحلا) أو خفّة الدَّم، وخفة الدَّم في المرأة تجعل كل من يراها يهواها لأن خفة الدم جمال قائمٌ بذاته، وهو مقياس معمول به في مسابقات واحتفالات العالم في فَنَّ الجمال

(١) كتاب أغنيات أيوب طارش – دار الفكر – تعز ١٩٧٤م.

أو في إطار ملكات جمال العالم أو الكون، وهذه صفة لا يستهان بها، فقد نجمع بين امرأتين إحداهما ذات جمال مطلق ولكن دمّها ثقيل، والأخرى ذات جمال نسبي وخفة دمها وحلاوتها مطلقة .... فلاشك أن الفائزة بالجمال هي الثانية ... ولهذا فإنّ الفضول قد أدرك هذه المنحة الإلهية المتعددة الفنون والمواهب الفاتنة بفنون السحر الأنثوي.

(مُلَحَّنُ الخطو)

قال أبو القاسم الشابي:

إنّ في المرأة الجميلة سحراً عبقرياً يُذكي الأسى ويُنيمُهْ

والمرأة الجميلة وهي تمشي فإنّها تمشي وكأنّ الأرض لها وحدها وليس لأحد سواها، والقرآن يخاطب طائفة من الناس آمراً زاجراً بقوله تعالى:

((ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنك لَنْ تَخْرِقَ الأرض، ولن تبلغَ الجبال طولا)) .... مع أنّ المرأة الجميلة الرائعة الحسن وخفة الدم هي من تلك الطائفة التي خاطبها القرآن ومع ذلك فإن الشاعر الذي ألهمه جمال الطبيعة. أن يقول ما في نفسه وكفى ما يرى وحسب ما يحس ..... في كيانه كله، وليس بوسع الفضول الذي رأى الدنيا وهي في أحضان الطبيعة، ووعى على ما حوله والسيول تتدفق من صدور ضاحات الجبال.. إلاّ أنْ يعطي لتلك الخطوات التي (تدق الأرض) من فرط الإعجاب والاعتزاز والاغترار بما تمتلكه من الحسن ... ومن ذا الذي لا تأخذه لحظة (كبرياء الحسن) وهي تمشي الى جواره بكبرياء (أي كبرياء تسير في كبرياء) ... وبخاصة كبرياء الأنوثة ... قال تعالى ((وخلقنا الإنسان في أحسن تقويم)) .... وهل للخطوات ترنيم ومغنى من أغاني الصَّبا. إلاّ في أذن قلب الشاعر المحب وكل محب؟! وهل للخطوات ترنيم ومغنى إلاّ مع ذلك الحسن البديع ... ولو كانت خطى من غير حسن فهل سيكون لهذه الخطى ترنيم أو مغنى.....؟!.

ومن آيات الحسان و الحسن إشراقة الصبح التي ترتسم على الوجه الحسَنْ والقلب الخضل كما ترتسم الشمس المشرقة على وجه الكون ... وكما هو سحر الغروب الذي يوزعُ حسنه على النفوس بصور لا حدود لخلودها، ونشوة الحب الذي يجعلك تصنع عالماً من المعجزات، وشوق القلوب التي تذبل كما تذبل الزهور إذا لم ترتو من الحب، لأن الحبَّ ونشوته وأشواق القلوب... ذلك ما يروي الصبا والحسن والطلعة البهية وإشراقة الصبح وسحر الغروب... وشفافية الحسناء – التي أذابت وأضاعت وذابت وضاعت – شفّاف كالانداء فوق الزهر، والحسن فوق المرأة التي في ربيع العمر يختلف عن الحسن الذي فوق المرأة التي في عمر الأنوثة المكتملة.... لآن الأول يكونُ رفّافاً وأحلى من نسيم السحر.... وهنا تتجلى لنا نفس الشاعر التي فُطرت على عشق الريف الجميل حيث تقابل رائعات نسيم السحر أبيات أخرى كثيرة بصور مغايرة ومبتكره. وكما قال و كما قال ((خدود مثل الورود ضوء الفجر أرواها وأعطاها المشاقر حرس... محوَّطات الوجوه البيض بالكاذي

المُسَقّى ببرود (الغَلَس)..؟

والحسن المضيء الذي أسقاه القدر كأساً من شعاع القمر رمز الجمال العربي، والشاعر هنا يقول ذلك مع علمه – كما قال العلم الحديث أن القمر كوكب معتم ومظلم تماماً، ونحن نكتب هذه السطور ومعرفتنا الكاملة لهذه الحقيقة العلمية إلا أننا نؤكد أن القمر سيظلُّ تلك الأسطورة الجميلة لكلِّ المحبين.. لكن هل السحر للقمر؟ أم لليل؟ أم للعاشقين الذين يرون الطبيعة والكون بمنظارهم الشاعري الحزين؟!

وكهذه الصورة التي بالغ فيها الشاعر محمد أحمد منصور العديني:

يا بدر من فوق السحاب يسري مسكين أنا ضيعتُ فيك عمري

أما الفضول فقد بدأ السير في طريق الحب من أول الطريق، لأن الحب عندما ينبض قلبه، والشاعر عندما تلتهب أشواقه، لا يكونان معنيان بالسؤال عن الذين أحبُّوا قبلهما، لأن الحب تجربة إنسانية أو قل لحظة إنسانية لا تقل عن لحظة الميلاد ولحظة الوفاة (الموت)... هكذا:

لماذا وُلدَ فلان؟

لماذا مات فلان؟

لماذا أحبَّ فلان؟

ولذلك قيل (الموت كأسٌ وكلُّ الناس شاربه)

ونقول (الحبُّ كأسٌ وكلُّ الناس شاربه)

أمَا قال المتنبي:

ممَّا أضَرَّ بأهلِ العشق أنهمُ هووا وما عرفوا الدُّنيا وما فطنوا
تَفنى عيونُهمُ دمعاً وأنفسُهُمُ في أثر كلِّ قبيح وَجْهَهُ حَسَنُ

وهو الذي قال:

أرقُ على أرق ومثلي يأرَقُ وجويً يزيدُ وعبرةٌ تترقرقُ
مالاح يَرْقُ ولا ترنَّم طائرٌ إلاَّ أنثنيت ولي فؤاد شيِّقُ
جهدُ الصبابة أنْ تكون كما أرى عينٌ مسَهَّدةٌ وقلبٌ يخفقُ
وعذلتُ أهلَ العشق حتى ذُقتُه فعجبْتُ كيفَ يموتُ مَن لا يعشقُ
وعذرتُهُم وعرفتُ ذنبي أنني عيَّرتُهُمْ فلقيتُ فيه مالقوا

والقارئ الحكيم والدقيق عليه أن يستنبط أيَّ الأبيات قالها المتنبي قبل الأخرى ...

أمَّا الفضول هل وصل إلى وما وصل إليه شقيق الطموح والشاعرية

يا بدر كم ذا قاسمتك البدور تمامها عند انتصاف الشهور

فيا أيها البدر اعط زكاة الحسن.. و ما زكاة الحسن؟!

ويا أيها البدر أوف النذور ..... وما وفاء النذور؟!

إنني أرى الفضول وقد أصبح فقيها في زكاة الحسن والجمال والدلال[١]

ما فاز باللذات إلاّ الجسور.. وهذه تنم عن ثقافة الفضول التي رشفت من ثقافة الشعراء العباسيين الذين أمتلكوا الموهبة وحدَّة البديهة ... كما هو الحال عند أبي الشمقمق الذي له مثل هذا (ما فاز باللذات إلاّ الجسور).

وأجمل ما في هذه المثاقفة أن تكون المرأة الجميلة ويكون الشاعر والمحب ثم الذين فيهم (ما فاز باللذات إلاّ الجسور).. أمَّا إذا كان المحب جباناً فقد فَسَدَ الحب، لأنَّه على المحب أن يكون جسوراً وعلى المحبوبة أن تصدق في الحب والوعد.

ولو جئنا بهذه:

كم قطَّرَ الوردُ الندا في فمك والشمس كم أروى ضُحَاها دَمَك

والفضول يتميز بموهبة عجيبة تتمثل في قدرته على وضع الكلمة أو اللفظ المناسب في مكانه الذي هو له ... (أروى ضحاها – دمك) الأن شمس الضحى هي شمس الدلال وما من حسناء إلاّ وهي مدللة، وما من مدللة إلاّ وهي (نؤوم الضحى).. وبيضة الخدر ... أمَّا قول الشاعر القديم إبن الوأوأ الدمشقي:

وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعَضَّتْ على العُنَّاب بالبرد

فإن أجمل منه وأعمق وأصدق وأقرب إلى الحس (كم قطر الورد الندا في فمك) والحسن صانع ماهر (كم ضمَّك وكم لملمك).

يهندس الفتنة على مبسمك ... وما هو أفتن من الثغر غير الابتسامة التي تكاد تنطق وتقول (أُحبُّك)؟!

ولأنَّ قلب المحب في يد مُقَلِّب القلوب – نعم ومُقَلِّب القلوب – فقد كان الفضول من أولئك الذين تتقلب قلوبهم آناء الليل وأطراف النهار ... كان قلب الفضول حبه جديد وعطره فريد، وقبل هذا وبعده كان قلب الفضول صادقاً في حُبِّه الذي يقابله ويعيش في أفيائه، ولكن عندما ينقلب هذا الحب إلى خريف أو شتاء، فإن الفضول يبحث عن ربيع دائم الاخضرار والجمال وعندما لا يجده يتفيأ حُبَّاً جديداً ... ومن كل هذه المواسم الربيعية الدائمة الأخضرار في قلب الفضول وفي أشعاره خرج إلى محبيه بما يخبر وينبي بأن دوام الحال من المحال... وكانت العرب تقول ((إذا نُكِح الحبُّ فسد))، ولكنها مقولة لا تعنينا هُنَا، لأننا في عالم آخر من عوالم نفس الفضول، فالمرأة التي كانت تمشي كأن الأرض لها وليس لسواها.. وملحنة الخطو ولها ترنيم ومغنى ... وفي عينيها إشراقة الصبح وفي مبسمها سحر الغروب...، المهم نحن نريد أن نقول إن الإنسان يظل طوال عمره عبداً

(١) سر حب الفضول ستجده في لقاءنا مع ملهمته عزيزة النعمان في ملاحق الكتاب.

لقلبه، يعشق ويحب ويهوى وهو في كل تجربه يخوضها يتجرع مرارة حياض الهوى والحب والعشق ... وبعد أن ضاعت الأيام – كما ذكرنا من قبل – فإنَّ الفضول أحب ثُمَّ ذاب كما قال نزار قباني:

((والحبُّ يبدأ من دمشقَ، فأهلُنَا عبدوا الجمالَ ... وذوَّبوه ... وذابوا))

وغنائية الفضول وحب الفضول وقلب الفضول .... دفعته لقول كل ما يقال والقلب (يغتلي نار). (ويمشي على الجمر) جمر المرأة والوطن من قبل ومن بعد والمرأة من قبل ومن بعد، فهل أراد الفضول من المرأة أن تمنحه ما عجز عنه الوطن؟!

وهل المرأة تُعَوِّضُ الوطن؟! وهل حب المرأة يقوم مقام حب الوطن متى ما بخل علينا الوطن بالقليل؟! إن حب المرآة سيبقى الوهم والسراب الذي يتعلق بحبله العاجزون عن فعل ما يجبُ أن يقوموا به ...

إن السياسي عندما يتحول إلى محب وعاشق فإنَّه يكونُ أول الفاشلين والغارقين في ساحل الحب وشاطئ الغرام، كذلك الحال عند الشعراء، فالشعراء يملكون زمام القول في حالات الانفعالات كافة وبخاصة الحب والعشق، لكنهم أفشل من يُحوِّل هذا الفنُّ القولي إلى فنٍّ عملي وواقعي ... وبتلك المقدمة نعرف ان المحبين وأصحاب القلوب النبيلة أوَّل المهزومين مع المرأة، ولكن بلادة قلب المحب لا يفتأ يعيد مسلسل الفشل مرات عديدة ... وقد ينجح وقد لا ينجح،لأنها أمور تتعلق بالنفس الإنسانية والقلب المتقلِّب له نصيب من التعب والفشل.. وأيضاً لا شك أنَّ ما أتعب الفضول قد تحَّول الينا – بل إلى قلوبنا – متعةً ولذةً وفرحاً وحزناً وعشقاً وهذا هو اللحن الذي نريد أنْ نسمعه الآن:

إنْ كان قلبك قنعْني أو هواك أرتوى فَقُل لروحي بما قلبك لها قد نوى
أراك قد ملتْ واعطيت الجفا للمنى وكنت في الحب تمشي في طريقي سوى
أتيت في تاج كسري يوم لاقيتني واليوم قد طاح ايوانك وعرشك هوى
كل القناديل منك ضوءاها قد خبا وجاءاني ليل داجي في وجودي أوى
جراحك الحمر لم تأتِ لروحي سوى سعير ذابت بها روحي وقلبي أكتوى
مواجعي منك تذبحني وحبلك أتى من بعد عانقت جيدك حول جيدي التوى
عليكِ بالدمع يا عيني فجودي بها ونطِّفيها لتأتي في جراحي دوا
وأنتَ يا قلبُ فاترك من غدرني ولا تقبلْ شفاعات أشواقي وعاصي الهوى
و قُلْ لمن غَشَّ أحلامي ومن خانها بأنْ ما قد نشرنا من هوانا انطوى
فَلَمْ أجِدْ فيه إنسانٍ ولكنِّني وَجَدتُه الذِّيبَ في مرعى ظبائي عَوَى

لا يسَعُنا ونحن نقرأ – ثُمَّ نستمع بانفعال وبذلك اللحن الذي كأنَّه الألم القلبي وهو يتجسد – إبيات عاصي الهوى إلاَّ أنْ نُعَبِّر عن انفعالنا بصمت الدهور.... أمَـا قيـل إن الصمت أبلغُ من الكلام.

إنَّ (عاصي الهوى) – بذاتها و بمفرداتها التي بمثابة رصيد جديد من التعبيرات والصور التي ترتقي قمة أعلى الأذواق الإنسانية، أضفْ إلى ذلك معمارية النصّ... الأدبي القـائم على حكمة ((كلّ لفظ لما خُلقَ له ولما وُضِعَ له)).. والفضول كأنه جاء ببديهته وحـسن التفاتته وسرعة خاطره وحضور جوابه لذلك تتابعت الصور التي تُشكل لوحـة مأسـاوية واحدة إلى حد الألم الحزين أو إلى حد الإحساس العميق بتلك المسحة العارمة من الحزن التي سُكبت في الأبيات القليلة التي ألهبت إنسانية القلب بمنظمة متكاملة من الأحاسيس (قلبك قنعني – هواك أرتوى – فقل لروحي – أعطيت الجفاء للمنى وكنت في الحب تمـشي في طريق سوى – أتيت في تاج كسري – طاح ايوانك – عرشك هوى – كل القناديل منك ضوءها قد خبا– ليل داجي في وجودي أوى (أي نام أو بات أو أمسى)، جراحك الحمر – ذابت بها روحي – قلبي أكتوى – مواجعي منك تذبحني – حبلك أتى – من بعد عانقـت جيدك – حول جيدي التوى – عليك بالدمع يا عيني – فجودي بها (لها امتداد تراثي) – (ونطفيها) – من شدة حرارتها – لتأتي في جراحي دواء – (جراح القلب جروح معنوية) – و أنت يا قلب (تجسيم وتشخيص قوي – شفاعات أشواقي – وعاصي الهوى (فمن هـو عاصي الهوى؟ أليس هو ذلك الذي يقطر الورد الندا في فمه؟!) – لمن غش أحلامي ومـن خانها –ما قد نشرنا من هوانا انطوى – لأن هذا الهوى الذي ظننته إشراقة الصبح وسحر الغروب في مراعي الغزلان أنما هو ذئب في مرعى ظبائي عوى ... وما بين (دق القاع دقه) و (ذئاب عاصي الهوى) ... كان أو كَمُنَ أتعب قلب الفضول .... الذي أنهكه الظمـأ وأوقفه الوطن.

وما تعب القلب إلاَّ كما قال العباس بن الأخف:

أبكـي إذا سـخطت حـتى إذا رضـيَتْ بكيتُ عند الرِّضا من خَشية الغـضب
أتوبُ من سُـخطها خوفـاً إذا سـخطت فإنْ سَـخطتُ تمـادتْ ثُـمَّ لم تَتُـب
فالحزنُ إنْ سَخِطَتْ والخـوفُ إنْ رِضَـيتْ أنْ لا يتمِّ الرِّضـا فالقلـب في تعـب

وما تعب القلب إلاَّ هكذا :

وما عذاب حب المرأة؟ أليس كما قال شاعر عربي قديم:

إنّ الـتي عـذبتني في مَحَبَّتـهَا كل العذاب فما أبقـت ولا تَركَـتَ
عاتبتُهـا فبكـت فاسـتعبرتْ جزعـاً عيني فلّمـا رأتـني باكيـاً ضـحكت
فعدتُ أضـحكُ مـسروراً بـضحكتها منّي فَلّما رأتني قد ضـحكتُ بكـتْ

تَهْوى خِـلاَفي كَمـا حُثَّـتْ براكبـها يوماً قلـوصٌ فلمـا حَثَّهـا بَرَكـتْ

ولماذا الشكوى من تقلب المرأة؟

ولماذا يتقلب الشعراء بين نارين .... نار الحب ونار البعد؟!

أليس لأنَّ النارين حصاد لطقوس القلب وهو يتقلب بين أبعاد ثلاثة هي نار الحـب، ونار البعد، ونار أخلاق المرأة التي يقطر الورد الندا في فمها أو لنقل أخلاق المرأة النارية أو الأخلاق النارية للمرأة الملحنة الخطى؟! هكذا:

((كذلك أخلاقُ النساءِ وربَّما بَضلَّ بها الهادي ويخفى بها الرُّشدُ)) كما قال ذلـك المتنبي.

في تعز وتحت جنح الليالي التي تتلفع بجبل صبر.. يتجدد المدد، مدَدْ، مـدَدْ، مـدَدْ، ويجود الحب، وينبض القلب بالحب من جديد، فيعود الفضول بهذا الحـب إلى غامـضات النجوم من الليالي، وإلى السماء وهي تستضيف ساريات الغيوم ... فَهَلْ سنلاقي مُنَانـا، ونعيش ليلةً كهذه؟ ولكن قبل أن تضيع أمانينا ومنانا، هيَّا نقرأ – عفواً نسمع:

أذكـرك والليـالي غامـضات النجـوم
والـسماء مُسْتَـضيفَةْ سـاريات الغيـوم
والقمر قـد تـوارى في الـسحايب يعـوم
والهـواجس بقلـبي سـاهرة لا تنـوم[1]
أذكـرك والريـاحين يـسكبين العـبير
والمنى كالفراشـات مـلء روحـي تطـير
فوق طيفـك وطيفـك في خيـالي أسـير
أذكـرك والحمـايم يـسجعنَّك لنـا
والنـدا والـبراعم يـسمعنَّك غنـا
والعيـون الحـوالم يَحملنَّـكْ رنـا
واذكرك وانـت نـايم مـلَء عينـك هنـا
حـين يكـون كـلّ هـائم نـام إلاَّ أنـا
سكن عيوني سهاد شـلَّت منـامي عيونـه
وتحت صدري فؤاد الحـب ديـني ودينـه
كُلْما توجَعتْ زاد هـواه وزادت شـجونه
وكلما كفي عـاد يهـز صـدري حنينـه
تحـت جـنح الليـالي الليـالي الطـوال

(١) والقمر قد توارى خلف غيمه يعوم – هذه وتلك للشاعر كبدائل لفظيه.

أحملـــك في خيـــالي أنـــت أحلـــى خيـــال
وأنشغل بك واحـــالي مـــا خطـــر لي ببـــال
واذكرك يا ظـــلالي أنـــت أنـــدى ظـــلال
واحضنك يا ضلالي أنـــت أهـــدى ضـــلال
وأصطبح بك وفجري قـــد بـــدا يـــستدير
في السماء حيث يذري من نـــداها الغـــدير
وأذكرك أنت عمري أنت فجري الكـــبير[1]

عندما نستفتح القول نبدأ بـــ (أذكرك والليالي ...) فلماذا أذكرك؟! أ لأن الحبيبة في أرض غير الأرض، أو تحت سماء غير السماء، أو في مدينة غير المدينة، أو بجوار جبل غـــير جبل صبر، أو في يمين رجل آخر ولا سبيل إليها إلاّ في الخيال ... أو أن هواها في اتجاه آخر ولا يقع في طريق خياله المسكر ... ونذهب في رؤيتنا إلى قوله: (واذكرك وانت نايم ملء عينك هنا، حين يكون كل هايم نام إلا أنا)، فلا تكون المرأة ملء عينيها هنا، وهي في بيت أبيها تنتظر فارس الصبا وراهب الشباب والأنوثة، ولا تكون هي معلقة بحبـــل آخـــر ولا تكون في كل حال على ذلك الحال (ملء عينيها هنا).. إلا إذا كانت في ملك رجل آخر، يتبادل معها سعادة الحياة، فرحاً بما هي عليه من حسن – (صوَّره الفضول) – وهي فرحه به.. وإلا ما نامت وملء عينيها هَنَا، ولكن الشاعر رأي فيها ما يبحث عنه ويحس – إنهـــا هي – دون سواها من تستحق أن تكون ملكة قلبه وأميره شعره وملهبة أشواقه المنظومة.. فهي التي يلوح خيالها على صفحة السماء التي تستضيف الوفود الهائلة من ساريات الغيوم والقمر قد توارى في السحايب يعوم، والهواجس – (الحقيقة والخيال) – بقلبي ســـاهرة لا تنوم. وهكذا هو حال العاشق أبداً معلق بين هواجس قلبه وبين غامضات النجوم .... لأنَّ العاشق لا تكتمل سكرته بالحب او العشق إلاّ إذا طرح قلبه بين رحى (عاصـــي الهـــوى) وخلى زمامه بيد هواجسه التي تصنع منه ساديا يهوى اغراق نفسه في بحر من الجحيم.

– إن صح لنا التعبير بذلك – لكن لنترك هذه الفلسفة المتشائمة إلى هذه التصويرات التي أبهرنا بها الفضول.. هواجسه في قلبه ساهرة لا تنوم.. أذكرك والريـــاحين يـــسكبين العبير، والأماني كا الفراشات – ملء روحي تطير – أبعاد ثلاثية لطيف الحبيبـــة وهـــو في خيال الشاعر – الحمايم يسجعنك – والندا والبراعم يسمعنك – والعيون الحوالم يحملنك رنا – ملء عينك هنا – كل هائم نام إلا أنا – سكن عيوني سهاد – شلت منامي عيونه – تحت صدري فؤاد الحب (ديني ودينه) – وهذه الصوره فيها شطحة لا شـــعورية – يهـــز

(١) كتاب أغنيات أيوب طارش – دار الفكر – تعز – ١٩٧٤م.

صدري حنينه – تحت جنح الليالي – احملك في خيالي – أحلى خيال – أذكرك يا ظلالي – أنت أندى ظلال – واحضنك يا ضلالي – أهدى ضلال – فجري قد بدا يستدير – في السماء حيث (يذري) – من نداها الغزير – أنت عمري – أنت فجري الكبير.

ويبقى الحب ذلك الفجر القادم بشوق ذكرى وأمل لكل محب وشاعر وتبقى المدينة والقرية من تلك القواسم المشتركة بين المحبين والشعراء ... و محلى بنات الجبل (حمًّا) يطوفين المدينة بالثياب الدمس خدود مثل الورد ضوء الفجر أرواها وأعطاها المشاقر حرس محوطات الوجوه البيعض بالكاذي المسقى ببرود الغلس

ولكن لماذا تعز هي التي وقع عليها اختيار الفضول؟!

وهو سؤال سيظل مفتوحاً على أجنحة يمتطيها الفكر –ليصول ويجول فيها القلم وربما الأقلام... والإنسان لا يستطيع الإجابة على سؤال.. فحواه، لماذا أنت تعيش في مدينة كذا (مثلاً)؟!

لأنه سؤال لا شاطئ له، ولكنه سؤال له جبال ... وجبل صبر قد يكون إجابة على سؤال مفلسف لأن تعز هي حياة الشاعر والفنان لسنوات طويلة عاشا فيها وخرجا منها وأحبا فيها ومات الشاعر فيها ... وقد نعود إليها !!

الباب الرابع

الظمأ العاطفي

- (مكانني ظمآن – شق الظمأ قلبي – مدريش كيف قلبك رضي يروى وقلبي مـــا رضيش)–
- كم يا ورد كم ياندا اعطيت قلبي ولكن ما ارتوى لي صدى
- هيمان حتى لو سكنت السحاب
- ولو أني كدت أقضي ظمأ
- أطلب الماء وقد خاب التماسي

ما هو الظمأ العاطفي؟ وكيف وقع فيه الفضول؟

وهل نستطيع الخروج منه؟ وكيف تعرف أنك ظمآن مثل الشاعر؟

وكيف نشعر بالظمأ وأننا في حاجة إلى الحب؟!

إن الطفولة الإنسانية هي التي تحدد المستقبل ...

وعندما نراجع طفولة ما، فإن الأمر ليس بالأمر اليسير الذي قد يخطر لدى البعض، لأن الطفولة تعني الماضي والماضي لا حدود له في حساب الزمان، وتزداد الصعوبة عنـــدما نكون في حالة انفصال كامل عن ذلك الماضي حتى من خلال الحاضر، واستحالة الـــتكهن بالمستقبليات، والتراث الإنساني لا يكون حكراً على طائفة دون طائفة، والتراث قد يكون نتاج منفرد وقد يكون من نتاج جماعي، أما الجماعي فما أيسر استقرأه وأستنطاقه، لأن هذا يدل على ذاك، والبعض يقود إلى الكل، والحاضر يدل على الغائب،والموجود يشير إلىغيره وأما النتاج المنفرد، فما أيسر ضياعه و أسهل فقدانه لأنه كالابره في كومة من القش، وما بقى من نتاج منفرد إلاً لأن أصالته تقود الباحث إليه، وهذا لا يعفي التائهين عن الانتـــاج الذي تميز بأصالة ونبوغ وانفراد في التعملق الذي يقود هولاء إلى هذه الجواهر.

فقد كان سقراط يجلس لألقاء الدروس والفلسفة على تلاميذه ومريديه ويظل يتكلم ويتكلم آخذاً بمجامع عقولهم وأفهامهم وقلوبهم.. وهم لا يتكلمـــون ... فتجـــئ امـــرأة سقراط بعد انصراف مريديه وتلامذته فتظل تكيل له السب والشتم ثم تختم برقها ورعدها بقولها: "لقد كان الناس كلهم في صمت وأنت فيهم كـــالقرد الـــذي لايتـــرك القهقهـــة والحركة".

فهل جهل هذه المرأة حجة على سقراط...؟!

وهل المرأة هذه لم تكن تدرك ما يمثلة سقراط بدماغه وفلسفته؟!

وهل الناس هكذا هو حالهم ... فلا يهتم أقرباء النوابغ بنابغيهم باعتبار بشريتهم التي هي معهم، فيبقى العبقري في منزله وبين أهله وأبنائه كأي إنسان عادي ... إلا يقدر ويعرف هولاء عبقرية هولاء إلا بعد فوات الأوان.. أو لا يعرفها أحد مطلقاً من عشيرته.

وهناك من لا يعرف عبقرية أبيه ولن يعرفها أبداً.

ولقد حاول الكثير من الدارسين والباحثين بعث الماضي –مهما كان بعيداً – باستخدام عدد من المناهج العلمية التي توصلهم إلى كثير من الحقائق ... إن لم يكن كل الحقائق وعلى سبيل المثال حاول عباس محمود العقاد أن يبعث روح الشاعر العباسي المتشائم من ديوانه، فوضع كتاباً سماه (ابن الرومي حياته من شعره) ووضع كتاباً آخر سماه (رجعة أبي العلاء المعري). وكذلك عن أبي نواس، وعن جُحا الضاحك المضحك ... باستخدام مناهج التحليل النفسي التي كان قد أرسى قواعدها وأسسها عالم النفس (اليهودي الأصل)، النمساوي الجنسية (سيجموند فرويد) وأستطاع بعد ذلك عباس محمود العقاد من انتهاج هذا المنهج التحليلي النفسي في وضع سلسة عبقرياته الشهيره (عبقرية محمد – عبقرية أبي بكر الصديق – عبقرية عمر – عبقرية علي بن أبي طالب – عبقرية خالد بن الوليد...).. وغير العقاد كان هناك طه حسين – مصطفى الرافعي – محمد حسنين هيكل... وعز الدين إسماعيل، ومصطفى سويف و غيرهم. وليس آخرهم محمود محسن شاكر في كتابه الشهيد (المتنبي).

إما سيجموند فرويد فلم يكن نجاحه الأول بسبب نجاح في منهجه ومدرسته للتحليل النفسي أو بانتهاجه لهذا المنهج بصفته عالم نفس ... بل يعزى نجاحه إلى انه كان أديباً ومثقفاً وقارئاً نهماً، وما وصل إلى ما وصل إليه إلا بسبب هذا الأرتباط الوثيق بين الأدب وعلم النفس التحليلي.. بل وأستطاع (فرويد) أن يستلهم الكثير من طرق التحليل النفسي من خلال قراءاته للروايات العالمية...ثم تطبيق آرائه التحليلية على أبطال تلك الروايات... ومن ها بدأت عملية أستنطاق الأعمال الأدبيه بأبطالها ومؤلفيها – حتى يتم النقل الكامل والأمين والفاعل لما يدور في العمل الأدبي سواء كان شعراً أو نثراً أو قصة أو رواية أ وغير ذلك ...

ولكن انتهاج الكثير من النقاد والأدباء لهذه الطريقة في التحليل النفسي للأعمال الأدبية، دفع بعض النقاد الكبار وعلى رأسهم سيد قطب صاحب كتاب (النقد الأدبي أصوله ومناهجه) و (كتب وشخصيات) نقول دفعه ذلك إلى إعادة النظر في ادخال عملية التحليل النفسي في النقد الأدبي والتحليل الأدبي عامة ... لأن هذا التحليل النفسي قد

يدفع البعض من النقاد إلى تحويل أعمالهم الأدبية النقدية – دون ادراك – إلى مصحَّة نفسية فيكون هذا على حساب مقومات العمل الأدبي الأُخرى... رغم الزعم بأن هذا المنهج التحليلي ما هو إلا مساعد على تفكيك العمل الأدبي ليسهل فهمه وادراكه.. ومن ثم تقديمه لعامة القراء وقد أصبح ميسوراً استيعابه إلى حد ما.... ولذلك أجمع كثير من النقاد على أن المنهج التكاملي في النقد هو أخصب المناهج على الإطلاق.

وإبداع الفضول (عبدالله عبدالوهاب نعمان) له صلة وثيقة بطفولته التي استقبلتها أرياف تعز خاصة وأرياف اليمن بتهليل وترحيب فنزلت الأمطار و انهمرت الأنداء، واندفعت السيول، وغردَّت العصافير واعشوشبت الأنهار والآبار، وأخضرَّت الأودية ... و.... و ... فنام الفضول في أفيائها، لكن الطموح والأمل دفع بأسرته التي رأت فيه خير سفير للأسرة – في مساجد صنعاء ثم مساجد زبيد – لكي يتلقىَّ فيها علوم العربيه والقرآن والأحاديث، ليتم له تأسيس القاعده البيانية واللغوية التي سيتكئ عليها في قادم الأيام لمواجهة الطغيان السياسي الأمامي.. ثُمَّ طغيان قاعدة (لكل عصر دولة ورجال) ثُمَّ طغيان حب الوطن ثم طغيان المرأة الأنثى الحسناء التي (قطر ويقطر الورد الندا في فمها).

وكان الفضول كما أوردنا ذلك في باب الأبواب (وادي الضباب)

قد تلقى تعليمه الأول على يد الأستاذ / أحمد محمد النعمان، ولم يذكر الذين اهتموا بتوثيق بعض مراحل حياته بالتفصيل، لكن لا شك أن الفضول – من خلال أشعاره – ألَّم وحفظ وأستوعب القرآن الكريم وعلوم اللغة والدليل على ذلك الذين يعرفون الفضول – وإن في مرحلة متقدِّمة – وغيرهم وما كان يثبته من أبواب ذات مسميات متنوعة من أبواب العلوم النحوية، وكذلك إيراده للكثير من الموضوعات السياسية بفكاهات نحوية وعلوم لغوية[1]. وأيضاً قاموسه اللغوي الذي يفيض في أشعاره ذات المزاج الغنائي، وهي كلها ذات مزاج غنائي – والقارئ المثقف يدرك لا شك ثقافة الفضول من شعره.

ولم تستقر الأوضاع الثقافية في اليمن إلاَّ في نهاية السبعينات بعد أحداث أغسطس (١٩٦٨م) – مع عدم اغفال السنوات التي مكث فيها في عدن في حدود مابين (١٩٤٤– وحتى قيام ثورة سبتمبر) وفيها قد يكون أكتسب حجماً لا يُستهان به من الثقافة، بحكم أنَّ عدن كانت رئة اليمن الثقافية – آنذاك – .... وقد أتفق على ذلك الجميع.

ولكن قبل أَنْ نذهب بعيداً عن (وادي الضباب) الذي لم يرو ظمأ الفضول وقبل أن نذهب بعيداً عن الظمأ الذي أشعل الدماء والأشواق.. ألا يحق لنا أَنْ نستنطق هذه القصيدة ذات المزاج الغنائي والعمق الذي أبحر في الرومانسية، والتي نثبتُ بها ونرسمُ من مفرداتها طفولة الفضول التي تستحق الإعجاب.. وما وقع اختيارنا لهذه القصيدة إلا لأنَّها لسان

(١) راجع مجلة الفضول – دار الكتب – صنعاء.

حال...ما سنذكره بعد أن نقرأ ونسمع (مدارب السيل) وقد نظمها – أو نظم مطلعها – عند زيارته للشلالات التي تقع في باب الناقة ما بين صنعاء والحديدة ... فإلى هذه اللوحات البديعة:

مدارب السيل قولي وامدارب لما ... لا يقدر السيل أن يروي القلوب الظمأ
مهما مسيلك سال دافق ومن ... صدورضاحات الجبال أرتمى

مكاني ظمآن ... شقَّ الظمأ ... قلبي واشعل في عروقي الدماء
والشوق لايطفيه شنان ماء(*) ... والحب لا يرويه مآء السماء

واغاديه فوق الرُّبى والهضاب ... سحاب نفسي ظامئه واسحاب
وأنت تروي من سيولك شعاب ... وأنا معاهن أستقي إنَّما.
..... مكاني ظمأن

أُقاسم الطير في الأعشاش ضوء البكور ... واشرب كؤوسي من الاصباح اشعاع نور
ولفْ بالأنداء روحي وكم ... قد نُمت في حضن الغمام إنَّما ...
..... مكاني ظمآن

كم سرت في الوديان خضرا رطاب ... قد ارتوت سُقيا وداخت شراب
واشرب مع الوديان هطل الضباب ... وانام في أفيائها إنَّما ....
..... مكاني ظمآن

خمائل الورد كم يا ورد كم يا ندا ... أعطيت قلبي ولكن مارتوى لي صدى
ما زلت أنا عطشان ظامئ وقد ... شربت حتَّى الطَّل لكنَّما ....
..... مكاني ظمآن

آوي إلى خصب المروج الخصاب ... في صدرها النامي الوفير الشباب
وما دعيت الغيث إلاَّ استجاب ... لكن مهما الغيث فوقي هَما ...
..... مكاني ظمآن

وبقدر ما أعطت الألحان والصوت لهذه القصيدة من روعة وجمال فإن القصيدة جميلة بذاتها، وجمال موهبة أيوب لا ينفي موهبة الفضول وقدرته ونبوغه بل إنه يؤكدها تماماً، وأهمية هذه القصيدة تكمن في تاريخ نظم الشاعر لها، وفي مزاجها الغنائي القوي الذي يكاد الفضول يبلغ بها فوق سحاب المواهب الشعريه، وفوق سحاب نفسه الظامئه، وايضاً في إدراك الفضول المبكر لمزاجه الغنائي الأمر الذي دفعه إلى البحث عمن يمتلك القدره الغنائية لأخراج نتاجه الشعري الغنائي إلى الناس وإلى الشمس وإلى الضحى ... فكان هو الذي

(*) وفي ألفاظ أخرى (والشوق لا يطفيه شلال ماء)

سعى خلف أيوب طارش، باحثاً عنه، آملاً فيه، لأن مزاجه الغنائي أوحى له بأن الشاب القادم من الريف اليمني والذي بدأ رحلته الفنية في عدن – أيوب طارش العبسي – هو من سيكون توأم الفضول الإنساني، فلذلك يصعب على الكاتب أو الباحث وهو يتناول شعر الفضول إلا أن يتعرض لأيوب طارش صاحب الصوت والأداء الذي أعلى من شأن كلمات الفضول ذات المزاج الغنائي – كما قلنا – ومعلوم لدى المثقفين ومحسوس لدى عامة الناس، أن الشعر الغنائي .... عند قراءته لا نتفاعل معه بنفس الحجم الذي نتفاعل معه و هو يُغنَّى ... وبخاصة عندما تتطابق مشاعر المطرب تماماً مع مشاعر الشاعر ... وهذا ماحدث بالضبط بين الفضول و أيوب طارش ... يقول أيوب طارش عن لقائه بالفضول[1]:

(توضيح)[*].

((وقبل ذلك كنتُ قد التقيت بالشاعر الكبير عبدالله عبدالوهاب نعمان – (الفضول) – وقصة لقائي با لفضول تبدأ عندما كنت جالساً بجولة فندق الأخوة في بوفية – (أبو خالد) وهي الأن مكان مهجور – فعندما جئتُ من عدن أستقبلني أصحاب البوفيه وسكنت عندهم، وفي احدى الأيام جاءاني سائق الفضول، وطلب مني الذهاب معه لمقابلة الشاعر عبدالله عبدالوهاب نعمان وأتفقنا على مقابلته في اليوم التالي.. وبالفعل جاء الفضول إلى البيت الذي كنت أسكن فيه ... وبدأنا رحلتنا المشتركة و الممتعة)).

وقال أيوب ((لما يضع الفضول الوقت وأخذ يقرأ لي قصائده وأنا مأخوذ بروعة الكلمات وسحر المعاني... وأتذكر أنه بدأ يقرأ لي قصيدته (وادي الضباب) وبعدها (مدارب السيل) و(هات لي قلبك) و (طاب البلس) وكنت اردد بعد كل مقطع كلمة (ياسلام) دون وعي مني ... وبعد الأنتهاء من قراءة قصائده قلت له: معي لحن وكلماته لأحد الأصدقاء وهي تقول:

(الأخضري خضر من الرشاشي، خضر من الله لا مطر ولا شي)، وبعد استماعه للأغنية أعجبة اللحن ولكنه أعترض على الكلمات وقال:

((الخبر هذا مش مليح)) كيف الأخضري خضر من الرشاشي.. وبعدين يقول: خضر من الله لا مطر ولا شيء.. هذا ما يستويش، (وفي اليوم التالي) جاءني بقصيدة أخرى لنفس اللحن تقول كلماتها:

---

(١) الجمهورية الثقافية – العدد رقم (٥٢) ١٩٩٧/٨/٢١م – ص ١٥.

(*) روح لك بعيد أول قصيدة غناها أيوب للفضول – قبل أن يلتقيا – وكان ذلك في عدن عن طريق عبدالقوي مكاوي الذي اجتمع لديه أيوب ومني على.. وبهذه – كما نرى – عرف الفضول خاصة صوت أيوب – فلا غرابة أن يبحث عنه الفضول أو أنه لم يكتب الشعر الغنائي قبل ذلك لهذا ولأسباب سياسية.

بكّـــر غَـــبَشْ في الطّـــل والرشـــاش بكّر بكـــور قبـــل الطيـــور ماشـــي
حـــالي الوســـط ململـــم الحواشـــي أخضر مـــن الله لا مطـــر ولا شـــي
على الـــروابي تحـــت ظـــل الأشـــجار فوق المروج الخـــضر بـــين الأزهـــار
عنـــد المراعـــي في ضـــفاف الأنهـــار ربا الهـــوى وشـــبّ في دمـــه نـــار
بكّـــر غـــبش ســـاني القـــوام أهيـــف لا طـــارح الخُنـــةً ولا مـــشرشف
يَـــسْبي القلـــوب بنظرتـــه ويخطـــف ساجي الرنا قلـــبي عليـــه رفـــرف
بكّر وعاد الطـــير وســـط الأعـــشاش والفجر طـــالع بالـــشعاع رشّـــاش

ويواصل أيوب حديثة قائلاً: ((وطبقتها على اللحن فكانت موزونه عليـــه تمامـــاً.. وركنت القصيدة الأولى وبدأت أغني ... [١]

وبهذا ندرك أن مبادرة الفضول في البحث عن أيوب طارش لم تأت من فراغ، و إنما جاءت من إدراك الفضول لما في نفسه ولما في أشعاره من تطابق مع موهبة أيـــوب طـــارش وصوته ونفسية أيوب الفنية أيضاً، ونستخلص ببساطة اللقاء الذي تم بين الأثنين وكيف أن الفضول كان صاحب المبادرة الأولى والثانية باللقاء ... وبمجرد اللقاء الأول بدأ الفضول يقرأ قصائده (وادي الضباب – هات لي قلبك – مدارب السيل).. ولم يـــضع الفـــضول الوقت، ولم يتردد طارش في أبداء اعجابه بالكلمات والمعاني معاً دون ابطاء.لأن كلاً منهما أكتشف وأستكشف الآخر، ولكن الفضول كان له السبق في ذلك بدليل مبادرتـــه الأولى والثانية، وفي الموقف أيضاً نرى الفضول الناقد من خلال اعتراضه على الكلمات التي قرأها له أيوب وإن أعجبه اللحن.. وفي اليوم الثاني (جاء الفضول بقصيدة (بكر غـــبش) علـــى نفس اللحن وفي غاية الروعة وهذا يؤكد أيضاً المزاج الغنائي عند الفضول. وهناك مواقف كثيرة فيها المزاج الغنائي للفضول سنتعرض له في مكانه المناسب (المزاج الغنـــائي عنـــد الفضول)... وأن الفضول وجد نفسه الى حد ما كشاعر غنائي يعبر عن حبه وعواطفـــه التي فجرتها ملهمته .

وليس معنى أن الشعر الغنائي لا يتم إلا بالصوت الذي يؤديه، وأنما غالباً يكون للأداء القدرة على ايصاله بقوة لارتباط القصيدة الغنائية باللحن منذ ميلادها الأول ... بعكـــس الكثير من الأشعار التي تبقى هكذا شعراً دون لحن، فإنها تحتفظ بمعالم الأب الروحي لهـــا، والدليل على ذلك عودتنا إلى قصائد الفضول التي لم تُعلن فإننا سنجد فيها معامل ميلادها. من الوهلة الأولى لقراءتها، لكن ارتباط القصيدة بالأداء يعمل على تعميق المعـــنى بـــشكل جديد، لأن هذا النمط الجديد صنعه (اثنان) وإن تطابق ذوقهمـــا وأتحـــدت نفـــسيهما.. وساهمت البيئة المشتركة في تشكيلهما معاً بخصائصها جميعاً أضف إلى معاناة الغربة المشتركة

(١) نفس المصدر السابق / الجمهورية الثقافية / من الدندنة الى المئذنة.

وظروف كل منهما ونحن نتحدث الآن عن (مدارب السيول)، فإننا نؤكد على أن تحليلنا لها سيكون في لحظات نعيشها مع تلك اللوحة التي نعشقها (بأذاننا) – والأذن تعشقُ قبل العين أحياناً– لكن قبل ذلك نلفت الأنتباه إلى تاريخ نظم هذه القصيدة أو بالأصح السيمفونية الغنائية (الفضو أيوبية) – حيث تم نظمها قبل أن يلتقي الفضول بأيوب (مع غيرها من القصائد)، وهذا يدعونا إلى رد أقوال عبدالعزيز المقالح والتي يؤكد فيها أن الفضول بدأ ينظم الشعر الغنائي في بداية (السبعينات) وهو يقصد (٧٠–٨٠) – ولقاء أيوب بالفضول كان عام (١٩٦٧م) في تعز وهذا يقودنا إلى أن الفضول قد بدأ بنظم الشعر الغنائي في فترة مبكرة عن (١٩٦٧م) إذا ما نظرنا أيضاً إلى قصيدة (روح لك بعيد) التي غناها أيوب ومنى علي في عدن بلحن من التراث – وهي من كلمات الفضول، وكان قد توقف عن العمل الصحفي منذ منتصف (٥٠–٦٠م) – وأنصرف إلى بعض أمور الحياة – وإن ظلّ له أهتمام كبير بالسياسة – وكما نرجح بأنه في فترة انصرافه إلى أمور الحياة التي طرأت عليه كان قد بدأ يجنح إلى الذات ومراجعة قائمة الحياة الخاصة به التي أكتشف أنها في جفافها لا تشبه شيئاً كما تشبه قلبه الظامئ، وجاء شعوره هذا من لا شعورية الشعر، لأن في الشعر عالم خفي يستطلع ويستبطن حياة الشاعر الخاصة دون علمه، فيجد الشاعر نفسه وهو يعبر عن تلك الحياة التي لم يلتفت إليها حتى وقت قريب ... ويكون دور النقاد في قراءتها واستنطاق تلك الأشعار التي ترتبط بشكل قوي جداً مع حياة صاحبها، والإنسان الذي تصفعه الحياة بقسوتها وعنفها وتناقض أخلاق الناس ومشاعرهم ومواقفهم.. وأحساس الشاعر بعدم جدوى العمل الذي لا يجدي مثل الأعمال الوطنية التي يتأخر موسم حصاد ثمار التضحيات التي تبذل لذلك، وكذلك عندما يخلو الشاعر إلى ذاته، فإن خواطره تقدم له صورة كاملة عن حياته القاسية العنيفة التي ما زال يعيش فيها وتذكره هذه الخواطر بتلك الحياة القاسية التي بدأت بالأمل والطموح ومغادرة أحضان الطبيعة، وأحضان الأم والأهل والأحباب والأصحاب في رحلة شاقة طلباً للعلم و المعرفة ثم مواجهة عنيفة على مثل من كان في عمر الفضول (٢٠عاماً) وهروبه إلى عدن.. وبدء رحلة النضال بالكلمة والموقف الساخر ... وهذه الأحاسيس التي يندفع الشعر خلفها تكون سبباً رئيسياً في إحساس الشاعر في أعماقه بمدى ما يحتاجه من حنان وحب وأفياء ولكن هذا الحنان والحب وتلك الأفياء لا يمكن له أن يعود إليها لأنها انتهت ولا أمل في عودتها،فإنه يكون أمام خيارين الاندفاع وراء حب المرأة التي يأمل الشاعر أن يجد عندها بعض ما فقده من حنان وحب أو الاندفاع العارم نحو الطبيعة والجبال والهضاب والسهول والسحب والمروج... وهي معالم القرية التي نشأ فيها الشاعر – ونشأ فيها المطرب أيضاً – ولكن لأن أحدهما لا يقوم مقام الآخر، فإن الفضول هنا جمع بينهما بمزاج غنائي نابع من

الإحساس الحاد بالحرمان العاطفي الذي يعصف بكيانه أو يكاد (ابتعاده عن القرية المبكر – الابتعاد عن الأم لطلب العلم – الابتعاد عن الأب الشيخ في حياته – هروبه من المدينة التي فيها بعض عزائه – الابتعاد النهائي عن أبيه الذي سقط رأسه – الإحباط الاجتماعي الذي يتولد عن مجالسة بعض أبناء قريته، فيتنكر له من يتنكر ولا يعطونه المكان الذي يستحق أن يكون فيه.. ومن هذا وغيره تتجسم مأساة الشاعر فيعين خياله الشعري، فتتملكه لحظات الإنشاد الشعري وتسيطر عليه هواجسه الظامئة في مدارب السيل ...

حيث يصدح الفنان أيوب طارش بأغنيته الرائعة (مدارب السيل). فيتفاعل مع كلماتها تفاعلاً تهتز له أوتار القلوب الرومانسية والكلاسيكية (الظامئة والمهاجرة) وكذلك شعاب ووديان القرى اليمنية، وكأنه يعيش بين كلماتها ويتنسم مشاعرها، ويغتسل بمدارب سيلها المنسكب من (فوق صدور ضاحات الجبال) ويستمر تدفق الألحان، وتتباعد النغمات لتقترب من لحظة الروعة الرائعة المدهشة (مكانني ظمآن) – إنما – لكنَّما – مدارب السيل – لا يقدر السيل أن يروي القلوب الظمأ – شقَّ الظمأ قلبي – والشوق لا يطفيه شنان ما – والحب لا يرويه ماء السماء – سحاب نفسي ظامئه واسحاب – أقاسم الطير في الأعشاش ضوء البكور – والف بالأنداء هطل الضباب – وأنام في افيائها – إنما مكانني ظمآن – خمائل الورد – كم يا ورد المروج الخصاب – صدرها النامي الوفير الشباب – لكن مهما الغيث فوقي همّا مكانني ظمآن وهكذا – فمهما تدفق السيل فالظمأ ما زال قائماً في النفس والقلب والروح – وهي حال الأرض اليمنية التي رسمها الشاعر وجسدها الفنان، وعاش معها الإنسان اليمني العاشق للأرض المفارق للأحبة.. ولا نستغرب هذه المفردات والمختارات اللفظية البديعة، وما فيها من عذوبة ورقة و رومانسية وشعور جارف بالظمأ والحنين والشوق، وهذه شاعرية جديدة ارتدت الغنائية، وكأن الشاعر يدعو بالسقيا لديار الأحبة، فنجد الفضول ينادي السحاب الذاهبة (السائرة) فوق الروابي والهضاب ليشكو إليها ما بنفسه من ظمأ للحب والحرية بل وظمأ لكل شيء – كل شيء جميل من خلال ما تفعله الأمطار بالأرض حيث تعمل على بعث جمال الطبيعة ورسم منظر خلاب (جبال – وديان – هضاب – آبار – مدارب – سيل – صدور – ضاحات – الشوق – الظمأ – الحب – ماء السماء – الرُّبا – الهضاب – البكور – كؤوس – الإصباح – إشعاع نور – الأنداء – روحي – حضن الغمام – الوديان – خضراء – رطاب – ارتوى – سقيا – داخت شراب – هطل الضباب – أفياء – خمائل الورد – الندا – القلب – الارتواء – الصدى – عطشان – ظامئ – الظل – خصب المروج – النامي – الوفير الشباب – الغيث – همى.

مفردات تقاسم النفس التي لا ترتوي ظمأها ... فنقل الشاعر إلينا – مع أيوب عالماً من الطبيعة التي في شعابها ذلك الحب الذي وجده الفضول يوماً ما وما ارتوى.... لأن

الحب لا يرتوي – و لأن الذي أحس بالظمأ لا يرتوي لأنه إحساس قد تغلغل في نفسه، وما أصعب انتزاع ما يعلق بالنفس من آلام... حتى ولو كان بالحب، وإن أعتقد الشاعر أنه بالحب قد وجد ضالته وبلغ مأمنه، وارتوى صداه الذي لا يرتوي. فقد يعيش الإنسان الشاعر فترة طويلة قبل أن يكتشف نفسه، وأنه في حاجة عنيفة إلى الحب ويعرف مدى حرمانه من الحب والحنان والعطف، ولعلنا لا نخرج عن الموضوع إذا قلنا ما حدث لنا ونحن طلاب في الجامعة في السنة الرابعة وكنا ندرس الأدب الحديث وبالذات عن مجموعة من الشعراء الرومانسيين كالشابي والسياب وهاشم الرفاعي والشرنوبي والهمشري وغيرهم من الذين قضوا نحبهم في عمر مبكر حيث أشترك هؤلاء جميعاً بعدد من الصفات أهمها مشكلة الفراغ العاطفي أو الخواء العاطفي أو الإحساس بالحاجة العنيفة إلى حب، ومادامو قد فقدوا هذا الحب منذ وقت مبكر فقد نما وتجسم هذا الإحساس حتى عجزوا عن السيطرة عليه ... ولا نقول غير الحقيقة أننا في القسم شعرنا جميعاً بأننا محرومون من العاطفة ولكن هناك من وقف عند هذا الاكتشاف وهناك من مر مرور الكرام، وكنت من الذين توقفوا وما زلت أمام هذه القضية التي أعاني منها وكانت صفة مشتركة استطعت إدراكها في حياة الفضول وشعره، فهو قد تزوج في وقت مبكر وأنجب ثم تزوج وأنجب.. ثم التقى بملهمته وكانت في سن صغيره وكان هو قد وصل إلى عتبات الخمسين تقريباً، فأحبها وبادلته هي الحب أيماناً بحبه وصدقه ونبوغه الشعري، فضحت واستعدت لكل الاحتمالات تقريباً من حرمان من الأولاد.. إلى غير ذلك.. فوجد الفضول نفسه في منبع للحب يعطيه بلا حدود أو حساب وهو الذي ظل محروماً منه لسنوات طويلة.. فكتب روائعه لهذه المرأة الملهمة، ولم يمنعه هذا الحب الكبير من الزواج بأخرى رابعه، ولكن ذلك لم يجعله ينسى حبه الكبير أو رائحة العبير أو العطور والندا ... ومع كل ذلك الحب لفتاة في عمر الورد وفي ربيع العمر، و مع ذلك الظمأ. ظل يتساءل ويشكو:

مدريش كيف قلبك رضي يروى وقلبي ما رضيش
أشرب واشرب من هوى غيرك ولكن ما ارتويش

ولذلك فالظامئ والمحروم لا يرتوي.. ما أتعسه إن عرف معاناته وظمأه.. أما الشعراء فلاشك أنهم يشعرون. ولذلك لا يشبع الرجل من النساء إن أصابه الظمأ... فهو يعتقد أنه قد يرتوي مع هذه ثم مع هذه.. ولكنه لا يرتوي.. لأن الظمأ قد أصاب الروح في الصميم ولقد استطاع الفضول أن يرسم ويصور وينقل ظمأه ببراعة وعمق وقوه.. ومع ذلك هل تساءلنا عن هذا الظمأ العاطفي الذي أتعب الفضول وأرهق لياليه وأحلامه ولأنه بعد كل شكوى حب، وبعد كل حب شكوى، ولأن الحياة شكوى لا نهاية لها أبداً وإن قال

الفضول (هنُّوا لقلبي)[١] :

هنُّوا لقلبي عند قلبي ضيوف وصفقوا حتى تدمُّوا الكفوف
وباركوا حُبِّي وقوموا وقوف هنُّوا لقلبي عند قلبي ضيوف
دما فؤادي وأحلامي بكت والمنى هامت وما لاقيت قلباً رؤوف
وعشتْ أيام كنتْ أطمع بقطر الندا على ظما قلبي المحب الشغوف
وكان تبخل بها الدنيا ولكن أتت أقدار اسقتني الأماني غروف
حبيبي أشهى من لذيذ المنى روحه وأصفى من شعاع السيوف
أحلام قلبينا وأشواقنا صفوف من حولي تعانق صفوف
جاءت معه ضيفان تفرح لنا وتملأ الدنيا بأحلى الزفوف
في هيبة الملك ملك الحسن يمشي على عمري وأيامي حيارى تشوف
أتفرجين كيف صنع الله كيف الهوى يُعطي النفوس المحبة من جماله صنوف
كعبه من الحسن قلبي كم أليها هفا كم حجَّها، كم عاش فيها يطوف
وشمس قد هندستُ روحي لها أبراج لا يأتي عليها كسوف
أضواءها ملءُ آفاقي كأنَّ الضحى ملكي ألفُّه وسط روحي لفوف[٢]

فالحب إذا ما ارتوى زاد ظمأه، لأن الحب شاعر والشاعر محب، وما أحب الناس قبلنا، وما أحب الناس بعدنا لأن عند الناس ما ليس عندنا، ورغم الفرح العميق الذي تتحدث عنه القصيدة السابقة هنوا لقلبي إلا أن ذلك الأرتواء كان سبيلاً جديداً للظمأ الذي لا يرتوي لأن الحب لا يرويه ماء السماء ولأن المطر إنما يروي الأرض العطشى أما النفوس فلا يرويها شيء ... فما أجمل هذه الصور الجميلة:

يا أنَّتي أبكيت صوت الرباب يا دمعتي بَلَّيت وجه التراب
يا لوعتي عَذَّبتِ حتى العذاب وامهجتي كم ضاع فيها شراب
كأنها رملي وربعي الخراب

إلى الهوى والحب قلبي التوى من فجر أيامي وصبح الشباب
وحينما عودي قوى واستوى فَصَّلت أشواقي لعمري ثياب
مسكين أنا مسكين قلبي غوى (إذا سمع للحب داعي أجاب)
وكلما حاسبت قلبي سوا أتى يغالطني ويثني الحساب
ونْ قلت قد أقفلت باب الجوى فتح لي قلبي فيه عشرين باب

(١) نظم الشاعر هذه القصيدة عندما زاره عمه الشيخ أمين عبدالواسع نعمان – مع ملهمته عزيزة – ثم كانت لزفافه بعد ذلك بصوت أيوب مع قصيدة أخرى هي (يا صبايا يا ملاح).
(٢) كتاب أغنيات أيوب طارش – دار الفكر – تعز – ١٩٧٤م صحيفة الجمهورية ٩٧م.

ونْ قلــت قلــبي مــن هــواه أرتــوى حــسَّيت في حــسِّي جفــاف التــراب
ونْ قلــت تَمَّينــا كتــاب الهــوى أمسى الهــوى عنــدي يؤلــف كتــاب
******** ********

وحيــث مــرَّ الغــيم والــسيل ســال إذا رآني الــورد قــال لي تعــال
خُذْ لك ندا عنــدي وخــذلك ظــلال يكفــي ظمــأ خَلِّــي الظمــأ للرمــال
مُحَال أنْ يروى فؤادي مُحَال (يــا ورد) وقلبي مــارتوى مــن جمــال (يــا ورد)
قدطال عهدي بين الأغصان طال(ياورد) أختار لي منها الغصون الطوال (يا ورد)(*)
وأنــا وقلــبي بينــها لا نــزال
واســاريات الغــيم تحــت الــشهاب تُلَــبِّس الــدُّنيا حريــر الــضباب
قــولي لمــن خَلَّــى فــؤادي وغــاب لا الشوق خــلاَّني ولا القلــب تــاب
هيمان حتَّــى لــو ســكنتُ ســحاب لأصــبحتْ قيعــان فيهــا ســراب
فهــل أتــى حُبِّــي لقلــبي عقــاب أو أنَّ احراقــي بــشوقي ثــواب

ألا تضئ لنا هذه الأبيات ما قيل قبلها من القصائد الغنائية؟!

ألا يضئ شعرُ الشاعر بعضه بعضا؟

ألا يقودنا هذا إلى ذاك؟

والإجابة لا شك في هذا أبداً ... ولا شك أن هذا البيت:

هل أتى حُبِّي لقلــبي عقــاب أو أنَّ احراقي بــشوقي ثــواب

خلاصة لما في قلب الفضول من أشواق لاعتناق مذاهب الحب ولأن ((فرويد كــان يرى أن التحليل النفسي يجب أن يستسلم أمام العبقرية الفنية ومشكلة الأسلوب الفني، بل إن فرويد ذكر أن الشعراء قد اكتشفوا اللاشعور قبل أن يكتشفه هو، وأننا نــستطيع أن نتعلم الكثير عن ديناميات العمليات السيكولوجية من دراسة هاملت والاخوة كارامازوف، والحق أن فرويد نفسه كان أديباً وكاتباً درامياً في عرضه للحالة، كما كان واعيــاً تمامــاً بالقرابة الوثيقة بني التحليل النفسي والأدب في سعيهما المشترك وراء الحقيقة و في أهتمامها بالدوافع الإنسانية.. وفي كل من الأدب والتحليل النفسي يحتل (الأسلوب) مكاناً رفيعــاً، بل هو المفتاح لفهم الدوافع الكامنة وراء (الأصوات) العديدة. ولذلك فإن دراسة الفــن والأدب على أساس التحليل النفسي، يجب أن تهتم بالصورة وبالشكل))(١).. وقد أعترض على ذلك (برجلر) و(سلوشاور).. بحجة أن ((هذا التحليل يتجاهل عاملين إيجابيين وهما طبيعة عملية الأبداع في الأدب، وما ينتج عنها من شعور الأديــب وجمهــوره بالغبطــة

(*) يا ورد / يا غيم / يا رب (إضافات فنية من أيوب)

(١) التفسير النفسي للأدب. د.عزالدين إسماعيل. دار العودة – بيروت.

والسرور ... وبينما يتحدث فرويد عن لذة الكاتب في الابداع يقرر برجلر أن الإنسان الذي (يعاني) هو نفسه الإنسان الذي (يبدع)[١].

وفي منحى آخر نجد برجلر يقول: إن الكاتب هو أكثر الناس معاداة للنظم الاجتماعية لأنه يكتب لمجرد حل صراع داخلي، ولكي يستطيع أن ينتج، فإنه يجب أن يعتقد أنه يعطي لذاته من ذاته. أي أنه يجمع بين الأم والطفل))[٢].

ويضيف أن المحلل النفسي يحاول بذلك أن يعيد الكاتب إلى مرحلة النكوص أو يساعده لأن النكوص فيه عودة إلى الهواجس الطفلية المتعلقة بالقوة المطلقة الشاملة.

((على أن الاهتمام بالدوافع اللاشعورية في الأدب ظاهرة حديثة نسبياً، غير أن الدوافع في الفن متعددة، وفي تحليل عملية الإبداع يتعين ... كما يؤكد لنا كريس – أن نهتم لا بالدوافع اللاشعورية فقط ولكن أيضاً بالعناصر الشعورية وقبل الشعورية في شخصية الكاتب، وكذلك بظروفه الاجتماعية))[٣].

وإذا قلنا إن إبداع الفضول إبداع غنائي المزاج، والغنائي عامة – حسب المفهوم المعاصر – يكون موجهاً للجميع وفي اطوائه رغبة الشاعر في إيصال معاناته للآخرين.. ((وما دام إبداع الفنان يرجع في مصدره إلى الرغبة في التخفف من عبء خاص، إلى محاولة تحقيق رغبات في عالم الخيال لم تشبع في عالم الواقع، فإن هذا الطريق يمكن أن يؤدي بسهولة إلى العصاب))[٤].

ويؤكد فرويد على أن ما ينقذ الفنان من وقوعه فريسة للعصاب هو سرد قصته للآخرين، وقدرته على الإعلاء، و المرونة في تناول المكبوت..لأن الفن بهذه الطريقة يكون طريقاً للعودة من الخيال إلى الواقع.

وعندما نستنطق ظمأ الفضول العاطفي فإن النتيجة التي نخرج بها – لا تكون مثيرة للدهشة – تكشف لنا حياة الفضول وظروفه الاجتماعية ومأساته التي بدأت تنموا منذ مغادرته لقريته أرض الطفولة والأحلام ثم بمصرع أبيه الشيخ الطاعن في السن (٤٨م) الذي كانت تربطه به تلك الروحانية بين الأب الحنون والأبن الألمعي والذي يتوسم فيه أبوه أن يكون نجماً يستوي في الأفق بدره، فهيأ له السبل بالتعليم المبكر فكان الفارق في سبيل الطموح، وهنا تكونت تلك الفجوة التي لا يحس بها الإنسان و أنما يعبر عنها متى كان قادراً على التعبير عن ذلك، والفضول من أولئك الذين منحهم الله الموهبة الشعرية الجارفة التي من خلالها استطاع أن يدعوا الجميع لمشاركته مآسيه الوطنية أو العاطفية وأيضاً استطاع

(١) التفسير النفسي للأدب. د.عزالدين إسماعيل. دار العودة – بيروت.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.

وبلغة وأداء منقطع النظير أن يدعوهم أيضاً لمشاركته أفراح قلبه المحب الشغوف.. ويتميز الشاعر الموهوب عن غيره من الناس بقدرته الخارقة في التعبير عن مشاعره بطريقته الخاصة وكأنه يتحدث عن الجميع.

هنُّوا لقلبي عند قلبي ضيوف وصفقوا حتى تدمُّوا الكفوف
وباركوا حُبي وقوموا وقوف هنُّوا لقلبي عند قلبي ضيوف

ومع هذه الفرحة العارمة التي أجتاحت روح الفضول وهو يستقبل حُبَّاً جديداً فإنه ما نسي لحظات الألم المريرة التي أبكت فؤاده وأحلامه ومناه الهائمة.. ورغم كل ذلك ما لاقى قلباً رؤوفاً.. وهذا القلب الرؤوف هو صورة أخرى أو نسخة أخرى لا شعورية عن فقدانه لقلب أمه عندما غادر القرية، ثم لقلب أبيه (مثله الأعلى)، بطريقة مأساوية تعكس لا شعورياً ما كان يمثله ذلك الحنان المفقود من وقود ودفع إلى الأمام بحثاً عن المستقبل الأفضل للجميع، وقد تحوَّل ذلك الإحساس العنيف بالظمأ إلى المرأة (الزوجة والحبيبة ....)، والفضول عاش أياماً كان يطمع فيها بقطر الندا ليتجنب ظمأ قلبه المحب الشغوف بفطرته وتأثراً ببيئته وقريته الخضراء، حيث الآبار والسواقي والأنهار وشبابة الراعي والألحان والأغنيات التي تنساب من رؤوس الجبال ومن بطون الأودية كإنسياب الجداول التي تترقرق مع إشراقة الصبح وسحر الغروب.. وأضواء النجوم، والسحايب تعوم ... ولذلك كان الفضول عندما يحتفل بالحب، فإن احتفاله يكون فريداً فيشاركه الحب الذي هو فيه كل من حوله ...

حبيت يا ناس حبيت من مثلنا في الحب من مثلنا يا ما أحب الناس من قبلنا وقد يحب الناس من بعدنا لكننا في حبنا وحدنا، وليس عند الناس ما عندنا ... وهذه:

مهنى حبيبي وسط داري يحوم كأن عندي كل ضوء النجوم
والنهر والزهر وقطر الندا ورونق الشمس وظل الغيوم(*)

ولكي ينقل الشاعر أحاسيسه إلى من يحب بفرحته به وسعادته المطلقة فيه يذكره بأن الدنيا كانت تبخل به – لكن الأقدار أسقته الأماني غروف.. فهل أرتوى الفضول؟!

وعندما نستنطق المحاسن التي كان يضفيها الفضول على من يحب، فإننا نخرج بتحليل مفادة أو فحواه أن درجة الحرمان يقابلها الأجلال والتعظيم.. لما كان يفتقده الشاعر.. فتتحول الشكوى التي كانت هكذا:

(فؤادي وأحلامي بكت – المنى هامت – ظمأ قلبي – ملا قيت قلباً رؤوف – وعشت أطمح بقطر الندى) ... أقول فتتحول هذه العبارات المتألمة الحزينة البائسة إلى

(*) سيجد القارئ ما يشبع نهمه عن الجانب الفني في شعر الفضول فيما سنكتبه عن الأبعاد الفنية في كتاب مستقل بذاته بإذن الله.

وصف رائع لما عليه المحبوب وضيف القلب بهذه الحُلّة من الصور الخالدة:

(حبيبي أشهى من لذيذ المنى – روحه أصفى من شعاع السيوف – أحلام قلبينا و أشواقنا صفوف تعانق صفوف – تملأ الدنيا بأحلى الزفوف – في هيبة الملك – ملك الحسن – كيف الهوى يعطي النفوس المحبة من جماله صنوف قلبي إليها هفا – كم حجها – كم عاش فيها يطوف – شمس هندستْ روحي لها أبراج – شمس لا يأتي عليها كسوف – أضواءها ملء آفاقي – كأن الضحى ملكي ألفه وسط روحي لفوف).

ولأن ((العلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات، لأنه ليس هناك من ينكرها، وكل ما قد تدعو الحاجة إليه هو بيان هذه العلاقة ذاتها وشرح عناصرها. على أي نحو يرتبط الأدب بالنفس؟ أ يستمد الأدب من النفس أم تستمد النفس من الأدب؟ أم أن العلاقة بينهما تبادل من التأثير والتأثر؟! ...

إن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس، النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس، والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة إنها دائرة لا يفترق طرفاها إلا لكي يلتقيا، وهما حين يلتقيان يصنعان حول الحياة إطاراً فيصنعان لها بذلك معنى، والإنسان لا يعرف نفسه إلا حين يعرف للحياة معنى))[1].

وعندما نتمعن في الناس من حولنا نجد أن البعض ممن تعترضه بعض المآسي فإنهم يبرزون هذه المآسي ويهولون أمرها إلى حد كبير.. كالإنسان الذي يكره إنساناً آخر يكون بارعاً في إلباسه بالعيوب والنقائص والأخطاء، وكذلك عندما نحب فإننا نكون في حالة لا شعورية عنيفة لإلباس من نحب بكل الفضائل والصفات الطيبة والخلائق الكريمة والمحمودة...

وعندما نستعرض العبارات التي تتحدث عن ظمأ الفضول في شعره.. لا يسعفنا ما بين أيدينا من القصائد التي في غالبيتها تتحدث عن ذلك الظمأ العاطفي الرهيب الذي سيطر لملء حواس الفضول، مما جعله يتنقل بين الظمأ المتواصل الذي لا ترويه السيول ولا السماء ولا شنان ماء، ولا السحاب ولا هطل الضباب ولا الندا ولا الأفياء ولا المروج الخصاب، ولا ظلال الشعاب، ولا السيول المتدفقة من فوق صدور ضاحات الجبال، ومهما الغيث (فوقي) هما.. مكانني ظمآن..

((شق الظمأ قلبي وأشعل في عروقي الدماء
والشوق لا يطفيه شنان ماء
والحب لا يرويه ماء السماء))

---

(١) المصدر السابق نفسه.

ولأن الأسباب التي أوصلت الفضول إلى هذه المأساة من الظمأ العاطفي أسباب أصيلة وجوهرية في نفس الفضول التي قاست منذ الطفولة وحتى اللحظات الأخيرة.. وعندما نعرف – كما ذكرنا ذلك – علاقة الفضول بأيوب طارش التي جاءت وبدأت، وكان الفضول قد نظم (مدارب السيل) فهو لم ينظمها لأنها ستكون أغنية بل نظمها لأنها لحن من ألحان ذاته وموسيقى نفسه الظامئة، وهذا الصدق الشعوري في القصيدة راجع لأصالة الظمأ وهي أصالة مطبوعة ومكتسبه.. مطبوعة برقة نفس الفضول وحساسيته المرهفة لأن الشقيَّ الشقى من كانت نفسه رقيقة وذاته حساسه، وما أكتسبه من حياته التي أستعرضنا بعضها إبتداء من خروجه من القرية ثم هروبه من تعز إلى عدن، ثم استشهاد أبيه، ثم اصطدامه بالواقع المرير فيما بعد الثورة، وما عليه الناس من نفاق اجتماعي ومؤثرات لا حصر لها.

واعتقاد الفضول الراسخ في أعماقه بأن ظمأه العاطفي الذي أحس به وهو يمزق نياط قلبه الشغوف.. لا يرويه إلا حنان المرأة وعواطف المرأة وجمال المرأة، وأنوثة المرأة وحسن المرأة وخطوات المرأة التي لها أكان من ألحان الصبا، ولها إشراقة الصبح وسحر الغروب، والمرأة ذات الابتسامة التي كأن الورد يقطر الندا في فمها، والمرأة التي أروى دمها ضحى الشمس الدافئ، والقارئ الذي سيتمكن من الوقوف على مئات وآلاف الصور الرائعة الجمال التي كان ينشدها الفضول في المرأة التي يعتقد أنها ستروي ظمأه.. مع أنه وصل إلى مرحلة أدراك تماماً ما عليه نفسه من ظمأ لا يرتوي، وأدرك وكاد ينطق رغم نطقه بالأقرب مشيراً – في قصيدته (هيمان) – ومتسائلاً: (هل أتى حبي لقلبي عقاب، أو أن احراقي بشوقي عذاب).

لأن قصيدة (هيمان) في مجملها لوحة متكاملة الجوانب لنفس الفضول وهي لوحة أكتسبت بالأداء الغنائي وعمق التفاعل والإحساس بالكمال الشعوري والظمأ العنيف.

وغواية الفضول هكذا (مسكين أنا مسكين قلبي غوى، إذا سمع للحب داعي أجاب)، وهذا البيت الغنائي يفسر لنا ويقول لنا: إن الفضول لم يعبر في قصائده الغنائية – وشعره كله غنائي – عن حب واحد أو تجربه واحده، وإنما عن تجارب عديدة لا حصر لها وقد تفوق هذه التجارب عدد القصائد الغنائية، وهذا ليس معناه أن الفضول كان عشقه غير صادق، لأن الصدق الشعوري ظاهر، ولكن حبه لم يكن مستقراً على حال ، فكلما سمع قلبه داعي للحب أجاب، آملاً في أن يجد في كل حبٍ جديد ما يبحث عنهُ من ارتواء عاطفي.. وهكذا:

ونّ قلت قلبي من هواه ارتوى حسَّيت في حسِّي جفاف التراب
ونْ قلت قد أقفلت باب الجوى فتح لي قلبي فيه عشرين باب

ونْ قلـــت تمينـــا كتـــاب الهـــوى أمسى الهوى عنـــدي يؤلـــف كتـــاب

وحيث مرَّ الغيمْ والسيل سال.. فإذا رأى الورد قال لي تعال – (داعي أجـــاب) – يكفي ظمأ خلي الظمأ للرمال.. محال أن يروى فؤادي محال.. يا ورد – قلبي ما أرتوى من جمال – و إدراك الفضول الشعوري و اللاشعوري دفعه لأن يقول:

هيمـــــــــــــان ..... هيمـــــــــــــــان(*).....
هيمان حتى لو ســكنتُ ســحاب لأصبحت قيعـــان فيهـــا ســـراب
فهل أتى حُبِّـــي لقلـــبي عقـــاب أو أنَّ احراقي بـــشوقي عـــذاب

وهذا الإدراك أنقذ الفضول من الوقوع فريسة للعُصاب، و الإحساس العنيف بالظمأ يتصاعد من قصيدة إلى أخرى، من سماء إلى سماء، ومن سحاب إلى سحاب، من حـــب إلى حب ،من امرأة إلى امرأة.. وما دفعنا إلى تخصيص باب للظمأ العاطفي في شعر الفضول هو أن الظمأ في شعره الركيزة الأقوى والأهم في مزاجه الغنائي، وفي شعره عامة، لأن الظمـــأ العاطفي يحتوي الظمأ السياسي، والظمأ الاجتماعي، والظمأ الاقتصادي، والظمأ الروحي، والظمأ إلى الطبيعة، والظمأ إلى القرية، والظمأ إلى الحق والخير والجمال، والظمأ إلى العدل الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي والإنساني ... وليتسنَّ لنـــا رســـم الـــصورة المكتملة لظمأ الفضول سنثبت العبارات الظامئة والتي تدور حول الهاجس أو الهواجس التي تتحدث عن الظمأ، لأن قاموس هذه المفردات نابع من ذات واحدة ولها دلالاتها النفـــسية العميقة والتي تكون أوضح من كل ما يمكن أن يقال.. ولها معانيها المتجددة حسب السياق الشعري.

مفردات الظمأ العاطفي:

(وأظمأت زرعك وزرعي / أسقيت حبك وأرويت / إن المحبه سراب / غدار في ماء بحرك / وكنت زادي وشربي / وكنت ظلي الظليل / مبلول مسقى / مرشرش / ليت كل القلوب كانت قلوبي ربما يوسعين حبي فهو بحر زاخر / مدارب السيل / يـــروي القلـــوب الظمأ / وكل مفردات قصيدة مكانني ظمآن / وازرع دموعي في ضفاف الغيول /عشت أيامي بروحي أزرعك / كم أرتوى منها صباك الطروب / أسقاك كأساً من شعاع القمر / كم قطر الورد الندا في فمك، والشمس كم أروى ضحاها دمك / عشنا ظمـــأ والنـــدا سكاب من حولنا / تروى به مهجة الظامئ ويخضر عود / كم أظمأونا / من دمعنا دمعنـــا غيمات / حقيقة ترتوي – خدود مثل الورد ضوء الفجر أرواها / المسقى ببرود الغلـــس / يسقيك محلى ورودك / دموع القلب يتناطفين / أسقيتهن من غمام الفجـــر / قـــالين لي لا

(*) غنَّاها أيوب بعد رحيل الشاعر وأزعم أن أيوب قد أرضى الشاعر إلى قبره.

الفجر يروي ولا قطر الندا ينفعين / رحيق الورد / أستعصين أن يشربين / صامين حتى يلاقنك بكل الظمأ /ويشربنك وما ظنيتهن يرتوين / طال الظمأ في فؤادنا وأكبادنا / يوم أرتوى عمري / وعمرك من ندى هونا / وابكي عليك أنهار / ماء الغيول / إن كان قلبك قنعني أو هواك ارتوى / ما سخاش بدمعي يستكب لمثلك / وقد أسقيت أزهاري شذاك / يوم الهوى أرواك وأرواني – أذكرك والرياحين يسكبين العبير / أنت أندى ظلال / في السماء حيث يذري من نداها الغزير / نذري ندى وردك / محضون في غيمات آب / للنهر للرعيان للسواقي / راجع لبرد الظل في الشواجب / لقريتي لجدولي لشاتي / هناك أحلامي وزرع حُبي / هناك الهامي ووحي قلبي / أشرب ندا عيني وأقتات الألم / مدريش كيف قلبك رضي يروى وقلبي مارضيش/ أشرب وأشرب من هوى غيرك ولكن ما رتويش).

وهنا يذكر الفضول ما يمكن أن يرتوي به..

بك أنت مش بالنجم أو ضوء القمر بك أنت مش بالغيم أو قطر المطر
بك أنت مش بالفجر أو عطر الزهر بك أنت لا قاني وواعدني القدر

وقبل أن نكمل مفردات ظمأ الفضول نثبت هذا الظمأ في قصيدة ريفية غنَّاها عبدالباسط العبسي فنَّان الريف الوديع:

كم لي أحب كم وروحي كم لها ترشف مباسم وتتغذَّى قُبَلْ
طعمة قبل وأحلى طعمه قُبل قات المثاني على ماء الجبل
قطافة القات قاتك كُلمَّا جلس، تطرَّى ووردك ما ذبل
قات الجبل في يدك يقطر ندا وضحكتك في فمك تقطر عسل
يا بردة الظل في قلبي الذي في ظلها قد تراخى واستظل
حبيت واشتقت وادمنت الهوى وما لقلبي سوى حُبِّي عمل
مسارحي فيه كم سارت ظبا بها وكم فل فيها قد نَفَلْ
قد كنت صحراء ظامئ ريحها وكان قلبي من الدنيا عطل
وكان عاطل ولكن حينما تذوَّق الحب دقدق واشتغل
زاد الهوى والغوى لكنَّني شاسير مجنون لو عقلي عقل
ملاعب الحب من عهد الصبا ملاعبي وهي عرشي لم تزل
مكاني ضيف ريحان الضحى ما راح ضوئي ولا عطري كمل[1]

وفي قصيدة: (بردان)

بردان بردان أين الحب يدفيني يا برد كانون يكفيني الذي فيني
بردان والحب وسط الثلج يظميني ليت الحزيران في كانون يأتيني

(١) الجمهورية الثقافية ٩٧م

بردان والحب في روحي مـــشى رعَّـــاش بردان بالشمس حتى الشمس ما تحماش
غيري دفئ فيها وعندي دفئها ماجـــاش دفئ بها الناس والأطيـــار في الأعـــشاش
روحي بغيرك حبيب القلب ما تـــدفاش أيـــن أنـــت منِّـــي تـــدفيني وتُـــدفيني
ماشاش حـــتى جنـــان الخلـــد تـــأويني إلاَّ إذا كـــان فيهـــا حـــب يكفـــيني[1]

وهي أبيات مفصلة على موهبة الفنان الريفي عبدالباسط العبسي .... وليس فيهـــا ذلك الشعور الذي يتميز به شعر الفضول الظامئ مع أن فيها مقدار كبير مـــن الـــصدق الوجداني.

كما تدل هذه التراكيب والمفردات:

(سكبت ضوئي – وأسْكب بها عطر ريحاني – فأرواك من ضوئه و أرواني – يـــروين من حبك المسكوب في نفسي – وغمغمات النهر مثل الهديل – ومائه يختال بين الربـــا – وفوق صدر النهر – وهن يشربن الندا – يا دمعتي بليت وجه التراب – وامهجـــتي كـــم ضاع فيها شراب – كأنها رملي وربع الخراب – وان قلت قلبي من هواه ارتوى – حسيت في حسي جفاف التراب – وحيث مر الغيم والسيل سال – خذلك نـــدى – و خـــذلك ظلال – يكفي ظمأ – خلي الظمأ للرمال – محال أن يروى فؤادي محال – قلبي ما رتوى من جمال يا ورد – واساريات الغيم – هيمان حتى لو سكنتُ السحاب – لأصبحت قيعان فيها سراب – فهل أتى حُبِّي لقلبي عقاب – أو أن احراقي بشوقي ثواب – وتقطفين زهر الخزام ممطور – كفي رشاش الدمع من عيوني – والنهر و الزهر وقطر النـــدا – ورونـــق الشمس وظل الغيوم – لا زهرنا يظمأ ولا وردنا – كأنما رعد السماء رعدنا هاتوا لقلـــبي كل طَلِّ الصباح – واسقوا عيوني كل حسن الملاح – لكن أزهاري عليها الندا وحينمـــا لاقى الظلال استراح – ياحب من غيمك شربت مائي – ودام غيمك و أستمر شـــربي – وارويت منَّك ظمأتي وجدبي – عملت لي في جنتك مرابي – ربيت فيها نرجسي ووردي – ومد وجداني فيها سحابي – وسار فيها بارقي ورعدي – يا خو الندا يا رشَّـــة الغمـــائم – فطرت لك قلبي وكان صائم يا بدء أحلامي ومنتهاها – لا تجئوا ظلالنا – والحمى والظمأ لكم – والندا كله لنا – وملأتم كؤسكم من ندانا وماءانا – نجتني فيه زهرنا – ونرى فيه سكرنا – خلي الندا فوقك عليك يهمي – وأنت زرع الحـــب في صـــميمي – أزهـــرت واعشوشبت في هشيمي – يا صدق حبي لا سراب وهمي – ما لاح بارق أو مطر شـــن – أحلى ورود الرابيه – وصوت ماء الغيل – أظمأ وتسقيني الحياة أشواق – و ارش طريقك بالدموع وارجع – واسمع دموعي يسألين عنَّك – ما سخاش بدمعي يستكب لمثلك – لمع البروق على جبال الاحيوق – وادي الضباب ماءك غزير سكاب – نصك سيول والنص

(١) أنظر لقاء المؤلف مع ملهمة الفضول عزيزة النعمان في ملاحق الكتاب لتعرف قصة القصيدة.

دمع الأحباب – نصك دموع من عين كل مشتاق – تجري على خده دموع الأشـــواق – كم أطلقوا نهر الدموع قبلي – قد ذبت من شوقي وحر ناري – على الروابي تحت ظـــل الأشجار – فوق المروج الخضر بين الأزهار – عند المراعي في ضفاف الأنهار – بالـــشعاع رشاش – بكر وطل الصبح ملء خدِّه – طري وردة – قد شنِّ مائة شنون – من بعد مـــا ظلك عليه قد رد – وبعد روحي كان عاطش أجرد – من مثلنا مغموس في الهنا غمس – وان نحن أظمأناه زاد واشتد) وما شابه ذلك.. فكلُّ هذه المفردات والعبارات هي مفـــاتيح لقلب الفضول الظامئ ... وظمأ الفضول العاطفي هو مفتاح موهبته الـــشعريه ومزاجـــه الغنائي، فكان الظمأ مصدر خصب لينهل منه الفضول مدارب سيله الشعري الذي تدفق بعذوبة وصفاء ونقاء المطر، والشاعر دائماً يستمدُّ مصدراً من المصادر الكامنة في نفـــسه، فتكون تلك هي مفتاح الإلهام والمراد (مدد..مدَد... مدد) على حد تعـــبير الـــصوفيين، ويحضرنا الآن لقاءً قرأناه في أحد أعداد مجلة الدوحة التي كانت تصدر في قطر، وكان اللقاء مع شاعر الشباب وشاعر أم كلثوم أحمد رامي، ومعلوم أن أحمد رامي كان يحب أم كلثوم حُباً جما، وكان لا يتصوَّر أنَّها ستموت قبله – كما قال – وكانت ملهمته ومصدر الهامـــه وأشعاره العاطفية، وكان حُبُّه لها عالمه العاطفي الذي يستقي منه ويستمد منه أشعاره الـــتي صنعتْ – مع غيرها – من أم كلثوم هرماً غنائياً لا يطاوله أحد حتى الآن ... وعندما سُئل في ذلك اللقاء عن أسباب تعذر زواجه بأم كلثوم التي كان على أمل أن يُتوِّجَ قصة حبه لها بالزواج، فأجاب قائلاً: طبعاً بعد أن ماتت بسنوات – أنه لو كان تزوجها لخسر هـــو أم كلثوم الفنانه و لخسرتْ هي أحمد رامي الشاعر(*).

وما أوردنا قصة أحمد رامي وأم كلثوم إلا لنقود القارئ الكـــريم لإدراك كيـــف أن مصادر الإلهام لدى الشعراء تكون هي المحرِّك الرئيسي لما في نفوســـهم مـــن انفعـــالات وعواطف ... و بقدر – أو أكثر – ما كانت عواطف أحمد رامي تجاه أم كلثوم مـــصدر روائع أحمد رامي، كانت أشعار الفضول الغنائية أو ذات المزاج الغنائي البديع من نتـــاج الظمأ العاطفي الذي وقع الفضول في أسره حتى آخر لحظات حياته، ولم يشفع للفـــضول زواجه المتعدد وللهمته في أشعاره نصيب كبير، وعلى سبيل المثال (دق القاع دقه) – التي كانت في امرأة تزوجها فيما بعد – وغير ذلك – نقول لم يشفع هذا للفضول أن يرتـــوي عاطفياً فظل يحدوه الأمل في أن يرتوي، وكان احب طريقة إلى إشباع أو إرواء الفـــراغ العاطفي، وأن المرأة – الزوجة أو الحبيبة أ والعشيقة أو الملهمة أو ما يفتقده، وأن المـــرأة بحنانها وأنوثتها ستصْنع عالماً من الحنان الذي يبحث عنه وتكتمل فكما هو الطمع المـــادي يكون الطمع المعنوي، وكما هو الحرمان المادي يكون الحرمان المعنوي هذا يبحـــث عـــن

(*) ثبت مع ملهمة الفضول عكس الحال انظر لقاء المؤلف معها في ملاحق الكتاب.

الحب وذاك يبحث عن المال، وهَذان لا يكتفيان ...و لكن قد يقف الإنسان في مرحلة ما مع ذاته ليعرف أنه لن يرتوي مع الحب مهما كان جارفاً، لأنه سيكون في أوج السعادة عندما يشعر أن أنثى تحبه، ويتجدد فرحه كلّما وجد امرأةً تحبه وهكذا ... ويكاد يتمنّى حب نساء الأرض جميعاً، لأن الشوق لا يطفيه شنّان ما، والحب لا يرويه ماء السماء[1].

ومحال أن يروى محال .... وعندما نقارن مقارنه بسيطة بين عدد من الشعراء بالتأكيد سنجد بعض الفوارق وأيضاً بعض القواسم المشتركه ... و ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أشبه ظمأ الفضول بظمأ أبي القاسم الشابي.. ويكاد الاثنان (الفضول والشابي) ينطلقان من منطلق واحد، أشبه ما تكون عليه (الطيور التي على أشكالها تقع) .... فنجد الشابي في قصيدة يتحدّث فيها عن المصيبة التي نزلت به، فظلت تؤرق أيام وليالي حياته – لأنه فقد أباه الذي كان بالنسبة له عمدته ومشيره ومثاله الأعلى، وهو نفس حال (الفضول) المفجوع بأبيه.. فماذا قال أبو القاسم الشابي:

فلبثتُ مرضوض الفؤاد أجرُّ أجنحتي بذعر...
وقسوت إذا أبقيتني في الكون أذرعُ كلَّ وعر
وفجعتني فيمن أُحب، ومَنْ إليه أبثُّ سرِّي
وأُعدُّه، فجري الجميل، إذا أدلهمَّ عليَّ دهري
وأعدُّه، وردي، ومزماري، وكاساتي، وخمري
وأعدُّه، غابي، ومحرابي وأُغنيتي، وفجري
ورزأتني في عمدتي، ومشورتي في كلِّ أمري
وهدمت صرحاً، لا ألوذ بغيره وهتكت ستري
ففقدتُ روحاً، طاهراً شهماً يجيش بكلِّ خير
وفقدتُ قلباً، همه أنْ يستوي في الأفق بدري
وفقدتُ كفاً، في الحياة يصُدُّ عنِّي كلَّ شرٍّ
وفقدتُ وجهاً، لا يُعَبِّسه سوى حزني وضُري
وفقدتُ نفساً، لا تني عن صون أفراحي وبشري
وفقدتُ ركني في الحياة، ورايتي وعمادَ قصري

وإذا كان الفقدان للأب المثالي عند الشابي والفضول، فإن الفضول أكثر ما يكون عليه الحال من الألم الذي تجرعه بمصرع أبيه بسيف الجلاد في عام (١٩٤٨م)، فكان عبءُ

(١) رغم حب الشاعر لعزيزة النعمان ملهمته ومعاناته حتى تزوجها – على ما بينهما من فارق السن – ومع ذلك فقد تزوج بعدها واستمر حبه لها.... وعشقه لمن بعدها. وقطيعته مع الماضي لأسباب ما زالت مجهولة.

الحياة ثقيلاً على الفضول وعلى المستوى الوطني المبكر ثم الوضع القائم والمضطرب حيث كان الإمام والكهنوتية في شمال الوطن، وكان الاستعمار البريطاني في جنوب الوطن، وفُرقة القرية والأهل ومرارة التشرد، وتنكر الذين يحيطون بالفضول من الناس الذي لا يقدرون المسئولية، ولا يتفاعلون مع أحد ... فكانت مهجة الفضول هكذا:

مهجتي لـن تبرحـي عاصـمةً للأسـى أو للمآسـي وطنـا
صـاحبي مـات شـهيداً وأبي مات شيهداً وأخي مـات شـهيدا
وأحبـائي مـضوا في الـشهداءِ ولِمَ أبقَ على الدرب وحيـدا[1]؟!

أمَّا الشابي فكانت مأساته في موت أبيه ومثله الأعلى وقصيدته السابقة تنفرد بكشف مأساته العاطفية الكبرى هذه بموت أبيه و قبل ذلك مرت الأيام ثم موت الحبيبة التي أخلص لها حتى بعد أن ماتت، لأنه ظلَّ يتزود بذلك الحب الذي اكتفى به ثم إصـابته بمـرض في القلب والذي كان الضربة الموجعة للشابي، ثم بآلامه الوطنية التي عمل على أيقاظ الشعب من خلالها، وأعاد السبب الذي جعل الشعب التونسي والعربي يرزح تحت نير الاسـتعمار هو الشعب نفسه بجهله وعمالته وخنوعه واستسلامه، وهي حالة مشابهة تماماً لما كان عليه الوضع في اليمن، ولما قام به الفضول في عدن ..... ومن أبيات الشابي:

سأعيش رغم الـداءِ والأعـداء كالنسر فـوق القمـة الـشَّماء
أرنو إلى الشمس المـضيئة هازئـاً بالـسحب والأمطـار والأنـواءِ

وأبيات الشابي كثيرة و اكتفينا بهذه من ناحية إبراز الجانب الوطني لديه وهو جانب يتطابق تماماً مع موقف الفضول.. و الاختلاف البارز بينهما أن الشابي أحبَّ وأخلص لحبه الذي كان له كالجنة الضائعة، لأن طفولته وشبابه الأول يختلف عن الفضول وحياته الأولى وشبابه الأول، أما الفضول فلم يرتو من الحب عندما أحس بحاجته إلى الحب ثم بحبه الأول والثاني والثالث... لأن حب الفضول كان نابعاً من الرغبة في قول الشعر الذي كان يمتزج بالجمال الغنائي... فظلَّ الشابي – مثلاً – يتغنى بجنته الضائعة ويصلي في هيكله حتى النهاية أما الفضول فظل يتغنَّي بالحب الذي يأمل أن يرتوي منه... (أشرب وأشرب من هـوى غيرك و لكن ما رتويش.. مدريش كيف قلبك رضي يروى وقلبي ما رضيش)...

ويشترك الفضول والشابي في أنهما أبرع من أجاد وصف وبعث الحياة في مفـردات الطبيعة.

---

(١) هناك قصيدة رثا فيها الفضول أباه مازالت مجهوله ومطلعها هذان البيتان:

أبي من ذا كريم النفس مثل أبـي كأنَّمـا هـو والأمـلاك أخوانـا
فإنْ يمُـتْ فـأكف الأنبيـاء لـه نعشاً، وأجنحة الأمـلاك أكفانـا

والإنسان اليمني هو من الريف، وغادر الريف في فترة مبكرة من العمر على أمل أن يعمل على تحسين ما هو عليه من حال وواقع حال ذاتي وعام.. فأوَّل ما يواجه الإنسان اليمني الرقيق العواطف والأفئدة، غربته الروحية عن قريته وأرضه وأهله ومجتمعه، فيظل اليمني بطبيعته مشدوداً إلى (مرابع الصبا) بالسؤال الدائم والحنين العنيف واللحن العذب الذي يهز كيان المستمع إليه.. وبهذه المقومات وغيرها كان اللقاء الذي جمع بين الفضول وأيوب طارش، حيث جمعت بينهما الطفولة الريفية البريئة والدراسة القرآنية بطريقة متشابهة، والريف بكل ما فيه، ثم الاغتراب الجسدي والروحي ثم جمع بينهما الموهبة التي في نفس كل منهما (الصوت والشعر واللحن والمفردات والصدق الشعوري والصدق في الأداء، البراءة في القول الشعري، والبراءة في القول الغنائي، المزاج الشعري الغنائي والمزاج الغنائي المعبر ... فكان كل منهما رديفاً للآخر أداءً وغناءً وظمأً، فعندما نستمع إلى أداء أيوب في مدارب السيل ... نعيش ظمأ أيوب وظمأ الفضول معاً لأنَّ الفراغ العاطفي الذي كان عند الفضول وجد ظله يمتد إلى ذات أيوب طارش.. لأن حياة الغربة و الاغتراب المبكر قمينة وجديرة بإظماء كل من يحنُّ قلبه للقرية والسيل والحب ... وهذا جعل من كل يمني يعيش جفاف عاطفي رهيب لا يدركه وإن كان يحس به، ومتى أحس به قتله الظمأ.. وإن لم يجد الحب، قتله الحرمان وإن وجد الحب لم يرتو منه ... ولأن حياة الفضول الخاصة مجهولة إلى حد كبير، فلم نجد ما نقرأه أو نستقرى بعضه إلا تلك الخطوط العامة التي ذكرناها وأعدنا ذكرها (الريف – الهجرة – المدينة – الكفاح – الفشل – الانتكاس إلى الماضي الوطني) أو النكوص الوطني، وغياب هذه الحوادث البسيطة والتي منها يكون التحليل النفسي للأدب من منطلق دقيق، لكن دقة الخطوط العامة و معايشة ظمأ الفضول هو بداية الرحلة في شعره لأن الفضول يصف وروده وأزهاره ويغطي على ناره منذ اليوم الأول الذي زرع فيه الأماني والأشواق في قلبه عند مغادرته قريته .... فإلى أحلى القصائد الغنائية البديعة بصورها ومفرداتها وبلاغتها وهندستها الفنية:

من يوم زرعنا أمانينا ومن حين ما ال أشواق في قلبي وقلبك ربين
أصف وردي وأزهاري واغطي على ناري وهن من حرَّها يحرقين
إذا تَبَسَّمْتُ أُخفي من شجون ال هوى أسمع دموعَ القلب يتناطفين
واشوف أن ابتساماتي يجثيين من روحي وهن من حزنها يستحين
كم يا قلوب أعطت لأشواقنا حناها كم ذا علينا بكين
دموعهن قد رافقين دمعنا يجرين ولكن دمعنا يُعْرَفين
إذا بقين بالعين ضاقين بالفُرقه وإنْ سالين يتعانقين
من أجل عينك وا حبيب القلب شاكرم ألف عين

واصـــبر وداري قلـــوب قـــد حـــبَّين لكـــن نـــسين
للحب أعشاش في قلبي وفيهـا المـنى عاشـين والأحـلام قـد عشعـشين
فكلّما طفت في حسّي وفي خـاطري قامين يطلين من قلـبي ويتخاوصـين
يـدورنّك، يريـدنّك، يهـيمين ورا طيفك وكم هـامين وكـم دوّريـن
مثـل العـصافير ظمآنـات لا مـاء يـرويهن ولا أفيـآء يـتظلّلين
أسقيتهن من غمـام الفجـر قـالين لي لا الفجر يروي ولا قطر الندا يـنفعين
وأعطيتهن من رحيق الورد كل الـذي في الـورد فاستعـصين أنْ يـشربين
صامين حـتى يلاقنّـك بكـل الظمـأ ويـشربنّك ومـا ظنّيتـهن يرتـوين
طـال الظمـأ في فؤادينـا وأكبادنـا عاشـين مـن احـراقهن يـرجفين
واحنـا حبيـبين أعطتنـا مقاديرنـا للملتقى وعد والأقـدار لا يكـذبين

إن الأشواق والأماني والورود و الأزهار والابتـسامات واخفـاء الـشجون ... والأحزان وسماع دموع القلب التي تتناطف من الحزن والابتسامات التي تستحي من حزن الروح والقلوب التي أعطت للأشواق حنانها، وشاركت النفس أحزانهـا المـشتاقة كـل الأشواق بكيت (معنا) مشاركة لنفوسنا الحزينة وجرت الدموع، ولكن (دموعنا يُعَرفين).

فبماذا يعرفين؟ بالأشواق وبالظمأ وبالحرارة القوية واشتعال الأشواق فيها، وإذا بقين تلك الدموع في العين.. تضيق بالفرقة (بين الفضول ومن يحـب)، ولكـن إذا (سـالين يتعانقين)، ومتى ما تعانقت الدمعتان تخفّف ألم الأشواق والأماني، ومن أجل عينك وا حبيب القلب شاكرم ألف عين.. (ألف عين بخيلة لتحس بالأشواق التي تعتمل في نفوس المحـبين، وإن تلك العيون – (الألف عين) – أصحابها لهم قلوب (قد أحبَّت – وكلنها نسيت مـا يعانيه العاشق، والشاعر يداري ويصبر على هذه القلوب العمياء وأصحابها الذين لا هم لهم إلا اللوم أو العذل، ويؤكد الفضول أن للحب أعشاش في قلبه فيها المنى عاشين (منذ فراق القرية) – والأحلام قد عشعشين، وكلما طفت أيها الحبيب في حسي وفي خاطري (قامت الدموع يَطلين ويتخاوصين).. وهنا.. يدورنك يريدنك يهيمين، وراء طيفك وكم هـامين وكم دوّرين.. آه.آه، أيها الشاعر الظامئ، أيها الشاعر الرائع، إنه لم يحدث – أبداً– مـن أعطى للدموع حقّها، من أقامها وأقعدها وأجلسها وأنهضها وأعطاها الحيـاة والحيلـة.. فجعلها (تتخاوص) وتبحث وتشتاق، تأمل، وتختلس ... لم يفعل ذلك أحد من قبـل ... ولن يفعله أحد من بعد، لأن بعث الدموع إلى الحياة من نوادر الإلهامات الإنسانية.. ولك إيها القارئ أن تتخيل دموعاً وهي تبحث وتهيم وتشتاق وتختلس النظر وهي هائمة كالمجنون المحب ... وراء طيف الحبيبة.. وكم هامين وكم دوّرين، وهي مشاعر في الماضي والحاضر (دورين – يدورنّك – يهيمين) ترابط زماني ومكاني قوي.. وبعد هذا كلـه ننبـهر بـأن

الدمعتين حالهن مثل العصافير الظمأنه ولا ماء يرويهن ولا أفياء يستظللين ... واسقيت العصافير – التي هي الدموع – من غمام الفجر (قالين:) لا الفجر يروي ولا قطر الندا ينفعين (وقالين:) بعد (قامين) براعة في ترتيب الصور والتشبيهات ... وماذا بعد؟

أعطيتهن من رحيق الورد .... فاستعصين أن يشربين ... عزيمة الحب وصبر المحب الصادق – فلا يقنع بغير من أحب. ولذلك فإن تلك الدموع التي مثل العصافير (صامين)، وارحمتاه للدمعتين، واحزناه على العصافير، واظمآه للقلبين (صامين) حتى يلاقنك (بكل الظمأ) – ظمأ السنين الطويلة – ويشربنك، وما ظنيتهن يرتوين ... فتتابعت الصور البلاغية هكذا ببراعة مطلقة:

(ربين – يحرقين – يتناطفين – يجئيين – يستحين – بكين – يعرفين – بقين – ضاقين – سالين – يتعانقين –ألف عين – حَبَّينْ – نسين – عاشين – عشعشين – قامين – يطلين – يتخاوصين – يدورين – يريدين – يهيمين – هامين – دورين – يروين – يستظللين – قالين – ينفعين – أستعصين – يشربين – صامين – يلاقين – يشربين – ظنين – يرتوين – عاشين – يرجفين – والأقدار لا يكذبين).

فالتتابع في صور هذه القصيدة كان مذهلاً لحالات الأشواق والأماني والدموع والعصافير، ويأخذ بألبابنا الفرادة والتوظيف البارع.. لجميع أحوال النفس والذات من خلال الدمعتين ... وماذا بعد؟

طال الظمأ في فؤادينا وأكبادنا من احراقهن يرجفين ... ولأن الأحبة أعطتهم المقادير للملتقى وعد.. فالأمل قائم لأن الأقدار لا يكذبين ...

وماذا بعد ...؟ وماذا قبل .....؟

أمَّا قبل فالفضول يكتب أشعاره عن ظمأ عميق في نفسه، وإذا ما كتب بطلب على أن يجسد المشاعر التي حواها الطلب كتب بصدق لأنه يكتب عن مرجعية ذاتية وعن معاناة مماثلة ومشابهة وأكثر عمقاً، لأن التجارب الشعرية والشعورية إذا لم تعاش فإنها تحس ... وهذا ما حدث في قصيدة (جنحت واجناحي حديد لا ريش) وهي كلمات طلبها منه أيوب قبل سفره إلى صوفيا، كان لأول مرة يسافر فيها ويغيب عن الوطن.

على أن يلحنها في تلك البلاد الأوربية، كان ذلك، وجمعت القصيدة أحاسيس كل يمني مهاجر، لأنها نبعت من معاناة واحده وهم مشترك، وكذلك قصيدة (طال الفراق) التي كتبها الفضول لأيوب بعد أن سمعه وهو يردد أبيات لم تنل إعجاب الفضول بقدر ما نالت من سخريته اللاذعه – فكتب (طال الفراق)، وكذلك قصيدة (بكرَّ غبش)، وقد ذكرنا سبب كتابة كلماتها سابقاً، ورغم ذلك فقد أشرقت القصيدة بذات الفضول وظمأ الفضول... وقد ذكرنا بعض الأبيات وهذه بعضها:

بكّر وعاد الطير وسط الاعشاش والفجر طالع بالشعاع رشاش
يمشي بخفه للنهود رعّاش وخطوته فوق التراب أنقاش
بكر وطل الصبح ملء خدّه وفرحة الأحلام فوق نهده
والفل يفتش له طري ورده وأنا وروحي والفؤاد بعده
أخضر تمخطر والنهار طالع يُقّسم النشوه على المزارع
لَفَت وسلّم واستمر جازع وداعتك واحافظ الودائع

وقد نستدعي ما قاله أيوب طارش للجمهورية الثقافية في لقاء بعنوان (من الدندنة إلى المغذنة)[1].. رداً على سؤال ((هل وضع لك الفضول أغنية خاصة بك وبحسب الطلب؟ فقال أيوب: عندما نويت السفر إلى صوفيا للمشاركة في المهرجان الذي أقيم هناك.. قلت لنفسي: هذه أول مرة أغادر فيها أرض الوطن، إلى بلاد مجهولة، وتخيلت أنني أثناء السفر سوف أشعر بالغربة و الحنين وشعرت أيضاً بالحاجة لكلمات تُعَبِّر عَّما في نفسي، وكانت أغنية (جنحت واجناحي). وقد قمت بوضع اللحن لهذه الأغنية التي تتحدث عن الغربة في مدينة صوفيا.. والحقيقة انني طلبت هذه الأغنية بسبب الغربة المبكرة التي عشتها في مدينة عدن، بعيداً عن قريتي، ولشعوري أيضاً بأن معظم اليمنيين مغتربون في الخارج، وقد تكون هذه الأغنية زادهم وراحتهم من المعاناة والحنين.. كما أن هذه الكلمات تعد الطلب الثاني بعد كلمات الزّفة التي تقول كلماتها:

رَشُّوا عطور الكاذيه فوق العروس الغاليه
وعوذوها بالنبي.. وادعوا لها بالعافيه
صُفوا الصفوف دقوا الدفوف شلوا الزفوف العاليه
زفوا وحفوا للجميل أحلى ورود الرابيه
يكفي عريسك يا عروس هذي العيون الساجيه
تسوى وتستاهل إذا عد الألوف الوافيه
يا ليلة العمر الهني طولي بفرحه هانيه
خلّي العروس والعريس فوق النجوم الساريه
وأنت واقلب العريس نلت المنى نلت الهنا
من فرحتك أفراحنا قد أفرَحَتْنَا كلنا
اسمع زغاريد القلوب من الصبايا حولنا
وكل شُبَّان القرى قد شاركونا في الهنا
والكاذيات البيض قد نامت على أحضاننا

(١) الجمهورية الثقافية – العدد رقم ٥٣ – ١٩٩٧/٨/٢٨م.

والزهـــر والأنـــسام قـــد باتـــت ســـهارى عنـــدنا
وصـــوت مـــاء الغيـــل قـــد غنَّـــى علـــى أصـــواتنا
والقمريـــات الزاجمـــات غنَّـــت أغانيهـــا لنـــا
والليـــل غنَّـــى مثلنـــا والـــنجم أمـــسى ضـــيفنا
هـــذه عـــروس الفاتنـــات قـــد زينـــت أفراحنـــا
نمـــشي وتمـــشي بعـــدها والحـــب يمـــشي قبلنـــا
مرحباً بـــك وازيـــن الـــشباب طاب عيشك في المسرات طـــاب
عليك من الحُسَّاد ألفين حجـــاب معلقات فوق كل طاقـــه وبـــاب
يا ليت والأيـــام تـــوفي الوعـــود شـــعطرٌ الـــدنيا بعـــرف الـــورد
وبَخِّـــر أيـــامي بعنـــبر وعـــود واسامر الريحان فوق الخـــدود[1]

بهذه وبتلك المشاعر المشتركة بين الفضول وأيوب، كانت الثنائية بينـــهما متكاملـــة ومتداخلة ونابعة من مصدر واحد وهو مصدر الحنين العنيف إلى الريف ... حتى أنَّنا عندما نتمعنَّ في قصيدة (زفة العرس) ذات اللحن الفلكلوري، نجد الفضول يعبر عن إحـــساس عميق بتلك الفرحة التي تغمر نفوس أبناء الريف اليمني، لأن طلب أيوب مـــن الفـــضول لكلمات تتناسب مع الأفراح الاجتماعية والأعراس الزوجية، لأمس جوانب ومواجع هامة في ذات الفضول الظامئة لهذه المشاعر التي تشترك فيها الناس، فوظف الأفراح ومنح الزفة موروث فكري (عليك من الحُسَّاد ألفين حجاب – معلقات فوق كل طاقه وباب ... وبخرٍّ أيامي بعنبر وعود و اسامر الريحان فوق الخدود – أحلى ورود الرابيه – هـــذه العيـــون الساجيه – عد الألوف الوافيه – شعطر الدنيا بعرف الورود – وفي كثير مـــن القـــصائد أستطاع بل وتميَّز الفضول بتوظيفه الممتاز والبارع لمشاعره الظامئة لا يصال معاناة الناس – في القصيدة نجد الفضول وهو يعرف مستوى وأذواق الناس فجـــاءت مفرداتـــه بـــسيطه بتراكيب فنية عالية –

((والطفل يرى في أمه البدايه والنهاية جميعاً، لأن طفولته ستار بينه وبين ما وراءهـــا، وكذلك العاشق: يرى في حبيبته بداية ونهاية معاً، لأن حُبَّه ستار بينه وبين ماعداه، يحصره بين أول وآخر في امرأة واحدة، أفلا يكفي هذا دليلاً على بلاهة العاشق و غرارتـــه، وأن الحب كالانتكاس إلى الطفولة في جهة واحدة من جهات النفس؟

وترى الصغير إذا فارقته أمه نظر حوله ليستشفَّ ما أنفصل من آثارها المحبوبة علـــى كل الأشياء التي فيها حنين نفسه، وكذلك يفعل الحب في كل ما مسته حبيبته، حتى كـــل

(١) المصدر السابق نفسه.

شيء عليه لمحة منها حتى ليرى بعض الأشياء يكاد يبتسمُ له، وبعضها يرنو إليه، وبعضها يكاد يتيه ويتدلل ويصد.. وحول الحبيبة، تتفق لعاشقها كل عناصر الحياة المتناقضة إذا شاءت هي، ومنها أيضاً تختلف هذه العناصر إذا شاءت كأنها – أي الحبيبة – حياة لحياته لا مقصر له عنها، و كذلك أمر الطفل من أمّه و وهمه فيها))[١]

والقراءة المتأنية العميقة لذات الفضول الظامئة عاطفياً هي التي ستفتح لنا آفاقاً جديدة في عالمة الشعري الغنائي المزاج الطفولي الخيال لأنه ((كل من يتقدم بالعمر يتوقف عن اللعب، يمتنع ظاهرياً عن اللذة التي يشعر بها من جراء اللعب الطفولي، غير أنه من الصعب على الإنسان أن يتخلى عن فرح قد أحس به. نقول الحقيقة عندما لا نستطيع التنازل عن شيء، لا يسعنا إلا أن نبادل شيئاً بشيء آخر، حيث يبدو أن هناك تراجعاً، يفسح ذلك المجال لتشكيل البديل [.....] ... فعوض أن يلعب الإنسان يطيب له من الآن فصاعداً التخيل [الاستيهامي] يبني قصوراً على الرمال، يعكف على ما نسميه أحلام اليقظة، حيث نفترض أن العمل الأدبي على شاكلة الحلم النهاري، يصبح استمراراً وبديلاً للعبة الطفولية القديمة (فرويد: محاولات في التحليل النفسي ٧١-٧٢))[٢]

قلبي يسائلني عليك أين انت أين الحب هل عادك حبيب
واسمع لنبضي في دمي أنّات تسألني لماذا لا أُجيب

وأنا وأشجاني وأطياف الندم
أشرب نداً عيني وأقتات الألم
وأمشي بلا دنيا وأحيا في عدم

****

اسأل حمام البان كم قد عاش يبكيني الهديل
مالي مع الأشجان غير الدمع والليل الطويل
لا يقدر النسيان ينسيني ولا أرضى بديل
تبكي معي أعماق روحي كُلمّا أبكي عليك
وتردني الأشواق من عندك وترجع بي إليك
ما عاش بي حِسّي ولا نفسي أَوَتْ إلا لديك

****

مدريش كيف قلبك رضي يروى وقلبي ما رضيش أشرب وأشرب من هوى غيرك ولكن ما رتويش
والضوء في عيني إذا غَيَّبتْ وجهك ما يضيش خليتني ألقى وجوه الفجر أعشى مستضيش

(١) أوراق الورد – مصطفى صادق الرافعي – ٢٥٢-٢٥٣- دار الكتاب العربي – بيروت.
(٢) التحليل النفسي والأدب – جان بلاّمان نويل – ٤٣- منشورات عويدات – بيروت.

وأحرقت أعشاشي وارياشي ولا خَلّيت ريش فارجع إلى أحضان أيامي وخلّيني أعيش

****** ******

بك أنت مش بالنجم أو ضوء القمر بك أنت مش بالغيم أو قطر المطر
بك أنت مش بالفجر أوعطر الزهر بك أنت لاقاني وواعدني القدر(١)(*)

أما فلسفة الحب عند الفضول فهي تتجسد وتشمل كل أشعار الفضول العاطفية والوطنية والسياسية ... لكنه يعرف الحب بأنه عطر الوجود ويخلص إلى أن حبه عطره فريد ...

ياحب ياضوء القلوب البيض في ليل الحياه ياحب حبيتك وشلّ القلب من ضوءك ضياه(*)
يا حب غنيتَك وخلّيتك على كل الشفاه يا حب يا تسبيح وجداني وروحي للاله

يا حب خالطتك بايماني وصليتك صلاه

وأنا و محبوبي وقلبينا وخامسنا الصباح نمشي طريقك لتقبل خطونا فيها الرياح
نذري ندا وردك بآثار المواجع والجراح يا حب ما علمت قلبينا سوى علم السماح
حتى الدموع اللتي سكبناها بأيام العذاب إمّا وجدنا نورها يمشي على وجه السحاب
وإلا لقينا زهرها في الليل في صدر الهضاب وإلا عرفنا عطرها محضون في غيمات آب

يا حبنا يكفي فقد فاضت رحاب العمر نور
يا حب قلبينا تلملم في زجاجات العطور
وحدك وباقي العطر للأيام في باقي الشهور

كُلما تعَطّر من هوانا عيد جانا يستزيد من أجل يبقى عرف أيامه على الدنيا جديد
والحبَ كله عطر لكن حبنا عطره فريد آتٍ من الجنّه وما يصلحش إلاّ عطر عيد(٢)*

وتلك فلسفة تلتقي مع فلسفة خرجت منها أوهي جزء منها كهذه التي أنفرد بها عبدالباسط عبسي ...

في مبسم الفجر مبلول النسمات سكبت ضوئي وعطري وابتساماتي
ونبض قلبي وأشواقي وضمّاتي يعانقنك ويعطنّك سلاماتي

---

(١) كتاب أيوب طارش – الفكر – تعز – ٧٤م
(*) هذه القصيدة كتبها الشاعر في ملهمته عزيزة النعمان وهي في ألمانيا مع والدها (أنظر لقاءنا معها) في ملاحق الكتاب.
(*) وفي معنى آخر : يا حب حبيتك وشن القلب من ضوءك ضياه / في ضوءك ضياه.
(٢) أغنيات أيوب طارش – كتاب – دار الفكر ١٩٧٤م.
(*) غناها أيوب بهذه المفردات، وغناها الحارثي باضافات واختلافات بسيطه – أي ان الحارثي غناها بكامل هيئتها أما أيوب فقد أستبعد بعض المقاطع لأسباب فنية كما هي عادته أحياناً.

كـــن اينمـــا كنـــت قلـــبي لـــك وأنـــت في كُـــلّ وجـــداني
وإن يجـــوني مراســـيلك ليرجعـــوا لـــك بأشـــجاني
وأبعـــث معـــاهم مناديلـــك وأســـكب بهـــا عطـــر ريحـــاني
أمَّا دموعي فلم أبكِ، وكيف أبكـــي وطيفـــك مُخبـــا تحـــت أجفـــاني؟
أبكي لماذا؟ وأحلامك يناغين أحلامي وحبـــك مُلملـــم مـــلء أحـــضاني
كأنَّما ذاب كلُّ الماس في حـــب قلبينـــا فـــأرواك مـــن ضـــوئه وأرواني

****

ظنَّيـــت لمـــا تفارقنـــا بـــأنني كنـــت فارقتـــك
وزاد لمـــا تعانقنـــا كـــذبت روحـــي وصـــدَّقتك
وايحين أنت قد ســافرت مــن حــسِّي أو رحت من خاطري أو غبت عن هَجَــسْي
وأحلام يــومي يزاحمهــا مُــنى أمَــسي يروين مــن حبَّــك المــسكوب في نفــسي
والـــورد في لونـــه الثـــاني أذوق لثمـــك وتقبيلـــك
وأغنيـــاتي وألحـــاني يـــأتين مـــن وحـــي حُبِّـــي لـــك
وضـــوء روحـــي ووجـــداني يجئـــين، مـــن قناديلـــك[1]

وقد يكون في الحب من خيبة الظن وضياع المودّة، ويكون الإخلاص لمن كان خداع، لمن ينهي الأشواق والألحان ويسكت الأنغام، ويعطي للريح كل الحب والأحلام، وكـــان الحب للفضول محراب، ولكنه وجد نفسه في محراب الضلال.. فتاب إلى الله، والفـــضول ينهي حُبه بدرس عاطفي قاسي، ولكنه سرعان ما يعود إلى ذلك المحراب الذي ســبق وأن عرف أنه غارق في ضلالته.. لأن له قلب كلما سمع داعياً للحب أجاب... فكيف خـــاب ظنه فيمن كان غدار؟

حبيت من فيه خاب الظن والود قد ضـــاع حبيت واخلصت في حُبِّي لمن كان خـــدَّاع
يـــا ويـــل مـــن حـــبَّ مثلـــي ضـــحى وأخلـــص وخـــاب
شـــاقول لمـــن حـــب قبلـــي إني بجرْحَـــك مُـــصاب
واقـــول لمـــن حـــب بعـــدي العـــز قبـــل العـــذاب
واقـــول لكـــلّ المحـــبين إن المحبـــه ســـراب

***** *****

يا ليت ما عمت يا غـــدار في مـــاء بحـــرك ظليت عائش على الأحلام في قيد أســـرك

(١) مخطوطة/ صحيفة الجمهورية.كتاب الأربعينية، ١٩٩٧م

لكـــــن قلبـــــك رجـــــم بي وكنـــــت أنـــــا بـــــك بخيـــــل
قـــــد كنـــــت زادي وشـــــر بي وكنـــــت ظِلّـــــي الظليـــــل
غَنَّـــــت لقلبـــــك وقلـــــبي حـــــتى قمـــــارى النحيـــــل
وكـــــان حُبَّـــــك وحـــــبي أقـــــوى مـــــن المـــــستحيل
****** ******

أنهيت شوقي وألحاني وأسكت الأنغام وأعطيت للريح ما قد كان من حب واحلام
أرخـــــصت بـــــذلي وبيعـــــي مـــــا ضـــــرَّ لـــــو كـــــان أغليـــــت
أظمـــــأت زرعـــــك وزرعـــــي وأحرقـــــت مـــــا كنـــــت ربيـــــت
ومـــــن دموعـــــك ودمعـــــي أســـــقيت حبـــــك وأرويـــــت
لـــــو كـــــان شـــــرعك كـــــشرعي مـــــا كنـــــت عـــــني تخلّيـــــت
****** ******

صليت للحب وكان الحب للقلب محـــراب ضلّيت لكـــنني قـــد تبـــت والله تـــواب
طويـــــت منـــــك حبـــــالي وجـــــرح قلـــــبي جـــــبر
مـــــالي وللحـــــب مـــــالي اعمـــــل لنـــــومي ســـــهر

شانـــــساك واعـــــيش ســـــالي كـــــالطير فـــــوق الـــــشجر
لا شـــــي يُـــــردَّك خيـــــالي حـــــتى القـــــضا والقـــــدر[1]

أما المحب الذي علم بحبه كلُّ من حوله إلاَّ من يحب ... فلسان حاله هكذا:

الليـــل والـــنجم وهمـــس النـــسيم يـــصغي لأنـــاتي وشـــوقي الألـــيم
وكـــل مـــا حـــولي بحُبِّـــي علـــيم إلا الـــذي قلـــبي بحبـــه يهـــيم
ولّـــــــــــــــى وخـــــــــــــــلاّني لوجـــــــــــــــدي
أبـــــــــــــــات في أحـــــــــــــــضان ســـــــــــــــهدي
واعـــــــــــــــيش بـــــــــــــــين النـــــــــــــــاس وحـــــــــــــــدي
ريـــح الـــصَّبا بـــالله لاايـــن المـــسير شـــاحملك منِّـــي الـــسلام الكـــثير
لمن طـــوى أيـــامِ عيـــشي النـــصير بـــالهجر وأعطـــاني الفـــراق المريـــر
قـــــــــــــــد كنـــــــــــــــت شانـــــــــــــــسى كـــــــــــــــلَّ غُلـــــــــــــــبي
في الحـــــــــــــــب لـــــــــــــــو قـــــــــــــــد كـــــــــــــــان ربي
قَـــــــــــــــوَّى علـــــــــــــــى النـــــــــــــــسيان قلـــــــــــــــبي

(١) نفس المصدر السابق.

ريح الصَّبا هل عاد عيشي يطيب بعد الجفا والهجر بعد الحبيب
كم ضمَّنا صدر الغرام الرحيب وخالق القلبين كان الرقيب
واليوم نسى كلَّ الذي كان
واعطى من النسيان أكفان
للشوق والذكرى والاشجان
ريح الصَّبا لا أدري ماذا أقول شامشي طريق الصبر مهما يطول
وأزرع دموعي في ضفاف الغيول ورود حب خالد لا يزول
محال أنْ ينساه فكري
شاعيش في ذكراه عمري
وانزل مع ذكراه قبري

بين نقيضين:

قد نجوِّز لأنفسنا وضع سؤال حول مرحلتين متناقضتين في حياة الفضول، رغم أن مراحل حياة الإنسان – وخاصة الفضول – متعددة وكثيرة، وقد تكون الخمس سنوات معلماً بارزاً بين كل مرحلة ومرحلة، حيث تتغير المفاهيم وتتبدَّل الرؤى. وتختلف التصورات، تبعاً لزاوية الوقوف والتجارب والحياة المتناقضة.. والفضول من خلال إصدار صحيفة الفضول التي أراد لها أن تكون قريبه من بسطاء الناس، وليكوّن لها أثرها الكبير أيضاً، وأضاف لطابع السخرية الذي تميز به، الكتابة الشعرية الساخرة والتي وظف من خلالها الألفاظ العامية القريبة من الناس.

وهي فترة كان لتأثير شعر و شاعرية الزبيري والموشكي على الفضول الدور الأكبر في تهيئة موهبة الفضول الشعرية الكاملة، وهذا الأمر الأول.. أما الأمر الثاني، فنذهب إلى أن الفضول قد أغرق نفسه في ميدان الصحافة وهاجس الصحافة – في ظروف بالغة الصعوبة – والصحافة هي مهنة البحث عن المتاعب، ومتاعب الصحافة لا حدود لها وأهم متاعبها أنها تبعد المبعد عن الإبداع والشاعر عن قول الشعر – إلا بحدود ما يخدم قضايا الصحافة والسياسة والوضع الذي يخدم أهداف القضية الصحفية – ومن هنا أبتعد الفضول عن ميدان الشعر المتكامل البناء والموهبة و المعمار، وكما قلنا إلا فيما يخدم قضية الأحرار والإيقاظ والمقاومة والاستعداد للثورة وتوعية الناس و المجتمع الذي يمثل الأرض الصلبة التي تقف عليها كل الجهود والآمال والطموحات والتضحيات، ونكاد – نقر ونجزم بذلك – و بأن التوجه الصحفي الذي أتخذه الفضول لم يكن توجهاً ذاتياً أو قراراً خاصاً به، و إنما كان بتوجيه من أحد الأثنين أو كليهما (الزبيري – الموشكي)، و نميل إلى الزبيري بحكم خبرته التي أكتسبها من إقامته بمصر، ومعرفته العميقة و إدراكه الكبير لدور الصحافة في

الإيقاظ الجماهيري، ولأن موهبته الشعرية كانت قد تكفلت بدك قلاع الكهنوتية من خلال شعره الناري الملتهب وعلى غرار (سِّجل مكانك في التاريخ يا قلمُ) وأيضاً الشعر الساخر الذي تبناه الموشكي في مخاطبته لنظام الإمامة كقوله مثلاً عندما هدم الإمـــام يحـــيى بيتـــه المتواضع:

لله درك فارســـــــاً مغـــــــــوارا طعن الصخور ونـــازل الأحجـــارا

فلم يتبق من وسيلة إعلامية أخرى غير (الصحافة والصحافة الساخرة بالذات) – في تلك المرحلة، فتوسَّم الرجلان (الزبيري والموشكي) في الفضول أن يكون صـــاحب هـــذا اللواء الإعلامي وبلغته الساخرة والقريبة من الناس الذين يعيشون في عدن إبَّان الاستعمار البريطاني، وكان أكثر القادمين والعاملين في عدن من أبناء اليمن وهم من الـــذين يعـــرف الفضول كيف يخاطبهم بحكم الانتماء إلى بيئة واحدة ذات مضامين واحدة، فكان النجاح حليف الفضول صحفياً، ومن خلال الصحافة عُرف الفضول ولُقِّب به ولزمه اللقـــب ولم يفارقه (حتى أصبح قرين اسمه).

ونستخلص من ذلك أن الفضول أخذته متاعب الصحافة وميدان الصحافة والرد و السخرية والحث والشحذ للهمم .... و ... و ... ومعروف أن ميدان الصحافة بعيـــداً عن ميدان الشعر و فن القول المنظوم، وبدأ اكتشاف الفضول لذاته وموهبتـــه الـــشعرية والساخرة، فوظفها وبما يتوافق مع الخط الذي حُدِّد له سلفاً، فعمل الفضول لابد أنه كان قد أخذ من المشورة والتخطيط والتعاون والمساندة، ليكون لعمله جدوى من حيث العمل والتوزيع، رغم أنه كان – الفضول – يبذل جهوداً مضنية لإخراج صـــحيفته، وكانـــت حقيبته الشهيرة بـــ(خُرج الفضول) هي الإدارة والبريد .... و.... و....، وبعـــد أن تمَّ إيقاف صحيفة الفضول، غرق في ميدان السياسة والحياة اليومية الذي تبع ثـــورة (٥٠-٦٠م) – وهي الفترة التي ظل فيها بعدن ولم يعد إلا بعد قيام ثورة ٢٦ ســـبتمبر ١٩٦٢م بسنوات.

((وكان الفضول أحد الأبناء الأكثر نباهة لذلك المجاهد الشهيد، وفي ظل الظـــروف القاسية، التي عانى منها الوالد تعرَّض الطفل للخوف صغيراً، وعانى من شـــعور التمـــزُّق والضياع، وتحمَّلت الطفولة الباكرة من صنوف الاضطهاد وسلبيات الواقع المرُ ما غذَّى في نفسه الإحساس بالثورة في وقت مُبكر وما جعله يصبح جندياً من جنودها أقل أن يصل إلى السن القانوني للتجنيد..))[١].

والتجنيد يعني خدمة قضايا الوطن من أجل التحرر، وخلال هذه الفترة كان – كما يبدو – الفضول قد توقف عن كتابة الشعر وغيره، وهي فترة أشار إليها المقالح بانصراف

(١) أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي – د.المقالح – دار الكلمة – صنعاء.

الشاعر إلى بعض شئون الحياة، ويرجح المقالح إلى أن ذلك حدث – ربما – يأساً من جدوى الشعر وتعبيراً عن عبث الكلمة، بعد محاولات التغيير الفاشلة (٤٨م–٥٥م–٦٠م) ... ولا شك ان الفضول في فترة التوقف غير القصيرة هذه، كان قد نهل وأكتسب ثقافة لا يستهان بها.. وهي ثقافة أعادته إلى عالم الشعر من باب جديد ، أحسَّ به ينفتح في قلبه على عالم من المشاعر والعواطف التي ما أشرقت عليها شمس الحب منذ غادر قريته الصغيرة متوجهاً إلى صنعاء ثم إلى زبيد ثم إلى تعز ومنها إلى عدن، والإنسان في وقت من الأوقات يعود إلى ذاته ونفسه محاسباً ومسائلاً، فيرى نفسه وقد أغرقها في أحداث وقضايا ممَّا أنساه أموراً أخرى، ويكون هذا الالتفات أو هذه العودة مرهوناً بتغير الأمور التي كانت تتطلب منه ذلك الاهتمام، وكما نعلم أن هناك من الأمور الخاصة بالشاعر ويكون لها سهم وافر في تغيير مجرى حياته العامة والخاصة، وهذه الأمور لا شك في أن لها مع الفضول شأن كبير لا يجب إغفاله، ولكن لا يجب أن نخوض فيه ما لم تتوفر لنا المعلومات الكفيلة باعطائنا دفعة من المنهجية النفسية والبحثية والتي يمكن – ولا شك في ذلك – لها أن تضئ لنا طريقاً مفروشاً بالورود لنصل إلى نفس الشاعر وقلبه الظامئ، وبعد قيام الثورة السبتمبرية تطالعنا أحداث ما بعد الثورة والتي ظلت حتى اندحار فلول الملكية مع بداية ١٩٦٨م، ثم أحداث أغسطس التي تركت جراحاً عميقة في نفوس اليمنيين والذين لهم إسهامهم البارز في حركة التحرر، ولا نغفل عن النهاية المؤلمة التي صار إليها الشهيد محمد محمود الزبيري في عام ١٩٦٥م.

وهي مرحلة غليان القلوب البيضاء التي حَلُمت بالخير والسعادة والحرية بمجرد القضاء على الإمامة، فكانت صدمتهم عنيفة بتلك الأحداث وغيرها والتي لا تخفى على المدرك والقارئ والذين عايشوا تلك الأحداث أو قرأوا عنها وندرك ان الكثير من الرجال الذين عملوا وجاهدوا وناضلوا وكافحوا وتشردوا وتشربوا الآلام وذاقوا الويلات وجاعوا وعروا وسهروا الليالي، وواصلوا الليل بالنهار لخدمة الوطن والقضية اليمنية أملاً بالحرية والتقدم واللحاق بركب الحضارة ... وبقدر ما قدموا وهم راضون ولم يكونوا يطمعون بالجزاء أو الثمن، بقدر ما أفزعهم ما صار إليه الأمر بعد الثورة ... ولأنهم من البشر قبل كل شيء أدركهم الإحباط من تلك النتائج التي ما كانوا يتوقعون حدوثها، ومن المؤكد أنهم – (كل المناضلين – لو كانوا رأوا ما سر خواطرهم ويطمئن قلوبهم من بدء الحياة والأعمار والتطور والازدهار .... لما أصابهم الإحباط المشوب بضياع تلك التضحيات العظيمة، وبضياع أمانيهم وجهودهم، وبضياعهم هم أيضاً، حيث أصبحوا وهم في حالة يرثى لها، فلا هم الثوار ولا هم التجار، ولا هم من المهاجرين أو المغتربين ... وليس لهم مصدر رزق يعينهم على الحياة الكريمة، وهم يرون الحرب الأهلية تمزق الأرض والمناضلين

والأحرار ايماناً منهم بحق المناضل والشهيد والأحرار .... وكما قال عباس المطاع.. الشاعر الرائع في هذا المعنى:

من حق كل شهيد أكّد القسما على الفدا وسقى أرضَ الكفاح دما
ألاّ نُضيعَ له عهداً ولا ذمما وأنْ نسير على النهج الذي رسما

- أما لماذا؟

- فلأن كلّ شهيد (كما قال الفضول):

كم شهيد من ثرى قبر يطلّ ليرى ما قد سقى بالدَّم غرسه
ويرى جيلاً رشيداً لا يضلّ للفداء الضخم قد هيأ نفسه
ويرى الهامات منّا كيف تعلوا في ضحى اليوم الذي أطلع شمسه

فهل لنا أن نتصور أو نتوقع رد الفعل النفسي الإنساني لتلك الأحداث التي أعقبت تلك التضحيات.. وليكن.. الفضول واحداً (مفرداً) من بين كل الذين كان لهم الدور الأمثل في صناعة أحداث الثورة، والتهيئة لها ... في عقول الناس (صحافة – شعراً ونثراً وسخرية وتضحية مبكرة).. وكما تتحدث هذه الأبيات من الشعر المشحونة بالتضحيات:

لم يعد يفجعني موتٌ فقد أدْمَنَتْ كفاي دفن الشهداء
وحياتي نثرتْ أحزانها ملء أيامي فما معنى بكائي
كُلّما ودعتُ تابوتاً أتى غيرُه يخرس دمعي ورثائي
صاحبي مات شهيداً وأبي مات شهيداً. وأخي مات شهيداً

فهل يمكن للقارئ أن يستشعر البركان النفسي العنيف الذي يمكن أن يجتاح أي إنسان قدَّم التضحية ... فكيف بالفضول وقد قدَّم تلك التضحيات وعمل لها وعليها؟!

إن هذا الانقلاب النفسي كفيل بقلب كل الموازين العقلية والنفسية والإنسانية، ولأن وطنية الفضول ظلت تحتل كيان الفضول ووجدانه، فإنه بمجرد أن تولى وزارة الإعلام، ثم عُين مستشاراً.. صرَّح قائلاً (أنا المستشار الذي لا يستشار) ثم صرَّح قائلاً: ((علينا أن نعترف بدون مكابرة بأن دورنا انتهى ... وأن لكل عصر دولة ورجال)).

أليس في تلك العبارات انقلاباً نفسياً واستعداداً لقبول – وقد تقبله – الأمر الواقع والمفروض والذي لا يمكن إلا بالدعوة له بالتوفيق والعمل على توجيهه من خلال الشعر الوطني الذي أشعل جيل (٧٠–٨٠) بحماس الوطنية ... الذي ربط الأرض اليمنية في كيان نفسي ووطني قوي وسيمتد هذا الحماس إلى ما شاء الله، لأن أناشيد الفضول الوطنية نبعت من قلب رضع الوطنية وعاش لها ومعها.

ثم ماذا؟

ثم إن الفضول رغم إحساسه العنيف بالغبن والظلم إلا انه أفرغ هذا الإحساس في حب الوطن، أملاً بالمستقبل ولم يكن هذا الإحساس ناتجاً عن خيال و أوهام بل كان ناتجاً عن الرغبة في حياة كريمة .... ولكن كيف؟!

كان الفضول ينتمي إلى أسرة عريقة النسب في قضاء الحجرية وهم أبناء (النعمان)، وكان مركز الأسرة الاجتماعي قائماً على المكانة الاقتصادية التي هم عليها بامتلاكهم لأرض زراعية تعتمد على أمطار الصيف الموسمية ... الحقيقة التي يجب توضيحها لكثير من الشبان بأن أسرة النعمان كانت لها مصالح مشتركة مع النظام الأمامي في فترة من الفترات والتي واكبت ثورة العالم الصوفي حميد الدين المقطري[1] عام ١٩١٩م والمعروفة بثورة أو حركة المقاطرة ... وكان هذا من أصحاب الطرق الصوفية في ذلك الوقت، وكانت له مكانه كبيره في نفوس أتباعه وأبناء تلك المنطقة، وفي عام الحركة حدث أن طالبة أبناء المنطقة بالعمل على رفع الظلم الواقع عليهم من جُباة الإمام يحيى والذين يستحوذون على خيرات الأرض من الحبوب ولا يتبقى لهم إلا أقل القليل .... فدعاهم – ونفذوا – إلى جمع محاصيلهم الزراعية في قلعة المقاطرة الشهيرة ... ثم عليهم أن يأخذوا ما يحتاجون إليه.. فغضب الإمام يحيى من هذا الأمر، وجيش الجيوش وكان أمير تعز آنذاك علي بن عبدالله الوزير في القيادة تمت الاستعانة بثلاث أسر ذات مركز اجتماعي كبير في قضاء الحجرية وهي (أسرة آل النعمان – وأسرة آل حسّان في جبل حبشي، وأسرة آل عثمان في جبل صبر)، وأشاعوا أن حميد الدين المقطري متأثر بالأفكار الشيوعية والإشتراكية، وأن له ولاء بريطاني ... وأنه وأنه،وكانت تلك السنوات قد صادفت الثورة البلشفية في الإتحاد السوفيتي (روسيا الاتحادية)، وقاوم أبناء المقاطرة دفاعاً عن أنفسهم ولكن بمساندة تلك الأسر استطاع الإمام يحيى القضاء على ثورة أو حركة (حميدالدين المقطري).. وتم قتل حميد الدين المقطري وإرسال رأسه في كيس إلى الإمام يحيى في صنعاء ... وبعودة القارئ الكريم إلى اليمن الجمهوري للبردوني سيعرف الكثير عن مفارقات هذه الثورة أو الحركة وعن حكاية التشابه في أسمي الشيخ الصوفي حميد الدين المقطري، والإمام يحي حميد الدين ... المهم أن أسرة آل النعمان، تغير موقفها من النظام الإمامي القائم على الظلم والجهل والمرض، وأدرك المستنيرون في الأسرة واجبهم الوطني واستشعروا ما عليه الشعب من تخلف وضياع ... فدفعت هذه الأسرة الكثير من التضحيات والشهداء، ما يهمنا هو الوضع الاقتصادي للأسرة، فمن المعروف أنه بعد اعتقال وسجن وإعدام الشيخ عبدالوهاب نعمان وتشرد أسرته، فقدت الأرض قيمتها الاقتصادية، وأصبح الفضول في عدن شريداً طريداً كأي مواطن بسيط يعيش على الكفاف مع رجال الثورة والأحرار

(١) أنظر اليمن الجمهوري – عبدالله البردوني – ثورة المقاطرة.

كالزبيري والموشكي وغيرهم وعلى ما يقدمه أصحاب المال والأعمال لهؤلاء الشباب ... ولما قامت الثورة، و استقرت الأمور، تغيرت الأحوال .... فوجد التاجر نفسه تاجراً، والعامل عاملاً، والضائع ضائعاً، والمناضل مناضلاً لا يجد قوت يومه ... والمناصب قد جلس عليها من كتبت لهم (وتلك الأيام نداولها بين الناس).... ووجد الكثير من الناس أنفسهم في غير ما كانوا يأملون ... أما الفضول فقد وجد نفسه ظامئاً لكي يعيش، ولكي يحب، ولكي يهوى، ولكي يمارس لذة القلب وطقوس الفؤاد ... وجد نفسه وهي تريد أن تنسى كل ما قدمت من تضحيات وشهادات، تريد أن تنسى كل الآمال والأوهام.. تريد أن تغرق في بحر من الحب، ووجد نفسه وهو يريد أن يشرب ويشرب ويشرب ... لأنه ظمآن ومازال ظامئاً ... فهل كان ذلك هروب إلى الحب أم الماضي أم إلى الطفولة أم إلى الطبيعة ... ستجدون الجواب في أبواب قادمة..

... ولكن من أين جاء هذا الظمأ؟

- الإجابة باختصار إن الظمأ من آثار تلك الأحداث البسيطة التي قد تحدث للإنسان في طفولته المبكرة، أو قد تنشأ من بعض الأحداث العنيفة والتي قد لا يتحملها الإنسان لفضاعة تلك الأحداث ورهبتها وخاصة عندما تكون في حجم (ضرب الأعناق)

- وعنق من؟

- عنق ذلك الأب الحنون الوقور الذي بلغ مرحلة الشيخوخة وكان أمل ابنه الطموح والابن أمل أبيه ... فتعمق في نفس الفضول شبح الخوف المرعب والذي كان يمثله الإمام، الحاكم الجائر، ومن أمتلك وسائل بطش عديدة ... ومن هذا ومع وبين هذه الأشباح من الآلام والمشاعر ظل الفضول يتجرع مرارة الشعور بالتمزق والضياع إلى احساس حاد بالألم العاطفي الذي يكون ناتجاً عن إحساس دفين بالفراغ العاطفي أو الخواء العاطفي والحاجة إلى من يملأ هذه الأحاسيس وذلك القلب بعاطفة الحب والحنان والآمان.. ولأن الفضول شاعر مرهف الإحساس.. دعته نفسه إلى بحر حب المرأة الأنثى وترجم هذه المعاني القلبية إلى لغته الشعرية (مكانني ظمآن ... وهيمان.. وغير ذلك كثير) وقصيدة مكانني ظمآن، نظمها الفضول كما أشرنا سابقاً لا لكي تغنى وإنما لكي يعبر عن مكنون نفسه ولما التقى بأيوب طارش أسمعه إياها، فأحس بها أيوب لأنها لامست نفسه وهي تلامس نفس وقلب كل يمني، ووفق أيوب ليضع لها لحناً ظامئاً.. فكانت تلك القصيدة الغنائية لسان حال قلب الفضول الظامئ ومن دار في فلكه وحياته وآلامه وهواه وعشقه وغربته وأشواقه.

وكما تحدثنا من قبل أن أيوب طارش كان قد غنى (روح لك بعيد) مع منى علي – وهي من كلمات الفضول (أول ما غنى للفضول)، وبالتأكيد أن الفضول أستمع للأغنية – قبل أن يعرف أيوب – فشدَّ نفسه وانتباهه صوت أيوب – دون صوت منى علي – فوجد ذاته تتطابق مع صوت و أداء أيوب الرائع ومشاعره تنفعل.. و أقر لنفسه أن هذا الصوت

هو خير من يعبر عن ظمأ الفضول ... ولا نستبعد أن يكون إعجاب الفضول بأيوب ... وصوته وأدائه، هو الذي دفع الفضول لمواصلة كتابته لقصائده الغنائية وأناشيده الوطنية، فكانت القصائد الغنائية المزاج تتحدث عن ظمأه العاطفي، والأناشيد الوطنية تتحدث عن مشاعره الوطنية ... و لماذا لا يكون ذلك هو الذي دفع الفضول إلى القصائد ذات الطابع الغنائي المزاج، فأكتشف نفسه في ذلك وخاصة ونحن نعرف أن المواهب قد تبدع أنواعاً أدبية مصادفة فتجد نفسها في تلك الأنواع الأدبية، فقد يظل الكاتب أو الأديب أو الشاعر أو الموهوب يمارس نوعاً أو نوعين من الأدب، ثم يجرب نوعاً من الأدب في مرحلة متقدمة – مثلاً – من حياته فيجد نفسه أنه ما خلق إلا ليكون في هذا الميدان من الآداب، فيغادر كل ما سبق، وقد يتخلى عن كل ما أنتج، ويظل رهبانا في ميدانه الجديد الذي وجد نفسه فيه ... بعد عناء طويل.. فهل وجد الفضول نفسه في هذا الميدان؟ لا شك في ذلك(*).. نؤكد ما ذهبنا إليّه أن الفضول كان يقدر موهبة أيوب وإمكانياته ...فجعله المتحدث بأمور قلبه الظامئ وحبه الكبير.. وأيضاً المعبر عن عشقه للوطن اليمني الواحد، وعندما كان يكتب قصائد غنائية لعبدالباسط العبسي مثلاً.. فإنه يضعها لعبد الباسط .... وهي قصائد لا تناسب أيوب طارش إطلاقاً حسب رؤية البعض.

والآن نسأل: هل برد قلب الفضول؟

قلبي برد من بعد ما ظلّك عليه قد رد وفآء(١) من حوله وزاد وأمتد
وبعد روحي كانَ عاطش أجرد أسقيتني كأس الهناء مُبَرَّد
في حبنا واليوم تتبع الأمس والليل جاء لملم زوارق الشمس
وجآء يحوينا معطر الهمس في ظل دنيا مخملية اللمس
مَنْ مثلنا مغموس في الهناء غمس
ما شي لحبنا حد ولا لحبنا لحد فكلٌ ما قالوا بلا تجَدَّد
وان نحن أظمئناه زاد وأشتد وطوُّل اعواده وخَضَّرَ أزيد
يا زايدي المُزيَّد ولؤلؤي المنضَّدْ قلبي سجد وأعطى الهوى ايمانه المؤبَّد(٢)

((فالإنسان المتوحش فنّان، والإنسان المتحضّر فنّان، وكلاهما عبد الجمال، ومارس عبادته فنّاً، ونقش الصخر، رمى عليه من ذات نفسه، لوّنه، نضد قصيدة، توهم أسطورة، جعل من القماش معركة مصير، لخص في تلوينه ملهمة الكون، الإنسان القيم ...، والفن توأم الجمال، والفنان الحق، هو الذي يصور حتى القبح تصويراً جميلاً، الفنان، حتى أشد

(*) استمر الفضول يكتب الشعر السياسي ولكنه لم ينشر شيئاً أثناء ما كان يكتب الشعر الغنائي بين عامي (٦٧-٨٢).

(١) وفآء: أمتد ظلاله.

(٢) الجمهورية الثقافية / ع ٤٧ – ١٧/ ٧ / ١٩٩٧م – ص ٢.

الفنانين واقعية، لا ينقل الأشياء، بل الصورة التي في نفسه عنها، إنه يعيد خلقهـا، يغزلهـا بطريقته هو، وعلى منواله هو، بفذوذيه وأصالة، فالفن أصالة وتمرُّس، وهو بما يتطلب من أناة، من ثقافة عميقة وشمولية، امتدادي بطبيعته، يتأبى على الارتجال، إنه صناعة من نـوع فريد، والفنان، هذا المتعبد، المتعشق للجمال، قدره ضمانة ديمومته، تأبيد اللحظة، تلـوين اللفظة، تعميق المأساة، مزاوجة أنغام وحروف وألوان))[١].

وهكذا تتبدى وتتأبد اللحظة التي يرسمها لنا الفضول بريشة قلبه الظامئ، ويزيـدها ألقاً إلى نفوسنا ذلك الصوت الساحر للمشاعر والأداء الباهر.. وكأننا أمام لوحة كونيـة بديعة، وهي تكاد تنطق قائلة ... أنا لحظة أبدية، وألحاني سرمدية ، وعندما نحاول أن نسأل أيوب طارش ...كيف استطعت أن تسمعنا لحن قلوبنا الظامئة ... وجعلتنا نعيش فـوق أرضنا وعلى أنهار وأبار قرانا وبين أغنامنا وفي حقولنا ومزارعنا وتحت سماء قريتنا و أمطار صيفنا ...؟ فإنه يجيب بتلقائية وببراءة قائلاً: إنه توفيق من الله ... وهذه الإجابة هي بحـد ذاته سر الأسرار التي منحها الله لأيوب طارش. وكأن الألحان العاطفية الوطنية من نوازع أنفسنا. ومهوى أفئدتنا. باختصار إن الفن منحه ربانية للارتقاء بالمشاعر.

وبتداخل كل تلك العوامل والمؤثرات الخاصة والعامة في نفس الفـضول – وهـي عوامل رئيسية تعرضنا لها سابقاً – فجعلته يلج باب قلبه الظامئ من باب إحساسه بالخيبة والفشل وهو إحساس سيطر عليه في فترة ما قبل الثورة وما بعدها، والنفس الإنسانية دوماً تعشق تأبيد المشاعر وعملقة التضحيات مهما كانت ضئيلة – فما بالنا بتضيحات الفضول – وعندما يتم إحقاق الحق، والاعتراف بالجميل، ورد الجميل، ومكافأته على ذلك الجميل، فالإنسان يحس بالرضا عن الذات، وأما أن يحدث عكس ذلك، فكفيل بـزرع الإحبـاط واليأس ومرارة الأيام، وماذا يتبقى من مرارة الأيام غير الإحباط واليأس والشعور بـالغبن والظلم ومرارة الواقع، فتتكاتف كل تلك المؤثرات على نفس الشاعر وتدفعه إلى محاولـة النكوص وهي حيلة دفاعية عديمة الجدوى، وتكون هذه العملية على اتجاهين غالباً، فإمـا نكوص نحو مرحلة الطفولة التي تمثل للإنسان بصفائها وهدوئها وهي أمور تتعارض تماماً مع الواقع الراهن لأن ((المرء يرتد بخياله إلى الوراء لعلّ الماضي يعينه على أن يتخفف من ثقل الحاضر الأليم الذي يشعره بالعجز والإخفاق))[٢].

وأما أن يحدث نكوص إلى ذلك الإحساس الإنساني نحو المرأة علـى هيئـة الحـب والرغبة الدفينة في الارتماء بأحضان الحب والحنان و الأنوثة ... لأن الحب يضع في النفس شعوراً بالامتلاء العاطفي أو كما يقول لامارتين ((خُلِقَ الإنسان للحب، فهـو لا يـشعر

(١) علم الجمال: دني هو يسمان – ترجمة ظاهر الحسن – منشورات عويدات.
(٢) أنظر بحث (ميكانيزم النكوص) بقلم كمال عبدالحميد نايل / مجلة علم النفس / فبراير ١٩٥٠/ ٣٩٣.

برجولته وإنسانيته إلا يوم يشعر حقيقة انه يحب، أما قبل ذلك فهو يبحث ويقلق ويضطرب ويضل في شعاع فكره، حتى إذا ما وجد الحب وعرفه وقف و استراح وخلى زمامة بيد القدر))[١]، وحينما يتذوّق الشاعر الحب ((فإن لحظات الحب تصبح ماثلة في شعوره، ممتزجه بصحوه ونومه، حيه في أحلامه ويقظته، وحينئذ ينسى الشاعر ما يعانيه من إحساس بتمزق ذاته))[٢]

وتفسير ذلك أن الحب ((ينسي الإنسان متاعب الشعور بالذات))[٣].

((وكما أن فقدان الحب، يفضي بالإنسان إلى معاناة مشاعر الوحدة والغربة، والجزع الروحي والقلق النفسي))[٤]، والحب لدى بعض الشعراء هو مفتاح سحري لبدء الحياة ولضرورة العيش في هذا الكون ... ومهما كان الحب مختلفاً من حيث لواعج النفس وأشواق الذات إلا أن الحب – مثلاً – لدى الشابي كان ((منتهى نفسه وأمنية فؤاده، ولولا هذا الحب العذري لما خفق قلبه بالحياة التي كرهها وسئمها، فكل ما فيها قاتم مظلم الجوانب، مسود الصفحات، ولا ينيره سوى ضوء الحب الذي كان يسطع ويغمر حنايا نفسه الحالكة، فينعشها ويحبب إليها الحياة))[٥].

والفضول من الشعراء الذين وجدوا في أنفسهم الحاجة العنيفة للبقاء في أفياء الحب ونشوته التي تسكر القلب من الفرح والسعادة ومما يجب لفت النظر إليه هو أن للفضول خصوصية في هذا الجانب، فأوجدت في نفسه خواءً عاطفياً عميقاً ... فكلما شرب من كأس الحب أحس بالظمأ من جديد وهو يزداد بل وأكثر عنفاً.

وإذا ما أحب ... كان حبه متعباً وبينهما أشواق وأشجان وسراب ... يحسبه الفضول الظمآن حباً.. حتى إذا جاءه لم يجده إلا سراباً ووهماً، لكنه سراب جميل يعلل النفس بالآمال:

محلى هواك لكن حولك أشواك ... سواك نكأني بها ونكأك
جُرِحْت لكن ما أزال أهواك ... والحب عافى جرحاتي وعافاك
خَلّي الندا فوقك عليك يهمي ... واترك همومَك لي فأنت يا خل هَمِّي
شاشل غرمك بالهوى وغرمي ... قسمك حنان والجراح قسمي
هذا عطا قلبي قَسَمْ و أعطاك
منتش ملومي أنت أو خصيمي ... كيف احسبك أو أكتبك غريمي

(١) رافائيل / ترجمة الزيات أحمد حسن / ٤٨.
(٢) د.طلعت أبو العزم /الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني /١٧٨.
(٣) د.زكريا إبراهيم (مشكلة الحب /٢٥٤-٢٥٥.
(٤) د.طلعت أبوالعزم / الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني /١٧٨.
(٥) أبوالقاسم محمد بدري / الشاعران المتشابهان /٥٧.

وأنـــت زرع الحـــب في صـــميمي أزهـــرت وأعـــشوشبت في هـــشيمي
وأنـــت مـــن بـــين الظبـــأ ريمـــي أتأملـــك بـــين الظبـــأ وأرعـــاك
يا أنت يـــا مَـــنْ أنـــت لا أُسمِّـــي يا صـــدقَ حُبِّـــي لا ســـراب وهمـــي
ويـــا خليطـــي في دمـــي ولحمـــي أغـــويتني حـــتى حـــروف اسمـــي
ما تكتتبش إلاّ إذا تهَجَّاك[1]

ولم يعد أمام الفضول من خيار غير أن يتوجه إلى حبيبته بأيامه وأشـــواقه وحنينـــه،و آهات فؤاده وشجونه، لأن الحبيب هو منى العمر وأحلام السنين التي ضاعت .....

لـــك أيـــامي وشـــوقي وحنـــيني لـــك آهـــات فـــؤادي وشـــجوني
أنـــت روحـــي أنـــت مـــا لملمتـــه من منى العمـــر وأحـــلام الـــسنين
عـــشتُ دنيـــا أنـــت فيهـــا حُلُمـــي
في أحاسيـــــسي وفي نـــــبض دمـــــي
لا أرى بعـــــــدك إلا عـــــــدمي
يـــا حبـــيبي لـــن نتـــوب لـــيس في الحـــب ذنـــوب
عهـــدنا عهـــد قلـــوب عهـــد عـــلاّم الغيـــوب
لم يعـــد ســـراً هوانـــا أو تَخَفّـــي
ألـــف قلـــب لهوانـــا لـــيس يكفـــي
فارحمينـــا ألـــسن النـــاس وكُفّـــي
حُبُّنا أكبر منَّـــا وهوانـــا لـــيس يفـــنى أبداً حتَّى لو أنَّا نحنُ أبعـــدناه عَنَّـــا
حُبُّنـــا مـــا تـــاه في الإثم ولا ضـــل
حُبنـــا حُكـــم مـــن الأقـــدار مرســـل
حُبُّنـــا قـــرآن قلبينـــا المرتَّـــل
ليس في أيام بُعدي عنك إلا حـــسراتي إنها تـــأتي يتيمـــات كأيـــام وفـــاتي
وبهـــا وحـــشة قـــبري ولهـــا صـــمت رفـــاتي
بـــدءُ أيـــام فـــؤادي الباسمـــات
وضـــحى عمـــري وأشـــواق حيـــاتي
يـــوم ألقـــاكِ فـــألقى أمنيـــاتي[2]

(١) مخطوطة، وهناك مقاطع أستبعدها أيوب لأسباب فنية سنثبتها في ديوان الشاعر باذن الله.
(٢) غنى أيوب هذا المقطع من قصيدة طويلة كان الفضول كتبها لأم كلثوم – راجع لقاء المؤلف مع عزيزة النعمان في ملاحق الكتاب لمعرفة تفاصيل القصة. مع ملاحظة كيف أنها مفصلة تفصيل علـــى مقـــاس وطبقات صوت أم كلثوم، ولم نعثر على النص الكامل للقصيدة.

ووفاء المحبوب هو منى الفضول الظامئ، ورغم ظمأه فهو صبور(*)

مهمـــا يلـــوعني الحـــنين شـــصبر وراعـــي لـــك ســـنين
واعطيـــك كـــل العمـــر مـــا دامـــك علـــى عهـــدك أمـــين
والملـــم أشـــواقي واحراقـــي وأعطيهـــا قلـــوب اللائمـــين
كلهم لامـــوا وحـــاموا حولنـــا ليت مَنْ لاموا أحبُّـــوا مثلنـــا
ليتـــهم ذاقـــوا هـــواهم قبلنـــا كان أعانونـــا ولُمـــوا شملنـــا
آه يـــا عيـــوني أنـــت إلهـــامي وأنغـــامي تغنـــيني هـــواك
آه يا ظنوني أنت أحلامـــي وقـــد نَـــدَّيت عمـــري مـــن نـــداك
وأنت مـــن ريحنـــت أيـــامي وقـــد أســـقيت أزهـــاري شـــذاك

******

كم يسألوني النـــاس عـــن أنـــسي وايناســـي القـــديم
النـــاس في وادي وقلـــبي وســـط وديانـــك يهـــيم
أمشي بريحاني وألحاني وأسأل عنـــك أفـــواج النـــسيم
وأضم كل الزهـــر أشمـــك فيـــه واحـــضن كـــلَّ ريم

سوف تلقاني علـــى خُـــضر الرُّبـــا في المراعـــي حيـــث أيـــام الـــصبا
حيثما حُبِّـــي وحبـــك قـــد ربـــا حيـــث ألقاهـــا وتلقـــاني الظبـــا
ما دمـــت أنـــا أهـــواك وتهـــواني ومادامـــت حيـــاتي في يـــديك
لابـــد مـــا ألقـــاك وتلقـــاني وتـــأتي أنـــت أو آت إليـــك
يـــوم الهـــوى أرواك وأرواني مـــن الأشـــواق زيَّـــدني عليـــك
مَنْ ينـــزع الأشـــجان مـــن قلـــبي وقلبـــك مـــن يطيـــق
لانـــا ولا أنـــت أســـتطعنا مـــن هوانـــا أن نفيـــق
قـــد عـــشت أيـــامي وآلامـــي لأجلـــك أنـــت يطـــويني الحريـــق
ماناش مُقَضِّي ساعتي عندك ولا جازع طريق(١)

وفلسفة الحب عند الفضول أو جزء منها هكذا:

طاب اللقاء واحبيب القلب وافي العهـــود طاب اللقاء واحبيبي فوق عرش الـــورود
عشنا ظمأ والندا ســـكّاب مـــن حولنـــا تروي مهجة الظـــامئ ويخـــضر عـــود

(*) مخطوطه / صحيفة الجمهورية / ٩٧ م
(١) كتاب اغنيات أيوب طارش – الفكر – تعز – ١٩٧٤م.

كم غَرَّسوا الشوق والأحـزان في دربنـا لم يعرف الـشوك منـاً غـير ترحيبنـا
كـم أظمأونـا فأسـقنا نـدا حُبَّنـا كم نارهم يا حبيبي قَـد أحاطـت بنـا
وجنَّة الحب تعطينا الندا والبرود
كُنَّا على الجمر نمـشي في طريـق المـنى والصبر ممدود يعطي الحب ضوء الخلـود
إذا التقينـا تعانقنـا وحنَّـت لنـا للشوق والحب في قلبي وقلبـك رعـود
ولا يـرى بعـضنَا بعـضٌ فمـا بيننـا من دمعنـا غيمـات أرخـت سـدود
واليـوم هـانحن في أحـضان أيامنـا حقيقـة ترتـوي أضـواء أحلامنـا
وافراحنـا راكعـات عنـد أقـدامنا مـستغفرات فؤادينـا لآلامنـا
والـحب غفّـَار لا يأوي فؤاد الحـقود [1]

وعندما نستبطن قصيدة (وافي العهود)، نستظهر حب الفضول أو لنقل فلـسفته في الحب، لأنها فلسفة تجمع بين حبين، حب الوطن وحب المرأة، باعتبار أن حب المرأة بـاب الحب الوطني، وحب الوطن باب لحب المرأة ... ولا يخفى علينا هذا التداخل في كل أشعار الفضول، ولعلنا نسأل:

من أين دخل الفضول إلى حب المرأة؟! ومن أين بدأ الفضول بالحب؟! والأسئلة قد تجيب على بعضها، ولكن لنثبت هذا التداخل ... دعونا نستشهد بالنظام الامريكي الذي يعاقب الفرد في القوات المسلحة بفصله من منصبه أياً كان متى ما خان زوجته بمعاشـرة عشيقة. ومتى ما ضُبط في هذه الخيانة، ويذهبون لتعليل نظامهم وعقابهم الصارم بقـولهم ((إن الذي يخون زوجته من السهل عليه أن يخون الوطن)) – وهذه نظرية ورؤية تثبت ما بين المرأة والوطن من علاقة وثيقة، ومتى ما أحب الرجل المرأة أحب كل ما حوله بمـا في ذلك الوطن وبالتالي صون الوطن الذي يستظل تحت سمائه من يحب، وهو شعور في الرجل و المرأة، ولذلك قد نلمس بدون شك قصائد عاطفية للفضول تتضمن مبـادئً وأفكـاراً وهموماً وطنية ... لأن الوطن في دمه ومزاجه الشعري لا ينفصل عن الوطن وعشق الوطن ... وهذا باب سنأتي إليه لاحقاً أما توظيف الشاعر للتراث الفني في كلماته فهذه القصيدة تثبت ذلك:

نجم الصباح قل للصباح إن لاح قلبي جراح
ظلام مغلق ما عليه مفتاح
إلاّ يد الخل الحبيب ذي راح
قال الوداع ودمعتي على القاع إمرة مطاع

(١) صحيفة الجمهورية.

وكل عمري في هواه قد ضاع
يفديه عمري إن أجا وإن راح
ناسي هواك من عَلَّمك وأغواك من ذي دهاك
من الذي مشاك فوق الأشواك
وكنت مر يوش الجناح مرتاح
كُنَّا سوى من للهوى سوانا يوم ارتوى
عمري وعمرك من ندى هوانا
أيام عشناها قلوب وأرواح
شاتودَّعك وأبكي عليك أنهار واطرح معاك
على بقايا الحب ورود وأزهار
ذكرى هوى عشناه كله أفراح
ماء الغيول قل للسحاب كُفِّي.. يكفي سيول
دموع عيني يا غيول تكفي
فاطوي غيومك يا سحاب وارتاح

وفلسفة الغيول والسحاب عند الفضول نابعة من رغبة عارمة في النكوص إلى قريته وبراءة طفولته التي شبت في أحضان الطبيعة.

هات لي قلبك:

كان الفضول يحمل في يده القات يهم بالخروج فذكرته ملهمته بقولها: هات لي – تقصد القات – فقال لها: ماذا أعطيك؟ فقالت ضاحكة: هات لي قلبك ... فكانت هذه القصيدة:

هات لي قلبك وخذ قلبي معك — يمكن أقدر أهجرك أو أخدعك
وأنت جرِّب شوف من باينفعك — غير قلبي، قلب من بايوسعك
أين تروح منّي وروحي يتبعك — أنت ضيَّعته وهو ما ضيَّعَك
وإن قنعته أنت ما بيقنعك — غير قلبي قلب مَنْ با يوسعك
حيثما تشتي تروح ما بمنعك — أنت تدري إن عندي مرجعك
كم تشتت وقلبي يجمعك — غير قلبي قلب من بايوسعك
كيف أقدر من حياتي أنزعك — أو أخلِّي شوق قلبي يشفعك
عشتُ أيامي بقلبي أزرعك — غير قلبي قلب من بايوسعك
ملء روحي أنت ما زلت أسمعك — غنوة أيام عمري تسجعك
لا تظن إن فؤادي ودَّعك — غير قلبي قلب من بايوسعك

كيف باخليك تسكب أدمعك لا يزال في حضن قلبي موضعك
ما سخا ينسى هواك أو يوجعك غير قلبي قلب من بايوسعك[١]

ويوزع الفضول ظمأه على كل الناس ... لأن للظمأ حلاوة لا يتذوقها إلا المحبون.... وهذه (هاتوا لقلبي) التي غناها عبدالباسط العبسي:

هاتوا لقلبي كلَّ طَلِّ الصباح واسقوا عيوني كلَّ حسن الملاح
بَشاشةُ الحب وأفراحها ما عارفت إلا النفوس الصحاح
كم ناس قد عاشوا بغير الهوى أشباح تأوي في صدور الضياح
ما كل آحات الهوى والجوى مثل الذي قد قال من صدق آح
لكنَّ أزهاري عليها الندا ضمائدي لفَّيت فيها الجراح
قلبي مع الأطيار تحت الضحى وحيثما لاقى الظلال أستراح
قد كنت لي يا حب مهما يجي القيظ في روحي وتأتي الرياح
خمائلي تبقى على حالها فيها شذى الورد وفيها الأقاح
قولوا لمن بالحب ضاقوا ألا هاتوه عندي عاد قلبي فساح[٢]

وهذه أجمل ما غناها عبدالباسط للفضول لحناً وغناءً وكلمات (يا حب يا أرضي ويا سمائي). فالحب بين الأرض والسماء وهو أقوى نداء وجهه الفضول للحب:

يا حب يا أرضي ويا سمائي يا موطني ويا بلاد قلبي
يا حب من غيمك شربت مائي ودام غيمك واستمر شربي
وارويت مِنِّي ظمأتي وجدبي وأنبتَّ لي ريشي على جناحي
وكنت في روحي بشاش خصبي وأعطيتني من فرحتك صباحي
كل القلوب قد سَيَّبَتْ هواها إلاَّ قلبي ما قنع ولا تاب
وكل نجمة فارقَتْ سماها إلاَّ حبيبي ما طفي ولا غاب
عملت لي في جنَّتك مرابي ربَّيت فيها نرجسي ووردي
ومد وجداني فيها سحابي وسار فيها بارقي ورعدي
يا خو الندا يا رشَّةَ الغمائم يا خير أيامي ويا هناها
فطرت بك قلبي وكان صائم يا بدء أحلامي ومنتهاها

ومع كل تقلبات القلب الظامئ، وفلسفة الحب الشعري الذي ظل مشدوداً دوماً إلى ذلك البعيد الذي أستغرق كل وجدانات الفضول، وكان مصرعه سبب أحزانه وتمزق

(١) كتاب أغنيات أيوب طارش – الفكر – تعز – ١٩٧٤م.
(٢) مخطوطة.

ذاته.... ويدفعنا هذا إلى تقرير حقيقة الأثر الكبير الذي تركه الشيخ عبدالوهاب نعمان في نفس الفضول فكان نداء الفضول لأبيه (يا مَنْ رَحَلْت إلى بعيد قصِّرْ مسافات البعيد) وهذه الرؤية أقوى ما وصلنا إليه، حيث كنا قد كتبنا حول هذه القصيدة الحزينة ذات يوم، وذهبنا إلى أن الفضول فيها يرثي نفسه، وأداء أيوب الحزين أوحى لنا بذلك، وذهبنا أيضاً إلى أن القصيدة أيضاً رثاء للفنان أيوب طارش ... لأن الطابع الحزين يعبر عن رثاء الإنسان لنفسه غالباً، ولم نكن قد تعمقنا في دراسة شعر الفضول، ولذلك أدركنا التمزق الذاتي والنفسي الذي عاش فيه الفضول، وتجرع كؤوسه المؤلمة منذ عام ١٩٤٨م وكما تبدلت عواطف الشابي بعد موت أبيه، فلم يقوَ على رثائه إلا بعد سنوات عديدة ... لعمق المأساة في نفس الشاعر، فكذلك – على ما يبدو– أصيب الفضول بمثل هذه الحالة .... حتى ألهمته أحزانه التي نضجت نارها، وشابت صفحة رأسها – هذه القصيدة التي تعبر فعلاً عن ذات الفضول كأتم ما يكون عليه التعبير ...فهل نبدأ بقراءتها ثم بالاستماع إليها ....؟

يا من رحلت إلى بعيد قصر مسافات البعيد
لا تدخل النسيان أو ما فيه من صمت وبيد
فلربما عاد الهوى وعادك الله المعيد
كم كنت لميتك لموم الريش في العصف الشديد
وخبأت خبك بين نبضي في تعاريج الوريد
فأبيت إلا أن تعود إلى ضياعك من جديد
ما قيمةُ الأيام بعد هواك تنقص أو تزيد؟
فلقد أردتُ وكنت لي في العمر آخر ما أريد
يا آخر الألحان في وتري وخاتمة النشيد
يا آخر الأشواق في سهري وفي قلبي العميد
يا آخر الأوراق في زهري تساقط في الجليد
يا آخر الإشراق في عمري وآخر وجه عيد
يا من رحلت إلى بعيد قصِّرْ مسافات البعيد[1]

وكما جاء أيوب طارش بعد أن قلنا ما قلناه حول هذه القصيدة الحزينة والتي قال عنها بأنه لم يجد من الكلمات ما يرثي بها صاحبه إلا هذه القصيدة ... وبقدر ما في القصيدة من معانٍ حزينة إلا انها رثاء لمن ظل خياله – ورأسه يهوى – في رأس وعين الفضول وهي

(١) فيها رثاء للأب ونداء للأستاذ في منفاه الجليدي في جنيف، ورثاء لذاته حيث لم يجد أيوب ما يرثي به الفضول غيرها ... وقد تكون رثاءً لأيوب طارش ذات يوم، وفي آخرها بيتان أستبعدهما أيوب لأسباب فنية كما قال.

رثاء للذات المتمزقة،وفيها من الأحزان التي تتحدث عن ذاتها بأسى بالغ وألم ممض.

وفي هذه القصيدة الغنائية الغامضة، وغموضها من حيث المقصود بها، فمن هو؟ ومن هو المقصود؟ هل يقصد الفضول (نفسه) به فنحن حينما نحس أن الفنان يخاطب الشاعر الراحل بكلماته التي يرثي نفسه – في شخصه وشخص أبيه ومن له في نفسه مكانةً كبيرة... فهل رثا الفضول نفسه بهذه القصيدة؟!

إذا يكون الفضول حقق قفزة نوعيه في مجال الوعي الشعري الذي يسبق الموت فيكون الإحساس به.. لأن القصيدة غُنيَّت بعد وفاة الفضول بلحنها وبحزنها ومن حزن عليهم أو عليه في نسيان أبدي وبما فيه من صمت وصحاري وقفار وبيد ...وكأنه في لحظة موجده وحزن وألم ... كهذه:

أمَّا الأحبَّةُ فالبيداء دونَهُمُ فليت أنَّها بيد دونها بيدُ
لم يترك الدهر في قلبي ولا كبدي شيئاً تتيمه عين ولا جيدُ

لكن الهوى عند الفضول قد يعود (وعادك الله المعيد)، و التمزق النفسي الذي عاشه الفضول يتجلى بقضائه العمر وهو يحاول لم وجمع (هواه وحزنه) وحاله كما يجمع الريش في العصف الشديد... أو هكذا:

وخبأ الفضول حبه بين نبضات قلبه وفي تعاريج الوريد، لكن حبه أبى ورفض إلا أن يعود إلى ضياعه من جديد – ولو عاد القارئ الكريم إلى رسالة الفضول التي بعث به إلى ألأستاذ / أحمد محمد النعمان – في باب عدن – لوجد بعض ما يفهم من تقارب بين هذا الضياع وذاك، وكذلك باستقراء القصيدة الموجهة للنعمان أيضاً وهو في سويسرا (جنيف) – وما قيمة الأيام القادمة أو التي مضت بعد هواك تنقص أو تزيد، فلقد أردت وكنت لي في العمر آخر ما أريد يا آخر الألحان في وتري وخاتمة النشيد، وهنا يتجلى لنا المزاج الغنائي والأنا شيدي:

يا آخر الأشواق
يا آخر الأوراق
يا آخر الإشراق .....

والفضول رأى أن صوته الجميل (أيوب) هو من سيوصل اللحن الحزين والرثاء الأليم، وقد تكون القصيدة مرثاة للشاعر والفنان أيضاً بحكم الغموض الشعري الذي يجعل المحلل للقصيدة أو الناقد الأدبي في زاوية رؤية معقدة وصعبة ولا يمكن الجزم أو التكهن بمن هو المقصود في هذه القصيدة الغنائية، وهي أغنية عذبه وحزينة، وتبعث على الشرود والتأمل في متغيرات الحياة،وللشاعر قصيدة رثاء أخرى يرثي بها أبن عمه الذي تم اغتياله في بيروت (٧٤م) وتحمل كماً هائلاً من الألم والجزع والحسرة والرومانسية، ولا أعتقد أن لهذه القصيدة التي بين أيدينا أي علاقة بأبن عمه، ولكن في القصيدة بعد جميل وهو الذي

من خلاله يخاطب الشاعر غيره ويقصد (حمّالة أوجه) لأسباب عديدة إنسانية وأدبية واجتماعية، فالإنسان يخاف الموت مهما كان شجاعاً، ومهما كان راغباً في الموت، لأن الموت تجربه إنسانية مريرة ولا رجعة لمن خاض في غماره تسوق الأقدار الإلهية أسبابه، ومهما ناشد المتألمون الموت بالقدوم فإنهم يظلون في حالة خوف وترقب دائم،وهلع كبير وإلى الآن ما زال علماء النفس في حالة عجز تام عن قول أي شيء يخص لحظات الموت وسكراته ،و مشاعر الإنسان الذي يخوض تلك التجربة.

وعندما أنطق الألم ابا القاسم الشابي فقال:

جَفَّ سحرُ الحياة يا قلبي الباكي فهَّيا نُجَرِّب الموت هيَّا

ولكن الشابي رغم عبقريته عجز عن نقل خبرته وتجربته التي خاضها مع الموت لأن ذلك من المستحيلات، لأنه عبقري أيضاً استطاع أن يجسد إحساسه بالرغبة في الموت ومن ثم جسد الموت وأنطق المعاناة، ولم يستطيع أن ينقل نتائج تجربته – وليس إحساسه – لأن ذلك من المستحيلات ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ومهما حاول علماء النفس نقل ومراقبة تفاعلات النفس الإنسانية في لحظات السكرات فإنهم سيعجزون لأنها لحظات خارج نطاق الحياة، وعلم الإنسان محصور في حدود الحياة ومن هنا يكون العجز.

وكما سبق القول عن خوف الإنسان من تلك اللحظة، وخوف الخطاب المباشر للذات بالرثاء، أثناء الحياة توجه الشاعر إلى مخاطبة الآخر الذي يمثل الذات المحبوبة،وخوف الإنسان من الموت قائم مهما نادى وناشد الموت بالقدوم، فحينما يموت شخص عزيز علينا فجأة فلا نصدق ما حدث فنقف في حالة ذهول كامل أمام حقيقة إنسانية من الموت قائم مهما نادى وناشد الموت بالقدوم، فحينما يموت شخص عزيز علينا فجأة فلا نصدق ما حدث فنقف في حالة ذهول كامل أمام حقيقة إنسانية لا ريب فيها.. ومن هنا ألتف الشاعر عبدالله عبد الوهاب نعمان على ذاته من طريق بعيد، رغم أنه عاد بعد ذلك إلى ذاته من طريق بعيد كذلك، وكل هذا الالتفاف هو خوف تلك اللحظة الرهيبة وساعة الرحيل، ومفارقة كل الأحبة، وهناك ظروف إنسانية تتمثل في محاولة تجنبه لإثارة نفوس الأهل والأقارب، وحرصه على عدم لفت إدراكهم إلى أنه يرثي نفسه، أما من الناحية الأدبية وهو أكثر الوجوه تعدداً يمكن أن نذهب من خلال التفسير النفسي للأدب مذاهب عديدة أولها ابتكار أسلوب قليل ونادر ولم يفعله غير قليل مثل مالك بن الريب، وهو يرثي نفسه بأروع ما يكون من أساليب ولغة الرثاء ...لكنه كان على مشارف الموت فعلاً – لاصابته في الحرب – بلدغة ثعبان سام ... وما أقل الشعراء الذين فعلوا ذلك!.

ولأن كل من قبله رثوا أنفسهم بطريقة مباشرة جداً لكن الفضول لديه فنان وصاحب صوت جميل ويؤدي الأغاني الحزينة بشكل رائع فلم يستطع الشاعر الصمود أمام رغبة رثاء ذاته عن طريق ذات أخرى، لذلك سرعان ما ترك النصف أو الجزء الثاني من قصيدته

الغنائية مفتوحة المشاعر ثنائية الحب والحزن بينه وبين فنانه المفضل، ونحن عندما نستمع لأيوب طارش،فإنه في هذه القصيدة يتفاعل ويتوجه توجهاً كاملاً نحو رثاء شاعره وأستاذه وكأن هذه القصيدة هي لهذه المهمة ويعلم أيوب أنه سيأخذ نصيبه يوماً ما من رثائه لأستاذة فتكون القصيدة لهما معاً.

وقافية القصيدة هي الدال التي تحمل التوجع والألم والحزن للفراق... فقصيدة المتنبي في هجاء كافور (داليه) الوجع والألم، رغم ما فيها من هجاء مقذع... إلاّ أنها في قمة الوجع من البعد الذي بينه وبين أحبابه، وكذلك قصيدة ابن الرومي التي يرثي فيها ابنه الذي مات (وكان واسطة العقد)، فقافية الدال هي قافية الوجع والألم والإحساس بتمزق الذات واقتراب الموت والشعور المؤلم.. والخوف وخشية تقدم العمر أو اليأس المصاحب لمرحلة أخيره من مراحل الحياة المتعبة، وفيها إحساس بفقدان الأمل نهائياً أو عودة الحب المستحيل، وعندما يبلغ الألم منتهاه أو قمته أما أن يكون الزهد أو أن يكون الفن على حد قول (نيتشه).

يا آخر الألحان في وتري وخاتمة النشيد
يا من رحلت إلى بعيد قصّر مسافات البعيد
فلربما عاد الهوى وعادك الله المعيد

فالإحساس بالنهاية في قوله ((يا آخر الألحان – يا آخر الأوراق – يا آخر الإشراق – يا آخر الأشواق – يا خاتمة النشيد))، ألحان من؟ ووتر من؟ ونشيد من؟ ألا يمثل الشاعر والفنان ذاتاً واحدة، وهاجساً واحداً، وروحاً واحدة؟ وهنا فن وشعر ووحدة الذات (قلبي العميد – تساقط في الجليد – وجه عيد).

وماذا بعد؟ وماذا قبل؟

أمّا بعد... فإن قصيدة (يا مَنْ رحلت إلى بعيد) هي واسطة العقد، والقاسم المشترك، واللحن البديع، والظمأ القلبي، والهم الوطني، والعشق للأرض، والفزع الروحي، والاطمئنان الإنساني... والغاية التي انتهى إليها قلب و وعقل الفضول و انتهت هي إليه، لأنها تربط بين نقيضين الهم الوطني، والظمأ العاطفي، أو الظمأ العاطفي والهم الوطني... لأن كليهما باب إلى الآخر، ونافذة على جدار مشترك بينهما، جداره القلب.... وماءوه دم القلب... فهل ننتقل الآن إلى باب هو جزء من شخصية الفضول ومن مزاجه الشعري، ومن صدمته الوطنية، ومن ظمأئه العاطفي لكننا حاولنا أن ننفذ من هذا إلى ذاك، لأن حب الوطن يبدأ من القلب حيث يجري مجرى الدم.... والظمأ العاطفي ليس مقصوراً على الفضول – لكن الفضول أظهره إلى الإدراك، وجعلنا نحس به، ولو قلبنا صفحات الأدب لخرجنا بثروة هائلة من هذا النوع من الأدب.. وما يجب إحضاره كمثال لتأكيد ما ذهبنا

إليه... هو الشاعر الأموي (ذو الرُّمه) الذي عاش في الصحراء القاحلة ... فقدم يوماً إلى الخليفة عبدالملك بن مروان، وكانت عينه تدمع أبداً – أي الخليفه –

((حدث أن ورد ذو الرُّمه على الخليفة عبدالملك بن مروان يمدحه فأنشأ يقول:

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ كأنَّه من كلىً مفريه سَربُ

.. فنهر الخليفة الشاعر قائلاً له: وما شأنك بهذا؟ وكأنه ظن أن الشاعر يوجه إليه سؤالاً شخصياً ينتظر عنه جواباً، فعاب النقاد القدامى عليه ذلك القول، فكان الظلم للشاعر كبيراً بهذا النقد، ولو بحثنا في ذلك القرار البعيد في نفسية ذو الرُّمة عن دلالة ذلك الرمز الذي أستخدمه (الكلى المفريه – وهي مزادات الماء البالية)، فذو الرُّمة شاعر عاش حياته في الصحراء وللصحراء، يجوب فلواتها ليلاً ونهاراً، ولعله قد حدث له ذات مره أن كان في جوف الصحراء وقد أستبد به العطش، وعندما هرع إلى قرابه يستسقيه وجد أن خوارزه قد فسدت، وأن الماء قد تسرَّب منها فلم يبقَ منه ما يبل ظمأه، ولم يشأ ذو الرمه – فيما نظن – أن يشبه عين الخليفة بمزادة الماء المفرية، وإلا لسكت على البيت الأول، ولكننا نجده يحدثنا – مناسقاً مع شعوره الباطن – عن قصة هذه الكلى المفريه فيقول في البيت التالي:

وفراء غرفيه أثأي خوارزها مشلشل ضيعته بينها الكُتبُ

فقصة الكلى المفرية في تاريخ ذي الرُّمة النفسي – إذا صح التعبير – شيء محفور، وليس مجرد صورة عقلية يرسمها الشاعر لعين الخليفة ففي تلك الحال من العطش، واللهفة إلى من يروي ظمأه، يخيل إليه أنه قد وصل إلى النبع، أو أن ركباً قافلاً في الصحراء قد أتاه بخبر من عند محبوبته ليروي ظمأه ويشفي غليله، وكان ذلك وهماً – فيما يبدو للشاعر.

أستحدث الركبَ عن أشياعهم خبراً أم راجعَ القلب من أطرابه طربُ؟

وإذن فقديماً أحس الشاعر الظمأ وعاناه في جوف الصحراء حين تسرَّب الماء من قرابه، و قديماً أحس الظمأ في صحراء الحب وعاناه حين اضاع أمله في أن تأتيه أخبار الحبيب، وبهذا يقوم الرابط بين صورة القراب التالف في البيت الأول والكلام عن الركب في البيت الذي يليه، هناك قفزة ولا شك، ولكن تفسيرها نفسياً – كما بينا – ليس بعسير.

فلم يأت ذو الرمة ليتهكم بالخليفة، بل جاء في الغالب – وفي نفسه أن الخليفة سيقضي له حاجته، وسُيغدق عليه من عطاياه، لقد نفذ ماء حياته في الصحراء (جوف الصحراء)، ونضب ماء قلبه في صحراء الحب، فهي أذن شكوى مره تلك التي أراد الشاعر التعبير عنها، وليست تهجماً على الخليفة أو فساد ذوق..))[1].

(١) التفسير النفسي للأدب – د.عزالدين إسماعيل ص ٩٢-٩٣ (بتصرف).

أما الفضول فهو طائر الصحراء صحراء الحياة وقسوة الحياة فهل خفف الحب من لوعته وظمأه وهو يناجي الطيور ويبثها شكواه:

طير مالك والبكاء خلّي البكاء لي أم شجى قلبك من محبوب غالي
... ما شجاني
بعد ما ربي ربط قلبه بقلبي كيف غدر بي؟ كيف ترك حبه وحُبي؟
... للشواني
أنا في يومي وأمسي مثل بكره كل عمري حب لا أنسى ولا أكره
... من نساني
من يبايعني بقلبي أنا بياع ششتري لجل أنسي الحب ذي ضاع
... قلب ثاني

فالفضول في يومه وأمسه الظامئ مثل (بكره) – الغد – وهو مجهول ولذلك فالأمس واليوم مجهول لديه، ولكنه معلوم بالحب الدائم، والحب الدائم لا يصحب إلا أصحاب النفوس التي حُرِمَتْ من الحب البكر في أحضان الأم والأب والأسرة ...

ولعلنا لا نذهب بعيداً.. وأحدهم يشكو من برودة مشاعره العاطفيه – وليس الجنسية – نحو المرأة.. فالحب لديه يكون أولا يكون، يأتي أو لا يأتي – فالأمر طبيعي وسيان إن حضر الحب أو غاب من المرأة وإلى المرأة، فسألته مباشرة إن كان قد عاش في أسرته بجوار أمه وأبيه فأجاب بأنه لم يفترق عن أمه وأبيه –أبداً – وحتى الآن ... فأجبناه بأن استقراره الأسري قد ولد لديه نوعاً من الإشباع العاطفي الذي يعيشه ... فأقتنع بالإجابة التي ظل طويلاً يبحث عنها، لما هو عليه من أرتواء عاطفي ... وعدم اهتمام بالمرأة.. أو الحب ...

وعندما بدأ تعامل الفضول مع الفنان // عبد الباسط عبسي من خلال أغنية (حُسْنك لعب بالعقول) وهي كلمات جاءت على وزن كلمات أخرى تقول:

شاجي معك وابتول ... نهجل نغني شويه
شاجي معك وابتول نذري الحبوب في الحقول... الخ[1]

فكتب الفضول بعد سماعه مباشرة (حسنك لعب بالعقول) التي تقول:

حسنك لعب بالعقول وانا مروِّح ضحيه عنَّك حديثي يطول فاسمع حديثي شويه
شلت ترابي السيول وراح زرعي عشيه وأنا معك في ذهول أمشي على حسن نيه
مدريش ماذا تقول.. عيونك البابليه وأسمع رنين الحجول مثل الأغاني الشجيه

(١) صحيفة الجمهورية – العدد رقم (١٠٤٦٧).

وحليتك عقد لـــول وقامتـــك يافعيـــه وتحت نحـــرك حمـــول فواكـــه مـــستويه
تبقى بكلّ الفصول ملآن صدرك طريـــه هات الشهود العدول شاقول آخر وصيه
شـــــاموت ســـــاكت خجـــــول وافـــــوت مـــــن غـــــير ديّـــــه

ورغم التوظيف الممتاز للألفاظ في هذه القصيدة التي تنتمي إلى (منهوك المتقـــارب) وزناً إلا أن التجربة الشعرية والصدق الشعوري فيها غير قوي، وهي الوحيدة، بين أشعار الفضول كاملة ... وقد ذكر أن الفضول لم يلتق بعبد الباسط آنذاك ولا يعرفه وهو أمر مهم بالنسبة للشاعر – لكن بعد أن عرف الفضول إمكانيات عبد الباسط نفحه بـــــ(يـــا حب يا أرضي ويا سمائي) – الرائعه.

وسنناقش قضية كتابة الفضول لأشعاره لاحقاً.

فقد كان شاعراً يدرك التباين الفني والتطور الشعري والجدة الشعرية – (ولا نقول الحداثة) – والتفاعل مع العصر بشكل صحيح.

سؤال الأسئلة:

قد نضع سؤالاً كبيراً هنا فحواه ... إن الفضول توفي عن عمر يناهز (خمساً وســـتين عاماً) ... فكيف استطاع الرجل وهو في مثل هذا العمر أن ينظم تلك الروائع الغنائية التي تعبر عن حب عميق وقلب لا يذبل؟! والإجابة على هذا السؤال تقتضي العودة إلى مرحلة بداية كتابة القصائد الغنائية حيث التقى الفضول بأيوب طارش في حدود عـــام ١٩٦٧م، وكان قد كتب عدداً من القصائد الغنائية – كما ذكرنا – منها مدارب الـــسيل، طـــاب البلس – وادي الضباب ... وكان عمره آنذاك (٤٥ عاماً – ٤٧عاماً).

والحقيقة أن الظمأ العاطفي الذي أصاب قلب الفضول نتيجة الحياة التي عاشـــها – وكما أشرنا إلى ذلك في بداية باب الظمأ العاطفي وخلاله، وكما سنشير إلى ذلك في فلسفة الفضول للحب – ولعلّ القارئ سيجد صوراً شخصية للفضول في ســـنة وفاتـــه كـــان التقاطها، ويبدو عليه في ريعان الشباب، فقد يتخيل بعض الناس أن الفضول في الخامـــسة والستين من عمره كان بلحية كبيرة ومشدة ترتفع عدداً من الأدوار، والحقيقة غير ذلك.. كان الرجل يمتلك شباباً يحسد عليه ... وننبه إلى أن الفراغ العاطفي الذي يجتاح قلـــب الإنسان يجعله في حالة رغبه عارمة ومستديمة بأن يحب ويهوى ويتغزل متى ما كان شـــاعراً موهوباً وليس للعمر في ذلك صلة إطلاقاً، وأيضاً فإن الحياة الغنائية التي عاشها الفـــضول بصحبة أيوب طارش كانت دافعاً له أيضاً للاستمرار في الحب وكتابة ما ينتج عن الحب من مشاعر وفن ويعرف الكثير من الناس المثقفين عامة إن الشاعر في حاجة دائمة إلى ملهمـــة تدفعه إلى كتابة ما يوحي له ذلك الجمال وتلك الأنوثة ...، والظامئ عاطفياً يعتقد أن كل

امرأة تنال إعجابه قد تشفي ظمأه وتروي غليله.. وقد يجد القارئ اجابه شافية في بـــاب فلسفة الحب عند الفضول، ولكن بعد أن يسمع (قلبي يسائلني عليك أين الحب) و(هيمان حتى لو سكنت سحاب) و(مدارب السيل) مع ملاحظة أن الشاعر كتب مدارب السيل في حدود عام (٦٥م) وكتب هيمان بعد أكثر من (١٤) عاماً.. والآن:

مدريش كيف قلبك رضي يـــروى وقلـــبي مـــا رضـــيش
أشرب وأشرب من هوى غـــيرك ولكـــن مـــا رتـــويش

وهناك ملاحظة قد تفسر لنا العلاقة بين الشيخوخة والحب عند الفضول لو نظرنا إلى الشاعر توماس هاردي الروائي الذي أبدع شعراً عاطفياً في آخر سنوات حياته.

الباب الخامس

الهـــم الوطنـــي؟

كم شهيداً مـــن ثـــرى قـــبر يُطـــلُّ ليرى ما قـــد ســـقى بالـــدَّم غرســـه
ويـــرى جـــيلاً رشـــيداً لا يـــضلُّ للفداء الـــضخم قـــد هيـــأ نفـــسه
ويرى الهامات منَّـــا كيـــف تعلـــو في ضُحى اليوم الذي أطلـــع شمـــسه
رايـــــــــــتي .... رايـــــــــــتي
يا نسيجاً حكته مـــن كـــلِّ شمـــس أخلـــدي خافقـــة في كـــلِّ قمَّـــة

****** ******

كـــــم تـــــساءلت ولم ألـــــقَ جوابـــــا
أيـــن عـــن أرضـــي وجـــهُ الـــصدق غابـــا
أيُّ أرض هاذه لم تبق بها الأثام للخـــير حـــسابا
كُلمَّـــا قلـــت انتـــهى الـــسوء عليهـــا
تبـــــدَّى هـــــرمُ الـــــسوء شـــــبابا
إنَّهـــــا أرضـــــي، وقـــــد جَغرَفهـــــا
حبُّهـــــا فيَّ جبـــــالاً ورحابـــــا..(١)

من أين نبدأ .... من السؤال أم من الجواب؟

من أين ... وإلى أين؟

أما من أين ... فلا حدود لها منها، لكننا قد كُنَّا فيها، أو لعلنا كُنَّا فيها، فما أصعب أن نقول أو نذكر أو نكتب ... أجابه من أين!؟

وما أسرع ما مررنا أو جئنا منها وأضحينا في غير من أين، ولأن مـــن أيـــن مـــاضٍ مضى... كما مضت أيام لا حصر لها... بما فيها هذا الألمعي:

صاحبي مات فماتـــت كلمـــاتي وخبا ومضى فناحـــب أُغنيـــاتي

أما إلى أين.... فلا حدود لها ولا سبيل إليها... لأن إلى أين ... آت سوف يرحل، أو نرحل قبله نحن، و ما تدري نفس ماذا تكسبُ غداً، و ما تـــدري نفـــس بـــأي أرض تموت... لكن من أين جئنا قارئين؟ ومن سنقرأ؟

---

(١) من قصيدة ركاب المجانين.

لقد ظمئنا مع الفضول وجئنا من قلبه وحبه لنرتوي بحبه للوطن اليمني الـذي مـا كتب في حبه أحد كما كتب الفضول، ولا وصف حبه لوطنه كما وصفه الفـضول، ولا تغنى بهذا الحب كما تغنى هو بأشعاره وأيوب بألحانه، وكأن الكلمة منها قُدَّت من قلـب معجون بعسل الشعور والإحساس... لأن لحب الوطن معنى فوق المعاني، ومذاق لا أشهى ولا أروى، وحلاوة يحُسُّها المحبُّ – لوطنه – في قلبه، لأن حُبَّ الوطن من الإيمان، ولـذة الأيمان في القلب، ولذلك فحب الوطن والإيمان من ساكني القلب ....

هذه الأرض التي سرنا على صهوات العـزِّ فيهـا وأتينـا
وملكنـا فوقهـا أقـدارنا ونواصـيها فـشئنا وأبينـا
أبداً لن تنتـهي فيهـا انتـصاراتنا إلا إذا نحـن انتـهينا

والهم الوطني عند الفضول ليس هماً بيروقراطياً أو ناتجاً عن هيمنة و ادعاء، أو تقولاً وتزييفاً، أ ورقصاً على الورق.

إنما الهم الوطني عند الفضول قد أمتزج بالقلب وشب مع الأيام و الآلام، ونما بالصبر و المكابرة والمعاناة، ونضج بالسنين والرزايا، حتى خرج عن طوق الحب الـروتيني والهـم الثانوي... إلى طوق عنيف من الوطنية المتشحة بالنور والنار، بالضوء والـضياء، بأشـعة الشمس وخيوط الفجر البيضاء منذ فجر عمره، وصبا حياته... لأنه ابن الريف الـيمني النقي الصافي الذي هو في روحه أصفى من شعاع السيوف، وكأن الوطن النقي كعبة مـن الحسن والحرية ولذلك شيَّد لهذا الوطن (الحب) أبراج لا يأتي عليها كسوف لأن راية وطنه مصنوعة ومنسوجة من أشعة الشمس...

رايـــــــــــتي... رايـــــــــــتي
يـــا نـــسيجاً حكتـــه مـــن كـــلِّ شمـــس
أخلـــــدي خافقـــــة في كـــــلِّ قمَّـــــة

والفضول وعي على الدنيا وهي في صورة كئيبة من عبودية وظلام النفوس وجهـل العقول، فأخذ قسطاً من المعرفة كانت خاصة بأبناء الأسر ذات المكانة الاجتماعية المرموقة وكان الفضول من أولئك الأبناء النابهين – كما قدمنا – للشيخ عبد الوهـاب نعمـان، وشاءت الأقدار أن يجيء الفضول إلى الدنيا، وتتفتح عيناه على وضع بدأ يتململ، وهاجس بدأت تمل من ركام الجهل والظلام والتخلف، وكان الفضول بحكم انتمائه إلى تلك الأسرة التي حددت موقفها من نظام الإمامة، فتشرب الفضول هذا الموقف، وحملت بين جنبيه وفي جوانحه... حتى حطت به الأقدار في تعز ضمن الشباب المستنير الذين تجمعوا آنذاك أمثال (الأستاذ نعمان الزبيري والفسيل ولموشكي والحضراني والشامي) وغيرهم وقد سـاهم في النشاط الأدبي القائم هناك إلى جانب قيامه بالتدريس بالمدرسة الأحمدية بتعز في الفترة مابين

(١٩٤١م – ١٩٤٤م) وقد أنفض ذلك التجمع من حول ولي العهد بعد قولته المشهورة: ((والله لأخضبن سيفي هذا بدماء العصريين حتى ألقي الله وهو راضٍ عني)) فأجتاحت البلاد آنذاك موجة من الأعتقالات شملت الكثيرين، وتم تجديد الأعتقال للشيخ عبدالوهاب نعمان (الصورة المثالية التي ستظل نابضة حية في ضمير الفضول)، وأقتيدوا بالسلاسل المربوطة من عنق إلى عنق حتى سجن حجة ... فودعهم الفضول بقصيدة يقول مطلعها:

سيروا فما الأغلال في أعناقكم إلا لمجدكم العظيم شعارُ

ثم هروبه إلى عدن – كما ذكرنا ذلك وفصلناه في باب وادي الضباب وباب عدن – والتقائه بأستاذيه (الزبيري والموشكي) وقد أقسم معهما ذلك القسم الشهير على مواصلة النضال حتى نيل الحرية:

فأنشد الزبيري:

بالله بالدين بالأوطانِ لَنُحَطِّمَنَّ معاقل الطغيانِ

وأنشد الموشكي:

ستطير أرواحنا إلى أوج العُلى أولاً فأرواحنا إلى رضوانِ

وأنشد الفضول:

ستعانقُ الفوزَ المبينَ نفوسُنا حتماً كما يتعانق الأخوان

فأجتمع الثلاثة على حب الوطن وتفانوا في حبهم وكما توحدوا في القوافي، والتعبير عن الأسلوب الشعري الذي يميز كل واحد منهما بلونه (كلاسيكية الزبيري الثورية وأجراسه الشعرية القوية – وصوفية وسخرية وروحانية الموشكي وألفاظه الرزينة.. ورومانسية الفضول الكلاسيكية المتأثرة بمدرسة الزبيري والمعبرة عن غنائيته المبكرة و المتحدثة عن مزاجه الغنائي العميق) فسقط الموشكي في ثورة ١٩٤٨م الدستورية، وضرَّجت الدماء أرض الوطن من جسد أبي الأحرار محمد محمود الزبيري – الشهيد المجاهد.. في جبال برط يوم الأول من إبريل ١٩٦٥م، وما رآه الزبيري ودفع حياته ثمناً له أدمى فؤاد وأبكى قلبَ الفضول الذي ما كان له أن يتخيل ما ستصل إليه الأمور،وما ستبديه الأيام ... ولكن ما الذي أبدته وأظهرته الأيام؟!

إن ما أبدته الأيام عصي على النسيان، ضارب في أعماق النفس التي نمت على التضحية من أجل الوطن.. وحتى ندرك مفتاح هم الفضول الوطني نثبت للقراء الخطاب الممتاز والصادق الروح ومن قلب الشهيد علي عبد المغني:

((أعزائي: اسمحوا لي أن أكون صريحاً معكم وموجزاً ما استطعت حديثي إليكم ما أحسب ثورة في الدنيا توفرت لها شروط شرعية قيامها وضواغط حتمية انطلاقها كثورة سبتمبر التي انتقلت باليمن من عتمات القرون إلى مشارف الصباح، غير أن اختلافاً كبيراً

في مفردتي الثورة والجمهورية: فهمنا لكلتيهما وتعاملنا معهما يشكل بحق محور المحن ومصدر العثار طوال خمسة وثلاثين عاماً فلقد نجحنا في الإعـــداد للثـــورة، وفـــشلنا في الإعـــداد للجمهورية بمعنى أننا، وأنا أعني (كل الشعب) هنا، التقينا على تحديد الظالم والتخلص منه، ولكننا اختلفنا في تحديد العادل الذي يمحوا مواجعنا وينشر الحق، والحق فينا بتعبير آخـــر، إن الثورة كانت انفجاراً أنضجه معاناة القرون والأجيال، أما الجمهورية فكانـــت شـــعاراً رفعته النخبة وللأسف البالغ لم تحققه التجربة، وهذه هي محنة الشعارات في كـــل العـــالم العربي، وكان حالنا مع الجمهورية حين ندعي قيامنا بها وإيجادنا لها كحال أولئك الذين قص خبرهم القرآن الكريم ((قالت الأعراب آمنا قُل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)).

يكفيكم أيها الأخوة لتذكروا ما أصاب الجمهورية صبيحة إعلانها من تعاثر القـــوى حولها، وحرص كل فئة على احتكارها، إنني خرجتُ نهاية أكتوبر سنة ١٩٦٢م للدفاع عن الجمهورية التي يوشك أن يخطفها أعداؤها بينما الحاكمون الثوار في القصر الجمهـــوري – آنذاك – مشغولون بتقاسم المكسب الجمهوري فمن ثم ذهبوا يعيدون تشكيلات مجلـــس قيادة الثورة، ومجلس الرئاسة، ومجلس الوزراء طبقاً لأهواء الأقوياء ....

هذا وكلكم يعرف أن اليمن منذ اليوم التالي لصبيحة سبتمبر أصبح محل اســـتقطاب مخيف محلياً لاختلاف الألوان الحزبية المصطرعة، و إقليميا موقف الذين فتحوا أعينهم على خطورة عمومية وانتشار الثورة، ومن جهة أخرى حرص مصر على أن تجعل من يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م في اليمن ضماد لجراحها من انفصالية ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م في ســـوريا، وعالمياً بين الإتحاد السوفيتي (سابقاً) والولايات المتحدة الأمريكية، وقد حصل كل واحـــد منهما على موطئ قدم في اليمن، هذا الاستقطاب جعلنا طوال الخمسة والثلاثين عامـــاً في لهاث لا يسمح لنا بالتقاط الأنفاس ومراجعة المسار ووضع المشروع الثقافي التنموي العام، ورغم أن مؤتمري عمران وخمر حرصا على تحقيق شيء من ذلك إلا أن الرياح العاتية التي كان الأعداء ولا يزالون يثيرونها داخلياً وخارجياً حالت بين الشعب ومراجعـــة حاضـــرة واستشراف مستقبله ... وكانت عدن ملتقى الدنيا وصارت مأوى كل رمـــوز الثقافـــة اليمنية، فأصطدم الأحرار مع القبوريين القاعدين والتراثيين الناهضين و الحـــداثيين بكـــل سماتهم من قوميين وناصريين وبعثيين ،وماركسيين ورابطيين – وغيرهم[1].

إذاً كانت أحداث ١٩٤٨م ثم أحداث ١٩٥٥م ثم أحداث ثورة سبتمبر ١٩٦٢م ثم ١٤ أكتوبر ١٩٦٣م، ثم أحداث ما بعد ثورة ٢٦ سبتمبر وحتى حصار السبعين واندحار الأعداء عند صنعاء ثم أحداث أغسطس، وهناك رحيـــل الاســـتعمار يـــوم ٣٠ نـــوفمبر

(١) عبدالرحمن طيب بعكر – الصحوة (شهادة بطل ثورة سبتمبر / العدد ٦١٧/٥/٣/٩٨م.

١٩٦٧م، ثم انقلاب ١٩٦٩م على قحطان الشعبي، وبدء تطبيق النظام الاشتراكي الذي دشن عهده بالتأميم / وانقلاب الارياني عبدالرحمن على عبدالله السلال .... وازدياد الفرقة والتشطير بين صنعاء وعدن باختلاف الأنظمة فكراً وولاءً واتجاهاً والحروب التي قامت بين النظامين عامي (٧٩،٧٢) وما أفرزته من آلام بين أبناء الشعب الواحد وحرب حزيران ١٩٦٧م مع الأعداء وقبل ذلك نكبة فلسطين ونكبة الفضول بأبيه أيضاً وبكل الثورة الدستورية، وبالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣م وانتصارات العرب، ثم قيام الحركة التصحيحة عام ١٩٧٤م في صنعاء وأحداث كثيرة عاش الفضول يتجرع مرارتها بإحساسه المرهف وحاسته الشعرية ورادار شعوره وفكره المتوقد، وسرعة بديهته وحضور مفرداته اللغوية التي يعبر بها عن خوالج ذاته وانتمائه الوطني ومد جوانحه العربية كإحساس قومي وانتماء للأمة.. وكان مصرع الزبيري، ورحيل النعمان إلى جنيف واعتزاله لميدان الحياة من مؤرقات قلب وعقل الفضول..

وحتى لا نكون كضاربي الرمل والسحرة والكهنة وحتى لا نقول ما لا يقال مالا يقصده الفضول... ندعو القارئ الكريم إلى فتح ملف الهم الوطني الذي جعله الفضول قضيته الكبيرة، لان الكثير من النقاد الباحثين يحاولون – جهلاً أو غفلة – حصر الفضول في ميدان الشعر الغنائي العاطفي، الذي بدأه عام ٦٧م مع أيوب طارش ... ويحاولون الاكتفاء بالأناشيد الوطنية التي نظمها الفضول في هذه الفترة للتدليل على اهتمامه الجانبي بالقضايا الوطنية ... وقضية الإنسان والوطن ويحاول الكثيرون أيضاً اختزال حياة الفضول بالإشارة إلى أعماله الصحفية من خلال صحيفة الفضول خدمة لقضايا الوطن، وإلى بعض أشعاره الساخرة البسيطة في التعبير والتي كان يوجهها إلى البسطاء من الناس، ثم يخلصون إلى ربطه بلقائه مع أيوب طارش و اتخاذه للأغنية العاطفية طريقاً سار في دربه حتى لقى ربه – مع الإشارة الخفيفة و اللمحة الخاطفة لتولي الفضول لوزارة الإعلام لفترة وجيزة كانت محل سخريته.

ثم التأكيد على اقتناع الفضول بما مضى من عمله وماضيه الوطني بقوله: (يجب علينا أن نعترف وبدون مكابرة بأن دورنا انتهى)، فأخذ الفراصون ومنتهزو الفرص – هذه العبارة فألغو أي صله بين الفضول وبين الوطن و الأرض والإنسان والهم الوطني والهم العربي – كأمة عربية واحدة – والحقيقة التي يجب بسطها وبحثها أن الفضول لم يخلد إلى حب المرأة كما خلد إليه العذريون الذين إذا أحبوا ماتوا ... بل إنه جعل المرأة في الكثير من قصائده رمزاً للوطن والوحدة والأرض والإنسان اليمني الباحث عن الحق والخير والجمال والحرية والتي تتضوع مع نسيم وادي الضباب الأنقى من النقاء، ومع روائح الفل الذي يملأ أنف الزمان والمكان من السوق الطويل والزعفران في عدن الحرية التي في رائحة التاريخ والحضارة اليمنية سبأ – ومعين وحمير وشبام وظفار وحضارة الإسلام، حضارة وحرية ونقاوة قلوب اليمانيين الأرق قلوباً والألين أفئدة ... وما حب المرأة إلا حباً للوطن

الذي نقيم فوق أرضه ونستظل تحت سمائه، ولكن إحقاقاً للحق فإن الفضول رغبة منه ووفاءً لذلك العهد الذي أبرمه مع الأستاذين المجاهدين الشهيدين (محمد محمود الزبيري وزيد الموشكي)، ولأن الفوز المبين لا تعانقه إلا النفوس النبيلة الطاهرة التي بنقاء أشعة الشمس وقطرات المطر، فإن الفضول ترك لموهبته الشعرية أن تعبر عن هوى الوطن للناس الذين أحب لهم أن يرضعوا الوطنية وحب الأرض والإخلاص للحرية والوحدة ... وهذا جانب يشهد له به الأعداء قبل الأصدقاء، ولكن الفضول ظل صحاب هم وطني لا يبرح خياله ووجدانه ومواجعه الوطنية، فنظم في ذلك الهم العنيف الذي ظل يتجرعه بمرارة وغصة قصائد في منتهى الروعة والنبوغ الشعري والأدبي والسياسي والفكري ... وهذه القصائد بما فيها من أوجاع وآلام ظلت حبيسة أوراقه الخاصة وهي لسان حال موهبة مكتملة الأركان والبناء والأسس والرؤى، ولا نبالغ إذا ما قلنا أنها تفوق ما نظمه فحول الشعراء أمثال نزار قباني أو أحمد مطر ... أو غيرهم، ولكن الحظوظ والاعلام وغير ذلك عتم أو صنع حاجزاً رهيباً من العزلة والظلام بين هذه القصائد وبين أن ترى النور ويقرأوها الناس ويتدارسها النقاد والباحثون ... وهذه القصائد تميزت بالنفس الشعري الطويل والمعمارية الشعرية التي قامت على العمودية العروضية والقافية الواحدة ... و .... و..... الخ.

صدرت هذه القصائد في ديوان تحت اسم (الفيروزه)[1] والفيروزه إحدى قصائد الديوان وصدر عام ١٩٨٦م وقد أثبتناها في الأبواب الأولى.

وقد كتبها المقالح حسب بنائها العمودي وهو عكس ما كتبت عليه في الديوان – وقد ذكر / عبدالكريم عبدالله عبدالوهاب نعمان – انه أثبت القصائد حسب الطريقة التي كتبها فيها الفضول، أقرب إلى شعر التفعيلة ورجح أن الشاعر – أباه – كتبها بطريقة القائيه. وأنه كان كثير التنقيح وإعادة النظر في هذه القصائد وهي في الأصل عمودية المعمار وهي بالترتيب (الفيروزه – ركاب المجانيين – معبد الأوثان – الخوازيق – غناء للوحدة – عاشقو المجد – هدية الله – عرباً كنا – أُغنيات الشمس – وثيقة الشمس – في ذكرى ١٩٤٨م – النواميس – صانعو الأحزان) وهي كما نرى (١٣) قصيدة وعدد أبياتها أيضاً بالترتيب (والعمودي) في حدود (٤٦-٤٩-٣١-٩-٤٣-٣٤-٥٤-٥٨-٢٤-٧١-٥٠-٣٦) أي في ٥٥٢ بيتاً – عمودياً– نابضة بالروعة التي ليس لها حدود.

وما يجب لفت النظر إليه أن الديوان يعبر عن جهد فردي قام به أحد أبناء الشاعر، وخرج الديوان إلى الأسواق دون علم أحد أو أي وسيلة من وسائل وأجهزة الإعلام، فلقي الديوان التجاهل الرسمي والخاص، الرسمي لأنه لم يفهم [2]– على ما يبدو – والخاص لأن

(١) الفيروزه اسم ديوان وكان الشاعر قد سمعته بصوته لقصيدة الفيزوزه يسميها دموع العندليب.
(٢) لأنه لم يفهم ولم يناسب مزاج السلطة على ما يبدو.

الناس بانتظار صدور ديوان يضم أشعار الفضول الغنائية المشهورة والتي عرفه الناس من خلالها، وكذلك قابل النقاد هذا الديوان الأول بتجاهل كبير لأسباب كثيرة [١]أو أنه حظ الفضول السيئ، ولم يتناول هذا الديوان غير قليل أهمهم عبدالعزيز المقالح الذي تسرع في إصدار حكم الإعدام على المولود الأول للفضول (الفيروزه) بقوله الشهير بأن الفيروزه هو الاختيار الذي ظلم الفضول ... ولا نجزم بسوء النية فكان القارئ ينظر إلى الديوان على رفوف المكتبات فيتذكر فجأة عبارة المقالح القاتلة فينصرف عن اقتناء الديوان أو حتى تقليب أوراقه. وللحقيقة فإن الديوان يتميز بعمقه البعيد الأغوار والذي يصعب معه استنطاق القصائد التي فيه من القارئ العادي أ والقليل الثقافة ... وكأنه كتب للخاصة من المثقفين، ومع الآسف البالغ، هولاء بخلوا باستنطاقه للآخرين، أو أنهم عجزوا عن استنطاقه، لأن الحداثة أغرقتهم في طلاسمها وأوهامهم ...

وفي نفس الوقت الذي فاجأنا المقالح فيه بحكم الإعدام السابق ضد ديوان الفيروزه.. نجده ينشر قصيدة (الفيروزه) في كتابه السالف الذكر ويستخرج الصور والمعاني الجديدة والمبتكرة التي في القصيدة ... ويبدي إعجابه المذهل بتلك الصور.

وهذا تناقض أكاديمي أساء للفضول وهي اساءة لا تصل إلى تلك التي تمثلت في تظليل الدكتور عزالدين إسماعيل حيث تم تقديم أشعار لأناس لا يرقون إلى مكانة الفضول الوطنية والشعرية ولا إلى موهبته.. ضمن إضاءة لطريق الدكتور عزالدين إسماعيل، ليستعين بتلك النماذج على دراسة الشعر اليمني المعاصر والذي خرج بعنوان الشعر اليمني المعاصر الرؤية والفن وفيه بحث كامل عن شعر الرفض والتململ والايقاظ والمواجهة والثورة، والتبشير بها ومعاصرتها حيث خلا الكتاب من ذكر بيت شعري للفضول أو حتى مجرد التعرض لذكر أسمه رغم أن الفضول يمثل جيل الزبيري والموشكي وهو من جيل البردوني أيضاً إلا يقودنا هذا إلى التعاطف مع موهبة بهذا الحجم، والأستنكار للتجاهل الأكاديمي تجاهه.. ومن هو المسؤول الأكاديمي في بلادنا آنذاك؟ ومن هو صديق الدكتور عزالدين إسماعيل[٢]؟!

ويبدو أن الفضول كان لديه إحساس كبير بما يحيط به من حاقدين وحاسدين، لأن موهبته الفذة كفيلة بجلب عداوات لا حصر لها من أنداده، ولقد تضمن ديوانه الفيروزه كثيراً من الأبيات التي تتحدث عن هذا الإحساس و الإدراك المبكر لما يلقاه وسيلقاه من تجاهل.

---

(١) كثر من المثقفين للأسف لم يتعمقوا في قراءة الديوان ولم يستوعبوه لعمقه الذي يتطلب المحاولة – حتى الصفوة – ولكنهم سرعان ما يصدرون أحكامهم البعيدة عن الدقة.

(٢) عرفنا فيما بعد أن عبدالله البردوني هو الذي قدم نماذج للدكتور عزالدين إسماعيل وأستبعد الفضول لأسباب مجهولة رغم أنه ثالث الزبيري و الموشكي وكان كتاب عزالدين الشعر اليمني المعاصر – الرؤية والفن .

وللفضول بعض القصائد التي تفيض بالألم والمعاناة والمرارة من تنكر المتنكرين لشهداء الثورة والتضحيات الغاليات.... وتتحدث بحسرة عن موقفه وهي قصائد متناثرة أهمها قصيدة أرسل بها وكتبها إلى أستاذه أحمد محمد النعمان المقيم في جنيف بسويسرا وهي قصيدة تكاد تقول: أنا الفضول فاقرأوني – اقرأوني فأنا الفضول، ولقد أثبتناها في باب عدن... وهي تتحدث عن وحدة السفر الموحش في درب مجهول ومصنوع من الجليد والسير ليلاً وهو درب يلقي فيه بالأماني و الأمنيات الملهوفة والمصير الذي ما زال وليداً، وذلك كرب عظيم يحمله من عاش حاملاً لهموم الناس،ويخاطب الفضول الأستاذ قائلاً له يا أبانا إلى أين تمشي وتمضي وتذهب وتتركنا بلا أب، فأنت عقلنا ونهانا وأنت فيك الضوء الذي يبدد ليلنا الشديد الظلمة، فما سرنا إلى ضلال إلا كنت العقل الذي يضئ لنا الطريق وتتوزع الأبيات ما بين الخطاب والنداء، فا الأستاذ وقار الناس في الزلازل والمحن يعلمهم الخطى الرشيد، وإذا تقادم وبلي عقل الأمة اعطيتها عقلاً جديداً، ولكن الأستاذ قد ضاق بنا ذرعاً وصبراً فانتعل الهرب و أيرع الخطى وقد رضي وهو الصقر – بالأحراش والقفار بدلاً من السماوات وقد ترك القمة تؤوي حجلاً وقطا لتبني لها وكراً، وأنه الأحق بالبقاء في القمة فالناس لن يضئهم إلا رجلٌ مشرق في قلبه يحمل فجراً فالأستاذ النعمان أعطى للشعب ضحى عمره وأعلى شأنه وأنبت له أمجاده في حقول الشمس ورداً وأقاحا وذكراً طيباً .

وينادي الشاعر أستاذه وابن عمه النعمان ويطلب منه العودة إلى الفجر الذي أطلعه من ظلمات التاريخ، والعودة إلى تقديم النصح والإرشاد للشعب ولقادته.

(لن يكون العمر في محسوبها نحن نعطيك من الأعمار عمرا)

والحقيقة أن هذه القصيدة كاملة التعبير عما عاناه الفضول في العشرين عاماً الأخيرة من حياته، ويؤكد هذه المعاني الواردة في القصيدة رسالة أرسلها الفضول إلى الأستاذ النعمان أيضاً ... وفيها يطالبه بالعودة إلى الوطن ويصفه بالضياع والضائع الكبير والضائع الثمين والهارب من الماضي والحاضر، ويذكره بأنه صانع التاريخ اليمني وصانع ثورة سبتمبر، ويذكره بوزنه و يطالبه بالعودة مراراً ليرى وزنه وحجمه في وطنه، ويصف الفضول ضياع الأستاذ بالضياع الكبير – الكبير – وبالعودة إلىباب عدن وقراءة الرسالة التي أثبتناها هناك – تتضح الرؤية أكثر – لنبدأ السير على درب الهم الوطني للفضول..بعد أن نستريح قليلاً ... في أفياء سماوات الوطن ...

يا سماوات بلادي باركينا
وهبينا كل رشد ودعينا
نجعل الحق على الأرض مكينا

أرضنا نحـــن غـــسلنا وجههـــا[١] وكـــسونا أفقهـــا صـــبحاً مبينـــا
وجعلنـــــا في ذراهـــــا عزهـــــا لا يرى فـــوق ثراهـــا مـــستكينا
****** ******

يا رحـــاب المجـــد مـــا روَّضـــنا فيك أو مـــسكننا طـــول عنـــاء
هـــاك منَّـــا قـــسماً يـــا أرضـــنا خالـــداً في شَّـــدةٍ أو في رخـــاءِ
****** ******

لـــن يلاقـــي البغـــيُ إلا رفـــضنا رفض جبَّـــار شـــريف الكبريـــاء
هاهنـــا نحـــن وقـــد وَحَّـــدنا وطـــنٌ أصـــبحَ منَّـــا أثْمَنَـــا
****** ******

وغـــدَتْ أصـــقاعُه معبـــدنا لم ولـــن نعبـــدَ فيهـــا وثنـــا
أو يـــرى نخـــاسُ أرضٍ إنَّنـــا نأخـــذ الـــدُّنيا ونعطـــي اليَمَنـــا
****** ******

كـــم ســـلكنا ومـــشينا طُرُقـــاً تفـــنى بهـــا روح الفنـــاء
ورفـــــضنا وأبينـــــا ركعة الهـــون وضُـــعف الانحنـــاءِ
****** ******

نحـــنُ رفـــض رافـــض إنْ مَـــسَّنا ظلـــمُ ظـــلاَّمٍ بعيـــداً أو قريبـــا
كـــم رفَـــضنا ولبـــسنا رفـــضنا حُلـــلاً حمـــراً وإصـــرارا عجيبـــا
نحـــنُ رفـــض أبـــداً لكنَّنـــا نعـــشق الحـــقَّ جلـــيلاً ومهيبـــا
أربعينياتنـــا فيهـــا رفـــضنا وضـــحى ســـبتمبر فيـــه رفـــضنا
وسنمـــضي رافـــضين كـــلَّ مَـــنْ جـــاء لكـــي يُـــدجي ضُـــحانا
وسنمـــضي داحـــضين كـــل أثم شـــاء للنـــاسُ الهوانـــا
وسنمـــضي فارضـــين صـــدقنا حتَّـــى يُـــرى الحـــقُّ مُـــصانا
هذه الأرض الـــتي ســـرنا علـــى صـــهوات العـــزِّ فيهـــا وأتينـــا
وملكنـــا فوقهـــا أقـــدارنا ونواصـــيها فـــشئنا وأبينـــا
أبداً لـــن تنتـــهي فيهـــا انتـــصار اتنـــا إلا إذا نحـــن انتـــهينا[٢]

أي نداء، وأي تماه وطني، أي روح، وأي قلب، أي حب، وأي أرض، وأي وطـــن وأي إنسانٍ أحب وطنه كل هذا الحب، وتماهي كل هذا التماهي في حب الوطن، وأشتعل

(١) أبدل الشاعر كلمة غسلنا بكلمة أضأنا وجهها، وقال أيوب انه لم يتمكن من تغييرهـــا يومـــذاك بـــسبب الوقت.

(٢) مخطوطة وصحيفة الجمهورية.

بالنداء والدعاء، وأبتهل بعشق الأرض، وتضرع للسماوات الـتي لا حـدود لهـا، ولا انتهاء... طالباً البركة للناس جميعاً كل أبناء الوطن بلا استثناء، آمـلاً المباركـة والخـير والتهاني والإنماء والتطور والازدهار لكل بلاد اليمن، راجياً، راغباً، متفائلاً ... بالرشـد والرشاد و الصلاح، والسداد والصواب، للبلاد والعباد.. لأن الرشد والوعي عماد التقدم وأدراك أسرار الحياة بكل ما تزخر به الحياة من تناقضات أبدية فبالرشد يجعل الناس الحـق على أرضهم مكيناً والإنسان هو الذي يدفع ثمن هذه المثل والقيم بالتـضحيات والـدماء الزكية والطاهرة، فيغسل الثائر ذلك الوجه الجميل، الذي شابه ما يشوبه الجمال من عبث وظلم واستبداد واستعباد واستبلاد للمشاعر والإنسان وخيرات الأرض فبتلك التضحيات غسلت المظالم وكسيت الأرض وأفقها – شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً – صبحاً مبينا، فأطار الصبح والنوم والظلم من وجه وعيون الأرض التي تتفيأ ظلال تلك السماوات المباركة.

فلم يسبق لشاعر من شعراء الدنيا من ألهمه حبه لوطنه ذلك النداء الكبير والـدعاء الأكبر... ولن يأتي شاعر بأروع من ذلك أبداً، فاليمن ذراها في عزها، وعزها في ذراهـا، فلا ترى فوق ترابها مستكيناً أو مستسلماً وذليلاً ومتخاذلاً ومتهاوناً وجباناً ... فالـشاعر عاش سنوات الظلم والظلام،وعاش سنوات الحرية والثورة فكانت عباراته مـن معانـاة وادراك وحب للخير والحق والفضيلة والحرية.

ويا رحاب الأرض، ويا رحاب المجد – المجد الكبير – لن يروضنا أو يمسكننا أو يحاول اذلالنا أحد مهما طال ليل المعاناة والعناء، فقسماً يا يمن، يا أرضنا قسماً خالداً في الـسراء والضراء، في السر وفي العلن، في الليل والنهار، في اليسر والعسر، في الشدة والرخـاء... قسماً أبدياً لن يلاقي البغض والظلم والطغيان إلا رفضنا، رفض جبار شريف الكبرياء.

فها هنا (نحن) ضمير الأمة اليمنية والشعب اليمني الموحد، وقد توحدنا، فأصبح وطننا أثمن منَّا ... وهذه هي لسان حال المعاناة، وتجسيد الإيمان بوحدة الأرض منذ وقت مُبَكِّر، وغدتَ أصقاع البلاد معبداً لنا، لم ولن نعبد فيها وثناً. ولن يرى نخـاس أرض ... لحظـة ضعف تنتابنا فنأخذ الدنيا ونعطي اليمنا، فكم سلكنا ومشينا طرقاً تفني بها روح الفنـاء، ورفضنا وأبينا ركعة الهون وضعف الانحناء .... ونجد الفضول في نهاية النشيد الوطني يبث روح حب الوطن،وحب روح الوطن ... ويتعرض لمواقف تاريخية ليقدمها للأجيال علـى ألفاظ من الثورة والتحدي والقوة والذكرى والوفاء (أربعينياتنا فيها رفضنا – وهو يعـني ثورة ١٩٤٨م. التي أستشهد فيها أبوه وكثيرون من أخيار اليمن، ولذلك فهي ذكرى ثورة ماثلة في ضميره ووجدانه لخصوصيتها ثانياً، وللتضحيات التي سطرت فيها أولاً، وضـحى سبتمبر فيه رفضنا – ومدى السبعين يوماً قد رفضينا – وسنمضي رافضين كل من جـاء لكي يُدجي ضحانا ... ذكرى وتحد ورفض، ورفض لما سيكون من تآمر، وكأن الفضول

كان يقرأ صفحات السنوات القادمة التي سيحاول فيها المرتزقة والعملاء على تمزيق صفحات الوطن والمستقبل، وكل من سيحاول ادجاء ضحانا وثورتنا، فسنمضي رافضين. وداحضين، وفارضين صدقنا حتى يُرى الحقُّ مصانا... فهذه الأرض الواحدة لن تنتهي إلا إذا نحن أنتهينا... ولن تنتهي انتصاراتنا فيها أبداً... إلا إذا نحن انتهينا.

نشيد فيه النبوغ الشعري ولإنساني والوطني.... وما رأيت رجلاً شاعراً نقش حبه لوطنه على ألحان قلوب أبناء الشعب اليمني أو العربي اليمني كما فعل الفضول، وتلك من الأناشيد التي كتبت في لحظات كانت كالدواء للشعب مما يعانيه من آلام وشقاء وهي ردة فعل وطنية عنيفة صاغها الشاعر بقالب غنائي المزاج وطني الهوى، يمني الولاء، وحدوي السماء... فتجسدت الكلمات، ثم ازدادت تجسداً وبياناً وأيوب طارش ينقش لحنها الملئ بالتحدي والرفض والإصرار والدعاء بتوفيق من الله، وبالهام رباني، وجد نفساً نقية تتضوع بها ألحان أيوب التي تتميز في أناشيده الوطنية بأنها على السليقة أو الطبيعة النقية، وبراءة قرية من قرى الريف اليمني... والأناشيد الوطنية للفضول لم تكن – ولن تكون – شعارات يرددها العامة، بل هي أحاسيس لا تجد نفسك وأنت تقرأها أو تستمع إليها إلا وأنت في سماوات الولاء للوطن، في سماوات الحب للوطن، وفي رحاب الأرض التي لنا في خيراتها مثلاً وعبراً، وما التجأ الفضول إلى السماوات، لتبارك الوطن إلا بعد أن ضاقت به سبل الحياة، وأرهقته مدارب الألم، وفاض به صبره على جهالة الناس وأبناء الوطن الذين لا تطيب لهم الحياة إلا في الكر و الفر والعراك والخصام والحروب والدمار،.. وهكذا هو الشاعر عندما تفيض نفسه بالآمه، فلا يجد ملاذاً ولا أملاً إلا في السماء،.. هو لجوء إلى الله خالق الخلق، وهي لحظة إيمانية عميقة تجلت في نفس الفضول وقلب الفضول.

وإذا أردنا أن نعرف الفضول وشخصيته ووطنيته، وموهبته، وشاعريته ... فما علينا إلا التوجه إلى قصائده المتفرقه لنلم شتاتها ثم نضعها بين أيدينا، ونجوس خلالها بعقولنا وقلوبنا... ففي ديوان كل شاعر نجد قصيدة أو أكثر هي لسان حال الشاعر ... وتكون بالنسبة له أحب أولاده إليه – كما يقال – أو بالأصح الأقرب إلى نفسه، والأكثر تعبيراً عن ذاته، وبينما كنت أقوم بذلك صادفتني قصيدة بعنوان (فاخراً جئت) والضمير في جئتُ – هو ضمير الفضول لكنه بحق ضميره الإنساني وضميره اللغوي،

وهذا بعض من كل:

كم بيان سقطت منه الكـ ـرامة في الأفك ... ولّما تَقَم[1]
وسطور فاجرات لم اجد فوقها غير حريق الذمم
وَلَكَمْ أحزنني شعر يعـ ـم بالخز رؤوس النَّعَم

(١) هذه القصيدة مدح بها الشاعر صديقه الرئيس إبراهيم الحمدي، انظر الفكر السياسي لتعرف القصة.

وَلَكَـــمْ أحـــزنني شـــعر بـــه نكهـــةُ الخبـــزِ وريـــحُ اللّقـــمِ

ذلك ما يرفضه الفضول، وذلك ما يحزن نفسه.. ولكن ما الذي يفرحه في الـــشعر ومن الشعر؟!

مـــا أراني أُلـــبسُ الـــشعرَ ســـوى شـــرفَ الـــصدقِ ونبـــلَ الـــشَّيَمِ
إنَّـــهُ العـــزُّ فـــلا أكـــسو بـــه رأسَ ذي ظلـــفٍ ولا ذي منـــسمِ
ليس في شعري ولا نثـــري ســـوى لبـــدة أطرحهـــا في ضَـــيغَمِ

هكذا هو الشعر عند الفضول (شرف الصدق – نل الشيم – العز – لبدة يطرحها في ضيغم.. أي انه لا يمدح المرء إلا بما فيه وتلك لعمري حكمة زهير بن أبي سلمى.

(وفاخراً جئت) قصيدة أثبتناها في باب عدن، ونحن هنا نقرأها لأنها ذات الفـــضول، وفلسفته الشعرية.

فالفضول عندما يجيء إلى أحد فإنه يجيء فاخراً، وكلماته مـــزورَّه – (كبريـــاءً) – كلمات بكبرياء، لأن هذه الكلمات هي وجه صادق لمن صادق مجد القلم، ولا يكون مجد القلم إلا لمن كانت لكلماته كبرياء ... ولأن مجد القلم بصدق ما يقول (ومجـــد الـــسيف بصدق ما يفعل على رأي المتنبي)، وهذا الصدق ووجه الصدق قد أقنع صدق الحرف بأن عروش الصدق لن تنهدم وان لصدق الكلام عروش لم تزل قائمة، فعفة الحرف تـــساوي قمة فوق القمم، حتى أن الغيم تقبل (القمة – الشامخه) لم تدع جانباً من وجهه إلا وقبلتـــه فليس لنفسي خزي أو عار أو لحظة ندم، ولم أهن في نفس كلمي و حروفي لأنها تلك نفوس خالطت نفسي وتآخت مع شممي وكبريائي.

ولم أتلوث بالافك، ولم يطرح سواكاً في فمي، ولم أعرف كذب الحروف والكلم،ولم تذهب بي أقلامي إلى كذب قط أو مدح كاذب قط.

وليس أي إنسان – من الناس – (قد) تذهب إليه حروفي وقـــصائدي ومـــديحي – كالفراش التي تحوم حول ضوء (لامع أو خافت)، وليس أي إنسان (قد) يلقاه كبرياء قلمي خاشعاً محرماً.. لأن ذلك مستحيل، مستحيل إلا لمن يستحق وما أقل من أستحق المديح في شعر الفضول، وما أقل – إن لم يكن ما كان – من لاقى كبرياء قلم الفضول إنساناً وهـــو خاشعاً وحرماً.

وما هذا الكثير من الذين لا يستحقون شيئاً إلا حُفراً فاغرة لم تردم، ولم تشبع، لأن بحار شعري لا تعطيني لؤلوأً إلا لمن كان بحراً (ملء أرضي يرتمي)، رجل للخير وخيره لكل الناس في الأرض اليمنية أليس في هذه روح الفضول أو روح المتنبي أو كلاهما:

قال المتنبي في مدح سيف الدولة:

لم أر قبلي مَنْ مشى البحـــرُ نحـــوه ولا رجلاً قبلي قامت تعانقه الأســـدُ

وبحار أو و بحر شعر الفضول هادئة أعماقه، وأفواقه وأعلاه، لأن شعر الفضول ساحة حرم وفيها من جلال الحرم – حيث الهدوء والأمن وقال المتنبي:

أنام ملء جفوني عـن شـواردها ويسهر الخلق جَّراها ويختـصمُ

وبعد نفسي لم أمكن أو أعطي عرش قلمي إلا لشهم ونبيل.. و نبله لم يأثم ... أوهزم الخير أو تنكر له أبداً، وليس أمام السوء بالمنهزم، ونجم الفضول تهتدي الناس به إن ظـل مسارها وسيرها.

كلُّ إنسان وفي عايش الناس بقلب حمي وشهم – لا بقلب بارد – قال المتنبي:

واحرَّ قلباهُ ممَّن قَلْبُـهُ شـبمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ

أو قول المتنبي:

الخيل والليل والبيـداء تعـرفني والسيف والرمح والقرطاسُ والقلمُ
أنا الذي نظر الأعمـى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مـن بـه صَـمَمُ

أما الفضول فيقول هكذا :

إنني كـلُّ الـذي أبقـاه مـن عبـق الفـردوس سـيلُ العَـرِمِ
خبـأتني روحُ أرضـي مثلمـا يخبـأ الألمـاسَ جـوفُ المـنجم
بَخلـتْ بي أن تـرى جوهرهـا في مكـان غـير صـدر الكـرمِ
أو كأني ظلـتُ مـذخوراً بهـا لمـضئ روحُـه لم تُظْلـمِ
باذخ أحسبه يومـاً أتـى الفـ ـجرَ أو زار مـدار الأنجُـمِ

فالفضول في قصيدته هو كل ما بقي من عبق الفردوس بعد سيل العرم، الذي نكب أسرة الفضول.. وهو كالماس المخبؤ في جوف المنجم، لأن روح أرضه بخلت أن تـراه في مكان غير مكانه – (صدر الكرم) – أو كأنه ظلَّ ذخراً بأرضه لرجل روحـه مـضيئة ولم تُظلم، وطول أمتد وأتى الفجر – أو زار مدار الأنجم – كناية عن المكانة التي بلغها ممدوحه من صدق وأضاءة روح وطل قامة بالكبرياء، أمتد بها حتى حاذت نور الفجر الذي يتبدى بالآفاق. وهي صورة مثالية للمدوح، والشاعر يمدحه بروح الشعب.

ثم يتجه الفضول ليتحدث عن قلمه ... وبراعته:

لم تَقَـل زوراً يراعـاتي وميـ زاهـا قـسطاسه لم يُظلـمِ
إنَّهـا معـصومة أن ترتئـي ورعَ التقـوى بـشدقي أرقـم
إنهـا مـا ضـرغمت عنـزاً ولا وصـمت ليثـاً بطبـع الغـنمِ

****** ******

كم يكونُ القـبحُ في الحـرف إذا.. قـدَّر الـدينار قـدرَ الـدرهم
إن راى البـوم طـواويس وإنْ ألحـق البـاز يـسرب الـرَّخمِ

أو تمـــــادى في نفـــــاق لا ثمٍ سبحة القُـس ونَـصلَ المجـرم

فالحرف يكون قبيحاً إذا ساوى بين قدر الدينار وقدر الـدرهم، أو إن رأى البـوم طواويس ولم يفرق بينهما، أو إن ألحق الحرفُ الباز.. بسرب الرخم،لأن ذلك ليس بمنطق أو عقل او رأي سديد، أو أن يتمادى الحرف في نفاق وتمادي في لـثم وتقبيـل سـبحة القس... أو لثم وتقبيل نصل وخنجر المجرم.. والقصيدة زاخرة بالمعاني، ومرصعة بالجواهر الثمينة من الحروف المضيئة بمعان تدل على كبرياء وحريق ونفس أبيه [١].

ومنطلق القصيدة من رؤية عامة لما يحيط بالفضول، وهو حال لكل زمان ومكـان، وصدره ملازم الكثير من أمور الحياة التي تحيط بمن لهم عقول وحرية فكر وسـعة قلـب وأمتلأ حب.. وما أشبه الليلة بالبارحة. والأيام هي التي تنطق الشاعر والمـشاعر لتجعلـه لسان حال الزمكنه (الزمان / المكان) يعيش فيها الشاعر ويعبر عنهما.

والقصيدة بقدر ما فيها من أصالة الماضي ففيها من أصالة وروح الحاضر المشرق من الناحية اللغوية والشعرية، وتلك الصور الفنيه التي لا يخلو منها بيت شعري للفضول تجعلنا نقرر ما يمتلكه الفضول من قدرة بارعة وموهبة نادرة في تلوين الصور وتضمين الأبيـات بعدد من أساليب البيان ومزج هذه الأساليب بقوة المعنى و انسيابية اللغة – وهو أمر يفرض علينا بتخصيص باب لهاته الصور الفريدة في تاريخ الشعر العربي – عامة – إن أمكن ذلك.

وبقدر ما نعرف حال الشعر الغنائي العربي المترهل في الخواء من روح الـشعر، ممـا جعل الكثير من النقاد ينصرفون عن مناقشة تلك القصائد الغنائية – إلا أن الفـضول في شعره الغنائي والوطني، والذاتي نابع من مزاج شعري غنائي، مـصورة تمتـد إلى آفـاق الوطن،.. ولذلك عندما نحاول أن نقلب ديوان الفيروزه سنجد الأبيات الـشعرية وهـي منشورة كالدرر التي لا يميزها إلا خبير، ولا يفسرها إلا حبر أو كاهن من كهان الـشعر المنقود أو النقد الشعري، ويعود ذلك إلى المزاج الغنائي الذي في نفس الفضول، وبقدر ما كان الفضول معبراً عن هموم الوطن وآمالة وأحلامه، كان أيضاً من اولئك الذين يفلسفون الواقع بفلسفة خاصة، لا يدركها إلا الراسخون في العلم.

وكما كان عليه الحال هناك – في العلن الوطني – من ثورة شعرية و شاعرية توصل ما يجيش بنفوس الناس من مشاعر تجاه الوطن وليسمع هذا الحب كل العالم، كان هنـاك غليان شعري في نفس الفضول وهو غليان يحاول تنظير الواقع برؤى وطنية، لتكون رؤى يعمل بها ضمير الأمة متى ما أضحى يقظاً، والقصائد التي يتضمنها ديوان الفيروزه هي ذات الفضول الأخرى أو لنقل الوجه الآخر للفضول، أو الجانب الأجمل والأجمل وهو منتزع من قلب الفضول وعقل الفضول وهم الفضول تجاه وطنه.

(١) سيأتي لاحقاً باب خاص بين المتنبي والفضول لتوضيح ماوجدناه من قواسم مشتركة بينهما.

وبقدر ما أيقظ الفضول عامة الشعب بأناشيده، وحاول ذلك، ومازالت أناشيده تعمل عملها في النفوس اليمنية بأعجوبة وعجب و إعجاب شديد، بقدر ما حاول – وما زال وسيظل يحاول – إيقاظ نفوس الخاصة والمثقفين اليمنيين ليلتفتوا إلى ما هم عليه وفيه من قبح وانحدار وخداع ومكر وتآمر وضلال وزيغ وتهافت وأشعبيه وتهالك وتمصلح.

وبقدر ما تغنى بأمجاد الوطن وتضحياته وترقرق دماء الشهداء الزكية وبالثورة والتصدي للحصار ونبذ التشرذم، والدعوة إلى الوحدة الوطنية والوقوف صفاً واحداً في خندق (حب اليمن)، إبتداء من أول نشيد وطني وحتى أخر سيموفنية وطنية من رددي أيتها الدنيا نشيدي إلى أملأوا الدنيا ابتساماً إلى هذه يومي فسيروا في ضحاها، ويا سماوات بلادي باركينا ... إلى هذه أرضي وبعض عطايا تربتي، وسيبقى نبض قلبي يمنياً.

بقدر ما تغنى بأحزان وطنه التي نكتب له بوتيرة متتابعة من الأحزان، وبجدول متراتب ومتتابع من النكبات، وبسيل بل سيول من الدماء، وجبال من الجماجم، وأودية من الدموع الثكلى بفجائع الدهر، والأنانية اليمنية التي بين أبناء الوطن الواحد.

وتقلب الأيام بالأعزاء الذين أصبحوا أذلأ. والاذلاء الذين أضحوا أسياداً لأسيادهم، وجوانب متناقضة كثيره – سنأتي عليها – ثم تكون هموم الوطن العربي في إطار من تلك الهموم الكبرى أيضاً، والفضول يتميز بأنه كان يضع عنواناً لقصيدة ثم يضيف تحت العنوان (سؤال عربي) وهكذا.. وهو سؤال وراءه ما وراءه، وهو صورة لأبعاد شخصية الفضول وأبعاد الهم الوطني،، والعربي لديه وهذا دليل على أن الفضول لم يكن بعيداً عن قضايا وطنه وأمته العربية.

والآن هل نركب مع المجانين. أما قيل ((خذوا الحكمة من أفواه المجانين))؟! فكيف ستكون الرحلة في (ركاب المجانين) احدى قصائد الشاعر التي تبوح بمأساة الوطن اليمني، وتقرأ الواقع بتراهة واقتدار، وتؤرخ بحياديه عظمية.

كَمْ تساءلتُ ولم ألق جواباً
أين عن أرضي وجهُ الصدق غابا
أي أرض هذه لم تُبق بها الآثامُ للخير حسابا
شَبعَتْ كلُّ الحقارات بها.. ومضت كل الطهارات سغابا
كم فؤوس فوقها جاءت تُعمل في الأخلاق قصلاً واحتطابا
كُلما قلتُ انتهى السوء عليها.. تبدَّى هَرمُ السوءِ شباباً

ومتى يكون السؤال بدون أن يلقى الجواب إلا متى ما غاب وجه الصدق عن الوطن والأرض التي لم تبق الآثام فيها للخير حساباً،.. حتى أن كل الحقارات التي يمثلها الانتهازيون وآكلوا السحت – شَبعَتْ، وذهبت الطهارات (الخير والحب) جائعة.. أما الأخلاق فكان نصيبها القطع والاحتطاب بضربات قوية من فؤوس وأياد شريرة.

وكان هم الفضول أنه كلما قال: (الأن انتهى السوءُ عليها) تبدى هرمُ السوء شباباً، وتلك لعمري صورة خالدة من صور الحكمة التي أنطقت ضمير الأمة، فكلما عللتَ الأمة نفسها بانتهاء السوء، فجأة تكتشف الأمة أن الهرم الضخم من السوء والذي كانت تعتقد أنه (انتهى أو بلغ من العمر عتيا، إذا به في أول الشباب، وما أطول حبل صبر الإنسان على الظلم والمظالم والمساوئ فهو أبداً يعلل نفسه بانتهاء السوء – عَّما قريب دون جدوى.

إنَّهـــا أرضـــي، وقـــد جَغْرفَهَـــا حُبُّهـــا فيَّ جبـــالاً ورحابـــا
سوف أمـــضي فوقهـــا سلـــسبيلاً وســـأحياها، عمـــاراً أو خرابـــا
مُحْـــرقَ الغابـــةِ حتَّـــى لا أرى مخلبـــاً فيهـــا، ولا أشـــهدُ نابـــا

فحب الأرض قد تجغرف سهولاً وجبالاً ورحاباً وتلالاً و .... و..... أكوان مـــن الجغرافيا العاطفية التي في قلب الفضول لوطنه – وهي صورة لا أبلغ منها – والفـــضول بحبه الكبير للوطن والذي قد تجغرف في قلبه، سيمضي فوقها كما يمضي الماء السلـــسبيل النقي، في طريق يشق الجبال والسهول والغيول، يروي كل عطشان وعطـــش، وينـــشر السرور والفرح في ضمير كل حزين، وسيحيا الفضول في أرضه وهي خـــراب ليعمرهـــا، وهي عمار ليزيد في تطورها، وفيها الخير لنشره بين الناس، أو فيها الشر ليقـــضي عليـــه، وسيحرق الشاعر غابات الشر حتى لا يرى الناس في أرضه مخلب ظالم أو وحش من بـــني الإنسان، وكي لا يشهد أو يرى ناب ظالم ينهش في أجساد الضعفاء والأبريـــاء، وهـــذه الأبيات تفصح عن المكنون في ذات ضمير الفضول:–

وطني المحزون، كم أخزاك من فيك.. كم أشقوك – ناساً، وترابـــا
أيُّ مـــردودٍ أتـــى مـــن أشـــعبياهم، لم يُـــشبعِ الخـــيرَ عـــذابا
أو طموحـــاتٌ لهـــم، أخلاقُهـــا لم تجـــدهم يـــستحقون العقابـــا
أُي أســـبابٍ تبـــدَّت في تعاقبـــهم تَلْـــبَسُ مـــن فـــضلٍ ثيابـــا

وما هي مأساة الوطن غير الأحزان، ومن أخزى الأوطان غير الأشقياء مـــن النـــاس الذين لا يتمنون الأوطان، ومن أشقى الأوطان غير الطامعين بالأرض المتهالكين على التراب وعلى الخيرات، المحاولين اقتطاع الأرض من أطرافها، وبتر أعز أجزائها، والتراب يـــشقي الأوطان بشقاء الناس على مستوى الداخل والخارج والمعارك الطاحنة بين سماسرة الأراضي قديمة ومتوطنه على المستوى الشخصي، وعلى المستوى الدولي،.. مقابل ثمن بخس أو مقابل دماء غالية، وجماجم ثمينة ألم يقل الزبيري؟!

يوم من الـــدَّهر لم تـــصنع أشـــعتَهُ شمسُ الضحى بل صـــنعناه بأيـــدينا
وكوَّنتـــه ألـــوف مـــن جماجمنـــا وجمَّعتـــه قـــرونٌ مـــن مآســـينا

وأيضاً ما الذي أشقى الوطن غير موقعه الجغرافي والأشرار.

وبعد كل هذه التضحيات – يكتشف الوطن والوطنيين أن من تسلق القمة هم من أحفاد (أشعب) الشهير في تاريخ الحكايات العربية بأنه يأكل ويأكل ولا يشبع، والفرق أن ذاك كان يأكل طعاماً، أما هؤلاء فهم يأكلون الدَّم واللحم، والدماء واللحوم، ويمتصون عرق الكادحين من أبناء الوطن بدون امتلاء أو شبع بأكهلم لخيرات الوطن، فلا مردود للوطن غير هذا الاستتراف الرهيب لخيراته،.. والشاعر يقول بملء فيه، ألا يكفي الخير عذاباً، إلا يكفي تعذيب الناس بأكل خيراهم بنهم لا حدود له، إلا تشبعون يا أحفاد أشعب؟!. وطموحات هؤلاء الأشاعبه بلا أخلاق – لأن أخلاقهم ليس في شرعها أنهم يستحقون العقابا، وهذا معنى مبطن وخفي، لأن هؤلاء الذين لا يشبعون يعملون على تفصيل قوانين وأنظمة لا ترى فيما يعملون ما يستحق العقاب، وكأن هؤلاء لا يعلمون أنهم لن يتركوا شيئاً، ولا حتى فضل ثياب لأسبابهم الواهمة إن ظهرت وتبدت يوماً ما، فما كستهم أسبابه،.. وهذه حكمة دينيه متسربله بالفلسفة، ومتمنطقه بالحكمة والوجع مما صار إليه الوطن،.. مع ذلك فليست البطون هي التي تتعرض للجوع والضياع، – فهناك العقول،..

كم أذَلُّوا العقل نبذاً واجتنابا
وأقاموا للمجانين قبابا
وأحتووا ملء مراعيهم ذئابا
ومرابي الزَّهر يعبقن ملابا
أبدلوها بالفراشات ذُبابا
وخوابي الشهد لما فَرَغَتْ..
ملئوها بَدَلَ الشهد لُعابا
والخطايا لم تدَعْ في سَمْعهمْ ...
أبداً للخير صوتاً مُسْتجابَا

((وركاب المجانين قصيدة من يقرءوها يدرك بأن ليس لها تاريخ محدد، كما يدرك بوضوح أن بدايتها أيام طوال ولم ينته منها إلا قبل وفاته.. ليس إلا..بدليل أنه دون صور كل المراحل – دون المساس الشخصي – وهنا تكمن عظمة فن الفضول في الحبك التصوير، ولا أدل على ذلك من أول وهلة لها:

كم تسآءلتُ ولم ألق جوابا
أين – عن أرضي – وجه الصدق غابا))[1]

(١) الفيروزه – عثمان أبو ماهر – خواطر حول الديوان //٢١.

وما أخلاق الوطن غير أهدافه التي تخلى عنها الكثيرون من الذين أذلوا العقل النابض الملتهب بحب الحياة والفكر، فنبذوه وأجتنبوه، وتركوه في صحراء العقاب والعزلة والذل والامتهان، حتى جُنَّ العقلاء، فأصبح العاقل مجنوناً.. وما أكثر المجانين!، وهنا أقام – أولئك – المتخلّون عن الأهداف قباباً للمجانين. وما القبة غير الاقامة الجبرية في الداخل أو الخارج أو بمنصب هلامي ووهمي ولا قيمة له، ثم اجتلبوا ذئاباً إلى مراعيهم، فلم يترك الذئاب مرابي الزهر (والخير) يعبقن زهراً وروحاً وريحاناً وملاباً لكل الناس، فألتهم ذلك المرابي أولئك الذئاب، وأبدلوا بالفراشات الجميلة الملونة و الخيرة والعملية ذباباً، وما كان يحفظ الشهد والعسل من أوعية، فإنها لما فرغت، ملئوا هذه الأوعية بدل العسل (لعاباً).. وما أقزز النقيض (الملاب واللعاب أو الشهد واللعاب)، وما الذئاب غير الحاشية – وبطانة السوء، وهذه الحاشية وهؤلاء الذئاب ليس في سمعهم للخير والنصح والرشاد مكاناً، لأنهم غارقون في الخطايا حتى أذانهم، فلم يعودوا يسمعون شيئاً، ولا يستجيبون لناصح، والثقافة والعقل عند الفضول هي (مرابي الزهر)، و الخيرون هم الفراشات أما الأشرار فهم الذباب وهم الذئاب وما أروع هذا الجناس والتضاد، وهم الأشقياء، وهم أحفاد أشعب الذين لا يشبعون، وهم المخالب وهم الأنياب وهم الخراب وهم هرم السؤ وهم السؤ و الآثام والحقارات والفؤوس، وهم الذين يعملون في أهداف الوطن قصلاً واحتطابا، وهم الذين يستحقون العقاب، وأن كانوا هم لا يعتقدون ذلك، وكل هؤلاء محتارون لأننا لا نبجلهم أو نمنحهم ثواباً.. وما ثواب الشاعر لهم غير المديح، وهو الأمر الذي ما وقع في فخه الفضول، ويبدو أنه قد تعرض لضغوط رهيبه لكي يمدح تلك (الآثام والذئاب والذباب) والفضول عندما يتحدث فإنه يتحدث بضمير الأمة والوطن وليس بضمير الذات أو الفرد، ورفضه العنيف لمدح الآثام، نابع من إيمانه الأصيل والعميق في نفسه أن انتصار الباطل – وهو مؤلم للنفس – المتعب لا يصل ألمه وسوءه إلى سوء المحاباة ومدح الباطل، لأن سقوط الناس يكون في أن يذهب بهم جهدهم وشقاؤهم إلى إثابة الأشقياء وتقديم القربان للأثم، ولأن اثابة الأشقياء والأثم هو سقوط للناس الذين يثيبون الأثم الذي ما كان لهم خيراً أبداً وسقوط الناس أن يروا في كرههم للسوء، خروجاً وهروباً من الفضل الذي قد يحصلون عليه إذا ما أحبوه وبجلوه واحترموه وقدسوه، وسقوط الناس أن يروا الأبق والعصيان والاغتراب سوف يحرمهم من فوائد كانوا سيحصلون عليها إذا لم يخرجوا عن الطوق،..

ويحارون بأنَّا لا نُبَجِّلَهُمْ.. أو نمنحَ الأثمَ الثوابا
وانتصارُ الباطل المُتْعِب أسوءُ سوءاً منه – فينا – أن يُحابا
وسقوط الناس.. أن يمضي بها الجهدُ في اشقائها جُهداً مُثابا
وترى في مقتها السُّوءَ، هروباً من الفضل، وابقاً واغترابا[1]

(١) الآبق // العاصي والخارج عن الطوع، وكان يقال العبد أبق سيده – أي خرج عن طاعته.

وشقآء الأرض.. أنْ يلزمها مجـــدُه مـــن أجهـــدَ الاثم ارتكابـــا

****

أي أن الشقاء بين الناس وفي الناس وفي الأرض – أي أرض – أن يكون المجد مـــن نصيب الذين أجهدوا الأثم ارتكابا، وأجهدوا أنفسهم وحاشيتهم، وذئـــابهم في ارتكـــاب الآثام.. وكم عاش الناس للبلاهات والتفاهات والسخافات وهي تلعب بهم وهم لها أوفياء ومخلصون، وكلننا – نحن الناس – لم نحاول أن ندخل باباً أو نفتح باباً لكي نفهم الحقيقة – حقيقة تلك البلاهات التي حيينا بها ولها أوفيآء – وكانت ثقتنا بعـــرى الـــزور والخـــداع والكذب والوعود الخائبة – ولكن الفطنة التي تبلدت فينا لم تجعلنا نرتاب بالزور والزيـــف الذي تعلقنا بحبله، او حباله أوهى من بيوت العنكبوت، فدفعنا حمقنا وغفلتنا إلى أن نشهد ونخلع صفات العبقرية على من وقعنا في فتنتهم، ولم يقف المرءُ عند ذلك بل وضعنا تلك الصفات العبقرية وأثبتناها في كتاب،.. وهذا هو تزييف التاريخ الذي رفـــضه الفـــضول، وغفلتنا وعدم فهمنا جعلنا نمنح كل عكاز وعاجز وجبان صفات الشجاعة والبطولة وزدنا باعطائه قراباً لا غماد شجاعته وسيفه،.. وكأننا قد تنازلنا عن الصدق – نتيجـــة غفلتنـــا وعدم وعينا أو فهمنا – وكأن الصدق قد تنازلنا عنه للأشياء (أسلوب للتحقير والسخرية من الذئاب) والناس وكأن غفلتنا هذه قد دفعتنا إلى احتساب الفضائل والعظائم دون تقدير لعواقب الأمور – والأشياء وأناس لا يستحقون ذلك.

ويمضي الفضول في رحلة عنيفة مع رغبة جارفة في أيقاظ أفهام الناس وعقول الناس ووعي الناس.. ودعوتهم إلى عدم البقاء في ظلال الزيف والزور و البهتان والجبن والأشياء.. وهذا إدراك مبكر إلى ضرورة أن يكون الناس على وعي بما هم فيه وهذا طريق كان قـــد اختطه الفضول منذ وقت مبكر (١٩٤٤م) في لقائه مع الزبيري والموشكي، وبعد مـــرور السنوات أدرك أن الوعي الجمعي عند الناس ما زال في حاجة شديدة إلى الإيقاظ لأن الحياة ورحلته مع الإدراك لكل ما يحيط بالإنسان من تناقضات الحياة الرهيبة،.. فكـــم خـــذلتنا براءة قلوبنا..

كم حيينا للبلاهـــات بنـــا.. – أوفيـــآء – لم نلـــج للفهـــم بابـــا
ووثقنا بعُرَى الزور وخلعنا العبقريات على كل مفتون وصُغناها كتابا
ومنحنـــا كـــلَّ عكـــاز حَمَائـــلِ ســـيف، وغمـــدناه قِرابـــاً،
وكأنَّا قد تنازلنـــا عـــن الـــصدق في الآشـــياء والنـــاس احتـــسابا
ودخلنـــا رحلـــةَ الافـــك حُفـــاةً وخـــضناها ظلامـــاً وضـــبابا
ومـــشيناها نفاقـــاً فـــاجراً.. فـــادح الآثـــام لا ينـــوي المتابـــا
وهتكنا كـــل غـــرضٍ للحقيقـــة والـــصدق، وقاتلنـــا الـــصوابا
وبصقنا أوجه الخَير، وسرنا مـــع الـــسوء آت والـــسوءِ صـــحابا

وكأن بعض مراحل الحياة هي مراحل كاذبة والإفك هو الطريق إليها.. وما دخلنا يوماً ما إلى رحلة الإفك والبهتان والكذب، وكنا حفاة (لا وعي) وخضناها ظلاماً (جهل) وضبابا (مؤامرات ومكائد ومكايدات)، ومشيناها نفاقاً فاجراً (ضعف وعجز وطمع) لأن ما يجبر الإنسان أو الناس على السير في تلك المتاهات والسراديب غير الضعف والعجز والطمع،.. مع سبق الإصرار على مواصلة طريق النفاق و الاثم الذي لا نية فيه ولا مكان للعودة إلى الحق و الإقلاع عن ذلك والتوبة عن الأثم والنفاق والضلال، ومن طبع المنافق الفاجر الذي بلغ أثمه مبلغاً فادحاً لا ينوي المتابا أن يهتك كل عرض للحقيقة وما هتك عرض الحقيقة غير الايغال في ارتكاب الآثام والمبالغة في هتك الصدق وقدسيته.. والتمادي في ذلك يدفع الآثم إلى قتل الصواب،لأن الأثم لا يرى الصواب فهو أعمى بآثامه وأفكه، فلا يرى أمامه صواباً، لن الآثم هو الصواب،... والحقيقة والصدق من سقط المتاع في نفاقنا الفاجر، وضيق الأفق و.. والغاء الآخر هو سمة المنافق الفاجر الذي يدفعه نفاقه إلى البصق في وجه الخير، لأن المنافق الفاجر لا يرى خيراً حوله، وإذا ما رآه تصور له بهيئة العدو، ... فلا يكون أمامنا – نحن المنافقين الفاجرين – إلا السير مع السوءات والسوء.. لأن المنافق يرى في السوء صاحبة، ويرى في الخير عدوه، وهذه أحوال ملازمه للمجتمعات، حيث يريد الإنسان للناس خيراً فيقاتلوه على ذلك.. والتاريخ أمامنا يتحدث عن انقلاب الحال دوماً،.. فيظن الإنسان (الشاعر)بنفسه بعض الاطمئنان فيطمئن – (تطامنت)– إلى بعض من يبدو عليهم سمات (الطمأنينة والحب)، ولكن الأيام تكشف للشاعر أن هذا الإنسان الذي اطمأن له، ينطوي في داخله على وحش بل وحوش، بل هو غابة بما فيها – فيا أيها الإنسان كم أراك الليل..!

ويا أيتها الظنون كم أراك الليل.. فجراً وضوءاً أو بعض ضوء كاذب!

وأرى القاع للعين سرابا.. في النهار (وهذه حكمة من حكم الفضول التي تمثل اشراقات في جبين الدهر.. لأنه – أي الشاعر – نطق عن ضمير يقظ وقلب محب، وحكمة مجرب، وبقدر ما هو اليأس من ليل الأثم فهو الأمل بالخلاص:

يا ظنوني كم تطامنت إلى ... مستيسر، ينطوي وحشاً وغابا
كم أراك الليل، فجراً كاذباً ... وألاح القاعَ للعين سرابا!!

ولماذا وصل يأس الشاعر إلى هذا الحد؟

والجواب هذه المبررات:

كُلُّ مَنْ جاء حَسبنَا أنه.. ... قد أتى في ليلنا الداجي شهابا
وحشرنا حوله أنفسنا ... موكباً يصنعُهُ ضخماً مُهابا
وحملناه على أعيننا ... أملاً عشنا له العمرَ ارتقابا

واحتملنـــاه رشـــاداً معطيـــاً جاء يمتد على الأرض ســحابا
فانطوينـــا منـــه في أســـطورة لا يرى الصدق بها إلا الكـــذابا
ورأينـــا رأي صـــدق خيبـــةً قد بدا طاؤوسُنا فيهـــا غُرابـــا
ومَضَتْ أعيننـــا تـــذرِّعُ مـــا قد حـــسبناه خـــضَمًّا وعُبابـــا
فـــإذا زخَّارُنـــا لـــيس ســـوى حُفرةٌ قد مُلئتْ ملحـــاً مُـــذابا

****

وفطرة الناس أنهم يحسبون كل من جاء في ليل مظلم شديد الظلام شهاباً منيراً مضيئاً، فيحشرون أنفسهم ويلتفون حوله.. ليكون موكباً عظيماً وضخماً فيه هيبة عظيمة، تحملها عيونهم لأنه أمل عاش له الناس عمراً وهم ينتظرونه ليكون مرشداً و معطيـــاً لهـــم، فهـــو بهواجسهم وفي أحلامهم كالسحاب الذي جاء يمتد – في السماء – على الأرض التي تنتظر المطر بتلك الأسطورة الوهمية للرشاد والسحاب والانتظار، وصدق الناس أنهـــم يجـــدون صدقهم وكما قال الشاعر العربي القديم:

إذا نطق الغرابُ وقال خـــيراً فأين الخير مـــن وجـــه الغـــرابُ

ولا يبقى أمام تلك العيون المتلهفة للخير غير السراب الذي حسبته عيـــونهم بحـــراً عظيماً وعباباً هائجاً ومحيطاً هادراً ،ويكون حال هؤلاء الناس حال من يذرع بعينه وهمـــاً وسراباً أو بحراً عظيماً، وكذباً لا حدود له أبداً فإذا بذلك الوهم الذي ظنه النـــاس بحـــراً عظيماً ومعطياً شهماً ليس سوى حفرة مُلئت ملحاً مذاباً، .... وماذا في تلك الحفرة مـــن فائدة لظمآن ... أو لشعب ينتظر الماء والخير؟

فأصبح التاريخ للناس – في الأرض أي أرض – وهماً وسراباً، فيتحول الناس الحالمين بحياة كريمة إلى مراكيب المجانين لا يدركون مرارة مايفعلون بالناس الأخيار الذي أنتظروهم قروناً وهم على أمل من سراب، وكم ركض الناس فرحاً باولئك المجانين إلى الحد الـــذي دفع الناس لأن يطربوا بتقليد الخيول صهيلاً فرحاً كاذباً وآثماً. لمجانين لا ينتظرون من الناس غير الصهيل.. ودعوهم لكي يركبوا عليهم بكبريائهم الآثم.

ويترآءى للناس أنهم آدميون – من البشر – لكن كل الوقاحات (الآثمون) – تعتلي ظهورهم فرحة ومفتخرة ومزهوة أنها تركب خيلاً عرابا من البشر..

أيُّ تاريخ لنا لم ترانـــا.. فيـــه يومـــاً للمجـــانين ركابـــا
كم بمجنون ركضنا فرحةً.. وصهلنا تحت مجنـــون طِرابـــا
نترآءى آدميين، وكـــلُّ الوقاحـــات رأت فينـــاً دَوابـــا
وعَلَتْ أفوآقنا مزهـــوة.. أنهـــا تركبُنـــا خـــيلاً عرابـــا

وليس بفاضل من لا يرى آدميتنا ولا غضبنا، ولا يرى فينا أناساً غضابا، أو أننا نغضب لكرامتنا التي امتهنت بالركوب والزهو فوق ظهورها، فيرانا ضعافاً لا نرفض ما يعطي أكان عطاوءه قشوراً أم لبابا.. وماذا فيما يعطينا وقد استضعفنا، وأخرجنا من سلالة بني الإنسان الذي يجب أن تحفظ كرامته، ومع ذلك فان الشاعر لا يعفي الناس الذين ماتوا يوم مات الرفض والإباء والكبرياء فيهم، يوم أسلموا رقابهم لسطوة الأثم في الأرض (أي أرض) يوم أوهموا أنفسهم بأن ذلك من باب الأدب.. هل الأدب أن يموت الرفض في الإنسان للظلم والآثم والهوان؟

إلى الحد الذي لا يجعلهم يقابلون البصقة في وجوههم حتى بالعتاب..

وحال هؤلاء الناس أنهم قد أدمنوا واعتادوا الذل، ولو لم يأت إليهم الذل لذهبوا إليه ولاغتصبوه اغتصابا، فلا يغتصب الذل ويبحث إلا عنه الأذلاء أما قال المتنبي:

مَنْ يهن يسهلُ الهوانُ عليه ما لجرح بميتٍ ايلامُ

فهؤلاء الناس في ذل الظلم والظالم والأثم والآثم، وفي ظلال ذل الموبقات ولذلك فهم أموات إلى أن تأتي الكرامات تسعى على قدمين – وهذا المستحيل بعينه – لإزالة الذل والتراب من نواصيهم التي تضمخت وتعفرت بالتراب تراب الذل أما قبل ذلك فهم أموات أو هكذا:

كيفَ يأتي فاضلاً...!؟ مَنْ لا يرى، غَضَباً فينا، ولا ناساً غضابا
بل يلاقينا هزالاً ليس نرفضُ ما يعطي قشوراً أم لبابا
نحن متنا يوم مات الرفض فينا وأسلمنا المهابات الرقابا
والتزمنا أدباً، لا تجد البصقة في أوجهنا منه العتابا
فلو أن الذل لم يأت بنا من مذلٍ لاغتصبناه اغتصابا..!!
وسنحيا عندما تأتي الكرامات تنفي عن نواصينا التُرابا

ومتى تأتي الكرامات؟

عندما يأتي العزم: ومن أين يأتي العزم؟ يأتي العزم من الشعب والناس؟

أما قال أبو الطيب:

((على قدر أهل العزم تأتي العزائم))؟

وما قراءتنا لنصوص الفضول في ديوان الفيروزه إلا لإيصالها بسيطة للقارئ العام أما القارئ الخاص.. فالميدان أمامه ليركض فيه فكراً وضميراً أنّى شاء وكيف شاء.

غناء للوحدة:

ليس هناك أمة من الأمم إلا وفيها من غنى لوحدتها انشاداً ونبضاً وأرضاً، وما من أمة من الأمم إلا وضعت لشاعرها أو شعرائها الذين مجدوا وحدتها معنى خالداً.. ليبق ذلك الشاعر أو أولئك الشعراء رمزاً من الرموز التي تعرف بها تلك الأمم ابتداء من (هوميروس) وانتهاء بطاغور شاعر الهند العظيم،.. فماذا صنع اليمن للفضول غير بتر الأطراف الطبيعية للنشيد الخالد ((رددي أيتها الدنيا نشيدي) وإبدالها بأطراف صناعية – كما ذكر ذلك البردوني [1]– اعتقاداً بأن كلمة (أمميا) لفظ شيوعي (آبان الرغبة البلشفية اللينينية الستالينية في مد فكرهم الشيوعي إلى أنحاء الأرض وجعلوا الأممية تعبيرهم الأفضل لفكرهم العالمي (ترجمة)، ولأن ذلك المصطلح أو اللفظ أو التعبير المترجم خرج من هناك، كان رفض ذلك التعبير ومحاولة طمسه لأنه بنظرهم فكر شيوعي ولو عاد العرب من اليمن إلى اللغة العربية لوجدوا ذلك اللفظ في قاموسهم الضخم الأصيل يدل دلالة قوية على الوحدة، ولفظ الأممية لا يلغي عقيدة الأمة كما تصور ذلك البعض، فأبدلوا تلك الأطراف العربية الأصيلة بأطراف صناعية.. وأضروا بأحاسيس الفضول الذي نبض قلبه بحب اليمن (وسيبقى نبض قلبي يمنيا)، والأقدار هي التي ألهمت المحبين للوطن اليمني أن يقرروا (رددي إيتها الدنيا نشيدي) نشيداً وطنياً لليمن أرضاً وإنساناً مع ما أصاب النشيد من تشويه لسيمفونيته الأيوبية باعتقادهم أن الأصوات الناعقة التي رددت النشيد أجمل صوتاً وأداءً من واضع لحن ذلك النشيد أيوب طارش، فمُسِخَ النشيد لغوياً ومعنوياً.. لأن اللحن الذي يسمعه الناس لا يؤدي ١٠% من ذلك الإحساس بالفخر والتاريخ والرجولة والحضارة الذي في النشيد عند ولادته.

والفضول بإحساس الشاعر العظيم أستلهم من حياته وإدراكه للأرض اليمنية وللإنسان اليمني وحدة الأرض وحدة الإنسان،.. فألحم وحدة الإحساس بالانتماء عند الناس. وجعل من النفوس الأرض الأولى التي تتوحد فوقها الأوطان التي مزقها الأعداء والاستعمار البغيض، لأنه عاش فترة التحولات السياسية والإنسانية، وخاض غمار الوحدة بروح الشاعر الذي ما أنفك يهز الضمائر غارساً بذور الشعور العظيم بالانتماء لأمة واحدة يجمعها التاريخ والحضارة والثقافة والعقيدة والدم والإحساس والأحاسيس والتقاليد ووحدة المصير المشترك ويجمع بينهما خندق النضال والتضحيات وتدحرج الجماجم ووحدة الضمير،.. والأهواء و الرشاد، وكانت الأشعار الوطنية التي ألهبت أحاسيس الشعب اليمني كافة في مرحلة مصيرية وحاسمة وكانت له أثرها العظيم في الأجيال ، وإن تقلبت الأهواء السياسية والمصالح الذاتية التي لا تبقى على حال، فكان البقاء للأقوى شعوراً بوحدة

(١) كتاب الثقافة والثورة – باب الأناشيد الوطنية.

الأرض، وحياة الفضول ألهمته أن يغني للوحدة في وقت خرصت فيه كل الألسنة فكان شاعر الوحدة اليمنية بحق، وشاعر الإنسان اليمني وشاعر الأرض اليمنية.

فهل آن لنا كي نقرأ هذا النشيد الرائع للشاعر الخالد:

يا شمالاً يحمل الهم بنا مُطرقاً يصغي إلى همِّ الجنوبِ
وهو سوف يمضي الليل من آفاقنا لنلاقي الفجر في يوم قريبِ
وحدة الشطرين في أعراقنا نغمٌ تعزفُه نبضُ القلوبِ
فهي في الزورة من أشواقنا إنها لُقيا حبيب بحبيبِ
وهي ايمآء إلى اشراقنا لن نلاقي بعدها وجهَ غُروبِ
وبها تصرخُ في أعماقنا ذمةُ التاريخ في صوت رهيبِ
فإذا ظلّت على أوراقنا كَلَماً تُذرا على وجه الدروبِ
فستمضي النارُ في احراقنا أبداً، توقدُها كَفُّ الغريبِ
وسيأتي العارُ في أخلاقنا وتلاقينا شماتاتُ الشعوبِ

*****

والمتابع الفاحص للتاريخ وحركة التاريخ ونقد التاريخ وفكر التاريخ، والمتابع البسيط والمواطن العادي.. كلهم يعلمون وحدة الأهداف والعمل والكفاح الذي أضطلع به الإنسان اليمني من أجل حرية اليمن من ظلام الأئمة ونير الاستعمار، ويكفي لنفهم دور بن لبوزة في ثورة ٢٦ سبتمبر ودور الفدائيين في رحيل الاستعمار.. ولندرك أبعاد الهم الذي أضطلع به الإنسان اليمني لتحرير اليمن أرضاً وإنساناً لأن كلاهما مكمل للآخر بلا جدال،... والتاريخ يلخص هذه القضية التي أوجزها لنا الفضول في بيت واحد من الشعر وهو البيت الأول،.. لأنّ وحدة الهم الوطني سيجعل الليل يرحل من آفاقنا، فالوحدة اليمنية عند الفضول ليس وحدة هلامية بل وحدة الآفاق البعيدة، لأن الوحدة هي لغة العصر (عصر التكتل والوحدة)، ويؤكد الفضول باللام) لنلاقي الفجر لكن متى؟.. في وقت قريب، بالتحرر تكون الوحدة والفجر الذي يأتي كنتاج طبيعي لوحدة الهم والأرض والإنسان والآفاق والمستقبل.. لأن الوحدة في أعراقنا – والأعراق تلخيص لما مضى من الزمن الضارب في القدم، ولما سيأتي من الزمن المستقبل، وهذه الوحدة ليست كلام بل نغم تعزفه نبض القلوب وحركة الحياة والناس، وليس نبض قلب بمفرده بل كل القلوب،.. فهي في الزيارة الواحدة من الأشواق، ولقاء الحبيب بالحبيب، لأن الوحدة ممتدة في النسب والجنس والدم واللحم وتفاصيل الحياة والوحدة عند الفضول هي الطريق إلى الإشراق والازدهار، والشعوب بالوحدة لا تلاقي وجه الغروب والضياع والظلام، والوحدة أمانة لأنها في ذمة التاريخ تصرخ في أعماقنا بصوت رهيب (وحدتي ... وحدتي.. الخ).

أما إذا بقيت شعارات الوحدة في الأوراق عبارة عن كلمات ملقاة في الطرق والدروب وفي بطون الاتفاقيات الواهية كبيوت العنكبوت، فإن النار ستلتهم كل شيء في طريقها، ويظل الغريب يوقدها أبداً، والغريب عند الفضول رائعة التعبير والنفاذ والعمق، فما أكثر الغرباء وما أقوى كفوفهم لإحراقنا إذا لم نتوحد قولاً وعملاً، أرضاً وإنساناً لأن موقع اليمن الجغرافي يجعل كل الغرباء يمضون في إحراقنا وبأغلى ثمن.

وحتى لا يصيب أخلاقنا وأهدافنا العار، وحتى لا تلاقينا شماتات الشعوب، ... غنى الفضول للوحدة اليمنية، وكأنه يقرأ التاريخ بأحرف من نور ونار، ولأن الفضول غادر الدنيا عام ١٩٨٢ يوم ٨٢/٧/٥م – وانتصار الوحدة تحقق يوم ٩٤/٧/٧م.. فما أغرب المصادفات وما أروعها، وما أجدر الفضول بهذا اليوم أو ذاك ليكون يوماً نملأ فيه الدنيا ابتساماً.. ومن ملأ الدنيا ابتساماً غير شهداء الثورة والوحدة؟! ومن الذي جعل الدنيا مليئة بالابتسامات غير الفضول؟ فهل وجدت أمة من الأمم شاعراً من شعرائها.. وصل إلى تصوير أعظم من هذا التصوير أو أدنى من ذلك بقليل؟!

لا شك إذن أن الفضول وشعر الفضول كانا المدماك الأول الذي على بنيانه قامت الوحدة اليمنية وترسخت قواعده المكينة.. الرشيدة فهيا نملأ الدنيا ابتساماً:

أملأوا الدنيا ابتساما وارفعوا في الشمس هاما
واجعلوا القوة والقدرةَ في الأذرع صلباً خيراً وسلاما
وذروا الحق هو المعنى الذي فيه تمضون وتُمضون الحساما
احفظوا للعز فيكم ضوءه
واجعلوا وحدتكم عرشاً له
و احذروا أن تشهد الأيام في صفكم تحت السماوات انقساما
وارفعوا أنفسكم فوق الضحى أبداً عن كل سوء تتسامى

****** ******

وفي هذه القصيدة تتجلى مشاعر الفضول جلاءً عظيماً، حيث كان مدركاً لعواقب المعارك التي تطحن الأخوان الأبرياء، وكان يجسد إيمانه بوحدة الأرض ووحدة الإنسان في كل ما يقول أولاً لإيمانه بحتمية الوحدة وثانياً لأنه كان ينْزع من منزع خاص يتمثل في أن الفضول من أولئك الذين ارتبطوا أسرياً في عدن، وكان هذا المنزع يزيد من دوافع الوحدوية لا شعورياً، وهذا لا ينفي، المنْزع الأول وحدة الأرض والإنسان، وما زالت ((طوابير الدفاع الشعبي عن صنعاء من أبناء حضرموت ويافع تماماً وجنباً إلى جنب مع أبناء صعدة وذمار، فكتبت تلك الدما وبحق ديباجة الوحدة))[1] ووقع عليها الفضول بخطوط جميلة على نفوس الناس جميعاً.

(١) ثمانون عاماً من حياة النعمان //٦٠- عبدالرحمن بعكر.

والشاعر يطلب من الشعب أن يملأ الدنيا ابتساماً و تسامحاً لترتفع شمس الوحدة والمجد فوق هامات الشمس، ويطلب منهم أن يجعلوا القوة والقدرة في الأذرع صلباً وقوياً للخير والسلام وهو معنى يؤكده الشاعر في كل أناشيده الوطنية، ويطلب أن يكون الحق هو الدرب الذي نسير فيه، أو نقاتل عليه، ويأمر الناس أن يحفظوا ضوء العز وأن تكون الوحدة عرشاً للحرية، ويحذر الشاعر أن تشهد الأيام (مهما تقادمت) في صفوفنا انقساماً، آمراً أن يرفع الشعب نفسه فوق الضحى وفوق الصغائر.. وأن يكون أكبر من أن تفرق صفه تافهات المؤامرات.

وذاتية الفضول الشعرية نابعة من عمق إحساسه الوطني، فهو عندما يتحدث للوطن أو عن الوطن فإنه يعطي لذاته بعداً قوياً، وهذا البعد ليس مقصوداً بحد ذاته، بقدر ما هو امتداد لحب الوطن، وعندما يعبر الشاعر عن ذاته وحب الوطن، فإن ذاته في تلك اللحظة ليست ملكاً له و انما هي ملك لكل الناس، فمشاعره لم تعد في لحظة الانفعال الشعري تحت سيطرته وإنما تحت سيطرة حب الوطن ولأنّ الوطن للجميع فالشاعر يعبر عن حب الجميع لأن قلبه ينبض بما تنبض به كل القلوب.

وما من مناسبة وطنية إلا وللفضول فيها صولات وجولات، و كأنه خُلق ليتغنى بأعياد الوطن أو كان الوطن ليس له إلا الفضول ليتغنى به، والمناسبات الوطنية تمر مرور الكرام على الملايين من الناس، أما الشاعر الفضول بالذات فلم يترك مناسبة وطنية إلا وأشعل ذاكرة الشعب وأيقظها في نفوسهم النائمة، فبقى حب الفضول لوطنه الأغنية التي تطرب الملايين من عاشقي الأوطان.

وفي قصيدة (أمتي لا تفزعي) التي كتبها الفضول في ذكرى يوم الجيش.. وقد أثبتناها سابقاً – يبث الفضول قوته النفسية في شعره وفي أمته فلم تعد ترعبه الدماء، ولم يعد يفجعه الموت، لأن كفيه قد أدمنت دفن الشهداء، فحياته كلها أحزان وقد نثرها الشاعر وملأ بها الأيام – أيامه الحزينة – ولذلك فلا جدوى من البكاء وقافلة الشهداء لا تتوقف فكلما ودع الشاعر شهيداً – تابوتا– جاء شهيد آخر يخرس دمع الشاعر الذي كان يتهيأ لرثاء الشهيد الأول، ومع ذلك فالشاعر يتساءل ويشكو عينه التي لم تعد بكاءاة – كما كانت عادتها – حينما يهم الشاعر بكتابة الرثاء وكما كانت عادة عيون الشعراء.. التي ملأت دموعها الأوراق والأطراس، رغم أن الشاعر كان معروفاً بسخائه وكرمه بالدموع، التي أضحى يكترها في محاجرها، ويمضي الفضول ليؤكد أنه لولا جلال الموت ولولا مهابات السماء، ولولا حياء الشاعر لكان شيع توابيت الشهداء التي ضمت أشلاءهم بدمائه.. لأن الشهداء للفضول هم الأغنيات ولحن الخلود وخلود الأناشيد وصناع البقاء، والشهداء هم مجد الشاعر، لأنهم علموا قلبه الظامئ حب المجد، والشهداء هم صداقات الشاعر – كرمز للإنسانية وللمبادئ – في حياتهم وكفاحهم ورفضهم للذل، وهم صداقاته في قبورهم أيضاً

لأنهم لم يبتعدوا كثيراً عنه فهم في خاطره، ومازالت أرواحهم وخيالهم وطيفهم تزور الشاعر نهاراً ومساءً، ويكاد الظلم والضيم الذي تعرض له الشهداء والصداقات – يلاحقهم حتى أكفانهم – يذري وينشر العبق فوق كساء الشاعر، لأن ذلك الظلم الذي تعرض له الشهداء قد تحول إلى عبق ومسك وفل يتنفسه الآخرون.. وبقدر هذه النشوة الرائعة من عبق الشهداء فإن أحاسيس الشعر يذبحها أذى الأهل (في الوطن والواطن العربي)، وحقد الغرباء (الأعداء)، والفضول يفرق بين الأذى والعداوة، فالأذى من الأخ، والحقد من الغرباء، ورغم الأذى من الأخوان وحقد الغرباء فإن أحاسيس الفضول لا تزال ضاحكة ولم يعكر صفو سمائها الأذى والحقد، لأنه يغسل أحاسيسه في ندا الفجر وفي صفو السماء، وكلما ذهب شهيد بعث في نفس الفضول وفي شعر الفضول شعور الكبرياء والشمم، فيرتفع رصيد العظماء بازدهاء الفخر الذي كسا الشاعر، والشاعر لا يفخر ولا يزدهي إلا بالعظماء والعظماء بعين الشاعر هم الشهداء.

ثم ينتقل الفضول انتقاله نفسية فيخرج من (أنا) ليدخل في (نحن)، بتراتب شعوري مذهل، فهو من أرض ما لبست روحها ثوب حداد أو عزاء، لأنها أرض الشهادات و التضحيات، فما لاح على وجهها ملمح الثكل والموت والفقدان، وما سقطت من وجهها دموع الجبناء الضعيفة، لأن الوطن والأرض أرض تحد و أرض خير، فكلما مضى شهيد في فداء الأرض، شد المجد على يد أرض اليمن فخوراً بالفداء والشهيد الجديد وكل شهيد وفدائي، فاليمن وأرض اليمن تلد دوماً نفوس البسلاء والشجعان من الرجال ن ومتى زدنا عطاءً وبذلاً، زادنا طبع الأرض اليمنية الباذل للخير عشقاً للعطاء.. [1].

ولذلك فالشاعر يتساءل: كيف أصبحنا خصومات و أرقام غرم وعداوات.. وتلك هي مفاهيم الغباء – ولأن الشاعر من أولئك الذين عشقوا المبادئ والخير، وأن الخصوم والغرماء لعاشقي الحقد والخصومات،.. الحاقد لا يريد ولا يسعده أن يرى رجال خير أبداً، ولأن تلك هي أخلاق الشاعر فقد مزقت تلك الأخلاق كل الأغطية التي على وجه وصباح الخير والتسامح.

فمن البشاعة أن يصبح الحل بالرصاص والسلاح، أو اعتبار الحوار بين الناس غدراً أو اقتناصاً للفرص، لأن ذلك عكس لوجه الحقيقة وقلب وخلط للأمور،.. فالحوار بين الناس هو طريق السلام السرمدي، ولكي يبرهن الفضول على بشاعة حوار الرصاص يقول إن كل ذي عقل أرتكب تلك الحماقة والبشاعة ثم يغدو فإنه سيرى بشاعة ما قام به عاراً يجب الخلاص منه، لأن الماضي البشع اختصاصاً وواجباً على تلك الضلالات والأعمال، فلا تريد أن تتذكر بشاعة جرمها وفظاعة حوارها الرصاصي الحارق الخارق.

---

(١) بعض الأبيات في قصيدة أمتي لا تفزعي قد نجدها في نشيد (هذه يومي فسيروا في ضحاها) و ذلك لأن الشاعر كان كثير التبديل والتنقيح لقصائده.

فيا أحقاد موتي، أو أبدلي إرضاعك للشر بغيره إن كان لا مناص من إرضاع أحد، فاشر ضرر و دمامات وهو يرضع الشر من ثدييه، ولأنه شر كبير فقد مزق الشر ثدييه رضعاً و امتصاصاً، فهل سبق لشاعر أن يصور الشر بهذا التصوير الفريد، فالشر لا يتردد عن احراق وقتل نفسه وإزهاق أنفسه لإلهاب الشرور من حوله، وما تلك اللحود والقبور والأخاديد التي على الأرض وعلى الوجوه إلا من تلك الدمامات التي أوجدها الشر حتى امتلأت الأرض بالأخاديد وشبعت باللحود، وكأنه لا مناص للدمامات ولا شرور من عمل ذلك، وكأن لا حياة لها إلا بذاك وبتلك الأخاديد واللحود.

ومن مأساوية الحال هنا ينتقل الفضول إلى إلهاب مشاعر الأمة والساحة، وتذكيرها بالتضحيات، وما أكثر التضحيات في اليمن فيخاطب الشاعر ساحة الوطن ويطلب منها أن لا تفزع أو ترتعش فكم من فاتك وشجاع أرواها بدمائه، ويطلب من الأمة أن لا تفجع لأنّ الغادرين الذين جلبوا لها الأحزان كثيرون، ويلتفت الشاعر مخاطباً راية الوطن ويذكرها بعدد المرات – وما أكثرها – التي كانت فيها أكفاناً للشهداء، ويختتم الشاعر الثلاث الأبيات الأخيرة بقوله إن الأرض المؤبؤة هي التي يقتل السيئ فيها الحسنا – وما أكثر ما قتل السوء الجمال.

ومهجة الشاعر هي عاصمة الأسى والحزن بل هي مهجة للمآسي وطناً، فصاحبه مات شهيداً و الأب مات شهيداً والأخ مات شهيداً، فهل بعد هذه أحزان، والأحبة مضوا في الشهداء، ومع ذلك فالشاعر لم يبق وحيداً على الدرب – درب الحرية – لأن قافلة الثورة ما زالت ماضية في طريقها والقافلة هي كل أبناء الوطن،.. وقوة القافلة ودروعها و أهدافها وأخلاقها تحتضن الفجر الوليد (فجر الحرية)، والشعب والركب يمضي إلى الأمام، وفؤاد الشاعر يملأ الدنيا نشيداً بأهازيجه وأغنياته، وهي عند الفضول هي هنا عند الزبيري، وهنا أكفان من ماتوا، وهذه الأكفان تلوح وهي تزحف إلى الخير جماعات جماعات، وبنوداً بنوداً، فالشعب لم يمت من الموت، فقد عاش الشعب يعطي الموت النعوش واللحود، والوطن أرض السماحات التي أنفقت أرواح الشعب بذلاً وجودا، في ارتجاف الساحات بالحروب والغارات، أ وفي المحاريب ونحن عاكفون على السجود شكراً لله، يؤكد الشاعر بأن الفجر لن يضيع من قبضة الشعب ومن آفاق الأرض اليمنية ولن نرجع لليل عبيداً.

وكم من الشهداء قد ذهبوا، وكم من الشهد الذين سيذهبون لله الذي وهب الحياة للناس، وكل الشهداء الذين ذهبوا أو سيذهبون هم من الوطنيين الأحرار الذين يفضلون الموت وهم أحرار رافضين أن يروا حقاً لهم قد غلبه وسلبه الباطل حقه في الحياة والجذوع التي حملت أجساد الشهداء الشهماء والتي صلبوا فوقها وما أكثرها، والاثم مشى على ساحاتنا يوقد النار، ويشعل اللهب ولفتن، ولكن الأثم والآثم كانا حطباً لما أوقداه من فتن

وأشعلاه من لهب ونار، وبقينا وسيبقى معنا الخير قاهراً ولن يغلبه الشر أبداً، وسيبقى الدم الذي سال على أرض الوطن مشعلاً ملتهباً ومصدراً لقوتها وعيشها وبأسها، وسنبقى أكرم الناس صدوراً، وأوسع صدروا، وسيبقى بذلنا أسطورة تتحدث عنها الأجيال وتملأ التاريخ ذكراً نافعاً وكلما طاف بنا شر أو مكروه سنملأ أرواحنا صبراً جسوراً وليس صبر الضعفاء لأن الأيام قد جاءت بنا بشراً يلقون الموت وهم في صغرهم لأننا أطفال يشيبون عند الفجر، ونحن أوفر وأكثر الناس من الأحياء والأموات الذين ملأنا الأجداث والدور – (الأجداث بالأموات) (والدور بالأحياء) – هناك بالشهادة وهنا بالحرية والنضال – كرماً منا بالتضحيات لأننا هكذا عشنا نحن ومن يكبر منا فهم شهداء وفداء أو قبور للباطل،.. بتضياهم الجسيمة من أجل الحرية،.. وتلك كانت نداءات الفضول إلى أمته وهو يطلب منها إلا تفزع من تكالب الحاقدين الغرباء أو أذى الأهل .... وما أذى الأهل؟

أنشودة الأناشيد ... أو نشيد الدهر..!

أما قال أبو الطيب المتنبي (وما الدهر إلا من رواة قصائدي ...)؟!

أما قال عبدالله عبدالوهاب نعمان (الفضول).. (رددي أيتها الدنيا نشيدي)؟!

أليست قصائد المتنبي وشاغل الدنيا والناس هي أناشيد الفضول التي رددتها الدنيا.. وما الدنيا إلا اليمن؟!

أليس دهر المتنبي هو دنيا الفضول (اليمن)؟!

أما والله إن أناشيد الفضول هي أناشيد الدنيا

وان نشيد (رددي أيتها الدنيا نشيدي لهو نشيد الأناشيد.. وأنشودة الأناشيد.. ولو لم يقل الفضول غيره لكفاه.. ولو لم يغن أيوب غيره لكفاه ولو لم نسمع غيره لكفانا نشيداً بهذا الحجم ولو لم يردد الفضول و أيوب غيره لكفاهما معاً، على امتداد الدهر لأنه النشيد الذي تتعلق بأسبابه نفوس البشر في كل الدنيا وأبد الدهر، لأن الدهر أنشودة إنسانية، وأوتار الحياة يعزفها الناس بأنغام يتردد صداها لتهتز مئات السنين وملايين الأفئدة.. بلا انتهاء إلا بانتهاء الحياة وحينئذ رددوا، وررد، ورددي أيتها الدنيا نشيدي، واعزفي يا قلوب (هذا) السيمفونية الخالدة (سيمفونية السيمفونيات الخالدات) وازأري يا دماء بثورة الأناشيد التي جمعتها الأقدار عام ١٩٧٧م.. لتتفجر موهبة الفضول في المدينة الحالمة تعز فأنطقت الدهر، وصخور الجبال وذرات الرمال و انداء الظلال وجاوب صدى هذا الانفجار موهبة أخرى صادف وجودها – يومئذ – في مدينة صنعاء عاصمة اليمن ... فعزف أيوب طارش رددي أيتها الدنيا نشيدي، ورددت معه الدنيا فرحة الشهداء التي منحت الدنيا حللاً من ضوء أعيادها فأطلت رؤوس الشهداء – (حقاً) من قبورها في الثرى الغالي، لترى ما قد سقت بدمائها من غروس، ولترى أجيالاً رشيدة (لم تضل هدفها وسبيلها وأملها) ولترى أجيالاً قد هيأت نفسها للفداء الضخم بتوحيد الأوطان، ولترى الهامات

والنواصي وهي تعلو و يرتفع شأوها في ضحى اليوم الذي طلعت فيه شمس الحرية،.. لأنها هامات الأبناء والأحفاد والرجال والعظماء في اليمن، والتي ستحمي كل ما بين يديها من جلال وقدسية الوطن، ولتبقى كل صخور جبال الوطن وكل ذرات الرمال، وكل أنداء الظلال.. خالدة الضوء على كل المسالك ... لأنها ملكنا وملك أمانينا الكبيرة، ولأنها حقنا جاءت من أمجاد ماضيك المثيرة للاعجاب، ولأنها ارثنا في سيوف زارت الدنيا المغيرة فاتحة لأبواب المجد فيها،.. ولتمشي في خطى الواثق كسيل وسط ليل يرتمي – بجسارة واقدام وتضحية – لأنها أرضنا التي زرعت في شفاهنا ابتسامات الخير (في السلم) وزرعت في فمنا أنياب الأسود (في الحرب) / وايمان الإنسان اليمني في دمه يؤاخي بين فرحة النصر (في السراء) وبين حزن المأتم (في الضراء) ولذلك فوجود الإنسان اليمني لا يخشى من العدم أو الموت إذا لم تكن حياة بحرية وعزة وشرف ... أما قال المتنبي يوماً:

لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى ما لم يُرَقْ على جوانبه الدَّمُ

ولكن قبل أن يراق دم جديد.. هيا نملأ الدنيا نشيدا:

رددي أيتها الدنيا نشيدي ردديه وأعيدي وأعيدي
واذكريه في فرحة كل شهيد وامنحيه حُللاً من ضوء عيدي

****** ******

كم شهيد من ثرى قبر يُطلُّ ليرى ما قد سقى بالدم غرسه
ويرى جيلاً رشيداً لا يضلُّ للفداء الضخم قد هيأ نفسه
ويرى الهامات منَّا كيف تعلو في ضحى اليوم الذي أطلع شمسه

يا بلادي نحنُ أبناءُ وأحفادُ رجالك
سوف نحمي كلَّ ما بين يدينا من جلالك
وسيبقى خالد الضوء على كل المسالك
كل صخر في جبالك كل ذرات رمالك،
كل أنداء ظلالك في جنوب وجدت أو في شمالك
ملكنا.. ملكنا..
إنها ملْكُ أمانينا الكبيرة
حقنا.. حقنا.. حقنا..
جاء من أمجاد ماضيك المثيرة
ارثنا.. ارثنا.. ارثنا..
في سيوف زارت الدنيا مغيرة
******

في خُطـــى الواثـــق تمـــشي قـــدمي مثـــل ســـيل وســـط ليـــل يرتمـــي
هـــي أرضـــي زرعـــت لي في فمـــي بـــسمة الخـــير ونـــاب الـــضيغم
وهـــو أيمـــاني يـــؤاخي في دمـــي فرحـــة النـــصر وحـــزنَ المـــأتمِ
فوجـــــودي لـــــيس يخـــــشى عـــــدمي

******

بالبناء والسلام قد بهرنا الخير بالخير التزاما
بالفناء والحمام قد قهرنا الموت للموت اقتحاما
بالوفاء والذمام نحن أوفى الناس للناس ذِماما

******

سوف تبقى في مدى الأيام أخلاقنا زاهيةً لن تَخْلَقا
وسيبقى وجُهك المشرقُ يا وطني بالضوء مناً مُشرقا
وسيبقى قاهرُ الشعب على وجه أرضي عدماً لن يُخلقا
ليس منَّا أبداً مَنْ مَزَّقا
ليس مَنَّا أبداً مَنْ فَرَّقا
ليس مِنَّا أبداً مَنْ يسكَبُ النارَ في أزهارنا كي تَحْرَقا

******

.. وحدتي ...وحدتي
يا نشيداً رائعاً يملأ نفسي
أنتِ عهدٌ عالقٌ بكلِّ ذمَّه
.. رايتي ... رايتي..
يا نسيجاً حكته من كلِّ شمسِ
اخلدي خافقةً في كل قمَّة
.. أمتي ... أمتي
امنحيني البأس يا مصدرَ بأسي
واذخريني لكِ يا أكرمَ أمه

****

عـــــشت إيمـــــاني وحُبِّـــــي (أمميـــــا)
ومـــــسيري فـــــوق دربي (عربيـــــا)
وســـــيبقى نـــــبضُ قلـــــبي (يمنيـــــا)
لـــن تـــرى الـــدنيا علـــى أرضـــي وصـــيًّا

******

رددي أيتـــها الـــدنيا نـــشيدي رددیـــــه وأعيـــــدي وأعيـــــدي
وأذكريه في فرحـــة كـــل شـــهيد وامنحيه حُللاً من ضـــوء عيـــدي[1]

والآن هل قرأنا النشيد بتمعن، وهل سمعناه وأيوب يعزف ألحانه الخالدة؟!

قبل ذلك ليس لأحد أن يتكلم ... وإن سألتم لماذا؟

فالجواب هكذا:

إن الفضول لم ينظم من الأناشيد الوطنية غير هذه (رددي أيتها الـــدنيا نـــشيدي – الوطن المضياف – يا سماوات بلادي باركينا – هذه يومي فسيروا في ضحاها – هتافـــات للشعب – أملأوا الدنيا ابتساماً – أمتي لا تفزعي – شعلة السبعين) والأخيران لم يتجسدا غناءً وكان قد نظم هذه الأناشيد الوطنية الخالدة..

في السنوات الأخيرة من عمره وهي لا تتجاوز الثمان سنوات تقريباً، حيـــث نظـــم نشيد الأناشيد (رددي ايتها الدنيا نشيدي) عام ١٩٧٧م تقريباً.

ويلوح من النشيد ومعانية و وجدانات التجربة الشعرية أنَّ الفضول قد نظم نـــشيد الأناشيد تحت مؤثرات عالية من ارتفاع في المعنويات التي جعلته يتربع على عـــرش حـــب الوطن، وتحت هذه المؤثرات القوية التي سكنت قلب الفضول نظم نـــشيده الوحـــدوي الخالد، وكأن الأقدار هيأت الفضول لينظم النشيد الذي ملأ الدنيا ابتساماً (٧٩م) ورددته الدنيا بحماس لا حدود له، وهو حماس تهتز له أعصاب الأجيال وهي تردده مع الـــدنيا في المدارس وفي المعسكرات في السهول وفي قمم الجبال آناء الليل وأطراف النهار،.. وقد نظم الفضول نشيداً ملأ الدنيا ابتساماً أواخر (١٩٧٩م). أمَّا قصته فهي عجيبة، فعندما نظمـــه الفضول – كما هي عادته – أسمعه لقائد عسكري في صنعاء ثم أعطاه النشيد مكتوباً، وبعد فتره صادف أن كان أيوب طارش عبسي في صنعاء وفي ذلك المعسكر، فأخرج له القائـــد العسكري ذلك النشيد، ولما قرأه أيوب أذهلته كلمات النشيد وأخـــذت بمجـــامع قلبـــه وفكره، ولما كانت أعياد الثورة السبتمبرية الخالدة على الأبواب تقرر أن يضع له أيـــوب ألحاناً تهز الأفئدة المحبة للوطن، وتخلع نياط قلوب الأعداء من الأهل ومن الغرباء، فعـــاش أيوب في نشيد الأناشيد أو قل عاش نشيد الأناشيد في نفس أيوب، فكان لحن وطني مـــن صميم الأرض جمع بين رجولة الصوت والأداء والجمال المثالي.. فكان اللحن الذي تقلب بين نيران من الأنغام الخالدة، التي باحت بها الفطرة الأصيلة والنفس النبيلة في أيوب.. فأتم أيوب تلحين نشيد الأناشيد ثم أسمعه ذلك القائد العسكري وثم تسجيله، وأرسلت نسخة من النشيد إلى الفضول في تعز، وبمجرد ما أستمع إليه الفضول أمسك بالهاتف ليهنئ أيوب على روعة اكتمال نشيد الأناشيد، وكان هناك مطرب آخر حاول أن يضع لحناً للنـــشيد،

(١) كتاب الأربعينية – مؤسسة سبأ للصحافة والأنباء. ملحق خاص بالشعر.

فكان لحناً سقيماً ... رفضه الفضول رفضاً قاطعاً.. فكان عيد سبتمبر يومئذ هو عيد نشيد الأناشيد عيد الفضول وأيوب بحق [١]... وصرح به أيوب طارش لأول مرةً علناً في المنتزه بتعز في احتفالات الثورة عام ٧٧م

... وهكذا دوماً تأتي عظائم الإبداع الإنساني.

ولو قلنا ما ذكرناه سابقاً من الأبيات أو استعرضنا ما يتعلق بهذا الموضوع لما انتهينا من عمق صورة الشهداء في نفس الفضول، وتلك صورة أوضحناها ونزيدها تأكيداً بصورة استشهاد أبيه المرعب، وسقوط جماجم الأحرار في ثورة الدستور وعلى مدى السنوات التي جاءت من زيد الموشكي وحتى محمد محمود الزبيري رفاق دربه وطرحت النتاج بين يـــدي الشعب.

ولأن هم الفضول الوطني كان سرمدياً، فقد كان نشيد (املأوا الدنيا ابتساماً؟!.

وقد كانت هتافات الفضول فرحة لملء الربوع السعيدة ويقظة دون الهجوع، و وثبة دون الرجوع، ونيران الضلوع تحت الدروع، وإحراق الأكباد تحت الضلوع ... وكـــان ذلك كله للشعب للشعب وحده،.. فالشعب وحدة،.. فالشعب جيش لا يذل، وأولى من يُجَل، والشعب شهم وكريم لا يُغل، والشعب أفياء وظلٌ ....

وغنى الفضول للشعب أناشيده، ومجد خلوده، ودمه الغادي – أي الذي ذهب لري الأرض أرض الحرية – الذي صاغ تاريخاً فريداً، ومجد فيه العطاء والوفاء والسخاء وذكـــر بالضحايا، وطلب من الشعب سماع أماني الشهداء، وترسيخ الصفوف والاجتماع علـــى قلب واحد فيه النبل والخير، مؤكداً على أن شعبنا فيه الندى والكـــرم وفيـــه الفـــداء والجسارة، وفيه الأصالات الأبدية، والحضارة السرمدية، داعياً إلى رفض الـــذل والهـــوان أبداً، ويخاطب الفضول جباة الأتقياء، وركعة الأيمان تحت ظلال السيوف، وقلوب البسلاء الشجعان، ونفوس الأوفياء، ودماء الشهداء، فركعة الأيمان يركعها الشعب، وراية النصر يرفعها الشعب، ورؤية المستقبل يصنعها الشعب، وبسمة الأيتام يزرعها الشعب .... ففي الأرض اليمنية كل ضمير مؤمن والوطن محرابه، ونفوسنا لن تنثني، وقاماتنا لن تنحني.. لأن القامة فيها عز اليمن ....

فكيف هتف الفضول للشعب؟

الهتافاتُ لمـــن بـــين الجمـــوع إنَّهـــا للـــشعب وحـــده
ولمن فرحتُنـــا مـــلء الربـــوع إنَّهـــا للـــشعب وحـــده

(١) القصة بمعناها عن أيوب طارش (القائد العسكري عبدالله عبدالعالم)، (و المطرب الآخـــر هـــو أحمـــد السنيدار بمساعدة يحي العرشي فرفض الفضول قائلاً له: (إذا أردته أن يغني فاكتب له من شعرك).

ولمـــن يقظتُنـــا دون هجـــوع إنَّهـــا للـــشعب وحـــده
ولمـــن وثبتُنـــا دون رجـــوع إنَّهـــا للـــشعب وحـــده
ولمن أضلُعُنا تحـــت الـــدروع إنَّهـــا للـــشعب وحـــده
ولمن أكبادُنا تحـــت الـــضلوع إنَّهـــا للـــشعب وحـــده

****** ******

اهتفـــوا للـــشعب إن الـــشعب جـــيشٌ لا يَـــذلُ
وقفـــوا للـــشعب إن الـــشعب أولى مَـــن يُجـــلّ
و ثقـــوا بالـــشعب إن الـــشعبَ شـــهمٌ لا يُغـــلُّ
وادخلـــوا في الـــشعب إن الـــشعب أفيـــاءٌ وظِـــلُّ
واعملوا للـــشعب بالـــشعب فمـــا... خاب سيفٌ بيـــد الـــشعب يـــصِلُّ

****** *******

هـــا هُنـــا الـــشعب فغنـــوا النـــشيدا
مجـــدوه .... مجـــدوه مجـــدُّوا فيـــه الخلـــودا
مجدوا فيه الدُّم الفـــادي الـــذي صاغ بالفادين تاريخـــاً فريـــدا

****** ******

مجـــدوا فيـــه الوفـــاء
مجـــدوا فيـــه العطـــاء
مجـــدوا فيـــه الـــسخاء

******

واذكروا منه الـــضحايا واسمعـــوا مالئاً أيـــامكم منـــها النـــداء
وارسخوا فيـــه صـــفوفاً واجمعـــوا شمله فيكم على النبـــل جـــزاء
شعبنا فيه الندى
شعبنا فيه الفدى
شعبنا فيه الأصالات تمضي أبدا
تكذب الأيام إن قالت بأن لها فينا لهونٍ موعدا

******

يا جباهَ الأتقياء ...
ركعةُ الإيمان في ظل البنود ... نحن من يركعها
يا قلوبَ البسلاء..
رايةُ النصر على زحف الحشود ... نحن من يرفعها

يا نفوسَ الأوفياء..
رؤية المستقبل الفخم المجيد.. نحن من يصنعها
يا دماءَ الشهداء..
بسمةُ الأيتام في دفء المهود ... نحن من يزرعها
******

هـا هُنـا كـلُّ ضـمير مـؤمن أنت محـرابٌ لـه يـا وطـني
وهنـا أنفـسنا لـن تنـثني وبهـا ضـعف الهزيـل المـذعن
وهنـا قاماتنـا لـن تـنحني قامـة منـها لغـير الـيمنِ[1]
****** ******

وعندما نستنطق نشيد الأناشيد، يبهرنا الفضول وهو يضع الأسس التي عليها وبها تكون كرامة الأوطان وتقدمها.. ويؤكد على ذلك:

بالبناء والسلام قد بهرنا الخير بالخير التزاما (وقت السلم) وبالغناء والحمام – الموت – قد قهرنا الموت بالموت اقتحاماً (وقت الحرب) وبالوفاء والذمم نحن أوفى الناس للناس ذماما، واحترام المواثيق، وتقدير التاريخ، والإيمان نابع من قلب ينبض نبضاً يمنياً رقيقاً، لأن اليمنيين ألين أفئدة وأرق قلوباً، حفاظاً على الهوية والأصل، والوقوف أمام التيارات الفكرية بصلابة العقيدة والأساس الحضاري، وستبقى أخلاق اليمنيين في مدى الأيام زاهية ونبيلة ولن يصيبها قدم العهد أو التبدل، فبالأخلاق الأصيلة يبقى الوطن مشرق الوجه، لأنه إشراق من إشراق الأوفياء.

ورفض الشاعر العمالة وخيانة الوطن أو التبعية أياً كانت، ولذلك فالدنيا لن ترى على أرض اليمن وصياً أو من يحاول التحكم بإرادة الشعب، ووعي الفضول السياسي والوطني يتجلى في كل معنى نبيل وفي كل لفظ رائع، أو هدف شريف.

وما دام الشعب يعمل على البناء والسلام، ويتخلق بالوفاء والذمم والأيمان بالوطن والعروبة والعقيدة، وينبض قلبه بحب اليمن والهوية الوطنية اليمنية فلن ترى الدنيا على أرض اليمن من يحاول فرض وصايته ونفوذه، سيبقى قاهر الشعب على وجه الأرض اليمنية والأرض قاطبة عدماً ومستحيلاً لأنه لن ولم يخلق.

أما من يحاول تمزيق الوطن فإنه ليس منا أبداً، وكذلك من يحاول أن يفرقنا فهو ليس منا، فكان حكم الشاعر على من يحاول تمزيق الوطن أو تفريقه، نابعاً من عقيدة تقوم على الوحدة أرضاً وإنساناً.

---

(١) مخطوطة صحيفة الجمهورية / ٩٧م.

وليس منَّا أبداً من يسكب النار في أزهارنا كي يحرقها، وما الوحدة عند الفضول غير أزهارنا وخيرنا ومجدنا، وما أعداء الوحدة إلا أولئك الذين يحاولون أن يسكبوا النـــار في أزهار وحدتنا وأهداف ثورتنا، وصفاء سماءنا ولين قلوبنا وصباح آفاقنا.

والوحدة هي النشيد الرائع الذي يملأ نفس الفضول و يملأ نفس كل الوطنين وكـــل أبناء الشعب، وهي عهد عالق بكل ذمة، ومن يقدر على تحقيقها فقد أبرأ ذمته من عهـــد الوحدة نشيد النفس والنفوس، وراية الوحدة،.. هي نسيج حاكة الفضول من كل شمس، فلنتخيل راية حيكت من خيوط الشموس، فما أباها من راية فيا أيتها الراية أخلدي أمـــد الدهر فوق كل قمة، ورفرفي بشمس الحرية التي أتت منها، فما الشمس غير الحرية، مـــا الراية التي حيكت من نور ونار الشمس إلا راية الحرية.

والأمة هي مصدر بأس بأمجادها وبإعطائها الحق لمن يستحق، والأمة ذخر لكل وطن ومحب لوطنه.

اســـألوا الرايـــات مـــن بوأهـــا ... فـــوق قمـــات الـــشماريخ مكانـــا
واسألوا الـــساحات مـــن ألبـــسها ... بالـــدم البـــاذل بـــشراً وأمانـــا
كـــم بهـــا راهنَنَـــا المـــوتُ علـــى ... حوزة النـــصر فلـــم نخـــسر رهانـــا
سوف أبـــني الأرض لـــن يمـــنعني ... أيُّ طغيـــان تمـــادى في ربـــوعي
رهبـــوت البغـــي لـــن تُلبـــسني ... خـــشية الـــذئبان في روح القطيـــع
إن أتـــى الجبـــار كـــي يـــركعني ... قلـــتُ يـــا جبـــار لله ركـــوعي
وإذا أرهـــب ســـوء وطـــني ... فـــدمي يلقـــى لامـــاء دمـــوعي
يعجـــز الـــصائل أن يجعلـــني ... أنحـــني مـــادام قلـــبي في ضـــلوعي
كـــم رأي التـــاريخ منـــا بطـــلاً ... روُحُـــه تـــبني بنـــا المـــستقبلا
وترينـــا روحـــه الـــصدق ومـــا ... أثبـــت الـــصدقُ لنـــا أو أبطـــلا
فعرفنـــا منـــه أن نعطـــي ونـــ ... منـــعَ في الحـــق وأن نستبـــسلا
مـــع مـــن في الحـــق يرضـــاها ... وفي غـــيره نُبـــدلها قولـــة لا[1]

وبقدر تلك الأناشيد الوطنية التي ملأت الدنيا حُباً للوطن وذكراً وفعلت في النفوس فعل السحر، من شحن للهمم وامتلأ بالعزيمة والقوة والبأس،... نقول بقدر تلك الملاحم الوطنية إلا أن الفضول كان يعود إلى نفسه كثيراً ويخلو بها وما تزال ذكرى ثورة ١٩٤٨م ماثلة في ضميره ووجدانه الذي ذاب في أحضان المأساة الشائكة التي أدمت فؤاده منذ وعي على الدنيا، ووجد أباه في سجون الإمام يحيى بصنعاء وحتى سقط رأسه بعد أكثر من خمس وعشرين سنه في ميدان حورة بحجة.

(١) مقاطع من هذه يومي فسيروا في ضحاها استبعدها أيوب طارش من النص لأســباب فنيــة.. وهنــاك غيرها، والنص في صفحات قادمة (مقاطع من مخطوطة عن أيوب)

وفي هذه العودة الذاتية وفي مشرق الاصباح يصوغ الفضول بيانه، ويحبك خيوطه بضوء فتان يخلب لب الناظرين فينسيه هذا الاصباح أحزانه التي ولعت بها نفسه التي جنحت كثيراً إلى الأشجان وأغني الأحزان التي إذا ما رحل منها حزن كان مقيماً في عينيه، دمعت عينه لحزن ثان وهي دموع يكاد يرجع من هملت الدموع لأجله ليعاتب الأجفان على سيل الدموع هذه وهي دموع أسرف فيها الشاعر كثيراً على نفسه مما جعله يشكو من جفاف عينه التي ترغب في البكاء والدموع لأحزان جديدة لكن الشاعر لا يجد في عينه دموعاً تسعفه على البكاء على مأساة مستمرة رغم كل التضحيات.

والفضول يعطي كل الذين يهبون نفوسهم خلاصة الوفاء والعرفان المطلق، فهم من أحنت وأركعت لهم كلمات الفضول العروش والسيوف وصولة التيجان، لأنهم حموا المشاعل و الأضواء في طريق الحرية، وهي مشاعل لهب عريضة لتضئ مسارح الغيلان – جمع غول – وما أشد ظلمة مسارح الغيلان، ولأن حاملي المشاعل سقطوا عام ٤٨م فإن الشاعر ليكاد يلمح في الشعاع – الذي تركوه بأهدافهم – وجوههم تحت الضحى الدؤوب نحو الحرية وهم يمشون في الأكفان وما يمشون في الأكفان إلا لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، ويكاد يلمح في الشعاع وجوههم صورة ذاتية لما كان عليه واقع الأمر مع أبيه.

ومثل أولئك الشهداء وهم يمشون في أكفانهم،فإنهم يذرون ويبذرون المجد الطيب حيث تساقطوا، وبسقوه بدمائهم التي تعبق بالريحان [1]وهم في حميتهم وشجاعتهم وبسالتهم ودفاعهم عن الوطن يفعلون ذلك بحميتهم الوطنية التي سكنت شغاف قلوبهم.

وبذلهم الرائع في روحه وطن يبحث عن الحرية وهو التحول والخيانة وهي حماية تمنع من وصول الخيانة إلى بذلهم كما تمتنع الأكفان التي تسير في شعاع الضوء من أن تنال عقاب الجلاوزة والجلادين وهو بذل لم يأته سيل العرم ليطفئه، ولا مشت في جواره وجانبيه غرارة الصبيان وجهالتهم وخلافاتهم التافهة،.. وهو بذل ورع وتقي متثبت بالمبادئ ورع الخطى (بدون دماء) وهو بذل لم يشعر الشاعر بالخزي منه كما شعر بالخزي في غيره (لم يخزني منه الذي في غيره أخزاني – وهو بذل غناه الشاعر وشغل أوتاره به، وطرحه – وصاغه – نغماً على أوزانه النفسية و الشعرية .....

ولكن الشاعر يستيقظ من دموية البذل التي لحقته.. فقد حسب الشاعر أن ذلك البذل هو أمن لجميع الناس، ولكن اليقين جاء صادقاً معاتباً حسبان وخطأ اعتقاد الشاعر، ومشى غرور صدق اليقين والعتاب يسكب فوق طباع وصفات المغرور وصدق اليقين والعتاب والاعتقاد والحسبان جرعاً تذهب بكل ذلك إلى الإدمان على صدق اليقين وحسن

(١) قراءة بسيطة لأبيات من قصيدة ذكرى ثورة ١٩٤٨م.. أما القراءة الفنية ففي كتاب عن الأبعاد الفنية في شعر الفضول مستقبلاً بإذن الله ومنه العون والسداد.

الظن والحسابات الخاطئة، ثم ينتهي كل ذلك بالفشل الذي تكرر عدة مرات أو بالفشل المتكرر والطويل،... والأبيات وقصائد الشاعر تفيض بالسخرية من كل شيء ما مضى وما هو كائن.

ثم ينتقل الشاعر في قصيدة في ذكرى ثورة ١٩٤٨م من ديوان الفيروزه إلى حزنه الذي خصه لمن هم طفولة أنفسهم وعقولهم التي عجزت أن تكبر مع الأحداث وفوق الضحى ولم يكبر فيهم غير أبدانهم ولكن ما للشاعر وللعجز الضخم الذي يسكن نفوس هؤلاء والغباء الذي تلازمه حداثة الأطفال والغلمان الذين كبرت أجسامهم ولم تكبر عقولهم ونفوسهم.

ولكن ماذا يريد العاجزون ...

غير إحباط همم غيرهم، وتكريس العجز و الشلل وروح الاستسلام.

(وماله.. لا يستقرُّ ترنُّح العرجان) وهنا يقف الشاعر بين حالتين حالة العجز عجز الشعب ومحاولة البعض إحباط همم غيرهم، وحالة ترنح الحكم الذي لا يستقر،ولا يستطيع الناس القضاء عليه لعجزهم ولاحباطاتهم التي تسكن أنفسهم.

ويا عجزُ.. كم ذهبت بقاعك – ميدان التردد – نفوس ونفائس غالية، لأنه لا أحد يدافع عنها، وكم ذهبت بقاعك أنفس ارتضت العجز لها ميداناً ومأوى ومسكناً، وهي نفوس لا تستريح إلى السمو والحرية، لأنها نفوس طُبِعَتْ على العجز والمذلة، ولا يراها أحد في مكان مرتفع أو شرف عال، أو جبل نائف، أو مقام مرتفع أو مكان مرموق.

والعجز عند الفضوَل كَالخصَاء للإنسان، فإذا ما كان عاجزاً كان مخصياً، والعجز في العاجزين الخصيان، فلا يستطيع الإنسان بالخصي أن يكون رجلاً، وكذلك العاجز بالعجز لا يكون إنساناً. وإذا ما جاء العاجز المخصي لكي يستيقظ، كان كالذي يحلم باليقظة، فتسرح دواب الحي التي استيقظت، و العاجزون هم الدواب – فتفسد خير ما في حلم اليقظة أو خيال العاجز بأنه مستيقظ، وهي دواب لا تنثني عن ارتكاب المساوئ فليس لها عنان تنثني بها، والعنان هو المبدأ. والدواب التي بلا عنان هم الناس. الذين ليس لهم أعنَّه يُثنون بها عن ارتكاب حماقاتهم ومساوئهم.

ولذلك فالشاعر ينهي عن اطلاق – أو ايقاظ – الدواب، على غراسك أو أرضك وخيراتك لأن نواجذها ستأتي على الأغصان والأغصان هي المبادئ، و كذلك العاجز، لأن العاجز من الدواب يجب أن يترك إلى من ألف قطع الرقاب، فأدب العاجز من الدواب هو مترلة القيود والأرسان، ... أما وإن هذا المعنى ليتطابق تماماً مع ما قاله أبو الأحرار محمد محمود الزبيري في مرحلة يأسه من يقظة الشعب:

وإذا ثَـوَتْ بـين الـضُّلوع بهـائم قوِيَتْ على حَمل العصا الأجسامُ

والخير عند الفضول والحكماء والفلاسفة هو خصم السيئين من الأشرار والآثمين، فالخير قبس مضئ والشر ثعبان أرقم، ولذلك فلا يضئ الخير في مكمن الثعبان، ويتساءل الشاعر: متى أقام السوط حداً على ما جن في لحظة غبطة وسعادة السوط، أو متى كان إقامة حد الجلد على ما جن بسوط، غبطةً وسروراً وداخلاً في أبواب الفكاهة.. لكي نمنع ماجناً ونزجره عن المجون، فالثعبان يجب أن يحرق بالنار ويجلد بعنف وقوة وليس بتضاحك أو متعة..؟!

وأيضاً يتساءل الشاعر: هل عانق الذؤبان يوماً راعياً مستيقظاً، تسبب في مجاعة للذئاب؟!

فلاشك أن الأمر سيكون على غير هذه الحال، والشاعر هنا يطالب بأن يجلد الثعبان ويحرق ويحد بالسوط عقاباً له على مجونه بالشعب، وأن يكون الناس ذئاباً ليلتهموا راعياً ظالماً سبب لهم طول مجاعتهم وجوعهم ... فلماذا يعانق الناس ظالماً؟!

ومتى أفاضَ على المجانة غبطةً سوطُ يحدُ مباذلَ المُجَّان
أو عانق الذؤبان يوماً راعياً يقظاً، أطال مجاعةَ الذوبان[1]
.. حقدُ القصور على التفوق محنةٌ تلقى الحياء بسوءة العريان
ولطالما لاقى الكمالُ خصومةٌ شتمته فوق منابر النقصان

وكأن هذين البيتين ليكادا أن يقولا مع المتنبي:

وإذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وطني أرحني من سؤال حائر!

ولكن ما هو السؤال الحائر الذي شاب وأبيض شعر رأسه، وهو فوق لسان الفضول؟! وهل يشيب السؤال.. فوق اللسان؟!

إنه يشيب ويشيب، وتشيب من هوله الأزمنه ... ولكن ما هو السؤال؟

ما للحقيقة فيك لا يبدو لها.. ألقٌ.. وما للزور في لمعان؟!!!!

سؤال بريء ولكن ليس له جواب، لأن الأطفال عقولاً، ومن رفضت طفولتهم بهم، لبسوا قلانس الفرسان وما هم بفرسان، ولأنهم يلبسون السخاب – وأصبح الصغار أوثاناً تعبد وتطاع، ومن هو كبير الرشد والعقل أوكل له أن يكون سادناً للأوثان ... ولذلك يقول:

وجثا شموخُ الصادقين.. كما جثت للانتصار ضراعةُ الخذلان

---

(١) راجع قصيدة (في ذكرى ثورة ١٩٤٨م) ففيها إسقاط على الواقع الذي عاشه الشاعر في آخر عشرين عاماً من عمره. وما زلنا نعيشه.

ويا وطني كيف مشى فيك صاحب العقل الكبير والراجح منبوذاً، وأصبح المفلسون عقلاً هم فرسان الميدان، والناس فيه يتبادلون الضعف والركاكة والجبن والخوف والدسائس والإفلاس الأخلاقي، لأن ذلك كله صار عملة لهم، معتقدين أنها عملة معصومة من الخسران المبين، ولكن ما أخسرهم وما أشد وأبغض خسارتهم! لأن فيهم أرتفع مقدار الجهل وسما و علا شأنه، فصار العميان هم الذين يضطهدون المبصرين ومن في عيونهم ضوء.. أما قال الشافعي:

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤسُ اللبيبِ وطيب عيش الأحمقِ

وهي شكوى زمنية أبدية يشارك الفضول فيها فطاحلة الشعراء ويفوقهم إن لم يدانيهم في قوة التعبير وزخمه اللفظي العارم فهذا المتنبي يذم أهل زمانه:

أذمُّ إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغدُ
وأكرمهم كلبٌ وأبصرهم عمٍ وأسهدهم فهدٌ وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى عدواً له ما من صداقته بُدُّ

فبَراعة الفضول بروعة تصويراته التي عادت ألف عام وتقدمت ضعفها:

والعابثون تجمَّلوا وتَحَمَّلوا.. سُبُحَ التُّقَي، وقلانسَ الرُّهبانِ
وتسربلوا من كُلِّ لفظ فاخرٍ تبكي الحروفُ بهِ من البهتانَ
وأتت حقائقُهم ليفتضحوا بها قبحاً.. بلا سُبُحٍ ولا صُلبانَ

وهذه هي العصرنة حيث إن العابثين الذين صنعوا لهم جمالاً زائفاً، وادعاءً سقيماً، فحملوا المسابح وأدعوا أنهم حماة الدين والعقيدة و هم أبعد ما يكونوا و إن لبسوا قلانس الرهبان، وإن غطوا عوراتهم بأحلى الكلام الكاذب، وبكل الألفاظ الفاخرة، فحقائقهم مفضوحة، وقبائحهم مكشوفة، لأن الحروف المتلالئه تبكي من زور بهتانهم بها، وخداع الناس بها، وحينئذ لا تنفعهم مسابحهم ولا صلبانهم.

فالأخلاق تَشبع بهتاناً وزوراً عندما تهب وتعطي الظالم الأثيم لقب السماحة والغفران، والأخلاق هنا هي الناس الذين لا يدركون ولا يميزون بين الخير أو الشر، وعندما تصادق الأخلاق الآثم الكبير،فإن الذل يكون على يديه – ذل الأخلاق أو ذل الناس أو ذل المبادئ والخير – وبمصادقة الأخلاق للأثم فإن الهوان يكون نصيبها حتماً.

يا واحة الطاؤوس كم هو فاضِحُ أنْ تحفلي بدمامة الغربان

يا أرض الكبرياء إنه لأمر مخز و فاضح وعيب كبير أن تحفلي وتهتمي بما عليه الغربان من دمامة..

وكم هو فاضح أن تزين – يا واحة الطاؤوس– العناكب وقد فرشت لها فوق ظلالك زهور شقائق النعمان، ومتى فرشت العناكب شقائق النعمان؟! وما ذلك من الفضول إلا

سخرية لاذعة من هذه الواحة. وما أشد مرارة الهوان والذل الذي يقع بالخير وهو يـــرى ويسمع حمائم الأفنان والأغصان وهي تصغي إلى دود الجذوع.. لأن هذا انقلاب في حقيقة الحياة وما عليه الحياة فالحقيقة أن الحمام في الغصون هي التي تغني وما حولها يصغون لها، أما أن ينقلب الأمر فذلك انقلاب للحقيقة وفي ذلك فساد وهوان للخير عظيم.

والفضول بعد هذا اليأس المرير، ... يؤكد أنه للشعب صاغ ملحمته الشعرية هذه، وهي ملحمة متلألئة الإشراق في وجدانه، وأنه يؤمن بأن شعبه العظيم سيظل شهماً يكسب عليه كل رهان، والفضول رغم تقريعه المرير للشعب والناس والإنسان إلا انه يعود بعـــد ذلك ليؤكد أن ثقته بهؤلاء لم تتزعزع، وهذا أسلوب تربوي ووطني ينطق بلسان الـــشعر الذي يدرك طرق العلاج المختلفة لوعي الناس، وإيصالهم إلى المعرفة بأخطائهم القاتلـــة، ثم يعمل على الرفع من معنوياتهم.. ليصل إلى الغرض.

ويأمل الشاعر بأن يضع الشعب السياط بكل وجه فاجر، أرتكب أعمـــالاً فاحـــشة جعلته من أنذل الطغيان، شعب ووطن لا يستقر فيه ولا يحكمه معتوه وصلف وطاغية، ولا يذهب أ ويؤدي به الصبر إلى الإذعان والذل، لأنَّ الطغاة يعرفون طريق الوطن الذي يذعن لهم، وهؤلاء الطغاة هم كالضفادع التي تذهب أوجه الغدران الأنهار، لأن ذلـــك مكانهـــا الطبيعي، وبالتالي فالمكان الطبيعي للطغاة هو الوطن الذي يرضخ ويذعن للذل والهـــوان، وهذا ليس من طبائع أبناء وطن الشاعر اليمن أو الوطن العربي.

والطغاة من عاداتهم أن يؤرخوا أموراً موبوءة مثلهم، هي أحداث مريضة وأمور تمشي على التاريخ كالغثيان، لأنها أمور تتحدث عن قذارتها وطغيانها، بما هي عليه، وبما كانـــت عليه.

ولأن ليس للشاعر الناصح إلا أن يقول، فالفضول في كلامه نرى أعماق الرســـوخ، وذروة الإمكان، فنرى السبيل واضحاً، فيجهدون عقولهم في أقلامهم ليـــصل النـــاس إلى جلال المعرفة التي هي نور البصر والبصيرة والعقل... وها هي ثمار الأقلام بين عيوننا وبين السطور، أما الأباطرة والطغاة، فإنهم يأتون تسلقاً ووصولية محاولين أن يأخذوا مكاناً لهم في عالم القول والمعرفة، فلا يكون نصيبهم إلا الهذيان... ولكنهم يلدون جهلاً (حيثما وقعوا بها).. (فما يلد الفاجر إلا فاجراً كفارا)، والظلم لا يلد إلا جهلاً، لأنه نتاج وقاع وجمـــاع ظلم مع جهل، وهؤلاء الذين توالدوا ثم اجهل لا يكون لهم هدف غير قتل فضائل وخيرات الإنسان والناس، وهؤلاء الجهلة قد أسندوا وأوكلوا مهمة هدم السدود لصولة الفـــيران كناية عن جهل من يحكم وهو يسند المهمات الجليلة – و الأعمال العظمية ليقوم بها أسافل الناس وأسخفهم وأتفههم وفي النص إسقاط تاريخي على الفأر الذي هدم الـــسد العظـــيم وشرد شعب.

ولأن الشاعر لم يقو على النفاق والغناء.. فقد سبق الفحول من الشعراء الكبار في هذا العصر إلى هذه الأبيات:

يا أيكتي..
كيف الغناءُ..
وحولنا.. يُدمي الثُّغاءُ حَناجَر الخرفان

يا ببغاءَ الغاب.. لا يكفيك ما... أوتيت من ريشٍ ومن ألوان
لتعُلّمي البلغاء يومَ عكاظهم نُطْقَ الحروف وصحة التبيانَ
هَانَ الكلامُ وسال فوق طروُسه.. مُتَلبِّكاً بعفونه الديدانَ
ما للحروف إلى المذلة هاجَرَتْ مبهورةً ببسالةَ القرُصانَ
مبهورةً بالأثم.. منتصراً له زهوٌ يهزُّ جوانبَ الشطآنِ

فلا يكفي الببغاوات ما أُوتيت من ريش وألوان لتعليم البلغاء نطق الحروف..

والكلام عند الفضول، والغناء لا فائدة منه، كما يبدوا فالثغاء أدمى حناجر الخرفان. وهو تعبير عن عدم جدوى الكلام، وعن عبثية الكلام والكلمة، والقضية عند الفضول تتلخص بأن العاجزين عن الكلام، والعملاء، والمرددين لكلام الآخرين كالببغاء، لم يكتفوا بما أوتوا، بل أرادوا أن يعلموا البلغاء –سخرية من مقدرتهم وبلاغتهم – نطق الحروف وكيف يعبرون ببيان صحيح وبليغ، لذلك كله أصبح الكلام هيناً ورخيصاً ويسيل فوق الطروس وقد أختلط بعفونة الديدان.. لأنها حروف هاجرت إلى المذلة، فالحرف الذليل هو الذي يختلط ويسيل بعفونة الديدان، وعيب هذه الحروف أنها مبهورة ومأخوذة ببسالة القرصان وقاطع الطريق، مع أن وصف القرصان بالبسالة خاطئاً، لأن القرصان طاغية، والبسالة لا تكون إلا للشجاع، ولكن الفضول أراد أن يدلل على انقلاب الحال، حيث أصبح القرصان باسلاً وشجاعاً بدلاً عن وصفه بالطغيان واللصوصية والأجرام وقطع الطريق.. وهذه صورة أسبق وأكمل وأبلغ من صورة نزار قباني التي يقول في بعضها: (من قصيدة أنا يا صديقة متعب..)

من أين أدخلُ في القصيدة يا تُرى وحدائقُ الشعر الجميلِ خرابُ
لم يبقَ في دار البلابل بلبلٌ لا البحتري هنا ... ولا زريابُ
شعراءُ هذا اليوم جنسٌ ثالث فالقول فوضى، والكلام ضبابُ
يتكلمون مع الفراغ فما هم عجم إذا نطقوا ولا أعرابُ
اللاهثون على هوامش عمرنا سيَّانَ إنْ حضروا، وإنْ هم غابوا
يتهكمون على النبيذ معتقاً وهم على سطح النبيذ ذباب
الخمر تبقى – إن تقادم عهدُها – خمراً، وقد تتغيَّر الأكوابُ

****** ******

من أين أدخل في القصيدة يا ترى والشمسُ فوق رؤوسنا سردابُ
إن القصيدة ليس ما كتبت يدي لكنها ما تكتبُ الأهدابُ
نارُ الكتابة أحرقت أعمارنا فحياتُنا الكبريتُ والأحطابُ
ما الشعرُ؟ ما وجَعُ الكتابة؟ ما الرؤى؟ أُولى ضحايانا هُمُ الكُتابُ
أنا يا صديقةُ مُتعبُ بعروبتي فهل العروبة لعنة وعقابُ

فشاعرنا ليس له قلم يعيش عليه
وشاعرنا ليس له قلم يعتنق به عدداً من الأديان أو المبادئ..
وشاعرنا ليس له قلم يجعله منافقاً
وشاعرنا ليس له قلم يغدق عليه الهبات ...
أما والفضول لم يمدح إلا من تتوفر فيه هذه الصفات:

ولقد صبرتُ لكي أرى مَنْ تُرزقُ الأقلامُ ضوءاً منه فوق بناني
تثري مزاياهُ الخيالَ كأنها خصَبُ السهول، وخضرة الوديان
وأذقتُ أقلامي الطوى حتى أرىَ هذا الطراز من الرجال أتاني
رِزْقُ السيوف على الشجاع وما أتى رزقٌ إليها من ذراعِ جبانِ...[1]

ذلكم هو الذي يستحق المدح عند الفضول..

رجل تضاء منه الأقلام التي فوق السطور، وهي في بنان الشاعر.. كرماً ومزايا وطنية وعربية، وشمائل أندى من العالمين بطون راح ... وضوءاً عربياً مبيناً، في مزاياه كأخصب السهول، وخضرة الوديان، فالفضول قد أذاق أقلامه الجوع والطوى والظمأ حتى يرى رجلاً في خصوبة السهول واخضرار الوديان، لكي ينال مرحة ووصف شمائله وأخلاقه وعروبته.. فأقلام الفضول هي سيوف، ورزقها يكون على الشجاع الذي يستحقها، وهذه السيوف الفضولية لا يأتي إليها رزق من ذراع جبان، أو أنها ستكون لمدح جبان لا يستحق أن يكون لها، ولا أن تكون هي له..

يا مرحبا بالضيف مضياف الضيوف يا مرحبا بالسيف ثلّم السيوف
أرحب وطنّا ديرتك أرحب على رؤوس اخوتك
أرحب مطرنا ضيفتك أرحب وعطرك طيبتك
فرع أتى من شعبنا ما هو بعيد من قربنا
ولا قليل في حُبِّنا ولا صغير في قلبنا

****** ******

(١) أنظر نص القصيدة كاملة في ديوان الفيروزه – في ذكرى ثورة ٤٨م. أو في الباب الأول "وادي الضباب".

إن جـــــارت أجـــــواره حملنـــــا حملنـــــا
وإن أزعجـــــه جـــــاره بـــــذلنا بـــــذلنا
وإن تلـــــسعه نـــــاره نـــــشرنا ظِلّنـــــا

******

وإن شاف صخره كلْ طيّرنا الصخور وإن شاف نحره مل نجينا النحور
كلام ما يختل ... ولا يحرق بخور

******

يـــا كـــل نـــسمة هائنـــه فـــوق الـــتلال
يـــا كـــل زهـــره باسمـــه بـــين الظـــلال
ويـــا صـــخوري مـــن شمـــاريخي الطـــوال
ويـــا نمـــوري في جنـــوبي والـــشمال
حيـــو ضـــيوفي عـــد حبّـــات الرمـــال[1]

وتلك كانت غنائية أكتفينا ببعض منها.

وكانت الرغبة تدفعنا بإصرار عجيب لإيراد القصيدة التي وسمت بـ(عاشقوا المجد) من ديوان الفيروزه.. وهي قصيدة في (٤٣ بيتاً)، وذلك الإصرار كان نتيجة إعجـــاب لا متناهي.. بفرادة موهبة الفضول ولكننا أجلنا عرضها وقراءتها لتكون لنا ميـــداناً فـــسيحاً أخضراً رائعاً ونحن نتناول الوئام الروحاني الذي جمع بين أبي الطيب المتنبي والفضول، فتلك القصيدة (عاشقوا المجد) خير من يمثل.. ما نذهب إليه من حيث القوة الدفاقـــة والعنـــف والكبرياء والشمم والمجد والخلود واللغة والمفردات إلى الدرجة التي أذهلتني فيها ألفاظهـــا والتي ينذر وجودها في زمن ضحل كهذا – فهل بررنا سبب اتجاهنا إلى اليوم –أو الضحى الذي أراد منا الفضول أن نسير في ضحاها.. وهذا الذي يدعونا إليه الفضول يفلسف لنا الرجل المحب لوطنه، فهو رغم قسوته على الوطن أحياناً، فإنه يعود عن قسوة الأب علـــى ابنه وأبنائه، إلى النصح والتوجيه لهم في ساعات الخطوب، وهذا ما يسمى بالنقـــد البنـــاء والموجه والذي ينطوي على اعتصار دم القلب في تربة الوطن المعطاء،.. وبقدر ما يصعقنا الفضول بنقده المرير واللاذع الذي يلامس جدار الألم في غرفة انعاش القلـــب والقلـــوب قاطبة، إلا انه بعد ذلك يعود إلينا في وقت جلاء القلب وصفاء الذهن والتماع الخطـــوب والتي يجب أن نواجهها.. فيدعونا إلى أن نسير في ضحى اليوم التي أشرق ضحاها من هوى

(١) قيلت احتفاء بالشيخ زائد وغناها أيوب – في عهد الحمدي – وحذف أيوب مقاطع عديدة باذن الـــشاعر لأسباب خاصة. كما قال أيوب

أبنائها الذي اكتساها وألبسها حللاً من ضوء عيد ذلك الضحى لأنها يوم نسج الشعب شمسها ألوية وانتصارات، وتحت هذه الألوية من الشموس سارت خطانا تتباهى بكبرياء الضحى الذي نسير فيه فجاءنا الخير إلى هاماتنا ليقبل وليلثم أنوفنا الشماء، وجباهنا ونواصينا التي ما نال منها الهوان أو الذل.. أبداً.

أما المجد فاستعار من قاماتنا – التي بعز اليمن القامة منها – وقامة أعطت للمجد طولاً، ولم تعطه الطول الذي هو عليه قامة أخرى، سوى القامة التي ارتفعت ورفعت المجد عالياً، النسور،.. ولكن ما هذا اليوم؟ وماذا حدث فيه؟

ولكن قبل ذلك لنبدأ المسير في الضحى وقبل أن ينتصف النهار.. فلا نقدر على المسير المثير ...

هذه يومي فسيروا في ضحاها فالضحى أشرقَ منها وأكتساها[1]
ونسجنا شمسَها ألويةً تحتها سارت خُطانا تتباهى
وأتى الخير إلى هاماتنا لاثماً منا أنوفاً وجباها
واستعار المجد من قاماتنا قامةً لم يُعطه طولاً سواها

****** ******

تربتي فيها تربَّت أعظمي وأتى من جودها بذلي وجودي
وبها شبَّ مُصرّاً حُلُمي أن أُرى فيها طليقاً من قيودي
ويدي من شهدائي ودمي كنزَتْ فيها ثرائي ورصيدي

****** ******

كُلَّما فاد مضى صافَحَنا شرفُ الأرض فخوراً بالفداء
وإذا زدنا عطاءً زادنا طبعُها الباذلُ عشقاً للعطاءِ
سنعطيها ولن تبهضنا أبداً فيها تكاليفُ العطاءِ

***** ******

شظفي مهما عتى لن أرهنا شرف التاريخ في عرضي وأرضي
أيُّ قهرٍ تحته قد وهَنَا فيَّ اصراري أو أذعن رفضي
لِيُلاقِي فوق أرضي وطنا آثمُ في وطني بالآثم يمضي
عِزُّ أرضي كُلُّه فيَّ أنا فهوان كُلُّه إنْ هان بعضي

****** ******

سيدوم الخير في أرضي مقيما رافضُ الاصرار إلاَّ أنْ يدوما
أَرضُنا بُورِكْتِ من ولاَّدةٍ لم يعش في عمرك الخير عقيما

(١) بعد تلحينها تداخل معناها فأمكن قراءتها هكذا، فالضحى أشرق من هوى اكتساها.

كُلَّمـــا وَلَّـــى عـــن الـــساحات فيـــك عظـــيم شـــهدَتْ منَّـــا عظيمـــا
خَلْفَـــهُ غمـــضي ولا خلـــف لنـــا مـــا مـــضى فينـــا أمينَـــاً مـــستقيماً[١]

****** ******

إنـــه يـــومُ عطـــائي فيـــه أغنيـــتُ تـــاريخي حيـــاة ووجـــودا
وبه مارستُ جـــودي وأطعـــتُ سماحـــاتي وبرَّيـــتُ الجـــدودا
وبه مـــدَّيتُ كفـــيَّ وألحمـــتُ شـــطريَّ وحطمـــتُ القيـــودا

******

الفضول الأديب الممتاز:

((إن الأدب ليس تقريراً للظواهر الحاضرة بقدر ما هو تعبير عن الأشواق البعيـــدة والرغبات المكنونة، سواء للفرد أو للجماعة، وكثيراً ما يكون الأدب نبوءات بعيدة، حقيقة إن الواقع الحاضر هو الذي يستدعي تلك التنبؤات ولكن الفرد الممتاز كثيراً مـــا يـــسبق عصره، ويتنبأ وحده نبؤات لا يدركها الآخرون ولا يفتحون لها قلوبهم [٢]

.. والآن هل نسير في ضحى يوم عبدالله عبد الوهاب نعمان ....؟

نعم ... نسير لأنه يوم العطاء الذي فيه أغنيات تاريخنا اليمني حياةً ووجوداً بعد أن غبنا عن الوجود عدداً من القرون،ولأنه اليوم الذي به مارس جوده، وكرمـــه، وأطـــاع سماحته، وأبر بجدوده و لأنه اليوم الذي به مدَّينا أكفنا، وألحمنا شـــطرينا ... وحطمنـــا القيودا ...

أما والله كأن الفضول كان يقرأ هامات الأيام ويؤرخ لعام ١٩٩٠م فكانت يوم الثاني والعشرين من مايو ومع ذلك لم ينس أن يطلب من شعبه أن يملأ الدنيا ابتساماً – من قبل ومن بعد – ففي تراب الوطن نمت وتربت أعظمنا.. من جود الأرض جاء جـــود وبـــذل الشعب والشاعر، وبهذه التربة شبت أحلامنا مصرة لترانا طلقاء من قيودنا.. وما زالـــت نفس الشاعر مع الشهداء والدماء..

فيده من شهدائه ودمائه.. قد تحولت بها إلى ثـــراء وأرصـــدة حـــضارية وبطولـــة وتضحيات..

ولأن الرجل سياسي في حبه، وسياسي في وطنيته، وسياسي في عشقه، ويعرف طبـــع اللئام.. فهذه أبيات ثلاث يصف فيها (الغدر). وهي من شعره الذي لم ير النور بعد:

غدَّار، حتَّى لسو ســـكنت الـــسماء لخنـــتَ في أقطارهـــا الأنجمـــا
غـــدَّار، لـــو أدهقـــت لي دورقـــي للحـــت لي في قاعـــه أرْقمـــا

---

(١) مخطوطة وهناك أبيات ومقاطع عديدة أستبعدها أيوب طارش – كما قال – لأسباب فنية .
(٢) النقد الأدبي أصوله ومناهجه – سيد قطب.

غـــدَّار، لا تـــأتي إلى معـــشقي فقد صـــنعت الـــنعش والمأتمـــا[١]

أما الفضول هنا في ضحى يومه،فإن شرف الأرض، يصافحه فخوراً بالفداء الـــذي قدمه كلما حاول أحدهم أن يسكب النار في أزهارنا كي تحرقا.. أو فـــاتن لا يحـــب إلا الشر،ومتى بذلنا وأعطينا للأرض زادنا عطاء أرضنا الذي نحصده منها رغبة في البـــذل.. عشقاً للعطاء، فالأرض لا تبخل على من لا يبخل عليها وهي حكمة زراعيـــة وإنـــسانية وحضارية، والفضول رغم المرارات التي عاشها فإنه مصر على العطاء للأرض، لأننا بعطائنا لن تظلمنا أو تبهضنا الأرض حقنا مهما كانت تكاليف العطاء.

ولأن الفضول ذاق شظف العيش بعد أن جرَّد الأماميون أسرته من كل ما لديها من مال، فإن معاناته هذه تحولت درساً للأجيال،.. وما أجمل من درس هذه الأيـــام،.. ونحـــن نعيش هذه الضائقة المعيشية الصعبة،.. لتكون هذه الأبيات الرائعة التي خلـــدها شـــاعرها وصاحبها وعازف ألحانها أيوب طارش..

شظفي مهما عتى لن أرهنـــا شرفَ التاريخ في عرضي وأرضي

وتلك هي الخيانة العظمى التي تدفع الخائن إلى أن يرهن أو يبيع شرف التاريخ الذي يتلخص في اثنين (عرض الإنسان – أرض الوطن)، وهما أمران متلازمان فلا عـــرض بـــلا أرض، ولا أرض بلا عرض،.. فهل قرأنا وسمعنا ووعينا وتسرب اليقين إلى نفوسنا،.. لأنه باليقين سيدوم الخير في أرضنا مقيماً، رافض الإصرار إلا أن يدوم،.. وما الذي سيدوم غير الخير في الأرض، فأرضنا مباركة في رجالها، لأن الخير لم يكن يوماً ما عقيمـــاً في أرضـــنا.. ولذلك فالعظماء يتناسلون ويتتابعون،.. ونحن نمضي خلفهم.. ولكن متى؟ متى ما مضى فينا أميناً مستقيماً،.. وهذا موروث ديني يستضيء به الفضول ليضئ به للآخرين مع أداة شرط حاسمة ولا جدال فيها.

ولأن الفضول نشأ في كنف وعلى يد الأستاذ/ أحمد محمد نعمان.. الرجل الذي كان رمزاً لمهنة التعليم والتوجيه، والذي أشرف في فترة على تربية محمد البدر ولد الأمام أحمد في تعز، والرجل الذي صاغ (الأنه الأولى) تعبيراً عما في نفس كل يمني فتجلت تلـــك الأنـــة كشمس في ضحى يوم غائم، لتبدد ما حولها بهدوء ورصانه ورزانة أذهلت الدارسين لتلك الرسالة الطويلة،.. وعلى ذلك أقتبس الفضول منه بعض ناره في أناشيده الوطنية فبرغم الألم هناك الأمل، ومع مرارة الشكوى هناك الولاء والطاعة حتى لا تكون فتنة، ومـــع اليـــأس والإحباط، يكون ترقب الآمال المشرقة التي لا تزهر في غير النفوس النبيلة، ومع التـــشرد يكون التحدي والعزيمة والصمود والكبرياء والشمم، ولذلك يطلب الفضول منا مـــساءلة

(١) عثرنا على نص القصيدة كاملة مؤخراً وأثبتناها في القسم الخاص بالقصائد المجهولة التي نشرتها عدداً من الصحف أو أهدانا إياها بعض محبي الشاعر.

السوء، هكذا (وهو سؤال عربي) من ديوان الفيروزه.. وهي نواميس أو قوانين الغاب والحياة والفلسفة:

سائلوا السوءَ، لمن يُزْجي الخميسا ولمن يُشعلُ، في الناس، بَسوسا
ولمن ينفخ ريحاً في المصابيح.. كي يعطينا ليلاً عبوسا
ولمن يغرز في الأعين أحلامه.. يحرمها الضوء النفيسا
ولمن يحلم أحلام شتاء وترى الثلج، قد أحمى وطيسا
ولمن تلمسُ كفاه المحاريبَ.. كي يملأها رجساً خسيساً
ولمن يحملها روحاً يهودية.. تطمعُ أن تصلب عيسى

وأصدقكم القول إنني لا أملك نفسي من الاضطراب إعجاباً بشعر الفضول كله بلا استثناء،.. لأنه الشاعر الذي لا استثناء له أبداً،.. فلا تقابلنا صورة شعرية للفضول إلا وهللنا لها وطربنا وعشنا معناها وكأننا نحياه ونموت فيه،.. وعذراً للقارئ الحبيب، فهذه هي الحقيقة التي أرجوا أن تشفع لي،.. فقبل النقد يكون الذوق، وكما كان فيلسوف اللغة العربية ابن جني لابي الطيب المتنبي)، أحاول أن أكون تلميذاً لابن جني وللفضول في تذوق ما يقال، وفهم وإدراك ما قيل وما سيقال وما يقال ...

فمن هو السوء الذي يطلب منَّا الفضول أن نسائله؟

هل هم اليهود؟ أم أمريكا؟ أم الشرق أم الغرب أم ... أم؟

ألسنا في حرب البسوس (كعرب معاصرين)؟

ألم تنطفئ مصابيحنا فأمسينا في ليل عبوس ومتجهم ومخيف وكأننا في ليل عبس وذبيان ....؟

فمن الذي يزجي ويرفع رياح الخماسين والعداوة والاحتلال لتشتعل نار الحرب التي تحرق الليل والنهار،.. فيتحول ذلك الليل الوديع إلى مأساة متواصلة لا نجاة منها.

وما هي أحلام السؤ والشر التي يحاول أن يغرزها في عيون العرب والأمة العربية والإسلامية،.. أهي أحلامه في أن لا ترى الضوء الذي لا يقدر بثمن؟. وما الضوء عند الفضول غير الوحدة العربية التي هي تتويج للحرية والعدالة والسلام، وما هي أحلام الشتاء غير الشرور والآثام وما انتهاك المحاريب والمساجد الإسلامية إلا ليملؤها رجساً خسيساً، ومن الذي أمتلأ بالرجس والخساسة غير اليهود، ... وهي روح تأمل أن تصلب عيسى، ... وهو المستحيل، لكنه أمل ينبي عن عداوة عقيدية وتاريخية.

وهذه هي صفات اليهود التي برع الفضول في تصويرها.. والآن صفات أخرى اليهود:

مطعماً أحلامه منه نُخُوسا تلبسُ العُرىَّ وتنضو الجلالا

ترفع الضعف رماحـاً وتروسـا مـلء كفيـه ليبـدو بطـلا
مضرماً من حوله حرباً ضروسـا هَزلُ أنْ يأخذَ الـدِّرع لَبوُسـا
مـن يـراه الـصدق فيهـا هـزلا

لذلك فاليهود يظهرون الضعف وهم يزرعون الفتن، فيضرمون الحروب ونار الحروب الضروس، والأبيات لها أبعاد وزوايا كثيرة للرؤية،، و سيكون لنا مع هذه الزوايا وقفة في مرحلة قادمة.

فالشاعر يعبر عن همه القومي، حيث العجز بأن يصنع جحفلاً لحرب الأعـداء مـن قطيع لا قائده فيه..

يا خيالي إنَّ عيني عَجَـزتْ.. أنْ تـرى لي في قطيـع جحفـلا
يخجـلُ التزويـرُ أن يعطـي ذئبيـةً داجنـةً أو حمـلا
وعـوآء الـذئب لا يمنحـه روحَ ليـث فـاعلاً مـا فعـلا
وافتضاحٌ أنْ يرى الغابُ بـه ضـيغماً، يرعـشه مَـنْ سـعلا
أي أرض قاعهـا قـال بـأن زقاقـاً –فيـه– أضـحى جـبلا
لا يؤاخي النجمَ إلا مَنْ يُـرى كـلَّ يـوم بالـضحى مغتـسلا
والذي يحبو علـى الأرض، ويألفـه القـاعُ يـوآخي الـوحلا،
وإذا أذكى بـه الـشرُّ علـى الخـير حَرْبـاً جاءهـا منقـتلا
هـو مُـرٌّ مزايـاه، وإن هـي يومـاً، زورتـه عـسلا
إنَّ مـن في روحـه حنظلـةٌ لا يلاقيـه النـاسُ إلاَّ حـنظلا

... هذه هي الحقيقة عند الفضول.

فلا يمكن للقطيع أن يكون جيشاً أو جحفلاً

ولا يمكن للداجن من الطيور والدجاج أو الحمل أن يكون ذئباً أو ان نصفه بصفات الذئب.

ولا يمكن للذئب أن يكون ليثاً أو أن يكون أسداً، وفضيحة أن يكون في الغاب أسداً ضيغماً يرتعش خوفاً وفرقاً إذا ما سمع من يسعل بغير إرادته.. فلا أرض فيها زقـاق قـال ترابها إ ن الزقاق قد أضحى جبلاً.. فلا يؤاخي النجم أو لا يكون النجم أخاً إلا لمن يـراه الجميع وهو بالضحى مغتسلاً،.. وما الضحى غير الحرية والنقاء والحب والسمو،. و يكون الاغتسال كل يوم، وهي لمحة دينية وظفها الفضول أبرع توظيف، فالذي يحبو على الأرض، ويعتاد القاع – أو الذل و الهوان ويألف القاع.ولا يحب صعود الجبال – فإنه يكون أخـاً للوحل والذل والمسكنة والهوان، (ومن يهن يسهل الهوان عليه) فهذا الذي صار ذلـيلاً في

القاع إذا حاول أن يذكي الشر والحرب على الخير فإنه يجيء إلى الحرب وقد صار قتيلاً بشروره، وإن حاول من ألفه القاع والوحل أن يضع لنفسه وهماً من المجد والمزايا، فإن مزاياه مرة كالعلقم، وإن كانت مزاياه قد حاولت يوماً أن تكون عسلاً، لأن من في روحه ونفسه مرارة الحنظل فإن الناس لا يلاقونه إلا وهم يرون فيه حنظلاً ومراً ثقيلاً على قلوبهم، وكم حاول الشاعر أن يهزم العلقم الذي في تلك النفوس المرَّة والتي تحنظلت فأصبح الحنظل فيها ومنها، طوال حياته ... فانهزمت وفشلت كل حلاواته ومحاولاته في إزالة المرارة و الحنظل أو حتى في التخفيف منها، لأن قاموس الحياة لا يمكن أن يجعل النار أو الحجر تقطر بماء بارد ... لأن هذا عكس وقلب للأشياء، لكن من رباه – نشأ في – حضن الروض والعشب والخضرة ... صلاً أرقما وثعباناً أسود قاتل لأنه ليس من تلك الأحضان والأعشاب والخضرة، فهو أنما غريب عن تلك الطبيعة، وإن عاش فيها.. لأنه سوف يبقى آفة ومرضاً معضلاً لأنه في طبعه الأصيل ... ثعبان مؤذي أسماً وجسماً وفماً ... وهو يكره النرجس والورد وقد رضع الثعبان الأرقم العطر رحيقاً، فصار من مكونات جسمه وفمه ومع ذلك فهو مؤذي بطبعه الأصيل – فهو يرى في الأعشاب والخضرة اثماً بل أثمين وهو قد صار بريئاً منهما شكلاً ومضموناً وطبعاً.. ولكن لنعود إلى روائع صور الفضول شعراً:

في حياتي كم نفوس مُرَّة.. شئتُ أن أهزم فيها العلقما
فأنتهت كلُّ حلاواتي بها فشلاً في مُرِّها منهزماً
إنَّ من رَّباه حضنُ الروضِ، والعشب والخضرة صلاً أرقما
سوف يبقى آفةً في طبعه.. مؤذياً.. أسماً وجسَماً وفما
يكره النرجس، والورد وقد.. رضع العطرَ رحيقاً فيهما
ويرى في العُشْبِ والخضرة اثمين قد صار بريئاً منهما

******

إنه هجا لواقع وأناس دون مساس بأسماء أو أشخاص وهنا النبل والاعجاز.

أيُّها الحافل بالآسواء.. يا مالئاً نفسك منها ظُلما..
كم تخيلتك إصباحاً فلاقيتُ فيك أشباحاً وليلاً مُظْلما

كم توقعتك أفراحاً فلم يلقَ فيكَ الناس إلاَّ مأتما
كم تصورتُك أرباحاً فلم تأتِ في الأخلاق إلاَّ مَغْرَما

إنني لن أطلب الضوء لأرضي ممَّنْ فوقها قد أظلما
جاثماً في السطح. لم يعرف له المجدُ في أرواق طود قَدَمَا
نبشَ اللؤمُ له في قاعِهِ حفرة من طينها قدَّ بشما

إنَّما أطلبُ ضوءاً من سمـــاء ومـــن نجـــم بهـــا قـــد نَجُمـــا
مِنْ نجيب كان في الغيب خبئياً.. وفي جفـــن الليـــالي حُلُمـــا
مِنْ مضيء واضح.. ضوءهُ الصدقُ لم يتركـــه لغـــزاً مُبْهمـــا
مِن فتىً راسخ النفس.. علـــى منكبيـــه المجـــد يـــبني هرمـــا
مـــن سمـــوٍّ، كُلَّمـــا سْـــرتُ إليـــه صـــرتُ فيـــه أكرمـــا

مـــــن أصـــــيل رائـــــع صـــــلب الأســـــاس
خـــــير.. لكنَّـــــه صـــــعبُ المـــــراس
فيـــــه مثـــــل الـــــصخر مـــــن معـــــنى الرواســـــي
وبـــــه عبقـــــةُ ريحـــــان وآسِ
يا فؤادي – ماعدا الفاضل – أرفض أن ينـــزل نفسي وحَواسي
ولو أني كدتُ أقضي ظمأً.. أطلبُ الماء وقد خـــابَ التماســـي
لأبَت نفسي – إلا مثلها – في فتىً، من غيمـــة يمـــلأُ كأســـي
وسوى أرض الندى والحب.. ليس بها أرضي ولا مسقط رأسي
ليس فيها فرحةُ الودِّ.. ولا ناسُها الغاوون – في الوحشة – ناسي
تُكرهُ الأرضُ إذا صال بها همجيُّ النفس ... زهـــريُّ اللِّبـــاسِ
إنه المخلبُ لا يضمدُ جرحـــاً.. ولا يعنيـــه غـــير الافتـــراسِ
ولقد طفتُ سديماً وثرىً ورسَـــتْ فُلكـــي إلى كُـــلِّ المراســـي
لم أجد تلك النواميس التي تنبتُ الزهرَ علـــى حـــدِّ المواســـي

******

وكي لا نفقد القارئ لذة ما قرأه، فلن نبلغ من نثر الأبيات تلك مأمنا، فهي أبيـــات تتحدث بأروع الصور، وكلنها تحتاج إلى قليل من التأني في القراءة وتكرارهـــا وتقليـــب الأمور والآراء والصور لنفهم بعض ما يمكن أو يكون من المستحيل وهو أن ينبت الزهـــر على حد المواسي.

والآن لنكون في ضيافة الوطن المضياف.. اليمن، فهكذا هو الفضول يـــضعنا بـــين نقيضين لنختار لأنفسنا الأجمل مهما كان يأسنا ومهما كانت قسوته على الواقع الـــذي لا نقبله ولكن أيضاً لا نقبل من أحد أن يستغل ما نحن عليه وفيه لغرض خبيـــث في نفـــسه، ولنبق مع الوطن المضياف:

أشرقي تحـــت سمـــائي يـــا ســـيوفي وانثري ضوئك في وجـــه ضيـــوفي
وهبـــــيهم سُـــــدَّة مـــــشرفةً في جبين الشمس مـــن عـــزٍّ منيـــف
وابعثـــي الأمجـــاد في مواكبـــهم وأريهـــم تُبَّعـــاً بـــين الـــصفوفَ

وأريهـــم باســـل لم يقـــف في مـــدى آمالنـــا أو يرجـــف
لم يمـــارس ردة المنحـــرف بـــل ترائـــى قمـــة لم تُنـــسف
أملقـــت قامتـــه في الـــشرف روعـــة الحـــق وطهـــر المـــصحف
يا شمـــاريخي ويـــا خـــضرة ريفـــي يا نثير الطَّـــل في الظـــل الوريـــف
يا شمـــيم الطيـــب في روح الرفيـــف يا عطاء الخـــير في قلـــب الألـــوف
أيُّ شـــيء قـــدره قـــدر ضـــيوفي غـــير أمجـــادي وتـــاريخ ســـيوفي
فليلاقـــوا مـــن تليـــدي وطريفـــي ما يلاقيه الـــشريف مـــن شـــريف
وتجـــاه الـــضخم مـــن أقـــدارهم ينْزوي جودي وتـــستحيي ظـــروفي

****** ******

وطـــني مـــترل ضـــيفي لـــيس لي بـــل لـــه حـــق الكـــريم المفـــضل
فهـــو مـــني نجـــده لم تبخـــل وأنـــا منـــه فـــدى المستبـــسل
إن حـــقَّ الـــضيف قـــد صـــيَّرني فيـــه ضـــيف وهـــو ربُّ المـــترل
أنـــا منـــه مـــن قـــديم الأزل في دمٍ أعراقـــه لم تفـــصل
وســـيبقى في مـــدى المـــستقبل لا يـــرى في مهجـــة لم تبـــذل
انـــني منـــه علـــى الـــدهر ولـــن أتـــرك الكعبـــةَ تحمـــي ابلـــي[1]

والأروع في الفضول أنه حينما يطلب منه أن يكتب شعراً في مناسبة من المناسبات فإنه لا يتردد، تردد من ينتظر التجربة كي تكتمل، فالفضول كانت تجاربه في ضميره، فما إن يطلب منه حتى يبادر إلى نظم ما في وجدانه... والعجيب أن عمق التجربة الشعرية والصدق الشعوري الذي يلف شعر الفضول عنيف وقوي وفي أسهل تعبير وأرصن لفظ وأقوى معنى وأبرق دلالة و أسرع إشارة، فيحس السامع أنه يغني شعر نفسه وقد تحول إلى معان لها عبير الأرض، وعندما طلب من الفضول إن يكتب أبياتاً شعرية لبرنامج زراعي في التلفزيون، في أسرع ما كتب وما أندر ما نسمعها، أو لنقل إننا لا نسمعها إطلاقاً:

ها هُنـــا بعـــض عطايـــا تـــربتي قلب أرضي لم يزل جـــمَّ العطـــاء
ها هنـــا مـــازال خـــير الجنـــتين علـــى أرضـــي موفـــور النمـــاء
إنهـــا مابرحـــت مغدقـــةٌ أرضـــنا خـــير علينـــا
تـــصنع الخـــير لنـــا أروقـــةً حيـــث مـــا أمتـــدَّت يـــدينا
فهبوهـــا الجهـــد كـــي تعطينـــا خيرهـــا أخـــضر جَّمـــا
وأطيلـــوا فوقهـــا أذرعكـــم تعطكـــم مـــا شـــئتمُ..كيفـــاً وكمَّـــا

(١) مخطوطة، كتبها للترحيب بضيوف اليمن وسجلها أيوب في القاهرة – ولا تعرض، وتم تغييـــر بعـــض المفردات لتشير للعموم من قبل الشاعر وبطلب من أيوب.

لا تعقّوهـــا وتبغـــون عطاهـــا لا تشحوا ثُـــم ترجـــون نـــداها
ودعـــوا فيهـــا ثراهـــا يرتـــوي عرقاً مـــنكم إذا شـــحَّت سماهـــا
ولوجـــه الله دومـــوا سُـــجَّداً أنَّه لم يعطكـــم أرضـــاً ســـواها[1]

****** ******

فمن أين لغير الفضول أن يأتي بهذه المعاني التي كأنها نظمت بتجارب الدهور، وبقدر ما يكون الفضول سياسياً يكون ذائباً للوطن وفي حب الوطن، فيكون حكيماً من حكمـــاء الزراعة، – (ودعوا فيها ثراها يرتوي) – ولكن ليس من السماء لأن الأرض عطاء وأخذ، وهي عدالة إنسانية كونية بين الأرض والإنسان..

والأعجب والأروع في الفضول الترتيب اللفظي والتتابع والمكانية اللفظية التي يتمتع بها حيث يعطي لكل لفظ مكانه، لأنه يرى تجسيد المعنى كاملاً، ومن المعنى الجديـــد يـــبني الفضول هَرَم ألفاظه وفيروزاته ومرجاناته وزبرجدا ته التي تنظم كأنها جاءت لتكون حيث وضعت بقلم الفضول.. لأنه شاعر يدرك قبل اللفظ معنى ما يرد أن يقول، ومعانية الجديدة التي يريدها تدفعه إلى استمداد الألفاظ التي تعبر عن معانيه لأن الفضول صاحب قـــاموس فريد وخاص به، فلا يرهق نفسه للبحث عن ألفاظ.. لأن سرعة بديهته تدفعه لقول ما يجب أن يقال، وها هو يضع بين أيدينا تعويذة لها أبعادها التي يفسرها سامعها كما يرتأي عقلـــه ويذهب به خياله ليبتعد الشر من طريقه:

باعـــدوا مـــن طريقنـــا جنـــة الحـــب حقنـــا
شـــيدها لنـــا المـــنى وهوانـــا وشـــوقنا
إنْ تجيئـــوا فباعـــدوا واســـرحوا مـــن قبالنـــا
واحرقـــوا أو تقرمـــدوا لا تجيئـــوا ظلالنـــا
كلـــه الليـــل عنـــدكم والقناديـــل عنـــدنا
والحمـــى والظمـــا لكـــم والنـــدا كلـــه لنـــا
لـــو أضـــآءت نفوســـكم لأ تيـــتم سماءنـــا
ومـــلأتم كؤوســـكم مـــن نـــدانا وماءانـــا
قد دنا الليـــل قـــد دنـــا فـــاترك الليـــل خلفنـــا
يـــا حبـــيبي وخلنـــا نحـــن والحـــب وحـــدنا
نجـــتني فيـــه زهرنـــا ونـــرى فيـــه ســـكرنا[2]

---

(١) صحيفة الجمهورية مخطوطة.

(٢) يراها أيوب أنها تعويذة ولذلك يبدأ بها في جلساته الغنائية، ويراها آخرون غير ذلك، وقد غناهـــا عبـــد الجليل العبسي قبل أيوب، ولم يعرفها أحد، ووجدت طريقها إلى الناس بصوت أيوب.

والحقيقة التي يجب أن تقال بأن أيوب طارش تفوق تفوقاً كبيراً في صياغة الألحان للأناشيد الوطنية التي نظمها له شاعره الفضول، وكأن الطبيعة والنقاء والبراءة والرجولة هي التي ألهمت أيوب طارش تلك الألحان الوطنية لأنها ألحان لامست أوتار قلب الوطن في النفوس، ولعمري لو أن أيوب وضع ألحاناً لديوان الفيروزه... وغناها... لكان لليمنيين السبق في غناء فلسفة الشعر للحياة، وفي فلسفة الغناء.. وسيساعده على ذلك ما تتمتع به أشعار الفضول من مزاج غنائي عنيف.

ولكن هل انتهى الهم الوطني في شعر الفضول؟!

والجواب لا ... لأن الهم الوطني قائم في كل ما نظمه الفضول من شعر غنائي، ومن شعر وطني ومن شعر سياسي ومن شعر قومي ومن شعر فلسفي ومن شعر غزلي عفيف عذري،. ومن شعر فيه كل مناحي الحياة، لأن الوطن يبقى ذلك الهاجس الذي لا يزول أبداً.. في مثل من نشأ في حياة وفي ظل ظروف الفضول،. ومهما دفعتنا الدوافع الرائعة في غنائيات الفضول، فإن الحب هو ذلك الإحساس المقدس الذي لا يتعارض مع فلسفة الحياة، فالإنسان يحب ويعيش ويعمل ويقاتل ويحكم ويمارس الحياة وينجب الأولاد.. و... و.. و... و لا يكون لجانب من هذه الجوانب أثر في غيره أو إنقاص حتى إذا ما كان هناك الدافع الأول نحو جانب وترك الباقي جانباً ريثما....

ولا ينقص من حق الفضول أن يكون عاشقاً ووطنياً ومحباً للناس ومفلسفاً للحياة، وناقداً لاذعاً للسياسين وحاملاً للهم الوطني والقومي، والذي يجب أن ندركه أن الفضول لم يأخذ حقه الادبي المعنوي، وحتى بين المثقفين الكبار، والرموز الأدبية مع الأسف تكتفي بالاشارة والعبارة الملفوفة بالسموم غالباً، فما ظلمه ديوان الفيروزه أو الاختيار الذي قام على ديوان الفيروزه، و لكن ظلمه النقاد الذين أستقبلوا الديوان ... بالتجاهل و بالعجز عن استكشاف معانية القوية التي لم يفهموها وأيضاً بإصدار الشعارات المبطنة بالحقد.. ولا ندري متى سيجد الفضول من يفهمه بعد موته ما دمنا لم نفهمه في حياته ... (والناس نيام حتى إذا ماتوا انتبهوا) وأنا على يقين بأن الأيام ستنصف الفضول الذي ناضل وضحى وأحب وعاش وغنى للوطن وفلسف الحياة، وأحيا الفلسفة في اليمن شعراً وحياةً، ووضع مدماك الوحدة اليمنية الأول في نفوس الشعب، فأصبحت الوحدة قدراً يمنياً في النفوس قبل الأوراق وهذه لعمري أقوى أسس الوحدة، والوحدة الأولى تكون بوحدة النفوس وهي تستشعر لحمة الدم، ووحدة الدم والمصير والعادات والتقاليد، وأبسط أنواع الحياة.. قولاً وعملاً وفكراً وسلوكاً،. وكما قال (عبد الرحمن الارياني – رئيس المجلس الجمهوري الأسبق للإمام يحي على سبيل الإنصاف:

أنصفِ الناس من بنيك وإلاّ أنصفتهم من دونك الأيام

ونحن نقول:

أنصفوا الفضول مـــن بنيـــه وإلاّ أنـــصفته مـــن دوننـــا الأيـــام

وبنوه هم أبناء هذا الوطن هذا الشعب – هذا معنى عام – فهل ننصف من ناضل من أجل حريتنا،؟ من عاش من أجل وحدتنا، من مات من أجل أن تبقى نبضات قلوبنا يمنيـــة الأرض والهوى، عاشقة لا ترتوي، من نظم أشعار السخرية ليزيل رهبة الظلم والطغيـــان الأمامي من قلوبنا، من نظم رائعات الأغاني التي عبرت عن خلجات قلوبنا الظامئة للمرأة والحب والعشق والجمال والإعجاب بكبرياء الحب وكبرياء الوطن وحريته، من نظم مشاعر المغترب البعيد عن الأرض والأهل والوطن، فأعاده إلى وطنه بين ليلة وضحاها وهو يسمع أيوب يناديه بقلب الفضول أو بقلبهما معاً، وما زالت تلك المحاضرة الإنـــسانية المرحلـــة الجامعية في جامعة الحديدة في عام ١٩٩١م.. هو يفلسف لنا الارتباط بين الإنسان ومسقط الرأس عندما يكون في بلاده بعيداً عن اليمن لا يتردد عن سماع أيوب طارش وهو يدغدغ قلب الوطن الكبير في قلبه وفور سماعه للألحان والكلمات والصوت، وكأنها أمور خلقـــت لتجتمع معاً في ثلاثة (الفضول وأيوب والإنسان اليمني أينما كان وحيثما أتجه) والفضول هو الذي نظم لنا شعر الطبيعة والسعادة والهجر واللوعة والكبرياء والتحـــدي والايقـــاظ والنقد اللاذع.. و ... و... وكل ما سنتناوله مستقبلاً إن كان هناك عمر وإن شـــاءت إرادة الله جل وعلا، فالفضول كثر أدعوا الله أن يوفقني لتقرأه الأجيال، وكم هي بحاجة إلى قراءة الفضول شعراً و إنساناً، فبقدر حبه للوطن بقدر وعيه الديمقراطي بـــضرورة النقـــد البناء، والهادف والذي لا يؤدي إلى اشعال الفتنة بين أبناء الوطن الواحد.

لـــــيس منـــــا أبـــــداً مـــــن فرّقـــــا
لـــــيس منـــــا أبـــــداً مـــــن مزّقـــــا
ليس منّا أبداً من يسكب النار في أزهارنا كي تحرقا

والأزهار عند الفضول هي الوطن و الوحدة والحرية والحب.. وهي كل حياتنا.

ولأن الأزهار يجب أن تتنفس الهواء، فلابد أن تتنفس بشكل منظم وبما يتناسب مع ما تثيره في النفوس من سعادة، وليس بشكل عشوائي أو عنيف،.. فالأزهار عنـــد الفـــضول أخلاقها زاهية ومشرقة فلا تبلى أبداً.

وسيبقى وجهك المشرق يا وطني بالضوء منّا مُشرقا:

وشعر الفضول العاطفي.. غنائي المزاج
وشعر الفضول الوطني.. غنائي المزاج
وشعر الفضول السياسي.. غنائي المزاج
وشعر الفضول الساخر.. غنائي المزاج

وشعر الفضول الفاخر.. غنائي المزاج
وشعر الفضول في الرثاء.. غنائي المزاج
وشعر الفضول في المدح.. غنائي المزاج
وشعر الفضول في الفلسفة.. غنائي المزاج
وشعر الفضول في الحياة.. غنائي المزاج
..... الخ ..... الخ.. مرن ويميل إلى أغنيات خالدة الفضول في مدحه ورثائه وفلسفته وحياته ينطلق من منطلق عظيم، فهو يرثي ليفلسف الحياة، وهو يمدح ليفلسف الوطن، وهو يتفلسف ليفلسف النفوس وهو ينظم شعر العاطفة ليفلسف نبض القلب، وهو ينظم شعر الوطن ليفلسف حب الوطن ومعاني حب الوطن والوحدة الوطنية، وهو ينظم الشعر السياسي.. ليوجه الأجيال في ديمقراطية السياسة والنقد والحوار السلمي، وليس حوار العنف والرصاص، المهم إن الفضول ينطلق من أسس نفسية أعتاد عليها وطبعت نفسه عليها منذ الميلاد فشعره الساخر ومواقفه الساخرة، لتبسيط الحياة وفخره بنفسه ووطنه لإشعار الأجيال بقيمة الكبرياء وعدم إذلال الذات أو جلدها بسياط الذل، والفضول ينطلق من تلك الأسس النفسية و الواقعية والفكرية والعصرية التي أنطلق منها الأستاذ وتلميذه المتنبي شاعر الحكمة والمعري أبي العلاء شاعر الفلسفة وفيلسوف الشعراء، مع اعتبار الفوارق التي كانت بينهم، والزمن، وتلاقيهم في تشابه الواقع العربي المؤلم، في الرداءة والجبن والتقاعس وإعلان السوء تفوقه على كل النفوس النبيلة.. كما قال المعري..

هكذا الناس مُذ خلقوا فلا يظنُّ جهول أنهم فسدوا

أو كما قال أستاذه المتنبي:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفَّة فلعله لا يظلمُ

أما الآن فإلى تلك المزاجية أو ذلك المزاج الغنائي الذي يتميز به شعر الفضول عامة.. وبلا استثناء، في رحلة مزاجية ترفقها فلسفة الفضول لنفسه منذ الصبا الباكر، مع الحياة والناس. وفلسفته للإنسان مع الحياة، والشمس هي الضوء الذي ينير تلك الفلسفة التي تقوم على الحرية أبداً، ولن ترى الدنيا على أرضي وصيًّا..

فكيف غنى الفضول (أغنيات الشمس) وكيف طرح السؤال العربي بين هذه الأغاني، وكيف كان مزاجه غنائي، فتابعوا الباب القادم.. باب (مزاج الفضول الغنائي)(*).

(*) ملحوظة // والقاموس الذي يعبر عن مفردات الهم الوطني في شعر الفضول لا حصر لها ولا حدود، وبين يدي القارئ شعره الذي تضمنه ديوان الفيروزه ليجد مبتغاه. والقراءة الدقيقة لديوان الفيروزه والأناشيد يكشف الهم الوطني في ضمير الشاعر والذي لا نستطيع إيجازه بقدر ما نستطيع الإشارة.

الباب السادس

المزاج الغنائي في شعر الفضول

هـــــات كُـــــلَّ الزهـــــر، والعطـــــر اليَّـــــا
أنـــــا – غـــــير الحـــــب – لا شـــــيء لَـــــدَيَّا
لحظاتُ الليلِ كم أمقـــتُ أنْ تلـــبس الـــديجورَ محـــسوباً عليَّـــا
كلُّ أعماقي وضوحٌ.. وجوانبُ نفـــسي تلـــبسُ الاشـــراقَ زيَّـــا
وهو الحبُّ الذي هندسني تحـــتَ هـــذا الـــضوء إنـــساناً ســـوياً
في الصبّا كم عَشقَتْ نفسي الضُّحى والشذا العبق، والظلَّ النـــديَّا
وشبابي كان عرشاً للـــهوى لم أعـــش فيـــه مـــن الحـــب خَليَّـــا
وأصيلُ العمـــرِ لـــن أمـــضي علـــى دربـــه إلاَّ لأحبـــابي وفَيَّـــا
وضحوكاً، مثل وجه الفجر، لا تطرحُ الأيامُ في وجهي عِـــشيَّا[1]

"الشعر الغنائي أصل الشعر – سيد قطب"

مدخل إلى المزاج الغنائي للفضول:

أتفق واجمع النقاد والدارسون والباحثون على أن الشعر اليوناني القديم والرومـــاني.. وأيضاً الفارسي كان ينقسم إلى أربعة أنواع من الشعر أو أن له أربعه مسميات تحدد نوع الشعر المنظوم وهي:

أولاً: الشعر الغنائي
ثانياً: الشعر الملحمي
ثالثاً: الشعر التمثيلي (القصصي)
رابعاً: الشعر التعليمي

وهذه الأنواع الأربعة من الشعر تعني أن الشعر الغنائي هو الشعر الذي نجـــد فيـــه الشاعر يتحدث عما حوله ممتزجاً مع نفسه تجاه ما حوله من حياة.. أي أنه شعر يعبر عـــن الذات وأحزانها وأفراحها وآلامها وآمالها.. ألخ، وكل ذلك من خلال أغراض وحركـــات الحياة المختلفة، فيكون للشاعر في نفسه ومن نفسه أثر كبير في شعره، ولذلك سمي بالشعر

(١) أغنيات الشمس – ديوان الفيروزه.

الغنائي أما الشعر الملحمي فهو ذلك الشعر الذي يقف فيه الشاعر مثلاً.. في أرض المعركة ليصف أحداثها مشيداً بأحد أبطالها أو بعدد منهم، ويكون وصفه لما هو عليه، الواقع تماماً دون تفاعل مع الأحداث نفسياً، وقد يأتي الشاعر ببطل من الخيال، المهم أنه يصف ما يراه وإن عمل على تضخيمه ... مثل (ملحمة هو ميروس) وغيرها.

أما الشعر التمثيلي (القصصي) فهو القائم على حوار بين عدد من الأشخاص بطريقة شعرية مهما اختلفت أو تعددت الموضوعات المتضمنة لهذا النوع من الشعر، أما الشعر التعليمي، فهو ذلك النوع من الشعر الذي ينظم على سبيل تبسيط بعض أنواع المعارف والعلوم.. بطريقة شعرية مشوقة وهادفة ولها دلالاتها المتعددة، وهذا توضيح لأنواع الشعر عند الأمم المختلفة.

وعندما بدأ العرب ينظمون الشعر في العصر الجاهلي و ما قبل الإسلام في حدود مائتي عام تقريباً – كما أن الدارسون والنقاد، وحتى اليوم فإن ما يطلق على الشعر العربي من سمات ومميزات هي (بإجمال الدارسين) أشعار غنائية، فيها الذات العربية، ونفس الشاعر العربي، وفيها المعاناة والمكابدة ومزج الحياة بالنفس والذات أو مزج الذات والنفس بالحياة،.. فالشعر العربي منذ بدأ وإلى اليوم، هو شعر يتمتع بسمات الشعر الغنائي التي وضحناها سابقاً.. ولكن هذا ليس معناه أن الشعر العربي أقتصر على هذا النوع من الشعر بمفردة حتى اليوم، بل إن حركة الحياة وتعدد العوامل التي تبعث على تحريك الجمود، وحركت الشعر العربي ومقوماته استقبلت حركة وتطور الحياة بمرونه وكفاية وقدرة هائلة، وعندما تطورت الأغراض الشعرية تطوراً هائلاً عبر كل العصور ابتدأ بالإسلامية الأولى ثم الأموية ثم العباسية الأولى ثم العباسية الثانية،، ثم أغراض العصور التي رافقت العصر العباسي الثاني وعلى مختلف الأصعدة والبلاد والإمارات التي أعلنت سلطانها المنفصل عن الدولة العباسية في بغداد.. فظهر مثلاً الشعر التعليمي في الشعر العربي مع بداية العصر العباسي الأول ونما وتطور في الثاني، وأستمر في تطور حتى أصبح في الشعر العربي ميداناً واسعاً في هذا الجانب.. وحتى اليوم وألفية أبن مالك النحوية أكبر مميزات هذا من الشعر العربي بنمطه التعليمي والتربوي.. وغيرها كثير.

أما الملحمي.. ففي شعر عنترة بن شداد وشعر المقطوعات في صدر الإسلام ثم في العصر الأموي الكثير من الشعر الملحمي الذي رافقت الذات التي تجد نفسها في خدمة الإسلام في أرض المعركة والبطولة والاستشهاد.. (مالك بن الريب وعبيد الله بن سبره الجرشي.. و.. و... الخ) وغيرهم كثير.

أما الشعر القصصي (التمثيلي) فلم يظهر في الشعر العربي طوال مئات السنين حتى ظهر في بداية القرن العشرين على يد أمير الشعراء أحمد شوقي لكن في نماذج قليلة لا

تتعدى أصابع اليد الواحدة، وما زال الميدان في هذا الفن أو الجانب أو النوع من الشعر فارغاً، ويبدوا أن الأسباب التي تكون لتطويره لم تتهيأ بعد رغم الإثارة التي يكون عليها هذا النوع من الشعر وخاصة باللغة العربية عند المستمع والممثل.

وكان ذلك باختصار من أجل توضيح ما هو عليه الشعر الغنائي مقارنه بالأنواع الأخرى من الشعر، وبناء على ذلك فإن شعر الفضول غنائي عنيف وقوي ومذهبه متصل بتلك الغنائية الشعرية تماماً من حيث تعبيره عن ذاته في كل ما نظمه من شعر عامة، وهذا من جانب واحد فقط.

ولكن هناك أيضاً ما يجب توضيحه فعلاً.. وهو أن هناك تسمية لنوع من الشعر في الوقت الحاضر وهو النوع الخاص بالشعر الذي يؤديه المطربون غناءً بأصواتهم المتميزة.. فطغى على هذا النوع من الشعر مصطلح الشعر الغنائي – أي الذي يؤدي غناء، وتخصص في كتابته الكثيرون من الشعراء واجتمعوا مع من يعبرون ويوصلون تلك الأشعار للناس – في أرجاء الوطن العربي من مطربين ومطربات فكان:

أحمد رامي وأم كلثوم، والأخوان رحباني وفيروز، عبد السلام محمد وعبد الحليم حافظ، كامل الشناوي ونجاة الصغيرة.. و.. و.. وكثيرون من الذين كونوا ثنائياً ناجحاً.. ومن أجتمع مع مطربين من خلال قصيدة واحدة فقط أو من خلال عدد من القصائد التي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.

ومعلوم أن الشاعر الغنائي بهذا المفهوم يرتبط وجوده وبقاؤه وعالمه الشعري بمن يغني شعره، وإن غابا، أو غاب عن الساحة كلاهما، أو أحدهما،. ولذلك قد يندثر الشاعر الغنائي الذي من هذا النوع من تراث الفكر والشعر والأدب بسرعة كما ظهر، لأن الشعر الذي يؤدى غناء فيه من مميزات خاصة به فهو شعر غنائي مؤدى وهو في عمقه سطحي، وأغلب الأشعار الغنائية العربية مزجت بألفاظ عامة كثيرة شوهت اللغة الشاعرة في الفصحى الغنائية، وكانت تلك الألفاظ العامية من أبرز المثالب التي أضاعت الشعر والشاعر من أجل الحصول على إعجاب مؤقت من الناس، فغفلوا عن التأثير الدائم الذي هو من مقاييس الأدب عامة والذي يتمثل في وحدة الأثر الزماني والدائم، ودخلت الألفاظ العامية لخدمة اللحن حيناً وأرضاءً للأذواق الفاسدة حيناً و إرضاءً للمطرب او المطربة أن لم يركب اللحن والقول على أدائها الصوتي.

المهم – أنّنا سنعود في غير هذا الباب لطرق ألفاظ الفضول التي يعتقد أنها عامية، ولكنها في الحقيقة من (الفصحى العربية)..

وكما قلنا تعارف الناس والنقاد على هذا النوع من الشعر الذي يؤدى غناءً بالشعر الغنائي.. وهذا مفهوم ومصطلح يختلف تماماً عن مفهوم الشعر الغنائي العربي، الذي هو من

أنواع الشعر عامة، وما ينبغي توضيحه أن الشعر العربي قائم على أوزان شعرية وهي أكثر سعة واحتواءً للأصوات والأداء المتعدد والهائل التعدد، وقد ظهر الكثيرون من المطربين والمطربات في عصور مختلفة، وكانوا يؤدون أشعاراً فصيحة باشتراك النوتة الموسيقية والأوزان الشعرية، وكانت من الألحان البديعة زماناً ومكاناً وفي كل الأزمنة، ولم تنفرد بميزة أو مصطلح الشعر الغنائي، وإنما كانوا يختارون من الأشعار التي يمكن أن يكون لها ما يسمى بالمزاج أو الطبيعة الغنائية، والأقرب إلى الأداء والأنسب للصوت المؤدي، والموافق لما يريد الناس أن يسمعوه من غناء ومن كلمات حزناً أو فرحاً، عشقاً أو فراقاً، هجراً أو عتاباً، – وبهذا نخلص إلى أن المفهوم الغنائي الحديث مفهوم ومصطلح غير دقيق، وإن عبر عن الأداء أو الغناء، لأنه بهذا يخالف ما تعارف عليها الدارسون والنقاد حديثاً أن طبيعة الشعر العربي عامة طبيعة غنائية وشعر غنائي لأنه يعبر عن الذات و ما يحيط بها من حياة، وعن الحياة ممتزجة بالذات الشاعرة، والشعر الغنائي المؤدى (حسب المفهوم الحديث) هو أيضاً تصوير للذات، لكنه تصوير مسبق ومعلوم أنه قيل أو سيقال ليكون غناءً وطرباً، وبهذه المعرفة المسبقة والإدراك لطبيعة الشعر الاطرابية، لا يكون مكتمل الغنائية الشعرية حسب مفهوم النقاد للشعر العربي، لأنه قد أنفصل مسبقاً عن تلقائية الذات الشعرية والشاعرة ففقد تلك الأصالة أو الهوية التي تأتي من غير افتعال أو إدعاء أو تكلف،.. وإن حقق بعضه بعض التفوق لكنه تفوق مؤقت وسطحي ومرهون باللحظة الانفعالية الأدائية.. وعلى سبيل المثال لا يمكن لنا إن نقوم بدراسة تحليلية ناقدة لأعمال كثير من الشعراء الذين نظموا أشعاراً غنائية حسب المفهوم الحديث لشعر الغناء، لأنها ستبدو أشعاراً سطحية وغير عميقة المعنى واللغة، فهي نظمت لتتلاءم مع متطلبات السوق... في أغلب الأحوال، وهذا هو الذي كان منه الطريق إلى فساد الأذواق بأغاني الشباب وألحان تلك الأغاني التي تعبر عن اضطراب الذات العربية التي وقعت تحت سيطرة الذات الغربية المليئة بالمتناقضات العقيمة، والفساد المعنوي.

أما شعر الفضول فإنه بانتمائه القوي إلى الشعر العربي الغنائي حسب المفهوم الأكاديمي للأدب الإنساني من حيث التعبير عن الذات وتفاعلات الذات مع الحياة ومواقف الحياة، أمر لا شك فيه، والإضافة التي نزيد اضافتها هي أن شعر الفضول، من أقوى وأصدق الأشعار التي نظمت في تاريخ الأدب والشعر العربي عامة والغنائي والمعبر عن الذات خاصة، لأن تجارب الفضول من التجارب النادرة ((التي ترفع الإنسان فوق مستوى حياته العادية، والبيت ترتفع فيها درجة الانفعال حتى تصل إلى درجة التوهج والإشراق أو قريباً منهما أو الرفرفة والانسياب... وفي شعر الفضول مقومات العمل الأدبي كاملة – من دلالات لغوية للألفاظ والعبارات والإيقاعات الموسيقية للكلمات والتراكيب، والصور والظلال الزائدة على المعاني اللغوية، ثم طريقة تناوله للموضوع والسير فيه – سيراً قوياً

وفاعلاً حتى النهاية – والإيقاع المقسم والقافية وهما ميزتان في الشعر العربي، وليس ذلك فحسب بل هناك الروح الشعرية والتجارب الشعرية والتي تثير الانفعالات الشعورية الخاصة، ففي التعبير الشعري شيء كثير من ذلك، فالظاهر أن الإيقاع فيه ووفرة التصورات الخيالية يساعدان الألفاظ على استنفاد الانفعال بطريقة شبه عضلية وحسية،لأنها تَمُتُّ بسبب إلى الرقص والغناء وسبلتي التعبير الجسديتين عن الانفعال الوجداني الفني، فوظيفة الشعر الغناء، الغناء المطلق بما في النفس من مشاعر وأحاسيس وانفعالات، حيث ترتفع هذه المشاعر والأحاسيس عن الحياة العادية، وحين تصل هذه الانفعالات إلى درجة التوهج و الإشراق والانسياب))[١].

أما اللفظ عند الفضول فقد أخذ حقه الأدبي كاملاً من حيث ((إنه الوسيلة الوحيدة إلى إدراك القيم الشعورية في العمل الأدبي، وهو الأداة الوحيدة المهيأة للأديب لينقل إلينا خلالها تجاربه الشعورية، وهو لا يؤدي هاتين المهمتين إلا حين يقع التطابق بينه وبين الحالة الشعورية التي يصورها، وعندئذ فقط يستنفد – على قدر الإمكان – تلك الطاقة الشعورية ويوحيها إلى نفوس الآخرين))[٢].

فاللفظ عند الفضول هو صورة من اللحظات الفائقة في الحياة الشعورية لديه، وهذه اللحظات الدائمة في شعر الفضول تصور لنا بجلاء ووضوح طبيعة التجربة الشعورية، وطبيعة الإشعاع الإيقاعي والتصويري للفن،

كلُّ حزني هو أني لا أرى.. أحداً في الناس بالحب حفيًّا
لكأنَّ الحب أضحى عاهةً.. تثقل الإحساس أو شيئاً فريًّا
وأرى أن نفاق الناس للسوءِ قد أصبح أسلوباً ذكيًّا
فإذا السوءُ على الصدر مجالسُهُ والخير منبوذاً رزيًّا
وإذا الافك أميرٌ أمرُهُ.. وإذا موسى يحبُّ السامريًّا
واهمٌ إنْ شئتَ أنْ يعطيكَ الحبَّ أو يمنحكَ الودَّ النقيَّا
جاهلٌ، نشَّأهُ الجهلُ، ورعرعَ في جنبيه قلباً جاهليًّا
تُكمنُ الأوهامُ في أعماقه.. وُحْشَةً – ترضعُ حسًّا همجيًّا
ويسير الأثمُ في أعصابه – ريَّاً – تحييه مرجوفاً شقيًّا
فزِعَ النفسِ من العلمِ بأنَّ له فيها دماراً خُلُقيًّا

*****

وبقدر ما جمع الفضول طبيعة الشعر الغنائي العربي المعبر عن الذات بعمق في كل أشعاره بلا استثناء، فقد أمتلك شعره عامة تلك السمات المكتملة من حيث انطباق أشعاره

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه – سيد قطب..
(٢) نفس المصدر السابق.

على الموسيقى والذوق واللحن والغناء والأداء وامتلاك طبيعة الأداء الغنائي منذ التماع موهبته الشعرية.. بل ومنذ القسم الوطني الأول الذي أبرمه مع أستاذيه الموشكي والزبيري لأسباب نفسية بحتة، فعندما تنظر وتقرأ وتسمع الأبيات الشعرية تلك تدرك الفارق في الجرس الموسيقي، فبقدر قوة الجرس الموسيقي للزبيري والذي يعبر عن كلاسيكية رصينة وألفاظ جزلة فيها التحدي العنيف والشرس.. هكذا:

((بالله بالدين بالأوطان لنُحَطِّمَنَّ معاقلَ الطغيان))

وما تفعله الثلاث الكلمات الأولى ((بالله – بالدين – بالأوطان)) أنها تجعلنا نحس أننا في ملحمة عقيديه ودينية ووطنية، بأسلوب حماسي ميداني عنيف، وتحدي واصرار قوي يعبر عن تلك الطاقة الشعورية الجبارة التي كانت تعتمل في جوانح وقلب الزبيري، وشعره يغلب عليه الطابع الميداني الحماسي، والمعبر عن المأساة بروح الميدان هكذا (لنحطمَنَّ معاقل الطغيان) وكأننا أمام قلاع في شامخات الجبال وهي معاقل يستوطنها طغيان إمامي بغيض، فالزبيري يبحث عن القوة التي تدك تلك المعاقل الحصينة، وهذه القوة في حاجة إلى الايمان القوي بالله عقيدة، وبالدين شريعة ومنهاج حياة، وبالأوطان للعيش الكريم بحرية كاملة.

فبيت الزبيري الشعري قائم على إدراك مسبق بعدم جدوى الإصلاح النفسي مع الحكم الأمامي، فقد جربه سنوات طويلة دون فائدة فلم يبق أمامه إلا القوة الدينية والإرادة الشعبية الوطنية.

أما الموشكي فإنه يعبر عن نفسه أيضاً وتلك النفس التي تتوق إلى الحرية، وإلى الشهادة في سبيل الحرية الوطنية والإنسانية، فهي نفس زاهدة أوابة... هكذا:

ستطيرُ أرواحُنا إلى أوج العلى أولاً فأرواحُنا إلى رضوانِ

فهو لا يفكر بطريقة الزبيري، وانما له طريقته الخاصة به، فالموشكي يبحث عن الحرية، ويرغب بدفع الثمن بالشهادة لأنها حلمه لدخول الجنة، ومطلبه للحرية ليس فيه ذلك الاستعداد والتنظيم والمواجهة العنيفة، بقدر ما فيه الجنة هو المراد، إن لم يحصل على الحرية، ومنطلق الموشكي ديني وزهد من نفس وديعة، لكنها تتوق إلى الحرية، وعندما تدفعنا أشواقنا الدينية إلى ترديد بيت الموشكي الشعرية، فنجد أنفسنا في بيئة صوفية، ونحن نتغنى بطريقه صوفيه وبذات دينيه تواقة إلى الجنة فأرواحنا إلى رضوان.

أما الفضول فإن القارئ الحصيف لبيته الشعري يدرك منذ الوهلة الأولى الطابع الغنائي. والمزاج الغنائي، والرقه التي عليها ألفاظ الفضول في بيت من الشعر نظمه في حدود عام ١٩٤٤م، في مدينة عدن، وهو في بداية حياته الشعرية هكذا:

ستعانقُ الفوزَ المبينَ نفوسُنَا حتماً كما يتعانق الإخوانُ

باعتبار الفوز مفعول به مقدم والنفوس فاعل مؤخر أو هكذا:

سيعانقُ الفــوزُ المــبينُ نفوسَــنَا حتماً كمــا يتعــانق الإخــوانُ

باعتبار الفوز فاعل والنفوس مفعول به.

وهذه التقليبات اللفظية والنحوية ستظل ميزة يتميز بها شعر الفضول عامة، وتتمتع بيت الفضول الشعري بذلك الحس الموسيقي الذي يدركه القارئ الواعي مــن القــراءة الأولى، فكأنك تحس بان للكلمات لحن في النفس يريد أن ينطلق ويتحرر كأغنيــة تمــلأ السهول والوديان والجبال ستعانق أو سيعانق، وما العناق إلا أغنية إنسانية والفوز المــبين، فما الفوز إلا أغنية يكون الإدراك ما يتطلبه الواقع والمواجهة فالفضول يصور طريقة خاصة به على أساس تجارب سابقة تصبح له فلسفته الخاصة، فالفضول ينظر إلى النفس والقلــب لأن النفس هي المحرك الأساسي للإرادة التي ستؤدي إلى العناق الحتمي بين النفوس قبــل الأجسام والمعنويات قبل الحسيات، كما يتعانق الأخوان، وفي هذا تــصوير للمعنويــات والنفوس وإعطائها صورة المحسوسات وعناق الأخوان، و هذا أثره واضح في كل أشــعار الفضول، وبخاصة نشيد الوطن (رددي أيتها الدنيا نشيدي).

ولو أراد القارئ الآن أن يغني أو يتغنى بالأبيات الثلاث السابقة للشعراء الثلاثة لوجد في نفسه الرغبة وهي تدفعه لأن يتغنى مع الفضول ليعانق الفوز المبين نفوسنا، لأن ألفــاظ الفضول أقرب إلى تصور النفس الغنائية أو الذات الغنائية، ورغم وجود الذات الغنائيــة المشعة في ثنايا الألفاظ والنفس والصور والظلال والتجربة الشعورية التي في بيت الفضول الغنائي المزاج وهذا ما يتميز به شعر الفضول عامة.. وحتى آخر قصيدة نظمها، سواء كان شعراً عاطفياً غنائياً، أو شعراً وطنياً، أو نشيداً وطنياً أو شعراً سياسياً أو شــعراً قوميــاً أو شعراً فلسفياً، فتحس كأنك تريد أن تغني معه وأنت تقرأ شعره عامة، أو لنقل لأنه استطاع أن يصل إلى أوتار قلوبنا بقصائده الغنائية.

ومزاج الفضول الغنائي المطبوع والمفطور عليه هو الذي دفع في بداية تعاونــه مــع أيوب طارش منذ عام ١٩٦٧م في مدنية تعز.. إلى البحث عن أيوب طارش، فالمعروف أن المطرب هو الذي يبحث عن الشاعر الذي يجد في كلماته ما في نفسه وليس العكس كمــا حدث وحصل مع الفضول الذي ذهب بنفسه إلى أيوب طارش.. فلم يــضيع الفــضول الوقت – كما قال أيوب طارش في لقائه الذي أجرته معه الجمهورية الثقافية فقد بدأ يقرأ لأيوب قصائده الغنائية ومنها (مدارب السيل – طاب البلس) وأيوب لم يتمالك نفسه إلا وهو يردد (يا سلام.. يا سلام) بدون شعور اعجاباً بما يسمع، لأنه سمع ما يلامس في نفسه ذلك الإحساس المشترك الذي جمع بينهما، فعلى ماذا تدل مبادرة الفضول هذه؟ ألا تــدل على مزاج غنائي؟.. وهذا أمر وهناك أمر آخر يدور في ذات المدار.. أن الفضول لم ينظم أبياته الشعرية وقصائده الغنائية تلك وغيرها، بعد لقائه بأيوب طارش وإنما قبل ذلك غــير

مزاجه الغنائي المطبوع عليه، فهو لم ينظم قصائده الغنائية تلك حسب الطلب، وإنما نظمها لأنه دافع أصيل في نفسه.. ورغبة متجذرة في أعماقه، وهنا يجوز لنا أن نضيف أمراً بسيطاً لكنه أمر أكيد، فالمعلوم أن أيوب طارش في تلك الفترة كان قد وصل من عدن، بعد أن أشترى عوداً ليعزف عليه كهواية بعد أن أدرك وهو في المعهد الديني تلميذاً للشيخ / محمد سالم البيحاني، موهبته الصوتية، فبدأ يقلد أصوات عبدالوهاب وغيره من فناني مصر – موهبة أيوب طارش هي التي دفعته أيضاً إلى اجادة العزف على العود، وهي أسباب تهيأت له بها أن يجيد بوجود الدافع والمرشد للعلم، دون إدراك للنوتة الموسيقية نهائياً، لكن النوتة الموسيقية كانت تتلخص في صفاء النفس التي عليها أيوب طارش والتي هي كصفاء صوته الرخيم الذي وصفه البيحاني بأنه مزمار من مزامير داود عندما سمعه وهو يغني لأول مرة. وعلى هذا النقاء والصفاء والبراءة يمكن لنا أن نكشف أن الطابع المزاجي في شعر الفضول كان عاملاً كبيراً في أن يجد أيوب فيه وأن يجد شعر الفضول في أيوب تجاوباً نفسياً إلى أبعد الحدود التي يمكن أن نتصورها أولا نتصورها، ندركها أو لا ندركها ولعل القارئ الحبيب يعود إلى نص مدارب السيل وطاب البلس ليرى بنفسه اللغة والألفاظ والموسيقى الوجدانية والشعرية والأوزان الشعرية أيضاً والتجربة الشعورية والإيحاءات والصور والظلال التي تملأ نفوسنا أنغاماً متلألئة في الألفاظ التي ترسم لوحة إنسانية خالدة من خلال النص كاملاً، – فيجد القارئ نفسه وهو يتأهب لوضع ألحان من نفسه على النص الأدبي الغنائي المزاج واللفظ واللحن والأداء والتصوير والشعور والوجدان والظمأ والقاموس اللغوي واللفظي، وجاءت وحدة البيئة للشاعر والمطرب لتوصل اللحن، وكانت النفسان في محل رفع ضمير الألحان التي تناسبت وملأت الدنيا ظمأ وشوقاً وأفياءً وغناءً، وجاءت بعد ذلك دراسة أيوب في القاهرة لتكون عوناً لما فُطر عليه الشاعر والمطرب من تمازج نفسي أصيل بينهما، واستعدادات عملت على الجمع بين النفوس المحبة.

وقبل أن يلتقي الفضول بأيوب في تعز، كان أيوب قد غنّى من كلمات الفضول قصيدة غنائية هي روح لك بعيد، بالاشتراك مع منى على في عدن، و بألحان من التراث:

رحلك بعيد، ما عادناش لك من بعد ما غيري سطى وشلّك
وبعد ما قد كنت لي بكلك وابذلت لك نفسي وكل ما ملك
فكنت أقول بيني وبين عقلي مو عمل بعمري بعد هجر خلّي
أنت الذي قد كنت فيك شغلي قد كنت حبيّت الحياة.. لأجلك
تميّت لي روحي ألم وتجريح ظّنيتني شابكي عليك واصيح
خلّك طريح مكبود ينفخك ريح ما سخاش بدمعي يستكب لمثلك
غبني على نفسي وغبن قلبي على عذابي في سبيل حُبّي

أبحــتْ لــك روحــي فكــان ذنــبي ربطي لحبلــي في الهــوى بحبلــك
قد بعت لك نفسي مــا كــان ذنــبي رخيص وعقلي بــالهوى لأجلــك[١]

فهذه القصيدة من البواكير التي أعلنت – وان كان الإعلان متأخراً – عن آلمــزاج الغنائي – الذي شغله الهم الوطني والصحفي وعبث الكلمة – وعندما التقينا أيوب في تعز، سألناه عن الحوار الذي قد يكون دار بينه وبين الفضول في لقائهمــا الأول حــول هــذه الأغنية، فقال وهو يضحك وحائر،بأن لا حديث دار حول تلك القــصيدة،فلا الفــضول أخبره أو حتى أوحى له أنها من كلماته، وأنه لم يقل حتى رأيه في الأداء، وأيوب أيضاً مــن جهته لم يحاول حتى تذكيره بذلك وليس ذلك لأي اعتبار،فقط لأن الأثنين أخذوا الأمــر ببساطة شديدة ولم يعيراه أدنى اهتمام، على غير عادة الناس في مثل هذه الأمور، وهذا أمر له تفسيره النفسي الأصيل بينهما من خلال المقارنة مع موقف آخر في مصر جمع بين الشاعر شاعر الشباب والحب أحمد رامي والمطربة أم كلثوم، فقد غنت له قصيدة وهو غائــب في باريس، وعندما عاد بعد زمن حضر حفلة غنت أم كلثوم فيها قصيدة الشاعر الأولى أحمد رامي، فصعد إليها وعرفها بنفسه انه صاحب القصيدة التي غنتها و اسمها (الصَبُّ تفضحه عيونه) ومن هناك بدأ المشوار بين رامي وأم كلثوم حُباً وشعراً.. وحتى النهاية.

أما ما حدث بين الفضول وأيوب من تجاهل لتلك القــصيدة الــتي تقودنــا إلى أن الفضول لم يكن من الذين يهتمون بالأمور الجانبية كالحقوق المادية مثلاً لأنه على ما يبدوا أستمع إلى أداء أيوب طارش، فأدرك بإحساسه ومزاجه الغنائي أن أيوب هو خير من يعبر عن قلب الفضول روحاً ونفساً وإحساساً وأداء، وهو الأمر الذي قاده إلى أن يتجــه إلى أيوب مباشرة بشعره الذي كان واثقاً من أنه سيجد الصدى القوي في نفس أيوب وحسه المتذوق، ولأن الفضول عشق الكلمة الجميلة فهو بالتالي يتجاهل كل ما من شأنه أن يعوق وصول هذه الكلمة الجميلة المعبرة إلى الناس وعلى رأسها الأمور المادية، وتجاهل الفضول لأمر القصيدة يوحي وبما لا يدع مجالاً للشك بتساهل وبساطة النظم الشعري والفكــري عند الفضول أي لما نظمه خصوصاً وعدم استقرار الفضول النفسي وهو انشغال مستمر لم – يمكنه من تنظيم العملية الإبداعية لديه من خلال جمع أعماله وترتيبها بانتظــام، فأيمانــه وعشقه لجمال اللغة جعله يندفع في اسماع الناس ما نظمه من الشعر،وبالتالي إعجاب أولئك السامعين بما سمعوا، وخير دليل على هذا كقصة ينطبق أحداثها على إهمال وتقصير الفضول في الاحتفاظ بأشعاره والأمر هذه نخص به الجزء وليس الكل، بدليل ديوان الفيروزه، الذي يمثل نضج الفضول الشعري أصدق تمثيل.

أما صمت أيوب طارش فمرجعه إلى تطابق نفسي مع الفضول أضف إلى ذلك ما عليه أيوب طارش من دماثة أخلاق وخجل يزيد من تألق الموهوب.

---

(١) الجمهورية الثقافية. من الدندنة إلى المأذنة ع ٤٩ – ص ١٥.

وبما أننا تحدثنا عن مزاج الفضول الغنائي قبل لقائه بأيوب من حيث النظم الشعري، فكان لزاماً علينا أن نتحدث أيضاً عن المزاج الشعري الغنائي بعد لقائهما، فقد أستمر الفضول يكتب قصائده الغنائية لأكثر من ١٥ عاماً غنى أكثرها، أيوب طارش، توزعت البقية على عبد الباسط العبسي [١] وهذا مذهب يذهب بنا إلى تأكيد ما قلنا سابقاً من ادارك الفضول لموهبة أيوب التي تطابقت مع نفسه فقد كان أيوب – حسب قوله – إذا ما طلب قصيدة من الفضول وهي بين يديه يقول له الفضول ((إنها لا تصلح لك)) وهذا تأكيد آخر لإدراك الفضول لموهبة أيوب الصوتية والفنية وإمكانياته اللحنية وأيضاً دليل على ضرورة أن يتمتع الشاعر الغنائي حسب المفهوم العربي والنقدي والمفهوم الحديث، بالقدرة على إدراك أبعاد صوت وطبيعة موهبة المطرب الذي ينظم له قصائده، ولعلنا ندرك أن أيوب كان يطلب أحياناً من الفضول أبياتاً شعرية لمناسبات معينة مثلاً:

عندما طلب منه قصيدة تتحدث عن الغربة والاغتراب ومشاعر البعد عن الوطن لتكون أكثر صدقاً في التعبير عن ذلك وخاصة أن أيوب كان من الذين عاشوا محنة الاغتراب عن القرية مسقط الرأس، فنظم له الفضول قصيدة (جنحت واجناحي حديد لا ريش)، التي وإن كانت طلباً من أيوب، ولكنها كانت تعبيراً عما في نفس أيوب وهو أمر متطابق تماماً عما في نفس الفضول، وما أسرع ما لبى الفضول طلب صاحبه، وبأصدق ما يكون لأن الرجل موهوب وشاعر يعيش تجربة ما ينظمه الفضول لأنه لامس موطناً وموضعا للوجع والتجربة والوجدان فكانت هذه القصائد:

١- زفّة العروس التي نظمت حسب الأداء الفلكلوري اليمني وقريبة من الناس.
٢- جنحت واجناحي (مشاعر المغترب تجاه الوطن).
٣- بكر غبش في الطل والرشاشي (على وزن قصيدة لم تعجب الفضول كاد أيوب يغنيها).
٤- طال الفراق (على وزن كلمات أستهجنها الفضول وأيوب يعرضها عليه).

وعبر هذه الأغاني والقصائد التي نظمها الفضول ذاتياً، وحصل عليها أيوب أو أعطاه إياها الفضول، وتلك القصائد التي تتضوّع منها روائح المزاج الغنائي عند الفضول لغة وأسلوباً ولحناً وشعوراً ووجداناً، ولذلك سنجد قصائد نزار قباني ليست كلها صالحة لتكون اغنيات ولذلك ينتقي كاظم الساهر وغيره ما يناسبهم منها.

---

(١) يا حب يا ضوء القلوب غناها الحارثي أيضاً وكذلك قصيدة شبان القبيلة أداها. الثلاثي الكوكباني والمرشدي / ما عزّني أبكي عليك واندم غناها مطرب مغمور اسمه عبد الباسط القرشي / إن كان درب الحب قد أتعبك غناها المعطري ومحمد صالح عزّاني.

ونسمح لأنفسنا هنا – بذكر الشاعر الغنائي الشهير حسين المحضار، الـذي نظـم وكتب قصائد غنائية – حسب المفهوم الحديث والمعاصر – لأبي بكر بالفقية.. وهي كثيرة وله ديوان أو أكثر واستطعنا معرفة وأدارك واستنتاج أن المحضار نظم أشعاره وبما يتناسب مع الصوت والأداء الغنائي والنوتة الموسيقية.

فلم نقدر على نسبة أي قصيدة غنائية إلى بحر من بحور الشعر العربي التي تقوم على الأوزان – العروضية الشعرية، – سواء البحور التامة أو المجزوءه أو المشطور أو المنهوكة، ولذلك فإن أي تحليل لمثل تلك القصائد لا طائل منه لأنها كفقاعات الصابون من منظـور المقياس التاريخي والخلود الفني والنفسي للأدب، هذا في شعر المحضار.

وستكون عبثاً وعديمة الجدوى لأنها قصائد آنية ووقتية، إضافة إلى ما تمتلئ به مـن ألفاظ عامية ولهجة دارجه، وهو الأمر الذي يختلف كلية مع الفضول وشـعر الفـضول، فشعر الفضول يقوم على النظام العروضي و يعتبر شعر الفضول الميزان الـشعري جـزءاً أساسياً من غنائيته ومزاجه، وهو ميزان شعري يعتمد على وحـدة التفعـيلات والنظـام الشطري ووحدة القافية، غالباً، والتنويع في القوافي ووحدة الوزن الشعري و إن أصـاب القوافي تغيير و إبدال، أو تعددت حروف الروي، أو حدث تغـيير في نظـام التـشطير العروضي، هذا راجع إلى مزاج غنائي في الشعر حسب المفهوم العربي والأكاديمي وإلى قدرة بارعة وامتلاك لأدوات الشعر، وإلى ثقافة شعرية سنتحدث عنها لاحقاً، وإلى لغة وألفـاظ ذات صلة بمعاناة الشاعر، وغير ذلك كثير من الفنية في شعر الفضول وهو أمر سنفـصله فيما بعد، وما بين غنائية الفضول وغنائيات المحضار بون شاسع.. يجعل شعر الفـضول في مقام الدهر الذي ستروي للأيام قصائده، وما ذكرنا ذلك هنا إلا لإيصال مفهوم المـزاج الغنائي عند الفضول من خلال المقارنة التي قد تساعد على الإيضاح فحسب.

وهناك أمر أيضاً يجب أن يكون له الأهمية لأبراز مزاج الفضول الغنائي، فقد ذكـر أيوب مراراً وتكراراً أن الفضول كان يستمع لأيوب بعد أن يضع الألحان لأغانيه ثم يدلي برأيه في اللحن، إن نال إعجابه استمر أيوب وأن لم ينل إعجابه طلب منه أن يغيره، أو تغيير بعض المقاطع وهكذا.

وهي مواقف قليلة عندما كان يطلب تغيير الألحان، وغالباً ما كانت ألحـان أيـوب تناسبه لأنها وجدت صداها في نفسه ووجد نفسه في صداها، وما زال موقف الفضول مع يحيى العرشي عندما أراد الأخير أن يترك أمر تلحين النشيد الخالد رددي أيتها الدنيا نشيدي لأحمد السنيدار.. وكان أيوب قد وضع له الألحان وسمعها الفضول كما أسلفنا في باب الهم الوطني.. فنالت إعجابه فطلب الفضول من يحيى العرشي أن يضع للسنيدار كلمات مـن شعره، إذا أراده، أن يؤدي النشيد، وهذا ليس تعيباً في أحد، بقدر ما هـو إدراك مـن الفضول لما سمع من ألحان لأروع ما نظمته الموهبة الإنسانية في حب الوطن ولعلنا نـدرك

تمسك الفضول الواعي بألحان أيوب، لأنها ألحان عبرت عما يجب أن يكون، وكما تخيلتها البؤرة الشعورية في الفضول، ولو سمعنا الألحان التي وضعها السنيدار للنشيد.. لأدركنا أكثر أبعاد المزاج الغنائي عند الفضول، ولعذرناه، وهو يخاطب من لم يعرف إمكانياته وإمكانيات غيره، ومن لم يعرف قدر نفسه ومزاجه، وليس في ذلك الذي حدث وكان ما يشين، ولكنه يعبر عن المزاج الغنائي عند الفضول.. وهو الأمر الذي نسعى إلى تأكيده من كل المداخل التي تنطوي على موضوعية ما نطرح من أراء.

وقد نعود إلى الذاكرة وإلى ما كتبه أيوب بنفسه جوانب هامة جداً في قضية المزاج الغنائي عند الفضول،. فأيوب خير من يتحدث عن ذلك من قبل ومن بعد، – وفي الصفحة (٤٨)(*) صورة تجمع بين الفضول وأيوب في جلسة فنية مشتركة وأيوب يمسك بالعود والفضول بجواره يفكر، ومكتوب تحت الصورة (أيوب يعزف والفضول يعزف)، وهي عبارة تحمل مزاج الفضول من غير قصد لأن الفضول كان يعزف الكلمات والألفاظ واللغة والمعاناة والشعور والأحاسيس، ويقول أيوب ((في ذكرى الأربعين لوفاة فقيد الشعر والأدب عبدالله عبدالوهاب نعمان أعزّي نفسي أولاً .... وذلك لأنني أعتبر الفقيد خسارة فادحة مُنيتُ بها شخصياً.. فلم يكن عبدالله عبدالوهاب بالنسبة لي شاعراً فحسب بل لقد كان أستاذاً، علمني كيف يرتفع الفنان بأذواق الناس من خلال الكلمة الرفيعة البعيدة عن السطحية والابتذال، الكلمة التي ترسم أمامي لوحة متناسقة تجعلني أتفنن في تلوينها بكل ما أوتيتُ من موهبة في التلوين والإبداع، ولقد كان كثيراً ما يعدل بعض الكلمات عندما يسمعها مني وفيها بعض الصعوبة في الأداء ويجعلها سلسة موسيقياً، فيقول لي ما رأيك بهذه بدلاً عن تلك؟! فأقول له: يا سلام.. هذه أفضل، وأحياناً يقترح تطويلاً في الأداء هنا أو تقصيراً هناك، فيكون هذا هو الصواب، ولو أنني كنت أضجر منه بعض الأوقات عندما أشعر أنه يريد أن يحصرني في لحن معين، عندما يطلق تلك الهنهنات الرتيبة والتي يعطيها لكل قصيدة جديدة، فأنظر إلى ساعتي مشيراً إلى أن الوقت متأخر وعلى أن أذهب على أمل أن أعالج اللحن في البيت، وأذكر مرة وأنا أقوم بتلحين إحدى القصائد عنده، إذا به ينفر إلى أصابعي ويبر عوداً صغيراً من أعواد القات ليضعه بين أصابعي مما يجعل الأصبع الوسطى غير قادرة على العفن.. قائلاً: هذه لا تستعملها، عندها ضحكت وقلت له كيف لا أستعملها وأنا أمضيت ثلاث سنوات في الدارسة في القاهرة أتدرب على استعمالها هي والبنصر.. لكنني لا أنكر أنه كان يكبح جماحي في التطوير اللحني الذي يخلق هوة كبيرة بين الفنان وجمهوره، فقد كان يشدني دائماً إلى الطابع اليمني الأصيل..))، أ هـ [١]

(*) كتاب الأربعينية / سبأ / ٨٢ م.
(١) أيوب طارش / كتاب الأربعينية.

ولعلنا أدركنا من خلال استعراضنا لما قاله أيوب طارش أبعاد المزاج الغنائي عند الفضول، وهو مزاج أدركه أيوب طارش، وبقوله يؤكد ما ذهبنا إليه، وما فندناه من بيان وتفصيل لأبعاد المزاج الغنائي حتى الآن عند الفضول (عينية شاعر المزاج الغنائي).

ولكن هل يكفي ما قلناه لإدراك المزاج الغنائي عند الفضول؟!

كلاّ، لأن هناك ما هو أعمق، ولكن قبل ذلك ندُلّل على ما ذهبنا إليه بقولنا: إن كثيراً من المطربين لجأوا في فترات متباعدة ومتقاربة إلى ديوان العرب، إلى الشعر العربي فاختاروا نماذج غنائية من تلك الأشعار، رغم انتماء كل ما قيل إلى الشعر الغنائي حسب المفهوم العربي المعبر عن الذات والحياة، فمثلاً غنت أم كلثوم وأيوب طارش وغيرهم رائعة أبي فارس الحمداني (أراك عصي الدمع شيمتك الصبرُ)، ووضعت للقصيدة عدداً من الألحان التي تتناسب مع أذواق كل قطر وأرض، ومن هذه الأمثلة كثيراً، وخاصة في غناء الموشحات الأندلسية لأن تلك غنائية بحد ذاتها، وتختلف عن ما ذكرناه، والسؤال الذي يطرح منطقه.. لماذا لم يغن المطربون والمطربات بقية أشعار أبي فراس الحمراني، وديوانه فيه الكثير؟.. والجواب لأن ديوان أشعار أبي فراس الحمداني ليس كله صالحاً لأن يؤدي غناءً.. وينطبق على غيره ما أنطبق عليه، بأن ليس كل ما كتب من شعر فهو يغنى ويؤدى غناءً.. وإن كان منتمياً إلى الشعر الغنائي حسب المفهوم العربي المعبر عن الذات، ... فهل وضحت الصورة لدينا؟ والآن لنا طرح هذا القول.. بما أنه ليس كل ما قيل من شعر يُغنىً، وإن انتمى إلى الشعر الغنائي العربي، لأن شعر الغناء له ميزانه وموسيقاه ولغته وشعوره الخاص به، وهذا الذي يتميز به الشعر الذي يمكن تأديته غناءً ينطبق كليه وبلا استثناء على شعر الفضول من حيث إنه شعر تنطبق عليه شروط الفن الغنائي الموسيقي .

فهو من الناحية اللفظية واللغوية غنائي الطبع، وفيه تتجمع شروط لا تتجمع في شعر كما تجمعت في شعر الفضول، فكلما تقرأ قصيدة للفضول – وإن كانت سياسية – تشعر وكأنك تغني على إيقاعات العود / الناي / القانون:

(شبابةَ الرّاعي افصحي وهاتي وردِّدي لحني وأغنياتي)

ما إنْ تقرأ له شعراً سياسياً – إلاّ وأنت تشاركه الغناء

ما إنْ تقرأ له شعراً فلسفياً – إلاّ وأنت تشاركه الغناء

ما إنْ تقرأ له شعراً في الرثاء – إلاّ وأنت تشاركه البكاء الغنائي والغناء البكائي – إن صح التعبير – وأنت لا تدري بأنك تشاركه أحزانه غناءً وبكاءً أيضاً.

وما إن تقرا له شعراً في المدح – إلا وأنت تشاركه غناءً لا نهاية له وفلسفة لا حدود لها، ولا أبعد منها، لأن الفلسفة أولها سؤال وآخرها محال .....

والسؤال الذي يدور بالذهن بلا توقف يكتب نفسه هكذا:

كيف استطاع الفضول أن يوصل أشعاره إلى هذا الحد من المزاج الغنائي، والطبيعة الغنائية، والفن الشعري القائم على الغناء، والغناء الفني القائم على الشعر، والشعر الغنائي القائم على موسيقى اللفظ ومعاناة الوجدان، توقد الشعور والتهاب الأحاسيس، وتسارع نبضات القلب تجاه الكلمة الراقصة واللحن المثير الكامن في القصيدة والتقطيع الوزني العروضي والعمق الذاتي، والمشاركة الوجدانية للكون، والكون اشعري للذات وفلسفة الحياة، واحزان النفس وآهات القلب،ومعاناة الضمير و... و... إلى مالا حدود له من أسباب وصور في النصوص الأدبية و للفضول من خلال أشعاره الغنائية وأناشيده الوطنية، وأشعاره التي يضمها ديوان الفيروزه.

وكم نعجب من نقاد كبار وهم يقولون بأن ديوان الفيروزه هو الاختيار الى ظلم الفضول وطرحوا سبب قولهم هذا بأن الناس كانوا بانتظار قصائد الفضول الغنائية التي يعرفوها بصوت أيوب طارش، وما درى هؤلاء النقاد بأن شعر الفضول كله يتسم بالغنائية، وبالمزاج الغنائي الحاد، وإذا كانت أشعاره المغناة عميقة، فإشعاره في الفيروزه أكثر عمقاً وأثراً وشموخاً وانصافاً لموهبة الفضول الناضجة جداً ... ولعل بعض النقاد الشعراء او الشعراء النقاد يخافون من مزاحمة ديوان الفيروزه الذي يفوق القصيدة منه كل ما نظموه في حياتهم الطويلة كماً والقصيرة كيفاً، والحقيقة التي يجب أن تقال إن ديوان الفيروزة يحتاج إلى قارئ مثقف بل ومن خيرة القراء المثقفين.. ولعل الأيام تسعفنا في تشريح ديوان الفيروزه الرائع.. بإذن الله تعالى.

واستخراج لآلئه وجواهره وجمانه لينظر إليها الناس وليتفكروا.

وقبل الولوج إلى أجابه السؤال – الطويل والأهم والذي من خلاله سندخل في عالم المزاج الغنائي في شعر الفضول والذي يبرز بقوة في ديوان الفيروزه من خلال قصيدته الرائعة (أغنيات الشمس) وهي أغنيات ذاتية وفلسفية وهي ذات مع الحياة، أو حياة مع الذات، بل حياة وذات فلسفية ووجدان وضمير وسياسة ووطن وروعة في التصوير والتصدير منذ مطلع القصيدة وحتى آخر بيت فيها، ومنذ أول قصيدة نظمها الفضول وحتى آخر قصيدة نبض بها قلبه، فلا نكاد نجد بيتاً شعرياً للفضول إلا وينضح بقوة التصدير والوجدان والمزاج الغنائي، واللغة الموحية والصور والظلال، وفي كل بيت نجد عالماً شعرياً قائماً بذاته.. و ... و ... وهي أمور ما أجملها! وما أشد عجلتنا عليها! ومع ذلك سنتعرض لها في حينها ووقتها.

نقول قبل الدخول إلى ذلك كله أو إلى بعض ذلك.. نحب أن نلفت الانتباه إلى قضية هامة جداً، رغم أنها تدخل ضمن الأسلوب الفني في شعر الفضول إلا انها قضية أساسية في المزاج الغنائي للفضول.. وهذه القضية تتمثل خير تمثيل في طريقة كتابة الفضول للشعر،.. و بالأخص قصائد ديوان الفيرزوه والتي كتبت بطريقة متميزة كما أثبت ذلك ناشر الديوان

حيث ذكر بأنه أثبت قصائد ديوان الفيرزوه بالطريقة التي وجدها عليها بخط أبيه (الشاعر)، وعلل بأن تلك الطريقة هي طريقة فن الإلقاء، ولا ندري كيف جزم الناشر بذلك، لأن الشعر لم يكتب من قبل أبداً بطريقة الإلقاء مادام قد تضمن شروط الشعر العمودي والموزون والمشطور المقفى، والديوان كله شعر عمودي وموزون ومقفى، وبناء على هذا نؤكد بأن كتابة الفضول لشعره بتلك الطريقة وهو قد نظمه وأكثر من تنقيحة – بدليل عدم نشره لتلك القصائد من قبل و انما أكتفى بقراءتها على أصحابه – أنه كتبه بطريقة الأداء الغنائي، أو الإلقاء الغنائي، أو المزاج الغنائي، وقد نتطرق إلى هذا الجانب في باب الأوزان الشعرية عند الفضول من خلال تحليل وتشريح النصوص الأدبية عروضياً – إن شاء الله –(*) وأيضاً هذا يدفعني إلى طرح أمور أخرى تتعلق بطبيعة المزاج الغنائي عند الفضول، والذي يدلنا عليه طريقة كتابته للشعر في ديوان الفيروزه أو للشعر العمودي والموزون والمتعدد القوافي، لأن هذا التعدد في القوافي خاصية غنائية إذا ما قارناها بالموشحات الأندلسية وغيرها التي اعتمدت على هذا التنويع البارع في الموسيقى الداخلية والخارجية، ولاعطاء اللحن والألحان ميداناً واسعاً للتحرك النفسي فيه، وسنناقش في ذات الباب الأوزان الشعرية عند الفضول قضية التفسير النفسي للأوزان الشعرية الذي قد يتلاءم مع حالة الشاعر النفسية غالباً.

و إلمام الفضول بالفلكلور الشعبي اليمني أعطاه نافذة واسعة ليطل بكلماته على الأوزان الشعرية وعلى مزاجه الغنائي.. فنجد أحياناً بعض المفردات التي تصور استلهام الفلكلور اليمني في قصائد الفضول الغنائية، وهي أمر سنتطرق إليه في الباب الذي يختص بالمفردات العامية (الفصيحة) في شعر الفضول والتي يعتقد البعض أنها عامية و الحقيقة عكس ذلك تماماً فهي فصيحه والمام واستلهام الشاعر للتراث الأدبي اليمني بما فيه بمختلف مدارسه اللحجية والحضرمية والصنعانية والعدنية والتهامية والحميرية والتعزية في الريف وفي الحجرية، وعلى سبيل الذكر والأهمية، ذلك الموقف الذي دفع أيوب ليسمع الفضول بعض الكلمات بالألحان فأمتعض الفضول من الكلمات وأعجب بألحانها، فكتب قصيدة بكر غبش في الطل الرشاش وعلى نفس الوزن واللحن السابق فتطابقت الكلمات على الألحان، وهذا يقودنا إلى التغلغل في فكره أن الفضول كان يتمتع بمزاج غنائي قوي، بدليل نظمه لتلك القصيدة في اليوم التالي وعلى نفس الوزن والألحان، وبكلمات تنبض بالحركة والحياة والتجربة والشعور بألفاظ موحية وصور وظلال وشعور مشحون بالحياة وارتعاش النهود، ونقش التراب بخطوات كأن الأرض لها وليس لسواها، والقراءة والسماع للقصيدة يؤكد ذلك مرة بعد مرة، وأيضاً موقف آخر وهو سخرية الفضول من أغاني غيره التي

(*) لم نتمكن من كتابة هذا الباب في هذا الكتاب.

غناها أيوب وعدم تراجعه عند هذه السخرية وهي ليست من باب السخرية في حد ذاتها بقدر ما تنبي عن ذوق ومزاج وحس غنائي، بدليل إعجابه الشديد بقصيدة الشاعر / على عبد الرحمن حجاف واطائر امغرب.. فال لأيوب وهو يسمعها هذا هو الشعر، – بل وأصلح بعض ألفاظ القصيدة، ليكتمل بناؤها الغنائي، ومعمارها الغنائي، وطلب من أيوب أن يسأل الشاعر عن مواضع التغيير البسيط وبأنه لن (يزعل) لإدراكه لما يفعل، وهذا الموقف يكفي لأثبات الكثير من جوانب طبيعة المزاج الغنائي عند الفضول ولا أشك مطلقاً بأن اعجاب الفضول بتلك القصيدة الغنائية التهامية ستدفعه إلى كتابة الشعر التهامي بمزاج الفضول الغنائي.. وهو الأمر الذي – فعلاً – حدث،حيث كتب الفضول قصيدة تهامية رائعة المعنى والمبنى، ولكن أين؟ ومتى ستخرج؟ (١)

والآن هيا نغني مع الفضول للشمس... (أغنيات الشمس).

أغنيات الشمس لا يعزفُهَا
غيرُ قلبٍ فيه فجرٌ وشروقُ

*****

ولكن قبل ذلك ألا يقودنا إلى مزاج الفضول الغنائي هذا البيت:

صوت قلبي يغني لي اسمعين صوت قلبي
والمغاني الملاح يأتين من أجل حُبِّي

******

وهناك من الأبيات الشعرية التي تنطق بمزاج الفضول الغنائي الكثير.. ونكتفي بهذه..

يا صوت أوتاري ويا لحوني كفي كفى ما كان في شجوني
كفى رشاش الدمع من عيوني لا تذكري من ليس يذكروني

أما عن قصيدة أغنيات الشمس...

فهذه القصيدة تحتوي على (٥٨) بيتاً شعرياً تلخص لنا الفضول شاعراً وإنساناً ومفكراً وفيلسوفاً وسياسياً ومناضلاً، ومحباً وأفلاطونياً، وما أحرى أن يحمل ديوان الفضول هذا العنوان (أغنيات الشمس) وإن لم تكن الأحب إلى الفضول من الفيروزه مثلاً، فهي الأكثر تعبيراً عن الفضول وعن (٦٥) عاماً من المعاناة والفكر والوجدان والعطاء ...

فألفاظ الفضول غنائية موحية مشعة بالصور والظلال والأنداء والنجوم والزهور وقطر الندا، وهي ألفاظ وصور لا يعوزها الغناء لأنه طبع و أصل مركب فيها،.. هات كلّ

(١) قرأ المؤلف القصيدة المطعمة والمهجنة بالمفردات التهامية للفضول عند أيوب طارش وأعتذر من اعطائها لنا بحجة أنه قد شرع – فعلاً – بتلحينها وأنه ما زال يفكر في إخراجها.. أضافة إلى مجموعة أخرى مكتوبة بخط الشاعر.

الزهر – أنا غير الحب لا شيء لديا – لحظات الليل – ليس في روحي – سرت في الأيام – نفسي تلبس الأشراق زيًّا – هو الحب الذي هندسني – تحت هذا الضوء – في الصبا كم عشقت نفسي الضحى – والشذا العبق – والظل النديا – وشبابي كان عرشاً للهوى – واصيل العمر – لن أمضي على دربه إلاّ لأحبابي وفيا – وضحوكاً مثل وجه الفجر – لا تطرح الأيام في وجهي عشيا – لكأن الحب أضحى عاهة.. وهكذا، صور وظلال وألفاظ وحياة ووجدان وتجارب ومشاعر وأحاسيس، وقاموس رقيق رومانسي، عذب، ريفي، محب، عاشق، متألم، مهذب، حتى في ثورته وغضبه ومأساته – لأنه يخاطب النفوس، والقلوب.

هو في شدة ثورته وسخريته غنائي رقيق وهو في شدة ثورته وجه ساخر مطبوع وشديد القسوة على أعداء الخير.(عجرفيٌّ – هابطٌ، عشق التزوير – لو أنه قد سَل سيفاً – لأعطى السيف عجزاً خشبياً – أيُّ شيء قادرٌ أن يقلب الحالك النفس.. حمياً مضرباً – ألف سيف في يديْ مرتجف.. لا تراها عينٌ إلا عصيًّا.

عجرفيٌّ فإذًا لاقى الرُّجولات، ألَقَتْ فيه ذعراً نسويا
هابطٌ قد عشقَ التزويرَ حتى بدا فيه مسيخاً هزليا
عاجز لو أنَّهُ قد سَلَّ سيفاً لأعطى السيفَ عجزاً خشبيا
أيُ شيء قادرٌ أنْ يقلبَ الحالكَ النفس حمياً مضريا
ألفُ سيفٍ في يَدَيْ مُرْتجفٍ.. لا تراها عينُهُ إلاّ عصيا

***

تلك أغنيات من أغنيات
وتلك أحزان من أحزان..

وتلك شموس من شموس.. وألفاظ من معاناة، الحياة حب، الحب زهور وعطور، ولحظات من الليل، والشمس هي التي تعزف لحن الزهور والحياة ،فلولا الشمس ما تمتعنا بالزهور، ولحظات الليل الجميلة التي جاءت لإسعادنا لا يجب أن تلبس الظلام، – وغير الحب لا شيء لدى الفضول، – ولحظات الليل يجب أن تكون للشاعر وليس عليه بد بجورها وظلامها وظلمها، فروحه ليس بها أماكن للظلام والدجنات، ولذلك فالشاعر لم يسر في الأيام كسرداب يتخفى في الظلم، فأعماقه واضحة وجوانب نفسه تلبس الأشراق والحب، لأن الحب هو الذي هندس الشاعر تحت الضوء والإشراق، ليكون إنساناً سوياً.

فنفسي كم عشقت الضحى والحرية العلم والمعرفة، الشذا العبق والخد الظل والعدل.. الندي، وشبابي كان عرشاً للهوى للهوى لا حدود لأملاكه، لأنه شباب لم أعش فيه خالياً من الحب (الحب المطلق)، وأصيل العمر (قبل النهاية) لأمضي على دربه وفياً

لاحبابي، فلن أنسى حب الشباب والصبا وأصيل العمر.. وفياً وضحوكاً.. مثل وجه الفجر.. ولن أسمح للأيام أن تضع في وجهي سواداً لأحبابي وحبي المطلق ولضحكتي التي في مثل وجه الفجر.. ألفاظ / عبارات تضع عالماً نفسياً وحياة وحركة وحب..

(الزهر – العطر – الحب – لحظات – روحي – الأيام – الإشراق – نفسي – الحب – هندسني – الضوء – الصبا – الضحى – الشذا العبق – الظل النديا – شبابي – عرشاً – الهوى – أصيل العمر – لأحبابي – وفيا – ضحوكاً..).

وتلك كانت لحظات الصفاء النفسي، وأما الحزن الذي كدرها فلم يبدِّل معها إلا ما حول الشاعر من سوء أما هو فقد ظل في حبه حتى النهاية.. وحتى توقف القلب، لكن لماذا الفضول حزين؟ ومن الذي أحزنه وعلام؟

كلُّ حزني أن لا أرى في الناس من هو جدير بالحب العظيم، فالجميع يمقتون حب الوطن وكأنَّ الحب أضحى عيباً أو عاهة تثقل الأحاسيس أو أنه أمر لا جدوى منه فهو هراء، فالناس ينافقون السؤ بذكاء، وأن الذكي هو من ينافق السوء، ولذلك نجد السوء يجلس على صدر المجلس والمكان، والخير قد أضحى منبوذاً مطروداً لأنه أضحى أمراً مخزياً وعيباً لانقلاب الحال، وأضحى الكذب أميراً، وأمره مسموع، وإذا موسى يحب السامريا.. فهل بعد هذا من خير وحب ورغم قسوة الألفاظ وحدة نبرتها إلا أنها تحمل سمات شعر الفضول ومزاجه ورومانسيته:

((كلُّ حزني أني لا أرى أحداً – بالحب حفياً – لكأن الحبَّ أضحى عاهةً – تثقل الأحساس أو شيئاً فريًّا – نفاق الناس للسوء – منبوذاً رزيا – الأفك أمير أمره – وإذا موسى يحب السامريًّا – واهمٌ – جاهلُ – نشأه الجهل – قلباً جاهلياً – الأوهام في أعماقه – وُحْشَةً – يرضع حساً همجيا – يسير الأثم – رِيبَاً – مرجوفاً – شقيّا – فزع النفس – دماراً خلقيا..).

أو هكذا.. في حالة نفسية متصاعدة الألم والتأنيب:

(عجرفيٌّ – ذعراً – هابط – عشق التزوير – مسخاً هزليا – عاجز – سلَّ سيفاً – عجزاً خشبياً – حالك النفس – مرتجف – عصيًّا..)

وتلك كانت رحلة مليئة بالتأنيب والتأليم والزجر و التقريع – وبملاحظة ومعايشة، وبإحساس وبغناء تلك الألفاظ.. لا نجد فيها سوى أغنية في كل لفظة، ونشيد في كل مقطع.. فما الدهر إلا من رواة أغنيات الفضول، يسير بها من لا يسير مشمراً، ويغني بها من لا يغني مغرداً، وكأن أبا الطيب المتنبي لم يكتب تلك الأبيات إلا للفضول، لأن الغناء في طبعه وشعره ومزاجه، وليس من طبع المتنبي الحكيم والفارس والطموح، والذي يعرفه الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح والقرطاس والقلم.. وبمقدار تلك الثورة الرومانسية في

فلسفة الفضول، إلا أنه يعود إلى حكمته وهدوئه وغنائه المسائي الذي ينساب كجدول في أطراف القرى أثناء الليل.. وفي كل وقت.

لَيسَ يُعطي الحُبَّ إلاَّ قلبُ مَنْ.. كانَ أو مَنْ كـاد أنْ يغـدو نبيَّـا
لَبسَ الاصباحَ ضوءاً وندىً.. فمـشى في النـاس فجـراً بـشريًّا

*****

براعة، روح غنائية متمكنه، فيلسوف للحب الإنساني.. كيف؟

هكذا: (ليس يعطي الحب ... إلاَّ؟

قلب من كان أو قلب من كاد (كاد وكان) – مقارنه ومقاربة واثارة – فمن يعطي الحب الآن فهو – يكاد – عند الفضول – يكاد يمت إلى الأنبياء بـصلة أو حبـل – لأن الحب أضحى – عند الناس – عاهة وعيباً يجتنبوه ويتحاشوه، ويرونـه مزريـاً ومنبـوذاً وحقيراً.. نعم.. فليس يعطي الحب – إلاَّ مَنْ –

لَبس الأصباح طريق الفجر إلى الضحى والصباح.

والحب هو الضوء والندى والحب هو الطفل عند الشابي:

يـا أيهـا الطفـل الـذي قـد كـان كالـصبح الجميـل
والـوردة البيـضاء تعبـق في غيابـات الأصـيل
يـا أيهـا الطفـل الـذي قـد كـان في هـذا الوجـود
فَرحـاً، ينـاجي فتنـة الـدُّنيا بمعـسول النـشيد)).

فالصبح والطفل والطفولة، والورود والندا و الشذا والعبق والأصيل واللحن الجميل والفرح، والمناجاة وفتنة الدنيا ومعسول النشيد – والضحى والأصباح، والضوء والفجر، ألفاظ وقاموس مشترك بين الفضول والشابي.. وقد جمعت بينهم بعض السنوات (١٩٢٠–١٩٣٤) – في الوجود والحياة – وتجمع بينهما قاموس هائل مـن ألفـاظ الرومانـسية والفلسفة والحياة والحب والطبيعة وكما جمعت بينهما البلابل والجداول والزهور.. فالذي يعطي الحب (من كان) أو من كاد) أن يغدو نبيا وما كاد أن يغدو إلا أنه لبس الاصـباح ضوءاً وندى.. ولأنه كاد فلأنه مشى في الناس ومعهم وبهم فجراً بشري الاصباح والحرية، والضوء والخير ولكنه من نفسه كسحاب أبداً مطرها منهمر ومنهل تغدق بسخاء ومن سماء إنسانه فيه – فالإنسان في داخله إنسان – فعمل بالخير، ولم يبق فيه الخير شعارات محفورة في نفسه، خالية من الخير بل من يعطي الحب تكون نفسه مليئة بالخير للناس جميعاً.

وكله مرتفع – عن الدنايا – نفساً وروحاً وعقلاً وقلباً وضميراً وفكـراً وشـعوراً وإحساساً ومبادئً وسلوكاً وعشقاً وهوى وحياة وأخلاقاً وأحلاماً وضحى، وشعراً ولغـةً وأيحاءاً وفلسفة وأستاذية وعلماً ورأياً و مظهراً وقولاً وعملاً وبعداً في الرؤى، وطهراً ونقاء

وصفاء وحبا ووئاماً ودعوة إلى الخير، ومعروفاً وإشراقا وأصالة وأصباحاً وضوءاً ونـــدىً.. و.... و.... و .... إلى آخر ما يدعوا الفضول في شعره ولخصه بقوله: (كله مرتفـــع.. تحسبه.. قمة تشمخ، أو طوداً عليا / كالنسر فوق القمة الشماء)، والقمة – في ذاتها – في ارتفاعها، وقمة في استمرارية ارتفاعها أكثر، وكذلك الطود العظيم ولا يعطي الحـــب إلا صاعداً في النجم، في السماء، فوق الأرض، فوق النجوم – عملاقاً.. لم يكن أو يقـــع في الوحل لأمر ينقص من شأنه.. فيعطيه بدلاً عن الطول العظيم طولاً كطول الحـــشره الـــتي تدب في الوحل.. فلم يكتف الفضول بـــ(كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً) فقـــال كـــن كالنجوم والكواكب، لأن الأمر جلل وخطير وعظيم يتطلب الأرتفاع الأعظـــم والأكـــبر والأطول، فلا يعطي الحب النقي والمودة الخالصة.. جاهل فواهم من يعتقد ذلك، فالجاهل الذي نشأ في الجهل، ونشأه الجهل فرعرع في جنبيه معاً قلباً جاهلياً – أصم أبكم أطرش لا يسمع ولا يعطي كأن في عينيه غشاوه وفي سمعه وقرا – فتكمن في هذا القلـــب الجـــاهلي أوهام متوحشة، متجسدة الوحشية، وهي أوهام ووحشية ترضع من حس همجي لا فائدة فيه ومنه ولا خير يرجى أبداً، ولا يعطيك الحب من يسير ألأثم في أعصابه أثماً ورياً وشكاً وهي أوهام وشكوك تجعله يحيا حياة بائسة مرجوفاً شقياً بشكوكه وأوهامه التي ترضع من قلبه الجاهلي فتجعله فزع النفس مذعوراً من العلم – لأئذاً بالظلام والـــشك والهمجيـــة والريب والخفاقيشية اللعينة، ولسان حاله كما أخبرنا الزبيري قائلاً:

مُتْ في ضـــلوعك يـــا ضـــمير وادفن حياتـــك في الـــصدور
لا تنـــــــسبن الى الثقافـــــــة فالثقافـــــــة بهتـــــــان وزور

(وقد سما إنسانه فيه) وما الإنسان إلاّ الضمير.. ما سمو الإنسان إلا بسموا الـــضمير ويقظته وصباحه و ضحاه، فمن يحمل صفات إعطاء الحب هو الذي يمشي بين الناس فجراً بشرياً، ما المحب إلا الفجر أو كالفجر عند الفضول والفجر هو أمل منتظر..

أما عن قصيدة الفيرزوه أو دموع العندليب وقصيدة أغنيات الشمس... تتميز هاتان القصيدتان بكل مقومات الفضول الإنسان والشاعر والمناضل والمحب وهذا ليس معناه أن بقية شعر الفضول ليس فيه ما نبحث عنه أو ما سنبحث عنه في القصيدتين بل ان كل شعر الفضول وبخاصة ديوان الفيروزه.. منجم من ذهب الشعر ومن شعر الذهب. ولكن الفيروزه القصيدة وقصيدة أغنيات الشمس، أقرب إلى ما تبحث عنه لقربها من نفس الشاعر.

ومن يعطي الحب عند الفضول فيه صفات من أغاني الكون والحرية.. (الأصـــباح – الضوء – الندى – الفجر – سجين النفس – واكف المزنة – المغداق – السخي – السامي – اليقظ الضمير – المرتفع كله – القمة – الشموخ – الطـــود العـــالي – والمـــستمر في الأرتفاع والعلو – والصاعد – النجم – العملاق –..)

أما شعراً فهكذا:

سُحُبيَّ الـنفس يمـشي أبـداً واكف المزنة مغـداقاً سـخياً
قـد سمـا إنـسانه فيـه، لم يُبقِ فيه الخيرَ – معنى حُفريَّـا
كُلّـه مرتفـع، تحـسُبهُ قمَّةً تشمخ، أو طَـوْدَاً عَليَّـا
صاعداً في النجم عملاقاً بـلا وَحْل يُعطيه طُـولاً حَـشَرِيَّا

وجه جميل من شخصية الفضول على صفحة الشمس:

صادقاً عشت وكلُّ الصَّدق فيَّ – لوجداني – خليل وعـشيقُ
عَبقاً كالورد وما في الناس لي – أبداً – إلاّ حبيبٌ أو صـديقُ
تَمْقُتُ النِّقمـةَ نفـسي وإذا غـيظَ قلـبي، فيمـاني رقيـقُ
غير أني شرَّ ما عانيتُ منْ شدَّةَ كـادَ بهـا صـبري يـضيقُ
كُلما لاقيتُ ثوباً أكتسي منه سَـتراً ظهَـرَتْ فيـه الخـروقُ
وإذا آوى إلى نمر.. أتـتَ ضـفدعُ، يُـسَهِّرْني منـها نقيـقُ
وإذا وافيتُ روضاً، صـدَّني عنـه سـبعُ وذادتـني شُـدُوقُ
وإذا واجهَ وجهي غيمةً رَحَلَـتْ وأنطفـأتْ فيهـا الـبروقُ
وإذا استذريتُ ظلاً جاءني فيه صـلٌّ أو مـشى فيـه حريـقُ
وإذا نَحْلِي مَضَتْ راحقةً زَهْـرَاً سُـمِّم في الزَّهـر الرحيـقُ

******

فالإنسان المحب شقي بحبه، وشقي بصدقه بين الزيف، ومادام صدقه لوجدانه خليـل وعشيق، ما دام الإنسان صادقاً وعبقاً كالورد وكل من حوله حبيب أو صديق، فهو أبـداً تمقت نفسه النقمة والحقد وإذا ما غيظ – (مبنى للمجهول) – قلبي (قلب الفضول) فهـو يماني رقيق.. فأهل اليمن أرق قلوباً وألين أفئدة. لكن الفضول يغني موال نفـسه التعـيس والشقي، ويغني موال حظه الذي أرهقته الشدة والمعاناة إلى الدرجة التي كاد بهـا صـبره يضيق، فما بالنا بما هو في ذاته ونفسه من ضيق.

فإذا لاقى ثوباً ليكتسي به ظهرت فيه الخروق، وإذا آوى إلى نمر لينام أسهره نقيـق الضفادع، وإذا وافى روضاً صده وحش أو نمر أو أسد أو سبع، و أبعدته أنيـاب وأفـواه وأشداق مفترسة.. وإذا واجه وجهه غيمة أو خيراً.. جاءه ثعبان أرقم وصل أسود، أو وإذا نحلة مشت راحقة العسل من الزهر،.. سُمِّم في الزهر الرحيقُ وسُمِّم (مـبني للمجهـول) وحصر الفعل في الرحيق وهو في الزهر زيادة في إيصال التعاسة ورسم صور الحظ الشقي.

والفضول عندما يُغني أحزان نفسه فبألفاظ أكثر عذوبه وغنائية لكنها عذوبة الحزن وغنائية الأسى.

(صادقاً عشتُ – كلَّ الصدق لوجداني – عَبقاً – كالورد – حبيب أو صديق – تمقت النقمة نفسه – غيظ قلبي – يماني رقيق – شر ما عانيت – صبري كاد يضيق – لاقيت ثوباً اكتسي – ستراً – الخروق – آوى إلى نُهر – أتت ضفدع – يسهر منها نقيق – وافيت روضاً – صدَّني سبْع – ذادتني شدوق – واجه وجهي غيمة رحلت – وأنطفأت – البروق – أستذريت ظلاً – جاءني فيه صل (ثعبان) – حريق – نحلي – راحقة – سُمم في الزهر الرحيق.. الخ.

وما فعل وأفعال الشرط إلا الأماني. أما جواب وأجوبة الشرط فهي الشرور والمساوئ والآثام. ومع ذلك نجد ونتفاعل مع كل تلك المتناقضات وكأننا نغني، فتكون الأغنية حيناً أغنية فلسفية وحيناً أغنية حكيمة، وحيناً شكوى وندب للحظ التعيش..والشاعر أعرف بالحظوظ.

وحتى لا يفقد القارئ أغنية لذيذة بأحزانها وبكل وجوهها المختلفة نبقى مع بقية الأبيات الفضولية وأغاني الشمس، شمس الحرية والحب.

إن أرقى نمط في الناس مَنْ قلبه بالخير مُخْضَرٌ وريقُ
ليس يأتيه شتاءٌ تحته، تسقط الأوراقُ، أو تذوي العروقُ
نفسُهُ شيَّدها الصدقُ، فبنيانه النفسيُّ مشدود وثيقُ
ليسَ هَشّاً، كُلّما هُزَّ.. بَدَتْ فيه للعين، شروخ وشقوقُ
وبه نهرٌ، على ما حوله من مرابي الخير في الأرض دَفُوقُ
ليسَ بئراً، حُفِرَتْ شؤماً ففي قاعها، إما جفافٌ، أو غريقُ

******

هكذا تنساب أغنيات الشمس (كانسياب حبوب الماء حالاً على حال.. وانسيابها يخاطب النفس والوجدان والقلب الذي فيه فجر وشروق فالقلب يخضر بخيره، و يورق بنبض حبه، الذي لا يأتيه شتاء الشر من تحته فتسقط الأوراق، أو أن تذوي العروق ويعمل على ذبولها وجفافها فأرقى و أسمى وأرفع أنماط وأنواع من شيد الصدق نفسه.. فالصدق يجعل البنيان أسمى وأرفع أنماط وأنواع الناس من شيد الصدق نفسه.. فالصدق يجعل البنيان النفسي للإنسان مشدوداً ووثيقاً ومترابطاً فيكون إنساناً سوياً.. أما غير الصادق ومن ليس في نفسه صدقاً فهو هش وسهل الكسر، فكلّما هُزَّ بدت.. فيه للعين شروخ وشقوق، فالأرقى من الناس من في قلبه نهر يتدفق في الأرض ليروي كل ما حوله من مرابي الخير.. وكلمات الفضول تدغدغ النفس والحس (أرقى – مخضر – وريق – شيد الصدق – بنيان – وثيق مشدود – هشاً – هُزَّ – شروخ – شقوق – نهر – مرابي الخير – دفوق.. ألفاظ ترسم للقارئ لوحة فنية متكاملة.. فلا لفظ زائد عن الحاجة، ولا حشو في الألفاظ وهي تعبر بدقة عن معانيها.

ويبقى السوء هاجساً يقلق الشاعر ويؤذي الناس

كم هو الـسُّوء دمامـات، وَمَقـتٌ، وَخـزْي، وفـسوقُ
كم به عجزٌ، وأحزانٌ، وَصَرْعٌ، وكم فيه صَـريعٌ لا يفيـقُ
خَصْمُه كلُّ رفيـعٍ وحواريُّـهُ الآثـامُ والقـبحُ الـصَّفيقُ
عاجزاً، أحقدَهُ العجزُ على مَنْ أتَى الأفـواق وثّابـاً يفـوقُ
حيـوانيٌّ الـدناآتِ بـلا عـائقٍ يثنيـهِ عنـها أو يعيـقُ

******

ويرسم الفضول لوحة للسوء والشر بهذه المجموعة اللفظيـة والتراكيـب اللغويـة (دمامات – مقت – بغض – حقد – تشويه – خزي – عار – عيب – فسوق.. وما دار في معناها، عجز – أحزان – صرع – صريع – لا يفيق – حواريه وأصدقاءه الآثام والقبح الذي لا يخجل من نفسه – القبح الصفيق – فلا سرور ولا غبطة، ولاحـس و لا ذوق – عاجزاً – أحقدة العجز وحوله إلى حقد.. فالعاجز صار حقداً على من أتى وأعتلى التفوق.. بخطى وثابه يفوق به المتفوقين، – حيوانيٌّ – الدناءات – بلا عائق – فلا يعيقة أحـد..)، فتلك كانت الألفاظ التي استوعبت الموسيقى النشاز للسوء لكنه خيل إلينا أننا نكاد نرى السوء وهو يتجسد بهيئة وما عليه من دناءات ودمامات ومقت، وتشويه، وخزي، وعجز وصرع، وقبح ... ألخ..

– ومن الذي يعزف أغنيات الشمس؟ ولقد نقح الشاعر هذه القصيدة وهناك بعض المفردات التي تزيد هنا أو هناك سواء في الديوان أ وبصوته وأكثر الأبيات كما هي:

كيف يعطيك جمالَ الخير مَنْ كلـهُ للخـير نبـذٌ وعقـوقُ
كيفَ يُعطيكَ وقارَ المجد مَنْ نفسُهُ ما مَجَدَتْ كيـف يُطيـقُ
أُغنياتُ الشمسِ، لا يعزفُها غيرُ قلب فيـه فجـر وشـروقُ
وحديثُ النجمِ لا يرويه مُنْحَـدرُ يَمـضُغُهُ عُمْـقٌ سـحيقُ
في الثرى، تُلْصقُهُ نفسٌ ترابيةٌ، فهـو علـى الأرض لـصيقُ
جاهلٌ ما نفسهُ – يَحْـسَبُها جهلُـهُ مأذنـةً وهـي طريـقُ

***

فلا يعزف أغنيات الشمس إلا من له قلب فيه فجر وشروق الفجـر هـو الخـير والشروق هو نشر الخير والعلم ونشر الحق والعمل به والحب والعيش به..

فالخير هو الجمال ولذلك لا يعطيك جمال الخير من كله للخير نبذ وعقوق، فالعـاق للخير لا خير فيه ولا جمال، لأنه لا يعطيك وقاراً للمجد مَنْ لم تعرف نفسه المجد فهـو لا يطيق ذلك الوقار، ولا يطيق المجد ذاته ولا يطيق وقار المجد من قبل، فأغنيـات الـشمس

والحرية لا يعزفها غير قلب فيه فجر وشروق من حب العلم والعمل على نشر العلم أو الحرية ... او ... او.. الخ، وحديث النجم لا يرويه منحدر، هابط عاجزاً واهم حالك النفس، عاق للخير لأنه منحدر سيمضغه الذل والعمق السحيق من العجز والحزن والصرع الخزي والمقت والتشويه والدمامات، ومن على هذه الشاكلة يكون في الثرى لأن نفسه ترابية ذليلة تعشق الذل والهوان، فهو لذلك ملتصق بالأرض وملطخ بالتراب، وناصية معفرة بالذل والتقزم والطول الحشري، فهو جاهل بنفسه يحسبها مأذنة..

فالجاهل يحسب نفسه مرتفع كالمأذنة في مكان عالٍ، وهو في الحقيقة طريق يمر عليها الناس جميعاً.

والشعر هو موسيقى،لأن هناك تلازماً بين الموسيقى والشعر، فالموسيقى مقامات والشعر أوزان وقوافي وعروض وتفعيلات، وهذه تكمل تلك، والعكس، والشاعر الموهوب يتميز بأذن موسيقية شديدة الحساسية لموسيقى الحروف والكلمات والأوزان والتفعيلات، وإدراك الشاعر لمزاجه الغنائي دفعه إلى هذا:

(وناحب أغنياتي – إلأ انت يُسمَعُ في غنائه – في صبحه يشدوك أغنية ولحناً في مسائه – وإذا ترنم أو شدا.. ألخ.

أنا بلبل ولا شيء إلا أنت يُسْمَعُ في غنائه
في صبحه يشدوك أغنيةً ولحناً في مسائه
وإذا ترنَّم أو شدا بسواك أخطأ في أدائه

ولقد تطالعنا الكثير من الأبيات التي تتضمن كلماتها معاني الغناء والموسيقى، وهي معاني تأتي عن مزاج غنائي ولا شعوري.. مطبوع، وممزوج بالنفس والفؤاد، والضمير وقد أمدت الأغاني والموروث الشعبي الفضول الذي كان على إلمام بذلك– بروح الموسيقى التي تصور حياة الشعب ببساطة، فأستطاع بحسه الموسيقي الرفيع أني يمزج موسيقى النفوس في أشعاره فنقلها أيوب إلى الشعب والمهاجر والبعيد بأحلى أنغام الأرض والإنسان فأيوب يمتاز عن غيره من الفنانين والمطربين لفطرته ونقائه الريفي الطاهر، ومن يسمع أيوب بفطرته يدرك هذا ومن يعرف كيف يلحن أيوب غنائيات المزاج الفضولي يدرك سر الأسرار وقصة ألحان أيوب طارش التي امتدت في نفسه منذ وقت مبكر، وهو يسوق أغنامه ويعزف على شبابته .... ليطرب من حوله من أغنام وخراف ورعيان..

شبابة الراعي افصحي وهاتي ورددي لحني وأغنياتي

وعندما نقرأ ونغني ونسمع ديوان الفيرزوه، لا نجد بيتاً واحداً أ ولفظاً واحداً يمكن تسميته بالحشو أ والزيادة التي لا فائدة منها، – فكأن الفضول أستخدم موازين حساسه في فن الموسيقى والتصوير التعبيري – التعبير التصويري –.. واللفظ الموسيقي والموسيقى

اللفظية والصور والظلال وكما ذكر أحمد محمد الشامي في كتابه من الأدب اليمني :

((إن الشاعر الفضول بالمعية ذكائه، وبحكم تنقله، قد أستوعب خصائص الصفات البيانية والتعبيرية في لهجات الأداب الشعبية في جل المدن اليمنية مثل عدن – تعز – صنعاء – وصبها في قالب شعري واحد يمثل وحدة الشعب اليمني الفنية وكان بذلك وحيداً بين شعراء جيله ولا شك أن ما منحه الله إياه من حس فني موسيقي قد نسق ينبوع الحب الشاعري في وجدانه الجياش، فتراقص مسلسلاً رقراقاً، يتماوج على أنغام ذلك الوتر الحنون والصوت الرخيم والتلحين المبدع للفنان الكامل الأدب الموهوب أيوب طارش، وهو حظ لم يتيسر لأحد من شعراء اليمن المعاصرين إلا للشاعر عبدالله عبد الوهاب نعمان، وسأبرهن على دعواي أن شعره قد مثل وحدة الشعب اليمني الفنية، بذكر أغنيتين (قصيدتين غنائيتين) من أشعاره الممزوجة والمتفرد بها والتي لا يتفاوت في التأثر والانفعال بهما أي قارئ أو مستمع في عدن أو تعز او صنعاء وهي من أجل عينك – ومدارب السيل بصوت أيوب طارش)أ.هـ.(*)

وقد أسمح لنفسي أن أطرح رأياً يصل إلى حدود الحقيقة المطلقة. هذا الرأي مفاده وفحواه أ، شعر الفضول خير من يمثل الشعر الكامل، فلا يسع الناقد الأدبي المتخصص إلا أن يقف قلمه تقديراً واحتراماً وإجلالاً للفضول، فقد تمتع الفضول بحس فني وذوقي رفيع جمع بين الشاعرية العظيمة وحس الناقد العظيم بدليل سخريته من جميع الشعراء ولكن عندما سمع شعراً حقيقياً لم يصمت بل قال هذا هو الشعر ويقصد طائر أمغرب لعلي عبد الرحمن جحاف. لذلك استخدم الشاعر ميزانه الحساس في شعره فكانت قصائده الغنائية خير من يصور ويمثل لغة الشاعر وقاموسه ومعجمه اللغوي وطبيعته النفسية العاطفية ثم هناك أشعاره الأخرى التي يحتوي الفيروزه على أعظمها وأروعها على الإطلاق، وهي تكاد تكون للصفوة التي تتأنى وتتأمل.. وتقف طويلاً.

فنجد الفضول يتسيد الشعراء وهذه حقيقة نقدية أكاديمية والديوان لسان حال لكنه ديوان لأولئك الصفوة من النقاد الموسوعيين الذي ينصفون الشعراء الكبار بشعرهم وليس بمن يطبل لهم باطلاً، وها أنذا اقرأ الشعر و أحسب أنني أتذوقه، لكنني ما قرأت أروع من شعر الفضول ولا أحسبني سأقرأ في قادم الأيام، وهذه شهادة نقدية للتاريخ وليس لغرض شخصي لا تبدو له ملامح أبداً ولن تبدو.

وأما أن الفضول شاعر غنائي، فهو شاعر غنائي في الفيروزه وفي غيره، وأما أن شعره قد يتغنى به أحد، غير أيوب طارش فلا، ولا، ولا.. لأننا لو أعدنا أنفسنا إلى الأناشيد الوطنية للفضول لما تخيلنا أبداً أن يلحنها ويغنيها غير أيوب طارش، لأن الفضول و هو

(*) كتاب الأربعينيه / سبأ ٨٢ م.

ينظم أشعاره فإن خياله الباطن يوحي له من حيث لا يدري بكلمات وألفاظ وصور بصوت أيوب، لأن كليهما أصبح محفوراً في وجدان وضمير وخيال وشعور ولا شعور الآخر، فصوت أيوب طارش كان ذلك الميزان الحساس الذي يوقع الفضول عليه صدى ألفاظه ومعانية وألحان شعره وشعوره وموسيقاه ووجدانه، ايقاعات وعروض صوره وظلاله وإشعاعات نفسه الظامئة، والحقيقة أنني الآن قادر على تقديم العذر لأيوب طارش عندما توقف عن الغناء لأحد من الناس لأن شعر الفضول من ذلك النوع الذي عمل على الارتفاع بذوقك إلى الدرجة التي تجعلك ترى كل العمالقة أقزاماً لا طول لهم أبداً وقد ينكر عليَّ البعض أو الكثيرون ذلك، ولكنني أدعوهم فقط إلى قراءة ديوان الفيروزه قراءة عميقة كل العمق وبتجرد، ليجدوا أنفسهم معي حيث أقف بانتظار عملاق لن يأتي أبداً لأنه مضى:

صاحبي مات فماتت كلماتي
وخبا ومضى فناحت أُغنياتي

ولذلك فبلاد الشاعر لأسباب إعلامية وسياسية وغيرها يعتبرها النقاد.. مقبرة الموهوبين، فالفضول لا يعرفه إلا القليل، ومن عرفه – فمن خلال غنائيات أيوب وحسب، وبالأمس شاهدت محمود درويش الشاعر الفلسطيني وهو يلقي شعراً في التلفاز، ومحمود درويش مشهور على مستوى الوطن العربي والعالم، ومن سؤ حظ محمود درويش أنني كنت في عالم الفضول وهي حالة لازمتني وقد تلازمني إلى أن أنتهي من الفضول الظامئ عاطفياً، والمهموم وطنياً، فسمعت درويش وهو يردد كلمات لا معنى لها، ولا تستحق إلا أن نقول له كما قال الفضول – وكان يقول بلهجة عامية لما لا يسره (أرجم.. أرجم..).

فعلاً يا أيوب طارش.. لقد أرتفع الفضول بذوقك فجعلك قمة تشمخ أ وطوداً علياً فماذا يرد الفضول؟

ماذا أريد من المنى ... أو ما أريد من القدر
مادام يحضنني الهنا ... ويضئ في داري قمر
معه الحياة نديـة ... كالعشب في ظل الشجر
وطريـة كالفجر ... مغسول بأنداء السحر
يا حبنا إنا هُنا ... والعمر يشرب نخبنا
وهوانا يحسب أننا ... نشوان في دنيا البشر
نحيا الحياة كأننا ... نغم يرنُّ بلا وتر
والحب يملأ عمرنا ... بالعطر من عبق الزهر
والشمس تحضن ظلنا ... والضوء يرشف ضوءنا

والليـــل يمـــشي عنـــدنا فـــرح يطارحنـــا الـــسمر
مـــاذا أريـــد مـــن المـــنى أو مـــا أريـــد مـــن القـــدر
مـــادام يحـــضنني الهنـــا ويـــضيء في داري قمـــر[1]

والعجيب أن مجلة المعرفة أفردت ملفاً أدبياً عن الفضول في عددها رقم (١٨/١٧).. وكانت بذلك سباقة إلى عالم الفضول.. ولكن سطوراً آلمتني و حزت في نفسي تقـــول ص (١٢٣): ((غلب على الديوان – الفيروزه – إنتقاء غير موفق، فلقد حرص الـــذي جمـــع الديوان على نشر قصائد عادية للراحل أغلبها لا تمثل نفس الفضول..)) فهذا كلام يبدو أن من كتبه لم يقرأ الديوان قراءه ناقده عميقة، وهو معذور في ذلك كل العـــذر – لكـــن لماذا؟

هو معذور لأن ديوان الفيروزه طبع طباعة رديئة، والأخطاء المطبعيـــة في مواضـــع حساسه من الألفاظ فأنقلبت المعاني رأساً على عقب، والخط دقيق جداً، وظهرت كثير من حركات الإعراب بعيده عن مواضعها الصحيحة، وأيضاً بعضها طبع خطأ، وهو نادر جداً، والديوان عميق اللغة والمعنى ولا يتوقف المرء أمامه بسهولة نظراً لصعوبة اقتحامه قراءة ثم فهماً، ولذلك فقد وقعت شخصياً في هذا الخطاء فظل ديوان الفيروزه في مكتبي لأكثر من ثلاث سنوات تقريباً، وأنا عاجز عن اقتحامه، ولما شاء الله فعلنا، وما زلنا آملين أن تكون لنا عودة أكبر للفيرزوه، وبهذا فقط نقول: إن ديوان الفيروزه لم يحتو على قصائد عاديـــة للشاعر، وإنما احتوى على أروع الشعر العربي والعالمي منذ بدأت القرائح تنظم الـــشعر، وعلى هذا وذاك.

فإن للنقاد الدور الأكبر في ظلم الفضول من خلال ديوان الفيروزه، ونحن لا نريـــد الانفعال إنما نريد أن نقرأ ثم نحكم على أن تكون قراءة منهجية دقيقة وعميقة ومتجردة من الأغراض والدوافع.

ولتبقى قلوبنا أغنية لا نهاية لإيقاعاتها المثيرة والمتجددة أبداً

بقى أن نذكر ما قاله (وردز ورث): ((إن الشعر فيض تلقائي لعواطـــف قويـــة)) – وكان يعني القصيدة الغنائية وقال جون ستيورات مل ((الشعر الغنـــائي أقـــدم الـــشعر / وكذلك هو أكثره شاعريه.))

(١) مجلة المعرفة العدد ١٨/١٧ ص ١٢٥.

الباب السابع

فلسفة الحب

من ضوء ألف صباحٍ نحنُ أروينا مغارسَ الحبِّ في أعماق روحينا
ومن ضحًى ألفَ عيدٍ ضاحك ألقٍ صُغْنا مباهجَ دنيانا وَوَشَّينا
كم جاءنا الفجرَ يبغيَ أن نزيدَ لَهُ من ضوءه فأضأناهُ ونَدَّينا
وكم أتانا الوردُ يعطينا براعمه ليسكبَ الحبُّ فيها طيبَ عمرينا
لم نأت في الحبِّ آثاماً تخبئها أسرارُنا فأذعناها وأفشينا
فليس للحبِّ ليلٌ، في جوانحنا ولا ارتعاشةُ إثمٍ في ضميرينا
وما حملنا به إلاّ جلالته كمصحف قد رفعناها بأيدينا
به مضيئين قد سرنا تصاحبنا برارةٌ ملأت أعطافَ بُردينا
كأنما الله أعطانا هدايته به، وأهداه ما صُمنا وصَلّينا

مدخل إلى فلسفة الحب في شعر الفضول:

منذ بدأت القرائح الإنسانية تنظم الشعر كان للحب نصيباً، وليس معنى هذا أن الناس لم يعرفوا الحب قبل ذلك، فلابد ان التعبير الإنساني عن الحب قد سلك طرقاً ووسائل عديدة – مثل غيره من العلاقات الإنسانية واللغات والعقول معاً–، ومنذ بدأ التعبير عن الحب لغةً لابد أنه قد أخذ أبعاداً لا حدود لها – وما من شاعر نظم الشعر في أي أمة من الأمم إلا وكان للحب في شعره صدره وقافيته وموضوعه، لأن الشاعر الذي لا ينظم شعراً أو جزءاً من شعره في الحب يدل على أن لا قلب له، ومن لا قلب له لا عقل له.. لأن القلوب تعقل أحياناً. ومن لا عقل له ولا قلب فلا شعر له.

((أم على قلوب أقفالها))، وما من حكيم إلا وله مع حكمته غزلاً وحباً وفلسفة للحياة وفلسفة للحب، لأن ذلك لا يعيب الإنسان والعيب ألا تكون للشاعر فلسفة في الحب لأن الحب دافع بل ومن أهم دوافع الحياة ، وباعث الثورة في العقول والأذهان، وتجارب الإنسان – مهما كانت – مادام راغباً في المعرفة لا تنقص من شأنه أبداً، لأن الحياة تجارب والإنسان حقل التجارب المفضل، فلذلك يترك السابق للاحق، ولا يزال اللاحق طالباً لمزيد من المعرفة، لأن معرفة من قبله ومن سبقه لا تمتد إليه بكل الأسباب، وإن مدت

ببعض، ولو أراد بعضنا أن يعرف تجارب من سبقه ثم خيروه بأن يختار ميداناً واحداً أو تجربة واحدة ليتعلم منها ويعرف ما فيها في مستقبل حياته ومطلع شبابه، لأحتل الحب تلك التجربة الوحيدة التي يتفق الجميع على إدراك أبعادها بالضرورة، لأنها ضرورة القلب وخفقات الفؤاد، وهوى النفس، – وقد يختلف القليل النادر ولكن لأسباب وجيهة ومتعددة ولا حدود لها، ولا احتواء.

ومن التراكم المعرفي الذي فرضته ضرورات الحياة تصدر الحبُّ قلب المعرفة الإنسانية وبذلك وجد الحب له مكاناً هائلاً في الذاكرة الجمعية لدى الناس وفي بطون المؤلفات العظمية، وفي مختلف اللغات الإنسانية جمعاء، وبما أن في الثقافة والمعرفة العربية ما يجعلنا نتفوق عاطفياً على كل الأمم في هذا الجانب،وهو ليس عيباً أو دليلاً على انصرافنا عن شئون الحضارات وعوامل التقدم والازدهار، فلا علاقة نهائياً بين التقدم الصناعي من جانب وبين التخلف الصناعي بسبب رقة العواطف، فلا علاقة بين العواطف والتقدم أو التخلف، بل على العكس فقد يكون الحب دافعاً كبيراً للتقدم، ولأن التقدم الصناعي والحضاري مرتبط بالثقافة العظيمة وبالفكر، – وبأشياء أخرى ليس هنا محل ذكرها.

وبناءً على ما سبق.. فإنَّ الحبَّ من أكثر الموضوعات المسموح بالكتابة عنها ... لأن لها فلسفة سياسية لدى بعض الحكام، – ستضطر إلى استعراض أشهر المؤلفات التي كتبت عن هذا الجانب، فقد تناول هذا الموضوع علماء إجلاء حاولوا فيه أن يعملوا على تهذيب طرق التعبير عن الحب مهتدين بتعاليم الدين الحنيف، رغم ان كثيراً من الشعراء كانوا بالفطرة شعراء ومحبين عذريين، والطهر هو الذي دفع بهم إلى حياض الموت أو حياض الهوى المريرة، باعتبار الحب حتى الموت (حب أعظم) فلقي هؤلاء الذين أحبوا اللائي واللائي أوردهم حتفهم عن رضى واقتناع تام ومن غير رغم أنوفهم هذه أبداً، وهؤلاء هم وهن الأشهر في الأدب العربي والتراث الأدبي:

قيس بن الملوح وليلى – قيس بن ذريح ولبنى – توب وليلى الأخيلية – كثير وعزة – جميل وبثينة – المؤمل والذلفاء – مرقش وأسماء – عروه وعفراء – عمرو بن عجلان وهند – المهذَّب ولذَّه – ذو الرُّمة وميَّه – قابوس ومنية – المخبل السعدي والميلاء – وضاح اليمن وروضه وأم البنين – بشر وهند – عمرو بن أبي ربيعة والثريا وثريات كثيره ... – والأحوص وسلامة – نصيب وزينب – أبو العتاهية وعتبة –ابن الأحنف العباس وفوز – أبو الشيص وأمامه– أبن زيدون وولاده – وكثيرون وكثيرات... ومن الذين أشتهروا بالغزل: ابن أذينه– ابن الدمينة – ابن الطثرية – ابن ميادة – ابن مطير – العرجي –قيس بن الحطيم – وسويد بن أبي كاهل – والخليع – والوأوأ – وابن الخياط – ومن لا يحصى في المشرق والمغرب والأندلس ومن الشاعرات: الذلفاء – عنان الجارية – وجنان صاحبة أبي نواس – وفضل الجارية الشاعرة الخليفة المتوكل – وخنساء الشاعره جارية

المكفوف – وبنان ومحبوبة جاريتي المتوكل – ونزهون الغرناطية – وولادة – وحمدة خنساء المغرب – وغير هؤلاء كثيرون وكثيرات.

فلما أدرك العلماء الأجلاء خطر الحب الذي أجتاح قلوب العذريين فأوردهم مورد الهلاك والضياع، – نهضوا من وقتهم وساعتهم لوضع الحلول التي ولا شك كانت عن تجربة أو تجارب مريرة / وكما قلنا هذا ليس عيباً – فوضع الأمام ابن القيم الجوزية أشهر كتابين عن فلسفة الحب لكن تحت مسمًّى آخر أو مسميين آخرين وهما (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) ثم (الجواب الكافي لم سأل عن الدواء الشافي)، وكتاب النساء، ورسالة القيان لجاحظ، وكتاب مصارع العشاق للسراج (ت١١٠٦) وكتاب آداب النكاح وكسر الشهوتين في الحب والعشق للفيلسوف العزالي، وكتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي (٩٩٤–١٠٦٣)، وتعرض الرازي (جالينوس العرب) إلى الحب والعشق في كتابه (الحاوي في الطب) وكتاب السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، لمحمد بن يوسف العامري النيسابوري ت(٩٩٢) وكذلك تعرض أبن سينا للحب والعشق في كتابه العميق الصوفية والحكمة المشرقية، وكذلك في كتاب القانون في الطب والشفاء والنجاة، وفلسف محي الدين بن عربي العشق في كتابه الفتوحات المكية فلسفة مفصلة، وفي العصر الحديث كتب زكي مبارك (ليلى المريضة بالعراق) وهو كتاب عميق عن الحب والعشق، وكتب الرافعي مصطفى صادق (حديث القمر – رسائل الأحزان –أوراق الورد – السحاب الأحمر – وحي القلم بأجزائه الثلاثة وديوان شعر – والعقاد في كتبه (أنا) فلسفة العقاد في الحب وكتاب هذه الشجرة أيضاً، وقصة سارة، وعلي الطنطاوي كتب فصلاً في الحب وكتابه خواطر.. والحصر صعب على بقية من كتب.. المهم أن تلك كانت فلسفات أمدت الذات الإنسانيه العاطفي بسيل من المعرفة العاطفية.. وبقى الفضول في حبه عطره فريد.. فريد.

إضافة إلى ذلك: ((فإن أفلاطون يفسر العاطفة من وجهة نظر فلسفية و ينقلها إلى الجانب الروحي، أما سقراط فإنه يرى الحب علي أنه جنِّي عظيم أو روح كبير يحتل منزله وسطى بين الآلهه والبشر فهو ليس خالداً ولا فانياً، وهو ليس حكيماً ولا جاهلاً.. والنمط الآخر من الحب هو الحب الرومانطيقي الخالص المقترن بالآلام والحزن واليأس ويعلم المحبون في مثل هذا الحب بأن عاطفتهم محرَّمه وليس لها أي مخرج، – والشعر التروبادوري صورة واضحة لهذه العاطفة حيث عرف الغرب الحب العذري الذي تطور ضمن الشعر الغنائي والشعر التروبادوري، وكان ف بعض الأحيان حباً مفتعلاً لم يكن الهدف منه سوى ارضاء الحاجة المعروفة..))[1].

(١) وليد صالح الخليفه / مجلة العربي ع ٤٦٧.

وكلما مرت السنوات عشرات مئات.. تجددت الأجيال وتعددت التجارب، و يظل التأليف قائماً على أشده فالعلماء الذين أحبوا من قبل يكتبون توجيهاتهم، والمحبون من الشعراء والناثرين يكتبون آهاتهم ودقات قلوبهم، وكلهم العلماء والمحبون يستقون معارفهم من مصادرهم المناسبة وتجاربهم التي لا شك أنها اضفت عليهم فلسفات في الحب – هنا – وفي غيره أيضاً.

فهذا الأديب وشيخ العربية الذي كان حجة في اللغة وفي دلالاتها ومن لا يعكف على كتبه لا يعرف قيمة المعنى الأدبي وكيف تبلور في الذهن، وأشرق في العبارة، وأبرق في الإشارة، لأنه يستخلص المعنى من كل مفردة، ومن كل أشارة، وعندما بلغ السابعة والستين وقع في عشق صبية في الثالثة عشرة: ((واحسرتاه! إنها لا تفرق بين الشيخ المهدَّم وراءها والصبي الأعرج الذي يطارد حمامة)) وقيل انه مات بحب تلك الصبية، وقال في أواخر مرضه ((الحمد لله أنني أدركت مواكب العشاق الذين ماتوا بالعشق، فما أكثرهم، وما كان أكثر حسدي اياهم، إن الموت بالحب: حب أعظم.. فلتفرح أيها الشيخ انك لم تمت بغير لحظات العيون وفتكات النظرات وحجر الحبيب، وله في هذا الموضوع كتاب بأكمله عن تاريخ العشق والجمال وتاريخ من يسميهم أصحاب القلوب، وأهل الذوق السوي الذين يستأسرهم جبروت الحسن، وله في هذا كتاب من أحفل الكتب بدقات القلوب، ولحظات العيون وتنهد العشاق، وقد أراد أن يعارض به شعر مجنون ليلى.. فسماه (ليلى المريضة في العراق)[1]

ولكن هناك ثلاثة من العمالقة يتوجب على القارئ والمحب والعارف بالله والباحث والدارس و الشاعر والفنان أن يتوقفوا أمام فلسفاتهم للحب وقفات طويلة وعميقة، لأنها وقفات إذا لم يقفها هؤلاء وغيرهم ضاعوا وأضاعوا بالحب، وهؤلاء الثلاثة هم: (مصطفى صادق الرافعي وعباس محمود العقاد وعبدالله عبدالوهاب نعمان الفضول)، ولكن ما يجب لفت النظر إليه هو أن الرافعي قد فلسف الحب في حالتيه. الإقبال والأدبار، البداية والنهاية، الميلاد والموت الحضور والغياب، الفرح والحزن، الرضا والغضب، الذكرى والنسيان، القرب والبعد وفي جميع أطور النفس والقلب والعقل والضمير والخاطر واليقظة والمنام والشروق والأصيل والغروب وفي الفلسفة والجنون ... وفي وحي القلم وفي كل أوراق الورد ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر وحديث القمر وفي شعره الذي لم تصل إليه نار النقد والسفُّود... والرافعي عاش الحب ليفلسفه للناس، وعاشه الحب ليتفلسف على يديه لأنه لا يسبح إلا على فكر وفلسفة وحبر، ولا يرتفع إلا على سنة قلم، ويشبه الرافعي عبدالله عبدالوهاب نعمان من جهة واحدة، وهي جهة سؤ الحظ، فقد مات الرافعي

(١) عبد الله البردوني / احدى حلقات المسابقات / صحيفة الثوره.

عام ١٩٣٧م، وحتى الآن ما زالت أرضه بكراً لم يفتحها فاتح،وليس معه غير ذكريات تبعتها أحقاد نعمات أحمد فؤاد، لأنها كانت تريد أن تصعد على قفاه وهو ميت، وإن أنصفه القليل في صفحات، ولكنه من ناحية أعماله الأدبية فقد وجد في غير أهله سنداً وعاملاً سعيد العريان وما كان لأهلة غيره أن يباركوا هذا العمل وتلك المساندة، أما الفضول فإلى الآن ما زال مدفوناً بفكره وإبداعه الذي يكفي لأن يملأ الدنيا، والمعروف أن من حق الميت أو أكرام الميت دفنه – أي دفنه جسداً وليس فكراً وروحاً وعقلاً ومعرفةً وعلماً وحباً.

وها هي السنوات قد أبتعدت عن عام ١٩٨٢م إبتعاداً هائلاً فنحن في عام ١٩٩٨م والفضول ليس له غير ديوان فيه (١٣) قصيدة.. لا يستوعبها إلا الخاصة من الناس.. أما عن فلسفته للحب فهي فلسفة جديرة بأن نتوقف أمامها طويلاً في هذا الباب.لأنها من تلك الفلسفات التي تأتي في غفلة من الناس والزمن فلقد فلسف الفضول الحب ليكون زهراً ووردا ورنداً وريشاً و ماءً وظلاً وحباً وصدقاً وخيراً ووطناً وثقافة وفكراً ومعرفة للناس.. أعتقد الناس أن الفضول وهو ينظم أغاني الحب وقصائد الشجن أنها خاصة به، ولم يدركوا أن تلك القصائد خاصة بالفضول عندما كانت في قلبه أما عندما سمعناها أغنية في قلوبنا، فقد أصبحت ملك للناس جميعاً، لأنها فلسفة القلب للقلوب، فالموهبة التي أعطاها الله للفضول هي ليست ملكاً له إنما ملك للناس جميعاً، وكما هو الحال في صوت أيوب طارش عناءً وفي صوت عبدالباسط عبدالصمد قرآناً.

أما العقاد فله ميزانه الخاص، لكن ميزان العقل والمنطق والتجربة التي لم تتكرر تترك لنا من خلالها بعد سنوات طويلة (فلسفته في الحب) في كتابه (أنا) وهي فلسفة لا تملك أمامها إلا أن تتوقف، ليس معها بل مع نفسك لتراجعها لأن ((ما ليس بالحب أهل في التعريف مما هو الحب، فليس الحب بالغريزة الجنسية، لأن الغريزة الجنسية تعم الذكور والأناث، ولا يكون الحب بغير تخصيص أو تمييز، وليس الحب بالشهوة، وليس الحب بالصداقة وليس الحب بالانتقاء والاختيار، وليس الحب بالرحمة لأن المحب قد يعذب حبيبه عامداً أو غير عامد، وقد يقبل منه العذاب مع الاقتراب ولا يقبل منه الرحمة مع الفراق.. والحب يُعَرَّفُ جزءاً قبل أن يعرف كاملاً شاملاً، ففي الحب شيء من العادة، وفي الحب شيء من الخداع وفي الحب شيء من العداوة، وفي الحب شيء من الأنانية وفي الحب شيء من الغرور.. وقد يخلوا الحب من كل شيء إلا من شيء واحد وهو الاهتمام فصدِّق إن قيل لك إن حبيباً يبغض حبيبه ويؤذيه، وصدق إن قيل لك إن حبيباً يتقبل من حبيبه البغض والإيذاء، وصدق إن قيل لك إن الحب والازدراء يجتمعان وصدق إن قيل لك إن الحب يخون أو يقبل الخيانة من المحبوب، فأما إن قيل لك إن حبا يبقى في النفس بغير اهتمام، فذلك هو المحال الذي لا يقبل التصديق.

وفي الحب شيء من القضاء والقدر، وأوجز ما يقال في الحب إنه قضاء يملك الإنسان ولا يملكه الإنسان ولو دخل في مشيئته لما استولى عليه ولا غلبه على أمره،.. وقال بعض الحكماء: إن الحجر الذي تقذفه بيديك يحسب أنه يطير في الجو باختياره، لو كان له شعور، – وهكذا يحسب العاشق وهو يتهالك على معشوقته.. يحسب أنه هو الذي يريد ما يصيبه، ولا يزال على حسبانه حتى يحاول ألّا يريد فلا يستطيع، وخلاصة القول إن الحب عواطف كثيرة وليس بعاطفة واحدة ومن هنا كان أقوى وأعنف من العواطف التي تواجه النفس علىأنفراد، – ففيه من حنان الأبوة، ومن مودة الصديق، ومن يقظة الساهر، ومن ضلال الحالم، ومن الرجاء والقنوط ومن اللذة والعذاب ومن البراءة و الآثم ومن الفرد الواحد، والزوجين المتقابلين، والمجتمع المتعدد، والنوع الإنساني الخالد على مدى الأجيال، – والحب ما رد في قمقم مأمون، أو رفات في قبر مدفون..))[1].

وبذلك أوجز لنا العقاد فلسفة القلب في الحب، – في صفحات فأوجزناها في سطور،لأن العقاد أوجز لنا حيوات، وطاف بنا في عوالم القلوب التي تحب ولا ندري لماذا هي تحب.. ولا ما هو الحب.. وهي فلسفة ما طرح مصطفى صادق الرافعي ثم يكملها الفضول شعراً خالداً.

أما فلسفة الفضول للحب فلم تتغير ولن تتغير ما استمرت الحياة.

سواء فلسفته لحب الوطن، أو فلسفته لحب المرأة، أ وفلسفته لحب المعرفة أو فلسفته لحب الحرية والضحى والشمس والشروق والفجر والضوء والندى والظلال والورود والشذ والقمر...و.. و... الخ،

أو فلسفته لحب الإنسانية جمعاء، ومن فلسفته للجمال: –

كم قطر الورد الندا في فمك والشمس كم أروى ضحاها دمك
تمشي كان الأرض لك لاسواك وكبرياء الحسن تمشي معك
ملحن الخطو كأن في خطاك ترنيم ومغنى من أغاني صباك

وهكذا هو الحب في قلب الفضول وهو يعزف أول ايقاعاته الانثوية.. أمّا حين يصبح الحب حقيقة .... فهذه فلسفته:

فرحتي فرحة الطائر رأى الفجر غبّش ضيف قلبي أتى عندي مُقَبِّل وسامر
صوت قلبي يغني لي أسمعين صوت قلبي والمغاني الملاح يأتين من أجل حُبّي
والحبيب تحت ضوء الحسن منصت بجنبي سحر عينيه واصبايا قد غلب ألف ساحر
يا قمر يا نجوم يا شمس بالله غيبي لفلفي ضوئك من الدنيا ويكفي حبيبي

(١) أنا – عباس محمود العقاد ص ١٨٦ فلسفتي في الحب.

أما حين ينقلب الحال ولأن دوام الحال من المحال.. فنجد الفضول.. وإن كانت أبيات لها مغزى سياسي – يقول:

غدَّار حتى لو سكنت السما لَخُنْتَ في أقطارها الأنجما
غدَّار لو أدهقت لي دورقي للحت لي في قاعه أرقما
غدَّار فلا تأتي إلى معشقي فقد صنعت النعش والمأتما

ولو أستعرضنا بالشرح والتحليل فلسفة الفضول للحب من خلال قصائده الغنائية الشهيرة، لأجتمع لنا فلسفات لا يحتويها علم انما يحتويها ضوء الصباح، بل ضوء ألف صباح أروى بها الشاعر مع من يحب مغارس الحب وضحى ألف عيد ضاحك ألق.

من ضوء ألف صباح نحن أروينا مغارسَ الحبِّ في أعماق روحينا
ومن ضحى ألف عيد ضاحك ألق صُغْنا مباهجَ دنيانا وَوَشَّينا
فيا حبيباً كأنَّ الحبَّ ليَّ وَلَهٌ مُنَى الملائك، تأوي دفء حضنينا
أو أنَّه فيضُ أضواء ملوَّنة بها سُحرْنَا.. وفيها قد تلاقينا
لو لم يكن حُبُّنا حُبَّاً لضَاق به الصبرُ الطَويلُ وكُنَّا عنه ألوينا
لو كانَ لعبةَ أطفال نمارسُها كُنَّا سقطنا..، وفيها قد هَاوينا
مسيرةٌ فيه سرناهَا مُعذَّبة فيها فحيحُ الأفاعي ملء سمعينا
لقد مشينا ظَمآء في مفاوزها نكادُ نشرَبُ فيها رَسْمَ ظلِّينَا

فمن ضوء (ألف) صباح.. مشرق جميل مبلول بالندا والرند والورد وظل الغيوم ارتوت الأعماق ومغارس الحب التي في أرواحنا، ومن ضوء ألف صباح تستمد من أرواحنا طاقة هائلة، وهي طاقة متصلة اتصالاً أبدياً مع صحى ألف عيد مبتسم وضاحك فتتألق الضحكات التي صنعنا بها أفراح ومباهج دنيانا التي لبست الاصباح والضحى ضوء وندى، فالحبيب والحبيبة لهما (منى الملائك) بالسعادة الأبدية.. الحب هو منى الملائك، تأوي وتحمي وترعى دفء أحضان الحبيبين.. وكأن الحب فيض نور وأضواء ملونة،فسحرتنا هذه الأضواء الملونة وفيها تلاقينا مسحورين بجمالها مأخوذين بروعة تمازجها، ولأن حبنا حب صادق فإنه لم يضق به الصبر الطويل.. ولأن حبنا حب صادق فإن الصبر الطويل هو أملنا وطريقنا الذي لن نرجع عنه أو نلوي و نعود عن السير في درب الصبر الطويل ....

ولو كان الحب لعبة أطفال نمارسها ونلهو بها لسقطنا في هاوية لا قرار لها، فالحب مسيرة سرناها وكلها عذاب،لأن فيها فحيح الأفاعي ووشاة وعذال وحساد، هذا كله يملأ أسماعنا و الظمأ في شعر الفضول ناقشناه في باب الظمأ العاطفي، وهو ظمأ برز بقوة معبراً عن حياة وروح صاحبة بعنف بسبب عوامل أوضحناها في باب الظمأ العاطفي وفيما سيأتي.

كم دلّلتْ حُبَّنا الأقدارُ..تكلؤُهُ ترعاه ما أغمضتْ عن حُبِّنا عينا
كأنّما كان محضوناً بمهجتها وفي سريرها حتّى تلاقينا
لم يأتنا الحبُّ كي تبليه أنفسُنا وفيها لبسنا على الدُّنيا وأبلينا
قد يورقُ العودُ محطوباً مُقطَّعةً جذورُهُ لو سقيناه حنانينا
مواطنُ الوحشِ جئناها كان بها مسارحاً للهوى فيها تناجَيْنا
أو واحةً قد عرشنا في جوانبها عروشَ ورد، بها للحبِّ غنّينا
فلو أتى الوحشُ فيها بعدَنا لرأى ضوءاً بها من بقايا ضوء وجهينا
ولو رآنا لأعطتنا براثُنهُ من الوداعة حُضناً فيه أغفينا
ولو مشَينا تنحّى عن مسالكنا صلالُها السُّود اكراماً لقلبينا
فما لبعضِ قلوب لا تُريدُ لنا شيئاً سوى الشوك مرشوقاً بجنبينا
كم نحنُ والحبُّ صافَحنا خصومتها وعن مكارهها – كَمْ نحنُ أغضينا
وكم نثرنا عليها في خمائلها رنداً ووردَاً وريشاً من جناحينا
لو كانَ في الناس قد جاء الهوى فأوى منها قلوباً لَكُنّا قد تساوينا
وكانَ عدلاً وانصافاً لنا ولها حتى تعاني ما في الحُبِّ عانينا

*** ***

فالأقدار هي التي تدلل الحب، وتقدم له الكلأ وترعاه، ولم تغمض عيناً عن رعاية حُبِّنا، وكأن حُبِّنا كان محضوناً بمهجتها وفي سريرها حتى كان لقاؤنا.. فلم يأتنا الحب كي تبليه أنفسنا، فنفوسنا تجدِّد الحب ولا تبليه، فبالأقدار جئنا ووعينا على الدنيا ورأينا – أيامنا – لكن الحب في قلوبنا، كالعود المحطوب والمقطعة جذوره قد يورق إذا ما سقيناه الحنان، فجئنا ملاعب ومسارح الهوى والحب وتناجينا فيها رغم أنها مواطن للوحوش ولكن وجودنا وتناجينا فيها وحولناها إلى مسارح حب ولهو ومناجاة، – ول جئنا واحة ونصبنا عروشنا في جوانبها من الورد – لتكون مكاناً لنغني للحب – وقد يأتي الوحش بعد أن نذهب من تلك الواحة وإذا ما جاء لرأى ضوءاً بتلك العروش من بقايا ضوء وجهينا – وأيضا لو رآنا لأصبحت براثنه ومخالبه وديعة فتكون لنا حضناً نغفوا فيه وننام بهدوء – لأن الوحش أكثر إدراكاً لما نحن فيه وعليه من حب، ولو مشينا في الواحة لابتعدت الثعابين السوداء من طريقنا – وما ذلك إلا إكراماً لقلبينا – وهذا الحال يقوم به الحيوانات أما الناس عند الفضول – فهم أصحاب قلوب لا تريد لنا شيئاً سوى الشوك مرشوقاً بجنبينا، – وهي قلوب كم صافحنا نحن الحب عداوتها وخصومتها، وحاولنا أن نغض أبصارنا عن مكارهها وشرورها – وليس ذلك فحسب بل وكم نثرنا عليها رنداً ووردا وريشاً – ومازالت في خمائلها وأكمامها – حملتها أجنحتنا إليها، – ولو كان الهوى قد جاء هؤلاء

الناس لأوت قلوباً منهم، ولأصبحنا متساويين في معاناة الحب لأن الحب معاناة – وفلسفة حياة وشعور بالآخرين ولكان ذلك عدلاً وأنصافاً لنا ولها – تلك القلوب وأولئك الناس – حتى تعاني ما في الحب عانينا ...

يا شُعَلةً من حميم الشوق لاهبةً ... تجري دماءً ونبضاً في وريدينا
جفّتْ قناديلُ حُبِّ الناس وانطفأتْ ... إلا قناديل حُب في فؤادينا
وأقفرت منه أرواحُ.. ولو طَلَبَتْ ... من حُبّنا لَتَصَدَّقنا، وأعطينا
ولن نواجه املاقاً ومَتْرَبَةً ... لأنّنا من كنوز الحبِّ أثرينا
مازالَ أكثرُهُ يأوي جوانحنا ... وإنْ أتى غامراً ما نحن أبدينا
كَمْ جاءنا الفجرُ يبغي أنْ نزيد لَهُ ... من ضوئه فأضأناهُ وَدَّيْنَا
وكم أتى الوردُ يُعْطِيْنَا براعمَهُ ... ليسكُبَ الحبُّ فيها طيبَ عمرينا
لم نأت في الحبِّ آثاماً تُخَبِئهُا ... أسرارُنا فأذعناهُ وأفشينا
فليس للحُبِّ ليلٌ في جَوَانحنا ... ولا ارتعاشةُ اثمٍ في ضميرينا
وما حملنا به إلاّ جلالتَهُ ... كمصحف قد رفعناها بأيدينا
به مُضيئين قد سرْنا تصاحبُنا ... برارة ملأتْ أعطافَ بُرْدينا
كأنّما اللهُ اعطانا هدايَتَهُ ... به، وأهداهُ ما صُمْنَا وصلّينا

*** ***

والحب عند الفضول هو (هدية الله) للبشر ...

دما فؤادي وأحلامي بَكَتْ ... والمنى هامَتْ وما لاقيتْ قلباً رؤوفْ
وعشت أيام كنت أطمع بقطر الندا ... على ظمأ قلبي المحب الشغوف
وكان تبخل بها الدنيا ولكن أتت ... أقدار أسقتني الاماني غروف
كعبه من الحُسن كم قلبي إليها هفا ... كم حجَّها كم عاش فيها يطوف
وشمس قد هندست روحي لها ... أبراج لا يأتي عليها كسوف

وقد يجوز لنا أن نورد بعض الملاحظات[1] التي يوردها الفيلسوف والكاتب الأسباني خوسي أورتيغا إي غاسيت (١٨٨٣– ١٩٥٥) يقول: ((إ ن عنصر البعد في الحب العذري شيء جوهري، إنه حب بصري أو حب شوق وحنين، والبعد فيه بعد في المكان والزمان، إنه حب يوفر المحب جميع مستلزماته،ويعيش من قوة أندفعاه، وهو ليس حتى بحاجة إلى معرفة الحبيبة: كيماياؤه مخي نوعاً ما، إذ إنه ينفجر بمجرد سماع أي ثناء من امرأة)).. وقد ألقى المؤلفون في فترة الضوء على عملية تفاعل تجري في الدماغ تحدث لدى المصابين

(١) مجلة العربي العدد (٤٦٧) – د.وليد صالح الخليفة.

بمرض الحب وأخذوا يقولون. اعتباراً من تلك اللحظة يطلقون على تلك الكآبة اسم هيريوس كما وصفها قسطنطين الافريقي عندما ذكر بأنه ذلك الشعور يبدأ في الانتشار في الدماغ وينشاء من رغبة غير منتظمة أو حاده)).. وعدا الأيروس أو العشق وكذا العاطفة الأحادية الجانب، فإن القدماء كانوا يعرفون نمطاً آخر من الحب وهو (الآجابيه) الذي يقوم على علاقة عاطفية متبادلة، وتتفق مع مفهوم الحب في الدين المسيحي الذي يحرم العشق أوالعاطفة المبالغ فيها، لأنه يعتبرها صفة أنانية تتجاوز الحدود ويصعب التحكم فيها، وتقوم على فلسفة السعادة الخاصة، بينما يكون (الآجابيه) – وهي العلاقة العاطفية المتبادلة – حباً وايثاراً وتضحية يقوم على العقل والحكمة والاستقرار العاطفي والسعادة المشتركة، وبالتالي فإن الخالق يكون مركزه ونواته و محوره وليس الحبيبة – ومن هذا النمط من الحب برزت تلك العاطفة التي تحلى بها القديسون والصوفيون الذين وجهوا مشاعر حبهم للخالق وحده لكونه الهدف الأعلى في نظرهم، ولأنه وحده يمثل فكرة الخير، وحب الآخرين ليس سوى وسيلة للوصول إلى الخالق ... والآن لنتذكر ما قاله الفضول في أغنيات الشمس...

هاتِ كلَّ الزهر، والعطر أليـاً ... أنا – غيرُ الحب – لا شيءَ لـدَّيا
وهو الحبُّ الذي هندسني ... تحت هذا الضوء إنساناً سوِّيا
ليس يعطي الحبَّ إلاَّ قلبُ مَنْ ... كان أو مَنْ كادَ.. أَنْ يغدو نبيَّا
لَبسَ الاصباحَ ضوءاً وندى ... فَمشى في الناسِ فجراً بشريا
أُغنياتُ الشمسِ لا يعزِفُها ... غيرُ قلبٍ فيه فجر وشروق

ولقد عرف اليونانيون القدماء نوعاً آخر من الحب أطلقوا عليه (فيليا) أو عاطفة الصداقة، انها عاطفة متبادلة وقائمة على المساواة، وتتمثل في الحب الإنساني الخالص الذي يجمع بين شخصين: (من الأحرار).

أما الجاحظ فقد حلل مفهوم الحب والعشق من وجهة نظر عقلانية – تبعاً لما يقرره مذهب المعتزلة – وعارض فكرة المتعة واللذة، وتوجه إلى العارفين بدعوة يطلب فيها أن يقوموا. بمواجهة هذا المرض الذي يهدد النفس الإنسانية، ويستعبد الرجال ... ونرى أن كتابي إبن القيم الجوزية (الجواب الكافي وروضة المحبين) يتفقان مع هذه الدعوة التي وجَّهها الجاحظ تماماً.فابن القيم الجوزية أبدع وأمتع..

أما الفيلسوف المشهور أبي حامد الغزالي فقد أنتقد عاطفة الحب والعشق في كتابه آداب النكاح وكسر الشهوتين ... وعدها خروجاً عن طريق الصواب وقال في امكان تحول الشهوة إلى عشق فذل فعبودية ... وتطرق ابن حزم الأندلسي – حسب رأي الباحثة الفرنسية (راشيل أربي) إلى العاطفة ومفهوم الحب وأعراضه لدى المحبين، وقد طور نظرية حول الحب الموجه، توجيهاً روحياً، والذي أستلهمه من كتاب عالم اللاهوت البغدادي ابن

داود (كتاب الزهرة) ،والذي يتناول فيه مؤلفه في مائة فصل تصرفات وسلوكيات بني عذره في الحب، والقائمة على أساس نوع من المثالية الايروتيكيه..

أما عاطفة الحب عند العامري النيسابوري فهي (أنفعال بلذة المحبوب ونزاع إلى أن يتصل انفعاله وتخوُّف من القطع وشغف بالمحبوب حتى لا تريد بدلاً عنه.. وأما ابن سينا فإنه يقارن العشق بمرض الكآبة القوية والحادة التي تتسلط على بعض الأشخاص في ظروف معينة ... وينسب ابن سينا – في رسالته – إلى النفس الدونيه دور الاشتراك مع النفس العاقلة. بحيث إنَّ حبَّ الجمال الظاهري والحب الجنسي يكونان سنداً للتقرُّب مما هو الحب الالهي وعليه فإن النفس العاقلة تكسب وتقوى باتحادها مع القيمة الالهية.

وتحليل ابن سينا هذا ينطلق كما نرى من نظريته العامة حول النفس وتركيب أجزائها، ومن خلال ذلك يفسر لنا ظاهرة الحب ... محاولاً أن يعثر على موضع ضمن هذه النظرية [1].

وكما أخبرنا الحلاج شعراً:

والله ما طلعتْ شمسٌ ولا غرُبَتْ إلاَّ وحُبكَ مقرونٌ بأنفاسي
ولا ذكرتُكَ محزوناً ولا فَرِحاً إلاَّ وأنت بقلبي بين وسواسي
ولا جلستُ إلى قومٍ أُحدِّثهم إلاَّ وأنتَ حديثي بين جُلاَّسي

ومادمنا قد ذهبنا مذاهب شتى.. فقد آن لنا أن نعود إلى الفضول و إلى فلسفة الفضول في الحب ...

في الصِّبا كم عشقَتْ نفسي الضُّحى والشذا العبقَ، والظلَّ النديَّا
وشبابي كانَ عرشاً للهوى لم أعشْ فيه من الحب خَلِيَّا
وأصيلُ العمرِ لَنْ أمضي على دربه إلاَّ لأحبابي وفيَّا
وضحوكاً مثلَ وجهِ الفجرِ لا تطرحُ الأيامُ في وجهي عِشِّيَّا

ونذهب إلى أن الفلسفة هي الحياة، وفلسفة الحب هي فلسفة حب الحياة والحب تجمعهما فلسفة واحدة هي فلسفة الواقع العملي، والواقع العملي يتحدث بجلاء عن فلسفة الفضول في الحياة والحب أو في الحب والحياة، وتلك الفلسفة تبدأ بالتبرعم منذ الفجر الأول للميلاد، والفضول تفتحت أزهار عينه على واقع مرير – فبدأت فلسفته تعلمه حكمة الصبر لفراق الأب الحنون والشيخ القابع في سجون الإمام يحي ظلماً وتحت مبررات واهية وعبثية.. ومعلوم أن الإنسان تبدأ مشاعره الغضَّة بالتفاعل مع ما حولها سلباً وإيجاباً... ومشاعر الفضول لم تجد حولها غير السلب والفراغ من حنان ورعاية الأب فلو

(١) المصدر السابق نفسه.

كان الأب مهاجراً لكان هناك أملاً بعودته يوماً ما، وأن لم يعد أبداً... لأن الأمل سيظل يروي السراب، ولو كان قد قطعت رأسه لكان الأمر قد انقضى وانتهى وأبتلعه سرداب النسيان والعزاء بالأهل والأخوان والأيام الوحيدة ... لكن مرارة ما وجد نفسه فيه بدأ بقطع نياط قلبه على ما هو فيه، وما فيه أبوه الشيخ، فكان عزاؤه في أقرانه وفي ذهابه ليتعلم على يدي أستاذه وابن عمه الأستاذ / أحمد محمد النعمان الذي كان قد عاد من زبيد بعد أن أخذ قسطاً وافراً من العلم والمعرفة واللغة بتفوق جدير بالإعجاب.. فكان الأستاذ نعم الموجه والأخذ بيد عبدالله عبدالوهاب نعمان – حتى إذا أدرك الأستاذ أن تلميذه النجيب قد أصبح في حاجة إلى رحلة معرفية في صنعاء وزبيد أعطاه الإشارة بذلك..رغبة في قربه من أبيه في صنعاء ثم رغبة في بنائه المتين بالمعرفة والعلم واللغة،فكانت مرحلة التلمذة الأولى هي المرحلة الأولى للفلسفة والتي عكست ما ستأتي به الأيام،وكان النعمان قد أدخل في تعليمه آنذاك المواد العلمية الحديثة كالتاريخ والجغرافيا وبعض معارف الرياضيات،. وبانتقال الفضول إلى صنعاء تهيأت له الوسائل لإدراك المعرفة التي لم يحصل عليها بعد، ثم إن ذلك أبرز شعوره ووعيه الباطن،دون وعي منه بتنامي تلك المأساة التي لم تترك له أباً ولا مالاً ولا أرضاً فصقلته المرحلة في صنعاء صقلاً أكثر أثراً وأنضج عمقاً في نفسه.. وكانت اللغة في ركابه تنمو مع مشاعره بالغربة المبكرة كما هي عادة أبناء الحجرية ثم انتقاله إلى زبيد موئل الباحثين عن المعرفة، فحصد الفضول الكثير من أنواع المعارف والمدارك في الدين واللغة والوعي الوطني الذي نما لديه في سن مبكرة، بحكم انتمائه إلى تلك الأسرة.

وما أحس به حوله بين الناس في كل مكان ذهب إليه، مما وضع أمامه تساؤلات كثيرة دون حساب للأخطار، لأنه لن يكون أخطر مما كان، وامتلاك الفضول للرجولة المبكرة والشعور بالاعتزاز بماضي أبيه وأسرته ومكانة الأسرة بين الناس. – وعلى رأس كل تلك المؤثرات كان أثر الأستاذ النعمان الأب الروحي للحركة الوطنية اليمنية، و صاحب الأنة الأولى التي أصدرها مواطن يمني وجهها في رسالة طويلة إلى الأمام يحي – فيها السياسي والوطني والاجتماعي.. والمعلم والأستاذ فهذا المعلم الأول الذي تلقى على يديه الفضول أبجديات الثورة وحب الوطن والتضحية و الوصول إلى الناس، ويكفيه مخاطبتهم في مختلف الأحوال، – وانتهاج سياسة الأستاذ والمعلم والأب والحكيم، فأصبح الفضول في بداية حياته مدرساً في مدرسة الأحمدية بتعز، وهناك كان قد وصل إلى إدراك جوانب كثيرة من قضية الوطن اليمني، ثم انتقاله إلى عدن هرباً ثم لقاءوه مع الزبيري والموشكي فكان موضع ثقتهما.. فكان خامس خمسة على تواصل مع الزبيري وهو في باكستان هارباً من الإمام أحمد بعد فشل ثورة ١٩٤٨م) فكانت تلمذته على يد الزبيري إطلالة كبيرة لأكتمال

الوعي الوطني الذي هو في أوج توهجه وتوقده واشتعاله، ولكل ذلك كان الواجب الوطني يدفع الفضول دفعاً قوياً إلى السير في طريق الضحى وفجر الحرية فكان حب الوطن هو الفلسفة التي ينبض بها قلب الفضول، فكان نبض الفضول الصحيفة – الساخر الذي أضحك الناس بقدر ما فيه من ألم ومرارة وحسرة على أبيه وعلى وطنه الغارق في لجة من الظلم والظلام، – فكانت ثورة ١٩٤٨م هي الأمل الذي ينشده الفضول بعنف لأنه ينظر إلى هدفين (الحرية للوطن والحرية للأب الذي أنهكته السنون وأشابته عذابات القيود، – لكن كل تلك الآمال العريضة والصاعدة في السماء كالنجوم عادت وتحطمت على صخور الفشل الذريع الذي منيت به الثورة الدستورية بعد ثلاثة أسابيع من قيامها.

فكان ذلك الفشل من عوامل الإحباط الرهيبة التي اشتعلت في نفوس الكثير من المناضلين آنذاك وبالأخص في نفس الفضول.. فأدت هذه التغيرات والمخاوف إلى أن يلتفت الفضول إلى حياته الخاصة بين عامي (٥٣–٦٤) تقريباً.. معبراً عن إحساسه العميق بعدم جدوى الكلام وعبثية الكلمة.. في ذلك الوقت، ومع ذلك فلم ينقطع عن الكتابة داعياً إلى الضحى والشروق والخير والحب والحرية – بعد أن تم اغلاق جريدة الفضول بمؤامرة إمامية وجماعة من حاشيته – في صحف عديدة.. والحقيقة التاريخية الفلسفية وما بين أيدينا يشير إلى أن الفضول بين عامي (٥٢–٦٥).. لم يكتب الشعر بأنواعه.. فما أثبته من كتبوا عن مرحلة حياته في عدن أنهم لم يأتوا بغير بعض القصائد نظمها الفضول في مناسبات مختلفة.. وهي مقاطع لا تتجاوز البيت الواحد أحياناً مما نشر سواءً في الفضول أو في غيرها من الصحف.

وكأن الشيطان أخفى شعر الفضول الذي قد يكون نظمه – وهو أمر أكيد – باعتبار أن موهبة الفضول آنذاك كان قد أكتملت وهي رؤية تكونت لدينا من خلال تلك الأبيات التي يستشهد بها البعض على ماقاله الفضول في تلك المرحلة.. وعلى سبيل المثال:

ستعانقُ الفوزَ نفوسُنا حتماً كما يتعانق الأخوان

وهو بيت شعري نظمه في حدود عام ٤٤م مع الزبيري والموشكي.. وهي تدلُّ على اكتمال أدوات الفضول الشعرية وهو بجوار قمة شعرية كالزبيري.

وفي وقت لاحق ندرك أن الفضول قد ألتقى بأيوب طارش فيتعز عام ١٩٦٧م وكان قد كتب تلك القصائد الغنائية الرائعة (مدارب السيل –طاب البلس – وادي الضباب) وهذا يخبرنا (بدون شك) أن الفضول قد أصبح واعياً لما هو فيه من ظمأ عاطفي وحرمان عاطفي وإحساس رهيب بالحاجة إلى الحب بعد سنوات من العمل الوطني والرحلة التعليمية والصحفية.. والظمأ العاطفي فلسفة يبدأ المرء بإدراكها أجزاءً متفرقة من خلال القراءة والثقافة المستمرة، والخلود إلى الوحدة والذات والعودة بالذاكرة إلى مراحل الحياة الأولى

وهي مرحلة باكية ودامية وحزينة، يعززها ما عليه الواقع المحيط من تنكر و كيد وحقد وحسد ومن أقرب الناس إليك، وعدم شعور بالحب من قبل الآخرين ... وهذه كلها عوامل تصاحب مجموعة أخرى من العوامل الظاهرة والعوامل المكبوتة أضف إلى ذلك العوامل المادية في وقت يكون الإنسان بحاجة إلى قليل من المال فلا يجده ويبخل به عليك أقرب الناس إليك، فيخيب ظنك بكل من حولك ويفقد المرء في هذه اللحظات كل ما يمكن أن يكون قد لامس قلبه من مبادئ ومثل أثبتت فشلها السريع في زمن قياسي.. لكن حب الوطن يكون قد تغلغل في أعماق القلب منذ الطفولة الباكرة، وهنا تبدأ فلسفات أخرى بالظهور وهي فلسفة تخص القلب وما يهوى أو القلب وما يحب أو القلب وما يريد، فتتقلب فلسفات الحياة كما يتقلب القلب أناء الليل وأطراف النهار.

فاندفع الفضول يفلسف القلوب، ويعزف لحن الظمأ الذي لا يرتوي.. يساعده على ذلك عدد من العوامل:

١- الموهبة الشعرية الكامنة في أعماقه والتي وجدت لها متنفساً طال ظمأوه..دون وعي أو شعور بما كان كامناً في القلب.

٢- المزاج الغنائي الذي يعبر عن أحزان النفس الظامئة..لأن الحزن في النفوس هو أغنية ينظمها شاعر لذاته، ويشاركه فيها كل أصحاب النفوس الظامئة.

٣- ثقافة معرفية متكاملة وقاموس لغوي بارع يعززه إدراك وإلمام بقاموس القرآن الكريم الذي أتاح له ميداناً واسعاً في الخلق اللغوي الذي يعبر عن كل لحظات النفس، ومواقف الحياة، وفلسفة الظمأ.. ولولا الظمأ المبكر لما نظم الفضول مدارب السيل قبل أن يعرف أن أيوب سيعلن ظمأه للناس جميعاً.

٤- شعوره النفسي بأن دوره انتهى بانتهاء حياة أصحابه الزبيري والموشكي فهم أعرف الناس بالفضول شعراً وعلماً ونضالاً من غيرهم.

٥- ما عليه الواقع السياسي في مرحلة (٦٢- ٦٩ م).. مما جعل الرؤية معقدة وصعبة، والفضول يصف هذه السنوات و ما قبلها في ديوان الفيروزه..

٦- ما عليه الواقع السياسي في عدن (٦٢-٦٩)، دفعه إلى العودة إلى تعز، حيث كانت الأقدار تنسج رحلة الفضول وأيوب في مدينة تعز الحالمة على مدى (١٥) عاماً.. في فلسفة القلوب..

٧- الظروف الشخصية التي تؤثر كثيراً دون أن ندركها كما لم يدركها الشاعر نفسه ...لأنها ظروف تصنع المستقبل بغير وعي منا.

وبتلك الفلسفة الوطنية التي سكنت الضمير أعطى الفضول لقلبه الحق في ممارسة فلسفة أخرى، وكانت في الأصل كامنة في أعماقه من توقد وغليان، حتى أتاحت له

الظروف أن يدركها بثقافته وخبرته الحياتية، ووعيه الذي أصبح ناضجاً، فلأربعين عاماً تقريباً مرحلة اكتمال الرؤى، ولأن الرجل مفطور على طبيعة خاصة وإن ظهر أو بدا عليه غيرها، فالعواطف هي التي بدأت في عملية تكوين ذاته بمأساه أبيه، حيث لم يعش حياة طبيعية، أنما أدرك أنه في حياة ووضع غريب وغير طبيعي، مما أيقظ في داخله أشياء غريبه لا يجدها عند أقرانه، أضف إلى ذلك تمتعه بعقلية خصبة ونجابة ووعي لما حوله منذ وقت مبكر.. أيقظ فيه الأحاسيس والعواطف التي أمتلأت بها نفسه من خلال الطبيعة الجميلة التي نشأ فيها وهي طبيعة تبدوا أكثر جمالاً في عين الطفل وفي المرحلة المبكرة من العمر يزيدها الحزن جمالاً.. كإحساس دفين بتمني الحياة الأجمل، أو كأن الحياة تثير شجوننا وأحزاننا بجمال طبيعتها، وأيضاً كان لمغادرة الفضول قريته مبكراً أثراً في رسم مناظر خلابة وجذابة وحافلة بالجمال والخير والمطر والسحاب والوديان و الآبار و المزارع والمدرجات والشروق والغروب والأصيل إلى آخر تلك المناظر التي تبقى صورها حية في ضمير ووجدان الطفل المفارق لقريته – فبعد أن يترك الطفل قريته ترتسم جماليات الطبيعة والنفوس الحب في عقل وقلب الطفل.. فتنموا معه بإرادته وبغير إرادته، وهو يدرك أو لا يدرك، فلا تهزه إلا تلك الأشواق الإنسانية التي تبعث في القلوب معاني لا حدود لها ولا وصف – وما زال كاتب هذه السطور ينظر في قريته كل معاني الخير والحق والحب والجمال وما زالت مناظر وادي الضباب وهو يغادر القرية إلى تعز في طريقه إلى عدن مع والده ... مرسومة كأنها لوحة أبدية لا تمحوها الأيام ولا يعبث بها الدهر ...

لا شيء في روحي سوى اشتياقي للنهر للرعيان للسواقي
شاعود للخلان والأحبة شاعود يكفيني شجن وغربه
شاعود للأشجار والعصافير ملوّنات الريش والمناقير
وللحمام البيض والشحارير وللمواشي السائمات والبير
راجع لشمس الصبح والمغارب
راجع لبرد الظل في الشواجب

شبابة الراعي افصحي وهاتي وردّدي لحني وأغنياتي
لفجر عمري لصبا حياتي لقريتي لجدولي لشاتي
هناك أحلامي وزرع حبي
هناك إلهامي ووحي قلبي

وتلك هي فلسفة الطبيعة.. أو الفلسفة التي جعلت من الفضول عاشق الطبيعة، وهو باب خاص ستفرده الطبيعة في شعر الفضول، وهي فلسفة كانت من وحي أحلام الفضول وزرع حبه الذي وعى على الدنيا وهو يرى في قريته مهبط إلهامه ووحي قلبه الظامئ

النابض.. فلا أعتقد أن طفلاً أو رجلاً أو شيخاً أو هرماً أو كهلاً أو شاباً أو فتى أو صبياً من أبناء اليمن إلا وترتسم قريته أمامه كما ترتسم الشمس في كبد السماء للعالم، صور حبه متتابعة فريدة، قوية تثير الأشواق والشجن والألم والذكرى والحب.. وما مضى من الزمن الذي تأملنا فيه، ومع ذلك فإننا نشتاق إليه.. لأن الفلسفة القوليه – تنطق قائلة:

ليس بالإمكان أبدع مما كان، وهي فلسفة حياتية أيضاً... وتلك المفردات التي ساقها لنا الفضول بسلاسة مذهلة تعبر عن نفسه بصدق كما تعبر عن أنفسنا – نحن اليمنيين – بأصدق التعبيرات والمشاعر والقصيدة لوحة شعرية، لوحة رسام نادر الوجود، – لأنها صورة أكثر جمالاً من حياتنا، – لأنها ما مضى من الزمن، وما أجمل الزمن الذي مضى!

وما من مفارق إلا ويتمنى لو تكون له أجنحة ليطير بها إلى الأرض ومرابع الصبا واللهو والطفولة والسذاجة والطهور إلى القرية حيث الكوخ المتواضع والبسيط حيث يطمئن القلب، وليس بين هذه الصفائح الحديدية التي مازال يعيش فيها الكثيرون من أبناء الوطن في المدن وغيرها ... فالقرية هي الروح والاشتياق حتى الآنهار، والرعيان والأغنام والسواقي والآبار والأحجار والهوى، والخلان والأحبة والأشجار والعصافير الملونة الريش والمناقير، والحمام البيض والشحارير، والمواشي السائمات والبير، وشمس الصباح، والأصيل والغروب، وحيث برد الظل في الشواجب وزوايا شعاب الأراضي الزراعية – حث الراعي يعزف شبابته ونايه وصوته الخالد..

ولذلك عندما طلبها – هذه الكلمات – أيوب طارش ليعبر بها عن شوقه لوطنه وقريته، في اليوم الثاني كانت الكلمات بين يديه لأنها عن معاناة وليست عن مغالاه، حيث حشد الفضول القرية كاملة في ألفاظ موسيقية رائعة وكأنها شبابة راع للأغنام فوق الجبال وفي وسط الوديان والحقول والمروج الخضر والشعاب.. وهذه هي الألفاظ:

(النهر /الرعيان / السواقي / الخلان / الأحبة / الأشجار / العصافير / الريش / المناقير / العصافير / الحمام / الشحارير / والمواشي / شمس الصبح / شمس المغارب / برد الظل / الشواجب / شبابة الراعي / الألحان / الأغنيات / أيام الصبا / فجر العمر / القرية / الجداول / الشياه / الأحلام / الزرع / الحب / الإلهام / الوحي / القلب).

أليس في هذه الألفاظ ما يشفع لأن يعتنق الفضول فلسفة الحب تعبيراً منه عن عدم رضاه بالواقع الذي صار إليه وفيه ألم يقل علماء النفس بأن الرجل الذي يعيش قلبه نابضاً بذكريات صباه.. هو من أصحاب القلوب الوفية والمخلصة والمحبة؟ وفقدان الفضول لتلك الحياة في ظل ظروف معقدة وصعبة أغرق قلبه بأحزان فقدانها، ولأنه غير قادر على أن يعود إلى قريته ليمارس حياته فيها ... وهي صعوبة لا أحد بقادر على أن يفك طلاسمها.. وما من رجل يرحل إلى المدينة يكون قادراً على أن يعود إلى قريته.. وهذه الصعوبة لها أسبابها

الكثيرة والشائكة وهي حالة إنسانية معقدة، ولما لم يكن الفضول قادراً على أن يعود إلى تلك الصور والمناظر التي مازالت لم تفارق خياله،فإنه أتجه أتجاهاً آخر، فملأ إحساسه ووجدانه وعقله وقلبه، إنه اتجاه الحب وبئر الحب وفلسفة الحب و حب المرأة التي ما من رجل أحس بقسوة الحياة وهجرها إلا وأخذته بل وجرفته أشواقه إلى أن يستظل بظل امرأة حنونه وأنثى جميلة وفيلسوفه وملهمة و عاقلة، وحكيمة ومدركة.. لتكون له عوضاً عن السياط اللاهبة التي يكتوي بها في متاهات ومتاعب الحياة مؤمنة بعبقريته الشعرية، ونبوغة الإنساني والوطني...

وليس هناك تعارض بين حب المرأة وحب الأوطان، فحب المرأة خاص بالإنسان بذاته بمشاعره وإحاسيسه ووجدانه، وحب الوطن حب عام فيه الإنسانية والناس والمبادئ والمثل – ويكون غالباً حب المرأة دافعاً إلى حب الوطن، – فظل الفضول يفلسف الحب ويغني للحب والقلب وتشاركه في ذلك كل القلوب، دون إن يغيب عن قلبه حب الوطن.

وفي خلال سنوات قليلة وهي السنوات التي شعر فيها بأن الدنيا مازالت بخير نظم أناشيد التي لا تتجاوز أصابع اليد الوحدة، ولكنها أناشيد، الدنيا تردد صدى صدقها ونبض حروف ألفاظها.. في الجبال والقلوب والضمائر.

لكن هل بررنا الدخول إلى فلسفة الحب عند الفضول ...؟ لأنها فلسفة لم تكن بعيدة عن فلسفة حب الوطن، وفلسفة الطبيعة، ففلسفة الطبيعة في شعر حب المرأة هي فلسفة لحب الوطن من جانب آخر واتجاه جديد، بالندى والضوء والغيوم والضحى والأصيل والفجر والشمس والنجوم والأشواق والسيول.. فهذه كلها يحتويها الوطن بأحضان دافئة كل الدفء، وفيها الصدق كله والحب كله.

والهوى عند الفضول هو حب المرأة ...

والحب عند الفضول له صور وفلسفات متعددة..

فهناك حب الجمال وهي صفات المرأة التي كتب لها، دق القاع دقه وهي صفات الجمال الجسدي والقوام والرشاقة والدلال وخفة الدم وكبرياء الحسن.. الخ.

وهناك الحب الروحي الذي يكون بالقرب الروحي.. هو قرب يشعر المحب فيه بالأمان والحنان.

وهناك الحب بحثاً عن الحنان ،حيث يخضر ويروق العود المحطوب إذا ما شعر بالحنان،.

وتنقل الشاعر بين ألوان الحب بفنونه المتعددة، و أشجانه المختلفة الألوان، يدفعه إلى ذلك ظمأ عاطفي عنيف – كما أسلفنا – ومن خلال فلسفة الحب فإنه قد فلسف الحب واللقاء والفراق والعتاب والشجن والصد والهجر والمنع والانتظار الصبر والوفاء والحنين

و الشوق والسهر والبكاء والدموع، وكي نتطرق إلى كل ما فلسفه الفضول في الحب.. وجب علينا أن نطوف في أغاني نفسه الظامئة، وفكره المتوقد، وموهبته الفريدة شعراً وغناءً شعرياً وعذوبة ألفاظ، وموسيقى حروف، وسرعة بديهة، ودقة كاملة في وضع الألفاظ المناسبة في مواضعها .. والتي تتطابق مع التجربة الشعورية التي مر بها الشاعر تماماً، فاللحظة الواحدة التي ينظر فيها الشاعر إلى عيون المرأة كفيلة بأن تنْزل عليه كل شياطين الشعر وملائكة الحب.

فعندما يحب الفضول ويتحقق أمله ويجتمع شمله مع من يحب في دار ... فإن حبيت حبيت – ماشي حلمت أو تراءيت.. هي أغنية قلبه الأجمل لأنه يكون في هناء وسعادة..

مهنى حبيبي وسط داري يحوم كأن عندي كل ضوء النجوم
والنهر والزهر وقطر الندا ورونق الشمس وظل الغيوم

وهذه الفلسفة العاطفية القلبية تستعين بالطبيعة،لأن الطبيعة وحي قلبه ومصدر إلهامه، وهذه الفلسفة للطبيعة وحضورها لتشاركه أفراحه تؤكد للدارس الأدبي من منظر نفسي، أن الحرمان من تلك المناظر هي التي تدفعه لاستحضارها في نصوصه الأدبية وأفراحه القلبية، فقد يكون الشاعر آخر الرجال الذين ينظرون أو يتمتعون بأضواء النجوم ورونق الشمس وظل الغيوم والندا وقطر الندا والنهر والزهر، لأن تلك الطبيعة و المناظر الطبيعية قد أصبحت جزءاً من تكوين وعي الشاعر منذ الصغر، فإنه لا يبرح يذكر تلك المناظر لأنها تعبر خفي عمَّا خفي في اللاشعور أو الوعي الباطن. من حرمان من هذه المناظر لأن تلك الحبيبة أو الحب قد يكون وهماً وخيالاً، فإن الوهم قد ارتبط بما في اللاشعور من تلك المناظر التي لم تعد قائمة في تلك اللحظة الشعرية الوجدانية لحظة التجربة، وقد يقال إن الفضول قد أكثر وأسرف في استعمال الألفاظ التالية:

(الندا / قطر الندا / الظل / الظمأ / الضوء / الضحى / الصباح / الشروق / الظلال / الغمام / السحاب / النفس / القلب / القمر / الشمس / النجوم ... الخ).

وهي مجموعة من الألفاظ التي تفسر لنا الحالة النفسية للشاعر أوضح تفسير ومن خلال ما أوضحناه سابقاً من قصة الشاعر الأموي ذو الرمة مع الخليفة عبد الملك بن مروان، ندخل هنا لنذكر الشبة الكبير الذي جمع بين الشاعرين الفضول وذو الرمة حيث عاش ذو الرمة في الصحراء حقيقة بينما الفضول عاش في صحراء الحياة مجازاً.. وفي النهاية هي صحراء عنيفة بل قد تكو صحراء الفضول أبلغ أثراً وأعمق ظمأ من صحراء ذو الرمة، ولنا عودة إلى هذا الجانب المتعلق بألفاظ الفضول التي أنتزعها من الطبيعة ووظفها أحسن توظيف شعري وغنائي.

والفضول يفلسف حبه بأن كثيراً من الناس قد أحبوا من قبل وقد يحب أناس كثيرون من بعد – لكنه في حبه وحيداً وفريداً، فليس عند الناس ما لديه، فماذا لديه مع من يحب وما يتمناه من حب:..؟!

إذا وهبنـــا النـــوم أجفاننـــا أمسى هوانـــا تحتـــها لا ينـــوم
وإن أتانا الصحو خلّـــى لنـــا قيامـــة الأشـــواق فينـــا تقـــوم

وإذا كان لقاء الفضول بمن أحب خيالاً منذ بدايته وإن ألبسه ثوب الواقع والتحقيق أو التحقق والكينونة، فالفضول أحب، ولكنه في البيت مع الحب ومع من أحب ثم يذهب به خياله ووعيه الباطن ولا شعوره لرسم صورة الحبيبة وهي تحوم في بيته كالفراشة وأهنـــأ وأروع وأسر ما يكون فيستدعي الشاعر هنا صورة الطبيعة التي لها تفسير أو أثر في أعماقه وهي (ضوء النجوم / النهر/ الزهر /قطر الندا / رونق الشمس / ظل الغيوم...)

وهي لحظات السعادة التي يتمناها أن تكون.. وتفرد الحب عند الفضول أنه ليس عند الناس مثل هذا الحب، فحبه عطره فريد. ولأنّ حبه في الخيال وأمره وعطره فريـــد، فـــإن الشاعر يندفع تلقائياً وتحت إصرار ورغبه لا شعورية ملحة إلى النوم لأنه بإغماض عينيـــه يعيش حبه وهواه.. وهوى لا ينوم مشتعل ومستيقظ ويقـــظ وســـاهر، لأن تلـــك هـــي مواصفات الحب الذي يشبع عواطف الشاعر فتنسيه ما هو فيه من ظمأ عاطفي وفـــراغ عاطفي، وخواء عاطفي ، وألم عاطفي وشجن عاطفي.. ومازال الشاعر في خياله يذهب إلى منامه فيغمض عينه على أحلام حبه، ثم يذهب بخياله إلى أبعد من بذلك فيتصور أنه صـــحا من منامه الذي لم يغمض هواه عينه في منامه.. ليتحول الهوى الذي لم ينم إلى قيامـــه مـــن الأشواق الجارفة في الصحو، وهذه الدرجة من الهوس العاطفي هي الكفيلة بإطفاء مؤقـــت لنار الأشواق في القلب، وكفيلة بإرواء مؤقت أيضاً لظمأ القلب والوجدان، ولكن براعـــة الفضول في الصور الشعرية وفي المقابلة الفوتوغرافية أو الفوتوشعرية هي التي عملت على إظهار لوعة وهلع الشاعر للحب العنيف الذي لا ينام فيكف به هو ... والرغبة الجارفـــة للحب الذي لا يفارقه في منامه وصحوه.. الحب الذي إذا ما أتاه الصحو جعـــل قيامـــه الأسواق فيه تقوم وفي من يحبها ... لأن شوقه وحده وقيامه أشواقه لا تكفيه ولا ترويـــه وانما قيامة أشواقهما معاً لأن من في حال الشاعر يكون أكثر رغبة في أن يجد حباً وشـــوقاً عارماً من التي يحبها لأنه بذلك يجد القليل من الامتلاء والشعور بالارتواء المؤقت، ولكـــن هل قيامه الأشواق تقوم؟ لا شك أنها تقوم في مثل نفس من هو في ظمأ الفضول، وما قيامة الأشواق إلا لمن هو في ظمأ الشاعر؟ وقد أبرز الشاعر الصورة المتقابلة بين خيالين في لحظة واحدة شعورياً مثل (إذا وهبنا النوم / الصحو خلي لنا... وهذه صورة متقابلة لما قبـــل أو بعد، ثم تتبع ذلك صورتين في خيال واحد أمسى هوانا تحتها لا ينوم يقابلها قيامة الأشواق

فينا تقوم ويستمر خيال الشعر في مثالية عاطفية عنيفة... لأن قيامة الأشواق لم تقم لها قائمة.

من مثلنا في الحب من مثلنا لقد لقينا في الهوى رغدنا
لا زهرنا يظمأ ولا وردنا كأنما رعد السماء رعدنا

فالشاعر يريد من الحب والهوى والرغد وارتواء الزهر والورد، وامتلاك الحب الذي هو في هاجس الشعر كأنه رعد السماء،متى ما رآه جاء إليه، ومتى ما طلبه لبى طلبه، ومتى ما ناداه، جاءه مسرعاً ، وكأن الحب رهن أشارته ونبض قلبه، فالشمس لا تشرق إلا على دار الشاعر ومن أحب..لأن إشراق الشمس يعني زيادة في سعادة الشاعر ومن أحب حيث تضم الشمس دار الشاعر ومن أحب إليها ضموم الأب الحنون أو الأم الحنونة أو المرأة الأنثى الحنون، فاحتضان الأب أو الأم لأبنائهما له الأثر النفسي الذي لا يغيب أثره وقد وضح ذلك علماء النفس كثيراً وهذه الأحضان هي التي أفتقدها الشاعر فانعكست في شعره لا شعورياً ولكنها عبرت عما في نفوسنا أصدق تعبير، وأقصد نفوس من في حاجة إلى أحضان ابويهما ودعوة الوالدين بالحب هكذا تتجسد في شعر الفضول متى ما أحب أو تمنى أن يحب لأن الحب رغبة نفسية عميقة تتجدَّد في قلب الشاعر ونفسه...

ما تشرق الشمس على دارنا إلا وضمَّتها اليها ضموم
ولا يمر الليل من بابنا إلا دعا لحبنا أن يدوم
والفجر ما يبدأ إلا بنا يطوف حولينا طواف القدوم

وما زال الشاعر في الليل ودعاء الليل ومباركته لحب الشاعر بأن يدوم ثم ينتقل الشعر إلى الفجر الذي لايبدأ بالطواف إلا حول دار الشاعر ومن يحب ولكن الفجر هنا له أبعاده الكثيرة وليأخذ القارئ ما يريد بنفسه.. لأن الشاعر رغم تأكيده بقوله لا شيء حلمت أو ترآيت..

فإنه يخذلنا بعد أن أشعرنا بفرحته بحبه ثم تتضح الحقيقة بأنه كان في حلم عميق كما هي نفسه.. وروعة فلسفته أنها تنقلنا إلى عالمه نقلاً أميناً ورائعاً و بأجمل طائرة من الألفاظ والصور البارعة التي لا عيب فيها إلا أنها ساحرة غنائية وعميقة ورائعة رائعة.. وكأن كل من أستمع إلى تلك الكلمات يشدو بها – أيوب يطير فوق أجنحتها الملونة فوق أجنحتها الملونة مع عصافير ملونة الريش والمناقير.

أما حين يعيش الفضول حبه حقيقة، ويجد من أحب في داره حقيقة لا وهماً.. هي تجربة عنيفة مر بها الفضول على ما يبدو، فحب الفضول واجه صعوبة في أن يتحقق في أحد الأيام.. ولما تحقق، وكان الحب الكبير للفضول كما يبدو .... لأن فرحته بمن أحبها تنطبق عليها صفات من تدق القاع وتمشي وكأن الأرض لها وليس لسواها ... فلما تم له ما

يريد.. قال:

هنُّوا لقلبي عند قلـــبي ضـــيوف وصفقوا حتى تـــدموا الكفـــوف
وباركوا حبي وقومـــوا وقـــوف هنُّوا لقلبي عنـــد قلـــبي ضـــيوف

وهذه القصيدة الغنائية الرائعة بل ومن الأروع على الإطلاق، أفشى لنا فيها الفضول ما يصنعه به الحب، فالشعراء كلهم يحبون فيكتبون الشعر، وإذا ما التقـــوا بمـــن أحبـــوا وتحققت أمانيهم انطفأ ذلك الحب وإلى الأبد.. أما الفضول فعلى غير العادة فإن حبه جعله يهندس روحه أبراج لا يأتي عليها كسوف، وكأن الشاعر أحس بذلك الامتلاء العـــاطفي الذي يجتاح روحه وقلبه المحب الشغوف.

دمـــا فـــؤادي وأحلامـــي بكـــت والمنى هامت ومالاقيت قلبـــاً رؤوف
وعشت أيام كنت أطمع بقطر الندا على ظمأ قلـــبي المحـــب الـــشغوف
وكان تبخل بها الدنيا ولكن أتـــت أقـــدار أســـقتني الأمـــاني غـــروف

فهل ارتوى؟

فهذه الألفاظ التي تشكل أبياتاً عمودية، ونثراً غنائياً، وتفعيلات نفسيه شعرية تحكي لنا حقيقة لا وهماً الأحلام الباكية والفؤاد الدامي بالأحزان والأماني الهائمة روحاً وفكراً.. بسبب أن الشاعر لم يلق قلباً رؤوفاً حنوناً عطوفاً عليه وعاش أيام كان يطمع بقطر النـــدا ولذلك أصبح الشاعر يهيم بقطر الندا في أشعاره كثيراً، وكأن الندا هو التفسير النفسي لما عليه الشاعر من ظمأ اللقاء، وقد يعيب النقاد على الشاعر إكثاره من مفردات ذكرناهـــا سابقاً، والحقيقة أن لا عيب في ذلك مادامت تلك المفردات هي التعبير البـــاطني للـــوعي الباطن واللاشعور، وهي مدخل إلى فلسفة الحب عند الفضول، لأن الفلسفات في صـــورة لفظية شعرية وتجربة شعورية موحية، ولقد تبين لنا من خلال تقليب وغربلـــة وأحـــصاء مفردات الفضول التي تتعلق بهذا الجانب العاطفي الذي دفعه إلى فلسفة الحب بقطر النـــدا وبمدارب السيل وهيمان، إلى أن نطوف في قطر الندا التي يقابلها ظمأ القلب.. في ديـــوان الفيروزة – أما في أغانيه الأيوبية فقد تطرّقنا إلى الظمأ ومفردات الظمأ في بـــاب الظمـــأ العاطفي ... ومفردات قطر الندا وما دار في معناها هي تأصيل نفسي لأنها لم تأت من فرغ، ورغم كثرتها المحبوبة.. إلا أنها وضعت في مواضعها الشعورية والشعرية وبمعان متعـــددة لا يكاد يوحي بالتكرار، فقد رزق الفضول حس توفيقي في اللغة وقدرة بارعة وذوق عجيب نادراً ما تكرره الأيام فيوضع الألفاظ المناسبة في أماكنها المناسبة، لتكون لها معاني فريـــدة وجديدة، لم تسبق ولن تلحق، فمثلاً في قصيدة قلبي يسائلني عليك، كان الفضول قد كتب آخر عبارة هكذا:

بك أنت واعدني ولاقـــاني القـــدر

ثم رأى أن تكون العبارة هكذا:

بك أنت لاقاني وواعـــدني القـــدر

فكانت العبارة الأولى بليغة لكنها لم تشف نفس الفضول الذي يريد للمعنى أن يكون أبلغ، فغير العبارة الأولى لتكون مكتوبة بتعبير العبارة الثانية، فالعبارة الأولى أو البيت الأول فيه الوعد والوعود ثم الملاقاة وكأن الوعد قد تحقق بلقاء المحبوب، وهنـــا نهايـــة هنديـــة للحكاية، أما في العبارة الثانية فإن الملاقاة وهو لقاء ليس فيه غـــير الوعـــود والمواعيـــد والمواعده.. والنهاية مفتوحة للأقدار، فكانت الصورة أبلغ، وهذه النقطة أوضـــحها لنـــا الأستاذ أيوب طارش ولأن فلسفة الفضول للحب كان بالطبيعة وفلـــسفتها ومناظرهـــا.. فسندخل لاحقاً إلى باب الطبيعة في شعر الفضول، فهو في هذا الباب فلسفة الحب قد دخل إلى هذه الفلسفة من الطبيعة فوظف الطبيعة أروع توظيف، أما انه فلسف الحب، فإن الظمأ هو الذي دفعه لذلك يعينه موهبته ولغته وذوقة.. وقطر الندا وبها كانت فلسفته في الحب والعشق والهوى وحب الوطن، لأن الوطن كان الرحلة الأولى للظمأ المبكر، وهي ألفـــاظ ليس فيها غير روعة توظيفها، وهي تخبرنا عن نفس الفضول أصدق إخبار وأعمـــق علـــى الإطلاق.

فادراك الشاعر للذة الأماني بلقاء الحبيبة وصفاء روحه.. رسم هذه الصورة:

أحـــــلام قلبينـــــا وأشـــــواقنا صفوف من حـــولى تعـــانق صـــفوف
جاءت معـــه ضـــيفان تفـــرح لنـــا وتمـــلأ الـــدنيا بـــأحلى الزفـــوف
في هيبة الملك ملك الحـــسن يمـــشي على عمري، وأيامي حيارى تـــشوف
اتفرجين كيف صنع الله؟ كيف الهوى؟ يعطي النفوس المحبه من جماله صـــنوف

وتلك لعمري صور فلسفية بديعة معقولة رغم استحالتها.. فـــالأحلام والأشـــواق صفوف تعانق صفوف، وكأننا نشاهدها تعانق بعضها بعضاً، صفوف / زفوف / تملأ الدنيا / هيبة الملك / ملك الحسن / يمشي على عمري / وكل ذلك وأيام الشاعر حيارى تـــشوف انقلاب الحال من الظمأ إلى الارتواء ... صنع الله وصنع الهوى.. وهو يعطي للنفوس المحبة من الجمال صنوف.

هكذا تتتابع الألفاظ فتكاد ترسم لنا وتبعث في نفوسنا من خلال تلك الرسوم حياة حية ... والضحى يملأ الآفاق.

وفي الحب عند الفضول سؤال وحب وأشجان وأطياف وندم / وعدم ودموع وليل طويل، وبكاء من أعماق الروح وارتواء، وهوى، وضوء، ولقاء، وفجر وأعشاش وأرياش و أحضان وأيام ونجم وضوء القمر وغيم وقطر المطر وفجر الزهر.

والحب عند الفضول هو ضوء القلوب البيض وعناء وتسبيح ووجدان وروح، وإيمان وقرب إلى الله ومواجع وجراحة وعلم السماح.

و حب الفضول عنده يحقق فيه أمانيه لا يقف أمام خياله حدود..

يا قمر يا نجوم يا شمس بالله غيبي لفلفي ضوئك من الدنيا ويكفي حبيبي
ليت كل القلوب يا ناس كانت قلوبي ربما يوسعين حبي فهو بحر زاخر

والحب عند الفضول قد يبدأ مصادفة.. وهو يرى فاتنة وهي تدق الأرض بوقع أقدامها وخطواتها.. فيطلب منها أن تستمر هكذا لا تمشي دلا.

دق القاع دقه... ما دامك حلا واعط القلب حقّه من دنيا السلا

ثم يستمر الشاعر بوصف جمال و فتنته بخطواتها، والتي قد فتنته من قبل بجمالها الأشهى من لذيذ المنى والأصفى من شعاع السيوف، فيطلب إليها الشاعر أن تعمل لما هي عليه من حسن حرزاً أ وتعويذه أو خرزه زرقاء خوفاً من العيون، ويؤكد عليها بأن تحرز عقله من حسنها لأن حسنها جنون، والمرأة أقصى أمانيها أن تجد من يوصل مرتبة جمالها إلى هذا الحد، لأن ذلك من أغلى أماني المرأة، والشاعر هنا لم يأت بذلك لأنه رآها لأول مرة بل لأن لها في قلبه مكان منذ زمن وإن كان قصيراً، لأن تفاعل عواطفه من قبل ه والذي أوصله إلى مطلع القصيدة ووصف الحسن بالجنون، فالمرأة اليمنية تمشي وهي تضع عطاءً على وجهها، فمن أين للشاعر أن يعرف أن حسنها جنون.. إلا إذا كان يعرفها من قبل أو بينهما صلة من الصلات... والمرأة لا تدق الأرض إلا متى ما أحست بأن هناك من ينظر إليها حباً واعجاباً، ولكن هل تلك المرأة في جمالها إلى هذه الدرجة من الجنون؟ أم أن حب الشاعر أضفى عليها جمالاً فوق الجمال كما هي عادة المحبين؟ لا شك أن ذلك يحدث كثيراً ولكن هنا الأمر يختلف لأن الشاعر وهو يختار مفرداته فكيف لا يختار امرأة جميلة تليق بهذه المفردات والمعاني الرائعة.

والشعر عندما أحب فإنه أعطى لمن يحب صوراً ساحرة الجمال ومن المعاني والألفاظ والأستعارات التي تجسد جمال من أحب بصور بارزه تكاد تنطق بلسان الجمال إن كان له لسان، وبصورة بارزه تكاد ترى إن كان له عيون.. فهيًا إلى بقية الصور:

- فيك الحلا قد شن ماءه شنون / واعطاك من فنّه وسحره فنون / تمشي كأنّ الأرض لك لا سواك / وكبرياء الحسن تمشي معاك / ملَحَّنُ الخطو كانْ في خطاك / ترنيم ومغنى من أغاني صباك / إشراقة الصبح وسحر الغروب / ونشوة الحب وشوق القلوب / شفاف كالأنداء فوق الزهر / رَفّاف أحلى من نسيم السحر / مضوأ الحسن كأن القدر / أسقاك كأساً من شعاع القمر / يا بدر كم ذاقاسمتك البدور / تمامها عند أنتصاف الشهور / فاعط زكاة الحسن وأوف النذور / (ما فاز باللذات إلاّ الجسور / كم قطّر الورد الندا في فمك / والشمس كم أروىَ ضحاها دمَك / والحسن كم ضمَّك وكم لملمك / يهندس الفتنة على مبسمكْ.

حشد من الصور الرائعة من البيت الأول وحتى نهاية القصيدة الغنائية، حتى لكأنك تعتقد أن الشاعر ما انتهى إلا ليبدأ، لأن نهاية قصائده قوية وساحرة، وهذا سر من أسرار الشعراء الكبار المعنى، فلا يسعك أن تستغني عن لفظ أو حرف أو بيت، وإنما تكون حزيناً لأن الشاعر توقف هنا، وفي داخلك أن لدى الشاعر الكثير لكي يقوله بعنفوان وروعة وصدق.

ولا يتسع المقام لكي نأخذ بشرح وتحليل تلك الصور التي بلغت العشرات من روائع الصور الشعرية فهي تتحدث عن نفسها، وإنما تقول تلك كانت أروع ميزات وجماليات المرأة التي أحبها الشاعر ووصفها بتلك الأوصاف ومع أن هناك من الشعر العربي القديم لأبن الوأوأ الدمشقي هذه الصورة:

وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسَقَتْ ورداً وعضَّت على العُنَّاب بالبرد
أنيسة لو رأتها الشمس ما طلعتْ من بعد رؤيتها يوماً على أحد

وكم أشار وبالغ النقاد قديماً وحديثاً اعجاباً بتلك الصور الشعرية (وأمطرت لؤلؤاً / وسقت ورداً / وعضت على العُنَّاب بالبرد / من نرجس / أنيسة / الشمس).. أنظر إلى عضت وما فيها من إيحاء جنسي غير عفيف ولا شاعري.

وبعد هذا لنقرأ هذه الصور الأروع معنى ومبنى إيجازاً وأعجازاً:

كم قَطَّر الورد الندا في فمك والشمس كم أروى ضحاها دمك
والحسن كم ضمَّك وكم لملمك يهندس الفتنه على مبسمك

(كم / قطر / الورد / الندا / في فمك / وكأن الفم قطر وورد وندا، ثم الشمس / كم / أروى / ضحاها / دمك)، ولا تعليق.. لأن الإنسان المتذوق لا يحتاج إلى من يسأله أيها أبلغ وأجمل وأكمل؟

ومن صور الحب والحسن والجمال والروعة ينتقل الفضول بعد لأي جهد ومشقة ومكابدة للحب والأمل بالجمال والارتواء والحسن والحب إلى تحقيق الأمل بلقاء روحاني مع من تحمل تلك المواصفات التي يأمل أن تروي ظمأة وفي ليلة زفافه تتحقق أغلى أمانية فيعبر عن ذلك بأروع ما كتب من شعر عاطفي غنائي فنكاد نرى في القصيدتين ليلة واحدة..

واصبايا واملاح هيا اقطفين لي مشاقر وارصفين الورد الحمر وسط المزاهر
واطرحين الكواذي البيض بين المباخر لحبيبي هو حبيب القلب أول وآخر
واعملين لي كبوش الفل مفرش مُنقَّش بالعطور بالندا مبلول مسقَّى مرشرش
فرحتي فرحة الطائر رأى الفجر غَبَّش ضيف قلبي أتى عندي مُقيِّل وسامر
صوت قلبي يغني لي اسمعين صوت قلبي والمغاني الملاح يأتين من أجل حبِّي

والحبيب تحت ضوء الحسن منصت بجنبي سحر عينيه واصبايا قدغلب ألف ساحر
يا قمر يا نجوم يا شمس بالله غيبي لفلفي ضوءك من الدنيا ويكفي حبيبي
ليت كل القلوب يا ناس كانت قلوبي ربما يوسعين حُبّي فهو بحر زاخر

وهذه هي المرحلة الثانية من حب الفضول حيث حقق أغلى أمانيه، وللتعبير عن فرحته نادى كل الصبايا الملاح ليقطفن له المشاقر.

و(يرصفين الورود الحمر) / وسط المزاهر / ويطرحين الكواذي البيض بين المباخر / لحبيبي هو حبيب القلب أول وآخر).. ولكن لماذا قال الفضول: أول وآخر؟

هل لأنه يريد تأكيد أن من أحب من قبل ليس حباً أو من تزوج من قبل لم يطفئ لهيب قلبه الظامئ، ولذلك يريد ارضاء هذه الحبيبة فيؤكد لها مكانتها، ليغيض العواذل والحساد؟ ويطلب الفضول من الصبايا الملاح أن يعملن له:

كبوش الفل مفرش منقش / بالعطور مبلول، مسقى مرشرش / ولعلّ هذا البيت من أصدق الأبيات التي تقودنا إلى ظمأ الشاعر الرهيب / فأراد فراشاً بتلك الطريقة منقش كالطبيعة، بالعطور مبلول، مسقى، مرشرش). فالطيور في الليل تكون كالمسجونة في قفص ،وقدوم الفجر يمثل لها الفرح والحرية والخلاص و الأستقلال.. فأنّى تشبيه أروع من هذا وأي دقة وتصوير للطبيعة كهذا الخلود في فن التصوير.

وكل ما جاء في القصيدة السابقة كان فلسفة للحب عند الفضول في مرحلته الثانية، وكان الخطاب موجهاً ومفتوحاً للصبايا الملاح في ليلة زفافه ليلة العمر أو كما قالت أم كلثوم هذه ليلتي وحلم حياتي.

فهل هناك شاعر أعطى لتلك الليلة أو لهذه الليلة من ليالي العمر ما اعطاه لها الفضول.. فكانت هذه القصيدة الغنائية هدية لا تقدر بثمن، أوصلها أيوب طارش كأجمل ما تكون عليه الهدية، للصبايا والملاح والفل والطيور والشمس والقمر والنجوم في عالم الجمال والحسن، وشعراء الطبيعة والحب والأمل والأشواق ...

وكما أشرك الفضول كل الناس في قصة حُبّة وظمأيه و ... و .... و...، أيضاً أشركهم في فرحته بإنتصار الحب فـ ((كل ما يكتب عن حبيبين لا يُفهم منه بعض ما يفهم من رؤية وجه أحدهما ينظر إلى وجه الآخر، وما تعرفه العين من العين لا تعرفه بألفاظ، ولكن بأسرار ...، والغليلُ المتسعر في دم العاشق كجنون المجنون يختص برأسه وحده، وضمة المحب لحبيبه إحساس لا يستعار من صدر آخر، كما لا يستعار المولود لبطن لم يحمله، وكلمة القُبلة التي معناها وضع الفم، لن ينتقل إليها ما تذوقه الشفتان

ويوم الحب يوم ممدود لا ينتهي في الزمن إلا إذا بدأ يومُ السلو – (النسيان) – في الزمن.... وإذا سالت النفس من رقة الحب، فبأي مادة تصنع فيها صلابة الحجر....؟ وما

هو الحب إلا أظهار الجسم الجميل حاملاً للجسم الآخر كل أسراره، يفهمها وحدة فيه وحده؟ وما هو الحب إلا تعلق النفس بالنفس التي لا يملؤها غيرها بالإحساس؟ وما هو الحب إلا اشراق النور الذي فيه قوة الحياة، كنوز الشمس من الشمس وحدها؟

وهل في ذهب الدنيا، ومُلْك الدنيا ما يشتري الأسرار والإحساس، وذلك النور الحي؟ فما هو الحب إلا أنه هو الحب؟

ما هو هذا السر في الجمال المعشوق، إلا أن عاشقه يدركه كأنه عقل للعقل؟

وما هو هذا الادراك إلا انحصار الشعور في جمال متسلط كأنه قلب للقلب؟

وما هو الجمال المتسلّط بأنسان على إنسان، إلا ظهور المحبوب كأنه روح للروح؟

ولكن ما هو السر في حب المحبوب دون سواه؟... هنا تقف المسألة وينقطع الجواب.

هنا سر خفي كسر الوحدانية..لأنها وحدانية (أنا وأنت) [1].

فطلب من كل الناس، وأشار عليهم بالطريقة التي تكون هنئتهم له بحبه وخلود حبه، وفي هذه القصيدة وأكاد أجزم بأنها أروع قصيدة غنائية تتحدث عن الفضول محباً وعاشقاً وظامئاً، ولا ادري لماذا أجد في هذه القصيدة عبارة عن جواهر وزمردات وزبرجد ينظمها عقد أفرد من الفراده، وفرادته لا مثيل لها ولا بديل، ولن يكون مستقبلاً هناك أبدع ولا أروع وأصدق..

هنُّوا لقلبي عند قلبي ضيوف وصفقوا حتى تدموا الكفوف
وباركوا حُبي وقوموا وقوف هنُّوا لقلبي عند قلبي ضيوف

وفي هذه القصيدة – وإن بالغنا في التأويل – معاني لم تتكرر في شعر الفضول، وأقصد معاني حياته وليس معان بلاغية أو لغوية. فالفضول أبدع في صور لم تتكرر إطلاقاً في شعره، وهذه القصيدة حافلة بصور ناطقة وإيحاءات شعورية جارفة / هنوا لقلبي / عند قلبي ضيوف / صفقوا / تدموا الكفوف / باركوا حبي / قوموا وقوف / مناظر ترحيب لا نظير لها في الحب،. وكأننا نشاهد صوراً فضائية حية عبر الأقمار الصناعية في النفوس، نشاهدها وهي تهني وتستقبل وتصفق وكفوفها مخضبة بالدماء، ومباركة بالحب، والوقوف إجلالاً وتقديساً للمحبوب والضيف، وكأننا في أفخم احتفال عالمي، وأوحد وأصفى احتفاء وعرس لم يشهد له التاريخ مثيلاً بين الشعوب الإنسانية قاطبة، وبقدر ما يثير عجبنا وإعجابه بناء تاج محل العجيب بين عجائب الدنيا السبع والذي شيده.. ملك لزوجته وحبيبته تاج محل، فإن إعجابنا بهذه اللآلئ والنجوم الفريدة التي انتظمت كعقد يزين قلب السماء في كبد الليل البهيم ... وتضمنتها هذه المعاني، بل هذه العقود:

(١) وحي القلم / مصطفى صادق الرافعي /ج ٣/ ١٠٣-١٠٤.

دمـــا فـــؤادي وأحلامـــي بَكَـــتْ والمنى هامَتْ وما لاقيتْ قلبـــاً رؤوفْ
وعشت أيام كنت أطمع بقطر الندا على ظمأ قلـــبي المحـــب الـــشغوف
وكَان تبخل بها الدنيا ولكـــن أتـــت أقـــدار أســـقتني الامـــاني غـــروف

فيالها من أقدار هنا
ومن أقدار هناك!

فعلى مدى أكثر من أربعين عاماً عاشها الشاعر في رحلة كفاح وتعب ونـــضال وألم وتشرد وجوع وظمأ وإحباط وخوف.. إلى أن دما فؤاده، وبكيت أحلامه، وهامت أمانية.. بضياع كل شيء، والوعود العهود والآمال والرؤوس والدماء ... الخ، ... ومـــا لاقـــى الشاعر قلباً رؤوفاً أو صدراً حنوناً، أو .... أو ... أو ...أو.... [1]. فعـــاش الـــشاعر (أيام) وسنوات طويلة كان فيها يطمع بقطر الندا ليبل بها ظمأ قلبه المحب الشغوف ولمعرفة أسباب اكثار الشاعر المفردات مثل الندى و قطر الندا [2] ... والظلال، فسنفصل ذلـــك في باب فلسفة الطبيعة في شعر الفضول – فتلك الأيام أو السنوات القاسية مـــن عمـــر الشاعر عاش فيها محروماً من الحب والحنان ... فكان يطمع بقطر النـــدا ومـــن نـــدى العواطف والقلوب والمشاعر، وفي ذلك إدراك من الشاعر لما يعانيه ولما هو في حاجة إليه، وهذا الإدارك من الشاعر لحياته القاسية فيه أن الإنسان – وبخاصة الشاعر – عندما يدرك ما هو في حاجة إليه فإنه وحده كفيل بزيادة الإحساس بما يحتاج إليه، بعكس مـــا لم يكـــن مدركاً، وهذا وحده كفيل بزيادة الإحساس والشعور والظمأ الذي لا يرتوي، فكم مـــن الناس لا يدري بما يحتاجون إليه – وهم عاشوا مثل حياة الشاعر فتمـــضي بهـــم الحيـــاة والإحساس في لا شعورهم أو في وعيهم الباطن،.. ولا يعرفون عنه شيئاً، ويتألمون لكن ليس كمن يتألم من الشعراء الذين أدركوا ما هم في حاجة إليه، و ما أكثر التعـــساء والبؤســـاء الذين لا يدرون بما هم عليه وفيه من بؤس وشقاء وتعاسة.. قال المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعـــيم بعقلـــه وأخـــو الجهالـــة بالـــشقاوة يـــنعم

وقال الشابي:

والشقي الشقي مـــن كـــان مثلـــي في حـــــساسيتي ورقّـــــة نفـــــسي

أما شاعرنا فقد كان مدركاً لظمأ قلبه، المحب، الشغوف ... فتعريف الشاعر لمفرديّ المحب – الشغوف يزيد من إيضاح ما يبحث عنه الشاعر ليروي بـــه ظمـــأه فالحـــب، –

(١) أنظر الهم الوطني والظمأ العاطفي .... وما سبق ..... رحلة حياة الشاعر.
(٢) الندى بالألف المقصورة هو العطاء والندا بالألف الممدودة هو تلك القطرات التي تتكون فـــي الـــصباح الباكر وتكون على هيئة حبوب ولألئ.

والشغف من حالات القلب ودرجات الأشواق الملتهبة، وقطرات الندا التي كان يطمع بها الشاعر، وكانت الدنيا تبخل بها عليه.

وهنا تتضح لنا شخصية الشاعر السوية المدركة فيقر ويعترف بان بخل الدنيا عليه بقطرات الندى لم يستمر – وإن عاناه وعاشه طويلاً – لأن أقداراً جاءت فأسقته أمانيه وما كان يطمع به.

فالإنسان عندما يحب امرأة فإن الجديد في المرأة هو الروح قبل كل جديد ومن أروى ضحى الشمس دمها،.

كيف لا؟ ... والحبيب:

في هيبة الملك، مُلك الحسن! يمشي على عمري وأيامي حيارى تشوف
اتفرجين كيف صنع الله؟ كيف الهوى يُعْطي النفوس المحبة من جماله صنوف؟

فالحسن عند الفضول هو الملك، وما أحلى الملك والحسن والجمال وهو يمشي على عمر الشاعر وأيامه حائرة متعجبة ومندهشة، وزاد الشاعر الحيرة حيرة وهو يقول حيارى وأيضاً – تشوف...وتنظر إلى تلك الهيبة الملكية، وذلك الحسن والملك والجمال ...ألم يقل البارودي:

حَكَمَ الجمالُ لها بما تختاره فَتَحَكَّمَتْ فينا كيف تشاءُ

ثم يخاطب الشاعر أيامه الحيارى.. اتفرجين يا أيامي الحيارى كيف صنع الله؟ كيف الهوى.. يعطي النفوس المحبه من جماله صنوف..؟

فالشاعر هنا يدرك ما يفعله الهوى وهو يمنح ويعطي للنفوس ويفهمها ما في المحبوب من جمال ومن صنوف الحسن والروعة والأنوثة.. أليس هو الحب الذي أنطق جميل بثينة قائلاً:

بثينة تزري بالغزالة في الضحى إذْ برزَتْ لم تُبق يوماً بها بَهَا
لها مُقلةٌ كحلاءُ نجلاء خِلْقَةً كأنَّ أباها الظبيُ أو أُمُّها مَهَا

وإدراك الشاعر لذلك لم يمنعه من أن يسترسل في وصف من يحب لأن إدراكه زاد إحساساً بالجمال:–

كعبة من الحسن قلبي كم إليها هفا.. كم حَجَّها كم عاش فيها يطوف
وشمس قد هندستُ روحي لها أبراج لا يأتي عليها كسوف
أضواؤها ملء آفاقي كأن الضحى ملكي ألفُه وسط روحي لفوف

فجمال محبوبة الشاعر من ذلك الجمال الذي يدفع من يعشقه إلى أن يصل به إلى جمال الكمال أو كمال الجمال كعبة من الحسن مع ما في التشبيه من احترازات قد يضعها البعض لكن الشاعر أراد أن يلخص ما لاقاه في سبيلها من معاناة ومتاعب والمحبون يعلمون

كم يظل الإنسان المحب يطوف ويهفوا حول من يحب حتى تحقق أمله باللقـــاء في ظـــلال الحلال ... فيصف الشاعر ما لاقاه بـــ(كم) ويلخصها أيضاً لأن ما وقع لا وصف له ولا حدود / قلبي كم إليها هفا / كم حَجَّها / كم عاش فيها يطوف، وكم من الشعراء العرب وصفوا لهفتهم على لقاء من يحبون وما استطاع واحد منهم أن يـــصل في روعـــة وصـــفه وبلاغته إلى وما وصل إليه الشاعر.

والحبيب عند الفضول ليس كعبة من الحسن وحسب بل (شمس) قد هندس الشاعر نفسه وروحه لها / أبراج / كي لا يأتي عليها – يوماً ما – كسوف / ... وما أروع حب كهذا وصل بصاحبه إلى تلك التصويرات.. وكعبة الحسن الشمس.. أضواؤها / مـــلء آفاق الفضول.. ولذلك:

فكأن الضحى – الحرية والحب والجمال عامة – ملك خاص للشاعر.. وماذا؟

ألفه وسط روحي لفوف ... فأي روح امتلكت أيها الشاعر العملاق.

ولنؤكد أن قصيدة الفضول هنُّوا لقلبي.. من أروع ما كتبه في الشعر العاطفي إنْ لم يكن أروعها على الاطلاق.. ففي القصيدة حركة وصور وإبراز تـــشبيهات واســـتعارات وصدق و تجربة شعورية وصور وظلال وعمق تعبيري إلى درجة مذهلة.

وقد أجمع الكثير من الفلاسفة أن الحب له مقام محدود ومحمود.. ليبق ذلك الإلهـــام وتلك المعاني التي تفيض بالعشق والهيام والتوحُّد ... حتى إذا تحولت المعاني إلى هذه الصور المغايرة.

إنْ كان قلبك قنعني أو هواك أرتوى فقل لروحي بما قلبك لها قد نوى

وهي ابيات فيها العتاب والشكوى من الحال الذي وصل إليه الجفـــا والـــصدود.. فالشاعر يطلب ممن يحب أن تتحدث عما في نفسها، لأنه قد أضحى يراها قد مالت عنـــه وأعطت الجفا للأماني ... وكانت في الحب وعنفوانه تمشي في طريق الشاعر تمامـــاً ... ولأن الشاعر يريد أن يذكر من يحب بما سلف من أمجاد الحسن والجمال.. وبما أصبح عليه الحال فقال:

أتيت في تاج كسري يـــوم لاقيـــتني واليوم قد طاح ايوانك وعرشـــك هـــوى
كل القناديل منك ضوأها قـــد خبـــا وجـــاءني ليـــل داجـــي في وجـــودي أوى

وهذه سخرية قاسية من امرأة جاءت في يوم من الأيام في تاج كسرى، جبروتاً وجمالاً وقوة وشباب،.. أما هذا اليوم الذي بدأت فيه الجفا وهواها ارتوى، رغم أننا كنا نسير في طريق واحدة هي طريق الحب ... ولم يق غير ليل مظلم حَلَّ في وجودي وكياني.. بسبب ما أنت عليه من جفا ... فينقل لنا الشاعر فلسفة أخرى للحب قائلاً ...

جراحك الحمر لم تأت لروحي سوى سعير ذابت بهـــا روحـــي وقلـــبي اكتـــوى

مواجعي منك تذبحني وحبلك أتـــى من بعد عانقت جيدك حول جيدي التـــوى
عليك بالدمع يا عيني فجـــودي بهـــا ونطِّفيْهَـــــا لتـــــأتيَ في جراحـــــي دوا

فهذه شكوى فريدة وقاسية من جراح مريرة من جراح المحبوب التي تحولت إلى سعير من نار ذابت بها روح الشاعر وقلبه اكتوى بها، وما أصاب الشاعر من مواجـــع تذبحـــه بآلامها، فجاء المحبوب بحبل مكره وخداعه فالتوى حول جيد الشاعر ولم يعـــد يـــستطيع الحركة منه.. ولم يعد أمامه غير الدموع.. فيخاطب عينه أن تجود بالدموع، وأن تخفف من حرارتها لتكون في جراحه دواءً ... وليس ذلك فحسب، فإن للقلب خطابا آخر..

وأنت يا قلب فاترك مـــن غـــدرني ولا تقبل شفاعات أشواقي وعاصـــي الهـــوى
وقل لمن غشَّ أحلامـــي ومـــن خانهـــا بأن ما قد نـــشرنا مـــن هوانـــا انطـــوى
فلـــم أجـــد فيـــه إنـــسان ولكـــنني وجدته الذيب في مرعـــى ظبـــأي عـــوى

أليس في الثلاثة الأبيات السابقة تلخيص لفلسفة الشاعر للحب وهو يخاطب قلبه بأن يترك من غدره، فلا يقبل شفاعات الأشواق.. وعاصي الهوى، وطلب منه آمراً أن يقول لمن غش أحلامه ومن خانها بأن ما قد سبق من نشر لقصة حبنا قد أنطوي بما هو كائن من جفا وغش وخدع.. وهذا تخلي من الشاعر عن كل ما سبق من فلسفة للحـــب والمحبـــوب.. والذي دفع الشاعر إلى هذا هو اعتقاده بأن هواه قد صور له من يحب بـــصورة إنـــسانية ولكن مع الأسف أنه اكتشفه فإذا به ذئباً يعوي في مراعي الظبأ والغزلان ... ومع ذلـــك فإن الشاعر أبدع وهو يحب وأبدع وهو يكشف جفا من أحب..

فهل بعد هذه الفلسفة فلسفة..؟، لا

وهل بعد هذا الحب من حب؟ نعم ... باختلاف المحبوب!

وهل مع هذا الحب من حب؟ نعم ... لقلب مثل قلب الفضول..

هات لي قلبك وخذ قلبي معك.. غير قلبي قلب من بايوسعك .... الخ ...

وعبارة (هات لي قلبك) قالتها امرأة ... تخاطب الفضول ... فنظم الشاعر القصيدة من وحي إلهامها.

متى فلسف الفضول الحب لنا؟

قبل أنْ نجيب على سؤال كهذا.. هل يجوز لنا أن نطرح سؤالاً يقول:

هل للحب زمان أو مكان؟

هل للحب سنوات في عمر الإنسان؟

هل للقلب حدود يعشق فيها ثم يستريح؟

وبقدر ما في هذا السؤال، أو هذه الأسئلة من بساطة ... بقدر ما فيها من صعوبة... وحتى أختصر المسافات والمساحات.. توجهت قبل فترة بسؤال لعدد من الرجال الذين تبلغ أعمارهم فوق الخمسين.. طرحت عليهم السؤال بطريقة أخرى فحواها:

إذا وجدت أيها الأب فرصة تمارس فيها غواية الحب، وحلاوة الحب ولذة الحب وأشواق الحب وآهات الحب – (أي فرصة – تشابهاً وتوافقاً – فهل تقبل ...؟ والكثير من هؤلاء أجابوا بابتسامة خبيثة وماكره ولا شك أننا عرفنا الجواب.. وفي أحد الأيام سألت رجلاً عجوزاً: هل في نفسك تلك الأشواق التي يحسها الشاب نحو المرأة..بصدق أريد الجواب؟! فأجاب: نعم، فالرغبة التي في نفسي الآن هل نفس الرغبة التي كانت في نفسي أيام الشباب والرجولة المكتملة.. والاختلاف في القدرة، فهناك كنت قادراً على اعطاء نفسي مُناها.. أما الآن فإنني أتمنى ولكنني لا أقوى ولا أقدر على أن أعطي نفسي مُناها.. فللسن والسنوات أحكام ... والآن لنتوجه إلى الفضول ...

إن الفضول حينما بدأ بكتابة الشعر العاطفي. الغنائي ... عندما التقى بأيوب طارش في عام ١٩٦٧م.. وقبل لقائه كان قد كتب مدارب السيل، وكتب قصيدة طاب البلس. ورغم أنه صرح في آخر هذه القصيدة بأنه قد شرب من الحب حتى قال: بس.. وهذا الأمر غير صحيح وأنه قد أحب لحتى قال بس.. إنما كانت العبارة دلالة على ما عاناه فجعله غير راغب في الحب.. وهي رغبة لا شعورية في الحب وليس العكس، وأيضاً كان قد كتب وادي الضباب، وفيها أشواق المسافر والغائب والمهاجر والمحب.. وليس في هذه الثلاث.. وليس في هذه الثلاث ما في دق القاع دقه..وما جاء بعدها والفضول من مواليد عام ١٩١٨م.. فيكون لقاءه بأيوب عام ١٩٦٧م وعمره (٤٩عامً) ومات بسبب نوبة أو (سكته قلبية) عام (١٩٨٢م).. وبالتالي يكون قد عاش (٦٤ عاماً) وفترة تعاون الفضول وأيوب امتدت على مدار (١٥ عاماً) فقط وهي فترة الشعر العاطفي الغنائي، بل وأخصب فترة عاش فيها الشاعر، فنظم أشعاره السياسية والعاطفية والغنائية والأناشيد الوطنية والسياسية وتلك السنوات كانت سنوات غليان قلب الفضول وحب الفضول وشاعرية الفضول وسخرية الفضول،.. وهذه السنوات الـ (١٥) هي أزهر سنوات الفضول والتي دارت فيها و عنها أسئلتنا حول ثورة عواطف ومشاعر الفضول.. ولعل تجربة الأديب المصري زكي مباك والتي ذكرناها من قبل، نذكرها عندما أحب أو وقع في حب صبية عمرها (١٣) عاماً. وكان في الـ (٦٧) من عمره فقال: ((الحمد لله أنني أدركت مواكب العشاق الذين ماتوا بالعشق، فما أكثر وما كان أكثر حسدي إياهم! إن الموت بالحب حب

أعظم، فلتفرح أيها الشيخ، إنك لم تمت بغير لحظات العيون وفتكات النظـرات، وحجـر الحبيب)).

فالإنسان في حالة نمو عاطفي مستمر ولكن هناك من الناس من يستسلم لمتاعب الحياة فيجعلها تسحق كل مشاعره وأحاسيسه ويسمح لها أن تطفئ كل ابتسامة حب ترتسم في جدار القلب.. وهناك من الناس وهم غالباً الشعراء.. يعطون ويمنحون أنفسهم فرصة الحياة والحب و الابتسامة التي تروي ظمأ القلب.. والشاعر عندما يكون قادراً على التعبير عـن كل ما يصادفه من جمال وحب.. فإنه يطلق لنفسه العنان كي يعبر – ومتى ما كان هـذا الشاعر من أولئك الذين أرهقتهم الحياة.. فحرموا من الحب والحنان صـغاراً ، وذاقـوا الضياع والجوع و الألم والتشرد.. فإنه يكون أكثر أملاً في أن يرسم لوحات الحب والجمال للناس جميعاً.. – فإذا أحب.. أعلن للناس جميعاً (حبيت – حبيت)

- وإذا هزت مشاعره امرأة بخطواتها غنّى (دق القاع دقه)
- وإذا أحب حقق أمله في حبه فرش لمحبوبته (كبوش الفل)
- وإذا أحب أن يشرك الناس في فرحته قال لهم (هنوا لقلبي عند قلبي ضيوف)
- وإذا أنقلب الحال.. غنى بلحن حزين (إن كان قلبك قنعني أو هواك ارتوى)
- وإذا .... و إذا ... الخ، وما من أغنية أو قصيدة للفضول إلا وقلبه فيها هو البطل.. دليل على شباب قلبه، وعلى روعة موهبته التي أسعفت ذلك القلب – الذي كـان كلما رأت عيناه امرأة جميلة تنهد قلبه.. لينظم قصيدة الحب أو الوهم.. ولم يتوقـف ذلك القلب عن الحب حتى توقفت نبضاته الشاعره.. عام ١٩٨٢م.. و:

يا ما أحـب النـاس مـن قبلنـا وقـد يحـب النـاس مـن بعـدنا
لكننـا في حبنـا وحـدنا ولـيس عنـد النـاس مـا عنـدنا
من مثلنـا في الحـب مـن مثلنـا لقـد لقينـا في الهـوى رغـدنا؟
لا زهرنـا يظمـأ ولا وردنـا كأنمـا رعـد السـماء رعـدنا!

ولا أعتقد أن القارئ في حاجة لمن يلفت نظره لكل شعر الفضول العاطفي الذي هو فلسفه للحب، وكغيره من الفلاسفة والشعراء دعا الشاعر إلى أن يسود الحب هذا العـالم بدلا من الرصاص الطائشة.

وقد يجوز لنا أن نختتم هذا الباب بسؤال محرج وجهه برناردشو لحماته.. حيث سأل برنردشو حماته مرة، وكانت آنذاك تبلغ الثمانين عاماً: في أي سن تفقد المرأة حبها للرجل؟ فاقتربت الحماة وفركت أذنه وقالت له: يا بُنيَّ جورج، وجِّه هذا السؤال إلى سيدة أكـبر مني سناً.

فهل ينطبق هذا على الرجل أيضاً؟ لا شك في ذلك، ولكن الرجل أكثـــر جـــرأة في الإعلان عن كل ما يعزفه قلبه من ألحان في الفجر والشروق والأصيل.

والحب في فلسفة الفضول يشمل الإنسانية والأمم والوطن العربي.

عـــــشتُ ايمـــــاني وحـــــبي أمميـــــا
ومـــــسيري فـــــوق دربي عربيـــــا
وســـــيبقى نـــــبض قلـــــبي يمنيـــــا

فالإسلام لكل الأمم – أي أنه أُممي – وبما أن الإيمان يَمان فقد عاش الشاعر وفقاً لهذا القول الشريف.

الباب الثامن

الفضول الساخر !

- رائد الصحافة الساخرة في اليمن
- الشاعر السياسي الساخر
- صاحب المزاج الساخر
- الكاتب الساخر

باللحي باللحي نبيد قواهم وبالمساويك ننْزل الطائرات
فمساويككم أشد وأقوى ولحاكم من أبهر المعجزات

كان الفضول قد أصدر صحيفة قبل صحيفة الفضول وكان اسمها صحيفة (الزَّبَج) ولم تستمر أكثر من شهرين والزَّبَج باللهجة العامية في صنعاء هي المزحة أو النكتة الثقيلة أمَّا في الفصحى (زبج الشيء يزبجه أي جمع الشيء من أطرافه)[1]...

مدخل بلا حدود:

ونحن نقلب صفحات التاريخ الأدبي، تطالعنا كل الأنماط الأدبية المعروفة في الآداب القديمة المسماة بـ(المأساة – الملهاه)، فالأولى مبكية ومثيرة للألم، والثانية مضحكة إلى حد الجنون، عندما تعيش المجتمعات إحدى هاتين الحالتين يكون ذلك تعبيراً عن حالة واحدة لم يكتب لها أن تتغير قريباً، عندما تعيش المجتمعات المأساة الملهاة أو المبكي والمضحك يكون ذلك تمهيداً لتغيير قد يحدث قريباً لأن المجتمع الذي يعيش في مأساة – كما عاش اليمن – آنذاك – ثم يضحك لما هو فيه، فإن ذلك تعبيراً عن شعور بالواقع المرير ، واستشعاراً بالمسئولية، ووعياً بضرورة التضحيات ليكون التغيير الحتمي والضروري لتكون الحياة طبيعية.

ولأن الآداب الإنسانية هي اللسان المعبر عن الآم وأ فراح الناس فإن الآداب اضطلعت بدور هام على المستوى الاجتماعي لأيقاظ الناس مما هم فيه ... ولم يجد الأدباء والشعراء والمفكرون على مر العصور – وسيلة أبلغ في تعرية الواقع وكشفه للناس من

(١) انظر لسان العرب لابن منظور.

السخرية مما هم فيه من حياة وجهل واستسلام وخنوع وذل وأول ما يبدأ الشاعر بالسخرية منه.. يسخر من معاناته هو ليدخل إلى معاناة الناس من خلال ذاته الشاعره.. ولعل الجدير بالذكر ولفت النظر إليه أن القرآن الكريم كان الأساس في نمو الأدب، ففي كثير من الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم.. كان هناك الآيات التي تسخر من الكفار ومما يعبدون، في مواقف عديدة.. وبمنطقية إلهية عظيمة، لأن السخرية المنطقية مع الكفار كانت منهجاً للتغيير القادم ولهز ثقة الكفار بما هم عليه ابتداءً.. لمباشرة إقناعهم.. وموقف خليل الله إبراهيم عليه السلام عندما كسر وحطّم أصنام الكفار ثم قوله لهم عندما اتهموه وأشاروا إليه بأصابع الاتهام والريبة:

((اسألوا كبيرهم)) وكان قد علّق (المنجل) على رأسه.. فهذا موقف ساخر وعنيف، وأثره كان نفسياً وليس عقلياً – رغم عقليته ومنطقه – فكيف لهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا ينطق ولا يضر ولا ينفع.. وما اقرب الأصنام ونظام الأئمة الذي كان قائماً في اليمن وبقدر ما كان الموقف الأدبي مع بريطانيا عنيفاً وثورياً وجهارياً ومنطقياً وقائماً على الدم والفداء.. كان الموقف الأدبي مع نظام الأئمة مختلفاً.. وبما يتناسب مع ما عليه الشعب من جهل وتخلف رهيب.. كقول الزبيري:

يا شعبنا نصف قرن في عبادتهم لم يقبلوا منك قرباناً تؤديه
رضيتهم أنت أرباباً وعشتَ لهم تنيلهم كلَّ تقديس وتأليه
نبني لك الشرفَ العالي فتهدمه ونسحقُ الصنمَ الطاغي فتبنيه
نقضي على خصمك الأفعى فتبعثه حيّاً ونشعلُ مصباحاً فتطفيه
قضَّيتَ عمَرك ملدوغاً وهاأنذا أرى بحضنك ثعباناً تربِّيه

فهل بعد هذه السخرية المريرة من سخرية، سخرية عنيفة هزت عرش الإمامة في مواجهة حامية مع الشعب الغارق في المأساة، ونتابع سخرية الزبيري العنيفة:

أيها الظالم الذي يتباهى أنه أبن للوحي أو سبط طه
تتوخى بأن تكون شريك الله فيهم أو أن تكون الله
وإذا جئتَ للمصلي رأيناك – نفاقاً – موحداً أوّاها
إن تكن أنت مومناً بإله فلماذا تكون أنت الاها

وقوله وقوله وقوله.. ونكتفي بهذا البيت الساخر للزبيري:

وإذا ثوَتْ بين الضلوع بهائمٌ قويَتْ على حمل العصا الأجسامُ

والسخرية فن من فنون الأدب التي ازدهرت وتطورت في عصور ثم ضعفت كغيرها في عصور الانحطاط الشامل – ثم عادت إلى الظهور مع ظهور الأدب حديثاً، وبتفاعله مع الآداب العالمية من خلال التأثير والتأثر.. عاد فن السخرية من الواقع المرير إلى الظهور من

جديد في الأدب العربي.. ومصر رائدة في هذا الفن من الشعر.. وكما هو الحال في تطوره حديثاً في كثير من الأقطار العربية التي ترزح تحت الاستعمار الدولي والثقافي البغيض، فأدرك الشعراء فاعلية الشعر الساخر في إيقاظ الضمائر والنفوس من غفوتها الطويلة، وكانت اليمن في مقدمة الأوطان العربية التي أخذت السخرية الشعرية منهجاً لمواجهة قوى الظلام والجهل، فبرز بروزاً قوياً في هذا النوع من الشعر الشهيد أبي الأحرار محمد محمود الزبيري.. فاستطاع الزبيري أن يعمل على الارتقاء بهذا النوع من الفنون الشعرية عالياً، فامتلأت أشعاره بالقوة والمنطق والثورة والحرارة والعنف والجرس القوي في إطار من السخرية العنيفة ...

إن اللصوص وإن كانوا جبابرةً لهم قلوبٌ من الأطفال تنهزمُ

فرغم ما في هذه الطلقات الشعرية من عنف سجلها قلم التاريخ، إلا أن روح السخرية في نفس الزبيري أبت إلا أن تكون حاضرة، فكان حضورها رهيباً وعنيفاً وقوياً في كل أشعاره، وهي سخرية عنيفة لأنها نبعت من تجربة أدركت أنه لا فائدة في مهادنة النظام الإمامي، وأن مواجهة الإمامة تقتضي أيضاً الالتفات للشعب باعتباره مصدر المواجهة وصاحب الشأن والذي تقع عليه مسؤولية جسيمة، فالزبيري أدرك ما وصل إليه الوعي الشعبي من تقديس و إجلال للأمام يحي، وهذا التقديس يقف حاجزاً منيعاً أمام اختراق الوعي الجمعي للناس، وبإجبارهم على أن يخرجوا من أسر الاعتقاد بالقداسة الكاذبة التي يتلفع بها النظام ولا تستحق إلا الموت في القلوب والثورة على نظام كهنوتي عفن ومتخلف، بعد أن فشلت كل دعوات الإصلاح والخير، وبالتقاء الزبيري والموشكي والفضول في عدن كانت السخرية قاسماً مشتركاً فقد حملوا لواء الشعر والسخرية ضد الإمامة، وما زالت المواجهة قائمة، فإن الميدان ما زال بحاجة إلى سخرية من نوع آخر، و هي السخرية الصحفية التي ستصل إلى قطاع كبير من الشعب البسيط والذين لم تنجح معهم سخرية الشعر في إزالة ركام الخوف والتقديس للإمامة.. وادراك الزبيري والموشكي لفراغ الساحه من الصحافة الساخرة.. وإدراكهما لموهبة الفضول الصحفية حيث كان أكثر ميلاً لهذا الاتجاه الساخر، ويبدو انه كان صاحب الفكرة ومن أطلق الأسم الذي كان يعني نصرة المظلوم.. هو حلف عقدته قريش قبل الإسلام، والتورية الشعبية في لفظ الفضول التي بمعنى التدخل في شئون الآخرين، وبقدر ما كان المفهوم الأول هو المقصود، بقدر ما كان الأسم يحمل الناس على التساؤل والضحك ومحاولة لمعرفة خلفية ما يحمله هذا الأسم حتى وإن أتضح أن الفضول الشاعر قد وضح سبب التسمية في الأعداد الأولى للصحيفة، إذ كانت صحيفة الفضول هي البداية الرسمية للسخرية في شعره وصحافته رغم أنه في أعماقه يحمل روح السخرية حتى في حُبِّه، فما بالنا في معاناته، والفضول كان مهيئاً تماماً لهذا الجانب الساخر بحكم معاناته أو مأساته وبدأت سخرية الفضول بسيطة وعن رغبة حقيقية في إيقاظ بسطاء الناس الذين يجب أن يستيقظوا، وكان يدفع الفضول إلى ذلك الرغبة الحقيقية

بالنجاح.. وما فشلت ثورة (١٩٤٨) إلا بسبب غياب الوعي بين الناس بأهمية الثورة على نظام متخلف كالإمامة، ولعل موقفاً بسيطاً في حياة الفضول له أثره في رفده بالرغبة العميقة بان يسخر من كل ما حوله.. وذلك الموقف قد يكون – أو يشابه – إسناد مدير المدرسة إلى عبدالله عبد الوهاب نعمان تعليم الأطفال الصغار في الصفين الأول والثاني الابتدائي فتضايق الفضول ضيقا شديداً وكان يخرج من الصف إلى ساحة المدرسة في الاستراحة أو نهاية الدراسة وهو يحمل على كتفه القميص والكوت والمشدة – الزي التقليدي للواء تعز آنذاك مكتفياً بالفنيلة والسروال بسبب حرارة الصيف وهو يصب غضبه وسخطه على مدير المدرسة مخاطباً نفسه بلهجة (الحجرية): ((يأمرني أعلم أولاد زغار وانا قادر على تعليمه وتعليم أكبر منه)).. وكان المدير يقصد الإساءة إليه لأنه كان يميل وله هوى إلى الإمام يحي وأولاده، ثم ترك سلك التدريس ولعل هذا الموقف ليس جديداً على الفضول، فهو قد أعتاد على أن يعيش المأساة فما من مأساة أكبر من مأساته في الحياة وفي أبيه وفي تشرده ورحيله المبكر وجوعه وشعوره بالخوف والرهبة من متاعب الحياة القاسية التي مرت به والتي ستأتي.. وعندما تبلغ المأساة ذروتها تتحول إلى ملهاة في نفس صاحبها.. لأن ما سيحدث لن يبلغ مأسوية مما بلغ أو كان، وتلك السخرية أصبحت زاداً يومياً للفضول انعكست على أسلوبه الأدبي مبكراً، وأستمر معه رفيقاً ومدداً حياتياً حتى آخر أيامه.. وهي سخرية نابعة من سؤ الحظ ومن مأساة أضحت ملهاة تولى وزارة الإعلام لمدة ثلاثة أشهر فقط.. سأله البعض عن سبب قصر الفترة.. فضحك ملء فيه قائلاً: ((المناصب حقنا مثل حمامات جامع المظفر، عاد الأول يدخل الحمام وقد الثاني يدق الباب ...)).

وهذه المواقف قد تتراءى لنا مواقف عادية ويحدث أن نواجهها كثيراً، والحقيقة غير ذلك فهذه المواقف تعكس فلسفة حياته، وتصور رؤية إنسانية لما حولها.. تتلخص في تبسيط ما قد يعكر صفو حياتنا من متاعب الحياة، وما نواجهه من سؤ الحظ،...

وسؤ الحظ أنعكس على نفس الفضول وعلى شعره أيضاً سوءاً شعره الذي نشره في صحيفة الفضول أو شعره الذي نظمه بعد ذلك، وسؤ الحظ عند الفضول ليس حالة خاصة وإنما هو حالة عامة، لأنّه هو محورها:

كُلّما لا قيتُ ثوباً أكتسي منه ستراً.. ظهرت فيه الخروقُ
وإذا آوي إلى نهر أتتْ ضفدعٌ يسهرني منها نقيقُ
وإذا وافيتُ روضاً، صدَّني عنه سَبْعُ وذادتني شدوقُ
وإذا واجه وجهي غيمةً رَحَلَتْ وأنطفأت فيها البروقُ
وإذا أستذريتُ ظلاً جاءني فيه صلٌ أو مشى فيه حريقُ
وإذا نحلي مضت راحقةً زهراً سُمِّم في الزهر الرحيقُ

فهذه المقاطع الشعرية التي انتزعناها من قصدية أغنيات الشمس في ديوان الفيروزة هي تعبير حي عن سؤ حظ الفضول الذي أنطقته أشعاره، وإن غاب أثره في حياته ظاهراً.

((وكان الأسلوب الساخر العميق، والتناول الفكاهي المرح، خير وسيلة لتحسين الغضب وامتصاص نوبة الخوف من أعماق النفوس، وقد نجح ذلك الشاب المفجوع بعد فترة من الذهول إلى هذه الطريقة التي حررته من الكابوس العنيف.. الكابوس الذي لم يكن يمنياً وحسب، وإنما كان كذلك عربياً حدثت النكبة المحلية في مارس ١٩٤٨م بسقوط التجربة الأولى للتغيير الدستوري، وفي مايو ١٩٤٨م كانت النكبة العربية بسقوط فلسطين، وقد استطاع الفضول أن يزاوج بين المأساتين النكبة وأن يفضح الموقف العربي المتفرج من اليمن، ومن فلسطين على السواء .

فقد شاركت الدولة العربية آنذاك كما شاركت المنظمة المدعوة بالجامعة العربية بنصيب تاريخي في ذبح أحلام الإنسان العربي في اليمن وفلسطين)) [١].

وقد برزت الفضول في عام ١٩٤٨م وكان العدد الثاني منها في ٢١ديسمبر، وقد كتب الفضول افتتاحية العدد تحت عنوان (وأما بعد).. فتعرض لذكر ما في الساحة آنذاك من صحف، وتوضيح مسلك كل صحيفة كدعوة إلى ابراز الميزة التي ستكون عليها الفضول (الصحيفة)، فقال عن صحيفة (الفتاة) ((وما عرفوا فيها غير الجد الصرامة وتعقيد الحواجب والبرطام، وتلك طبيعة الحياة في هذه البلاد)) وقال عن أختها صحيفة (الأفكار): ((انها بطابعها الجدي والعاقل المتزن الرصين، فما شعر قارئها إلا أنه قد تقمص روح شيخ جليل وقور، يغطي بلحيته البطن، ويتقي بعمامته الشمس، ويلامس بسبحته التراب)) وهذا ذم بما يشبه المدح، ثم قال عن (صوت اليمن): ((فما كانت العين تقع منها إلا على الشوك والحجر والجراح وسؤ الأخبار.. حتى لكأنها تحرر بأقلام نفر من رجال المطافئ يعددون للناس فيها حوادث الهدم والحريق،،.. ثم قال عن صحيفة اسمها (الذكرى): ((انها مصدرة بـ ((وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين))،.. ومعناه الانتقال بنا إلى الآخرة رحمنا الله، وقد كان في عزمنا أن نخرج الفضول جريدة دينية، وأن نطلق عليها أسم (المقبرة).. مبالغة في التذكير بالآخرة وملحقاتها من العذاب، والنكال والجهنم والغلاظ الشداد)).. وأختتم الافتتاحية قائلاً ((وبعد فاننا لم نرد للزميلات الأحياء بما سبق كله ... غير الدعابة البريئة والتحية الضاحكة، فلا يأخذ أحد علينا أسلوباً في التهجم والهزوء أو الأزدراء.. والسلام على الزملاء والزميلات الأحياء – منهم ومنهن – والأموات)) وتلك كانت السياسة التي سينتهجها الفضول، وقد حصل على اطراء ومدح من المرحوم والصحفي الكبير آنذاك محمد علي لقمان فيه ((وانك لموفق حين تتخذ الفضول سبيلاً للفكاهة والنكتة، فنحن شعب يحتاج إلى الفكاهة، لأننا عابسون، ومن حقنا أن نضحك كما تضحك الشعوب الأخرى، وليست الفكاهة كلها[٢] لهواً وعبثاً وضحكاً فإن نكتة واحدة تقوم مقام مقال

(١) من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي. د/ المقالح – ١٠٢.
(٢) المصدر السابق نفسه.

طويل يتعب القارئ وقد لا يؤدي المقال الطويل.. ما تؤديه النكتة الخفيفة المرتجلة)). وكأن السخرية والنكتة كانت بمقام الرسم الكاريكاتوري اليوم.. ومن الأدب الساخر نشأ الكاريكاتير أصلاً.. و لكن وفق مفاهيم جديدة وأسس مختلفة.

وقد أوضح الفضول في تلك الافتتاحية أن الفضول بتسميتها المثيرة للأسئلة، وبطابع المرح الذي في جو من الحياة الجافة هو الأمر الجديد الذي فيها ...

ويقال أن:

للفضول الصحيفة مجلد يجمعها بعض الأعداد التي صدرت آنذاك موجود الآن في دار الكتب بصنعاء.. لمن أراد أن يطلع على ما فيها كاملاً و نحن هنا سنحاول اختزال الأبواب التي كان يكتب الفضول تحتها ... (أول وآخر خبر – منبر الفضول – المقال الافتتاحي – بين المطرقة والسندان – ملحمة الإعراب – المعلقات – المقامات – إذاعة سوق الكدر... الخ)، أما عناوين المقالات فكانت:

١– كعك الرماد بمناسبة احتفال أنصار الأمام أحمد بعيد النصر على الأحرار،بعدن.

٢– بين المطرقة والسندان رداً على بعض رجال الدين الذين ينددون بالأحرار ويشيدون بفضائل الأمام أحمد مستهلاً إياه ببيتين من الشعر للأمام محمد عبده:

ولستُ أبالي أن يقال من أبل أم اكتضت عليه المآتم
ولكن للإسلام أرجوا سلامة مخافة أن تقضي عليه العمائمُ

ثم أردف بقصيدة عارض فيها المتنبي مطلعها:

على قدر عرض الحقو تأتي المحازم وتأتي على قدر النفاق المكارم

وقد حول الأبواب الأدبية واللغوية مثل الملحمة والمقامات والمعلقات فصاغ على منوالها قصائد هزلية ساخرة..

ملحمة الأعراب وفيها سخرية مريرة من الواقع الاجتماعي في ظل النظام الأمامي وقد أستخدم الفضول كثير من العبارات:

(مثل قولك يرفع العسكور عن منزلنا) أو (الفاعل ابن الفاعلة واستأجر العصا كفعل السافلة) حينما تعرض لحادثة بسبب مواقفه من أساليب حكم الأمام والإمامة وقد تعرض لحوادث كثيرة وقد استغلها الفضول للتندر والسخرية أفضل استغلال.

وهناك الإعلان عن المشاط السحري الذي يزيل الشعر الأبيض من الرأس.. وتبعه الإعلان عن اقبال العجائز وهن يقودين الأغنام.. الخ. رغبة في شراء ذلك المشط السحري.

وقد اشتهرت كثير من الشخصيات الفكاهية في باب إذاعة سوق الكرر مثل الدكتور حمامة وهو شخصية سليطة اللسان، وأنه رجل كبير العمر وأعمى ولا أهل له ولا أقارب،

وتميز بسرعة بديهته، فيقدم (الدكتور حمامه) محاضرة عن الأخلاق، وكذلك شخصية حيدرة بائع العتر المتجول، والذي لا يزال بائعو العتر حتى اليوم يرددون ما كتب الفضول عنه (حوِّج يا حيدره حوِّج) وأيضاً (عكبور) عاقل المدارة والدرين وبائع الخردوات الذي قال عنه في خطاب (مبجوش) لمجلس الأمن إثر فشله في حل قضية فلسطين، وعاتبه عن فشله في قضايا الشعوب المظلومة، ولام من أسسه وكونه وأتمنه على ذلك وقال له في النهاية (والله وبالله وتالله، ما أرضى بك شوكي دار على شقادف الدرين – وكلمة شوكي دار كلمة هندية شائعة في عدن ومعناها (حارس) هذا إلى جانب شخصيات كثيرة أشهرهم في جريدته.

ولعل بعض الألفاظ التي كان يوظفها كانت لها دلالاتها الساخرة مثل (الضباحي / العراطيط / الكابول / الهندي / الأحول / عكبور / حيدره / حمامة).

٣- عين الحقيقة العوراء رداً على مقال يندد بالأحرار اسمه (عين الحقيقة).

٤- يمني بلا مأوى ... وكثير غيرها من المقالات الساخرة والهادفة.

وعاش الفضول حياة قاسية حيث كان يسكن في دكان أو (بخار)، وعدن كانت في الصيف شديدة الحرارة ومثل هذه الأماكن تكون قاسية، وكانت حقيبته (خُرج الفضول) – بضم الخاء – هي الإدارة والفضول هو كل هيئة التحرير، ومن المواقف الطريفة التي حدثت له أنه تعرض للسرقة، فأختطف المعتدي شنطه الفضول أو على الأصح (خُرج الفضول) وكان يطمع أن يجد بها نقوداً والمسكين لا يعرف أن محتوياتها (حيش الكهمة) – أي حذاء الزوجة – وقليل (تمباك) ليشربه قبل أن ينام..[1].

وهناك تلك المقولة أو العبارة الشهيرة (انقلاب عسكري في اليمن) حيث تصدَّرت العبارة السابقة صحيفة الفضول (بالبنط أو المانشيت العريض) وأكتشف القراء أن الخبر يتلخص بوقوع عسكري الأمام من فوق حماره في نقيل يسلح القريب من صنعاء، وكذلك (قبعة محمد نجيب تغلق مدرسة) حيث كان الأمام قد كلف الأستاذ أحمد النعمان يفتح مدرسة متوسطة في حجة فحدث أن سب أحد رجال الأمام الرئيس المصري (محمد نجيب) وقال انه كافر لأنه يلبس بنطلوناً وقبعة، فقال له أحد تلاميذ المدرسة (في نقاش معه) وهل النصراني إذا ارتدى (عمامه) أصبح مسلماً، فأوصل تابع الامام النقاش إمدعياً أن هذا فيه إفساد للشباب فأمر باغلاق المدرسة.

نماذج من الأشعار الساخرة للفضول:

استطاع الفضول توظيف المفردات العامية باللهجة الدارجة شعراً يفيض بالألم والمرارة، ويبدوا أن الفضول أكتشف وأدرك موهبته هذه وهي التي ستساعده مستقبلاً على

(١) عبدالرحمن النعمان – أربعينية الفضول – بتصرف.

انتقاء بعض المفردات التي يبدو عليها أنها من اللهجة الدارجة – رغم فصاحتها – فيوظفها في شعره الغنائي أقوى توظيف..

أين البليس فراسي اليوم مخبوط مُدَّحملٌ خاشه بالشاش مربوط
يا غارة الله ما للآثمين بنا من غايَة؟ مايرى فينا الزباليط؟
يا خبطة الأثم كم أدميت من كبد حتى الجيَاع بكونا.. والعراطيط
أسفت شعب بني شمسان من عدنٍ فكلهم خدُّه في الكف محطوط
يبكي الفضول، ويبكي جرحُ جبهته وكل خدٍّ لهم بالدَّمع منقوطُ
وكلها خبطة صغرى بدت عجباً في حاجب العين.. زانتها البلاطيط
عمائم وطرابيش تطوف بنا والكوفيات أتتنا.. والبرانيط
وزارنا كلُّ طفران (وذي) سعة وشرفونا التعابا والمباسيطُ
وآنستنا طوابير العجائز منَّ أدنى القُطيع إلى أقصى الخُسافيط
الحول والعور والغميان تندبنا وكلهم قلبه بالقهر مشطوط
يبكي الزميل الذي لم يكف جبهته دكم الجدار... فوفته المخابيط

وفي موقف آخر يقول:

مهلاً فاقدار الفضول تفورُ ومثار ثوره ثورها عكبور
لا تكثروا حول الفضول ثواربا إن الفضول شعارها التفكير
يا قارئاً متن الفضول صحيفةً لك بالفضول كآبة وسرور
أما الكآبة فالسرور يزيلها وكذا السرور يزيله المطفير
شعر الفضول شعورها وشعيرها مع فولها لعدوها منذور
فهي التي تدع الشجاع كأنه عصفورُ برٍّ ساقه المقدور
وهي التي تكسوا الخطيب مهابةً كالليث يفجعُ قلبَه عُصفورُ
كم علمت قراءها كم هَدَّبت كراءها الراقدون سمورُ
يا معرضين عن الفضول ثقالة إن الثقالة شرُّها التكرير
أما إذا أقبلتمو فلغيركم وجع الظهور، وفي الركاب صرير
وإذا أصريتم على اعراضكم فلها اليكم منكر ونكير
الشيك والبلجيك يخطب ودها والجابر الهولند والمكسور
والعيس في باريس يحدوها الهوى نحو الفضول كأنها زنبورُ
والبرلمان بلندن يرنوا إلى تاج الفضول لأنه مهجور
هذي الفضولُ وهذه أحلامُها والنومُ نومٌ والشخيُر شخيُر

((ولم يبرع شاعر من شعرائنا في مجال السخرية الشاعرة، ولا في مجال التبسيط في انتقاده النظام الأمامي كما فعل الفضول في كثير من شعره، وفي معظم كتاباته النثرية.. وهذه الخطبة الشعرية هي بعد هذا وذاك تشبه قصائد الفضول المنظومة باللغة الفصحى المطعمة بمفردات عامية، وقد أتبع في بعض هذه القصائد نهج تقليد القصائد العربية القديمة والجاهلية الطلليه بصفة خاصة، ربما لأنّ جزالة اللفظ وبساطة المعنى إلى حد الأسفاف يخلق المقارنة الظريفة الباعثة على الإضحاك، كما في هذه القصيدة اللامية التي عارض بها لامية عنترة الشهيرة ونقل أحداثها من ميادين المعارك والقتال إلى ميادين البطون والموائد، قد وصفها الفضول نفسه – ساخراً – بأنها سوف تقلب تاريخ الأدب وترد وجهه في قفاه وتجعل رأسه في الأرض ورجليه في الهواء..

قال عنترة:

حَكّم سيوفَك في رقاب العُذّلِ وإذا حللت بدار ذُلٍّ فارحلِ

وقال الفضول معارضاً:

حكمٍّ أكُفّك في صحون المأكلِ وإذا حضرت على أكال فانزل
وإذا الصديق دعاك يوم عزومة خوفاً عليك من اصطراف الأرجل
فاقبل عزومته وبادر مسرعاً واقدم إذا حق اللقاء في الأول
وإذا بُليت بفارق كن غارقاً بيديك..لا تصبر ولا تتمهل
واختر لنفسك حفنةً تشبع بها من لحم كبش بالخضار مُشكل
والجوع لا ينجيك من آفاته إلاّ صحون الزربيان وما يلي
فاكعم فديتك باليدين مسابقاً ما كان حولك من كروش تمتلي واملأ
واختر جفاناً بالفتوت مليئةً يديك بسمنها المتغلغل
واحذر لمن يدنو اليك مشاركاً وأبرك على المفتوت لا تتململي
وازرد – وقيت الخنق – زرداً متقناً واياك أن تخش حريق الفلفلِ
واسمع نصيحة فارس لا يختبي يوم الوغى كالمهر تحت الكنبل
من نسل كعامين في تاريخهم كبر الكروش من الطراز الأول
((أبناء جفنه))حول دست أبيهم سكّوا على المعصيد أكبر مقتل
جعلوا ((المدار)) سلاحهم وتلاطموا بأكفهم، وتداعسوا بالأرجل
إن أنكروا أهل البطون شجاعتي فطويل باعي في الفتوت يُقرُّ لي
والكعم والمغط السريع بهمتي عند اشتباك الكاعمين أنا العلي
وإذا فضولي دنا من جفنتي باعدته عنها بحد الشنبلي

وإذا أرى كرشـــي تغلّـــق وانفـــرا بعد الأكـــال، رتقتـــه بالـــشوتلي[١]

ولقد صور الفضول بقصيدة انتخابية ساخرة حقوق اليمنيين المهضومة، فكتب مقدمة يقول فيها ((يُعدُّ شاعر الفضول – الصحيفة – من أكابر المهتمين بالانتخابات العدنية المقبلة وهو عدني، ولكن ممن تنطبق عليهم شروط الحرمان من هذه الانتخابات وعدم دخولها، وقد رأي في منامه أن الانتخابات على أشدها فذهب ليعطي صوته ناسياً انه لا يملك إلا نصف ديمة في جبل العيدروس، ونسى أنه فقير ابن فقير.. يقشط الفقر من جلده بالـــسكاكين،.. وجائع جائع، يفكر في بيع نصيبه من الطريق ان كان له فيها نصيب!، وقد وقع له مالم تذقه رقبه من الخياط، وما لم يطعمه شق من الرباط ولما نفض مشافره من تراب المخياط.. قال: صلوا على باهي الجمال:

نخبـــوا مهجـــتي وقلـــبي لمّـــا كردوني مـــن ســـاحة الانتخـــاب
ساخ دمعي على الخدود كمـــا لـــو ساح سمن الجبـــال بـــين الكبـــاب
عش عزيزاً أو مت وأنـــت حميـــدن تحت دهف القفا ودكـــم الرِّقـــاب
رحـــت متكـــومن ســـأعطس جمـــرا أزبـــط القـــاع نظـــرة في ذهـــاب
راكـــزاً (نخـــزتي) أُجعلـــل عـــيني شـــامخ الـــرأس عاصـــراً أشـــنابي
فـــإذا بي في الانتخابـــات (فـــرنكن) طـــاحس طـــاح بنكـــه فـــإذا بي
وإذا دكمـــــه هنـــــا وثـــــلاث من هنا قد هفطـــن مـــن جـــشآبي
فوهبنـــا للـــريح رجلـــي نعـــام ما معي غـــير فـــردة مـــن ركـــابي
وتحكولـــت بالحـــصير وأضـــحت دجفـــاتي تـــرنُّ في كـــلّ بـــاب
رب صحن قد طن في صحن وجهـــي ضاحكاً من تـــشقدف الأكـــواب
والـــذي حـــارت البريـــة فيـــه انتخـــاب ((مكـــارد للخيـــاب))
((برطعي يا رجول)) ما شئت وامشي كيفمـــا تـــشتهين فـــوق التـــراب
واتركي الانتخابات حقـــاً لمـــن تـــر قـــد في كيـــسه لكـــوك الربـــابي
زعموا انـــا خيـــاب فـــلا نـــصلح للانتخـــاب..آه يـــا خـــراب

ولا ريب أن هذا الذي حدث في المنام للشاعر الفضول قد حدث لكل اليمنيين))[٢]

وقد يظن البعض بأن أشعار الفضول الساخرة لا تمثل الوجه المشرق لموهبة الفضول والحقيقة أن الفضول أمتلك الموهبة ووظف موهبته في ما كان يراه مناسباً في ذلك الوقت، ولو أعدنا قراءة أشعاره الساخرة المطعمة بالألفاظ العامية لوجدناها تكشف عن قدرة كبيرة في توظيف المفردات، وهذا يذهب بنا إلى أن الرجل أمتلك الموهبة وأبعاد الموهبة، ولكـــن

(١) من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي.د/المقالح (بتصرف) – دراسة اختناق الهديل.
(٢) المصدر السابق نفسه.

الرغبة في أداء الرسالة التي من أجلها أنشئت الفضول دفعه إلى كتابة الشعر الساخر والنثر الساخر والمقالات الساخرة – والأبواب الساخرة –.. وعلى سبيل الإيضاح لا أكثر – فإن في قصيدة (الموائد والجوع والسمن)، قد نذهب إلى أن الفضول استطاع تجسيد حالة التخمة التي يصاب بها ((النهمون على الطعام)، وابرازه لتلك التخمة يقودنا إلى ما كان عليه من جوع وتشرد وضياع ... وكانت سخريته اللاذعة وعن موهبة،ولو كانت افتعاليه لما حقق النجاح الذي حققه..

فالشابع لا يقدر على تصوير تلك الموائد العامرة، لأن ليس له بها رغبة، ولكن الجوع الذي كان عليه الشاعر، صور له تلك الموائد.. لكن توظيفه لها كان سياسياً ساخراً وإسقاطاً نفسياً مريراً.

وقد يأتي شباب فيستهينون بما نظمه الفضول من نماذج الشعر الساخر، – ولكنهم لو تعمقوا في المعاني والاستقصاء والإسقاط والتوظيف اللغوي لأدركوا أبعاد السخرية التي كانت أصلاً لمخاطبة طائفة من الناس، دفنهم الجهل أينما ذهبوا..

ولا ريب أن الفضول استطاع أن يكون رائد الصحافة الساخرة في اليمن في زمن صعب للغاية.

ويستدرك المقالح قائلاً: ((تلك كانت بعض النماذج لشعر الفضول الساخر وهناك نماذج عديدة تصور بعمق ومرارة أكبر أبعاد المأساة التي زلت بهذا الوطن، وسحقت أبناءه والشعر الساخر الذي تركه الفضول يثير حشداً هائلاً من الأفكار والملاحظات)).

أبيات من أهم قصيدتين نظمها عبدالله عبد الوهاب نعمان عام ٤٤/ ٤٨ م نعرف منها مواهبه في الشعر الساخر ودوره المبكر في مقارعة الإمامة البغيضة ونورد بعض أبياتها وهي قصائد طوال عثرنا عليها كاملة في وقت قريب.

قصيدة عام ٤٤ م (٧ أبيات من ٤٧ بيت)

فجِّر الأرض مارجاً من جحيم ودع الكون غارقاً في جحيم
ومن الجمر ضع قيوداً وخذ جـ يشك من كل مارد ورجيم
وابك للإنجليز واضرع إليهم كي يشدوا من أزركَ المقصوم
صعِّرَ الخد وامض في الكبر واشمخ وتبجَّح بمُلْكِكَ الموهوم
لن تنال العروش بالجَثث الكبرى وبالطيش والدماغ السقيم
وفهِّم واجب الجزاء على افراطهم في الولاء والتعظيم
فاغمدِ النصل في الفؤاد ومُت ميتة غيظٍ بسيفك المسموم

قصيدة إلى ثوار ٤٨ م (٧ أبيات من ٢٨)

سيروا وما الأغلال في أعناقكم إلا لمجدكم العظيم شعارُ
وسيعرف التاريخ أن وراءكم مَنْ لا ينام بجانبيه الثأر
سيكون هذا الملك قبة هامكم إنْ حطّمت أوفي عليه دمار
يا جيفةَ التاريخ هل من حفرة تؤويك إذ سئمتك هذي الدارُ
أم أنَّ ظهر الأرض أنذر بطنها أنَّ احتوائك سُبَّةً وشنارُ
أم أنَّ عزرائيل يأنف أنْ تدنَّس كفُّهُ من روحك الأقذارُ
ماذا ترى لك من عتادٍ بعدهم سقطَ المتاعُ وعرشُك المنهارُ

سخرية الفضول السياسية عالمياً آنذاك:

في باب (أول وآخر.. تلغرافات)

إلى أمريكا: بلغني أن وجهك قد أصبح من التلوث زي خريطة الجغرافيا، وهكذا النفاق وإلا فلا لا لا لي لا لا..

روسيا: عجزت أن تغني الكل فأفقرت الجميع ... وكلها مساواه (مش كده)؟ ومن المساواة أيضاً ان تكون فلسطين للعبارية ... مش كذا (قبـ..) إلى آخره .

فرنسا: كل الدجاج نقمنا .... حتى منتوفة الذُّنابة

بريطانيا: ٨٩٩١ ... حسِّك .. صاحبك الأول ولا يغرك العقب؟

مصر: شفتي؟ لا مؤاخذة يا ستي ... الهبيله يوسخ بقبيله ...

دولة عزرائيل: (خافوشه دجره).. حامي يعيال..

مجلس الآمن: شهادة يسألني الله عنها يوم القيامة ... أن ببطن أبوك سبعة وسبعين زنار.. وقد قلت لك الوعد الأول أننا والله و بالله وتا لله ما ارضى بك شوكي دار على شقادف الدرين [1].

وما سبق يوجز لنا الوعي السياسي الدولي الذي كان عليه الفضول والصحيفة والشاعر – لأن ما كتب آنذاك.. ما يزال قائماً في رؤيته إلى اليوم.

ولقد ((كتب الشاعر الفضول على مدى ثلث قرن أو يزيد عدداً غير قليل من القصائد التي عرضنا لها في الصفحات السابقة، وقد أشرنا إلى السبب الذي أوجد ذلك الشعر الساخر و إلى الواقع اللامعقول في الحياة اليمنية في ظل الهمجية والتقاليد المشوهة، ذلك الواقع الذي كان لابد من فضحه والتحريض عليه بكل الأساليب، ومنها الأسلوب الساخر الضاحك الذي قد يبدو أحياناً أنه يتعالى على المأساة في حين أنه يتغلغل إلى عمق

(١) كتاب أربعينية الفضول.. بتصرف.

أعماقها فيجعل الدمع يضحك والضحك يبكي وإذا كانت القصيدة الساخرة غير قادرة على اعطاء الملامح الحقيقية لصوت الشاعر وأبعاد تجربته الفنية لما يتميز به من بساطة في التناول ومن تعمد في اختيار المفردات العامية ذات الإيحاء الشعبي و المعاني المباشرة سريعة الإيصال.. أقول ذلك هو شأن القصيدة الساخرة [١].

وشعر الفضول الساخر له مؤثرا ته الموضوعية التي فرضتها المرحلة والأوضاع التي كانت سائدة ((والبحث عن المفارقات المثيرة للضحك، وهي في نفس الوقت مثيرة للبكاء، وهي سمة أو نزعة أتسم بها شعر الشهيد الموشكي، الذي أستقبل ذات يوم نبأ هدم الإمام يحيى لبيته المتواضع بقوله هازئاً ساخراً:

لله درُّك فارساً مغوارا طعنَ الصخور ونازلَ الأحجارا[٢]

أما الفضول فإنه أستقبل تهديد حكام المتوكلية بدخول الحرب وهم لا يملكون حتى أبسط الأسلحة قائلاً:

باللحى باللحى نبيد قواهم وبالمساويك ننزل الطائرات
فمساويككم أشد وأقوى ولحاكم من أبهر المعجزات

والأمر الذي يجب لفت النظر إليه هو أن سخرية الفضول كانت أيضاً تعمل على فضح الإدعاء الديني الذي يقوم به الأئمة، وإزالة الهيبة والجلالة ومحاولات التقديس الذي كان يحاول أن يصنعها النظام الأمامي حوله ... ولعل قصائد الزبيري تمتلئ بهذه الصفعات القوية التي تهز عرش الإمامة هزاً عنيفاً:

أيها الظالم الذي يتباهى أنه ابن للوحي أو سبط طه
تتوخى بأن تكون شريك الله فيهم أو أن تكون الله

وإلى الآن.. قد نكون ما زلنا في بداية الدخول إلى موضوع السخرية في شعر الفضول. وهي ليست السخرية التي كانت إنما السخرية التي طبعت عليها نفس الفضول أصلاً،.. فالسخرية قبل أن تكون فنّاً أدبياً هي موهبة فطرية في النفوس، والساخر تلزمه بعض الوسائل أو المواهب التي تعمل على إظهار و إبراز السخرية بثوب قشيب، مضحك ومثير للبكاء معاً، مثل سرعة البديهة وحضور الجواب، و دقة التعبير، واختيار الوقت المناسب للسخرية، والتماع الذهن، وخفة الظل والثقافة واللغة، والقدرة على الإسقاط العميق على الواقع وليس السخرية لمجرد السخرية، فالسخرية يجب أن تكون لها هدف شريف ووطني نبيل، والسخرية تتلبس كثيراً الشخصيات التي عانت وتجرعت مرارة الأيام، فتكون منهم سخرية المعاناة النابعة من القلب ونجاح الفضول آنذاك في سخريته من خلال

(١) أغوار الخفاء د/المقالح بتصرف.
(٢) نفس المصدر السابق.

صحيفة الفضول، كان نجاحاً يؤهله عدد من العوامل أن السخرية آنذاك كانت تخاطب عقولاً ذات مستوى معين، ومحدد ولو أراد الفضول أن يستخدم تلك السخرية في هذا الوقت لما كانت مجدية.. لأن الظروف الحالية، أصبح الناس فيها على وعي أكبر، ولذا يلزم أن ترتقي طرق السخرية إلى المستوى الذي يليق بثقافة الوقت الحاضر، وأيضاً لم تكن سخرية الفضول آنذاك مؤقته أو مرحلية – كما حدث مع عدد من الأشخاص، ولكنها سخرية مطبوعة في نفسه وموهبته وقد ظلت سخريته هذه مرافقة له في فترات حياته المختلفة، من خلال أشعاره العاطفية والسياسية والوطنية، ومواقفه الحياتية اليومية، ومعاملاته مع الناس ومن حوله والأهل والأقارب، وقد حاول المقالح أن يلقي بالأثر والمؤثرات الموضوعية التي أكسبت الفضول طابع السخرية من مؤثرات محددة تمثلت بتلمذته على يد الأستاذ الشهيد / زيد الموشكي الذي كانت السخرية في شعره الهادئ الرصين طابعاً أصيلاً و هوية أكيدة، والحقيقة أن ذلك الأمر صحيح، لكن ليس معنى هذا أن الموشكي كان هو الأثر الموضوعي الوحيد، بل لقد كان للزبيري أثره الأكبر في هذا الفن أضف إلى ذلك ما طبعت عليه نفس الفضول أصلاً، وما صنعته معاناته من اللجوء إلى السخرية هرباً من الألم الذي كاد يعصف بكيانه أو الألم الذي أستمر يواجهه، وكذلك أن الفضول كان قريباً في العمر والثقافة ونضج التجربة من الزبيري مع تواضع في موهبة زيد الموشكي، وقد يستغرب القارئ عندما يدرك أو يقرأ أن الفضول وظف السخرية حتى في شعره العاطفي،.. فلذلك يلزم علينا إيراد نماذج حيث نجد الفضول يسخر ممَّن بذل نفسه لمن لا تستحق في قصيدته الغنائية المبكرة (روح لك بعيد):

روح لك بعيد ما عدناش لك من بعد ما غيري سطا وشلك
ومن بعدما قد كنت لي بكلك وابذلتك نفسي وكل ما ملك
وكنت أقول بيني وبين عقلي مو عمل بقلبي بعد هجر خلي
أنا الذي قد كنت فيك شغلي قد كنت حبَّيت الحياة لأجلك
تمَّيت لي ألم وتجريح ظنيتني شابكي عليك وأصيح
خلَّك طريح مكبود ينفخك ريح مهناش بدمعي يستكب لمثلك
غبني على نفسي وغبن قلبي على عذابي في سبيل حُبِّي

فالشاعر هنا يسخر من نفسه التي أخلصت وأدمنت الوفاء والحب ثم أكتشف خيبته، وهذه صورة يعلمها الكثيرون ممن أحبوا ثم مرت الأعوام والسنوات و اكتشفوا أنهم أحبوا من لا تستحق أو أنهم كانوا مغفلين وهم يتهالكون على من أحبوا ... فيتذكر المرء المحب ذلك فيسخر من نفسه.

وفي القصيدة يبدو الفضول غارقاً في أطرافها.

وعندما يسخر الفضول من الذي غش أحلامه وخانها يقول:

وأنت يا قلب فاترك من غـــدرني ولا تقبل شفاعات أشواقي وعاصي الهـــوى
وقل لمن غش أحلامي ومـــن خانهـــا بأن ما قد نشرنا من هوانـــا انطـــوى
فلم أجـــد فيـــه انـــسان ولكـــنني وجدته (الذيب) في مرعى ظبائي عوى

ولا يكتفي بذلك بل يصل بالسخرية إلى حد كبير قائلاً:

أراك قد ملت واعطيت الجفا للمـــنى وكنت في الحب تمشي في طريـــق ســـوى
أتيت في تاج كسرى يـــوم لا قيـــتني واليوم قد طاح ايوانك وعرشك هـــوى
كل القناديل منك ضوءها قد خبـــا وجاءني ليـــل داجـــي في وجـــودي أوى

وتلك سخرية محبوبة، لكنّها سخريه من الذات،لأن الحبيب هو الذات التي توحدت في ذات الشاعر، ولكنها انقلبت فجأة فبعد أن، جاءت في عمر الورود وربيع العمر بتاج كسرى، فإن الأيوان والتاج والعرش الذي كان قد تهاوى وسقط في النهاية حـــب مؤلمـــة ومفجعة، وما يزال الإنسان المحب في اعتقاده أن المرأة ما هي إلا ظبي أو غزال أ وريم ... حتى إذا جاء المحب إليها وعاش معها وجدها ذئب يعوي... ولعمري فإن تلـــك ســـخرية لاذعة من المرأة التي أنكشف قنعاعها، وسقط عن وجهها القناع ليبـــدو وجـــه وعـــواء ذئب....

وقديماً سخر رجل من نفسه أولاً ومن خطائه ثانياً، ومن امرأتين تزوجهما معتقداً بأنه سينعم في دفء وحنان (نعجتين) فنظر له فيما بعد وأنه وقع ضيحة بين ذئبتين -- وكما أشار الشاعر القديم إلى زوجتيه بالذئبوية، أشار الفضول بأن المحبوب قد يكون ذئباً يعوي بطبعة المفجع.

وكما امتدت السخرية التي ترسخت في أعماق الفـــضول إلى أشـــعاره العاطفيـــة والغنائية، امتدت إلى ذوقه الشعري، وحسه النقدي للشعر، فقد ظل الفضول يسخر مـــن أشعار كل من غنى لهم أيوب من الشعراء قائلاً له (ايش معك جالس تلفلف.. أرجم ... أرجم).. إلى أن سمع قصيدة واطائر امغرب للشاعر علي عبد الرحمن جحاف فقال: هذا هو الشعر والحقيقة أن الذي يقرأ ديوان الفيروزه ويتعمق في كلمات ومعاني الديوان والأشعار الغنائية الأخرى لعذر الفضول لأن الرجل أمتلك حساً نقدياً رائعاً، دفعه إلى أن يكون الناقد الأول لأشعاره بحسن اختياره لمعانيه ومفرداته.. ومن يتعمق في أشعار الفضل فـــإن ذوقـــه يرتقي إلى حد أنه يصل إلى طول من يلامس بأنفه جدار السماء.. فخراً وإعجاباً وإجلالاً لشعر الفضول...

ولذلك كله استطاع الفضول أن، يعمل على توظيف موهبته في السخرية في أشعاره السياسية والتي تحمل الهموم العربية على عاتقها فيلبسها ثوب السخرية التي تقطر بدموع

البكاء وبدموع الضحك العنيف، وهي سخرية يتفوق فيها على عمالقة الأدب الساخر في الوطن العربي ابتداء بالشاعر / أحمد مطر وانتهاء بالساخر الصحفي / محمود السعدني في مصر.. إن جاز لنا الانصاف وقول الحقيقة.

وفي عام ١٩٥٩م – ساهم في الجملة الإعلامية التي قامت من أجل بناء (كلية بلقيس) في الشيخ عثمان حيث أصدر كتيب بعنوان (المعرفة سلاح المعركة) إلا أنه لم ينشر باسمه،.. وتم إدخاله إلى شمال الوطن آنذاك.. وفي ذلك الكتيب من الجدة والسخرية بالوضع المعرفي والدعوة إلى العمل والمعرفة.

الفضول الساخر في ديوان الفيروزه:

وقد نستعرض بعض العبارات التي تقطر بدموع السخرية من الذات ومن الواقع ومن الحب، ومن انقلاب الحال.. وهكذا:

فغدرنا بهوانا / وقسمنا الدموع ارثاً حزيناً / في ذمة الضياع كلانا / حبنا كالضرير / لن تعيد الدموع حباً غدرناه / نثرتنا الريح لليل / خدعتنا الظنون / الحب من لوحه العظيم محاناً / وسقطنا من السماء / وهجرنا الضحى / ورأي البوم والزاحف والأشباح تأوي بحيث كان هوانا.

لم يكن ما بنا من الحب إلا لؤلؤاً.. فوقها أدرنا رحانا
إذ صغرنا به على الحب كبراً فانتهينا حرائقاً ودخانا
وهوينا من السماء وقد كا ن على وجه فجرها مستوانا
وسقطنا على التراب رماداً، بل وأدنى من الرَّماد هوانا
والمحبون أهون الخلقِ – في الخلقِ – إذا كان فيهم الحبُّ هانا

فالديوان قائم على فن السخرية، وتكاد تكون السخرية الوجه البارز في الديوان، وهو أمر يعود إلى أسباب كثيرة أهمها على الإطلاق:

١- الحس الساخر أو المزاج الساخر الذي تمتع به الفضول، وطبعت عليه نفسه، وهو الأمر الذي دفع به إلى أن يكون رائد الصحافة الساخرة في اليمن، والأب الروحي والمؤسس، ولا شك أن السخرية متطورة، فهي تبدأ كأي بداية، ثم تنضج وتستوي بترادف عدد من العوامل المساعدة على ذلك ومنها ارتقاء المستوى للشاعر نفسه،وهو اتقاء وتطور يمر به كل أصحاب المواهب المختلفة، وارتقاء لوعي المجتمع أيضاً وهو ارتقاء ينعكس أيضاً على الشاعر الساخر نفسه.

٢- أن الظروف التي نشأت فيها صحيفة الفضول، كانت في حاجة ماسة إلى الفضول و سخريته من الواقع المحيط.

٣- أن التطورات الحياتية والسياسية والاجتماعية التي لحقت بعد قيام الثورة اليمنية.. جاءت بواقع جديد وهو أمر كان بحاجة ماسة إلى شعر ساخر ليعمل على تعريته

وكشفه، باعتبار الأدب مرآة للجميع بكل تفاعلاته، ولأن الفضول أتجه في فترة حرجة من حياة المجتمع إلى شعر الأغنية العاطفية، والأناشيد الوطنية، أما الشعر الساخر فقد أستثمر موهبته فيها، من خلال كتابة القصائد الطويلة والعمودية والتي لم يكن ينشرها، ويكتفي بقراءتها للأصدقاء أثناء جلسات المقيل ومن تلك القصائد، كان ديوان الفيروزة، ولذلك قد يحس القراء عامة بغياب الفضول الساخر عن الصحافة التي كان له لواء التأسيس والبناء، وهو أمر حقيقي، لكن الفضول أثبت جدارته في شعر السخرية المريرة التي كان يقصد من ورائها إصلاح الحال بالنظر إلى العيون ....

والفضول بشعره السياسي أثبت وطنيته فهو لم يجرح أحداً، ولم يتناول أسماء، وإنما يأخذ القصيدة من هم كبير ومفهوم أكبر فيضع المرآة أمام الجميع عرباً كانوا أو غيرهم، حتى أن عناوين قصائده تحمل تلك النكهة الجميلة من السخرية مثل (ركاب المجانين / معبد الأوثان / الخوازيق / عرباً كنا / النواميس / صانعوا الأحزان ... ولابد أن هناك قصائد أخرى لم تظهر بعد، تقطر بالسخرية).

والفضول شاعر سياسي من الطراز الأول، لأنه سياسي المزاج، والسياسة أغرته لدخول عالمها، ولكنه بنفس الوقت الذي يعنِّف أبناءه وإخوانه وأبناء وطنه – كما أسلفنا في باب الهم الوطني – كان يتغنى بوطنه اليمني وأناشيده تملأ إعجاباً وزهواً ورجولة.

فنجده في قصيدة ركاب المجانين يطلق على من يأكلون خيرات الوطن، تسمية لطيفة وساخرة وبأنهم من أحفاد وأتباع أشعب، ذلك الرمز العربي الذي أشتهر بالنهم والجوع المتواصل، ويتساءل: أي شيء أتى من أشعبياتهم؟ أو طموحات لهم أخلاقها لم تجدهم يستحقون العقاباً فهو ينعت ويصف أخلاق طموحاتهم التي هي أطماعهم – وليس أخلاقهم – فهم بلا أخلاق – ولذلك أتجه إلى أخلاق طموحاتهم أو أطماعهم التي هي أيضاً لم تجد فيهم من يستحق منهم العقاب على أشعبياتهم ونهمهم الذي لا ينتهي، وحتى أن الأسباب التي يبدونها وهم يتعاقبون واحداً تلو الآخر لا يبدو عليها من فضل ثيابا – فهي عارية – حتى وأن كانت ثياباً زائدة عن الحاجة، إضافة إلى التورية في كلمة فضل – فهي قد تحمل معنى أخلاق أو مثل أو خير، فالأسباب التي يتحججون بها عارية ولا أخلاق أو خير فيها، فهم أذلوا العقل نبذاً واجتنابا، ومن الذي ينبذ العقل أو يجتنبه سوى المجانين؟ ثم إن هؤلاء المجانين أقاموا للمجانين قبابا، لإظهار القداسة في جنونهم، زيادة في السخرية بمن يعمل على إذلال العقل أو العقول، ووضعهم في موضع المجانين، ثم جعل منهم سخرية لغيرهم من المجانين الذين يبنون لهم قباباً لا فائدة منها، سوى أن المجنون يتحول إلى قبة أو مهوى للمجانين.. (واحتووا ملء مراعيهم ذئابا، وتزداد السخرية عنفاً باجتماع المجانين والذئاب في مرعى واحد، ويواصل الفضول السخرية العنيفة هكذا:

إن هؤلاء المجانين أبدلوا الفراشات التي تحوم حول الزهور بالذباب، ولما فرغت أوعية العسل ملؤها بدلاً عنه لعاباً، وبدلاً عن عمل الخير جعلوا الخطايا ملء أسماعهم / يقابلها أقاموا للمجانين قباباً ويقابل ذلك أيضاً / واحتووا ملء مراعيهم ذئاباً (ذل / جنون / ذئاب / ذباب / لعاب / خطايا /) وكل تلك تقابل (العقل / الحرية / الأمناء / الفراشات / الشهد / الخير).

ويسخر الفضول من حيرة الذين يريدون التبجيل، ويطلبون أن نمنح الأثم ثواباً على ما يفعله من شرور،ومن محاباة السوء، ويسخر من إثابة الناس لمن يشقيهم بجهدهم وأخلاقهم، أو من يرون أن مقت وكره السوء.. هروباً من الفضل وعمل الخير، أو أن مقت السوء لديهم أبق وعصيان وهروب واغتراب وتفريق..

ويسخر من استسلام الناس للبلاهات والسخافات دون محاولة لدخول باب الفهم أو الثقة بعرى الزور، فالزور ليس له عُري، لأنه أوهى من خيوط العنكبوت، ويسخر منَّا لأنَّنا صغنا لكل مفتون ومجنون بالعظمة – بالعبقرية، ونزيد الطينة بللاً ونحن نصوغ هذه الصفات في كتاب وكما قال الشابي:

حتى العباقرة الأفذاذ حُبهمُ يلقى الشقاءَ وتلقى مَجدها الرِّمَمُ

مثل الكتب التي تناقش فكر الزعامات في الوقت الذي لا تملك فيه أي سوى فكر الدبابه، فالرمم يتم تمجيدها أما العباقرة الأفذاذ فإنهم يموتون بعبقرياتهم دون أن يخلد ذكرهم أحد..

ومنحنا كلَّ عكَّاز حمائلَ سيفٍ، وغمدناه قِرَابا

وهل يمنح العكاز حمائل السيف، أو يغمد في القراب، لكن البيت صورة من تلك الصور التي تنير لنا الطريق، وتشعل المصابيح في عقولنا، كي لا نصف أو نطلق العبقريات على من لا يستحق.. وما أشبه هذه السخرية.. بسخرية أبي العلاء المعري التي تقول:

فإن كان في لبس الفتى شرف لـه فما السيفُ إلا غمدُهُ والحمائلُ
فوا عجباً كم يدَّعي الفضلَ ناقصٌ ووا أسفاه كم يُظهر النقصَ فاضلُ
إذا وصف الطائي بالبخل مادرٌ وعيَّر قساً بالفهاهة باقلُ
وقال السُّهى للشمس: أنت خفيَّةٌ وقال الدجى للصبح: لونك حائلُ
وطاولت الأرضُ السماءَ سفاهةً وفاخرت الشهبَ الحصا والجنادلُ

ونحن كم تنازل عن الصدق في الأشياء والناس.. محتسبين ذلك خيراً نفعله بين أيدينا، وهي لفتة دينية، فحيثما يجب أن نعمل الخير احتساباً للآخرة، كان حالنا عكس ما يجب بتنازلنا عن الصدق، ودخولنا رحلة الأفك، وهل الافك رحلة، أنَّ ما نحن عليه يصور لنا أن الافك وأحراشه – كما نعتقد – ولنخوض الظلام والضباب، ولا ندري أين نحن؟

والسخرية مما نحن عليه من تصور واعتقاد خاطئ، وبأن الافك والكـــذب هـــي الرحلـــة للسعادة، وهو اعتقاد واهم لأننا قد تنازلنا عن الصدق في الأشـــياء والنـــاس، اعتقـــاداً بغيره...

ونتابع الصور الساخرة هكذا:

وسرنا مع السؤآت والسوء صحابا/ كلُّ من جاء حشرنا حوله أنفسنا / وحملناه على أعيننا / وبدا طاؤوساً فيها غُرابا / ومضت أعيننا تذرع / حفرٌ قد ملئت ملحاً مذابا ... و:

أيُّ تاريخٍ لنا لم ترانـــا فيـــه يومـــاً للمجـــانين ركابـــا
كم بمجنونٍ ركضنا فرحةً.. وصهلنا تحت مجنون طرابـــا
نتراءى آدميين، وكـــلُّ الوقاحـــات رأتْ فينـــاً دوابـــا
وَعَلَتْ أفواقنا مزهوةً أنهـــا تركبنـــا خـــيلاً عرابـــا..و

وسخر من الذين أدمنوا الذل ببشاعة واستحالة زواله عنا:

نحنُ مُتنا يوم مات الرَّفضُ فينا واسلمنا المهابـــات الرِّقابـــا
والتزمنا أدباً.. لا تجدُ البـــصقةُ في أوجهنـــا منـــه العتابـــا
فلو أنَّ الذُلَّ لم يأت بنا من مُذل لاغتـــصبناه اغتـــصابا..
وسنحيا عندما تأتي الكراماتُ تنفي عن نواصـــينا التُرابـــا

فهل ستأتي الكرامات لتزيل عن نواصينا التراب والذل؟

وفي قصيدة معبد الأوثان.. من ديوان الفيروزة ص (٤٢-٤٨) يسخر من الراية التي تكون للحق كفناً، وممن يدخل الأوثان أو الحكومة لكي يعيد عقله وثناً – غسيل مـــخ – ويسخر من الذين يعطون للحروف مهنة الكذب أو الأفك، أو يجعلون الحـــروف لعبـــادة الأوثان..

أحرفي .... لا تكذبي
أحرفي ... لا تأفكي..
فلقد أعددتُ أجنابي، وأصبح وجداني لخوفي مُدْمِنَا
لا تكتبي منِّي نفاقاً .....الخ.
إن غاباتي، وفيها الاسدُ هشَّتْ
ماتت الاسادُ..
أمْ وَلَّت فرارا..
لم يعد في غابتي غيرُ ضباع
عليها الذئب.. يستوزرُ فأراً

وينتقل الفضول بنا في آخر القصيدة إلى قوله معبراً عن أشواقه الكثيرة ومنها:

أنْ أُلاقي النـــاس، لا يبقـــى بهـــا، عِشْقُها للسَّوطِ.. إلى الـــسوط حنينـــا

وهي صورة أعمق من صورة الزبيري التي تقول:

وإذا ثوت بين الـــضلوع بهـــائم قويت على حَمْل العصا الأجسامُ

وهذه صورة من صورة.

وهذه القصيدة معبد الأوثان من القصائد الجادة للفـــضول،ولكن ســـيطرة مـــزاج السخرية الذي في نفسه عليه يدفع به إلى أنه لا يدع سانحةً تسنح ولا موقفاً إلاّ ويـــشبعه سخرية وإيلاما، ويصل الألم إلى إيلام الحروف.. الكاذبة أو الآفكة.

وقد يمدُّ لنا القارئ أسباب العذر، حرصنا على رصد ما نستطيع عليه من العبـــارات الساخرة التي يتضمنها الديوان، وبما بنا من طاقة لخدمة هذا الديوان في شـــخص صـــاحبه الذي أنطق أنفساً، وأعلى أذواقاً، وهذَّب عقولاً.. وصعد بنا إلى آفـــاق اللغـــة والـــشعر والتجربة على بساط سحري من الموهبة التي قلما تتكرر بين العصور، فهذا الديوان قـــد أستغلق فهمه على كثير من الناس – كما كان الحال معنا منذ صدوره – حتى جاءت أيام أصبح بالإمكان إعادة قراءة الديوان قراءة متأنية عميقة بصبر وجلد، وبارتقاء فهم وذوق، وعندئذ، سيتضح للقارئ المدى الذي وصل إليه الفضول وهو مدى لو تعملـــون بعيـــد، وعميق، وبعده في آفاق رحبة، وعمقه عمق ما لا نعلم ولذلك ولغيره مـــن الأســـباب في صحبة عملاق عظيم لم يأخذ حقه لا إعلامياً ولا وطنياً ولا أدبياً من النقاد، ولعمري كأن الرموز تخاف أن تفقد ما هي عليه من طول، وتقديس وتبجيل، متناسية أنه لا تقديس ولا تبجيل، و لكنه شموخ وكبرياء، واقتدار وبلوغ معرفي وصور بلاغية متناهيـــة في الروعـــة والبلاغة والأخذ بمجامع لب من يقرا فيفهم، وسخرية لاذعة متميزة كمدرسة بل ومذهب قائم بذاته وامساك بزمام الشعر وخراطيم الألفاظ، وقوة في بناء القصيدة منذ أول بيـــت وحتى آخر بيت، وقد تطول القصيدة لتبلغ أكثر من ثمانين بيتاً عملاقاً لا يمكـــن لـــك أن تستغني عن بيت واحد، ومن الأبيات من تمثل عملاً وموضوعاً قائماً بذاته،.. ومن الأبيات ما تترابط بعضها..ببعض، ومتى فهمت وأدركت المعنى استطعت أن تصنع من تلك الأبيات المترابطة، قصائد قائمة بذاتها، فلا حشو ولا لفظ زائد،بل معاني تنثال عليك كما لو كنت تهز نخلة لتساقط عليك رُطَباً جنياً، وتقودنا فلسفة الطبيعة إلى فلسفة الحب، وفلسفة الحب تذهب بنا مرفرفين إلى فلسفة الطبيعة،لأن فلسفة الطبيعة وفلسفة الحب جناحان من أجنحة النفس الإنسانية السوية..

وهـــو الحَـــبُّ الـــذي هندســـني تحت هذا الضوءِ إنـــساناً ســـويًّا

وحتى لا يأخذنا الشوق إلى أشياء سنأتي إليها، وستأتي إلينا هـــي بفـــرح عجيـــب وإعجاب جديد، وهو أمر حبيب إلى نفوسنا، وقريب إلى قلوبنا وملامس لمنى العقول، ومنى

الملائكة، وأحلام المعرفة، والثقافة والإطلاع، وبقدرة على الإلمام بكل ما هو جميل حولنا في الطبيعة والحياة والثقافة والشعر والنثر والسياسة والحب، لأن ما كنا فيه، وما نحن فيه وما سنكون إليه مع جمال لا يقدر أحد على وصفه، وليس بالوسع إلا أن نطير كالفراشات في كل الدروب، لنغني مع العصافير والبلابل، ونسافر مع نسيم البحار والجبال والأودية والسهول، إلى أن يقال: ((إن فلاناً مجنون)).

لأن جنون الجمال.. أعظم الجمال وأحب ألوان الجنون.

وكما هو جنون الحب أو موت المحب بالحب أعظم الحب على الإطلاق.

ورحلتنا مع مزاج الفضول الساخر، ليست برحلة هينة أو سهلة، وإنها رحلة كأعظم الرحلات – كلها – قاطبة.. فهي رحلة الواقع والماضي والمرارة والعجب العجاب،.. ومع ذلك هي رحلة سنصل بها ومعها إلى ما يجب أن نصل إليه وهو أمر سيتضح لنا ونحن معاً،... أما قال المتنبي:

عيدٌ بأية حال عُدْتَ يا عيدُ ... بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ
أمَّا الأحبة فالبيداءُ دونهم ... فليت أنها بيدٌ دونها بيدُ
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي ... شيئاً تتيمه عين ولا جيدُ
يا ساقيَّ أخمرٌ في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما همٌ وتسهيدُ
أصخرةٌ أنا؟ مالي لا تحرِّكُني ... هذي المدام ولا هذي الأغاريد
أني نزلت بكذّابين ضيفُهُم ... عن القرى وعن الترحال محدودُ
جودُ الرجال من الأيدي وجودُهُم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجودُ
ما يقبض الموتُ نفساً من نفوسهم ... إلاّ وفي يده من نتنها عُودُ

وهكذا هي النفوس في شعر الفضول السياسي الساخر..

إذا النفوس النتنة والملفوفة في دخان، لفها فيه دُجاها، وجرَّها السوء إلى أدغاله، النفوس العاجزة والمنافقة، والتي ترى الحب عاهة والتي نشأت في الجهل، وترعرع في جنبيها قلباً جاهلياً، وفي أعماقه وحشة، والآثم في أعصاب صاحبها، والنفوس التي تحيي أصحابها مرجوفين أشقياء بعجرفتهم وهبوطهم،وهزلهم، وحلكة أنفسهم وارتجافاتهم ووحولتهم، وهشاشتهم، وشؤمهم و سؤئهم ودماماتهم ومقتهم، وخزيهم، وفسوقهم، وأحزانهم / وصرعهم وصرعاهم وقبحهم الصفيق، وبلادة أحاسيسهم ونفسهم الترابية الملتصقة بالتراب، كل تلك لتدفع رائحتها الكريهة، – هكذا قال المتنبي وهكذا قال الفضول:

ليتَ أنَّا نقدر أن نـــسكبَ بعـــضَ نـــدانا يـــا حبـــيبي في لظاهـــا
كم كسوف يعتري الشمس.. ولكنه لا يسلبُ الشمسَ ضُـــحاها
رُبَّ عملاق طوى قامَتـــه ... لم يقـــصُرْ طولُـــهُ حـــين طواهـــا
وتعالي القزمَ لا يُعطي لَـــهُ ... قامـــةً، حـــتى ولـــو صـــار إلهـــا

فالبيت الأول جاء بعد أن سخر الفضول من النفوس التي ذهبت بها أحقادها وعماها إلى الأدغال، وتلك صورة للفضول مع من ينتمي إليهم من العرب.. وحين ينقلب الحـــال فيتعرض وطنه إلى محاولة لوضع النار في ازهاره يقول:

ليس منا أبداً من فرَّقا
ليس منَّا أبداً من مَّزقا
ليس مَنا أبداً من يسكب النار في أزهارنا كي تحرقا

.. ولكن ما الذي دفع الشاعر إلى هذه السخرية التي امتدت وأمدَّت؟

لا شك أن ما دفعه هذا:

ووجدنا ملءَ دنيانا الفقيره..
غَنماً يلعقنَ جدرانَ حضيره..
منهكات في الصراعات الحقيره..
بقرون قَد تحاطمن كسيره..
يتناطحَن على أكل حصيره

******

لم نجد في دارنا شيئاً سوى
قحطها الخالدُ.. يصليها سعيره
في الحب وفي الخير ...
وفي صفو السريره

******

يا مصابين بعلم الجهل مَنْ
فيكمُ العارف والداري مصيره؟
إنَّ علمَ الجهل لا يعطي مُصابيه إحساساً بفقدان البصيره
خَدَرٌ، صاحبه يحسب رقدتَه فوق الخوازيق وثيرَه.

وفي قصيدة هدية الله يسخر الشاعر من الإنسان الذي لا يـــصل في إحـــساسه الى أحاسيس الوحوش الرقيقة التي لا تؤذي المحب كما يؤذيه الإنسان..

مواطنُ الوحش جئناها – كأنَّ بها – مـــسارحاً للـــهوى فيهـــا تناجينـــا

فلو أتى الوحشُ فيها بعدنا لـــرأي ضوءاً بها من بقايا ضـــوءِ وجهينـــا
ولـــو رآنـــا لأعطتنـــا براثنـــهُ من الوداعة حـــضنا فيـــه أغفينـــا
فما لبعض قلـــوبٍ لا تريـــد لنـــا شيئاً سوى الشوك مرشوقاً بجنبينـــا

حتى أن الفضول عندما يتناول الأمة العربية بسخريته اللاذعة فإنـــه يـــسخر منـــها بكلمات موزونة معنى، ومعان قاسية وغير جارحة فلا يعرض بأحد لأنه ينظـــر إلى عمـــق وبعد..فهي أمة عربية ونحن:

لم نكُنْ في روحها يوماً سوى جَـــرَب هَرشُـــهُ داءٌ وبـــيلا
نحنُ مهزومون في أنفسنا لم نجـــد يومـــاً إلى نـــصرٍ ســـبيلا
كلّما سرنا زحوفاً ترجفُ الأرضَ عُدنا فوقها نحبـــوً فُلُـــولا
ورجعنا الدَّارَ إمَّا قاتلاً غلـــبَ الأخـــلاقَ فيهـــا أو قتـــيلا
عَرَبَاً كُنَّا وأعرابـــاً غـــدونا فقبيـــلٌ ماقـــتَ منَّـــا قَبـــيلا
قَدْ تبرأنا من الرُّشد فجانبَنـــا الرُّشـــدُ، وجافانـــا رحـــيلا
أبداً – نحنُ – ورائيون، عمي الطموحات صعوداً ونـــزولا
لا أماميون نمشي، لنـــرى مبتغانـــا ممكنـــاً أم مـــستحيلا
يلطم الصخرُ قفانا فندور، لكي نسقط عجـــزاً وذهـــولا
وإذا قمنا من الصرع بنا فلكي ننهضَ سحَّابين للمجد ذيولا
أيُّ مجدٍ لكسيح مُقْعَدٍ أتعبَ الأســـيافَ مـــشقاً، وصَـــليلا

مجدُنا عاهاتُهُ لو شُفيَتْ لا قترضنا الحقدَ، والعاهات قَرْضـــاً
والشماتاتُ بنـــا شَـــامتةً أنَّنـــا زُمْـــرةُ أقـــزامٍ ومرضـــى
أننا في صغَر الطفل، وإنْ كبُرَت أجسامُنَا طولاً، وَعَرْضـــا
أنَّنا عشاقُ غدرٍ، وفـــساد وصُـــنَّاعُ رداءآت، وفوضـــى
وبأنَّا رهطُ حقدٍ، بعضُنا يطَّلبُ البعضَ، ولا يطَّلبُ أرضـــا

نعم.. ولا يطلب أرضا.. صور ساخرة تهز أعماقنا، وتحاول أن تصل إلى مكمن الداء دون تجريح لأحد أو شتم، ولكن منطقية وعقلانية.. وسخرية قاسية من أنفسنا، وليس من أحد غيرنا...لأننا نحن والعيب فينا.. فلم نكن في الأمة العربية سوى جَرب هَرشه.. فلفظة (جَرب) و (هَرشُهُ).. بؤرة سخرية بلغت مدى – لتهتز نفوسنا – في أرواحنا ... فـــنحن مهزومون في أنفسنا، – لأن الله لا يغيِّر ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم.. قـــال الـــشاعر الساخر أحمد مطر:

وإذا بنا مِزَقُ بساحاتِ الـــوغى وبواســـلٌ بوســـائل الأنبـــاءِ

نَـــرِثُ العنـــاءَ مُـــضَاعفاً ونـــورِّثُ الـــضَّعفين للأبنـــاء
ونخافُ من نسائنا ومن أولادنـــا ومـــن الهـــواء إذا أتـــى بهـــواءِ
موتى، ولا أحدٌ هُنَا يرثـــي لنـــا قُمْ وارثنـــا يـــا آخـــرَ الأحيـــاءِ

فإذا ما سرنا زحوفاً، فترتجف الأرضُ تحتنا.. عدنا نجرُّ أذيال الهزيمة. وقد تمزَّقنا شـــرَّ ممزَّق لأننا غثاء كغثاء السيل، وهزيمتنا من الداخل في أنفسنا، وإذا ما عدنا إلى ديارنا قتلنا الأخلاق فيها، أو صرنا ضحايا لمن يغلب الأخلاق في نفوسنا.. والأخلاق عند الفضول هي المبادئ والأهداف التي كانت في سبيلها كل التضحيات.

عَرَباً كُنَّا، وكُنَّا عربا. وأعراباً غدونا، فالعرب هم المتحضرون، أما الأعـــراب فهـــم الأجلاف الذين لا يفقهون شيئاً، والمقت الذي بيننا نحن الأعراب كان سببه ما عليه نفوسنا وعقولنا من جلافه وصلف،.. ولأن الأحاسيس بالانتماء العربي أو الأعرابي متوحدة قلبـــاً وعقلاً ونفساً فلا نستغرب عندما يطالعنا شاعر بشعور شاعر آخر، وباختلاف زمني بينهما أو بين قصيدتيهما أو بين خواطرهما، ولكن تبقى الحقيقة قائمة، وأيضاً من الذي تفوق على الآخر.. شعراً وصوراً وفكراً ونبض ضمير؟.. ألم يقل نزار قباني في قصيدته الشهيرة (أنا يا صديقة متعب بعروبتي).. والتي ألقاها في جامعة الدول العربية في تونس عام ١٩٨٢م:

أنا يا صـــديقة مُتْعـــبٌ بعـــروبتي فَهَـــلِ العروبـــةُ لعنـــةٌ وعقـــابُ
لولا العبآءات الـــتي ألتفُّـــوا بهـــا ما كنتُ أحسبُ أنَّهـــم أعـــرابُ
يتقـــاتلون علـــى بقايـــا تمـــرة فخنـــاجر مرفوعـــةٌ وحـــرابُ
قبلاتُهم عربيـــةٌ ... مـــن ذا رأى فيمـــا رأى، قُـــبلاً لـــه أنيـــابُ
ولقد تطيرُ مـــن العقـــال حمامـــةٌ ومن العَبـــاءة تطلُـــعُ الأعـــشابُ
وإذا قسوتُ على العَروبـــةِ مـــرةً فلقد تضيقُ بكحلهـــا الأهـــدابُ

أما أشار الفضول إلى المرتجف ساخراً:

عاجزٌ لو أنَّه قد سَلَّ سيفاً ... لأعطى السيف عجزاً خشبيًّا
أيُّ شيء قادرٌ أنْ يقلبَ الحالكَ الـــنفس حَميَّـــاً مُـــضَرِّيًا
ألفُ سيفٍ في يَديْ مرتجفٍ... لا تراها عَينُـــهُ إلاَّ عِـــصيًّا

فسار بنا القبح إلى طرق الأدغال التي لا نجاة منها وسخرية الفضول صورة داخـــل صورة، فنجد أنفسنا في صور متداخلة (القبح / الأدغال / السوء / تشوهنا من الحقـــد / طول الألسن / سحَّابين / مجد كسيح / الأنياب / التحطيم / الـــركض / الـــشد / غابـــة الأنياب / الحقد / العاهات / الشماتات / صغر الطفل / عشاق غدر / صُـــناع رداءات / صُنَّاع فوضى / رهط حقد / نطلب بعضاً ولا نطلب أرضاً).

عَرَبـا كُنَّـا، وقـد متنـا علـى بعـضنا بعـضاً دنـاءات وبُغـضا
أنَّنـا عـشاقُ غـدر، وفـساد وصـنَّاعُ رداءآت، وفوضـى
وبأنـا رهـطُ حقـدٍ بعـضناً يطلب البعضَ، ولا يطلـبُ أرضـا

وفي قصيدة أغنيات الشمس.. يتبدى الفضول حزيناً وساخراً من الناس الذين أضحوا يرون الحب عاهة وعيباً، وهو يرى أيضاً بمرارة، الناس في نفاق قبيح للسوء، ويعتبرون ذلك ذكاء أو أسلوباً للحياة على قاعدة (حسِّن وضعك)، وبنفاق الناس للسوء، تصدر السوء حياة الناس، وأضحى الخيرُ منبوذاً رزَّياً.. ومن مرارة السخرية يقول:

وإذا الافـكُ أمـيرٌ.. أمـرُهُ وإذا موسى يُحِـبُّ الـسامِرِيَّا

وهذه الصور الدينية صوره قاسية لأناس يريدون أن يظلوا ويُضِلُّوا، وهي صورة لإبراز ما انقلب، والفعل (يحب) إسقاط على ما نحن عليه.

والأبيات مشحونة بالسخرية فمن شاء عاد إليها، لأن لذة قراءة شعر الفضول لذة روحانية، لذة جلد الذات الأنانية، ولأن الوهم يعشعش في عقول الناس.. وهم يأملون بأن يجدوا الحب من جاهل نشأ في الجهل، وفي جنبيه (قلباً جاهلياً)، فالأوهام والشكوك والرِّيب تجعله مرجوفاً شقيا، ونفسه في فزع من العلم لأنه بما فيه من جهل يرى في العلم دماراً خلقياً.. وهل في العلم دمار خلقي؟ وهي صوره ساخرة تفيض بالغيض والألم تطابقها قصيدة الزبيري التي نظمها بعد عودته من القاهرة.. ومحاولات الإمام لاغرائه بأن يكف لسانه ويترك الثقافة والناس والعلم جانباً.. فقال ساخراً في قصيدة (مصرع ضمير):

مُتْ في ضلوعك يا ضميرْ وادفن حياتك في الصدور
لا تطمئن إلى العدالة فهي بهتانٌ وزور
لا تنسبن إلى الثقافة فهي داعيةُ الثبور
لا تطمئن فلستَ أكثر في الحياة من الحمير
لن ترتدي غير اللجام ولن تذوقَ غير الشعير
فإذا نظرْتَ دُجَى فأعلن انه الصبح المنير
وإذا ترى الشيطانَ عربيداً فقل ملكٌ طهور
لا تنه عمَّا قد تراه من الفظائع والشرور
فالنصح من شؤم الفضول ومن أضاليل الغرور
آه. لمصرع أمة دُفِنَتْ وما برحت تسير!
كانت أسودُ الغابِ وهي اليومَ دودٌ في القبور
يخشى التنفسَ في هواءٍ والتحرك وسط نور

ولا يكتفي الفضول بالسخرية العابرة بل إنه يشبع من يقصده بالسخرية، وكأن أبياته عاصفة من السخرية،لأنه لا يريدها سخرية عابرة بل يريد تجسيمها تماماً ليكون لها أثرهـا وعمقها، ولذلك يتابع سخريته الحادة قائلاً:

بأن ذلك الجاهل هو أيضاً عجرفي، وعجرفي، فيها صورة كاملة للمتغطرس، والذي لا يرى أحداً غير نفسه، فهو عجرفي فإذا ما لاقى الرجولات دبَّ في أعضائه ذعر نسوي، لأنه في حقيقته جبان وعاجز كالنساء تماماً، وأكثر ... فهو هابط يعشق التزوير، وهو مسيخ وهزلي ولو سلَّ سيفاً لتحول السيف القاطع إلى قطعة من خشب لأنه جبان، ونفسه حالكة ومظلمة وبشعة السواد، ولذلك.. فألف سيف في يديه يراها عصيًّا، وما أصدقها من سخرية، وما أروعها من صورة لعجز العرب وجبنهم وعجز إرادتهم الخائرة.

وكما اشتدت سخرية الشاعر من أبناء وطنه، واشتدت سخريته من واقعه وسؤ حظه، فهو كُلَّما لاقى ثوباً ليكتسي به ظهرت فيه الخروق، وإذا أوى إلى نهر، جاءته ضفادع تنْزع النوم من عينه، ..... و .... و أنظر (الديوان ص ٨١). (وإذا نحلي مضت راحقة ... زهراً، سُمِّم في الزهر الرحيق). وأقسى سهام للسخرية.. مازالت مستمرة في شعر الفضول منذ البداية وحتى النهاية، وهو كلام منطقي ومرتب، ومنظَّم في إطار كبير من السخرية والقوة ...

جاهل – ما نفسه – يحسبُهَا ... جهلُه مأذنةً.. وهي طريقُ ...

فالجاهل يرى نفسه – بجهله – فوق الناس جميعاً كالمأذنة ارتفاعاً، وفي حقيقة الأمر انَّه – بنفسه – طريق يغدوا الناس ويجيئون ويمشون ويسيرون عليها – لأنها نفس دنيئة بجهلها لذاتها، ولما يجب أن تكون عليه.

فالشاعر حزين – (في ذكرى ثورة ٤٨– ديوان الفيروزه) – على من عقولهم عقول أطفال، ولم يكبر منهم غير أجسامهم.. فهي أجسام عاجزة، وعقول غبية و هم كالعرجان الذين يترنحون عجزاً. فالعجز عقدة العاجز كما هو حال عقدة الخصي (الخصيان) .... ومرارة الشاعر تنطق قائلة:

لا تُطْلقن على غراسكَ دابةً تأتي نواجذُها على الأغصان
ودعِ الدوابَ إلى أليَف رقابها أدبُ الدواب مَذَلَّةُ الأرسانَ
ومتى أفاضَ على المجانةِ غبْطةً سوطٌ يُجدُّ مباذلَ الجُّانَ
أو عانقَ الذوبانُ يوماً راعياً يقظاً أطالَ مجاعةَ الذوبانَ

(دابة / نواجذها / ودعِ الدواب / أدب الدواب / مذلَّة الأرسان / عانق الذئاب / راعياً يقظاً / مجاعة الذوبان / سوط).. وتلك مفردات من معاني،وكأنها جاءت للسخرية منَّا.. فلا تطلق دابة أو دواب على زرعك،لأن الدواب ستأكل الأغصان بنواجذها دون

تفكير ... ولكن اربط الدواب في رقابها،لأنّ تأديب الدواب لا يكون إلا بالقيود والأرسان، ولأن الخير خصم للسوء، فمتى قدَّم السوط المؤدبُ للماجنين الشكر على المجون أو سعادته بذلك ... ومتى عانقت الذئاب يوماً راعياً.. أطال جوعها بشجاعته ويقظته وحراسته الأمنية لقطيع أغنامه، وهي صور جزئية تكتمل ببعضها، فتصل إلى ... متى عانق الغرب او الشرق زعيماً عربياً لأنه كان أميناً مع قومه، فالأمين مع قومه يدفع الذئاب إلى القضاء عليه،لأنه سبب جوعهم وغياب مصالحهم.

من صور السخرية التي تحتاج إلى بحث كبير.. لا يتسع مقامه هنا..

(حقد القصور / سوءة العريان / منابر النقصان/ هشاشة العيدان / قناعة البطلان / وطني أرحني من سؤال حائر / متقادم / قد شاب فوق لساني / كم دُلِّل الأطفالُ / وألبسوا قلانس الفرسان / توثّنت فيك الصغار / كُلِّف الرشدُ الكبير سدانةَ الأوثان / وجثا شموخُ الصادقين / ضراعة الخذلان / ومشى ثرآء العقل / والمفلسون فوارس الميدان /تبادل الناس الركاكة عُملةً / سما هبوط الجهل / ضرارة العميان / اضطهدت ضوء العيون / والعابثون تجملوا وتحملوا سبح التقى وقلانس الرهبان / وتسربلوا بالألفاظ الفاخرة / وبكت الحروف والألفاظ من البهتان / حينما هَب الأثيم سماحة الغفران / دمامة الغربان / فرشت العناكب شقائق النعمان / حمائم الأفنان تصغي إلى دود الجذوع / تأتي الضفادع إلى أوجه الغدران / أباطرة الغباء / أرائك الهذيان / جهد الضحالة / صولة الفيران / حناجر الخرفان / يا ببغآء الغاب / لتُعلمي البلغاء نطق الحروف وصحة التبيان / عفونه الديدان / بسالة القرصان / جوانب الشطآن....) .

ويأتي الفضول إلى من يبيعون ضمائرهم وأقلامهم معتنقين بهم عدداً من الأديان والمذاهب والمبادئ قائلاً ساخراً متألماً:

من أين لي قلمٌ أعيش عليه معتنقاً به عدداً من الأديان
لو شئتُ من شعرى لاثمٍ مدْحةً بصقَ اليراعُ مشيئتي وعصاني

والأدب الساخر أدب عالمي وليس لليمن في ذلك المجال غير الفضول، فهو رائد الصحافة الساخرة، ورائد الشعر الساخر، ورائد الأمزجة الساخرة، لأنه فطر على ذلك، وولد في مأساة، ومتى كان الإنسان ساخراً، ووجدته البيئة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية الدافعة المغذية للمزاج الساخر، اكتملت أركان الفن والسياسة الدافعة والمغذية للمزاج الساخر، اكتملت أركان الفن وأركان السخرية،فكان رائداً وستظل كذلك لأنه فلتة زمنية لا تتكرر.

– وفي النواميس من ديوان الفيروزه – سؤال عربي.. الأحلام التي تلبس العري وتخلع الحلل، والضعف الذي يرتفع رماحاً وتروساً، – عجز الشاعر أن يرى ...

١- قطيعاً قد صار جيشاً جحفلا.
٢- ذئباً قد صار داجنة أو حملا.
٣- عواء الذئب قد صار روح ليث.
٤- ضيغماً في الغاب لا يرعشه من سعلا.
٥- زقاقاً أو قاعاً قد أضحى جبلاً.

فلا يؤاخي النجم إلا من يغتسل بالضحى كل يوم، لأنَّ من يحبو على الأرض – ويألفه القاع – يؤاخي الوحل، والشر إذا أشعل حرباً على الخير، قتل نفسه، لأن من في روحه حنظلة، لا يلاقيه الناس إلا حنظلا، والنفوس المرة تنتهي حلاواتنا ونحن نحاول أن نهزم فيها العلقم دون جدوى، فالجمر لا يقطر ماءً بارداً ،فالثعبان الأرقم، مؤذي – اسماً وجسماً وفما – فهو يكره النرجس والورد رغم انه رضع العطر رحيقاً فيهما، ولا يرى في العشب والخضرة إلا أنهما إثمان قد صار بريئاً منهما.

(الحافل بالأسواء / يا مالئاً نفسك ظلماً / لا قيت فيك أشباحاً / وليلاً مظلماً / مأتما / مَغرما / أظلما / همجي النفس ... الخ).

.. وفي قصيدة (صانعوا الأحزان – سؤال عربي – من ديوان الفيروزه..

الشاعر يسخر ممن جاء ممتدحاً وقاحات الحروب ووجه الذنوب، ومن يسعى به إلى الغروب، ويرهب إحساسه ريبة، وارتجافاً، ومن يحطبون طمأنينة النفوس، والقلوب، ويسخر من النفوس التي يكمن فيها وحش من الشك يعطيها ضراوات النيوب ويتساءل الشاعر ساخراً:

كم سيبقى السوء في الناس صناعه، فيرتفع الهابط، ويرى الناس في الصدق انحدارات – والعفاف عن الأثم هبوط ووضاعه، وكيف يسير الخير عرياناً؟!

ويسيرُ الخيرُ عرياناً كضيف لصوص سرقوا منْهُ مَتَاعهْ

(صانعوا الأحزان / كم سرتم فوق شرف الخير / سكبتم عهراً / عجزاً وإعياء / يا خفافيش / رداءات / قبح / بشاعة).

كم سنبقى لا ترى أسواقنا غير سوقياتنا فيها بضاعه
وترى أجبن الناس تمارسُ فيها الغشَّ شارين وباعه
قَصُرَ الرُّشدُ على قاماتنا ومشى في طولها سنُّ الرِّضَاعَهْ

هكذا هو الفضول، ولد ساخراً وعاش ساخراً، وأحب ساخراً، ومات ساخراً – رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وهدانا إلى الصواب.

نعم ... وُلد ساخراً مما وجد نفسه فيه من واقع مؤلم وعاش ساخراً ورائداً للسخرية من خلال صحيفة الفضول التي أصدرها في عدن.. وأحب ساخراً فيما صار إليه قلبه من

ظمأ، ومما صار حوله من عمى، فتوجه ساخراً منهم، إلى أفياء الحب حب الوطن وحب المرأة، ومات ساخراً من زمنه الذي جاء إليه وكان فيه ... كما قال صاحب:

بمَ التعلُّلُ لا أهلٌ ولا وطنُ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ
أريدُ من زمني ذا أن يُبلِّغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ
لا تلق دهرك إلاّ غير مكترثٍ ما دامَ يصحبُ فيه روحَكَ البدنُ
فما يدومُ سرور ما سُرِرْت بهِ تجري الرياح بما لا تشتهي السفُنُ

وقد يكون الشاعر أكثر الناس تشاؤماً وأحلاماً وطموحاً وخسراناً، لأنه أدرى من غيره بالاثنين، ولذا نجد الشاعر أو المفكر أو الفيلسوف، أكثر قدرة على التعبير عن حاله و اكثر الناس مبالغة أو إسرافاً ، في إظهار الشكوى والألم، فالراحة الكبرى لا يصل إليها الإنسان إلا على جسرٍ من التعب، ولكن ما هي الراحة الكبرى التي قصدها أبو تمام؟

فما من راحة كبرى – كراحة الموت ...!

وما يتمنى المرء شيئاً وأدركه إلا الموت وإن تباطأ فلا محيص من قدومه..!

وكما قال البردوني معارضاً لأبي تمام:

شرَّقتَ غرَّبتَ حتى وصلتَ الموصلَ أنطفأتْ فيك الأماني ولم يشبع لها إربُ
ورحتَ من سفرٍ مضنٍ إلى سفرٍ أضننى لأنَّ طريقَ الراحةِ التعبُ

إن الفضول عندما اتجه إلى الصحافة الساخرة، فأصبح رائدها، لم يدفعه إلى ذلك حاجة الوقت فحسب، ولكن دفعه إلى ذلك هاجس في نفسه، هذا الهاجس المعجون بالسخرية، وما كان ذلك العمل إلا عاملاً مساعداً في تفجير طاقات السخرية الكامنة في نفس الفضول، ولذلك نجد أنه لم يقفز إلى ما وصل إليه من سخرية لاذعة في ديوان الفيروزة بين ليلة وضحاها، بل لقد صعد تدريجياً وعلى مراحل مختلفة، يساعده على ذلك تثقف مستمر، مثاقفة مستمرة، والتثقيف والمثاقفة والمعايشة والتجارب وسرعة البديهة و حضور الجواب والموهبة الغزيرة، والموسوعة اللغوية، والأوضاع الاجتماعية والسياسية، وتوالد الأفكار من رحم المعاناة، ومعاناة المواقف الصعبة، وتتابع دروس الحياة القاسية، والاهتمام القائم و المركب في النفس بما –يحيط بنا.. كل ذلك وغيره.. منح الفضول نار التجربة وحرارة السخرية، وعنف الألم الذي يعمل على إنضاج الإشارات والخواطر والمعاني، ويرفع بدرجة حرارة النفس بنفس القدر الذي يرفع درجة حرارة الضحك و الألم والبكاء معاً – كجلمود صخر حطه السيل من علِ – ولا أشبه بما يولد السخرية من ذلك وأيضاً هذا البيت لشاعر مجهول:

رُبَّ يومٍ قدْ كنتُ فيه فَلمَّا صرتُ في غيره بكيتُ عليه

وبقدر ما تكون السخرية مؤلمة ... يكون الساخر طيب القلب!

وبقدر ما تكون السخرية مضحكة ... يكون الساخر صارم القول!
وبقدر ما تكون السخرية مبكية... يكون الساخر باسم الثغر!
وهذا كله أبعد ما يكون عن هذه الابتسامة الساحرة لا الساخرة..
(إذا أبتسم تبتسم روحي ويضّاحك وتبكي مهجتي لو عبس)..

فالسخرية موهبة وفطرة والحياة والمعاناة تثقفها، والثقافة تزيدها ألقا، والسخرية أبعد ما تكون عن الهجاء، لأن الهجاء يكون في الآخر أما السخرية فتكون في الذات أو الأنا، وسخرية من الذات والأنا، ولذلك لم يعرف عن الفضول شعر هجاء قط، منذ بدأ يكتب الشعر،وإذا ما دفعه ما يدفع شاعر الهجاء...دفعه ما يدفع الشاعر الساخر، فإذا ما حاول أن يهجو كان هجاؤه سخرية فإن مزاج السخرية سيطر على شعر الفضول وعلاقاته بمن حوله، فإذا ما سخر شعراً، فلأنه يريد الصلاح وإدراك العيوب، ولفت الانتباه إلى الأخطاء، ومزاجه الساخر دفع به إلى أن يكون حبه للوطن كأعنف ما يكون عليه حب الأوطان، حتى أنه عندما يحاول أن يضع الأسس الصحيحة لوظيفة الشعر فإنه يندفع – بدون قصد – إلى السخرية بمن لا يعطون للشعر قدسيته، ولاهم يشعرون برسالة الشاعر، وفي ذلك يقول بفخر و سخرية، فخر بنفسه التي أعطت للشعر رسالته التي يجب أن تكون، وسخرية من أساءوا إلى الشعر بعدم إدراكهم لرسالته قائلاً في قصيدة فاخراً جئت:

ولَكـــمْ أحـــزنني شـــعر يُعَمِّـــمُ بـــالخز رؤوس الـــنِّعمِ
وَلكَـــمْ أحـــزنني شـــعر تبيع الخطايـــا ضـــوْه بـــالظُّلمِ
ولكـــن أحـــزنني شـــعر بـــه نكهـــة الخبـــز وريـــحُ اللقُّـــمِ

فالسخرية في أشعار الفضول تلقائية وعميقة وصائبة ودقيقة التعبير وقوية المعنى وبليغة التشبيه، و مضيئة لمواطن الاستشعار التي يحاول إخفاءها الواهمون والعاجزون.. الخ.

وهذه التلقائية تزيد من وتيْرة السخرية وتكون بعض الألفاظ ذات صلة قوية بذلك / رؤوس النعم / تبيع الخطايا / ضوءه بالظلم / نكهة الخبز / ريح اللقمِ ... فالنعمُ نكهة الخبز وريح اللقم.. أضفى صورة بارعة وتشبيه وبيان قوي لمن يجعلون الشعر بضاعة رخيصة يأكلون بها السحت، وأي رائحة كريهة كرائحة اللقم؟ وأي سرعة بديهة جاءت بهذا التشبيه القاتل، والمضحك والمبكي معاً أي التشبيه الساخر فهل لنا أن نتخيل شاعراً وهو (يُعَمِّم) ونحن أدرى بالعمامة؟!

بقرة، أو ماعزاً أو ثوراً، – لنضحك حتى نبكي، أو نبكي حتى نضحك، وسخرية الفضول تلك أو هذه – وهو يتحدث عن الشعر الذي يحزنه ويمزق نفسه – تضحكنا وتبكينا معاً.. أما وهو يتوجه إلى نفسه،فلا يجزم بما يقول وما يفعل..

مـــا أراني ألـــبس الـــشعر ســـوى شـــرفَ الـــصدقِ ونبـــلَ الـــشِّيم

إنـــه العـــزُّ فـــلا أكـــسو بـــه رأسَ ذي ظلـــف ولا ذي منـــسم
ليسَ في شـــعري ولا نثـــري ســـوى لبـــدةٌ أطرحهـــا في ضَـــيْغَمِ

وتلك هي وظيفة الشعر عند الفضول.. ولكنه وهو يقول ذلك، جاء – عن قصد – بصورة بقدر ما هي مختلفة التوظيف فهي مقابلة ومتضادة لإظهار الاختلاف ولتأكيد مـــا يعتقده في وظيفة الشعر ... (شرف الصدق / نبل الشيم / رأس ذي ظلـــف / رأس ذي منسم) وكما يحزنه هناك فهو يرفضه هنا، ومبالغة في تحقيره هناك وزاد مبالغة وايغـــالاً في رفضه هنا / هناك قال (رؤوس نعم) وهنا قال: (رأس ذي ظلف وذي منسم)، وكما كانت سخريته هناك مع غيره كانت سخريته أقسى مع نفسه، إذاً سخرية الفضول كلما لامست ذاتيته أكثر ومجالات اهتماماته، ودائرة حياته فإنها تزداد اشتعالاً وتتقد إيلاما.

والساخر يكون سريع الخاطر قوي الشخصية حاضـــر البديهـــة، متوقـــد الـــذهن والقريحة،يتميز بدقة وإحاطة بالأمور، منظم الفكر والتفكير، عقليته ذات قدرة كبيره إن لم تكن خارقة في سبر أغوار الأشياء التي حوله بما فيها الإنسان ومدركاً للحيـــاة ولفلـــسفة الحياة.

ولأن القضية أكبر من تصويرها.. نجيز لأنفسنا إيراد نموذجين..

النموذج الأول من قصيدة أبي تمام وعروبة اليوم للـــبردوني، والقـــصيدة الأخـــرى للفضول من قصيدة (عَرَباً كُنَّا).. ونتوخى من هذين النموذجين ايصالنا أو الأخـــذ بيـــدنا لأدراك المزاج الساخر الذي تميز به الفضول عن غيره من الشعراء الـــذين عاصـــروه أو حاولوا دخول عالمه ... حيث يقول البردوني:

(حبيب) مـــازال في عينيـــك أســـئلة تبـــدو وتنـــسى حكاياهـــا فتنتقـــبُ
ومـــا تـــزال بحلقـــي ألـــفُ مبكيـــة من رهبة البوح تـــستحيي وتَـــضطربُ
يكفيـــك أنَّ عـــدانا أهـــدروا دَمنـــاً ونحـــن مـــن دَمِنَـــا نحـــسو ونحتلـــبُ

أما ما قاله الفضول:

عَرَباً كُنَّا، وقد مُتْنا علـــى بعـــضنا بعـــضاً دنـــاءات وبُغـــضا
يلطمُ الصخرُ قفانا.. فندور لكـــي نـــسقطَ عجـــزاً وذهـــولا
وإذا قمنا من الـــصرع بنـــا فلكـــي نهتـــفَ بالنـــصر قُفـــولا
وبأنّا رهطُ حقد، بعضنا يطلـــب الـــبعضَ، ولا يطلـــب أرضـــا

والآن هل رأينا وقرأنا الفارق الكبير بين مقطع البردوني ومقطع الفـــضول، صـــورة البردوني حزينة وبائسة، – وهي صورة قوم لا أمل لهم بالحياة، (يكفيك أن عدانا / أهدروا دمنا / ونحن من دمنا / نحسوا / ونحتلب...) حقاً إن نموذج البردوني مرتبط بمـــا قبلـــه.. موضوعياً، ولكنها صورة لا تصل إلى ما وصلت إليه صور الفضول المتحركة.. وهي صور

مرتبطة بما قبله و لكنها معتمدة على ذاتها.. ضاربة كل سياط السخرية بألفاظها وحروفها وصورها المتتابعة هكذا:

١- عرباً كنا وهذه صورة..كاملة.
٢- متنا على بعضنا بعضاً.. ماذا؟ دناءات وبغضا.
٣- يلطم الصخرُ قفانا.. صورة مجسَّمة مريرة.. فتوقظ الميت نوماً وذلاً.
٤- فندور .. وهذه صوره
٥- لكي نسقط وهذه صوره
٦- عجزاً وهذه صوره
٧- وذهولا وهذه صوره
٨- وإذا قمنا وهذه صوره
٩- من الصرع بنا وهذه صوره
١٠- فلكي نهتف وهذه صوره
١١- بالنصر وهذه صوره
١٢- قفولا وهذه صوره
١٣- رهط حقد وهاتان صورتان
١٤- بعضنا يطلب البعض صور عديده
١٥- ولا يطلب أرضا صور كلّيه

وكل تلك الصور في منتهى السخرية والعمق والألم.. والقوة، حتى ليُخَيَّل إليك وأنت تشاهد..

تلك الصور أو الأبيات أنك تشاهد صوراً حية تبثها الأقمار الصناعية معاً والسخرية والخجل، وأنت تنظر ماذا كنت؟ وما صرت إليه؟!

وقد متنا دناءات وبغضا، ومن تبقى؟ يلطم الصخر قفانا / فندور / ثم نسقط / عجزا / وذهولاً / ثم (إذا) قمنا / من الصرع / نهتف /بالنصر / أو الوهم / قفولاً (عائدون) / رهط حقد / بعضنا يطلب البعض / ولا يطلب أرضا ... الخ ذلك العالم من الصور الساخرة المشفرة والغير مشفرة.

إذا السخرية طبع وفطرة،ومتى حاول شاعر أن يفلسف شعره ويحيد به إلى فن السخرية فإن فشله سيكون ذريعاً، - لأن السخرية ليست طريقاً مفروشاً بالورد مهما كان المرء شاعراً أو منظراً أو ناثراً، فالسخرية من الأسرار الروحانية التي تسكن الروح، فلا يمكن لشاعر مفطور على حال من الأحوال أن يتحول إلى شاعر ساخر، لأن السخرية مزيج من العوامل والمواهب المشتركة وبقدر ما تكون العبارات لاذعة بقدر ما تكون شاملة لطابع

السخرية، فالسخرية تستلزم حضور الجواب وسرعة البديهة.. الخ، والقدرة على اختراق مواقف الحياة، و إلباسه لباس اللامبالاة الممزوجة بضحك كالبكاء أو بكـاء كالـضحك، والشاعر الساخر هو فيلسوف في جوهره وفلسفته معجونة بعبثية الأيام والـسخرية فـن لإظهار مفارقات الحياة وعجائبها وألاعيبها.

وليس معنى أن يكون الشاعر ساخراً أنه يفتقد إلى أن يكون جاداً، بل ان ذلك يزيده ألقاً في التعامل مع المواقف الجادة، فقد يتخذ الشاعر السخرية للمبالغـة والتحـذير وأن الأمور قد وصلت إلى مرحلة أكثر جدية، وهي بالتالي تتطلـب حزمـاً أكثـر، وإيقاظـاً أعنف،ولا أعنف من السخرية، ولأن السخرية أكثر الفنون الإنسانية في التعامل اختراقـاً للحواجز والعقبات والصعاب، يكون وصولها أكثر توافقاً مع النفوس المضطربة أو التي لا ندري ماذا تصنع فيما هي فيه من مأزق مبك ومضحك أو مضحك و مبكي.. فالسخرية فن من فنون الحياة تعاملاً، و أدباً، وفكراً، وسلوكاً، وذوقاً.. و ... و الخ، وهو سـلوك يتعامل به الناس كافة بطرق مختلفة ومتناسبة مع مستوياتهم الحياتية المختلفة، دون أن يعلموا أنهم يفعلوا أو يقوموا بذلك، فهي ملَكَةْ إنسانية،ولكن هناك أناس يكون نصيبهم أكبر من السخرية، و على قدر ملكتهم تكون مسؤولياتهم تجاه الناس الذين حولهم:

(والمحبون أهون الخلق – في الخلق – إذا كان فيهم الحبُّ هانا).

فأي سخرية أبشع من هذه؟!.. والمحبون الذين على أكتافهم يكون الحب، لكنهم قد هان الحب فيهم – فأي قيمة للمحبين الذين هان بهم، فأصبح عاهة تثقل الإحساسَ.

((وعندما أصدر الفضول صحيفته – كانت الصحيفة الأولى من نوعها في اليمن، ولم تجد من يرث تقاليدها إلى يومنا هذا في صحافتنا.

لقد جعلت الفضول من الإمامة أضحوكة والضحك قادر على الهدم لأنه يجرد المنقود من كل أقنعته وجلاله المدعى، بَلْ إن علاقة الفضول بالأوضاع بعد هزيمة حركة ١٩٤٨م لم تعد إلا كاريكاتيراً يستحق السخرية، وقد أكتشف الفضول بوعيه وبحدسه ذلك وساعده على ذلك طبعه الذكي المرح، – فالإمامة جثة حية تأخر التاريخ في دفنها، فلتضحك على هذا الركام الذي يسد الطريق، – والفضول – الصحيفة – في غمرة تلك الأيـام صـنع سلاحه الخاص ضد الإمامة فأحيا الابتسامة على وجوه اليمانيين، وأسهم في زرع الأمل في قلوبهم، – ولقد عرفت الصحافة في العالم. وتعرف مجلات متخصصة في فن السخرية فقد شهدت مصر مثل هذه الصحف والمجلات،ولا تزال مجلة (عفواً) تصدر في ألمانيا الغربية قبل الوحدة الألمانية، و (التمساح) في الإتحاد السوفيتي –سابقاً – وهما من أشهر المجلات،كان الفضول يجيد لا فن الضحك فحسب بل وضحك الفن، والثاني أرفع من الأول لأنـه لا يقتصر على إجادة استعمال الأدوات بل يذهب مباشرة إلى الفن فيصنع مـن الـضحك

قضية، سوف تتذكر الأجيال الجديدة الفضول لو أحسنا تقديم تاريخ صحافتنا وهو بعيد عنهم في عالمه الآخر مؤكداً بذلك أن رسالة الفنان الجدير بالإجلال إنما هي نشر الفرح ومقاومة الكراهية والجمود والظلم في كل لون وشكل،وحتى الذين لم يعرفوه سمعوا عن لقطاته الذكية التي تلخص الكثير في (المقيل).. وكما كان أسلافه يفعلون في الأدب العربي القديم ...))(أ.هـ) [1].

كان الفضول ساخراً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ودلالات، وكانت سخريته جادة وحازمة،وهذه أرقى فنون السخرية، لأن هناك من يعتبر التنكيت والفكاهات سخرية، ويعتقدون أن السخرية هي التهريج وغير ذلك، مما يثير الضحك، لأن السخرية الجادة تتميز بالإحساس بالمسئولية وإدراك العواقب والتفاعل الجاد والعنيف مع قضايا المجتمع والناس والشعور العميق بروح الانتماء إلى الجماعة والسخرية تكون المرآة للنفوس العابثة اللاهية حتى ترى ما هي فيه وعليه من واقع مؤلم، ولقد أتستعرضنا سخرية الفضول الجادة والتي امتلأ بها ديوان الفيرزوه وهي في قمة السخرية، وبسطنا الكثير من النماذج التي تفتح الآفاق لدراسة أكاديمية منفصلة للسخرية في شعر الفضول السياسي وما ذلك إلا دليل أكيد على مرحلة النضج الساخر التي وصل إليها الفضول.. كيف لا؟ وتلك القصائد التي في ديوان الفيروزه هي من حصاد آخر السنوات في عمره وأنضجها حكمه وسخرية ونقداً.. و ... الخ.

.. ولقد عاش الفضول غربة روحية كاسرة في وطنه.. لأن أحلامه كانت أفلاطونية، وكأن لسان حاله كما قال الشاعر أحمد مطر:

رَبِّ طالت غُرْبتي وأستنْزف اليأسُ عنادي وفؤادي
طَمَّ فيه الشوقُ حتَّى بقي الشوقُ ولم يبقَ فؤادي
أنا حيٌّ ميِّتٌ دون حياة أو معاد
وأنا خيطٌ من المطاط مشدود إلى فرعٍ ثنائي أحاديَ
كلما ازددت اقترابا زاد في القرب ابتعادي
أنا في عاصفة الغربة نار يستوي فيها انحيازي وحيادي
فإذا سلمتُ أمري أطفأتني وإذا واجهتها زادَ اتقادي
ليس لي في المنتهى إلا رمادي

وقد يستغرب بعض القراء من إيراد هذا المقطع من الشعر.. باعتبار أن الفضول عاش في وطنه، ولا يدري هؤلاء أن الإنسان أحياناً قد يصيبه عذاب الاغتراب في نفسه فيكون الإنسان مغترباً عن نفسه فما بالنا بالاغتراب داخل الوطن أو خارجه، أو الاغتراب

(١) أبو بكر السقاف / كتاب الأربعينيه / ٨٢ م.

الروحي، ولكن الفضول بحبه وعشقه وعذريته جعل من نار الغربة الروحيـــة والنفـــسية والوطنية، أغنية من النور، بل أغان بلورية من شمس الضحى، ورونق الأصيل ودفء الليالي المضيئة نجومها على جبل صبر وتعزٍ الحالمة.

ومن الصور المرفرفة والمجنحة بالسخرية من الأقلام التي تمتهن الظلم والكيل بمكيالين ، وسخرية من الأقلام التي تعتنق عدداً من الأديان والمذاهب، والأقلام التي تنافق أو تعكس الأمور رأساً على عقب وتزوِّر الحقائق، أو تقدر الدينار بسعر الدرهم أو العكس، أو ترى البوم فتطلق عليه اسم الطاؤوس، أو تلحق الباز والصقر بسرب الرخم [1]، أو تتمادى في نفاقها فتقبل وتلثم مسابح القسيسين، وخناجر المجرمين، أو تدفع بالكرامة كي تـــسقط في براثن الأفك، فالفضول ببراعته التي من صفاتها:

إنهـــا معـــصومة أن ترتئـــي ورعَ التقـــوى بـــشدقي أرقـــمِ
إنها ما ضـــرغمت عنـــزاً ولا وصـــمت ليثـــاً بطبـــع الغـــنمِ

ففي البيت الثاني السخرية ظاهرة.. فحروف الشاعر وكلماته:

ما ضرغمت عنـــزاً – أي ما جعلت العنزة ضرغاماً وأسداً – ولا وصمت ليثاً بطبع الغنم – أي ولا وصفت الليث والأسد بأن له طبع وصفات وخصائص الأغنام..

وفي قصيدة (يا من ركنت إلى أخائه).. يطالعنا الفضول بسخرية عاصفة من البخيل الذي لا يحسن حتى نطق حرف (الراء).. إذا قال (الخير)..

كم باخلٍ حـــسبَ النـــزو عَ إلى المـــروؤة مـــن بلائـــه
في الخـــير أمـــيٌّ، ويلثـــغُ نطقـــه في لفَـــظ رائـــه
ويـــراه ورطتـــه الـــتي في بعـــضها كـــلُّ انتهائـــه

فكثيرون هم البخلاء الذين يعتقدون أنهم يعملون للمروءة ويسعون نحوها.. ويحسبون أنهم في ذلك أبلوا بلاءً حسناً. فالبخيل في عمل الخير لا يفهم شيئاً وهو في حكم ومقـــام الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، فإذا ما جاء لينطق كلمة الخير لثغ في لفظ حرف الـــراء، وهي سخرية قاسية من البخلاء، فالبخيل يرى في الخير ورطة وكارثة وهلاك، ويحسب أنه في بعض الخير سيصيبه الهلاك والنهاية، ولأنه أمي في فهم معاني الخير إن كان مالاً أو حباً.

ومن فلسفة الفضول للسخرية قوله في رسالته التي وجهها إلى الأســـتاذ / النعمـــان قائلاً: ((إنك لم تعد بحاجة إلى هزل ولا إلى جد))..

فلقد هَزَلْتَ حتى ولَّد هَزلُكَ الحقيقة..

ولقد جَّديت حتى بدا جدُّك على هذه التربة من صُناع التاريخ..)). مع التذكير بأنها سخرية من الذات، وسخرية من أستاذه وابن عمه وأقرب الناس إليه.

---

(١) الرخم: طائر يقتات من الجيف.

((وقد غلب عليها الطابع الفكاهي والنقد اللاذع الذي أستخدم فيه عبدالله كل ما في الأدب العربي واللغة العربية من أساليب نقد وفكاهة وطرافة، وحتى المعلقات الجاهلية أستخدمها في المعركة، فكان يحرف أبياتها ويستخدمها في نقد الحكم الأمامي))[١].

والسخرية ليست ابتذالاً وسوقية و أنما فن قائم بذاته وله أهداف جسيمة، ولا تقف أهداف السخرية عند إضحاك الآخرين أو الترويح عنهم، أو قطع أوقات فراغهم للتسلية، فتلك رؤى سطحية مبتذلة أما السخرية وفن السخرية فمن أهدافها[٢].

أولاً: المحاولة والرغبة في تخفيف الآلام النفسية عند النكسات أو اشتداد الأزمات وذلك باشباع الرغبة في التعالي، أو التكيف مع الموقف (كما هو الحال عند الفضول) .

ثانياً: إصلاح المختل من سلوكيات الناس ونظمهم السياسية، وقضاياهم الفكرية والثقافية.

ثالثاً: إثارة الحمية الوطنية ضد المستبد الأجنبي، ومحاولة تصويره في مشاهد يرفضها الذوق الوطني، وتمجها النفس الأدبية.

رابعاً: تقديم المثل السيئ في نموذج بشري غريب في خَلقه وخُلقه للعبرة والموعظة، ومنها التندُّر من ذوي القيادات الجوفاء، والذين فقدوا مقومات القيادة الناجحة، فتأتي السخرية لتجعل هؤلاء نموذجاً ممجوجاً يلفظه شرفاء القوم وصفوة المجتمع.

خامساً: تخفيف مشاعر الضيق والملل واليأس، أو أحزان الفشل والإحباط في بعض المواقف، والتي قد ترتبط بأحداث سياسية أو اجتماعية أو نفسية، والسخرية فن له مشاربه ومحاوره ومجالاته في الفنون المختلفة ولاسيما الأدب، شعراً ونثراً، ولها أهدافها ومجالاتها البارزة في القرآن الكريم (وكما أوضحنا ذلك سابقاً).

– ونُحب أن نلفت النظر هنا إلى أن للفضول من المواقف والعبارات الساخرة ما نعجز عن الألمام بها لأنها عبارات قيلت في مناسبات – وفي ظروف متقلبة وفي لحظات عابرة مما جعل من الصعوبة بمكان الإلمام بها أو التأكد من صحتها، وهذه العبارات غير مكتوبة بالطبع، وإنما سمعها البعض ممن عاشوا مع الشاعر أو رافقوه أو جالسوه وخاصة في مجالس المقيل. حيث يكون المجال للسخرية في ذروته العليا، ووصلت إلينا بعض العبارات التي تعبر عن فلسفة معينه لقائلها.من الصعب التأكد من صحتها وخاصة أن بعضها يسئ إليه، فهذه الأقوال من الأمور الخطيرة التي يجب أن يتم مراعاته عند تدوينها، ولا بد أن الفضول قد صاغ تلك المقولات في قالب شعري قبل نطق العبارة أو من بعد، وبما يتناسب مع السياق،لأنه لا يوجد معنى في ذهن الشاعر وخاصة مثل الفضول إلا وله مرارة (المادة

(١) محمد حسين الفرح / كتاب الأربعينيه / سبأ / ٨٢ م.
(٢) السخرية في أدب عبدالله النديم د/ أحمد يوسف خليفة ص ٣٠/٣١.

والمال) وخاصة في السنوات الأخيرة من حياته مثله في ذلك مثل أي إنسان، فطرق أبواباً للرزق لا عيب فيها، لأن تلك وسائل الحياة وليس غاية، – ولذلك فإن الغاية في شعر الفضول بقيت (عزيزة) ومكرمة، وفي عشقه للطبيعة وفلسفتها وفي حنينه الدائم لقريته:

هناك أحلامي وزرع حُبِّي هناك إلهامي ووحي قلبي

من العبارات الساخرة في نثر الفضول:

((ولقد قدم اليمنيون.. قدموا التضحية، وقدموا الفداء، ولكن بأسلوب فج وخام كما أسلفنا.. وفي كرم القروي الساذج الذي لا يهمه كم ضيفاً سيطعم ولكن كم عجلاً سيذبح..)).

وفي تلك العبارة يشرح أسباب الفشل الذي أصيبت به حركات التحرر قبل ثورة سبتمبر بالأخص ثورة ١٩٤٨م وعن المدرسة والكتاب والقلم يقول:

..(.. وعندما يتعلم الشعب، وعندما تغزو المعرفة نفوس المظلومين، وعندما تلج خيوط النور إلى أذهان المضطهدين .... تكون قد حلّت لعنة الله على الظلم وعلى الظلام.. وأنحسر الظلام .. ونحن لا نعرف كيف نفهم من هؤلاء القوم منطقهم حين يريدون من الحكم أو الحاكم الذي يلهث وراءهم بسياطه ليسوقهم إلى القبر.. أن يحولهم بهذه السياط إلى طريق آخر، فيسوقهم إلى المدرسة وإلى المعرفة وإلى العقل..)) [١].

المرأة في القرية:

((إن الفرصة فرصة العلم والمعرفة لا تزال أمامكم سانحة وماثلة ومنتظرة.. وهي فرصة لا تنتظر منكم الرجال فحسب.. ولكنها أيضاً تنتظر منكم النساء وكانت المرأة اليمنية في القرية (سافرة) تمارس حياتها في خلق وشجاعة وقوة، فلا يكاد المرء يسمع أبداً عن خاملة من خوامل السلوك في القرية على الإطلاق، وعاشت المرأة داخل القرية اليمنية على نحو يقارب ما ينبغي أن يكون لها أن تمارسه من حقوق واعتبارات وآدمية.ولم يبق من ذلك إلا ما ترغب هي كأنثى في بقائه في يد الرجل لترضي بذلك غريزتها في استشعار الحاجة إلى الرجل وهيمنته وسلطانه.. فتلك غريزة المرأة وجنسها في هذه الناحية أبداً وستبقى كذلك ما بقيت المرأة بدون لحية))[٢].

((ولكن العدالة لا تلبث أن تفتح عينيها على الرأي من جديد فإذا بنشوة الباطل وزهوه يتطايران من رأسه كما يتطاير من فم الطفل بالون من المطاط))[٣].

---

(١) كتاب الأربعينيه / من كتابات الفضول النثريه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

الباب التاسع

الفضول والمتنبي

عنِّي، وعنْ وطني الغالي، وعَنْ علمـــي وعَنْ قلوب حميمـــات أتـــى قَلَمـــي
لكـــي يلاقـــين ضـــيفاً عنـــد أنفـــسنا اللائي لقينك شهماً، ماجـــدَ الـــشِّيم
كم زائر جاء ســـاحاتي فمـــا نَبَـــسَتْ قيثـــارتي بـــصدى لحـــن، ولا نَغَـــم
وغيرُ زائد – ضـــيفاً – لم تهـــشْ لـــه منِّي القوافي ولا نبشتُ لـــه كَلمـــي
ولا فتحـــتُ ذراعـــي كـــي يعانقَـــه قلبي ولا نهـــضتْ بي نحـــوَهُ قـــدمي

(عاشقوا المجد – الفيروزه)

بقدر ما نظم الفضول شعراً ساخراً وغنائياً ووطنياً وسياسياً – وقومياً.. فإنه لم يتجه مادحاً لأحد غير جمال عبد الناصر (رثاء) وإبراهيم الحمدي (مدح ورثاء) والأستاذ النعمان عتاب، ومحمد النعمان رثاء، والشيخ زائد مدح.. حسب ما هو بين أيدينا حتى الآن وكانت له علاقة مع صدَّام حسين وأمير الكويت(*).

وما دفعني إلى أن أجمع بين الفضول والمتنبي لم يكن وليد صدفة أو وهم بـــل وليـــد تمحيص وتدقيق روحاني ورحلة روحية جمعت بينهما، من خلال قصيدتين.. فلا شك أنـــه كان للفضول طموحاً سياسياً كما كان عليه حال المتنبي، وإن كـــان الطمـــوح متباينـــاً لاختلاف الزمن والبيئة والظروف السياسية والظروف الخاصة، ومن الحق أن نعترف بـــأن قصيدتي الفضول قد لا تكون لهما القدرة والقوة من حيث الكم لنصدر أحكامنا الصارمة من خلالهما، ولكن لأن الكيف والقوة والمتانة والجزالة و ... و .... كل ذلك جعلنـــا، وكأننا مع المتنبي في القرن العشرين وفي اليمن بالتحديد ولكنه متنبي بنكهة عصرية، وحقاً أن الفضول لم ولن تصل شهرته إلى ما وصل إليه المتنبي من ذكر وصيت في عصر لم تتوفر فيه أبسط مقومات وسائل الإعلام الذي يليق بمكانته، أما كان سيصل ... وأكثر؟، ولأن الرجل جاء في سنوات بائسة (١٩١٨م)..) فما وجد حتى أرضاً للثقافة، وهكذا تطـــوي الأيام ما أنطقه الدهر، ولا فرق بين الرجلين غير أن ذاك كان حظه حسناً فـــشغل الـــدنيا والناس، وهذا حظة سيئاً – وما زال – ومن يدري ماذا تفعل الأيام؟

(*) انظر لقاءنا مع ملهمة الشاعر. في ملاحق الكتاب

ولو أحصينا من كتبوا وما كتبوه عن المتنبي في عصره وحتى اليوم لما تهيأت لنا أسباب النجاح، لأنهم أكثر مما نتصور وقد يقول قائل: إن ما أنتجه المتنبي يفوق ما أنتجه الفضول كثيراً وفي وقت مبكر؟، وهذا حق لكن المتنبي لم يشغل الناس بكثرة ما نظمه من شعر بل بجودة ما نظمه، و ما أروع ما أجاد في نظمه، وديوان الفيروزه في جودته وعظمة ما فيه هو ما دفعنا لهذا، وحتى لا نصدر أحكاماً جزافاً، فعلينا العودة إلى ديوان الفيروزه، و سنعانقه حتماً كما يتعانق الأخوان، ولا شك في أن الفضول قد أستوعب شعر المتنبي ثقافة وروحاً، وإلا فمن أين رفرفت تلك الروح المحلقة في سماء الكبرياء، إن لم تكن رفرفت من سماء المتنبي، وهو أمر لا عيب فيه ولا قصور، فقد سبق الفضول الكثيرون من رواد القرن العشرين مثل محمود سامي البارودي،.. ثم عبدالله البردوني.. وهو في عموريـة أبي تمام وعروبة اليوم... فامتدت العصور بين هذا وذاك وكأننا في عصر واحد.. وهي عصور تجمعها حكمة الحياة وخلود الفن.

وكانت مجلة المقتطف (شيخ المجلات) قد أصدر سفراً ضخماً أفرده للمتنبي عام (١٩٣٦م)[١]... ((ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم، فيما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف، ولست أغلو إذا قلت إن هذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى، فاعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ / محمود شاكر مدة كتابته هذا البحث النفسي الذي أخرجه المقتطف في زهاء ستين ومائة صفحة، تدله في تفكيره، وتوحي إليه في استنباطه وتنبهه في شعوره وتبصره أشياء كانت خافيه وكان الصدق فيها، ليرد به على أشياء كان معروفه وكان فيها الكذب ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التي جاءت من تلك النفس ذاتها لا الحياة التي جاءت من نفوس أعدائها وحُسَّادها..

إن هذا المتنبي لا يفرغ ولا ينتهي، فإن الإعجاب بشعره لا ينتهي ولا يفرغ، وقد كان نفساً عظيمة خلقها الله كما أراد، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتد في الزمن.

وكان الرجل مطوياً على سر ألقى الغموض فيه من أول تاريخه،وهو سر نفسه وسر شعره،وسر قوته،وبهذا السركان المتنبي كالملك المغصوب الذي يرى التاج والسيف ينتظرون رأسه جميعاً،فهو يتقي السيف بالحذر والتلفف والغموض،ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل.[٢].

ويقول الرافعي: ومن هذا السر بدأ كاتب المقتطف، فجاء بحثه يتحدَّر في نسق عجيب، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادة ونمو وشباب وعرض بين ذلك شعر أبي الطيب

(١) (المتنبي) لشيخ المحققين محمود شاكر.
(٢) وحي القلم – الرافعي مصطفى صادق – جـ ٣/. : ٣٦٩/٣٧٠.

عرضاً خيِّل إلى أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها.

وبذلك أنكشف السر الذي كان مادة التهويل في ذلك الشعر الفخم، إذ كانت في واعية الرجل دولة أضخم دولة، عجز عن خلقها وإيجادها فخلقها شعراً أضخم شعر، وجاءت مبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة متحققة في صورة من صور الامكان اللغوي...

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي سر حبه، فقال: إنه كان يحب خوله أخت سيف الدولة، وكتب في ذلك خمس عشره صفحة كبيرة ... والأدلة التي جاء به المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي، ومتى لم يستطع المرء نفياً ولا إثباتاً في خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره، فهذا حسبك إعجابا يذكر، وهذا حسبه فوزاً يُعَد.

ولعمري لو كنتَ أنا في مكان المتنبي من سيف الدولة لقلت إن المؤلف قد صدق ... فنهاك مواضع لابد أن تُبحث في قلب الشاعر الذي وضعت فيه الدنيا حكمتها، وطوت فيه القوة سرها، وبث فيه الجمال وحيُه، وأصغر هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك، ولكن الحبيبةَ أكبر منها كلها..[1].

أما قال المتنبي:

واحرّ قلباه ممَّن قلبُهُ شبمُ ومن بحالي وجسمي عنده سقمُ
مالي أكتِّمُ حُبّاً قد برى جسدي وتدعَّى حَب سيف الدولة الأُمم

فالشطر الأول من البيت الثاني.. فيه حب لأنثى هو الذي يجعل الجسد نحيلاً وضعيفاً... أما أن يكون ذلك لسيف الدولة، فما من حب بين اثنين من الرجال قد فعل ذلك!.

وتلك القصيدة التي نظمها المتنبي كانت آخر ما نظمه الشاعر في سيف الدولة الحمداني، ويبدو أن هذه القصيدة قد استأثرت باهتمام الفضول استئثاراً عظمياً، وهي قصيدة فيها خلاصة للمتنبي شاعراً وإنساناً ومحباً وحكيماً وفارساً وفيلسوفاً وغاضباً وعاتباً وطموحاً وغروراً وكبرياءً وعظمة وشموخاً ورجولة .... و... و..... الخ. ولأنها تمثلت النبوغ الشعري واللغوي ...

هذا عتابُك إلاَّ أنَّه مقَةٌ قد ضُمِّنَ الدُّرُ إلاَّ أنَّه كَلِمُ

وبحاسته وبموهبة الفضول أدرك القرب النفسي بين ما في نفسه وما في تلك القصيدة، حتى جاءت المناسبة التي جعلت من تلك الأحاسيس مادة لنظم قصيدة تكون في نسق شعري وشعوري وعروضي واحد مع قصيدة أبي الطيب، ولا نستطيع إن نقول أن الفضول عارض فيها المتنبي رغم أن المعارضة تميزت بها أشعار الكثير من الشعراء الرواد – كما

(١) المصدر السابق نفسه.

أسلفنا – وما كان لمدرسة الأحياء والبعث في أوائل القرن فضل إلا بتلك المعارضات الشعرية التي كانت عن موهبة وقدرة وتمثل ونبش للتراث العربي لأن إعادة مجد الشاعر العربي كان من هناك.

ونلمح في كثير من أشعار الفضول التأثر الروحي والمدد الشعوري الذي يتمثله من خلال شعر المتنبي – فهو خير مدد – أن القصيدتين في شعر الفضول بقافية الميم وحرف روي واحد وهو الميم ويجمع بينهما قصائد البحر البسيط قد نتحدث في أبواب قادمة عن أهمية البحر الشعري عروضياً من حيث التلاؤم النفسي مع الشاعر وهو ينظم القصيدة، فنجد أن البردوني يعارض أبا تمام في قصيدته أبو تمام وعروبة اليوم)، والقصيدتان من البحر البسيط،.. والروح الوطنية والقومية لها أثرها الواضح.

وكما هي عادة المتنبي وهو يمدح فإنه يستأثر بجزء كبير من شعره في مدحه لذاته، وتمجيده لنفسه، نجد الفضول يستأثر كالمتنبي في تعظيمه لنفسه، ويزيد تعظيمه لوطنه وانتمائه وكرم وطنه ونبله ... وحتى تتضح الصورة نبقى مع هذه المقاطع من قصيدة الفضول (عاشقوا المجد – ديوان الفيروزه:

عَنِّي وعن وطني الغالي وعن علمي ... وعن قلوب حميمات أتى قَلَمي
لكي يلاقين ضيفاً عند أنفسنا ... اللائي لقينك شهماً، ماجد الشِّيَمِ
وعن أشواقنا اللائي عشقن فؤَا ... داً فيك يثقله حملٌ من العظَمِ
وفوق أرض نأت عنها مُحَمِّلةً ... أجدادَك الغُرِّ منها عزةُ القَمَمِ
مازالَ فيها شَبابُ النبْل فيك يُرَى ... لم يُبْلِ رونَقَه مسٌّ من الهَرَمِ
ولم يزل منهمُ فيكَ الوفاءُ لها ... يَمْتَدُّ كالظل للقربى وللرَّحم
أواصرُ الناس قد تَبْلَى. وتَطْمسُهَا ... من النفوسِ يَدُ الأيَّامِ والقِدَمِ
إلا أواصرُنا ... اللائي، ... سكَنَّ الخلودَ يورثُها دمٌ لِدَمِ

**** ****

كَمْ زائرٍ جَآءَ ساحاتي فما نَبَستْ ... قيثاريَ بصدى لحنٍ، ولا نَغَمِ
وغير زائد – ضيفاً – لم تهش له ... منِّي القوافي، ولا نبشتُ لَه كلمي
ولا فتحتُ ذراعي كي يعانقه.. ... قَلبي، ولا نَهَضَتْ بي نَحْوَهُ قَدَمي
ولستُ لؤُؤماً على ضيفي يجيءُ إلى ... أرضي، ولا حابساً عَنْ وجهه كَرَمي
تأبى المعاييرُ عندي أن تغالطني ... في الكم والكيف والأقدار والقيَمِ
لِكُلِّ طيرٍ أوى في قِمَّتي كَنَنُ ... لكنَّني لا أقيسُ البازَ بالرَّخمِ

**** ****

إذا أتاك بشعري زائراً قَلَمي ... لأنت أكبرُ من قولي ومن كلمي

آتي الوكورَ علـى القمّـات آهلَـةً بما يكونُ بهـا مـن سـاكني القِمَـمِ
فـلا يـروحُ بهـا قـدري ليُنْزِلَنـيْ بين الغرابيـب والبومـات والـرَّخمِ
لقد حييتُ على الدنيا فمـا انخفـضت نفسي، ولا كانَ فيها اللؤمُ من تُهَمـي
والخلطُ ما بـين أنمـاط الرجـال بـه فضْحٌ يُري الناسَ مافي الحُسْنِ من سَـقَمِ
فمرحباً بـكَ ضـيفاً مـلءَ أنفـسنا تأوي مع الضوء فيهـا، لامَـعَ الظُّلَـمِ
نفوسُـنَا حَرَمـاً للفجَـر نحملُهَـا سواكَ – فيهُنَّ غـيرُ الفَجْـرِ لم يَقُـمِ
ولَـنْ يُـرى نُـزُلاً إلاَّ الكـرامُ بهـا وأنتَ أنجـبُ مَـنْ في سـاحةِ الكـرَمِ

بدأ الشاعر بتحية الضيف نيابة عن نفسه – (تعظيماً) – وعن وطنه الغالي اليمن وعن رايته التي حاكها من كل شمس وهي تخفق في كل قمة، وعن قلوب حميمات – قلوب أبناء اليمن – فجاء قلم الشاعر الذي يتباهى به أبداً.. لأنه قد أخذ على نفسه عهداً بأن لا يمدح أحداً إلا إذا رأى من ترزق الأقلام ضوءاً منه فوق بنانه ... ولذلك فهو يرى مأرب يعود إلى التاريخ الحي على يد هذا الرجل المضيء ...

ولقد صبرتُ لكـي أرى مـن تـرزقُ الأقـلامُ ضـوءاً منـه فـوق بنـاني
تُثـري مزايـاه الخيـالَ كأنهـا خصبُ السهولِ، وخُضرةُ الوديـان
وأذقتُ أقلامي الطَّوى حـتى أرى هذا الطرازَ مـن الرجـال أتـاني
رزقُ السيوف على الشجاع وما أتى رزقٌ إليهـا مـن ذراعِ جبـان

وتبدو في الأبيات تاريخية الفضول،و إلمامه بحوادث التاريخ لتوظيفها شعراً، وخاصة في مثل هذا الموقف العربي، فالشاعر و الوطن والراية والقلوب وقلم الشاعر الذي وجد مـن يستحق أن يمدحه – جاءت لكي يلاقين ضيفاً عند أنفسنا، زيادة ومبالغة في الحفاوة ولم يزل شباب النبل فيك يحمل الوفاء لأرض أجدادك، هو شباب يمتد كالظل ... مراعاة لحقـوق القرابة والرحم ... أما قال الزبيري:

سجِّل مكانك في التاريخ يـا قلـمُ فها هنا تبعث الأجيـالُ والأمـمُ
هنا القلوب الأبِّيات الـتي اتحـدت هنا الحنان هنا القربى هنـا الـرَّحِمُ

والأواصر بين الناس والعلاقات بين الشعوب قد تبلى ويتقدم بها العمر أو تنتهي ... وقد تطمسها من النفوس يد الأيام والقدم والدهر ... إلا أواصرنا التي سكنت الخلـود، ونحن نتوارثها عبر الأجيال دماً و لحماً.. وضميراً.

وكم من زائر جاء أرضي وساحتي فما نبست قيثاريّ بصدى لحن ولا نغم، و غيرك ضيفاً لم تهش له منّي القوافي.. ولا نبشت له كلمي لأن مكانتك عظيمة في قلوبنا ولا فتحت له ذراعي كي يعانقه قلبي فعناق ضيف مثلك يكون بالقلب، ولا نهضت بي نحوه قدمي.. أما قال أبو الطيب في موقف مماثل (عناقاً):

لم أر رجلاً قبلي مشى البحـــر نحـــوَهُ ولا رجلاً قبلي قامت تعانقه الأُســـدُ

وفي هذا كله بيدو علاقة الشاعر بالضيف الذي كانت تربطه علاقة قوية مع إبراهيم الحمدي المحبوب من الشاعر.

والمتنبي هنا لم يقصد غير شيئين – كرم سيف الدولة حين شبهه بـــالبحر، وشـــجاعة سيف الدولة حين شبهه بالأسد، وقبل ذلك قد جعل نفسه أعظم من سيف الدولة فما من رجل مشى البحر نحوه إلا لأنه أعظم من البحر، وما من رجل قامت تعانقه الأسد إلا لأنه أشجع منها، فالشاعر وإن أراد تعظيم ممدوحه فقد عظم نفسه أكثر.. ولكن بطريقة بارعة وإن جاء بكلمة رجلاً ... ومع ذلك فإن الأبيات الثلاثة للفضول أكثر براعة مـــن قـــول المتنبي وجاءت مفرداته رائقة ومنطقية.

كم زائر جاء ساحاتي / وتعظيم الذات في كم وجاء وساحاتي والضمير في ســـاحاتي (أنا) / ... فما نبست / قيثاريّ / بصدى لحن ولا نغم / وغير زائد / ضيفاً / لم تهش له / مني القوافي / ولا نبشت له / كلمي، ولا فتحت ذراعي / كي يعانقه / (قلبي) / ولا نهضت بي نحوه / قدمي.

ورغم كثافة الصور عند الفضول لكنه لم يصل في تعظيمه لشأنه وذاته إلى حال المتنبي، فالفضول هو من نهضت به قدمه إلى ممدوحه وليس العكس كما هو الحال في مشى البحر سيف نحو المتنبي، أو قامت الأسد تعانقه، ورغم أن المتنبي قال (البحر • الأســـد). وهـــذا أيضاً ليس معناه إخفاء الروح المتكبرة من الفضول، وإنما لم تصل إلى ما وصلت إليـــه روح المتنبي، ومع اختلاف الزمن، فذلك كان زمن الشعر والمال، أما الآن فالزمن للمال فقـــط ووسائل الإعلام الحديثة وغيره يقوم مقام مئات بل وألوف الشعراء الكبار ولعل ذلك من أسباب التفاوت الضئيل بين الشاعرين.

وينفي الشاعر صفة اللؤم عن نفسه، فهو لا يحبس كرمه عن وجه ضيفه متى ما جاء إلى أرضه، والشاعر يخاطب ممدوحه بضمير ولسان الوطن كله، والأرض كلها لأن المعايير في نفسه منضبطة، فتأبى نفسه أن تغالطه في الكم والكيف والأقدار والقيم وهي إشارة إلى مقدار ما يتمتع به الضيف من مكانه.

فلكل طير أوى في قمة الشاعر ووطنه كنن

فالشاعر لا يقيس الباز بالرخم، فهو يستخدم مدلولات لفظية ويدركها الممدوح لأنه من بيئة تعرف ذلك، والشاعر لا يمدح كل من هب ودب، ولكن له مقاييس ومعايير لمكانة من يستحق المدح، وهو أمر جدير بالاحترام والتقدير في شخصية الشاعر الذي ما مـــدح غير الوطن.

وما أنجبت ارض من غني لأبنائها مثله.

وتدل لفظة يعانقه قلبي على ما لقب الفضول من مكانة ولما يشعر به في قلبه.

وهذا هو الوجه الأكبر للتشابه والتؤامة الروحية له مع المتنبي ، ويؤكد الشاعر قائلاً: لقد عشت على الدنيا فما انخفضت نفسي، ولا كان فيها اللؤم من همي وبذلك يؤكد الشاعر نفيه اللؤم الذي قد يعتقده البعض فيه، لأن الخلط ما بين أنماط الرجال فضيحة كبرى لا يقبل بها الشاعر، فهو حين يمدح ضيفه فلأنه جدير بمدحه، ولذلك فالشعر لا يخلط بين أنماط الرجال، لأنه الخلط بين أنماط الرجال، فضيحة تُري الناس ما في الحسن من سقم، وما في السقم من حسن أما الجدير من الرجال بالمدح من الشاعر ... فهم هؤلاء:

إن أرقى نمط في الناس مَنْ قلبه بالخير مُخْضرٌ وريقُ
نفسُهُ شيدَّها الصدقُ، فبنيانُه النفسيُ مشدودٌ وثيقُ
وبه نهرٌ، على ما حوله من مرابي الخير في الأرض دفوقُ

فمرحباً بك ضيفاً يملأ النفوس، فتأوي وتسكن فيها مع الضوء وليس مع الظُلَم، لأن نفوسنا نحملها لقداستها وحرمتها للفجر والحرية، وهي نفوس ليس فيها غير الفجر، وما سوى الفجر لم تقم له قائمة في نفوسنا، ولا يترل فيها غير الكرام،.. وأنت يا ضيفاً ملء أنفسنا أنجب من في ساحة الكرم، وهي إشارة إلى ما قدمه الضيف للوطن اليمن من دعم، مادي ومعنوي ...

فَتىً تلاقي همومي من حَميَّته ... وممَّا ألاقيه من قربى ومنْ رحمِ
فإن شُغفْتُ به حُباً، ورحتُ عَلَى ... قيثارتي أشدو رائع النغمِ
فذاك أن نفوسَ الناس قد هَزلَتْ ... وإن تبدَّتْ سمينات فمن وَرَمِ
لم يبقَ لي نُصبَ عيني غيرُ مهجَته ... وفاءها ملءَ إحساسي ومَلء دمي
تأتي حروف الأسامي وهي ميِّتةً ... فوقَ الطروس، كما لو جئنَ من رِمَمِ
واسمُه كُلّما سطرتُ أحرفَهُ ... طعمتُ فيها مذاقَ النبلِ ملء فمي
مشارقُ الضوء عاشَتْ، وهي منزلهُ ... في غيرهن – قرير العين – لم يَقُمِ
مُهَذَّب – من عيارٍ لستُ أحسبُهُ ... قد جآء في نمطٍ من سائر النَّسَمِ

**** ****

كم نعشق المجدَ! فاخلد تحت أورقه ... من مجدنا الهازئ الأعطاف بالعدَمِ
وأنسْ إلينا، إلى الظلِّ الذي اتكأت ... فيه النبوءةُ لم تُجْحَدْ، ولم تُضمِ
إن اليمانيينَ من طبع الوفاء بهم ... تسنَّموا ذروة التبجيل في الأمَمِ
خصبُ الحياة مُرُواءت بنا بَقيتْ ... على الزمان، ولم تذهب مع العرَمِ
كأنما الدهر قد أعطى لها أجلا ... يمضي جديداً وعمراً غير مُخْتَرِمِ

فالشاعر يرى في ممدوحه (فتى) يلاقي بهمومه من حميته وشجاعته وكرم ما يلاقيه من قربى ورحم، فإن شغفت به حباً، وشدوت له على قيثاري أنغاماً رائعة ... فذلك لأن الشاعر يرى من حلوله من الناس ونفوسهم قد أصبحت هزيلة وسقيمة، وإن ظهرت أنها سمينه فإنما ذلك من الورم الذي فيها، وقاموس المتنبي مليء بهذه المعاني ... والفضول هنا ينظر إلى...

إن كان يجمعنا حبٌ لغرته فليتَ أنا بقدر الحُبِّ نقتسمُ
أعيذها نظرات منك صادقةً أن تَحْسبَ الشحمَ فيمن شحمُهُ ورَمُ

فالممدوح في شعر الفضول – منفرداً في نفسه ومهجته، ولذلك لم يبق للشاعر غير مهجته التي يمتلئ بها إحساس الشاعر وفاءً.

ولأن الشاعر وشعبه يعشقون المجد، فهو يطلب منه أن يخلد إلى الراحة تحت أوراق المجد – اليمن – الذي يهز أعطافه سخرية من العدم، لأنه مجد لا ينتهي ويطلب الشاعر من ممدوحه وضيفه أن يأنس إلى هذا المجد وإلى الشعب.. لأنه الظل الذي اتكأت واعتمدت النبوة عليه عند ظهورها، وهذه صورة دينية تاريخية لموقف اليمنيين من الدعوة الإسلامية، والشاعر يفخر بهذا، وهو موقف لا ينكره أحد. فالوفاء من طبع اليمنيين،وبه تسمو ذروة التبجيل والاحترام والتقدير من كل الأمم، فحياة الشعب اليمني بقيت بالمرؤات على مدى الزمن، ولم تذهب فمرؤاتنا مع سيل العرم.. لأن الدهر أعطى لمرؤاتنا أجلاً يمضي جديداً وعمراً مديداً لا ينقص أبداً، والشاعر قد أبرز في نشيده الوطني أملأوا الدنيا ابتساما تاريخ الأرض اليمنية.. وأستوعب فلسفة الأناشيد الوطنية عند كل الأمم وبعدها الحضاري في أناشيده جميعاً.

وآدي الحياة هُنَا وآدي الحياء هُنا حتى بدون غيومٍ فيه أو ديَمِ
نفوسنُا غبطات يعتكفْنَ به وقُوتُهنَّ مغاني العِزِّ والشَيَمِ
وقد لُقِيتَ بضوءٍ من بَشاشتها حتى على الصخر، والأَطلال مُرْتسمِ
**** ****

ما كنتُ حاطبَ ليلٍ همتُ في حَرَشٍ وبتُّ أرسفُ في الأشواكِ والبندمِ
لَمّا أتيتُك والأشواق تحْملني تزيرُني فيكَ شهماً، رائعَ اللممِ
إنّي، ونفسي، وشعري، في مسالكنا نأتي الصباحَ، ولا نأتي إلى الظُّلَمِ
لَكَمْ نبذتُ كبيراً في طفولته يحيا حبيساً بها عن رشده الحُلمِ
حيثُ الجلال مكاني لا أفارقُهُ لا تُصاحبُ نفسي أنفُسَ القَزَمِ
**** ****

وما دخل الفضول إلى هذه القصيدة الرائعة إلا بعد أن طرق الباب بقصيدة غناها بلبل اليمن أيوب طارش وهي (يا مرحبا بالضيف ضياف الضيوف... يا مرحبا بالسيف).

فوادي جمع أودية ... فالممدوح الضيف هو:

١- وآودي الحياة ... هنا

٢- وآدي الحيآء .... هنا

لأنه كذلك، حتى بدون غيوم أو ديم، فإنجاز العمل في سد مأرب برهان ناصع من الممدوح بغيوم الكرم، وديم العطاء، ولذلك فنفوسنا غبطات وسعيدات به، وهن يعتكفن به وبكرمه وبعطائه، وإن لم يعط لأن نفوسنا يقتتن من مغاني العز والشيم والخصال الحميدة.

ولذلك فقد أستقبل المَمدوح بضوء من بشاشة نفوسنا.. وهي بشاشة رسمت حتى على الأطلال وعلى الصخر ... فرحاً بالضيف.

ويؤكد الشاعر أنه لم يكن حاطب ليل أو بات يرسف في الأشواك والندم على ما قال في الممدوح أو وصفه به.. ومتى ذلك؟!

لما أتيتك و الأشواق تحملني!

لما أتيتك والأشواق تزيدني – كبرياء – فيك شهماً، رائع اللمم.

وذلك لن يكون، فلا ندم ولا أحراش، ولا حاطب ليل لأن الشاعر يؤكد عقب ذلك:

إنّي

ونفسي ...،

وشعري ...

– في مسالكنا – نأتي الصباح الذي هو أنت، ولا نأتي إلى الظلم ... ويعدد الشاعر قائلاً (لكم نبذت ورفضت كبيراً في طفولته وجهلة وجسده، لكنه يحيا حبيساً في طفولته العقليه، فلم يبلغ الرشد أو الحلم، فأنا حيث الجلال عقلاً وروحاً وفكراً وضميراً، لأنه مكاني الذي لا أفارقه... فنفسي لا تصاحب أنفس الأقزام عقولاً وفكراً ورشداً وحلماً وضميراً..

فنجد ثلاثة أرباع القصيدة التي تتكون من (٤٣) بيتاً، الشاعر فيها يمدح نفسه، وقد يكون ذلك فناً من فنون التعظيم، لأن الشاعر يوحي إلى الممدوح بأن من يمدحه ليس أقل منه، بل يجعله يدرك أنه أمام شاعر عظيم وتعظيم الشاعر لذاته ليس افتعالاً يمكن أن يقوم به كل الشعراء، إن ذلك شعور نفسي عميق وإحساس قوي يجتاح الشاعر العظيم لأنه كذلك، والقوافي هي التي تصدق ذلك أو تكذبه، وفي شعر الفضول... فإن تعظيمه لذاته لم يأت من فراغ بل جاء عن موهبة عظيمة ونفس قوية الشعور بكبرياءها وسمو مكانتها، فهذا النوع من الشعراء نادر الوجود، لأن الشاعر العظيم الذي يجبر سامعه وقارئ أشعاره على احترامه فإنه بالتالي يجبرك على أن تحترم من يمدحه، لأنه لا يمدح لمجرد المدح وكفى، ولا

يرثي لمجرد الرثاء وكفى، – وبماذا بلغ المتنبي ما بلغه من مكانه إلا بما تضمنه شعره الذي مدح به، فأكثر قصائد المتنبي في المدح ولذلك أشتهر ويدرس في الجامعات والمناهج الأكاديمية على أنه من شعراء المدح، فهل عابه ذلك؟ – إطلاقاً، بل رفع مكانته عالياً...ومع ذلك فهو أعظم شعراء العربية على الإطلاق.

ويعرف الناس عن المتنبي أنه تقاضى عن أول قصيدة مدح (بضع دراهم) ثم كان يشد الركاب، فما من وال أو أمير إلا وتمنى أن يمدحه المتنبي، وما قتل إلا لأنه لم يمدح – يوماً ما – من قتله، وكان الأمراء يجلسون بين يديه وهو يمدحهم أو يجلس بين أيديهم، على غير عادة الشعراء، فما عاب كل ذلك شاعر في حجم المتنبي، وكذلك ما عاب غيره أبداً وفي مقدمتهم الشاعر أبي تمام الذي.. شرق وغرب من وال إلى ملك يحثه الفقر أو يقتاده الطلب، لأن الشاعر بملكته وموهبته،وبقدرته على اعطاء شعره ما يستحق من التبجيل بما يتضمنه من حكم وحياة وفلسفه وحركة وتجربة وشاعرية ولغة... الخ، والعطايا التي كانت تعطى كانت وسيلة من وسائل الحياة والعيش لأولئك الشعراء، وتمجيد المتنبي لنفسه في قصائد ممدوحيه رفع من شأنه، ولم ينقص منه شيئاً، لأن تمجيد الذات، ثقة بالذات،وإن لم يكن الشاعر واثقاً من ذاته فليس جديراً بأن يمدح من في مكانة سيف الدولة أو غيره من أفذاذ العصر،الشاعر الفذ هو الذي يستطيع إلجام الألسنة بموهبته، فنجد مثلاً أبا العلاء المعري يرثي أحد أصدقائه، وعندما نقرأ القصيدة نجد أنها كلها غالباً تدور حول فلسفة الحياة والموت، فذلك هو فن المقام والمقال، وكذلك عندما نقرأ مرثاه المتنبي لأخت سيف الدولة... نجد أكثر القصيدة في غير المناسبة التي قيلت من أجلها.

ولو استمرينا بضرب الأمثلة لما انتهينا أبداً، ولكن نضيف هنا موقفاً واحداً حيث كان زهير قد مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان في معلقته الخالدة، وأعطوه مالاً، فذهب المال وبقي الشعر خالداً، وكان زهير لا يمدح المرء إلا بما فيه، ولا شك أن كل صاحب همة ومجد سيفعل ذلك، فهل نقص شأن أبي الطيب المتنبي؟

إن ذلك لم يمس حرفاً من حروف كبريائه وغروره وطموحه الكبير، مع العلم أن المتنبي كان لا يشرك أحداً معه وممدوحه في التمجيد، حتى أنه يقول أن قومه شرفوا به، وفخروا به وليس العكس.

والفضول..بمجِّد ذاته (عَنِّي) – بنفسه –

والفضول.. بمجِّد وطنه (وعن وطني الغالي)

والفضول.. بمجد أبنا وطنه (وعن قلوب حميمات)

والفضول.. بمجد قلمه (أتى قلمي).. لكي يلاقينَ ضيفاً من عند أنفسنا.

فهل ينقص هذا المدح بل هذه القصيدة من قدر الفضول أبداً، لأن الفضول بقصيدة واحدة في هذا الفن أعادنا إلى عصر المتنبي والمعري والشريف الرضي، بل ونقلهم إلى

عصرنا، ونقل إلينا التاريخ والمجد والعقيدة وهي في بداية عهدها، ونقل إلينا المبادئ الإنسانية التي تتحدث عنه وعن نفسه وعن شعره ... ويكفينا أن نتمتع ونستنفذ شعورنا في هذه الصور الجديدة في الشعر العربي.

(ماجد الشيم / ضيفاً عند أنفسنا / عزة القمم / شباب النبل / مس من الهرم / الوفاء يمتد كالظل / يد الأيام والقدم / سكنى الخلود / تهش القوافي / نبشتُ له كلمي / يعانقه قلبي / تأبي المعايير عندي أن تغالطني / لا أقيس الباز بالرخم / آتى الوكور / فما انخفضت نفسي / تأوي مع الضوء في أنفسنا / ملء أنفسنا / حرماً للفجر / ساحة الكرم / ملء إحساسي / ملء دمي / حروف الأسامي / مذاق النبل / مشارق الضوء /فأخلد تحت أوراق المجد / مجدنا الهازئ الأعطاف بالعدم / وأنس إلينا / الظل الذي اتكأت فيه النبوة / ذروة التبجيل / وآدي الحياة هنا / وآدى الحيآء هنا / لقيت بضوء / بشاشة نفوسنا / تزيرني / رائع اللمم / نأتي الصباح / لكم نبذتُ كبيراً في طفولته ..... الخ).

والمقارنات والمقارنة بين النوابغ ليس بالجديد من حيث العناوين البارزة، – وإنما الجديد هو جدة وأصالة هذه المقارنات، وما يترتب عليها من نتائج معرفية، ومن لفت نظر إلى خصائص بحد ذاتها، وكما طالعنا عمالقة الفكر العربي وهم يقارنون بين حكماء العرب وشعرائهم الأفذاذ مع حكماء وشعراء الغرب والشرق، فيضعون أبا العلاء في مواجهة ماوتسي تونغ فيلسوف وحكيم الصين، وأبا الطيب المتنبي في مواجهة ومقارنة مع الفيلسوف نيتشه أو غوته .... الخ هذه المقاربات والمواجهات التي قد تكون كلية وقد تكون جزئية بمعنى المقاربة من خلال رؤية وفلسفة لموضوع واحد أو فلسفة بحد ذاتها... فنجد العقاد مثلاً يضع دراستين أو ثلاث للمقارنة بين المتنبي ونيتشه في كتابه (مطالعات في الكتب والحياة)، وموضوع المقاربات والمواجهات موضوع شيق ، ويشمل الفكر الواحد،لأن الهدف هو تفاعل ثقافي وأدلجة فكريه عن قصد وعن غير قصد، وأيضاً تأصيل فكري وفلسفي وثقافي، والبحث عن الجديد في عالم الأفكار والمثل والقيم التي قد يكون لها آثاراً إنسانية عظيمة..

ونحن هنا لا نضع تلك المقاربات والمواجهات التي تصل إلى المواجهة الكلية بين المتنبي والفضول، لأن الأمر شديد الوضوح والألق، فديوان المتنبي يتكون من أربعة أجزاء في مجلدين كبيرين، وهي حصاد سنوات طويلة من عمر الشاعر (٣٠٣-٣٥٣هـ) الذي امتلأ بالكفاح والجهاد والطموح والغرور والحسد والأحقاد والآمال والآلام والأوجاع والثقافة والمعرفة والسعي بين أيدي الأمراء الملوك وكبار ذلك العصر بين الهجاء والمدح والفخر و الاعتزاز والكبرياء والشجاعة والتحدي والهموم والفروسية، ومصاحبة الوحوش في الصحارى إلى حد أن تعجب منه الغور والأكم، و كأنه من أولئك الصعاليك الذين

عاشوا في الجاهلية وهم يطمئنون إلى الذئاب والأسود والنمور أكثر من اطمئنانهم لبني الإنسان، وكأنه عروة بن الورد أو الشنفرى أو السليك بن السلكه أو ... أو .... الخ،ومع كثرة الحساد والحاقدين لكنه ينام ملء جفونه مطمئناً إلى موهبته الشعرية التي شغلت الدنيا والناس:

أنام ملء جفوني عَنْ شواردها ويسهر الخلقُ جرَّاها ويختصمُ

وفي هذا البيت تتجلى أمارات وبعض علامات الأسرار التي أحاطت بشخص المتنبي فقد كان يدرك ماذا يقول فينام مطمئناً، فيترك الخلق والناس يسهرون ويختصمون لتحليل معاني ما يقول، وأيضاً أنه يقول ما يقول دون عناء أو جهد كما يفعل غيره من الشعراء، العصر الذي وجد فيه و عاشه المتنبي تتمثل فيه النهضة العقلية العربية وان كان في عصر الضعف السياسي ... فالشاعر كان في بلاط سيف الدولة الحمداني الذي كان يمثل قوة كبرى آنذاك،فأحاط نفسه بطائفة من أمثال المتنبي، إدراكاً منه بما تضيفه النهضة العقلية من مجد سياسي.

وهناك من التفسيرات النفسية للعملية الإبداعية ((أن الأديب لا يكتب لكي يستمتع بثمار عقله على نحو أو آخر، وإنما هو يكتب لأنه يستمتع بعملية الإبداع ذاتها))[1]....

وبمقارنة الشاعرين ببعضهما نجد أن الفضول عاش عصراً يختلف تماماً عن عصر المتنبي، لكن هناك بعض الخطوط العريضة التي يتشابه فيها العصرين كالناس والضعف والهوان والذل العربي، وتشابه الشاعرين في وحدة الطموح والاعتزاز بالذات والثقة بالنفس، حرارة الموهبة،وتدفق الشعور والأحاسيس، الارتفاع عن تافهات الأمور، والشعور بالانتماء العربي القوي، والإحساس بمرارة الهزيمة الداخلية في النفس العربية.

ورغم محاولات المتنبي التي استمرت سنوات طويلة أن يحقق طموحة السياسي فأتخذ من المدح وسيلته، ولأن نفسه تأبى عليه إلا أن يكون لها التمجيد قبل الناس، حصر المتنبي لنفسه أكثر شعره وهو يمدح نفسه، وليس ذلك عن حب للذات بقدر ما هو تعظيم وإحساس بالزهو والكبرياء، وهذا ما دفع الفضول أيضاً إلى أن يتخذ نهجاً مغايراً، فالفضول كانت طموحاته وطنية فأخذ الوطن روائع أشعاره وأعظمها، ولأن طموحه وطني عكس المتنبي صاحب الطموح الشخصي – وهذا من حقه – فقد كف عن المدح تماماً في غير ما ذكرنا، والاعتزاز بالذات والثقة بالنفس والاعتزاز بالموهبة والاحترام للتاريخ الوطني الذي يستوجب الإنصاف..دفع بالفضول إلى أن ينهل من كبرياء المتنبي في مدحه فأخذ ينهج نهجه عن يقين وأيمان بالصدق، والكبرياء، فأعطى لنفسه مناها شعراً وفخراً وكبرياءً وتواضعاً ومدحاً.

(1) التفسير النفسي للأدب د/عز الدين إسماعيل /٤٢.

فأعدنا إلى بلاط سيف الدولة الحمداني ...

وما أراني أُلْبسُ الشعر سوى شرفَ الصدقِ ونُبْلَ الشَّيمِ
إنَّه العزُّ فلا أكسو به رأسَ ذي ظلفٍ ولا ذي منسمِ
ليسَ في شعري ولا نثري سوى لبدة أطرحها في ضيغمِ

فالشاعر هنا يرى نفسه وهو يلبس ويعطي الشعر لممدوحه الذي فيه شرف الصدق، ونبل الشيم، وأن ممدوحه خير من يلبس شعره ومدحه، لأن فيه يتجلى شرف الصدق ونبل الشيم، ويؤكد الشاعر في البيت الثاني من المقطع السابق أن الشعر هو العز ولذلك فلا (يكسوه) رأس ذي ظلف ولا ذي منسم (من البهائم)، وينفي عن شعره ونثره،كل شيء قبيح، وأن شعره ونثره ما هو إلا علامة بيضاء تدل على الشجاعة والتفاؤل والأمل، ويضعها الشاعر في ممدوح الضيغم وهو الأسد الشجاع.

وروعة هذا الفن الشعري المتصاعد والعميق، - حيث أبدى لنا الشاعر نفسه وممدوحه في أبهى حُلةٍ، فلا تدري بأيهما تعجب بالشاعر أم بالضيغم، و للتدليل على تبجيل الشاعر لذاته نرصد ألفاظ هذه الأبيات الثلاث السابقة:

أ – ألفاظ يمدح الشاعر فيها نفسه وشعره وشاعريته:

١- ما أراني ٢- ألبس ٣- الشعر
٤- سوى ٥- إنه العز ٦- فلا أكسو
٧- به ٨- ليس في شعري ٩- ولا نثري
١٠- سوى ١١- لبدة ١٢- أطرحها
١٣- الضمير في أطرحها

ب – الألفاظ التي يمدح فيها الشاعر ممدوحه:

١- ألبس الشعر ٢- شرف الصدق
٣- نبل الشيم ٤- ضيغم

ومع الفارق بين عدد الألفاظ في المجموعة (أ)، والمجموعة (ب) إلا أن القارئ لا يحس بالفارق لأن الشاعر خلع على ممدوحة خلاصة الأبيات، وليس الأبيات الثلاث السابقة فقط بل وأبيات القصيدة كاملة واليت تبلغ أبياتها (٤٥) بيتاً ...

فاخراً جئتُ مزيراً كلمي وجه من صادقَ مجد القلم
وجه من أقنع صدق الحرف إنَّ عروشَ الصدقِ لم تنهدم

(فاخراً / جئت / مزيراً / كلمي / صدق الحرف / وجه من / صادق / مجد القلم / وجه – من / أقنع / إ ن –عروش الصدق / لم تنهدم).

وهذا ليس معناه شيئاً سوى إظهار مدى تمجيد الشاعر لذاته وفيما لا ينقص ذلك من تمجيد للممدوح – فقد جاء الشاعر فاخراً.. ونكرها تعظيماً لذاته – وفي كلامه وشعره وكبرياء الذي صادق مجد القلم.

ويقول جئت بأشعاري لأريها وجه من أقنع صدق الحرف، إن عروش الصدق مع النفس لم تنهدم، وإحساس الشاعر بما لاقاه من حفاوة وتكريم له بعد أن كان اليأس قد وصل به إلى ذروة الألم والإحباط من التنكر لماضيه الوطني والنضالي حتى جاء الممدوح وفي عهده ينال الشاعر بعض حقوقه المعنوية من وجه الصدق ومن صدق مجد القلم ... وليس مجد السيف كما قال المتنبي:

حتى رَجَعْتُ وأقلامي قوائل لي المجدُ للسيف ليس المجدُ للقلمِ
أكتُبْ بنا أبداً بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدمِ
مَنْ أقتضى بسوى الهنديِّ حاجته أجابَ كلَّ سؤالٍ عن هلِ بلمِ

وفي الأبيات نضج شعري وبناء قوي ومتين من اللغة والتصويرات والاستعارات والتشبيهات... كما هو الحال في شعر الفضول وإبراهيم الحمدي:

لا يؤاخي عفَّةَ الحرف سوى قمَّة يربضُ فوقَ القَّمَمِ
قَبَّلتْهُ الغيمُ فيها لم تَدَعْ جَانباً من وجهه لم يُلثمِ

فالممدوح الذي آخى عفة الحرف هو قمة فوق القمم وهو قمة والغيم تقبله فيها ولم تدع جانباً من وجهه لم يلثم، فهو قمة مرتفعة بين الغمام زيادة في ارتفاعه الذي يعانق السماء والغمام...

وأجلُّ الناس في قلبي فتى لم يلج بي ودُّه في مأثم
أو تكلّفني به الأخلاق ما أختفي منه وراء اللثم
لم يكن يوماً لنفسي خزيةً أو يذقها لحظة من ندم
لم أهُنْ في نفسه بل خالطَتْ نفسُهُ نفسي وآخت شممي

فأعظم الناس في قلب الشاعر (فتى – الممدوح)، ولم يدخله حبه (حبّ الشاعر للممدوح) في أثم أو خطأ وسؤ تقدير في القول أو الفعل. وليس هناك ما أقوله خداعاً أو كذباً ونفاقاً أو خوفاً ثم أختفي حياءً – مما قلته فيه ومدحته به – خلف لثام، فلم يكن في أي يوم لنفسي عيباً أو عاراً يذيقها لحظة من الندم على ما لا يجب أن يقال أو يفعل، والشاعر لم تهن نفسه عند ممدوحه أو في نفس ممدوحه، بل خالطت نفسه نفسي وآخت شممي، وهنا يعطي الشاعر لنفسه مكانتها حيث لم يعد هناك فرق بين نفسه ونفس ممدوحه، لأنهما نفسان نفس الممدوح خالطت نفس الشاعر وكبرياءوه وشممه:

لم يُلَـــوثني مـــن الإفـــك ولا طـــرحَ الـــزورُ ســـواكاً في فمـــي
غـــيرُ هـــذا... مـــا أراني وإلى غـــيرِه مـــا سَـــرَحَتْ بي قـــدمي

فالشاعر ينفي أن يكون قد لوّثه الإفك أو الكذب أو أن يكون الزور قد طرح سواكاً في فمه، فغير هذا الممدوح أو القمة ما سرحت إليه قدمي ولا أرى ولا أذكر أني ذهبت إلى غيره.. ثم ينفعل الشاعر ويتجه إلى نفسه اتجاهاً قوياً:

لـــيس أيُّ النـــاس قـــد تـــأتي إليـــه حـــروفي كـــالفراشِ الحـــوَّم
ليس أيُّ النـــاس قـــد يلقـــاهُ كـــبرُ يَرَاعـــي في خـــشوعِ المحـــرمِ
مـــا أرى الكثـــرةَ إلا حُفَـــراً أبـــداً فـــاغرةً لم تُـــرْدَمِ
وبحـــوري لـــيس تعطـــي لؤلـــؤي غيرَ بحـــر مـــلء أرضـــي يرتمـــي
هـــادئ الأعمـــاق والأفـــواق لـــيس بمـــوَّارٍ ولا مُلْـــتَطِمِ
إن شـــعري معقـــلُ ســـاحته حـــرَمٌ – فيهـــا جـــلالُ الحـــرمِ

فالممدوح بحر هادئ الأعماق والأفواق، وشعر الشاعر كالفراش الحـــوم، يراعـــه في خشوع المحرم، وشعره لؤلؤ وهو معقل ساحة ووطن الممدوح، وهي ساحة فيها جلال الحرم وقدسيته، فبعد نفس الشاعر لم يضع الشاعر أحداً في عرش شعره غير شهم نبيل لم يـــأت وهو الممدوح وأبداً لم يهزم الخير وهو ليس أمام السوء بمنهزم، فهو فرقدي ونجم في السماء تهتدي به إن فقدت الطريق وهو وفي يعيش مع الناس بقلب شجاع وليس بقلب بارد، وهو ينمو وجوداً بمزايا نفسه الكريمة لا سارحاً في العدم، فهو ماجد ما أضاع الجهد وهو عامل لجلال القيم، وكأن الشاعر كان يقرأ التاريخ:

بعـــد نفـــسي لم أبـــوئ عرشَـــهُ غـــيرَ شـــهمٍ نبلُـــهُ لم يـــأثم
أبـــداً مـــا هـــزَم الخـــيرَ، وليـــ ـــسَ أمـــام الـــسوءِ بالمنـــهزمِ
فرقـــديٌ، تهتـــدي النـــاسُ بـــه إن تمـــشت في المـــسار الأيهـــمِ
أو وفيٌّ عـــايشَ النـــاسَ بقلـــ ـــلب حمـــي لا بقلـــب شَـــبِمِ
سارحاً ينموا وجـــوداً مـــن مزايـــا نفـــسه ... لا ســـارحاً في العـــدمِ
ما جـــداً مـــا بهـــض الجهـــدَ بـــه بـــاهضٌ ... غـــيرُ جـــلالِ القـــيمِ

***** *****

نَهِمَتْ نفـــسي إلى الـــصدق فجـــاء بـــه الـــصدقُ ليكفـــي نَهمـــي
ذاك مـــن تُلقـــي عـــصا ترحالهـــا عنـــدَهُ نفـــسي ويـــأتي مقـــدمي

فنفس الشاعر ظلت نهمة ومتعطشة إلى الصدق، فجاء الصدق بالممدوح ليكفي نهم نفس الشاعر، والممدوح هو من تلقي نفس الشاعر عصا الترحال والمعاناة عنـــده ويقـــدم الشاعر عليه، وهذه هي الغربة التي عاشها الفضول ...لأنه فقد أمله بسرعه.

لـــيسَ يـــأتي الـــضخمُ إلاّ ذروةً تتعـــالى فـــوق وكـــرِ القـــشعمِ
وضئيلُ النفسِ يـــأوي كـــلَّ منـــ ـــحـــدرٍ مـــستروحاً للـــوخمِ

أما الشاعر بعد هذه الأبيات فإنه ينصرف إلى تلخيص حياته وفلـــسفتها وفلـــسفته للشعر ومعناه، وقيمة الصدق، وهي الأبيات الأكثر جمعاً بينه وبين المتنبي، فلننظر ماذا يقول عن نفسه لممدوحه...

إنـــني كـــلُّ الـــذي أبقـــاه مـــن عبـــق الفـــردوس، ســـيلُ العـــرمِ
خبـــأتني روحُ أرضـــي مثلمـــا يخبـــأ الألمـــاسَ جـــوفُ المـــنجمِ
بَخلَـــتْ بي أنْ تـــرى جوهرهـــا في مكـــانٍ غَـــيرِ صـــدرِ الكـــرمِ
أو كـــأني ظلْـــتُ مـــذخوراً بهـــا لمـــضيءٍ، روحُـــهُ لم تُظْلَـــمِ
باذخٌ أحـــسَبُهُ يومـــاً أتـــى الفجـــرَ أو زارَ مـــدارَ الأنجُـــمِ

وفي البيت الأول إظهار وابراز لما حدث للشاعر وأسرته في أوائل القرن سجن الأمام يحي لأبيه الشيخ عبد الوهاب الذي ظل في السجون والإقامة الجبرية، الشاعر يسمي مـــن بقو من أسرته بعبق الفردوس وهو الوحيد الذي بقى من العبق، وأما سيل العرم فهي مأساة أسرته وأبيه، فخبأته روح أرضه مثلما يخبأ الألماس جوفُ المنجم، فبخلت به أن ترى جوهرها في مكان غير صدر الكرم.. أو كأن الشعر ظل مذخوراً في روح أرضه.. حتى يلقى رجلاً روحه مضيئة، وارتفاعه يشمخ وكأنه يطاول الفجر وأفقه القادم أو يزور مدار الأنجم.

فيكون جديراً بشعري وشعري جديراً به ... ولتأكيد كل ما ســبق يفلـــسف لنـــا الشاعر هنا وظيفة الشعر ودور الكلمة، وموقفه منها:

لم تَقُـــلْ زوراً يراعـــاتي وميزانهـــا قـــسطاسه لم يَظْلَـــمِ
إنهـــا معـــصومةٌ أن ترتئـــي ورعَ التقـــوى بـــشدقي أرْقَـــمِ
إنهـــا مـــا ضَـــرْغمَتْ عنـــزاً ولا وصَـــمَتْ ليثـــاً بطبـــعِ الغـــنمِ
كم يكـــونُ القـــبحُ في الحـــرف إذا قَـــدَّر الـــدينارَ قـــدرَ الـــدرهمِ
إن رأي البـــومَ طـــواويس وإنْ الحـــقَ البـــازَ بـــسربِ الـــرَّخمِ
أو تمـــادى في نفـــاق لا ثم سُـــبْحَةَ القُـــس ونـــصلَ المجـــرمِ

***** *****

كم بيان ســـقَطَتْ منـــه الكرامـــةُ في الافـــك... ولمّـــا تَقُـــمِ
وســـطور فـــاجرات لم أجـــدْ فوقهـــا غـــيرَ حريـــقِ الـــذمَّمِ
ولكـــم أحـــزنني شـــعرٌ يُعَمِّـــمُ بـــالخزِّ رؤوسَ الـــنَّعَمِ
ولكـــم أحـــزنني شـــعرٌ تبيـــع الخطايـــا ضـــوؤه بـــالظُلَمِ
وكـــم أحـــزنني شـــعرٌ بـــه نكهـــةُ الخبـــزِ وريـــحُ اللُّقَـــمِ

****** ******

ولو أعطينا ليراعنا مُناه، ولأقلامنا هواها في بيان وتفصيل ما تحتويه أبيات الفضول من أبعاد لما أسعفنا الوقت ولا بذل لنا القارئ انتباهه، والقارئ اللبيب ... سيجد من المعاني التي لم نأت عليها الكثير والكثير .... وحسبنا أننا هنا رسمنا صورة الفضول التي نحب أن يراها القارئ بذلك المنظار الرائع الذي تنظر به الدنيا إلى شعر المتنبي، – لأنهما نفس واحدة تقاسمها الزمان، وخبأها روح الأرض.

ما أراني أُلبِسُ الشعرَ سوى شرفَ الصدقِ ونبلِ الشِّيَمِ
إنه العزُ فلا أكسو به رأسَ ذي ظلفٍ ولا ذي مَنسمِ
ليس في شعري ولا نثري سوى لبدة أطرحُهَا في ضيغمِ

****** ******

لا شك أن هناك أمور يختلف فيها الشاعران الفضول والمتنبي وأهمها على الإطلاق، انتماء الفضول إلى الطبيعة واندفاعه إلى مشاركتها الحياة، والنبض والإحساس والحياة – وبيان ذلك في باب فلسفة الطبيعة في شعر الفضول لاحقاً.

وروح الفضول سكنها طموح لا حدود له، ولكنه لم يجد زمناً يتسع لطموحه، ولا وجد سيف الدولة ولا كافور.

صاحبي مات فماتت كلماتي وخبا ومضى وناحت أُغنياتي

ومحمد أحمد نعمان الذي اغتيل في بيروت عام ١٩٧٤م.. هو صديق الشاعر وابن الأستاذ أحمد محمد النعمان، وكان شعلة من الذكاء المتقد، وعلاقته بالفضول، كانت علاقة روحية متينة، وكانا النعمان والأستاذ الفضول يأملان بمستقبل سياسي لهذا الشباب.

يا من ركنت إلى اخائه ووجدت أمني في وفائه
وإذا طمئنتُ أتى كغيث المزن ينصحني بمائه
وتجيئني منه الصنيعةَ في ثياب من حيائه
كم سرتُ في معروفه أجترُّ ذيلاً من ردائه

وهي قصيدة طويلة قليلاً وقد أوردناها في الأبواب السابقة، والفضول ليس من أولئك الذي يعطون أشعارهم لكل من هب ودب وهاتين القصيدتين قد أثبتنا أربعة أبيات من الأولى وسنأتي على الثانية بنموذج وقد أثبتناها في أبواب سابقة وهي (راح من رونق بالاخلاق عمره)، وعلى الرغم من حياة الشاعر التي قضاها في علاقات واسعة مع وجهاء وكبار رجال الدولة (آنذاك) إلا أن أحدهم لم يحصد قصيدة أو بيتاً واحداً من الفضول، وانصراف الشاعر نحو الأغنية والقصيدة العاطفية أعطاه حرية الهروب من لحظات ومواقف الإحراج المتعارف عليه، ولعل ذلك سبباً في تفسير بعض الناس لقصائد بذاتها أن لها مضموناً معيناً،و الأمر ليس مضموناً ولاهم يحزنون.. بقدر ما هي مضامين ذاتية بالشاعر،

وليس لها علاقة بأحد، وعلاقتها لا تتجاوز قلب الشاعر وأغنياته التي يعزفها في كل فجر وفي كل شروق، واعتزاز الفضول بشعره إلى هذا الحد، أعطى له مكانته الأدبية والتي حاول تجاهلها الكثيرون،وعلى الأخص عبدالله البردوني، والذي رغم كتاباته الكثيرة والمتعددة إلا أنه ما تعرض للفضول إلا غنائياً وبسطور محدودة.. وكأنه لم أو لن يقرأ ديوان الفيروزه، مع الاعتراف بأن المقالح أفرد للفضول جزءاً خاصاً في كتابه (من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي) لكن المقالح ترك أثراً، ودعا الشباب للسير في طريقه.. وكفى بذلك.

يا من يعاجز نبله قلبي فيعجز عن جزائه
لم يلق ما يعطيك غير محبتي وسوى ثنائه
أنت الأعز لديه والأولى به من أقربائه
يأتي القلوبَ مباهياً بك رافلاً في كبريائه
يا ضخمُ ما سواك في قلبي الكبير سوى إبائه

(رافلاً في كبريائه / ما سوَّاك في قلبي الكبير سوى إبائه / أنت الأعز لدى قلبي / والأولى به من أقربائه).. إذا فالكبرياء والأباء من صفات من يستحق قلب الشاعر، أضف إلى ذلك أن قلب الشاعر عاجز عن جزاء الممدوح وهو الأولى والأحق بقلب الشاعر من بين كل أقربائه.. هذا يعني أن الممدوح من أقرباء الشاعر ... وكأن الفضول يرى أن يرسم مكانة صديقة وابن عمه ... ووقوفه إلى جانبه وهذه إشارة إلى طغيان المادة على الروح والحب حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، ولعل طبيعة الشاعر الفضول المنطلقة والتي تكره القيود والحواجز هي مادفعته إلى أن يعيش في دنيا المشاعر حالماً غرداً لأن تلك هي طبيعة الشعراء، ولأن من رونق بالأخلاق عمره أستحق أن يسكن قلب الشاعر فقد كتب فيه أيضاً:

راح مَنْ رونق بالأخلاق عمره ومضى من أسكن الأيمان صدره
ليتني أمتلك الأفق وفجره كنتُ لقيتُ بروح الفجر ذكره
ليت أني أملك الغيمَ وقطره كنتُ ظللّت بكل الغيم قبره

فقلب الشاعر مازال لفقده ساخن الجرح فيتساءل الشاعر لماذا هو وحده الذي يعاني الحزن فيه؟ ولماذا عيونه وحدها هي التي تذري وتذرف الدموع؟ رغم أنه جمعنا في صدره وقلبه:

هذه الأحداث لم تترك باباً من حبورا
فوقها تسحب أكفاناً وموتاً وقبورا
لكأني ساحر سوف يلاقي الناس بعثاً ونشورا

أما فلسفة الشاعر للأيام والحياة والأصحاب والمعاناة فقد يكون في هـذه الأبيـات بعض من تلك الفلسفات:

كُلَّمـا أُحْـسنُ في الأيـام أمعنت الأيامُ سـوءاً في عقـابي
وصـحابي كثـرة لكنَّهـا نزعت من بينهم أغلى صـحابي
وجعـي يمـضغ أعـصابي ويغري بأحاسيسي عظمي واهابي
بعد صحبي لم يعد عيشٌ سـوى سفرٌ في الشوك أو لعقُ شـراب

وبعد ... ماذا بعد؟

لم أزل أحتمل الأحزان ما جار وما خَـف وجعي في فقد أصحابي ري نفسي وأتلف
فلمـاذا أنـا بـاق؟ ولمـاذا أتخلـف؟ ورحيلي بعدهم أحنى على حسِّي وأرأف
يبست عيني، ومجرى الدمع في عيني قدجَف لم يعد في مقلتي شيء على الباقين يُذرَفْ

ولقد أوردنا هذه القصيدة في الأبواب الأولى وأشرنا إلى مصدرها – هناك – ولعـل المقطع الأخير يحمل لنا ما وصل إليه الشاعر من إحباط بسبب ما تعرض له مـن نكبـات واحدة تلو الأخرى، وهذه النكبات قربت لدى الشاعر الإحساس العميق بالألم والمـرارة الحادة من فواجع الحياة، فدفعه ذلك إلى أن يرى في الموت ما يشبه الخلاص الذي مـزَّقَ نفسه حزناً وألماً، ولعل صاحبه كان من أولئك الذين يأمل فيهم الشاعر ليكونوا نجومـاً في السماء تضيء ما حولها من ظلام وسواد وحُجُب.

((ولعل الناقد الأدبي الذي لا يعرف أوضاع بلادنا وما حفل به تاريخها الحديث مـن فواجع خاصة وعامة،لعله قد يدهش لكثرة القصائد التي تتسربل بأردية كثيفة من الأحزان، وقد يكتشف فيها نزوعاً تاريخياً إلى البكاء أو ميلاً فطرياً نحو الألم، وكأن الشاعر لا يخـرج من قصيدة حزينة إلا لكي يدخل في قصيدة حزينة أخرى، وحقيقة الأمر أن هذه القصائد تصدر عن مواقف معيَّنه وعن تجارب لا زيف فيها فالشاعر في بلادنا محكوم بالحزن وهـو ينتقل من حزن إلى آخر، ومن مأساة إلى مأساة، واضح ذلك وبشكل بالغ العمق من لـون أشعاره ومما تعكسه تلك الأشعار من صور القلق والشجن ...))[1].أ.هـ.

وفي تلك الرسالة التي بعث بها الفضول نثراً إلى الأستاذ أحمد محمد النعمان وهـو في جنيف.. فلسفة كاملة لطموح الفضول، فالأستاذ النعمان الأب الروحي للحركة الوطنية اليمنية، وصاحب، الأنة الأولى والتي بعث بها في أكثر من عشرين صفحة، وكأنها دسـتور لحياة الشعب اليمني ... لكن الأمام يحي استقبلها بغفلته وعنجهيته التي أطاحت بها الأيام ألم يقل الإرياني عبد الرحمن – رحمة الله:

أنصفِ الناسَ مـن بنيـك وإلاَّ أنصفتهم من دونـك الأيـام

(1) من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي –/ د. المقالح / صنعاء / ١٢٥.

ولعل المناصب التي تربع عليها المعلم والأستاذ التربوي حتى العظام (النعمان) وحتى عام ١٩٧٤م ... وهو الأمر الذي أنسى الأجيال ما قدمه الأستاذ النعمان، فأرسل إليه الشاعر بتلك الرسالة الغاضبة وفيها العتاب والتقدير ومحاولة إصلاح ما أفسده الدهر من جمال وخير، – وفيها كل ما يمكن أن يفهمه القارئ العادي، ثم تبع الرسالة بقصيدة ساخنة حزينه ناصحة متوجعة متفائلة، ولكن كي تتضح الأمور نعود لعرض هذه الرسالة النثرية...

((إلى عذاب الماضي ...
وضياع الحاضر..
إليك أشواقي الحائرة يا حزني الكبير..
كم أتمنى لو أني لم أمسك بالقلم لأكتب إليك..
إنني أتامله الآن فوق أناملي، وكأنه يعاتبني..
إلى من تُراني به أكتب ... ولم أخط به ألفاظي لتسرح إلى الضياع
أيها الضائع الثمين..
أيها الهارب من حاضرك وماضيك
(إن ماضيك مابرح في مواطن الشروق)
(وحاضرك لا يدري لمن يصنع ولا لمن يهب ما يحمله لك من تبجيل ...)

****

أنك لم تعد بحاجة إلى هزل ولا إلى جد
فلقد هزلت حتى ولد هزلك الحقيقة..
ولقد جديت حتى بدا جدك على هذه التربة من صناع التاريخ
المشكلة أنك لا تدري ... كم هو وزنك..؟!
إن ميزانك ليس في يديك ولكنه في يد الآخرين ... ليزنك به الآخرون!
في رسالتك الأخيرة التي نشرت في اليمن الجديد.. عرفت كم هو ...
جهلك لوزنك! وكم هو ضياعك داخل نفسك ... أيها الضائع
الكبير ... الكبير ...

****

لا أستطيع أن أجد الكلمات الكافية التي يمكن أن تحمل لك العقاب ولكني سآتي إليك لتعاونني في جمع ما يكفيك للعقوبة من هذه الكلمات ...!؟

كنت أريد أن أرسل لك البعض مما يمكن أن يكون شعراً أو يدخل في حساب الشعر...

ولكني أجلت ذلك إلى لقاء..

ثم ماذا يضيرك لو أتيت ...؟
لترى كم أنت في الناس وللناس وفي معايير التاريخ ...
إن الليل هنا في حاجة إلى المضيئين..
وقد كنت فيما أعرف واحداً من هؤلاء
فهل بقي في روحك للناس شيء من الضوء
إن موقعك ليس أبداً حيث أنت..
إن كل المرايا هنا كابية لا يرى الحاضر وجهه في زجاجها الذي صنعه التزييف ...
فتعال بصدقك ليرى الناس أوجه حقائقهم على مرآته المتلألئة ...

****

لا أستطيع الاستمرار في الكتابة ...
لكي لا أرى قامة كذبي وقد امتدت طويلة طويلة ... طويلة على السطور انني شديد الشوق إليك ...
دعنا نأخذ ما بقي من أيام في هذه الحياة ونحن على تواجد وقرب ...
إن في فقدنا لنكهتك من بيننا وحشه قاسية لا تطاق..
وإن في إصرارك على أن نفتقدك من بيننا جنايه بل وجريمة تقترفها ...
ضد نفسك وضد تاريخك.. وماضيك وضد الآخرين ...)) أ.هـ
(عبدالله عبد الوهاب نعمان)

****

ولولا ما في الرسالة من أهمية بالغة باعتبارها مفتاح شخصية الفضول الطموحة التي تريد أن تحقق آمالها في الوطن، ولولا الأهمية البالغة لكل سطر ولكل كلمة وردت في الرسالة ما أثبتناها كاملة ... فالفضول قد كتب – على ما يبدو – الرسالة في وقت بلغت فيه حالته النفسية القلقة والطموحة والمنفعله أقصى غاياتها.. فما جاء في الرسالة ليس وليد اللحظة، بل أيام وسنوات وألام، و كانت رسالة الأستاذ التي نشرها في مجلة اليمن الجديد – ولم يتسن لنا العثور عليها – هي من أشعل كبريت نفس الفضول ... فسطر على أثر ذلك رسالته القاسية.

ورغم قسوة الرسالة إلا أن الشاعر الفضول جعل من القصيدة التي تبعتها اعتذاراً وشرحاً وتفصيلاً جميلاً.. فالفضول يعتبر الأستاذ قد هرب من حاضره وماضيه فأصبح ضائعاً، ويعتبر الشاعر أن الأستاذ بهربه من مواجهة الحقائق كان هزلاً،وبذلك الهزل ولدت الحقيقة (حقيقة الضياع).. ((أنك لم تعد بحاجة إلى هزل ولا إلى جد، فلقد هزلت حتى ولد هزلك الحقيقة ...))، ومع ذلك فالشاعر لا ينكر أن الأستاذ على جهله لوزنه وضياعه

داخل نفسه ... ثم يطوي الشاعر صفحة الضياع ... ولعل هذه الأبيات مخاطبة للنعمان أيضاً، وقد تكون للذات بعد حين ....

يا من رحلت إلى بعيد قصِّر مسافات البعيد
يا آخر الأوراق في زهري تساقط كالجليد
يا آخر الاشراق في عمري وآخر وجه عيد

ثم يطلب منه أن يعود... ويسأله: ماذا يضيرك لو أتيت؟ ويعلل له أسباب رغبته:

- لترى كم أنت في الناس وللناس وفي معايير التاريخ..
- إن الليل هنا في حاجة إلى المضيئين
- فهل بقي في روحك للناس شيء من الضوء
- إن موقعك ليس أبداً حيث أنت ...
- إن كل المرايا هنا كابية ...
- فتعال بصدقك ليرى الناس أوجه حقائقهم على مرآتك المتلألئة..

مرآة صدق الأستاذ... التي أتفق وأجمع عليها الكثيرون من أعدائه و أصدقائه وأدل الأدلة بقاءه في جنيف عن قناعة كاملة وحتى نعرف قناعته من مذكراته إذا نشرت.

والفضول بهذه الرسالة يكشف لنا انه لم يكن يقصد حين قال (إن دورنا انتهى ويجب أن نعترف بذلك ... أو أن لكل عصر دوله ورجال.. ففي داخلة وأعماقه رغبة وطموح إلى أن يكون له شأن في السياسة، لكن دولة الشعر أبت إلى أن تجعله على رأس دولتها سياسة وعشقاً وطموحاً، ولعل الأستاذ النعمان قد وصل إلى قناعة كاملة بانتهاء دوره العملي ليبقى دوره في قلوب وعقول الأجيال، والبراءة تطل من عينيه.. وصادف عام ١٩٧٤م.. الذي تكرر فيه الانسحاب من الساحة أن اغتيل أنجب أبنائه (محمد النعمان) في بيروت.. وكان الفضول يجد في ذلك الشاب القاسم المشترك بينه وبين أستاذه / أحمد محمد النعمان.. هذا ما دفعه إلى أن يعود في رسالته القاسية إلى أشواق الدم والنسب.. وحب الوطن وحب الخير للوطن..

- انني شديد الشوق إليك
- دعنا نأخذ ما بقي لنا من الأيام في هذه الحياة ونحن على تواجد وقرب...
- إنَّ في فقدنا لنكهتك من بيننا وحشه قاسية لا تطاق..
- إن في إصرارك على أن نفتقدك من بيننا جناية بل جريمة تقترفها ... ضد نفسك وضد تاريخك ... وماضيك وضد الآخرين ...

فهل أوصلنا معنى الرسالة ... ربما! وهل هذه القصيدة فيها إنصاف وفلسفة لفكر الأستاذ أحمد محمد النعمان، وقد كتبها الفضول إليه:

أين يمشي يعبر الـدربَ وحيـدا يطـأ المجهـول لـيلاً وجليـدا
ملقيـاً فيـه مـنىً ملهوفـةً ومـصيراً في ذارعيـه وليـدا
حـاملاً كـربَ حيـاة عاشـها لحياة النـاس مـصلوباً شـهيدا
يا أبانـا أيـن تمـضيّ ونُهانـا أنت يستصحبك الـضوء دجانـا
كلمـا سـرنا إلى غـيٍّ نهانـا فيك عن منتجـع الغـي حجَانـا
يـا وقَـار النـاس إنْ زلزلهـا هرجٌ، علمتها الخطـو الرشـيدا
وإذا أبلـى هواهـا عقلـها نزقاً، أعطيتـها عقـلاً جديـدا

قل إلى أين الخطا منتعلاً هرباً // ضاق بنا ذرعاً وصبرا // ولماذا لا ترينا جَبَلاً ضاق // بالعاصف والأنواء صدرا.. أي صقر أنت ترضي بدلاً // من سماواتك أحراشاً وقفرا تترك القمة تؤوي حجلاً // وقطا.. يبني على القمة وكرا // من أحق الطير فيها نزلا //؟ من ترى عندك للقمة صقرا // لن يضيء الناس إلا رجل // مشرق في قلبه يحمل فجرا.

أنت للـشعب الـذي أعطيتـه من ضحى عمرك ريـشاً وجناحـا
فمـضى في شـأوه مـستنبتاً في حقول الـشمس ورداً وأقاحـا
حظنا مـن رشـد الأمـر ومـن أمـل الأرض وتـدبير الـسماء
هـو في روحـك مكنـون وفي قلبـك المعطـاء دفـاق الـسخاء
كنَزتـه فيـك مـذخوراً لنـا حكمة الرسـل وصـدق الأنبيـاء

****** ******

(عُدْ) إلى الفجر الـذي أطلعتـه من دجى التاريخ فردوساً وسـحرا
فـاحتوى أحلامنـا في حـضنه حانياً، يرضـعها ضـوءاً وعطـرا
وإلى القمـة مـن أولى بهـا قدرة منك، ومـن أكـرم قـدرا؟
لن يكـون العمـرُ في محـسوبها نحن نعطيك مـن الأعمـار عُمْـرَا

في الأبيات التي كتبها الفضول إلى الأستاذ النعمان خلاصـة تاريخيـة، أو تاريخيـة الخلاصة، وصول النعمان إلى قناعة كاملة بضرورة ترك السلطة جعله يعبر الدرب وحيداً، ويطأ المجهول (المنفى) – ليلاً وجليداً – فصورة الليل مفزعة بحد ذاتها وهو يطـأ المجهـول وحيداً، إن مجرد تخيلنا لذلك ينـزل الرعب في قلوبنا، والهلع في أجسادنا، ويزداد هلعنـا وتتضخم الرهبة والألم ونحن نكاد نرى ونتيقن والنعمان يلقي أمانيه الملهوفـة للخـلاص والحرية والمصير الذي ما زال في ذراعية وليداً إلى ذلك الليل المرعب والجليد القاتل، ويبدو أن النعمان الأستاذ كان للفضول آخر الألحان التي تبعث في نفسه معنى وقيمـة للحيـاة وجدواها، وكان آخر الإشراق وخاتمة للنشيد، ومن عجيب أمر الأقدار أن سبق الفضول

الأستاذ النعمان بأكثر من عشر سنوات، فكان الفضول للنعمان آخر الألحان وآخر الأوراق التي تساقطت حيث عاش النعمان ما بين (١٩٠٩م – ١٩٩٦م) وعاش الفضول مابين (١٩١٨– ١٩٨٢م) ولم يمض النعمان هكذا إنما حل معه كرب حياة عاشها كي يحيا الناس ... ويورد الشاعر عبارة (مصلوباً شهيدا)، وفي ذلك توحيد شعوري بين منزلة أبيه، ومنزلة النعمان في قلبه – أما قال دعبل الخزاعي:

علوٌ في الحياة وفي الممات لحق أنتَ إحدى المعجزات

وتاريخ المكانة والحجم الذي كان عليه النعمان في وطنه وهو قدر شهد له به التاريخ.

وقدر النعمان في وطنه من تلك الأدوار التي نقشها التاريخ بحروف من نور وقد أعطى وأنصف – المؤرخ / عبد الرحمن طيب بعكر دور النعمان في قضية اليمن الوطنية، فأفرد له كتاباً سماه (ثمانون عاماً في حياة النعمان)، وكان قد أفرد للمجاهد الشهيد أبي الأحرار محمد محمود الزبيري كتاباً قبل كتاب النعمان، وبما أن، النعمان والزبيري رائدا الحركة الوطنية فقد كان لزاماً على المؤلف أن يوأخي بينهما فكراً وتاريخاً ووطناً وكفاحاً، وقد تفوق الزبيري لشاعريته وشعره، وقد كان للنعمان حظ في نظم الشعر وله في ذلك قصائد كثيرة وقد أثبت الأستاذ / بعكر بعض المقطوعات، في قضية الوطن.

دوافع الفضول والمتنبي:

إن الذي دفعنا لكتابة هذا الباب بين الفضول المتنبي، إضافة إلى ما سبق، أن المتنبي والفضول ينحدران من أرض واحدة هي الأرض اليمنية، وجمع بينهما الهم العربي المشترك، وجمع بينهما اليتم المبكر، ((ومن المؤكد الذي لا يرقى إليه شك أن المتنبي كان عربياً صميماً، وأن العرب لم ينبت بينهم شاعر قبله ولا بعده أستشعر العروبة استشعاره، حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالاً لكان للمتنبي هو الشاعر الخليق بأن يقام له هذا التمثال، وقد لبس درعاً وشده في وسطه منطقاً وسيفاً وفي إحدى يديه رمح مصوب وفي الأخرى ريشة الشاعر وهو يمتطي حصاناً وكأنه يطلب القتال والنزال، فهو هذا التمثال الذي يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لأعدائهم، وإنه ليصبح بكل قوته هادراً عاصفاً، يريد أن يوقظ من حوله من العرب ويستنفذهم مما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله:

ودهر ناسُهُ ناس صغارٌ وإن كانت لهم جثث ضخام

وليس ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين، وإنما محاولة صارمة لتخليصهم من أخلاقهم الذميمة التي جعلتهم يخنعون لحكامهم الأعاجم – آنذاك – الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عسرا)) أ.هـ.

والتقيا الفضول المتنبي ثورياً على رفض الظلم والخنوع وديوان الفيروزه يفيض بذلك.

والآن لنتهيأ للدخول في فصل الربيع وفي غير أوانه ومكانه وإلى فلسفة الطبيعة في شعر الفضول.

في نهاية هذا الباب:

ليكون القارئ على علم بأن القصيدة التي بعنوان (فاخراً جئت) والتي مدح بها الفضول رئيس اليمن إبراهيم محمد الحمدي والذي كانت تربطه به علاقة قوية – للغاية – فهو أمل الفضول كما كان سيف الدولة أملاً للمتنبي، وبعد سنوات، كان على الشاعر أن ينظم قصيدة في مدح الرئيس علي عبدالله صالح ولم تواتيه الأسباب ولم تتهيأ له ... فمدح علي عبدالله صالح بنفس القصيدة التي مدح بها إبراهيم الحمدي، فهل نقول عنها القصيدة التي مدح بها رئيسين، أم أنها ستبقى في مدح الحمدي، تفاصيل الموضوع ستجدونه في باب الفكر السياسي في شعر الفضول[1]، ولقد تحقق المؤلف من عزيزة النعمان عن صاحب القصيدة المقصود بها.. فأكدت ذلك[*].

(1) تم حذف هذا الباب من الكتاب لأسباب موضوعية وكان قد نشر في صحيفة الوحدوي

(*) أنظر لقاء المؤلف مع عزيزة النعمان – بصفة خاصه ...

الباب العاشر

فلسفة الطبيعة في شعر الفضول!

(أ)

أذكـــرك والليـــالي غامـــضات النجـــوم
والـــسماء مستـــضيفه ســـاريات الغيـــوم
والقمر قـــد تـــوارى خلـــف غيمـــه يعـــوم
أذكـــرك والريـــاحين يـــسكبين العـــبير
والمـــنى كالفراشـــات مـــلء روحـــي تطـــير

(ب)

مَهْنى حبـــيبي وســـط داري يحـــوم كأَنَّ عندي كـــل ضـــوء النجـــوم
والنـــهر والزهـــر وقطـــر النـــدا ورونـــق الـــشمس وظـــل الغيـــوم

ونحن نتحدث عن فلسفة الحب في شعر الفضول قلنا بأن الطبيعة كانت مـــدخلاً إلى الحب في شعر الفضول، وكانت الطبيعة هي تلك اللوحة الفلسفية للحب عند الفضول لأن الطبيعة تركت لوحتها التي أبدعها الخالق في نفس الشاعر.. فكان الحب عنـــده امتـــداداً للطبيعة بما هي عليه من جمال وإشراق روحاني ... وكما تركت الطبيعة في الأندلس أثرها على شعرائها جميعاً وبلا استثناء ...

لله درُّكـــم يـــا أهـــل أنـــدلسٍ مـــاء وظِـــلٌّ وأنهـــارٌ وأَشـــجارُ

أيضاً... تركت الطبيعة لوحتها خالدة في نفس وشعر الفضول! وهو نفسه عند أيوب طارش ولذلك كان اللقاء بينهما مشترك... ولذلك نسمح لأنفسنا أن نعكس الفلسفات الإنسانية، فيكون الحب في شعر الفضول هو المدخل أو البوابة الإنسانية التي وصل الفضول إلى الطبيعة من خلالها، فكما كانت الطبيعة هي اللوحة البديهية التي رسم عليهـــا ورائـــع شعره بل كل شعره الذي فلسف فيه الحب والحياة والقلب... كان الحب في شعر الفضول رمزاً خالداً للطبيعة، والطبيعة التي نعنيها هي تلك اللوحة التي أوجدها الخالق من شمـــس وقمر ونجوم وجبال وأمطار وشروق وغروب وزرع وثمار وأشجار وأنهار وأبـــار وغيـــوم

وسحاب وندا وظلال وبحار وسيول وغيوم وأغنام وطيور وخضرة وهواء وجمال و..... و..... الخ.

وحتى لا يختلط الأمر علينا وعلى القارئ، وجَبَ أنْ نفرق بين وصف الطبيعة وبين فلسفة الطبيعة، لأن وصف الطبيعة هو فن من فنون الشعر التي ازدهرت وتطورت إلى حد أصبحت الطبيعة غرضاً شعرياً لكل من هبَّ ودب من الشعراء وبخاصة في عصر الانحطاط، لأنهم وصفوا الطبيعة وصفاً تقريرياً ناقلاً، وهو أمر يبعث على الملل والحكم بفساد الذوق والحياة .... والحب.

أما فلسفة الطبيعة فهو علم قائم بذاته في إطار منظومة من العلاقات الحية والنامية بين الطبيعة والحياة والحب والقلق والشكوى والمناجاة والشوق والحنين والغياب والظلم والحكم والثقافة والمعرفة والنور والعقل .... و .... و.... و .... و .... وإلى ما لا نهاية من تفاعلات الحياة.

فعندما تكون الطبيعة هي المقصودة بذاتها، فالأمر وصف للطبيعة. وعندما تكون الطبيعة فلسفة للحياة وجمال الحياة والحب، فالأمر يكون فلسفة للطبيعة وللحياة جميعاً... ولا يقوم بذلك إلا شاعر عظيم!

ونحن في اليمن خلال ثلاثين عاماً أو حتى عشرين عاماً مضت – ونحن الآن في عام ١٩٩٨م – نعلم علم اليقين رؤية وسماعاً أن الأرض كانت خضراء جميلة.. وأن الأمطار كانت منتظمة، والزراعة قائمة، والمدرجات مشيدة، والآبار تروي الظمأ، والأنهار والجداول تتفجر في كل مكان من حول القرى، – ولا شك أن هذا الأمر كان مستمراً على مدى السنوات الطويلة الأخيرة (١٩٠٠– ١٩٨٠م) ولا شك أنه حدثت في بعض النكبات ي عدد من السنوات المتفرقة، ومادام الأمر كذلك، فإن هذا يقودنا إلى تقرير حقيقة هامة.. هي أن الشاعر عاش في قريته الخضراء الجميلة وفيها كل ما يحيط بها من أسباب الحياة الجميلة (١٩١٨– ١٩٨٢م) وهي سنوات أدرك فيها الشاعر أنه يدب على الأرض وأنه يعيش والشمس تشرق وتغرب والسماء تمطر والأرض تعطي خيراتها والجبال ترسل السيول وتتفجر منها الأنهار والغيول – والأغنام ترعى، والأبقار ضروعها تمتلئ باللبن، وكأن للآبار ذلك اللحن البديع، وكانت الجبال تكتسي بالخضرة والبهاء وتمتلئ بالأشجار والطيور والعصافير (والجوالب)، والعقاب والنسور والصقور والأرانب، والمدرجات الزراعية ليست عبارة عن مدرجات فوق الجبال بل إنها أصبحت مدرجات مرسومة في النفوس والأحاسيس – والنساء يرسمن لوحة فنية بعجز عن رسمها أبرع من يرسم من البشر لأنها لوحة إلهية وهن يحملن جرار الماء في الشروق وفي الغروب وعند السحر، ومن الذي لا يعرف فجر القرية وشروق القرية وأصيل القرية وغروب الشمس في

القرية،.. وفرحة الطيور وهي ترى الفجر قادم، فتتهيأ لتبدأ يوماً جديداً مشرق الألوان، والصباح يطلع على الدنيا، فيضئ كل مكان، والنساء يشاركن الرجال في العمل الزراعي، فينتشرن كالفراشات بين الحقول وفي الوديان وفي الشعاب، وتحت ظلال الأشجار من الضحى وحتى قدوم الأصيل وهو يتقلب بين الندا والظل تحت الأشجار وتحت النخيل، والأنهار تغمغم وتصدر أصواتاً مثل هديل الحمام، ومياه الأنهار تختال بين الرُّبا وظلال الورد والزهر تذري عطرها، وبشاشة الصبا، والملاح من الصبايا والنساء نائمة صفوف فوق الأعشاب الخضراء المبلولة بالندا وكأنها تنام على كبوش الفل معطر ومرشوش، نساء وكأنهن الظبأ، والواحدة منهن لها مقلة كحلاء نجلأ خلقة كأن أباها الظبي أو أمها مها:

على المراعي قام خلّي يشوف كحلة عيونه في عيون الظبأ
كل الظبأ واحبيبي شلين مَن كحل عينك وما بقى إلا نصيبي مطروح ما بين جفنيك
وفوق صدر النهر حامت فراش كأنهن مثلي ظواميء عطاش
وهن يشربن الندا والرشاش والضوء و العطر وريح الصبا

وفي هذه الروائع من الجمال والكواذي في أعاليها القمارى يتغانين، هذه تغني لهذي وهو غناء كهمس العذارى، والطيور تتبادل الحوار مع صويحباتها عند الضحى وفي الليل وفي البكور...

وفي الليل والغموض يلف النجوم والقمر قد توارى خلف غيمه يعوم، والسماء مستضيفة ساريات الغيوم، والهواجس بقلب الإنسان ساهرة لا تنوم، والرياحين يسكبن العبير، والمنى كالفراشات ملء الروح والليل والنجم وهمس النسيم..الخ.

وبين هذه المناظر الخلابة... وجد الشاعر نفسه يتيماً، وأباه سجيناً، وأسرته قد نالها من الشتات والتنكيل ما نالها سجناً وقتلاً وطرداً...الخ، وبقدر ما انطبعت في مشاعره مناظر الحياة، انطبعت أيضاً احساساته بالألم والظلم والظمأ واليتم والضياع والتشرد، بل إن هذه الأحاسيس عمقت منظر الطبيعة والغروب والشروق في نفس الشاعر، فلا تغرب الشمس إلا وخيال أبيه – وهو طفل – في أصيلها أملاً بعودته غداً، ولا تشرق شمس إلا وأمله يتضاعف في وصول أبيه السجين، ليأخذه بأحضانه الآمنة المطمئنة الآملة بالحياة والجمال والشروق والحرية...

إذا وهبنا النوم أجفاننا أمسى هوانا تحتها لا ينوم
وإن أتانا الصحو خلّى لنا قيامة الأشواق فينا تقوم
ما تشرق الشمس على دارنا إلا وضمتها إليها ضموم
ولا يمر الليل من بابنا إلا دعا لحبنا أن يدوم
والفجر ما يبدأ إلا بنا يطوف حولينا طواف القدوم

والشاعر (رادار) لكل ما يدور حوله، والفضول بشاعريته وموهبته التي ولدت معه كانت تستطلع مع صاحبها كل مناظر الحياة ومواقف الحياة، وتعمل على تجميع كل جزيئات الطبيعة في نفس الطفل الذي مارس حياته ظاهراً بأن بدأ بتلقي العلوم القرآنية في الكتاب وعلى يد أستاذه وابن عمه، النعمان أحمد محمد، والأسرة لم تعد كما كانت (مادياً)، ولكن ما هي عليه من وعي وأدراك دفعها إلى أن تختار أنجب أبنائها ليكون سفيرها في وزبيد خلفاً للأستاذ / أحمد محمد النعمان الذي ظل هناك لمدة سبع سنوات، فكان الفضول خير خلف لخير سلف كسفير للأسرة في طلب العلم، ويبدو أن خصوصية الفضول العقلية.. والعاطفية دفعت بالأسرة لأن تبدأ بإرساله إلى صنعاء حيث أبيه لرؤيته والقرب من سلاسله وأغلاله ومآسية، ومحنه، وانهل من معارف الجامع الكبير الذي كان مهوى أفئدة طلاب العلم .... ولم يغفل الفضول عن زبيد فقصدها طالباً للعلم، ومع ما في الرحلة منذ بدايتها من فوائد، كذلك فيها معاناة وجوع وألم، فخرج الفضول صغيراً من القرية يحثه الشوق إلى أبيه و الرغبة العارمة في أن يتلقى العلم، وقد تمثلت نفسه الرقيقة وحسه المرهف ألوان الحياة والطبيعة والشروق والغروب، وفي جوانحه موهبة رفيعة المستوى، وفي رأسه عقل منظم وتفكير مسلسل، ولديه استعداد كامن في نفسه نحو المعرفة والعلم والقراءة والإطلاع والتثقيف ومنذ (١٩١٨م وحتى ١٩٤٤م) ميلاد الشاعر ولقائه الزبيري والموشكي في عدن استطاع الفضول أن يدرك كل ما حوله من قضايا اجتماعية و سياسية واقتصادية وثقافية ... غائبة، وتلك كانت أخصب السنوات في عمر الشاعر التي هيأته الأقدار من خلالها ليأخذ لواء السخرية من الواقع المؤلم، فيسلطه ليكون سياطاً ملتهبة تقرع رؤوس أفراد الشعب الذين غرقوا في ما هم عليه من ظلام وجهل، والعمل على توعيتهم معرفياً وعقلياً، وقد أدرك أن المعرفة هي السلاح للقضاء على الجهل والظلم و الظلام، وقال الفضول في ذلك عندما تم تأسيس كلية بلقيس في الشيخ عثمان في كتيب المعركة ضد الجهل: ((إن مما يثير الغبطة في النفس، ويدعوا إلى التأمل المتفائل هو هذا الأتجاه الذي أتجهه اليمنيون مؤخراً في عدن نحو فكرة التعليم، وتصميمهم في إصرار للدخول في معركة فاصلة مع الجهل، ومع المستقبل المظلم البشع الذي كان ينتظر أبناءهم وأجيالهم إن هم استمروا في هذه الحيرة وفي هذا التخبط وفي هذا التمزق والشتات الذي نخر في وجدانهم منذ وجودهم على هذه الأرض ، وسد في وجوههم كل مسلك إلى الطريق الصحيح...))[1]. أ.هـ.

وفي الأبواب السابقة استعرضنا كثيراً من المراحل التي عاشها الفضول، وهي مراحل عملت وتظافرت جميعاً في إثراء عقليته الخصبة وروحه الطموحة، وسخريته اللاذعة مما حوله، وبمراجعة التاريخ يتبين لنا أن الفضول قد شق طريقه السياسي والأدبي والصحفي

(١) كتاب الفضول في الأربعينية / ٨٢ م.

بمفرده، بحكم طريقته في الكفاح والعوامل التي تهيأت له، بعكس الأستاذ / أحمد محمد النعمان الذي تميز نهجه مع الزبيري عبر طرق ووسائل وأساليب أخرى، واختلاف الوسائل بين الفضول والنعمان أوجد شعوراً بالبعد النضالي رغم أنهما كانا أقرب إلى بعضهما من غيرهم، وقد تغلب السياسي والوطني على أحمد النعمان رغم شاعريته وانتمائه للأدب ونظمه للشعر، ولعل ثلاثة من آل النعمان قد أصبحوا علماً على أنفسهم وعلى بعضهم بعضاً وهم الأستاذ النعمان وابنه محمد أحمد النعمان و عبدالله عبد الوهاب نعمان، فكانت المودة بينهم كأقوى ما تكون لأنهم امتلكوا عقولاً فذه تفهم بعضها وتجد عزاءها فيما بينها.

ولو تصفحنا شعر الفضول الذي بدأ بكتابته لما وجدنا فيه شيئاً من عناصر الطبيعة والريف لأن الهم الوطني كان غالباً عليه تماماً، ولما دخل الوطن مرحلة ما بعد الثورة وتغيرت تبعاً لذلك الظروف السياسية والاجتماعية ووجد الفضول نفسه – كما أسلفنا – يستجر معاناة أسرته وأبيه، وما صار إليه هو من حال، نقول ولما حدث ذلك كان من الطبيعي أن يلتفت الرجل إلى نفسه، فلما ألتفت وجدها تعيش ظمأ عاطفياً وفراغاً وجدانياً هائلاً، مما أوجد لديه إحساساً بأن المرأة والحبيبة و .... و.... هي التي يحتاج إليها حباً وهياماً وأغنية وذكرى وأحلاماً ومنى، ولأن المرأة التي تليق بخيال وذوق وحس الفضول هي المرأة التي تسكن المدينة بعد أن قدمت من الريف وهي تتلفع بثوب من الحياء الأنثوي، فأضحت لجمال الريف وبراءته، ورقة المدينة وثقافتها الجديدة، فكانت المرأة في خيال العقل الباطن للشاعر هي قطر الندا ورونق الشمس وظل الغيوم ومدارب السيل والقمر قد توارى وشبابة الراعي والجداول والظلال والشعاب و..... و .... و.... الخ.

باعتبار أن وجدانيات الطبيعة والحياة وعناصرها ومظاهرها قد انطبعت في نفس الشاعر كبديل لحنان الأب فكانت الطبيعة وعناصرها بمثابة التربية الوجدانية للشاعر، ولكنها تربية وجدانية لم تعوض الشاعر عن حنان الأبوة ... ونكاد نذهب إلى أن الشاعر أيضاً أفتقد حنان الأمومة عن طريقين، الأول أما أن تكون الأم من الأمهات الريفيات والبسيطات اللاتي لا يستطعن التعبير عن عواطفهن نحو أبنائهن، ومع ذلك فوجود الأم حتى ولو كانت كذلك سيعمل على تخفيف وطأة اليتم في وجدان الطفل الشاعر ولذلك كله ولغيره من الأسباب التي يجدها الإنسان في طريقة في الحياة أتجه الشاعر نحو الطبيعة لتكون مدداً له في فلسفته للحب، ولما كان الحب فلسفة كان بالضرورة أن تكون الطبيعة فلسفته أيضاً، لأن كلاً منها فلسفة الأخرى، فأحضان المرأة عند الشاعر هي أحضان الطبيعة في وعيه الباطن وهذه الأحضان جميعاً هي ترجمة لا شعورية لأحضان الأم والأب المفقودة (١)

(١) حدثت قطيعة بين الشاعر وأمه حتى وفاتها لأنها منعت أباه من الهروب إلى عدن عقب فشل ثورة ٤٨م / وكان الشاعر قد جاء من عدن إلى صنعاء للهروب به وحذرها الشاعر أنه إذا حدث له شيء سيحملها المسؤولية.. وهذا ما حدث وما يفسِّر تركيزنا على حادثة عبد الوهاب نعمان واستشهاده وتأثيرها على الشاعر من ناحيتين أبيه وأمه.

مـــن الـــضحى حـــتى قـــدوم الأصـــيل بـــين النـــدا و الظـــل تحـــت النخيـــل
وغمغمـــــات النـــــهر مثـــــل الهـــــديل ومائـــــه يختـــــال بـــــين الرُّبـــــا
نحيـــا هنـــا والحـــب مـــا بيننـــا يحيـــا ، وظـــل الـــورد مـــن فوقنـــا
والزهـــر تـــذري عطرهـــا حولنـــا وكـــل شـــيء في بـــشاش الـــصِّبا
****** ******

وحين فوق العـــشب نامـــت صـــفوف من الظبا مـــن بعـــد طـــول الوقـــوف
علـــى المراعـــي قـــام خِلّـــي يـــشوف كحلـــت عيونـــه في عيـــون الظبـــا
****** ******

كل الظبا واحبيبي شلين من كحل عبينك وما بقى إلا نصيبي مطروح ما بين جفنيك
وفوق صـــدر النـــهر حامـــت فـــراش كـــأنهن مثلـــي ظـــواميء عطـــاش
وهـــن يـــشربن النـــدا والرشـــاش والـــضوء والعطـــر وريـــح الـــصَّبا
****** ******

وفي علاوي الكواذي يتغـــانين القمـــارى هذه تُغَنّي لهذه غناء كهمـــس العـــذارى
مـــاذا يقـــولين واحبـــيبي الطيـــور عند الـــضحى والليـــل أو في البكـــور
هل قـــد غـــزاهن الهـــوى في الوكـــور والحـــب في أعـــشاشهن أخـــتبى
****** ******

مـــا حبـــهن يـــأتي كمـــا حُبنـــا فحبنـــا مـــن عمرنـــا وابننـــا
أتـــى لقلبينـــا وليـــد المـــنى فقـــد حَبـــا مـــا بيننـــا وأرتـــبى[1]

كانت تلك القصيدة (من الضحى) تعبيراً عن مكانة الريـــف والقريـــة في وجـــدان الشاعر، فكان ان أعطاها لمطرب جمع بين عمق الريف وطبيعة الريف وصـــوت الريـــف ووجدان الريف وسليقة الريف هو عبدالباسط العبسي، فهي مفصلة وجدانياً وشعرياً ولحناً عليه ، لأن المزاج الغنائي عند الفضول جعله قادراً على تحديد من يستطيع أن يعبر عن شعر الفضول بأدائه الخاص ، ولونه الخاص والمميز .

وقبل أن نستكمل رحلتنا مع فلسفة – الطبيعة،نضع سؤالاً هاماً فحواه... طرحـــه أيوب طارش كي يكون لنا في أجابته نصيباً أو في بيانه وتفصيلة وبحثه شأناً،وهو لم يطرحه كسؤال وإنما ذكر أن هناك من منظري – جلسات القات ونقاد الساعات السليمانيه مـــن يقول:

((إن الفضول أكثر وأسرف في استخدام بعض الألفاظ مثل (الندا – الظـــلال)... وغيرها)).

(١) في هذا النص بعض الاختلافات بصوت الفضول في عدد من المقاطع أو الكلمات ...

ونحن نضيف .. (الندا / الظلال / الضحى / الضوء / الظمأ / الغمام / الشمس / الفجر / الشروق / الورود / النهر / الفراشات / المنى / الرُّبا / البكور / الوكور / العصافير / الطيور ..... الخ، وبخاصة أيضاً الندى – وقطر الندا – والظلال أو الأفياء...)؟

وما يجب طرحه هنا ليس القول : ((إن الفضول أكثر من استخدامه لمفردات كذا وكذا وكذا ... فهذه أحكام وأقوال غير مسؤولة وغير واعية وأصحابها لا يرون أبعد من أنوفهم وإنما يجب أن نقول : –لماذا أكثر الفضول من استخدام المفردات التالية.....الخ ؟

لأن هذا السؤال سيقودنا إلى طريق الأحكام الصائبة.. وبالبحث والتنقيب واستعراض العبارات الكاملة التي وردت فيها المفردات والألفاظ المذكورة سابقاً لا شك أننا سنبدأ بوضع أقدامنا على الطريق الصحيح للنقد الأدبي أو التذوق الأدبي خاصة ونحن نقرا شعراً... لشاعر يعرف قيمة المعنى ويدرك وظيفة الألفاظ والمفردات التي تكون منها المعاني، لشاعر ظل طوال مسيرته الشعرية الغنائية مع أيوب طارش وهو يسخر من الكلمات التي يكتبها غيره من الشعراء ، وإعجابه بقصيدة علي عبد الرحمن جحاف واطائر أمغرب وقوله هذا هو الشعر ، موقف أكيد على أن ذوق الرجل وفهمه وإحساسه بجمال المعاني، ووظيفة المعاني ومعنى الشعر ومهمة الشاعر والشعر.. وموهبته البديعة والفريدة، إن أيوب طارش وهو ينقطع عن الساحة الغنائية وينسحب منها، وترديده الدائم والمستمر لعبارته التي تقول : ((إن الفضول غرس في نفسي قيمة وقمة المعنى واشراق العبارة وجلال وقدسية المعنى والمعاني العظيمة الجمال...الخ)) وكنت كلما سمعت أيوب يقول ذلك أزداد ثقة بأن أيوب طارش يبالغ في ما يردده من أقوال، ولم أكن آنذاك سوى مستمع محب لأيوب ومعجب متذوق لما يكتبه الفضول ، والإنسان موكول بقصر النظر غالباً حتى يثبت العكس، وشاءت الأقدار أن تهيئ من خلال سلسلة من المواقف مع شعر الفضول وكلمات الفضول وألحان وصوت أيوب أن أرحل هذه الرحلة اللذيذة والقاسية والطويلة والمتعبة... و... والنفسية من خلال منهج التفسير النفسي للأدب... وبقدر عمق رحلتنا المتواضعة هذه والتي قطعنا فيها شوطاً متواضعاً صعوداً إلى قمة الفضول التي تشمخ كالنجم أو كالطود العظيم ، بقدر ما أحسستُ به وهو يجتاح كياني كله إعجاباً عن حسن تذوق ودراية متواضعة بمعاني الكلام، أحسست بذوقي وهو ينمو ويزداد، وإحساسي وهو يسمو ويعلو... فقلت لنفسي – ولكم الآن – لقد صدق أيوب في عباراته وفي ذوقه وفي سموه مع معاني شعر الفضول ، وبمعنى أشمل وأدق وأجمع فإن الفضول ارتقى بالأذواق والأسماع و الأفهام، والمشاعر والأحاسيس وأقتسم أيوب بألحانه الرائعة القمة مع الفضول أصدق قسمة وأوفاها وأجملها..

ونعود لنضع السؤال على هيئته التي ينبغي أن يكون عليها... وهو لماذا أكثر الفضول من تلك المفردات... الندا، الظلال، والظمأ...؟

وللإجابة عن هذا السؤال سوف نستعين بمنهجين نقديين، الأول هو منهج النقد الأدبي المعروف وهو المنهج المتكامل والذي يشمل عدداً من المناهج وهي المنهج الفني والمنهج التاريخي والمنهج النفسي من جهة ثم من خلال المنهج النفسي من جهة أخرى، باعتبار العمل الأدبي هو التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية، وتقويم العمل الأدبي من الناحية الفنية، وبيان قيمته الموضوعية، وقيمته التعبيرية والشعورية، وتعيين مكانه في خط سير الأدب وتحديد ما أضافة إلى التراث الأدبي في لغته وفي العالم الأدبي كله ، وقياس مدى تأثره بالمحيط وتأثيره فيه، وتصوير سمات صاحبه وخصائصه الشعورية والتعبيريه، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك[1].

وبتطبيق تلك الأسس والقواعد النقدية على شعر الفضول سندرك الكثير ولكن سنؤجل هذه القضية الخاصة بعملية النقد الأدبي لشعر الفضول عامة إلى مشاريع أدبيه قادمة وسنكتفي هنا ببحث الإجابة عن ذلك السؤال الذي يتعلق بكثرة استخدام الفضول لبعض المفردات بعينها – على غير عادة الكثير من الشعراء قديماً وحديثاً – .

وفي البداية لو جئنا بعدد من العبارات الشعرية للفضول والتي تتضمن بعضاً من تلك المفردات، لوجدنا أن عبارات الفضول الشعرية من تلك العبارات التي تكون جزءاً من عمل أدبي متكامل يعبِّر عن تجربة شعورية في صور موحية ، وتمتلك المقومات الفنية، والقيمة الموضوعية، والقيم الشعورية والنفسية والقيم التعبيرية الخالدة ،وهي إضافة إلى التراث الأدبي في لغته، وفي العالم الأدبي كله، وهي كذلك مقياس لمدى التأثر والتأثير بالمحيط وهي صورة حية وموحية لسمات وخصائص الفضول الشعورية والتعبيرية، وهي كذلك تكشف عوامل نفسية اشتركت في تكوين الشاعر، والعوامل الخارجية، ولغرض تبسيط القول، فإن عبارات ومفردات الفضول التي سنرصدها، رغم كثرتها المحبوبة تكشف لنا عن براعة وموهبة وإمكانيات الفضول الفذة في توظيف هذه المفردات توظيفاً رائعاً وممتلكاً لزمام المناهج النقدية جميعاً ، لأن مفرداته وظفها في عبارات شعرية بمعان شعورية وشعرية وتعبيريه ونفسية وموحية كل الإيحاء، فيجد القارئ نفسه وهو وبين معانٍ لا حدود لها إنسانياً، وكما يعلم النقاد أن الشاعر العباسي العباس بن الأحنف قد أقتصر شعره على الغزل وهو مع اقتصاره على هذا الفن من الشعر فإنه أجاد أجاده شهد له بها كبار النقاد والدارسين والباحثين على علو كعبه، وعظمة وغزارة موهبته وفرادة وجدة معانيه المبتكرة والموحية ، وقبل أن نبدأ باستعراض العبارات التي تتضمن تلك المفردات ، نضع هنا ما كتبه

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه سيد قطب – المقدمة .

الناقد الأدبي الكبير سيد قطب رحمة الله في كتابه (النقد الأدبي أصوله ومناهجه): ((إن اللفظ كما قلنا مراراً هو وسيلتنا الوحيدة إلى إدراك القيم الشعورية في العمل الأدبي ،و هو الأداة الوحيدة المهيأة للأديب لينقل الينا خلالها تجاربه الشعورية، وهو لا يؤدي هاتين المهمتين إلا حين يقع التطابق بينه وبين الحال الشعورية التي يصورها، وعندئذ فقط يستنفد – على قدر الإمكان – تلك الطاقة الشعورية و يوحيها إلى نفوس الآخرين.

((والشعر لأنه تعبير عن الحالات الفائقة في الحياة ، يحتاج أكثر من كل فن آخر من الفنون الأدبية إلى شدة التطابق والتناسق بين التعبير والحالة الشعورية التي يعبر عنها، وقد أسلفنا أن اللفظ يعبر عن الحالات الشعورية بعدة دلالات كامنة فيه، وهي دلالته اللغوية ودلالته الإيقاعية، ودلالته التصويرية... ونقص أي من هذه الدلالات الثلاثة في الشعر يؤثر في مدى تعبيره عن التجربة الشعورية الفائقة التي يتصدى لتصويرها ، ويغض من قوة الإيحاء إلى نفوس الآخرين.

وليس المقصود هو رونق اللفظ أو جزالته، ولا قوة الإيقاع أو حلاوته إنما المقصود هو التناسق بين طبيعة التجربة الشعورية، وطبيعة الإشعاع الإيقاعي والتصويري للفظ... بحيث يتسق الجو الشعوري والجو التعبيري..))[1] أ.هـ .

ومن روائع شعر الفضول أنّ فيه وحدة عضوية وموضوعية من ناحية أو نواح عديدة، وفيه أن البيت الواحد هو بذاته قصيدة قائمة بذاتها... وفي ألفاظه ذلك الاتساق العجيب بين الصور الموحية والجو التعبيري والتجربة الشعورية... ولنتابع هذه الالماحات والابراقات الشعريه.

أ – مفردات في القصائد العاطفية الغنائية

أولاً : الندا والندى[2]:

١–واعملين لي كبوش الفل مفرش مُنَقّش بالعطور والندا مبلول مُسَقّى مرشرش
٢–والف بالأنداء روحي وكم قد نمت في حضن الغمام إنما... مكاني ظمآن
٣–خمائل الورد كم يا ورد كم يا ندا أعطيت قلبي ولكن ما ارتوى لي صدى
٤–شفّاف كالانداء فوق الزهر رفّاف أحلى من نسيم السحر
٥–كم قَطَّر الوردُ الندا في فَمَّك والشمس كم أروى ضحاها دَمَك
٦–عشنا ظِما والندا سَكّاب من حولنا كم أظمأونا فاسقنا ندا حبنا...

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه / سيد قطب .
(٢) الندى والندا لفظان يفهمان من السياق فالأول معناه العطا والكرم، والثاني القطرات، ويكتبه أناس بالألف المقصورة ، وعرفنا الفضول يكتب ما دل على القطرات بالألف الممدودة ، وما دل على العطاء بالألف المقصوره...

٧-اسقيتهن من غمام الفجر قالين لي: لا الفجر يروي ولا قطر الندا ينفعين
٨-من للهوى سوانا يوم أرتوى عمري وعمرك من ندا هوانا
٩-أيام عشناها قلوب وأرواح

****

١٠-وقد نديت عمري من نداك وقد نديت عمري من نداك
١١-والندا والبراعم يسمعنك غناء والندا والبراعم يسمعنك غناء

****** ******

١٢-.... وأذكرك يا ظلالي أنت أندى ظلال
١٣-... في السماء حيث يذري من نداها الغدير
١٤-... نذري ندا وردك بأثار المواجع والجراح
١٥-... أشرب ندا عيني وأقتات الألم

****

١٦-قات الجبل في يدك يُقَطّر ندا وضحكتك في فمك تقطر عسل
١٧-من الضحى حتى قدوم الأصيل بين الندا والظل تحت النخيل

****** ******

١٨-خُذْ لك ندا عندي وخذ لك ظلال..

****

١٩-مهنى حبيبي وسط داري يحوم كأن عندي كل ضوء النجوم
٢٠-والنهر والزهر وقطر الندا ورونق الشمس وظل الغيوم
٢١-لكن أزهاري عليها الندا ضمائدي لَفّيت فيها الجراح
٢١-يا خو الندا يا رشة الغمائم يا خير أيامي و منتهاها

****** ******

٢٢-والحمى والظمأ كله لكم والندا كله لنا
-لو أضاءت نفوسكم لأتيتم سماءنا
-وملأتم كؤسكم من ندانا وماءَنا

٣٢-خَلّي الندا فوقك عليك يهمي وأترك همومك لي فأنت يا خل هَمّي

ثانياً: الظلال في القصائد الغنائية:

١-واشرب مع الوديان هطل الضباب وانام في أفيائها إنما... مكانني ظمآن
٢-مثل العصافير ظمآنات لا ماء يرويهن ولا أفياء يتظللين

****** ******

٣-وأذكـــــرك يـــــا ظـــــلالي أنـــــت أنـــــدى ظـــــلال
٤-راجـــــع لـــــبرد الظـــــل في الـــــشواجب
٥-يـــابردة الظـــل في قلـــبي الـــذي في ظلـــها قـــد تراخـــى واســـتظل

****

٦-من الضحى حتى قدوم الأصـــيل بـــين النـــدا والظـــل تحـــت النخيـــل
٧-نحيا هنـــا والحـــب مـــا بيننـــا يحيـــا، وظـــل الـــورد مـــن فوقنـــا

****** ******

٧-خُـــذ لـــك نـــدا عنـــدي وخـــذ لـــك ظـــلال ....
٨-يـــا آخـــر الأوراق في زهـــري تـــساقط في الجليـــد
٩-... ورونـــق الـــشمس وظـــل الغيـــوم

****

١٠-لكـــن قلبـــك رجـــم بي وكنـــت أنـــا بـــك بخيـــل
١١-قـــد كنـــت زادي وشـــربي وكنـــت ظلـــي الظليـــل
١٢-قلبي مع الأطيار تحت الضحى وحيثمـــا لاقـــى الظـــلال اســـتراح
١٣-يا حب من غيمك شربت مائي ودام غيمـــك وأســـتمر شـــربي
١٤-واحرقـــوا أو تقرمـــدوا لا تجيئـــوا ظلالنـــا

****** ******

ثالثاً: مفردات الظمأ في القصائد الغنائية:

ومفردات الظمأ قد تعرضنا لها في باب الظمأ العاطفي، وهي أكثر المفردات غـــزارة، ويأتي بعدها الندا وذلك بسبب الارتباط المعنوي الذي بينهما... ولأننـــا قـــد ســـبق أن استعرضنا ألفاظ ومفردات الظمأ. سنكتفي هنا باستعراض عدد من العبارات للتدليل بها فحسب من القصائد الغنائية:

١-مكـــانني ظمـــآن ... شـــق الظمـــآ قلـــبي
واشـــعل في عروقـــي الـــدما
والـــشوق لا يطفيـــه شـــنان مـــاء
والحـــب لا يرويـــه مـــاء الـــسماء ... الخ القـــصيدة الظامئـــة.

****

٢-عشنا ظمى والندا سكّاب من حولنـــا تروى به مهجة الظامئ ويخضر عـــود
٣-طال الظَمـــأ في فؤادينـــا وأكبادنـــا عاشـــين مـــن أحـــراقهن يـــرجفين

****** ******

٤-مـــدريش كيـــف قلبـــك رضـــي يـــروى وقلـــبي مـــا رضـــيش
أشـــرب وأشـــرب مـــن هـــوى غـــيرك ولكـــن مـــا رتـــويش
****

٥-خذلك ندا عندي وخـــذلك ظـــلال يكفي ظمـــا خلّـــي الظمـــا للرمـــال
مُحَـــال أَنْ يـــروى فـــؤادي مُحـــال قلـــبي مـــا رتـــوى مـــن جمـــال
هيمان حـــتى لـــو ســـكنت الـــسحاب لأصـــبحت قيعـــان فيهـــا ســـراب
****** ******

كانت تلك مجموعة من الأبيات الشعرية التي تضمنت مفردات (الندا / الظـــلال / الظمأ)... من خلال بعض القصائد العاطفية الغنائية، – ولو استعرضنا مجموعة من الأبيات التي في ديوان الفيروزه التي تتضمن تلك المفردات لأوضحنا من خلالها بعض الجوانـــب أو كي تكون الصورة واضحة، سنكتفي باستعراض بعض الأبيات التي فيها تلك المفـــردات بدون ترتيب، وهي طريقة عكس الطريقة السابقة:

مفردات (الندا – والظمأ – الظلال) في ديوان الفيرزوه ....

١-سوف نبقى بعد الهوى يا حبـــيبي لا نلاقـــي علـــى ظـــلال مكانـــا
٢-لم يعد منك لي، ولا لـــك منِّـــي غـــيرُ أطلالنـــا، وغـــير بلانـــا
أو نـــدى أدمـــع نحـــاول أن.... نطفـــئَ أشـــواقنا بهـــا وجوانـــا
٣-وتركنا الظـــلال تبكـــي علينـــا بعـــد أنْ كـــان فيئهـــا مُلتقانـــا
****** ******

٤-ليـــتَ أَنَّـــا نقـــدرُ أَنْ نـــسكُبَ بعـــضَ نـــدانا يـــا حبـــيبي في لظاهـــا
٥-وأَنسْ الينا ... إلى الظل الـــذي اتكـــأت فيـــه النبـــؤة.. لم تُجْحَـــدْ، ولم تُـــضمِ
٦-لقـــد مـــشينا ظمـــآء في مفاوزهـــا... نكـــادُ نـــشربُ فيهـــا رَسْـــمَ ظلّينـــا
٧-كم جاءنا الفجـــر يبغـــي أن نزيـــد لـــه مـــن ضـــوْه.. فأضـــأناه ...، ونَـــدَّينا
٨-فلـــيس للحـــب ليـــل في جوانحنـــا.. ولا ارتعاشـــــةُ أثمٍ في ضـــــميرينا
ومـــا حملنـــا بـــه إلاّ جلالَتـــهُ كمـــصحف قـــد رفعناهـــا بأيـــدينا
كأنمـــا الله أعطانـــا هدايتـــه.. بـــه، فأهـــداه مـــا صُـــمنا وصـــلّينا
٩-لم نكـــن في أُفْقِهـــا فجـــراً يـــضئُ ولا في وجههـــا ظِـــلاً ظلـــيلا
****** ******

لم نكـــن في روحهـــا يومـــاً ســـوى جَـــرَبٍ هَوشُـــهُ داءً وبـــيلا
****

١٠-في الصَّبا ...كم عَشقَتْ نفسي الضُّحى والـــشذَا العبـــقَ، والظـــلَّ النـــديَّا
١١-ليس يعطي الحُبَّ إلاَّ قلبُ مـن كـان أو مـــن كـــاد ...أنْ يغـــدو نبيَّـــا
لَـــبِسَ الإصـــباحَ ضـــوءاً وَ نَـــدَىً.. فمـــشى في النـــاس فجـــراً بَـــشريا
سُـــحُبَّي الـــنفس يمـــشي أبـــدا... واكـــفَ المزنـــة، مغـــداقاً سَـــخيَّا
١٢-وإذا أستذريتُ ظلاً جَاءَني فيـه صـلٌ أو مـــشى فيـــه حريـــقُ
١٣-وتـــسأل الأوراقُ قطَـــر النـــدا عَنَّـــا ويبكـــي الفجـــر فـــوق الزهـــر
١٤-والظـــلُّ يلقـــى أنَّـــه قـــد خـــلا منـــا ... فيلقـــي روحـــه في سَـــقَرْ
١٥-وبـــارزَ الـــدنيا، وفي روحـــه لَطـــفُ النـــدا، يـــأوي،وعنف القَـــدَرْ
١٦-أسرفتُ فيهـــا ثُـــمَّ عُـــدتُ بمقلـــة.. تـــشكو الجفـــافَ لمـــدمع ظمـــآن
١٧-وتُرى العناكبُ فيك قد فرشـت لهـا فـــوق الظـــلال شـــقائقَ النعمـــانَ
١٨-ولـــو أني كـــدتُ أَقـــضي ظمـــأً ... أطلب المـــاء وقـــد خـــاب التماســـي

****** ******

١٩-وسوى أرض النـــدى، والحـــب... لـــيس بهـــا أرضـــي، ولا مـــسقط رأســـي

****

أ – الندى التي بمعنى العطاء:

وسوى أرض الندى، والحب ....الخ

ب – الندا التي بمعنى قطرات وحبات الماء ....:

وتسأل الأوراق قطر الندا عَنَّا، ويبكي الفجر فوق الزهر

(أو) وبارز الدنيا وفي روحه.. لطفُ الندا، يأوي، وعنفُ القدر

إذن أصبح لدينا الآن مجموعة من الألفاظ والمفردات التي من أكثرها الظمأ – الندا – الظلال وهناك مفردات وألفاظ لم نذكرها ولم نتعرض لها مثل الضحى – الفجر – الشروق – الضوء..الخ.

ولو عدنا الآن وتتبعنا الألفاظ التي وردت بكثرة – حسب قول البعض – وأعدناها إلى معانيها من خلال السياق الذي وردت فيه لوجدنا أن الشاعر قد استطاع أن يبرز ويظهر ويضئ المعاني التي في أبياته التي تضمنت تلك الألفاظ، ببراعة ساحرة ومدهشة وفريدة، فكان لها أثرها من الناحية الفنية وفي بيان القيمة الموضوعية، وفي تألق القيم الشعورية والقيم التعبيرية،.. و فيها تصوير عميق لسمات صاحبها، وما فيه من خصائص شعورية وتعبيرية، وأيضاً ما فيها من كشف للعوامل النفسية التي اشتركت في تكوين الشاعر إضافه إلى العوامل الخارجية، وبالنسبة لهذه العوامل النفسية نحن قد تحدثنا عن بعضها سنناقشها أيضاً من خلال منهج التفسير النفسي للأدب بعد قليل وحتى لا تضيق

علينا المساحة إذا ما قمنا بعملية تحليل أدبي لكل تلك الأبيات التي وردت فيها مفـــردات الظمأ والظلال والندا والندى سابقاً، سنكتفي ببعض منها لندلل بها علـــى أن الفـــضول لم يكثر وإنما قدرته على التصوير والتعبير الشعوري واللغوي والوجداني أتاحت له مجالاً واسعاً في التصوير والتخييل وإضفاء الروح الشعرية على شعره وصوره المبتكرة رغم تطابقها مع وجداناته وذاته ونفسه، وهناك من الألفاظ التي يهتم بها بعـــض الـــشعراء فيوظفونهـــا في أشعارهم لأن لها مدلولات نفسية،ولكن توظيفها يصل بها إلى حد الملل والسأم، لأنهم غير قادرين على تنويع العزف على مفردات وصور ألفاظهم ولكن عندما يقـــرا أو يـــستمع الإنسان العادي إلى أشعار الفضول الغنائية أو غيرها فإنه يجد نفسه في شـــوق عـــارم لأن يعرف (الندا و الندى) دون أن يحس بسأم أو ملل أو غير ذلك.. بل دون أن يحس بهـــذه الكثرة لأن الفضول صنع من مفرداته ملحمة وجدانية تتحدث عن إنسان ظامئ، لم يعـــد قادر على شيء سوى أن يبحث عن قطر الندا، وأرض الندى، وهو في ذلك معذور كـــل العذر وفي ذواتنا نتمنى أن لا يقل قطر الندى كي يستمر أيوب طارش باحثاً معه عن قطـــر الندا بصوته الرائع، ومن ذا الذي شكا من الندا والندى والظلال والظمأ والضحى والضوء و الفجر والشروق والأزهار .... ونحن نسمعها من أيوب أحلى من الشهد وأصفى مـــن شعاع السيوف ...

وعشت أيام كنت أطمـــع بقطـــر النـــدا على ظمأ قلـــبي المحـــب الـــشغوف

فهل هناك أروع وأنقى تعبيراً وأفضل نسقاً ومكاناً وزماناً لـــ (قطر الندا) في غـــير الموقع الذي وضعت فيه بعد أن قال:

دمـــا فـــؤادي وأحلامـــي بكـــت والمنى هامت ومـــا لاقيـــت قلبـــاً رؤوف

وليس ذلك فحسب بل جاء بيت ثالث لينقلنا إلى صورة أخرى جديدة فبعد أن دما فؤاد الشاعر، وبكت أحلامه، وهامت مناه، وما لاقى قلباً رؤوفاً في البيت الأول، نقلنا إلى الأيام التي كان يطمع فيها بقطر الندا على ظمأ قلبه المحب الشغوف ....ثم نقلنا إلى صورة أخرى وفيها صور عديدة:

وكان تبخل بها الدنيا ولكـــن أتـــت أقـــدار أســـقتني الأمـــاني غـــروف

والآن لنرمي الكرة إلى ملعب من استكثروا...، ما هي العبارة أو الألفـــاظ الـــتي تستطيع أن تكون مقابلة ومعبرة وموحية لقوله أسقتني الأماني غروف أو قوله وعشت أيام كنت أطمع بقطر الندا...؟ وهذا في قطرا الندا، فكيف الحال لو أردنا أن نستعرض كل ما يحيط بقطر الندا... من تشبيهات واستعارات ومقابلات وموسيقى لفظية موحية، وصـــور معنوية معبرة، متوالية ومترابطة لغوياً وشعورياً وتعبيرياً وفي جوانحها من المعاني الموحية مـــا يجعلنا نرقص من النشوة، وننفعل من إيحاءات الحروف والألفاظ وموسيقى التصوير.

(دما فؤادي / أحلامي بكت / والمنى هامت / وما لاقيت قلباً رؤوف / وعشت أيام / كنت أطمع بقطر الندا / ظمأ قلبي المحب الشغوف / وكان تبخل به الدنيا / ولكن أتت أقدار / أسقتني الأماني غروف ... الخ القصيدة)... وهي صور كثيفة وموحية وقادرة على نقل مشاعر الشاعر إلى نفوسنا، وعلى تحريك مشاعرنا وانفعالاتنا والوصل بيننا والحياة من ناحية، وبين الشاعر والحياة، من ناحية أخرى، فلا نجد في قطر الندا.. وقطر الندا ليس لفظاً قائماً بذاته وإنما يشترك ويرتبط معنوياً ومعنى مع غيره... ليكون الفضول بذلك شاعر المعاني، وهو باب ينتظر من يطرقه إن لم نفعل ذلك مستقبلاً.

عشنا ظِما والندا سكّاب من حولنا تروى به مهجة الظامئ ويخضر عود

فالشاعر هنا يشكو إلى من يحب أو إلى الأيام (عشنا ظمى) وقد يشكو إلى الوطن، فكيف نعيش ظمأ ومن حولنا من المحبين أو من الناس يتمتعونَ بالندا الذي لوفرته وكثرته سكاب من حولنا،وقد أستخدم الشاعر صيغة المبالغة سكاب.. فلماذا نحن من يعيش في ظمأ؟، ولعل الشاعر يذهب إلى معان أخرى فيقصد به سوء حظه أو سوء حظ الناس جميعاً... في أنهم يعيشون ظمأ والنداً من حولهم سكاب... ألم يقل الفضول عن سوء حظه...

وإذا أستذريتُ ظلاً جاءني فيه صِلٌّ أو مشى فيه حريقُ

وهكذا ... تتوالد المعاني من الندا والندى والظمأ والظلال ...الخ.

فالأنداء يلف بها الشاعر روحه ... وقد أضناه الظمأ، وقد نام في أحضان الغمام، إنما مكانني ظمأن ، وحيناً يخاطب خمائل الورد .... كم يا ورد؟ كم يا ندا ؟ ... أعطيت قلبي ولكن ... ما ارتوى لي صدى، وهو يصف حبيبته بأنها شفاف كالأنداء فوق الزهر،فأي شفافية أكثر وأشف من الأنداء وهي فوق الزهور والورود، وهي شفافية روحية و روحانية....

حبيبي أشهى من لذيذ المنى روحه وأصفى من شعاع السيوف

أتفرجين، كيف صنع الله؟ كيف الهوى؟ يعطي النفوس المحبة من جماله صنوف

وهذا البت الأخير فيه فلسفة للجمال وكيف ترسم النفوس للمحبوب جمالاً وكمالاً... فالنفوس المحبة ترى فيمن تحب شفافية خالدة، ولا شفافية أصفى من شفافية الأنداء فوق الزهور، وفي هذه المعاني التي تتوالى نجد أن كل عبارة فيها ألفاظ الندا وغيرها... نجدها ونحس بها وهي تتجدد في أرواحنا، فلا تكرار في معانيها، ولها مفعول السحر في نفوسنا، وعندما يريد الشاعر أن يعطي صورة بارعة في الحسن والجمال والأنوثة والسحر لفم المحبوبة.... يقول :

كم قطر الورد الندا في فمك والشمس كم أروى ضُحاها دمك

فالندا هنا رمز للجمال، ففي الندا شفافية وصفاء روح المحبوب،وفي الورد الذي فيه تلك الشفافية الجميلة جمالاً، فجمال الورد وجمال الندا، وجمال اللوحة والورد يقطر ندا أين في فمك!!، إيحاء خفي بروعة الفم المرسوم كالعنقود، والشفاه التي تختلج وهي تتهيأ لاستقبال قطرات الندا، فماذا يمكن لهذا الفم البديع أن يقطر فيه غير الندا؟ وكم عند الفضول هي لفظة اغراء لا تساؤل، وان طوت في جوانحها أسئلة لا نهاية لها، وكأن كم هذه عند الفضول هي اللفظ التي تكون في اللحظة التي لا يستطيع هو تحديد قدر ومدى ما تفيض به جوانحه من مشاعر.

ويكفي أن نعلم أننا كلما قرأنا ألفاظ الظمأ والظلال والندا في كل بيت أو معنى نكتشف معاني جديدة وأحاسيس لم يسبق لنا أن شعرنا بها، وهكذا في كل لفظ منها بل وأكثر، أننا نزداد ظمأ عاطفياً، ونحترق شوقاً إلى أفياء وظلال أنثى لنأخذ نصيباً من الندا الذي يقطره الورد في فمها المرسوم كالعنقود،و هنا الجدَّة والأصالة والفرادة والقدرة على تلوين الصورة أو اللوحة التي تسر الناظرين، فلا يسعك وأنت تتمتع بصورة ثم تنظر إلى صورة أخرى جميلة ثم إلى صورة أخرى جميلة ثم إلى صورة جميلة... الخ، إلا أن تقول ما أجمل وما أروع وما أبرع ما شاهدت وما قرأت وما سمعت من شعر الفضول وظمأ وندا وظلال... ولسان حال المتذوق والمدرك لمعاني الكلام كحال من يسأل: أي أولادك أحبُّ إليك؟

فتكون الإجابة: غائبهم حتى يحضر، وصغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يشفى وهي إجابة مجازية وتعبير عن مكنون وضمير قلب الأب لأبنائه الذين هم جميعاً في غرفة واحدة من غرف القلب الأبوي، وكذلك هو حال الندا والظمأ والظلال والشمس الضحى والشروق والفجر والندى في شعر الفضول... فأي الألفاظ أحب إلى الشاعر؟ وأي الألفاظ أحب الينا؟

كم أظمأونا فاسقنا ندا حبنا

والندا هنا هو ندا الحب، فالشعر هنا يعطي للحب صورة معنوية في هيئة الندا، ولننظر تتابع الصور والألفاظ التي لا يسعك أن تستغني عن حرف منها (كم / أظمأونا / فاسقنا / ندا / حبنا)، فهل من دلالة وإيجاز وشعور وتدفق وجداني، وقيم تعبيرية، وإيحاءات لفظية وخيال وتخيل وتصوير وبث الحياة في النفوس وفي المعاني،و الحب فيه الندا وفيه الندى والعطاء، وما هو العطاء غير ترجمة شعور المحب المعنوي، والصورة هكذا ... السقيا لظمأ الشاعر، والندا لظمأ الشاعر، والحب لظمأ الشاعر، فالسقيا والندا والحب جميعاً ما يطلبه الشاعر ممن يحب، ولا يكفيه غير ذلك بعد الظمأ الذي لا حدود له – كم أظماونا – صورة مفتوحة أمام الخيال فكم أظمأونا، فهل للندا هنا دلالات وإيحاءات الندا الذي سبق؟ فهنا ذلالات جديدة وفلسفة أجد للظمأ والسقيا والحب والمحبوب وعطاء المحبوب.

أسقيتهن من غمـــام الفجـــر قـــالين لي لا الفجر يروي ولا قطر الندا يـــنفعين

أما الندا هنا أو قطر الندا فلا نفع ولا جدوى منها لأن المرحلة التي كان يمكن فيها أن تكون مجدية ذهبت، فلا جدوى من قطرا لندا أو من غمام الفجر، لأن الذي كان يتعلل به الشاعر الندا وغمام الفجر ورحيق الورد، لم يعد مجدياً، فالمحبوب هنا هو الأمـــل قبـــل أن يقضي الشاعر ظمأ، و مع ذلك فالأمل لا يزال ممتداً، مادامت الأقدار قد أعطت وعـــدها للملتقى، فالأقدار لا يكذبين!

دمـــــوعهن رافقـــــين دمعنـــــا يجـــرين لكـــن دمعنـــا يعـــرفين
إذا بقين في العين ضـــاقين بالفرقـــة وإن ســـــــالين يتعـــــــانقين
فكلما طفت في حِسي وفي خـــاطري قامين يطلين من قلبي ويتخاوصـــين

ومن هذه التي تتخاوص؟! الدموع تشرق من العين على هيئة أمنيات وأحلام،

للحب أعشاش في قلبي وفيهـــا المـــنى عاشـــين والأحـــلام قـــد عشعـــشين
يدوِّرنَّك،يريـــــدنك يهـــــيمين ورا طيفك وكـــم هـــامين وكـــم دوريـــن
مثـــل العـــصافير ظمأنـــات لا مـــاء يـــــرويهن ولا أفيـــــاء يـــــتظللين
أسقيتهن مـــن غمـــام الفجـــر قـــالين لي لا الفجر يروي ولا قطر الندا يـــنفعين
واعطيتهن من رحيق الورد كل الـــذي في الـــورد فاستعـــصين أن يـــشربين
صامين حـــتى يلاقنـــك بكـــل الظمـــأ ويـــشربنك ومـــا ظنيتـــهن يرتـــوين
نحنـــا حبيـــبين أعطتنـــا مقاديرنـــا للملتقى وعـــد والأقـــدار لا يكـــذبين
****** ******

وعلى هذا فالندا هنا جديد، وعلى ذكر الأقدار والملتقى، حدث ان التقـــى كاتـــب السطور بأيوب طارش، فأوضح لنا خلال اللقاء براعة الفضول من حيث إعطاء الألفـــاظ مواقعها التي تجسد المعنى وتبعث الوجدان مستشهداً بالأبيات التي تقول:

بك أنت مش بالنجم أو ضـــوء القمـــر بك أنت مش بالغيم أو قطر المطـــر
بك أنت مش بالفجر أو عطـــر الزهـــر بك أنت لا قاني وواعـــدني القـــدر

فحدث أن كان الشطر الأخير قد كتبه هكذا: (بك أنت واعدني ولا قاني القـــدر) فلاقاني وواعدني القدر غير واعدني ولاقاني القدر... فهذه معناها أن القدر أعطى الوعـــد ولاقى بما وعد فانتهت الحكاية، أما تلك فإن القدر لا قاني ثم واعدني بـــك... ومـــازال الشاعر ينتظر الوعد، ومن اللافت للنظر مراراً وتكراراً أن أيوب طارش أكد أن القصيدة في شعر الفضول قصيدة كاملة العناصر والمقومات والقوة والوجدان و ... الخ، من البيت الأول وحتى آخر كلمة في القصيدة، ومنذ بدأ بكتابة الشعر وإلى أن انتهى من كتابة آخر بيت في آخر قصيدة.

من ضوءِ ألف صباحٍ نحن أروينـــا مغارس الحب في أعماق روحينـــا
ومن ضحى ألف عيدٍ ضاحك ألقٍ صُـــغْنا مبـــاهج دنيانـــا ووشَّـــينا
لو كان لعبـــةَ أطفـــالٍ نمارســـها كُنَّا سقطنا... وفيها قـــد تهاوينـــا
****** ******

فالبيت من الشعر عند الفضول قصيدة، وفي القصيدة مجموعة من القصائد،وفي كل بيت دوحة حية وخضراء، مزهرة وممتدة، وأفياوها يستظل بظلها المتذوق والمـــدمن علـــى قراءة الشعر، ومن لديه الرغبة في أن يتذوق ويفهم ويحس إن كـــان لديـــه إحـــساس... والمحبون أهون الخلقِ – في الخلق – إذا كان فيهم الحبُّ هانا.

* وقد نديَّت عمري من نداك

وبهذه نقف عن متابعة قراءة لفظ الندى والندا، في هذه العبارة الشعرية المفعمة بمعنيين نديت أو أعطيت، من نداك أو من عطاءك، نديت من الندا القطرات، من نداك من قطرات الندا التي فيك ...فأين الكثرة؟

هذا في قصائده الغنائية أو بالأصح المغناة.

وكما هو الحال مع الندا والندى كذلك هو في الظمأ والشمس والضحى والشروق والضوء والفجر والتي أستخدمها الشاعر كرموز للحرية والوحدة والحب الإنساني...

****

وفي ديوان الفيروزه:

سوف تبقى بعد الهوى يا حبـــيبي لا نلاقي علـــى ظـــلال مكانـــا

والمعنى الذي بفي هذا البيت هو من المعاني الوطنية، وما الحبيب إلا صورة من صور الرمز عند الفضول، لأنه بالحب يجد الناس... لهم مكاناً في الظلال و الاستقرار، وبغـــير الحب لا يجد الناس أوطاناً، والحبيب هو الوطن،ونكاد نقرر حقيقة أن ديـــوان الفـــضول الفيروزه ليس ديواناً سياسياً بالمفهوم العام بقدر ما هو ديوان يحتوي الأشعار الوطنية والتي تحمل فلسفة حب الوطن، وتفضح أعداء الأوطان، وقد يذهب البعض إلى تفسير القصيدة الفيروزه بالذات إلى أبعاد عاطفية والحقيقة أن القصيدة تحمل بعداً عاطفياً، ولكن هناك بعداً آخر أكثر عمقاً وهو بعد الوطن وفلسفة الحب في الأوطان وبين الناس، فالظلال هنا هـــو الأمن والاستقرار والبناء.

وللتدليل على ذهبنا إليه من أن قصيدة الفيروزه ليست عاطفية بقدر ما هي فلـــسفة لحب الأوطان نقرأ هذه الأحزان:

وتركنـــا الظـــلال تبكـــي علينـــا بعـــد أن كـــان فيئهـــا ملتقانـــا
وهجرنا الضحى – وحيداً– وقد كان حبيبـــاً لنـــا وكـــان أخانـــا

وفي قصيدة أخرى يقول:

* ليتَ أنا نقدر أنْ نسكبَ بعضِ ندانا يا حبيبي في لظاها

فكم من محب لوطنه يقف عاجزاً عن عمل شيء حتى أنه يعجز عن سكب بعض الندا في لظى العجز والسوء والدمامات والقلوب الجاهلية ... وينتهي الفضول إلى هذه الفلسفة:

* قد تصادقتُ مع الضرَّاء في أرضي، وزاملتُ أساها

****

حينما يفلسف الفضول الوطن أرض الحضارات والأمجاد، وهو الوطن الذي أمد الدعوة والعقيدة الإسلامية برجال كتبوا بدمائهم سطوراً مضيئة في التاريخ الإسلامي فإنه يقول لمن يخاطبه ويمدحه داعياً إياه إلى أن يأنس برجال هذا الوطن:

وأنس ألينا، إلى الظل الذي إتكأت فيه النبوةُ... لم تُجْحَدْ، ولم تَضِمِ

عن رحلة الكفاح والحب التي خاضها الوطنيون والمناضلون والأحرار حتى أشرقت شمس الضحى:

مسيرةً فيه سرناها معذّبةً... فيها فحيحُ الأفاعي مِلء سمعينا

لقد مشينا ظمأ في مفاوزها... نكاد نشرب فيها رَسمَ ظلينا

وهناك من الشعر الذي تدب الحياة في ألفاظه، فلا يحتاج إلى قول قائل، – لأن الحياة تسري في كل معانية، فتوحي إلى كل من قرأه بما فيها من قيم شعورية وتعبيرية ووجدانية أصيلة.

عن الفجر والضوء والندا والندى ...

* (كم) جاءنا الفجر (الحرية والخلاص)

يبغي أن نزيد له

- من ضوءه (عطاءً وتضحيات)

- فأضأناه (فضحينا ولم نبخل ولم نعلن الظلام بل أضأنا شموعاً وأطفأنا أعماراً ورجالاً ... ليعيش أبناءهم)

- وندَّينا (أعطينا واسقينا ونشرنا أهداف فجرنا وأضوينا أحلامنا وأمانينا).

وعن الأمة العربية والاستكانة والخضوع والذل إلى أن لطمَ الصخرُ قفانا ...

لم نكن في أُفقها فجراً يضيء ولا في وجهها ظلاً ظليلا

لم نكن في ورحها يوماً سوى جربٍ تهرشه داءً وبيلا

فالأمة العربية والأرض العربية عند الفضول سماء ممتدة، ولكن الإنسان والناس والشعوب العربية – لم تكن – في آفاقها فجراً يضيء ليلها، ولا في وجهها – وجه الأمة

الذي تلفحه الشمس اللاهبة – ظلاً ظليلا، فالظل هنا بمعنى العـزة والحريـة والكرامـة والعطاءات والتضحيات، لم نكن / وقد نكون... فالماضي والمضارع عند الفـضول لـه دلالاته المرتبطة بمستقبل الأمة العربية، فهي دلالات تنطوي على دعوة، بمقـدار التـوبيخ والسخرية التي يسقطها الشاعر على أمته، وعندما ينتقل الشاعر من الآفاق والفجر الضوء والظل الظليل، فإنه يوجد مفارقة قوية ومثيرة للألم، فلم نكن في روحها – مبالغة عن سوء الحال – سوى جرَب هَرشُه داءً وبيلا، فالداء عندما يكون وبالاً فإن الحال يكون في سوء عظيم، وهو حال الأمة، ولا يخص الفضول أحداً، ولذلك فهو يُجسد الكلية بدون تخصيص في أقواله التي على هذه الهيئة الجمعية لم نكن.

* قضية هذه المفردات:

الظمأ – الندا – الظلال – الندى – الضحى – الضوء – الشروق – الفجر .... في شعر الفضول من خلال منهج التفسير النفسي للأدب ...!

منهج التفسير النفسي للأدب من المناهج النقدية في الأدب والتي ظهرت حـديثاً في القرن العشرين، وفي أوائل القرن بالتحديد على يد عالم النفس النمساوي رائـد مدرسـة التحليل النفسي سيجموند فرويد، وهذا المنهج انتقل إلى الأدب العربي كغيره من المنـاهج النقدية والتي سنوضحها في الأبواب القادمة، وهذا المنهج ينبغي عدم المجازفة في استخدامه، لأن عليه محاذير كثيرة أهمها، إلا يتحول العمل الأدبي إلى عيادة نفسيه، والأديب صاحب العمل الأدبي إلى مريض نفساني، ولكن يكون اللجوء إلى هذا المنهج بغية في مساعدة الناقد على تحليل الأعمال الأدبية التي تتطلب هذا المنهج، وعلاقة النص بتكوين الشاعر وصاحب العمل من الناحية النفسية والشعورية، ونرى أن خير طريقة لتوضيح المناسبة أو الإمكانيـة التي من خلالها يكون مناسباً لنا استخدام هذا المنهج أن نذكر تلك القصة التي حدثت بين الشاعر العربي الأموي (ذو الرُّمَة) والخليفة عبد الملك بن مروان، وقد سبق أن أشرنا إليها ولكن هنا سنكتفي بتلخيصها تذكيراً بها فحسب، وذلك عندما قدم الشاعر ذو الرمة من الصحراء – حيث يعيش – ودخل على الخليفة عبد الملك بن مروان – وكانت عينه تدمع أبداً – فأراد الشاعر أن يمدحه لينال عطاءه فقال في أول بيت من القصيدة ...

ما بال عينك منها المـاءُ ينـسكبُ كأنَّه من كُلـىً مفريـةً سَـرِبُ

ويقال بأن الخليفة نهر الشاعر اعتقاداً منه بأنه يسأله، وعاب النقاد القـدماء علـى الشاعر هذه الصورة القبيحة أولاً، ولأن الخليفة كان مقصوداً بها، وهو نقد جمالي وخلقي وفي ذلك ظلم كبير للشاعر وللنقد معاً، وأفضل من ذلك أن نبحث في ذلك القرار البعيد من نفسية ذي الرمة عن دلالة ذلك الرمز الذي أستخدمه – الكلى المفرية التي ينـسكب منها الماء – والشاعر عاش في الصحراء وللصحراء،يجوب فلواتها ليلاً ونهاراً، ويسمع فيها

– كما يحدثنا في شعره – عزيف الجن، ويعاني فيها ما يعانيه الوحيد في المكان المهجور، ولعله قد حدث له ذات مرة أن كان في جوف الصحراء وقد أستبد به العطش، وعندما هرع إلى قرابه يستقيه وجد أن خوارزه قد فسدت،وأن الماء قد تسرب منها فلم يبق منه ما يبل ظمأه، ولم يشأ ذو الرمة – فيما نظن – أن يشبه عين الخليفة بمزادة الماء المفرية، وإلا لسكت على البيت الأول، ولكننا نجده يحدثنا – منساقاً مع شعوره الباطن – عن قصة هذه الكلى المفرية فيقول في البيت التالي:

وفـرَاءُ غرفيَّـه أثـأى خوارزهـا مشلشل ضـيعته بينـها الكتُـبُ

فقصة الكلى المفرية في تاريخ ذي الرمة النفسي – إذا صح التعبير – شيء محفور وليس مجرد صورة عقلية يرسمها الشاعر لعين الخليفة، ففي تلك الحال من العطش،و اللهفة إلى من يروى ظمأه،يخيل إليه أنه قد وصل إلى النبع، أو أن ركباً قافلاً في الصحراء قد أتاه بخبر من عند محبوبته يروي ظمأه ويشفي غليله، وكان ذلك – فيما يبدو – وهماً:

أستحدثُ الركب عن أشياعهم خـبراً أم راجَعَ القلب من إطرابـه طـربُ؟

وإذن فقد أحس الشاعر الظمأ وعاناه من جوف الصحراء حين تسرب المـاء مـن قرابه،وقديماً أحس الظمأ في صحراء الحب وعاناه حين ضاع أمله في أن تأتيه أخبار الحبيب، وبهذا يقوم الرابط بين صورة القراب التالف في البيت الأول والكلام عن الركب في البيت الذي يليه – هناك قفزه ولا شك – ولكن تفسيرها نفسياً – كما بينا – ليس بعسير.

فإذا جاء ذو الرمة الخليفة وأستهل قصيدته بهذه الصورة، فليس لأنه جاء يتهكم به، وإنما الغالب أنه جاء وفي نفسه أن الخليفة سيقضي له حاجته وسيغدق عليه من عطاياه، لقد نفذ ماء حياته في جوف الصحراء، ونضب ماء قلبه في صحراء الحب، وليس إلا أن ينقذه الخليفة وقد أتاه شاكياً ضياع زاده وماءه في صحراء تلك الحياة، وهو في وحدته لا يكـاد يتماسك أو يجد له سنداً أو معيناً، فهي إذن شكوى مرة تلك التي أراد الشاعر التعبير عنها وليست تهجماً منه على الخليفة أو فساد ذوق[1].

فلاشك أن هذا التحليل والتفسير النفسي للشاعر ذي الرمة قد أوصلنا إلى حقـائق هامة جداً أنارت لنا الطريق الذي كان النقاد القدماء قد زرعوه وملأوه بالأشواك وتركونا فيه نسير ليلاً وبلا ضوء... فبعد هذا التحليل والتفسير النفسي تكون الصورة الأدبية قد وضحت لتطبيق المناهج الأدبية في النقد الأدبي على بصيرة وهدى وضوء، ... وعنـدما نحاول أن نطبق هذا المنهج النفسي على شعر الفضول عامة، وعلى مفردات الظمأ والظلال والندا والندى والضوء منذ الطفولة ستتيح لن أدراك ومعرفة الأسباب الحقيقـة الـتي.. جعلت الفضول يترجم شعوره بالظمأ وحاجته إلى الظلال ورغبته بقطر الندا في أشـعاره

(١) التفسير النفسي للأدب – د/ عزالدين إسماعيل ص ٩٣/٩٤.

عامةً، وإن كان قد أكثر من تغنيه بظمائه وحاجته إلى الظلال وقطر الندا في قصائده الغنائية والعاطفية ... لأنه في الحقيقة ليس ظامئاً لشعوره بظمأ الإنسان الذي يحتاج إلى الماء، وإنما الظمأ هو ترجمة للعواطف والأحاسيس فتعبير الظمأ هو تعبير مجازي عن ظمأ القلب والوجدان،وقد حرص العلماء وأكد الأخصائيون ومن قبل ذلك شرع الإسلام ونظم وأوضح الأهمية القصوى للتربية الوجدانية للأطفال،و التربية الوجدانية تعتمد في الأساس على رعاية الوالدين، ولا يستطيع أحد من الأقارب مثلاً أن يقوم بإشباع حاجات الطفل العاطفية إطلاقاً،و إنْ سد لفترة من الفترات هذه الحاجات، وهو سداد جزئي، وقد أشبعنا هذه النقطة بياناً وتفصيلاً في باب الظمأ العاطفي، وفقدان الأب له أثار هائلة وجبارة في إفراغ وجدان الطفل من مشاعر الحنان التي يجب أن تتكون – طبعاً قد لا يكون كل الناس لديهم القدرة الواحدة على احتمال اليتم أو يمتلكون الإحساس المرهف، والفضول مرهف الإحساس رقيق النفس، فإحساسه بفقدان الأب وغيابه ويتمه و غياب حنان الأم الذي يمثل الرضعات الأولى لبنيان الإنسان النفسي، والظلال هو ترجمة نفسية لرغبات لاشعورية وشعورية سكنت النفس والوجدان(*)، فالإنسان الذي يسير في صحراء أو جبال والرحلة قاسية والظمأ يكاد يقتله فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه هو الظلال ليخفف من قسوة الرحلة، وقد تكون الرحلة حقيقية أو قد تكون مجازاً، والرحلة هي رحلة الحياة، والاغتراب المبكر والسفر والعمل والكفاح والتشرد والجوع، فيكون الظلال وتكون الأفياء هي الأمل بعد قسوة الرحلة والسفر المضي.

أما الندى وقطر الندا فهي من الألفاظ المشتركة للتعبير عن معاني الظمأ، فالظامئ وهو في حالته تلك لا يطمع بنهر أو بئر وإنما يطمع بقطر الندا ليبل بها ريقه أو ظمأ القلب، وبعامة نجد كل الألفاظ التي تحمل مدلول معنى الظمأ هي تجسيد قوي لنفس الشاعر الذي عانى ومازال من ظمأ النفس العاطفي، ومعلوم أن الشاعر هو ابن بيئته التي عاش فيها ونشأ تحت أشجارها، وقد أوضحنا البيئة التي نشأ فيها الفضول – فيها بيئة ترسخت صورها في وجدانه وشعوره وخياله، وتشربت بها أحاسيسه، فأصبحت تعبيراً عما يعتمل في داخله من مشاعر، وبموهبته التي جاءت معه وأوجدها الله فيه وبمعارفه وثقافته التي أكتسبها بجلاء النظر،وسداد الفطنة وحصافة العقل و اللب وسرعة الخاطر،وقوة العارضة.. استطاع أن يفلسف لنا حبة وظمأه العاطفي من خلال الطبيعة، واستطاع أن يفلسف لنا الطبيعة والبيئة من خلال الحب والظمأ وشوق القلب ومكنون الوجدان وانفعالات الضمير العاطفي في القلب، وسندرك كيف اقتحم الفضول الطبيعة اقتحام الفارس الشاعر المحب فجعلنا نعيش في قرانا كما عاش هو من خلال أشعاره، وهذا من أسرار هيامنا بالفضول، ما استطاع

(*) وموقفه مع أمه والقطيعة التي حدثت لفترة طويله.

شاعر أن يدرك المعاناة العاطفية التي عاشها ويعيشها الشعب وأبناء اليمن في هجرتهم كما أدركها الفضول إلى حد أنه يجوز القول بأن الفضول عبر عن قلوب أبطال قصص محمد أحمد عبد الولي... الذين قتلتهم الهجرة وأفناهم الاغتراب وأضاعهم الوطن، لأن الفضول واحداً منهم وأيوب واحداً منهم، فكانا من هذبا عواطفنا، وظللانا في أفيائهما.

وأكثر الناس إحساساً بظمأ الفضول هم من تجرعوا من نفس الكأس الذي تجرعه يتماً وتشرداً جوعاً وضياعاً، وهو من بيت فقد مكانته، فأصر على مواصلة درب الكفاح والتحدي عن جدارة وإدراك لدور الإنسان الحقيقي، وفي ديوان الفيروزه سنصادف الشروق والفجر والضوء والضحى والندى... الخ، وهي ألفاظ لها دلالاتها النفسية هكذا:

الضحى هو العلم والمعرفة والثقافة والحب والتطور والازدهار والحضارة والمجد والثورة والخلود ونشر المعرفة والعدل والمساواة والحرية أما الفجر فهو رمز الفرج باقتراب الخلاص وضحى التضحيات والسير إلى الأمام.... الخ.

أما الضوء... فهو نور المعرفة والعمل على تحقيق الأهداف .... الخ.

والندى.. هو العطاء والكرم للأرض ومن الأرض... وهي معاني لها دلالات سياسية وإنسانية، واستوحاها الشاعر من الطبيعة والبيئة أضف إلى ذلك التراكيب اللغوية واللفظية التي يتميز بها كل شاعر.

ولو عاد القارئ إلى الوراء قليلاً لتذكر أو لوجد ترجمة تلك المعاني والدلالات في الألفاظ والمفردات، وسنسترسل نحن في توضيح كيف فلسف الفضول الطبيعة والبيئة التي عاش فيها في عمر السليقة فارتبطت بوجدانه وبانفعالاته الشعورية فكانت خير مددلة في التعبير والوجدان والحب والهم الوطني والإنشاد للوطن.

ولإن رجعنا إلى شعراء الطبيعة في الأدب العربي لوجدنا أكثرهم يصفون الطبيعة بأسلوب تقريري خالٍ من الشعور والقيم الوجدنيه وكأن الطبيعة التي نقرأها لا معنى لها، أما الفضول فقد مزجٍ الطبيعة بوجدانه وقيمه التعبيرية وانفعالاته النفسية والشعورية فجعل من الطبيعة منظراً حياً يبعث الحياة في النفوس الغافلة عما حولها، فجعل كل شيء جميلاً وحبيباً إلى نفوسنا.

الطبيعة بين الفضول وأيوب:

إن الطبيعة التي نشا فيها الفضول نشأ فيها أيوب طارش.... وقد ذكر أيوب طارش أنه بدأ حياته راعياً للأغنام في جبال الأعبوس، وأنه حصل على (شبابه) فبدأ يعزف عليها ألحان الجبال وترانيم الوديان، ورجع السواقي وخرير الأنهار والغيول والآبار، وكان مجيداً في العزف عليها، وقد غادر القرية إلى عدن مع أبيه، وما زالت قصيدة جنحت وجناحي

التي طلبها من الفضول تجسد شوقه إلى القرية والطبيعة التي نشأ فيها والبيئة التي قضى فيها السنوات الأولى من عمره البريء ولا فرق مابين البيئة التي نشأ فيها الفضول أو أيوب.

وكأن الأقدار هي التي أعدت موعد اللقاء بين الفضول وأيوب.. وهذا ما أكده أيوب طارش تعبيراً عن اللقاء الذي جمعه بالفضول، وقد كان الفضول هو صاحب المبادرة في لقاء أيوب طارش، قد فصلنا ذلك في باب المزاج الغنائي، وقد استطاع الفضول أن يرسم اللوحات الفنية للبيئة والطبيعة بقدرة واقتدار عجيب، فبعث فيها الحياة والإلهام، وقد أنطق أيوب طارش تلك اللوحات الخالدة إنسانياً، فملأ الجبال والسهول عزفاً على الناي وعلى العود عشقاً ولهاً وحباً ونشيداً في حب الوطن، وما إن توقف قلب الفضول عام ١٩٨٢م إلا وساق أيوب أغنامه وأدخل شبابته في جيبه عائداً إلى ممارسة حياته الأولى، وأيوب يردد كثيراً عبارة بعد أن رحل الفضول ... مهلنيش ... مبالغة في التعبير عن فقدانه للشاعر.

وأهم ما يجب أن نذكره أن الفضول وأيوب استطاعا أن يمزجا الطبيعة بذواتهما فبعثا فيها الحياة والخلود والجمال، فعاش فيها ومعها أبناء اليمن داخل الوطن وخارجه شوقاً وحنيناً واغتراباً وعشقاً وأملاً.

عناصر الطبيعة في الشعر العاطفي وتراكيبها:

مدارب السيل / ضاحات الجبال / شنان ماء / ماء السماء / الربا / الهضاب / الشعاب / الطير / الأعشاش / ضوء البكور / الاصباح / إشعاع نور / الأنداء / الغمام / الوديان خضراء رطاب / هطل الضباب / أفياء / خمائل الورد / الطّل / المروج / الغيث / ماء البحر / الظل / صوت ماء الغيل / القمريات / الليل / النجم / عرف الورد / العبير / عود / الريحان / الخدود/ الزرع / السقيا / الشجر / همس النسيم / ريح الصبا / ضفاف الغيول / القبر / إشراقة الصبح / سحر الغروب / الزهر / شعاع القمر / البدر / تمام البدور / الفم / قطر الندا / الشمس / ضحى الشمس / المبسم / عرش الورد / والندا سكاب / يخضر عود / الشوك / ندا الحب / البرود / الجمر/ طريق المنى / ضوء الخلود / الرعود / غيمات وسدود / أحضان الأيام / أضواء الأحلام / البلس / الفرسك أخضر وحالي / بنات الجبل / الثياب الدمس / خدود مثل الورد / ضوء الفجر / المشاقر / الكاذي / المسقى / برود الغلس / محاىورودك / وغرسك / غرس / غطس / الثواني / جرس / نجوم / بدور / ألف عين / ربين / يتناطفين / أعشاش / عشعشين / يطلين / يتخاوصين / العصافير / يتظللين / غمام الفجر / رحيق الورد / يشربين / نجم الصباح / إن لاح / ظلال مغلق / مريوش / الجناح / ندى هوانا / أنهار ورود / وأزهار / السحاب / يكفي سيول / يا غيول / غيومك / ياسحاب / طير مالك / إيوانك / عرشك / هوى / القناديل / ليل داجي

/ أوى / اكتوى / وحبلك أتى / الذئب / مرعى ظبائي / عوى/ ينفخك ريح / نـديت / نداك / ريحنت أيامي / أسقيت أزهاري شذاك / الناس في وادي / وسط وديانك / يهيم / أمشي بريحاني / أفواج النسيم / وأضم كل الزهر / وأحضن كل ريم / خضر الربـا / في المراعي / أيام الصبا / وتلقاني الظبأ / يطويني الحريق / جازع طريق / وحشة قبري / صمت رفاتي / ضحى عمري / الليالي / غامضات النجوم / والسماء مستضيفة / سارية الغيـوم / والقمر قد توارى / في السحايب يعوم / ساهرة لا تنوم / الرياحين / يـسكبين العـبير / والمنى كالفراشات / والحمايم / والندا والبراعم / يسمعنك غناء / والعيون الحوالم / يحملنك رنا / وأذكرك وأنت نايم / ملء عينك هنا / تحت جنح الليالي / يا ظلالي / أندى ظلال / فجري قد بدأ يستبين / في السماء حيث يذري / من نداها الغزير / أنت فجري الكـبير / ضوء القلب / البيض/ في ليل الحياة / الشفاه / تسبيح وجـداني / تـذري نـدا وردك / سكبناها / الدموع / نور الدموع / وجه السحاب / زهرها / صدر الهضاب / عطرهـا / محضون في غيمات آب / رحال العمر نور / زجاجات / العطور / تتعطر الأعياد / تعطـر بك زهور / باقي العطر للأيام / في باقي الشهور / عرف أيامه على الدنيا جديد / آتى من الجنة / جنحت / لا ريش / النهر / الرعيان / السواقي / الأشجار / العصافير ملونـات الريش والمناقير / الحمام البيض / الشحارير / المواشي / السائمات و البير / شمس الـصبا والمغارب / برد الظل والشواجب / شبابه الراعي / لحني / اغنياتي / لفجر عمري / لـصبا حياتي / لقريتي / لجدولي / لشاتي / زرع حبي / وحي قلبي / أطياف الندم / أشرب ندا عيني / أقتات الألم / حمام البان / الهديل / الليل الطويل / الضوء في عيني / إذا غيبت / ما يضيش / وجه الفجر / أعشى مستضيش / أحرقت أعشاشي / وأرياشي / ولا خليـت ريـش / النجم / ضوء القمر / الغيم / قطر المطر / الفجر / عطر الزهر / مباسم / قات المثاني / ماء الجبل / قطافة القات / وردك ما ذبل / قات الجبل في يدك يقطر ندا / وضحكتك في فمك تقطر عسل / يا بردة الظل / أستظل / مسارحي / سارت ظبا / فل / نفل / صحراء ظامئ / ريحها / ملاعب الحب / عهد الصبا / ضيف ريحان الضحى / ماراح ضوئي ولا عطـري كمل / شل التراب / السيول / رنين الحجول / حمول / يا برد كانون / مبسم الفجـر / مبلول النسيماتي / سكبت ضوئي / وعطري / إبتساماتي / مناديلك / عطر ريحاني / ضوء روحي ووجداني / من الضحى / الأصيل / بين الندا / والظل تحت النخيل / غمغمات النهر / الهديل / ومائه يختال بين الربا / ظل الورد / والزهر تذري عطرها / بشاش الصبا / فوق العشب / نامت صفوف / عيون الظبى / كحلت عيونه فوق صدر النهر / حامت فراش / ظوامئ عطاش / يشربن الندا والرشاش / والضوء والعطر وريح الصبا / علاو الكواذي / المباخر / كبوش الفل / مفرش منقش / بالعطور بالندا / مبلول / مسقى مرشرش / فرحـة

الطائر رأى الفجر غبش / صوت قلبي / ضوء الحسن / يا قمر يا نجوم يا شمس بالله غيبي / لفلفي ضوئك / بحر زاخر / صوت الرباب / وجه التراب / رملي وربع الخراب / فجر أيامي / صبح الشاب / جفاف التراب / الغيث / السيل سال / خذلك ندا / وخذ لك ظلال / خلي الظمأ للرمال / الاغصان الطوال / ساريات الغيم / تحت الشهاب / حرير الضباب / سكنت السحاب / قيعان فيها سراب / احراقي بشوقي ثواب / /الريش / العصف الشديد / يا آخر الأوراق / في زهري / تساقط في الجليد / يا آخر الإشراق / وآخر وجه عيد / لمن تضوي يا صباح بالنور / يا حمائم الدور / نسيماتي يا حور / زهر الخزام ممطور / يا صوت أوتاري ويا لحوني / رشاش الدمع / وأحرقوا ليلي وسهدوني / ضوء النجوم / النهر / الزهر / قطر الندا / رونق الشمس / ظل الغيوم / رعد السماء / ما تشرق الشمس / الأطيار تحت الضحى / وحيثما لاقى الظلال استراح / الرياح /شذا الورد / الأقاح / يا أرضي ويا سمائي / يا موطني / يا بلاد قلبي / يا حب من غيمك شربت مائي / ودام غيمك / أنبتَّ لي ريش على جناحي / وأعطيتني من فرحتك صباحي / مرابي / كل نجمة فارقت / الحمى / أشواك / أزهرت وأعشوشبت / هشيمي / أنت بين الظبى ريمي / أتاملك بين الظبى وأرعاك / يا سراب وهمي / ما لاح بارق أو مطر شن / صنعا اليمن /.

وهناك مفردات بكر غبش و هنوا لقلبي وغيرها .... ويكفي أن ندلل ونرسم الطبيعة بما ذكرنا وكيف وظفها الشاعر ورسمها بلوحات خالدة ليعيش فيها الإنسان أينما كان وحيثما كان وكيفما كان.

وبسرد مفردات الطبيعة والذات في الأناشيد الوطنية سنجد الطبيعة بصورة تتناسب مع هوى الأوطان ...

إن الشعب أفياء وظل / شعبنا فيه الندى / بسمة الأيتام في دفء المهود / أنت محراب له يا وطني / فسيروا في ضحاها / فالضحى أشرق / ونسجنا شمسها / وألحمت شطريَّ / وحطمت القيودا / تربتي فيها تربت أعظمي / يا سماوات بلادي / ارضنا نحن غسلنا وجهها / وكسونا أفقها صبحاً مبينا / ذراها / ثراها / أصقاعة / معبدنا / ضحى سبتمبر / يدجي ضحانا / خير الجنتين / أشرقي تحت سمائي / أنثري ضوئك / جبين الشمس / قمة / يا شماريخي / يا خضرة ريفي / يا نثير الطل / في الظل الوريف / ... ولو تأملنا نشيد الأناشيد رددي إيتها الدنيا نشيدي ونشيد املأوا الدنيا ابتساماً .... وغيرهما من ملاحم الوطن والجبال لوجدنا أنفسنا في أرض وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله:

((بلدة طيبة ورب غفور))، وكذلك وجد الإنسان اليمني نفسه وهو يعيش في طبيعة ووجدان الأرض التي فيها ذلك الجمال الساحر أبدا.

الذي أنطقه عملاق ولا أعتقد أن هناك شاعر مزج الطبيعة بذاته كما فعل ذلك الفضول والشابي، مع مراعاة طبيعة المزج والمزاج والإنطاق، لأن الشابي أنطق الطبيعة حزناً

ويأساً وشكوى وفلسفة كونية وحزناً باكياً، وللشابي خاصيات ليس محل ذكرها هنا، أما الفضول فقد أبتهج وعشق الطبيعة وجعلها أغنيات في الفجر والشروق والأصيل وفي الليل وفي البكور، وجعلها رمزاً وإسقاطاً سياسياً موحياً وليس فيه التشخيص والتجريح التألم، لأن فيه حب الوطن بديمقراطية الإرشاد إلى العيوب، فبقدر ما يتألم ويسخر من بعض الأخطاء فإنه ينطق الجبال والوديان والسهول والقمم في حب الوطن وإشعال نار الوطنية في النفوس والأناشيد تتحدث عن ذلك بطلاقة وبيان.

ولقد مزج الفضول بين ذاته والطبيعة، فكانت الطبيعة لسان حال الذات، والذات لسان حال الطبيعة، عندما يكون الوجدان والشعور هو المترجم للطبيعة فإن الطبيعة تملك خصائص العمل الأدبي فنياً وموضوعياً، وقيمياً وتعبيرياً وشعورياً.

وفيما عدا ابن الرومي وتلك الأبيات والمقتطفات القليلة المتناثرة في ديوان الشعر العربي الضخم، تكاد الطبيعة في الشعر العربي تستعمل من الظاهر فيه مناظر جامدة للوصف الحسي، والتشبيه بالمحسوسات، تعلو في تشبيهات ابن المعتز جميعاً.. ويقول سيد قطب في كتابه كتب وشخصيات؟؟ يخيل إليّ من مجموعة الشعر العربي أنّ الطبيعة لم تكن إلاّ... قليلاً متصلة بإحساس الشعراء العرب اتصال الصداقة والألفة – لا اتصال المجموعة الحية –فهي في الغالب صلة عداء يمثلها قول الشاعر:

وركب كأنّ الريحَ تطلبُ عندهم لها ((ترةٌ)) من جذبها بالعصائب

وإن كانت هذه الظاهرة العامة لا تنفي الأحاسيس المفردة لبعض الشعراء حينما تختلف إلى البيئة كقول حمدون الأندلسيه:

وقانا لفحةَ الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحة فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة والنديم

وكأبيات المتنبي المعجبة في وصف شعبْ بوان وفيها ذلك البيت الجميل:

يقول شعبُ بوانٍ حصانِي أمن هذا يُسارُ إلى الطعانِ؟!

((وظاهرة أخرى تغلب في الشعر العربي وهي الإحساس بالطبيعة عند ألفتها كأنها منظر يوصف أو يلتذ لا شخوص تحيا، وحياة تدب، والمواضيع التي أحس فيها الشعراء العرب بالطبيعة هذا الإحساس الأخير تكاد تعد، فنحن إذا استثنينا ابن الرومي – وكان بدعاً في الشعر العربي كله – لا نكاد نعثر إلا على أبيات ومقطوعات يحس الشعراء فيها هذا الإحساس على تفاوت في قيمتها الفنية، نذكر منها أبيات البحتري في وصف الربيع التي مطلعها:

أتاكَ الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكاً من الحسنِ حتى كادَ أن يتكلّما

وقول ابن خفاجة الأندلسي في وصف جبل:

وأرعن طمـــاحٍ الذؤابـــة شـــامخٌ يطاولُ أعنـــانَ الـــسماء بغـــارب
وقور على ظهـــر الفـــلاَة كأنـــه طوال الليالي نـــاظر في العواقـــب
أصخت إليه وهو أخرس صـــامت فحدثني ليل الـــسُرى بالعجائـــب

وفيما عدا ابن الرومي، وتلك الأبيات والمقتطفات القليلة المتناثرة في ديوان الـــشعر العربي الضخم تكاد الطبيعة في الشعر العربي (تستعمل من الظاهر!) فهي منـــاظر جامـــدة للوصف الحسي.. وظاهرة ثالثة، وهي: أن الطبيعة في الشعر العربي قد تحيا وتدب، ويحس الشاعر بما يضطرب فيها من حياة ويلاحظ خلجاتها، ويحصي نبضاتها ولكنه هو لا يندمج في هذه الطبيعة ولا يحس أنه شخص من شخوصها، وفرد من أبنائها، وأن حركتـــه مـــن حركاتها، ونبضه من نبضاتها، وأنه منها وإليها، وأحاسيسه موصولة بأحاسيسها))[1].

ولا مراء في أن سيد قطب بآرائه تلك أصاب كبد الحقيقة، ولا أشك في انه لو كان بيننا الآن لما تردد في وضع الفضول في قمة شعراء الطبيعة بل والرائد الأكبر والذي فـــاق ابن الرومي ذاته – لا نغفل عن ذكر الشابي الذي جعل من ديوانه غابة ومروج وظـــلال وهواء وحياة كاملة الشعور – وفي هذا يلتقي الفضول مع الشابي رومانسياً وخيالاً ورقـــة إحساس ... وفي هذا أيضاً يختلف الفضول عن أبي الطيب المتنبي..، ويلتقي معه في كل ما ذكرناه وفصلناه في باب بين الفضول والمتنبي، ومن النقاد من يعطي عبدالله بن المعتز الشاعر العباسي دوراً كبيراً في شعر الطبيعة، ومع ذلك فإن فلسفة الفضول للطبيعة في كل شـــيء فيها.

الطبيعة في نشيد الأناشيد:

وامنحيه حللاً من ضوء عيدي / ثرى / قبر / سقى / بالدم / غرسه / الهامات/ ضحى اليوم/ أطلع شمسه / خالد الضوء / على كل المسالك / كل صخر في جبالك / كل ذرات رمالك / كل أنداء ظلالك / سيوف / مثل سيل / وسط ليل / يرتمي / أرضي / زرعت لي / في فمي / بسمة الخير / وناب الضيغم / وجهك المشرق / بالضوء منا مـــشرقاً / وجـــه أرضي / يسكب النار / في أزهارنا / حكته من كل شمس / قمة) ... وفي نـــشيد أمـــلأوا الدنيا ابتساماً حشد هائل من الصور التي تتحدث عن الطبيعة، ومن الألفاظ التي توحي لنا بعظمة الطبيعة اليمنية والأرض اليمنية.. وقد مزجنا الطبيعة ببعض الأشـــراقات الـــتي في الطبيعة مثل (وجهك المشرق ...).

والأناشيد هي ما كان حماسياً لتقوية الصلة بين الإنسان والوطن، ولذلك فإن نـــشيد رددي أيتها الدنيا نشيدي أزداد امتزاجه في نفس الإنسان اليمني من خلال ما فيه من معالم الأرض وعلاقة الإنسان بها في صلة روحانية بين الإنسان والطبيعة والجمال.

(١) كتب وشخصيات – سيد قطب. ص ٦٥.

ففي نشيد املأوا الدنيا ابتساماً (الشمس / ضوءه / عرشاً له / تحت الـسماوات / فوق الضحى / واحة خير / اجنابها قد امرعا / ساحة مجد / تحت سماها / ملعباً /فيئـةً / في الظل / لاقى اللهبا / جذوع / فوقها قد صلبا ...

والشهادات بها كم شـاهدت جَدَثاً قد طَـمَّ ابنـاً وأبـا

– فوق قبور الشهداء / إسلامنا أزهرت فيه أماني الأنبياء / إن رجفنا الساح / عكفنا في المحاريب سجوداً / لن يضيع الفجر من آفاقنا / لن نرجع لليل عبيدا / ينصف الأكواخَ من ظلم القلاع) وليس المقصود بالطبيعة أسماءها بل صورها الحية النابضة، وامتزاج الطبيعة بنفس الشاعر وامتزاج نفس الشاعر بإيحاءات الطبيعة ومناظرها ودلالاتها الموحية والمعبرة، وقيم العمل الأدبي الشعورية والتعبيرية، لأن إنطاق الطبيعة لا يكون بوصفها من الخـارج وإنما يكون بالانغماس فيها إلى الحد الذي يجعلها تنطق بالجمال والعبرة والرمز والقوة الفداء والندى والبذل .... بلا حدود.

الطبيعة في ديوان الفيروزه:

في الفيروزه القصيدة:

* كيف سرنا إلى الدجى من ضحانا؟

الدجى رمز الظلام والتخلف والضحى رمز المعرفة والحرية ولأن الشاعر وقع في حيره حدوث العكس وانقلاب الحال فهو يتساءل كيف سرنا من الضحى إلى الـدجى؟ وهـي صورة من وحي الطبيعة تعكس ما آلت إليه الأمور.

سوف نبقى بعد الهوى يا حبيبي لانلاقي علـى ظـلال مكانـا

فمغادرة الضحى إلى الدجى، أوحى للشاعر أن رحلة الكفاح والتعب لـن تنتـهي، ورمز للحرية والبناء والتقدم والمعرفة بالظلال، والظلال هو الذي سيجعل الحب بين الناس باقياً.

نثرتنا الرياح لليل لا نعرف بأي فج رمانا.. فالرياح هي رمز وإيحاء لما واجهته الثورة من نكسات – تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ – والليل صورة حية لاستمرار الظـلام والظلم، و(فج) رمز لما عليه الناس من حيره في أمرهم فلا يدرون ما يصنعون ولا أين هم (رياح – ليل – فج).

وسقطنا من السماء وقـد... كان على وجه فجرها مـستوانا

فالتعثر والتخلي عن الأهداف يؤدي إلى السقوط حتماً، فالإيمان بالهدف والمبدأ هـو تحليق في آفاق الفجر، فصورة المشهد الطبيعي تتلخص بالرعب من السقوط من السماء.

وتركنا الظـلال تبكـي علينـا.. بعد أن كان فيئهـا ملتقانـا

وهجرنا الضحى.. وحيداً، وقد كان حبيباً لنـــا وكـــان أخانـــا

والتخلي عن المبادئ – الظلال – والتضحيات التي كانت بمثابة الظلال والأفياء التي كُنّا نتكئ عليها ونلتقي فيها كقاسم يجمعنا دوماً، وزدنا أن هجرنا الضحى – وحيـــداً – الذي هو أملنا الوحيد، وقد كان حبيباً وأخاً لنا ففرطنا فيه، فـــالظلال رمـــز الأهـــداف والقواسم المشتركة والآمال المتطلعة، وفيئها وظلها، وحدة العمل واللقاء والهدف ووحدة المصير، والضحى أمل الحرية

فإذا زار وجههـــا عنـــدليب أسبلَ الدمع فوقها وبكانـــا

و رأى البوم والزواحف والأشباح تأوي بحيث كان هوانا
مزقت طيلسانها الرياح وقد كان عليها ريحانهـــا طيلـــسانا
وغصونُ الخزام جفّت، وما عاد عليهن يا حبـــيبي نـــدانا
والفراشاتُ لم يعدن يلاقـــين بهـــا سوســـناً ولا أقحوانـــا
وعيون الظّبا تـــسرح في كـــل اتجـــاه لعلّهـــا أن ترانـــا

فالأوطان لها وجوه تظهر جمالها أو قبحها، والعندليب المحب عندما يسبل دمعه فلاشك لقبح يراه، فلا يجد الخيرين، وإنما يجد ويرى البوم والشؤم والخراب والزواحف من المتآمرين و الأشباح من الخائنين، وقد سكنت بدلاً عن الخير، فتمزق الطيلسان وجفـــت غـــصون الخزام، والفراش لم يلاقين سوسناً وأقحوانا، وعيون الظبأ من الخيرين تسرح في كل أتجـــاه لعلها أن ترانا.

لـــو فقرنـــا مـــن الوجـــود وكـــان الحـــب قـــد عـــاش بيننـــا لكفانـــا

لم يكن ما بنـــا مـــن الحـــب إلا لؤلـــؤاً... فوقهـــا أدرنـــا رحانـــا

فكثر الوجود هو الحب، ولكن لأن ليس لدينا من الحب غير لؤلؤ فلقد أدى بنا ذلك إلى أن ندير الرحى فوق لألئ الحب التي معنا والتي لا تكفي لنعيش بخير – اللؤلؤ و الرحى رمز للخير والشر – لأن العقول التي تتطلع إلى الشر غالبة ومتكالبة فكان أن أدرنا رحانا فوق حبنا ولألئنا.

كم ملأنـــا الحيـــاة زهـــراً وعطـــراً
وهنـــــاءً، ونـــــشوة، وأفتتانـــــا
وأضـــاءت فينـــا البـــشاشة فجـــراً
ضـــوءه فـــوق كـــل ضـــوء أتانـــا

فصور الطبيعة هي أقرب ما تكون إلى الشعر وهو يريد أن يتحدث عما بُذل في سبيل الحياة الكريمة، فالزهر والعطر والهناء والنشوة والافتتان والإضاءات والبشاشات والفجـــر المضيء في النفوس هي التي سطعت أنوارها وأضواؤها، ولكل منظر من منـــاظر الطبيعـــة

تفسيره النفسي والتاريخي والفني في تجريد الشاعر وقيمه التعبيرية (زهر/ عطـــر / هنـــاء / نشوة / فتنة / ضوء / أضاءت / بشاشه / الفجر / الضوء .....).

وفي ركاب المجانين: (سؤال عربي)

كم فؤوس فوقها جـــاءت، تُعْمِـــلُ في الأخـــلاق قـــصلاً واحتطابـــا

فصورة ومشهد الفؤوس وهي تهوي قصلاً واحتطاباً للأخلاق أو الأهداف أو المبادئ من المناظر البشعة، ولبلوغ الصورة النهائية لبشاعة قصل وحطب الأخلاق وكأن الأخلاق شجره وأن تشاهد بشاعة المنظر والفؤوس التي تمسكها الزنود المفتولة وهي تهوي عنيفـــة تكاد تراها شعراً.

إنها أرضـــي وقـــد جغرفهـــا حبُّهـــــا فيَّ جبـــــالاً ورحابـــــا
سوف أمضي فوقها سلسبيلاً.. وســـأحياها عمـــــاراً، أو خرابـــا
محـــرق الغابـــة حـــتى لا أرى مخلبـــاً فيهـــا، ولا أشـــهد نابـــا

ولا أروع من هذه الصور والمناظر الطبيعية التي تشمل الأرض والعصور الجغرافيـــا وهي تتحول وتنمو جبالاً ورحاباً في أحاسيس الشاعر وحبه للوطن، وأنه بحبه وأحاسيـــسه وجباله ورحاب الوطن، سيمضي في حبه للوطن سلسبيلاً لا ينقطع مـــاءوه وهـــو عـــامر ومتطور أو خراب ومدمر، وحتى لو كانت غابته محترقه، لأنه لا يريـــد أن يـــرى مخالـــب ونيوب الذئاب من البشر وهذه الصورة تعكس نقمة الشاعر على من لا يريـــدون خـــيراً للوطن، ومع ذلك فهو سيبقى سلسبيلاً للجميع..

كم أذلوا العقل نبـــذاً واجتنابـــا، واحتووا ملء مـــراعيهم ذئابـــاً
ومـــرابي الزهـــر يعـــبقن ملابـــا أبـــدلوها بالفرشـــات ذُبَابـــا
وخـــوابي الـــشَّهد لمـــا فَرَغَـــتْ ملئوهـــا بَـــدَل الـــشهد لعابـــا

فالمراعي والذئاب التي امتلأت بها المراعي، والفراشات التي جاءوا بدلاً منها بالذباب، والشهد الذي أستبدلوه باللعاب هي صور حية وموحية وقوية وعميقة استنفد الشاعر فيها ما يدور في خاطره وشعوره بصور طبيعية موصولة بوجدان الشاعر (المراعي / الـــذئاب / مرابي الزهر / العبق / الملاب / الفراشات / الذباب / خوابي الشهد / فرغت / ملئوهـــا / الشهد / اللعاب).

* ودخلنا رحلةَ الإفك حُفاةً وخضناها ظلاماً وضبابا

وبسبب أولئك دخلنا كلنا في رحلة الافك على أنفسنا وقد أمسينا حفاة مشهد حي، وخضناها – رحلة الافك الطويلة – ظلاماً وضبابا، فجمع الشاعر الجميع بما فيهم هو نفسه (دخلنا / رحلة الافك / حفاة / خضنا / ظلاماً وظبابا).

يا ظنوني ...كم تطا منت إلى مستيسر، ينطوي وَحْشَاً وغابا

كم أراكِ الليل فجـراً كاذبـاً وألاح القـاعَ للعـين سـرابا

فمن تطمئن إليه ظنونك وهو يبسط لك الأمور، فإنه ينطوي في داخله على وحشية وشيكه الوقوع، وحشاً أمسك بزمام الأمور في غابته وهذه الصور الطبيعية هي تجسيد له، (الوحش / الغاب / الليل / القاع / السراب).

كلُّ من جاء حسبنا أنـه قد أتى في ليلنا الداجي شهابا
وحشرنا حولـه أنفسنا موكباً يصنعه ضخماً مهابـا

فالشهاب رمز الأماني والليل الداجي رمز الظلم، ومن نعتقده شهاباً، فنحشر أنفسنا حوله لنكون له موكباً ضخماً مهيباً ومهاباً، – ولفظ حسبنا تفضح كل تلك الآمال التي أوحت لنا بها الليالي الداجية، فصورة الشهاب في الليل الداجي نكاد نراه يضيء في هذا المقطع كما نكاد نرى حقيقة – لا وهماً أنفسنا ونحن نحشرها حشراً لنكون موكباً لذلك الشهاب في الليل الداجي، حتى إذا ما قدم الفجر أدركنا ما كنا عليه من وهم الليل الداجي والشهاب الكاذب والوهم الكبير.

ومضت أعيننـا تـذرع مـا قد حسبناه خـضَمّاً وعُبابـا
فإذا زخّارُنـا لـيس سـوى حفرةً، قد مُلِئَتْ ملحـاً مُـذا

يمتد / الأرض / سحابا / طاؤوسنا / غرابا / تذرع / ما قد حسبناه خضماً وعباباً / زخارنا / حفرة / ملئت / ملحاً مذاباً / اسقاط عنيف وقاتل على اعتقادنا بأن السحاب ستمطر، وخيبتنا ونحن نشاهد الطاؤوس في الليل الداجي وقد بدا أنه غراب، فاذا نحن نشاهد ما قد صوره لنا الطاؤوس (خضم) ونحن نذرعه بالعين كناية على أننا لم نبرح موضعنا، فإذا زخارنا – من اعتقدناه شهاباً – حفرة ملئت ملحاً مذاباً.

وفي معبد الأوثان: (سؤال عربي)

هـذه الساحة ليست ساحتي ما فشى السوء بها واستعلنا
هـذه الراية ليست رايتي طالما كانت لحق كفنـا
معبد الأوثان لم أدخله يوماً لكي يعيد عقلي وثَنَـا
أو يعشق الخير فوق ساحاتي سوى الضوء لا يسرح ليل بيننـاً

فالراية و السوء ضدان، فلا وجود لأحدهما بوجود الآخر، فالراية التي حاكها الشاعر من كل شمس، وجعلها الشهداء تخفق في كل قمة.. ليست راية الشاعر وهو يرى السوء يفشي ويستعلن، فراية الشاعر ليست رايته طالما كانت للحق كفنا، فهذه الراية رمز للحرية وكفن للشهيد أما أن تكون كفناً لحق من الحقوق ولمقدار من الحرية فهي ليست الراية التي حاكها الشهداء بدمائهم التي أرواها ضحى الشمس والحرية والمعرفة.

لن تلاقي أمنها نفسي،
وأنّى لها ... في غابة أن تأمنا
إن غاباتي وفيها الأسدُ هشّتْ
ماتت الآسادُ..
أم ولّت فراراً
أنا مشتاق لأن يصنعَ لي صانعوا الإصباح من أرضي نهاراً

إن إيحاءات المفردات وتغلغل المعاني، وإبراق الطبيعة، والانتماء الفذ للأرض وللطبيعة تجعل الإنسان قريباً من الطبيعة بل يكاد يكون فيها وفي غاباتها،والإحساس بعدم الأمان ليس خوفاً من الأسود لأنها هشت وضعفت وهذه مفارقة الطبيعة والفلسفة الكبرى التي لا نعرف منها هل الآساد ماتت أم ولت فراراً وبطريقة مضحكة، لأن الأسود كانت هي الأمل في لتصنع الإصباح والنهار في الغابات.

وفي الخوازيق: (سؤال عربي)

أيُّها الأنجم،
والإصباحُ ...،
والشمس المنيرة.
أين تلقاها نفوساً
تسعُ الناسَ ...كبيرة
إنَّها ملفوفة
في دُخان، لفها فيه دجاها
جرَّها السّوءُ إلى أدغاله ...
فبدَت في دمامات هواها
ليت أنا نقدر أن نسكبَ ...
بعضَ ندانا يا حبيبي في لظاها

كانت النجوم ومازالت وستظل تحمل معاني الهداية في البر والبحر، هداية الضائع والمتشائم والمتألم، ولذلك فهي تسكن أعماق الشعور الإنساني، وهي أول ما يتبادر إلى ذهن الشاعر، أيها الأنجم ثم الاصباح ثم الشمس المنيرة ... ولكن لماذا النداء الترادف واللهفة؟، كان النداء للسؤال الذي لم يحتفظ به فيلسوف من فلاسفة الدنيا شرقاً وغرباً وعَرباً ... فما هو السؤال؟

للسؤال عن النفوس الكبيرة – إذا كانت النفوس كبارا – أين نلقاها؟ أين نجدها؟ إنها ملفوفة.. في دخان، لفها (فيه) دجاها وظلامها وحلاكها الشديد السواد، جرَّها السوء

(الشر والأشرار) إلى أدغاله، وأمنية الشاعر المحب تدفعه إلى إيحاءات الطبيعة الخلابة شعراً وشعوراً (ليت أنا – نقدر أن نسكب بعض ندانا في لظاها)

لم أزل مرتجياً أن يجد الناس في أخلاقنا بعضَ شذاها
في نفوسٍ بقيت في الغيم ما... مسَّها قيظ، ولا جَفَ نداها
فمضت مورقةً لم يؤذها عاصفُ الشرِّ، ولا هَدَّ قُواهَا

إن للأخلاق شذى والمحب لا يبخل بشذى أخلاقه على الناس دون يأس، وشذى الأخلاق في تلك النفوس التي بقيت في الغيم وما مسَّها قيظ أو شر، ولا جفَّ نداها وعطاؤها وخيرها، فهذه النفوس التي تشبَّعت بشذى وندى وغيم الأخلاق تمضي مورقةً ومرتفعة فلا يصيبها عاصف الشر ولا يقدر على هدِّ قواها أبداً – لأن الأمم الأخلاق ما بقيت – لكن بإيحاءات الطبيعة.

كم كسوف يعتري الشمس... ولكنه لا يسلبُ الشمسَ ضُحَاهَا

أن يستمد الشاعر روعة الطبيعة ومعجزات الكون والحياة فإن لذلك دلالات المناطقه الذين لا يكتفون بصدق التجربة وإيحاءات العمل الأدبي ولا أروع من منطق الأزل القائم بغروب وشروق الشمس وهذه الشمس هي التي طالما اعتراها الكسوف خلال مئات السنين، وذلك لا يسلب الشمس ضحاها والحياة حريتها ونورها.

ووجدنا ملء دنيانا الفقيره
غنماً يلعقن جدران حضيره
منهكات في الصراعات الحقيره
بقرون قد تحاطمن كسيره
يتناطحن على أكل حصيره

وأحزان الشاعر وصدماته النفسية التي يتعرض لها وتتعرض لها طموحاته، تجعله يستنطق البيئة النفسية في أعماقه فلا يجد فيها غير أغنام تملأ الدنيا الفقيرة فكراً وإبداعاً وعقلاً وهي تلعق جدران الحظيرة التي حوصرت فيها من شدة الجوع وغياب العقل والفكر، وقد أصبحت منهكة / ما عليه العرب / بسبب صراعات حقيرة، رغم عدم امتلاكها من وسائل القوة غير قرون تحطمت متكسرة وكسيرة وانهزام ذاتي داخلي، وكل ذلك الصراع وتلك الأحقاد وذلك التناطح المخزي والمضحك والمبكي.. من أجل ماذا؟

يتناطحن على أكل حصيرة.. وكأننا ننظر إلى أنفسنا الفقيرة بمناظر كالحة ...

(دنيانا الفقيره / غنماً يعلقن / جدران حضيره / صراعات حقيره / بقرون كسيره / يتناطحن / حصيره).

وفي غناء للوحدة:

.... الوحدة ....

فإذا ظلـــت علـــى أوراقنـــا كَلماً تُذْرَا على وجـــه الـــدُّروب

فستمضي النـــار في إحراقنـــا أبَـــداً توقـــدها كـــف الغريـــب

وإن الوحدة قدر حتمي .... فإذا ظلت على أوراقنا.. الاتفاقيـــات واللقـــاءات – كلمات تذرا على وجه الدروب، فالدروب كثيرة، أما درب الوحدة فمبين، فعبث الكلام كعبث السير دون تحديد للدرب الذي سيوصلنا إلى مبتغانا، وإن كان كذلك فستمـــضي النار في إحراقنا أبداً إدراك سياسي والإدراك من وحي الطبيعة (النار / إحراقنا)، و هـــذه النار توقدها كف الغريب، والكف رمز لطبيعة وقوة الدعم من أجل إحراقنا بالفرقة.

وفي قصيدة عاشقوا المجد:

وهذه القصيدة قد استعرضناها في باب بين الفضول والمتنبي ومن مفردات الطبيعـــة التي جاءت فيها ولها دلالات أوضحناها هناك...(القمم / الظل / ساحاتي / لحن / نغـــم / طير / كنن/ الباز / الرخم / الوكور / القمات / الغرابيب / البومات / الضوء / الظلـــم / (من الظلام) / للفجر / ساحة الكرم / مشارق الضوء / أورقة / إلى الظل / ذروة التبجيل / العرم / وآدي جمع وادي / غيوم / ديم / الصخر / الأطلال / حاطب ليـــل / حـــرش / الأشواك / الصباح) .... وهي مفردات تدخل في صميم الحس الوطني، والعـــزة اليمنيـــة والإحساس بالانتماء إلى العروبة.

وفي قصيدة هدية الله:

مسيرة فيه ســـرناها مُعَذِّبـــةً فيها فحيح الأفاعي مِلء سمعينا

لقد مشينا ظمأ في مفاوزهـــا نكاد نشرب فيها رسم ظلينـــا

وتألق اللفظ وتجانس المعاني و ارتقاء الشعور، عمق المعاناة ترسم عذاب تلك الرحلة القاسية التي ساد فيها الشاعر، فيكاد فحيح الأفاعي يملأ سمعينا وأسماعنـــا مـــع الـــشاعر، فعذاب تلك المسيرة لا ترسمه لنا إلا ألفاظ من الطبيعة (مسيرة / معذبة / فحيح الأفاعي / لقد مشينا / ظمأ / في مفاوزها /.

تجسيد نفسي عنيف لمعاناة ظامئ في مفاوز وصحارى وبيد وقفار .

وكم أتى الوردُ يعطينا براعَمـــه ليسكب الحبُّ فيها طيب عمرينـــا

وعلى ذلك يقول الشاعر:

فليس للحب ليل وفي جوانحنا ولا أرتعاشة أثم في ضميرينا

فموسيقى الشعر مع موسيقى ومناظر الطبيعة ومعاني الشاعر، وذلك الترابط الروحاني الخلاق والموهوب بين كل عناصر العمل الأدبي.. يحرك الورود من مكانها ويبعـــث فيهـــا القدرة على الحياة والحركة، وأخص ما يتميز به الورد تلك البراعم البديعة التي هي في مقام

القلب أو العين من الإنسان.

وفي قصيدة عَرَباً كُنَّا (سؤال عربي)

لم تجدنا الأرض للأخلاق موسوعةً تلقـــى مـــن النبـــل قبـــولاً
لم نكـــن في شمـــسها إلا الـــزوال وفي أنجمهـــا إلا الأفـــولا
لم نكن في أفقهـــا فجـــراً يـــضيء ولا في وجهها ظِـــلاً ظلـــيلاً

إن امتلاك القدرة على التصوير بإيحاءات الطبيعة من الأمور النادرة والتي لا ينالها إلا الأفذاذ والنماذج الممتازة من الأفراد.

ألفاظ حاشدة من وحي الطبيعة وهي تعبر بقوة عن مأساة عامة (الأرض / الشمس / الزوال / الأنجم / الأفول / الأفق / الفجر / الضوء / الوجه / الظل الظليل ...) كل هذه المشاهد والمناظر الطبيعية في مقطع صغير له دلالة نابغة على عظمة تـــصويرات الطبيعـــة وعلاقاتها بمرايا الذات.

وغدرنا فيه إشراقاً وخُنَّا مـــضيئاً جـــاء للفكـــر رســـولا
نفرٌ منَّا أتوا للأرض فجراً.. وسرحنا نحن في الفجر وحولا
نفر قَد مات مذبوحاً بأحقادنا أو مـــات مقبوحـــاً ذلـــيلاً
وركبنا مجدهم خيلاً بها تمـــلء الـــدنيا غبـــاراً وصـــهيلا

ولأننا لا نتأمل إلا مشاهد الطبيعة لأن المعاني افترقت بالنماذج المتباعدة نوعاً ما... فهل نرسم هذه الصور: وغدرنا فيه إشراقاً فالإشراق هو الروح الوطنية التي عليها بعـــض الأفذاذ، ولأنَّ نفوسنا مظلمة غدرنا بإشراقه الوطني. وخُنَّا مضيئاً، لوحة كاملة.

(نفرُ منَّا / أتوا للأرض / فجراً) يقابلها صورة ومنظر ... (وسرحنا / في الفجـــر / وحولا) فلفظَ سرحنا لفظ حي وكأننا في مشهد متحرك وضوء يبكي علينا وقـــد تحولنـــا وصرنا وسرنا وحلاً ووحولا. وهي كلها ألفاظ حية وموحية ومتحركة.. تعطي المعنى أبعاداً هائلة من الأحاسيس وقوة الشعور والتعبير والقيم.

وأتى البغي على متن هزائمنـــا يجتثنـــا أســـداً، وغـــيلا
يلطم الصخر قفانا فندور، لكي نسقط عجزاً وذهـــولا

وأتى البغيُّ على مَتْنِ هزائمنا (صورة عنيفة بإيراد لفظة متن، وسريعة بـــ يجتثنـــا، ولتوليد المرارة بقسوة لجأ الشاعر إلى الطبيعة وإلى الغابة وإلى الأساطير.. فنحن الأســـود والغيلان، لكن البغي يجتثنا بلا رحمة من جذورنا، وهذا مشهد و (يلطم الـــصخر قفانـــا / فندور / لكي نسقط / عجزاً / وذهولاً / وهذا مشهد المشاهد).

هكذا سار بنـــا القـــبحُ إلى طرقِ الأدغالِ في السوء وأفضا
ودخلنا غابة الأنياب.. ليس بما يملَيه غـــيرَ النـــاب نرضـــى

هكذا – سار بنا – القبح، وهو يمسك بأيدينا وبعراقيبنا كأطفال صاغرين ... إلى أين؟ إلى طرق الأدغال أعمق ما في الغابات وأوحشها.. بل طرق الأدغال في السوء وهو نهاية الشرور – وهذا عمق – ثم – ودخلنا غابة (الأنياب لتملي علينا الأنياب ما تشاء ونحن صاغرون.

* وفي قصيدة أغنيات الشمس (سؤال عربي):

في هذه القصيدة تبرز الطبيعة كفلسفة قائمة بذاتها تميل إلى قراءة وتحليل الفيروزه وأغنيات الشمس وفقاً لمنهج التفسير النفسي للأدب باعتبارهما أكثر قرباً من الشاعر حسب رؤيتنا الخاصة ومنظورنا الحالي – وهذا ليس معناه أن بقية القصائد غير قريبة من نفسه، ولكن للحسن أسباب ولنا أسباب كما قال نزار، وسنتعرض إلى مفردات القصيدة هنا حتى تكون الدلائل والقرائن اللفظية التي امتزجت في حس الفضول ظاهرة ومتصلة في ديوان.. لنا أسباب سنأتي على ذكرها لاحقاً.. (الزهر / العطر / لحظات الليل / الديجور / دجنات / سرداب / الإشراق / الضوء / الضحى / الشذا العبق / الظل الندا / أصيل / وجه الفجر / عشياً / أضحى / لبس الاصباح / ضوءاً وندى / فجراً بشريا / سحبي النفس / واكف المزنة / قمة تشمخ / طوداً عليا / في النجم / طولا حشريا / وحل / الورد / نهر / ضفدع / نقيق / روض / سبع / شدق / غيمة / البروق / ظلاً / صلٌ / نحلي / راحقة زهراً / الزهر / الرحيق / مخضر / وريق / شتاء / أوراق / العروق / شروخ وشقوق / نهر / مرابي الخير / دفوق / بئر / جفاف / غريق / الآفواق / أغنيات الشمس / فجر وشروق / حديث النجم / منحدر / سحيق / الثرى / نفس ترابيه....) .

وفي وثيقة الشمس: (دوحة مخضرة بوحي الطبيعة):

كم يحزن الليل ويبكي القمر ويمسح النجم دموع الدرر
وتسأل الغيمات وجه السماء وتسأل الأرض نسيم السحر
وتسأل الأوراق قطر الندا عنّا ويبكي الفجر فوق الزهر

** **

ومنذ تغيّبنا عن الملتقى والعشبُ ينسى شوقَهُ للمطر
والورد في أكمامه كُلّما، أسقاه قطرُ الغيم فيها ضمر
والرند تذري الريحُ أوراقها محروقةً في ضفتي النهر
والظل يلقى أنه قد خلا منّا... فيلقى روحه في سقر
وإن أتيتُ النهر وحدي لَوى عنّي... وغطىّ وجهه الشجر
وفي مراعيها عيون الظبا... يبكي الرنا فيها ويبكي الحور
وإن أتى وجهي إليها.. تولىّ الدمعُ من أهدابها، وانحدر

فما من شاعر أشرك الطبيعة في أحاسيسه، وأحس بما في جوانح الطبيعة من مواويل البشر وأحزان الناس كما فعل الفضول، فالليل حزين، والقمر باك، والنجوم تمسح الدموع والغيمات تسأل وجه السماء، وتسأل الأرض نسيم السحر، وتسأل الأوراق قطر الندا ... عماذا؟ (عنّا) – الحبيبان / الشعب / الوطن / الأوطان / والعرب جميعاً، بل ويبكي الفجر فوق الزهر، فما سبق الفجر أن بكى سوى فجر الفضول وفجر العرب ... فالفجر رمز الحرية، وما بكي الفجر إلا لأن من يعبر عن حريتهم تخاذلوا عن الوفاء لمعانيه في نفوسهم.. وفرحتهم به وهناك يمتزج الحب بالوطن ... والقصيدة حافلة بمظاهر ألوان غاية في الجمال / العشب / المطر / الورد / الأكمام / قطر الغيم / ضمر / الرنه / تذري / الرياح / أوراقها – محروقة / ضفتي النهر / الظل / سقر / لوى / غطى وجهه بالشجر / مراعيها / عيون الظبأ / الرنا / الحور ... وينتهي الشاعر بهذا الجمال:

وتشهدُ الفجر على حبنا وثائقُ الشمسِ بختم القَمَرْ

فثقة الشاعر بالناس أصبحت مهزوزة جداً، ولم يعد أمامه غير (الفجر – الشمس – القمر) فالحرية وثائق مكتوبة على ضوء الشمس والفجر شاهد عليها كل يوم وإلى الأبد، والقمر تلك العلامة وذلك الختم الذي يعطي للحياة جمالاً من ضوء الشمس، ولذلك فإن وثائق الشمس مختومة بالقمر.

وفي قصيدة ذكرى ١٩٤٨م:

في مشرق الأصباح صغتُ بياني وحبكته في ضوءه الفتّان
حَمَلوا المشاعل في الطريق، عريضة اللهبات فوق مسارح الغيلان
لأكاد ألمحُ في الشعاع وجوههم تحت الضحى، يمشون في الأكفان
يذَرون طيب المجد حيث تساقطوا عبقين مثل ضمائم الريحان

فصياغة بيانات الحرية لا تكون إلا في مشرق الإصباح وهي بيانات محبوكة بأضواء الصباح الفتان (من ضوء ألف عيد ضاحك ألق).. فلمن صاغ الشاعر بيانه في مشرق الإصباح وحبكه بالأضواء الفاتنة؟ انه فعل ذلكً لمن – حملوا المشاعل في طريق الحرية، وهي طريق لهبات الموت مزروعة في أنحائها طريق فوق مسارح وملاعب الغيلان والشياطين من أعداء الوطن.

ومن خطورة الطريق يكاد الشاعر يرى وجوههم تحت الضحى، يمشون في الأكفان، يذرون ويغرسون حب الوطن والتضحيات حيث تساقطوا وروائحهم مثل ضمائم الريحان.

* لا تطلقنَّ على غراسك دابةً
تأتي نواجذها على الأغصانِ
قبس يضئ بمكمن الثعبانِ

ومتى ....،
أو عانق الذوبانُ يوماً راعياً
يقظاً أطال مجاعةَ الذوبان

والحكمة وليدة الأيام ن فالعاقل لا يطلق دابة على مغارسه وأشجاره ومزارعه وأهدافه وقوانينه... لأن، نواجذها وأنيابها لن تمهل تلك الأغصان الجميلة في المغارس، ولأن الأغراء والجهل يورد إلى التلف والهلاك، فالخير خصم أبدي للسيئين ومن في قلوبهم مرض.

فالذئب أو الذئاب لن تعانق أو تحب راعياً للأغنام كان يقظاً في حراسة أغنامه، وأبلغ الشعراء من أنطق الطبيعة بلسان من الحكمة هكذا (غراسك / دابة / نواجذها / الأغصان / قبس / يضيء / مكمن / الثعبان / الذوبان / راعياً / الذوبان (ذئاب) ... عبقرية اللفظ وعبقرية الدلالة والمعنى وعبقرية الإيحاء والأسقاط ... إنها عبقريات خالدة!

يا واحةَ الطاؤوس كم هو فاضح أنّ تحفلي بدمامة الغربان
وتُرى العناكبُ فيكِ قد فرشَتْ لها فوق الظلال شَقائقَ النعمان
ولكم يهونَ الخَير أن تصغي إلى دود الجذوع حمائم الأفنان

سخرية من الجمال والغرور بالجمال ومن الطاؤوس، الذي أنشغل بجماله عن الحذر من ترصد الأعداء أما واحة الطاؤوس فهي إسقاط على الوطن ككل، ولننظر إلى عبقرية المعمار العمودي والمعمار الشعري القائم على عبقرية الإيحاء من الوهلة الأولى، (يا واحة الطاؤوس)، ومع وصول التيار الشعوري من هاتين المفردتين إلا أننا نبقى في شوق إلى تيارات شعورية وتعبيرية ترفع درجات التعبئة والجاهزية الإنفعاليه إلى أبعد مدى.. (كم هو فاضح أن تحفلي) بماذا؟ بدمامة الغربان، فتكاد هذه المقابلة للتيار الشعوري الموجب والسالب أن تصنع لحظات قاتلة (واحة الطاؤوس / ودمامة الغربان) ما أبشع المقابلة وما أخزاها، و كيف أن من في مثل جمال الطاؤوس وواحة الطاؤوس يعير الغربان ونعيق الغربان اهتماماً ويعطيها مكاناً عليا، ويمضي الشاعر في مقابلة عبقرية / العناكب / الظلال / شقائق النعمان / دود الجذوع / حمائم الأفنان.

يا أيكتي كيف الغناءَ وحولنا يدمي الثّغاءَ حناجرِ الخرفان
يا ببغاء الغاب لا يكفيك ما أوْتيت من ريشٍ، ومن ألوانِ

عبثية أن تغني ولا يسمعك أحد، أن تكون في دولة ديمقراطية ولا تجرؤ على قول الحقيقة ...

يا خيالي إن عيني عجزتْ أن ترى لي في قطيع جحفلاَ

يخجـــل التزويـــر أن يعطـــي ذئبيـــةَ داجنـــةَ أو حمـــلا
وعـــوآء الـــذئب لا يمنحـــه روحَ ليـــث فـــاعلاً مـــا فعـــلا
وأفتضاح أن يرى الغـــاب بـــه ضيغماً، يرعـــشه مَـــنْ ســـعلا،

تقابل بين قطيع وجحفل يصنع مفارقة موحية فلا يمكن أن يكون القطيع من الأغنام جيشاً جحفلاً، فمن المخجل أن تكون الدجاجة أو الحمل المسالم الوديع ذئباً أو بـــصفات الذئاب وفضيحة أن يكون في الغابة ضيغماً يرتجف من سعال، يسمعه. فلسفة لاســـتحالة صنع الفدائية في أمة كالقطيع.

أيُّ أرضٍ قاعهـــا قـــالَ بـــأنّ زقاقـــاً – فيـــه – أضـــحى جـــبلا
لا يؤاخي النجمَ إلا مَـــنْ يُـــرى كـــلَّ يـــومٍ بالـــضحى مُغتـــسلا
والـــذي يحبـــو علـــى الأرض، ويألفـــهُ القـــاع يـــؤاخي الـــوحَلا،

ولعلنا نذكر قصة كليلة ودمنه التي تجري على ألسنة الحيوانات والطيور غيرهـــا، إن ذلك الرمز وتلك الإيحاءات جعلت منه مقصد وكعبة الحكماء عبر مراحل التاريخ، فعندما تقرأ مثلاً هذه المجموعة اللفظية تدرك فلسفتها.

أيُّ ناموسٍ بـــه النـــارُ أتـــى جمرُهـــا يقطـــر مـــاء شـــبما
إنّ مَنْ ربـــاه حـــضن الـــرَّوضِ والعُـــشب والخـــضرة صـــلاً أرقمـــا
يكره النرجس، والورد وقـــد رضـــع العطـــرَ رحيقـــاً فيهمـــا
ويـــرى في العـــشب والخـــضرة اثمـــينِ قَـــدْ صـــارَ بريئـــاً منْهُمـــا

فلا يوجد قانون أو سنه كونية جاء فيها أن يقطر من الجمر ماءاً بارداً، فاستحالة أن يحدث الخير من المطبوع على الشر كاستحالة أن يقطر الجمر بماء بارد، وصـــورة المقابلـــة وإيحاء الطبيعة في تجسيد الفلسفة ومنطقية التنظير والتمثيل، وقد يكون الثعبان الأرقم مـــن الذين رباهم حضن الروض / والعشب / والخضرة / وبيئته هذه لن تنزع منه وعنه أنه ثعبان أرقم وفيه الهلاك، وأنه رغم وجوده في تلك البيئة فهو يكره النرجس والورد فلم يشفع أنه رضع من العطر والرحيق فهو يرى في العشب والخضرة اثمين قد صار بريئاً منهما، وقـــصة الأعرابي الذي أراد أن يستأنس ذئباً بين أغنامه ففشل دلالة على قول الشاعر، وقول الشعر دلالة على قصة الأعرابي.

أيُّها الحافلُ بالأسواء.. يـــا مالئـــاً نفـــسك منـــها ظُلمـــا
كم تخيلتُكَ إصباحاً فلاقيتُ فيك أشـــباحاً ولـــيلاً مظلمـــا
إنني لن أطلب الضوءَ لأرضي ممَّن فوقهـــا قـــد أظلمـــا
جاثماً في السفح، لم يعرف له المجد في أرواق طـــودٍ قـــدما

إنما أطلبُ ضواءً من سمـــاء ومـــن نجـــم بهـــا قـــد نجمـــا
من نجيبٍ كان في الغيب خبِّيئاً وفي جفـــن الليـــالي حُلُمـــا

إن خيبة الشاعر بمن كان يعقد عليه الأمل صورة ناطقة وموحية بالطبيعة، ولا يطلب الشاعر الضوء والحرية لأرضه ممن فوقها قد أظلما وجثم فوق سفحها، فلا مجد له في أروقة التاريخ فلا يكون الضوء إلا من السماء ومن النجم المضيء من نجيب كان في الغيب خبئياً وفي حضن الليالي حُلُما.. إشارة إلى الحاكم المثالي في ذهنه.

يا خفافيش، ويا أكثر منـــها ردآءات، وقبحـــاً، وبـــشاعه
اتركوا الفجر على ملمعه.. ألقاً في دَربكم يذري شـــعاعَهْ
لا تمدُّا الليل في مطلعه.. فتُرىَ آفـــاقُكم تبكـــي ضـــياعه

وهذا منظر أخير لتعودوا أنتم لاستكشاف إيحاءات وعبقريـــات الطبيعـــة في فكـــر الإنسان، فكل سلوك وكل كائن وكل مسمى وله دلالاته وفلسفته فيجب على الخفافيش والوطاويط الرديئة القبيحة والبشعة أن تترك الفجرَ ملتمعاً – كما هو – ألقاً – يذري – شعاعه، ولا تمدوا الليل في مطلع الفجر الملتمع الألق، لأن حرياتكم سيراها العـــالم وهـــي تبكي ضياع التماعات الفجر وألق الحرية.

من ضوءِ ألف صباحٍ نحن أروينـــا مغارسَ الحُبِّ في أعماق روحينـــا
ومن ضوءِ ألف عيدٍ ضاحكٍ ألقٍ صُغْنا مبـــاهج دنيانـــا ووشَّـــينا

هذه هي المفردات التي رسم بها الفضول لوحته الأخيرة:

(الخفافيش / مطلع الفجر / الآفاق / ألق الفجر / الدرب / يذري / ولو وجدنا هذه المفردات هكذا فهل بوسع أحد منا أن يصوغ منها تلك الفلسفة، إنها ليست فلسفة شعب بمفرده إنها فلسفة إنسانية لا تقف عند حدود، فليس في الفكر وأمور العقل حدود.

وبعد..إن في فلسفة الطبيعة أسرار وألغاز وأحجية بعيدة المدى عميقة المعنى، قويـــة الدلالة، نافذة البصيرة، لأن الطبيعة مادة بل مواد حال لفلسفة الحياة و مواقفها، فحـــين تكون الفئران هي القائمة بهدم حضارتنا، وهي القائمة في شئون حياتنا، وهي العاملة عليها فذلك لأن الذئاب هي التي صنعتها.

كم أذلـــوا العقـــل نبـــذاً وأجتنابـــا
وأقـــــاموا للمجـــــانين قبابـــــا
واحتـــووا مـــلء مـــراعيهم ذئابـــا

إن المراعي والذئاب في شعر الفضول فلسفة للحياة وللناس، وهي مـــن مفـــردات الطبيعة، وقدرة الشاعر على توظيف المفردات والألفاظ لتكون لأدواته القوية دلالة وإيحاء وتصويراً لنقل تجاربه الشعورية وقيمة الشعورية والتعبيرية، فالألفاظ هي الوسيلة الوحيـــدة

لأدراك عناصر العمل الأدبي، وعندما نستعرض شعراء الطبيعة في الشعر العربي لا نكاد نعثر على أحد مزج وزاوج بين الذات والطبيعة إلى الحد الذي جعلنا ننفعل بالطبيعة انفعالاً حاراً وعنيفاً، ولقد سبق أن ذكرنا ما أورده الناقد الأدبي سيد قطب حول شعراء الطبيعة، ونضيف وصف الشعراء الجاهليين لحياتهم الجاهلية وصفاً حسياً خالياً من أي انفعال أو رمز أو فلسفة، وهو أمر ليس عيباً في طفولة الشعر الأولى، وبعد أن تحدث الشعراء بطبيعة التطور الإنساني والتأثر بالحضارات والثقافات، يطالعنا البحتري بمقطوعات ثم على بن الجهم وابن الرومي، وهذا الأخير يمثل نموذجاً فريداً في شعر الطبيعة في الشعر العربي، فمزج بلغة و ظروف عصره بين الشعر ووحي الطبيعة، ويقابلنا في الأندلس ابن خفاجه وحمدونه الأندلسية، ولكن كل هؤلاء لم يصلوا بالطبيعة إلى تلك الإيحاءات العميقة التي يتوخاها الدارسون والباحثون المتذوقون، ولقد برع كثيرون في وصف الطبيعة، والوصف يختلف جذرياً عن قولنا مزج الطبيعة بأحاسيسنا...، لأن الوصف خارجي التأثر سطحي الانفعال، وقد نصادف أحياناً شعراء كبار لا يستطيعون أن ينقلوا لنا إيحاءات للطبيعة ودلالاتها وفلسفاتها. مع امتلاكهم لمواهب ممتازة، والحقيقة التي ينبغي أن تقال هي إن الشاعر عبدالله عبد الوهاب نعمان لو وجد إنصافاً من الدارسين والباحثين لأدركوا حقيقة ما تركه الشاعر من نتاج شعري يبعث على الإعجاب والإثارة، فمن حيث إنه جعل الطبيعة حية متحركة وفلسفة إنسانية للحياة، وكما أنطق صاحب كليلة ودمنه أبطاله من الحيوانات والطيور أنطق الفضول كل عناصر الطبيعة وجزئياتها لتكون رموزاً لقوى الخير الشر، وللحب والبغض، وللحياة وللموت، فنجد الذئاب والغيلان والبوم الثعبان والضباع ...الخ رموزاً للشر، ونجد الطيور والحمايم والعصافير والجداول والأنهار رموزاً للخير، ونجد الظلام والدجى و الليل والسحابة الكاذبة رموزاً للجهل، ونجد الضحى والضوء والشروق والفجر رموزاً للنور والمعرفة و الحرية.. إلى آخر تلك المعاني والدلالات الممتازة رموزاً لأحوال الحياة والناس، فإن ذلك من صميم علم الفلسفة وإن ذلك لهو عين الحكمة، و ديوان الفيروزة يفيض بلسان حال الطبيعة وأن تكون وسائل الإعلام هي الوحيدة القادرة على دفع الإنسان لقراءة الجدير بالقراءة، فلو وجد شعر الفضول (ربع) وسائل الإعلام وبعض الطرق التي حصل عليها – مثلاً – شعر نزار قباني، لكان قمة من القمم التي ينظر إليها العالم بإعجاب،ولكان لليمن فيها نصيب، وهذا ليس معناه التقليل من قيمة وشأن نزار لكنه التمثيل والمقارنة والأسف ولا غير، ويدفعني دافع غريب إلى كتابة باب بعنوان الفضول الفيلسوف [1].

(١) لم يكتب المؤلف هذا الباب.

الباب الحادي عشر

الروح العربية في شعر الفضول!

قـــدر، أنـــا خُلقنـــا هازلينـــا قـــدر، أنَّـــا حيينـــا عابثينـــا
قدر أن ترشـــد الـــدنيا ونـــر فضَ أنْ نبدو عليهـــا أرشـــدينا
قدر، أن تنتـــهي كـــلُ المجـــا نات في الناس ونبقى ماجنينـــا[1]

هذا باب ليس ككل الأبواب التي سبق وطرقناها، لأن الروح العربيـــة والانتمـــاء القومي في شعر الفضول يفيض في كل أشعاره التي بين دفتي ديوان الفيروزه فهناك / عرباً كُنَّا / الخوازيق / النواميس / وغيرها من القصائد في الديوان.

وقبل الانطلاق في هذا الباب، وجب أن نلفت النظر إلى ميزة .... امتازت بها أشعار الفضول السياسية و القومية الوطنية، وذلك في فرادة طريقة عرضه وإسقاطه على الواقع، فهو يتجنب تماماً المساس بالأشخاص لأنه لا ينظر إلى الجزء وإنما ينظر إلى الكـــل باعتبـــار الوطن العربي الكبير،وباعتبار الناس جميعاً، لو عاد القارئ سيجد أن الفضول يستنطق الأنا العربية.

قَدَرُ، أَنَا خُلقنا هازلينـــا قدَرُ، أَنَّا حيينـــا عابثينـــا

مفردات تنطق بأن المسؤولية تقع على الجميع بلا إستثناء، فهو لا يخص أحـــداً، ولا يشير إلى أحد، ولا يسئ إلى أحد، باعتباره حامل لواء المـــسؤولية،وإنما يعتـــبر الفـــضول المسؤولية عامة وشاملة، وتعني كل فرد في الأمة، – وفي هذا المنطقية و الإدراك والـــوعي السياسي والبديهة القيادية، النظرة العميقة والنافذة إلى أمراض الأمة العربية، فهو لا يخص نظاماً ولا حاكماً ولا قائداً بعينه، لأن إدراكه بأن عملية التشهير والتخصيص والتحديـــد ستزيد من مأساة الأمة، ولذلك أتجه إلى أسلم وأسهل و أبسط وأنجح الطرق لكشف الواقع العربي أمام القيادات جميعاً، كي تدرك ما هي عليه من واقع مزري، ومواهـــب الفـــضول السياسية لم تنل حقها من الأنصاف، وتبدو مواهبه في مواقف لا حـــصر لهـــا، فـــالروح السياسية التي يتمتع بها، وقدرته على أن يكون في موقع ممتاز دفع بالقيادتين السابقتين فيما كان يسمى بالشمال وما كان يسمى بالجنوب إلى أن تمنحا الفـــضول الـــشاعر وســـامي

(١) من كتاب الأربعينية وهي قصيدة نظمها الشاعر في آخر شهور حياته.

الدولتين في الفنون والآداب تقديراً منهما للشاعر على ما أبداه تجاه الثقافة والشعر والأدب والوطن والوحدة، وقد كان نشيد الأناشيد رددي أيتها الدنيا نشيدي، من تلك القواسم المشتركة للوحدة والأرض والنفس اليمنية والإنسان اليمني، فكان نشيداً هناك ونشيداً هنا، وهو الآن نشيد اليمن الموحد، وفي ذلك عمق سياسي، وتنبؤ بالمستقبل في وقت مبكر، ولا يكون ذلك إلا من رجل ممتاز، في عالم الأدب والشعور ونجاحه بأن يكون الورقة الرابحة بين الشطرين – آنذاك – في أحلك الظروف والأوقات، وإن لم يكن هو فقد كان شعره كذلك، بقدر ما حاول الماركسيون والاشتراكيون آنذاك إظهار الإعلام في أجهزتهم على صورة مخالفة لواقع الشمال وبأنهم أكثر تطوراً وتقدماً، وأنه لا توجد صلات وروابط مشتركة مع الشمال، – فإنهم لم يدركوا ما تفعله تلك الكلمات الوحدوية وتلك الألحان الأناشيدية والأغاني العاطفية التي نسجت المشاعر ووحدة الأحاسيس بين أفراد الشعب جميعاً، وموهبة الفضول السياسية وبالذات مواقفه السياسية ومواهبة السياسية – آنذاك – جلية وواضحة من خلال تلك الصحيفة الساخرة والرائدة في هذا الميدان في اليمن الحديث.

وإدراك الفضول المفاهيم السياسية وحكمة الوطن هو الذي جعله ينظم تلك الأناشيد في حب الوطن،و في مكان آخر ينظم القصائد التي تكشف العيوب للحكام دون المساس الشخصي، ولذلك جعل من الطبيعة رمزاً من رموزه السياسية، أي بقدر استياءه من سوء التصرف، بقدر ما يعمل على زرع الحب للوطن في القلوب، لأن ذلك شيء وهذا شيء آخر وفي ذلك كأنه جعل من الأنة الأولى التي كتبها الأستاذ النعمان إلى الأمام يحي في الأربعينات، ناشده فيها بإصلاح الوضع القائم في الوطن باعتباره ولي الأمر الذي لا تجوز مخالفته، وكي لا يتضرر الوطن وكان – آنذاك – للأستاذ النعمان مبرراته الخاصة، وللفضول بعد ذلك مبرراته الأخص وهي مبررات لها أزمنتها وظروفها ولا يتوقف الهم القومي العربي في شعر الفضول عند هذه القصيدة أو تلك بل في كل شعره لأن الوطن اليمني بذاته نافذة عربية وقومية وهذا جزء من كل، والجزء دوماً مهموم بآلام الكل ...

مالها آلام أرضي كلها.. لم تجد غير فؤادي وطنا
ولماذا أنا وحدي جئتُ بالحس بها ممتحَنا؟!

فعندما يقول:

هذه الساحة ليست ساحتي ما فشى السوء بها واستعلنا
هذه الراية ليست رايتي طالما كانت لحق كفنا
هذه الأمة ليست أُمتي إنْ جثى الرفض بها أوْ اذعنا

فالشاعر هنا ينفي أن تكون الساحة ساحته إذا ما فشى وأنتشر فيها السوء والظلم الذل والطغيان والاستبداد والفساد، وأصبح السوء معلناً، وينفي أن تكون الراية رايته إذا

ما كان للحق كفنا، وتتصاعد أحاسيس الشاعر إلى نقطه بعيدة وكبيرة فيقول وهذه الأمة ليست أمتي... لكن متى؟ إنْ جئنا الرفض بها أو أذعنا، يعلن أن الراية التي تكون كفناً للحق ليست هي الراية التي قال فيها وعنها قبل ذلك:

رايـــــــتي ... رايـــــــتي
يا نسيجاً حكته من كل شمـــس
أخلدي خافقةً في كـــل قمَّـــةَ

وهو يخاطب الأجيال جميعاً ولا يخص بخطابه أحد.

وأروع ما في شعره استمرارية أشعاره، ومستقبلياتها وامتداد القضايا التي حاكها شعراً، ففي أي زمان وأي مكان، يحق لنا أن نقول هذه الساحة ليست ساحتي ما فشى السوء فيها أو اسعتلنا ما دامت تنطبق الأقوال على الأحوال، والعجيب في شعر الفضول أنه يستخدم بحر الرمل، وهو البحر الذي تنظم فيه الأناشيد الوطنية والحماسية، وكأن في ذلك البحـــر وأوزانه ما يصنع عالم الفضول الوطني في أشعاره، ونراه يكثر من النظم في بحر الرمـــل إلى حد كبير، أليس في ذلك إيحاء قوي بالروح الوطنية العربية والانتماء القومي.

ففي قصيدة العرب وفلسطين التي تتميز بالنضج والتي يبدو أن الشاعر قد نظمها في فترة سابقة لوفاته، ففيها الإحساس المرير بالخيبة العربية، ولعل في كل ما عرضناه من شعر للفضول أن ما يقنع الكثيرين الذين أطروه أنه كان شاعراً شاملاً وطارقاً لكل الأغـــراض وبالذات القضايا الوطنية ودليل على أن الرجل لم يقض عمره في محراب الحب والعـــشق فحسب، وقصيدة العرب وفلسطين يبلغ عدد أبياتها (٩٠) بيتاً.

قدرُ أنْ تعـــرفَ الـــدنيا لنـــا قـــدرنا فيهـــا ونبقـــى جاهلينـــا
قدر أن يطرحَ الصدقُ علـــى حجمنا الضوءَ ونبقـــى مُـــدَّعينا
قدر أن ندَّعي أنا صبغنا الـــــ ضوءَ للنـــاس ونبقـــى مُظلمينـــا
قدر أَنْ لم يعد يلقى لـــه الـــــ زور في الدنيا ســـوانا عاشـــقينا
قدرُ أنَّـــا بعاهـــات التبجـــــ ح بين كـــل الأمانـــات برينـــا
أَنا مشتاق إلى الكفِّ عن الـــ قول، إنا داخل الصدق احتوينـــا

فالأبيات قراءة تاريخية للأمة العربية،وهي قراءة عميقة وساخرة، فيؤكد الشاعر بثمان مفردات في مطلع كل بيت، فالأقدار هي التي شاءت أن يخلق العرب هازلين ويحيا العرب عابثين، وأن يبلغ الناس كافة الرشد، ونحن رافضون أن نكون أرشد منهم وأكثر تحـــضراً منهم.

وقدر أن لا نعرف قدرنا وقد عرفه العالم و الدنيا، وقدر إلا نؤمن بحقيقـــة الـــصدق الضوء الذي معنا، ونكتفي بادعاء هذا الضوء غير مصدقين انتماءنا له، وقدر أن ندعي أننا

صبغنا الضوء للناس ونشرناه فيهم ثم نبقى مظلمين ولا ضوء لنا، فدعوى العرب أنهم من نشروا ضوء الدين للناس، ثم البقاء في الظلام، وقدر أن لا يعشق الزور والكذب سوانا، وأن لا يجد الزور له من يعشقه غيرنا، فتبجحنا وعاهاتنا خلعت عنّا كل الأمانات التي كانت تميزنا عن غيرنا.

وعن القول بأنا وحدنا دون خلق الله بالمجد حَظينا
وبأنا وحدنا سرنا على الأرض إبداعاً وفكراً وفنونا

فالشاعر ينكر على العرب دعواهم أنهم مخصوصون بالمجد وأنهم هم دون غيرهم من حظوا بالمجد والحضارة وأنهم وحدهم من ساروا على الأرض بالابداع والفكر والفنون، ومنطقية الشاعر في مناقشة هذه القصيدة دفعته إلى هذا التساول:

أي شيء نحن أبدعناه للـ ناس أو كُنَّابه يوماً عُنينا؟
ولإنسانية الإنسان ماذا نحن أبدعنا وكُنَّا منجزينا؟
وإذا كُنَّا كما قُلْنَا فكيف بنا من دون إبداعٍ بقينا؟
ولماذا سرَحَ العقم بنا نملءُ الأيَّامَ عجزاً وجنونا؟
ولماذا نحن كُنَّا خارج الـ خدر إشعاعاً وفي الخيمة طِيْنَا؟

وبعد سيل التساؤلات هذه والتي تنطق بالمرارات التي تعتصر نفس الشاعر والعرب لا يعلمون بما أبدعوه ولا بما لديهم من فكر، فدفع ذلك بالشاعر إلى أن ينكر على العرب أي إبداع أو عناية بالإبداع وإعمال الفكر، وكذلك الحال فلم يصنع العرب لإنسانية الإنسان أي إبداع أو أي إنجاز، من دون إبداع بقينا تساؤل منطقي،نفي و إثبات،و إثبات ونفي وتسلسل منطقي وعقلاني ومتشائم:

ليس عقلاً أبداً أَنْ تجدَ الـ عجز الخارق للعجز مدينا
أو تلاقي الهمجيَّ الفظ يعطي الهمجيات دماثاتٍ ولينا

فمن غير المنطقي وليس من العقل أبداً أن تجد المعجز الخارق – (العرب) – مديناً للعجز الاستعمار والعمالة والذل والخنوع، وليس من المنطقي أو العقل أن تلاقي همجياً فظاً غليظ القلب يعطي همجيات الاستعمار والاحتلال أخلاقاً ودماثات ولينا، فلو كان العرب معجزات خارقة لما وجدناهم مدينين للعجز، ولو كانوا همجاً أفظاظاً لما أعطوا الهمجيات والاستعمار والصهاينة تلك الأخلاق وذلك اللين وتلك الدماثات مكانها.

أَنَا مشتاق إلى شيء من الـ صدق أنا بالبلاهات أُبتلينا
ليس حقاً أبداً إنا بكل شعاع الصدق والنبل كسينا
ليس صدقاً أبداً انا على قمم يحضُنها الفجرُ رَبينا
إننا من بُؤَر الليل أتينا وَمن ثُدي الضلالات غُذينا

ومُلئْنـــاَ بغـــرور وقـــح عاجزَ القـــدرة فينـــا أن يلينـــا
ويلاَقي الصدقَ إنْ لم نكـــنْ أبـــداً في أي يـــوم معجزينـــا
وبأنَّـــا لم نعـــش أيَّامَنَـــا نُذهل الناس بها، بـــل ذاهلينـــا

ونحن من عجرنا غير قادرين على أن نفهم العجز، وحتى لا نقطع اللـــذة الروحيـــة للقارئ وهو يتابع غليان المشاعر، وهو غليان جعله يقلب صفحات التـــاريخ، ويطالـــب بإعادة صياغته.

نحن عجزُ مُطْلَـــقُ حـــتى علـــى فهمنـــا للعجـــز لـــسنا قادرينـــا
نحنُ ســـطرنا الأســـاطير ليلـــ بسها التـــاريخ تلفيقـــاً مُـــشينا
نحـــن زوَّرنـــا بـــه أنفـــسَنا وجعلنـــا منـــه كـــذاباً لعينـــا
صَحِّحوا التاريخ صوغوه بـــصد ق ولا تخشوا بقـــاءَ الـــصادقينا
نَظِّفـــوا التـــاريخَ مـــن تزويرنـــا ليرِّانـــا فيـــه قومـــاً فاضـــلينا
واذكروا للنـــاس أنـــا لم نكـــن فيـــه خـــيراً مطلقـــاً أو خيَّرينـــا

وليس معنى ذلك التنكر للتاريخ، بل إن معنى ذلك الدعوة إلى إنطاق التاريخ مادمنا صادقين،و الشاعر يناقش قضية تدوين التاريخ التي احتدم حولها الجدل منذ دعوة العلامة الفذ ابن خلدون إلى إعادة كتابة التاريخ وفق معايير نقدية وتحليلية لاكتشاف قوانين التاريخ وفق السنة الكونية، وما زالت الدعوات قائمة إلى اليوم، – والشاعر يلتفـــت التفاتـــات تاريخية، فيها تتضح لنا ثقافته التاريخية المختارة، ولإحساسه العميق بالعجز العربي وخنـــوع الأمة، فإنه عاد إلى نقد التاريخ ونبش التاريخ، ولعمري ان الفضول في قـــصيدة العـــرب وفلسطين يتمشيخ على أعلام الأدب الساخر، ويبرهن على أصالة موهبته التي نـــضحت بعجز الأمة المرير باعتبار أن العجز من دوافع السخرية الأقوى، فتطرزت القـــصيدة مـــن البيت الأول وحتى آخر بيت بسخرية قاتلة وعنيفة،فهو يطلب من العرب أن يعيدوا كتابة التاريخ، وتصحيحه وتنظيفه من تزويرنا له، كي يرانا التاريخ نفسه قوماً فاضلين، نستحق الحياة، فكل ما هو قائم من ذل وهوان يجعلنا نشك في صحة التاريخ، وهذا أبلغ وأقـــسى تعنيف من الشاعر تجاه الأمة فهو يجردها من التاريخ لا يقاظها عامة، هذه صورة مكـــبرة رغبة في إيقاظهم..

واذكـــروا فيـــه بأنـــا غالبـــاً ما دخلنـــاه إلى الفـــيء حنينـــا
وبأنَّا لم نكـــن جئنـــا لنـــسرحَ إحـــساناً بـــه أو مُحـــسنينا
وســـبينا فوقَـــهُ الأعـــراضَ نفرشها للـــشبق العـــارم فينَـــا
وانتشرنا فيه كي نثري الخليفةَ والتبريـــرُ أنْ ننـــشرَ دينـــا

إن هذه القصيدة العملاقة في عدد أبياتها ونارية معانيها وثورة التجديد الفكري فيها، إن ثورة النفس في الأبيات ظاهرة وقاسية، وعنيفة، والألم الذي يحس به الشاعر يجتث كل

هدوء لحظات المنطق المغلف والمحشو بالعجز العربي المهين، إن نارية الأبيات وحدة الخطاب. وعنف النقد التاريخي طغى على القصيدة حتى ليكاد القارئ لها،ينظر اليها من زاوية التاريخ أكثر من زاوية الشعر، ومن برج النقد التاريخي الديكارتي لا من برج النقد الشعري، رغم أن الشاعر ثقافته أصلية، وأصالته هذه دفعت به إلى العودة لقراءة التاريخ من جديد، فرأى الناقد التاريخي في الشاعر أن هذه الأمة العربية ليست هي الأمة التي كانت.

إن النسف التاريخي ليس أكاديمياً كي نوجه الاتهام إلى الشاعر في عروبته وانتمائه إلى روح الأمة، لأن الشاعر في نقده الناسف والديناميتي الشعري ما هو إلا تلك النار والبركان الشعري

ولأن القضية عند الفضول قضية أكثر، قضية أمة بكاملها ومأساة أمة فيهـا شـعب يتعرض للطرد من وطنه والأمة تنظر ولا تبدي حراكاً.

نحنُ صحراءُ مـن التـاريخ في الأرض من كلِّ عطاء قد عُرينـا
كُلُّ ما يحملُـهُ الـصدقُ لنـا أَننـا كُنَّـا غُـزَّاةً فَغُزِيْنـا
وهـو لـولا أنَّ في آفاقنـا لهب الآبـار كُنَّـا قـد نُـسينا
ومن أستنبطه؟ عقـلُ سـوانا؟ أم العقل الـذي كُنَّـا حُبينـا؟!
ومن ابتاع وأعطـى وأسـتردَّ وأضحى عنـدهُ المـالُ رهينـا؟!
وتـولى سـانداً أو عانـداً حَنَكـاً يمـضغُنا زاداً سمينـا؟!
ورآنـا حِذقُـهُ رُغْـمَ لحانـا السود والبيض عيالاً قاصـرينا؟!

طرد الفلسطينيون على مرأى ومسمع من التاريخ الصحراوي ومن القوم الذين ليس لهم تأريخ، إن لحظات القصيدة لحظات عدمية، لحظات غاضبة لا يعي الشاعر إلا الحـدث والموقف والألم، فيعمل على تسليط نيرانه الشعرية على الحدث.

وإن منطقية الشاعر أقوى ما يكون عليها شاعر يتعرض لقضايا الأمة، فهـو رغـم تجريده للعرب من أن يكون لهم تاريخاً، ولو أننا كُنَّا أكثر صدقاً مع أنفسنا وهي وقفة عنيفة مع التاريخ والفكرة ثم يمنطق الشاعر القضية التاريخية قائلاً ولو لم يكن البتـرول والـنفط موجوداً لكنا – نحن العرب – نسياً منسياً. وهي حقيقة أزلية، لكن ليس النفط كل شيء وإن كان كذلك الآن، لكن هناك العقيدة، ولكن الشاعر أراد أن يحصر القضية سياسياً و اقتصادياً وعسكرياً.

وما دام الفضول قد قال ذلك، – فلنقرأ قول أحمد مطر أيضاً – تصدير واستيراد:

حلب البقالُ ضرع البقره
ملأ السطل وأعطاها الثمن
قبلت ما في يديها شاكره

لم تكن قد أكلت منذ زمن
قدمت دكانه
مدَّت يديها بالذي كان لديها
واشترت كوب لبن!

كـــبرُ الخـــزيُ فـــلا نملـــكُ إلاَّ جوابـــاً يلعـــقُ القـــاعَ مَهينـــا
وجعـــي يفـــتح أعمـــاقي ويطـــ رحُ في أعماقهـــا شـــعباً حزينـــا
خَـــسِرَ المربـــعَ والأمـــلَ الآمـــل والـــصبر المعينـــا
ووعـــدناه وهـــدَّدنا بـــلا خجل ... أنا سنحني الغاصـــبينا
وطرحنا فوق اظهـــار المـــصاحف أيـــدينا ... وأقـــسمنا اليمينـــا
أن نعيـــدَ الأمَّ والأبنـــاءَ والأبَ للـــدار ونخـــزي القاطينينـــا
وادَّعـــى كـــلُّ هزيـــلٍ أنَّ في صدره المرجـــوف ليثـــاً وعَرينـــا
وهَافتنـــا هوانـــاً كُلَّمـــا سُلخَتْ أوجُهُنَـــا صـــفعاً بكينـــا
وأنتحبنـــا في صُـــراخٍ فاضـــحٍ ينتهي فينـــا ســـكوتاً وســـكونا..

إن الشاعر بلا شك يتمتع برؤية تاريخية وتحليلية ونقدية وهي رؤية عميقة قائمة على أساس من الثقافة والإدارك لأبعاد قضايا التاريخ وخاصة التاريخ العربي وبـــرغم ديناميـــة ونووية التفجير والنسف الشعري للتاريخ العربي.. برمته، فإن العار والخزي الـــذي لحـــق بالأمة هو من دفع الشاعر إلى ذلك، عار وخزي وعيب وجريمة تاريخية بحق الذات لا نملك نحن العرب أن نتحدث عنها فلا يكون لنا جواباً إلا بأن نلعق القاع بصورة مزرية أشبه ما تكون بصورة الكلاب. وهي صورة قاتلة مرارة وسخرية حادة ومهانة بالغة حدود ما بلغتها سخرية أبداً، فوجع الذات التي ترى نهاية الحياة، قد يشعر به الإنسان ويحسه في ذاتـــه إذا أصابته مرارة من مرارات الحياة، فكيف بمرارة أمة ومأساة شعب بأســـره، وإن في البيـــت الثاني وجعي يفتح أعماقي بؤرة شعورية حادة العمق،وعميقة الغور، ولعلها تمثل في هـــذه القصيدة محور الارتكاز الشعوري إن جاز لنا التعبير بذلك لأنه وجع شاعر حقيقي ولـــيس وجع شاعر مزيف، إنه وجع في أعماق الشاعر.

وإذا كلُّ هزيـــلٍ هَـــزَلَ الحـــرب قد عـــادت بـــه الحـــربُ بـــدينا
والدَّمُ المسفوح صدقاً في المعـــارك يجـــري فيـــه شـــحماً ودهونـــا
ليـــتَ أنَّـــا قـــد خجلنـــا مـــرةً بأنـــا ذات يـــومٍ قـــد خَزينـــا
هـــذه عجرفـــةُ الغـــازين إنْ فحشت فينـــا دعونـــا المنـــصفينا
نحنُ أوغاد.. فلا نرجوا من العدل أنْ يُنـــصفَنا ممَّـــا لقينـــا
ومـــتى أخلاقُـــهُ قـــد باركـــت أوجهاً تبكـــي وَخـــداً مـــستكينا

وإذا كُنَّـــا كمـــا قُلنـــا ســـيوفاً لَبسَتْ تاريخهـــا نـــصراً مُبينْنـــا
فـــسقوط العـــدل أن تؤســـيْه أَدمُعْ مَـــنْ يعرفُـــه ســـيفاً ثمينـــا
لـــيس في العـــدل وقاحـــات فتحزنها أحزانُ سيف قـــد أهينـــا
لا أرى أي امتحان قـــد دخلنـــاه لم نـــسقط بـــهٍ مُمتحنينـــا

لا ننكر أن الفضول قد خانته موسيقيته وحسه الموسيقي ومزاجه الغنائي في اختيـــار البحر الذي كان يجب عليه أن ينظم فيه قصيدته هذه – فالبحر الكامل والبحر البسيط.. هم البحران اللذان كانا جديران بذلك العنف والقسوة النووية الشعرية، أما بحر الرمل – وهو وبحر هذه القصيدة فقد قيد تلك الثورة الشعرية وزادت القافية لها تقييـــداً ،فـــنحن سنطالع بعد قليل قصيدة عرباً كُنَّا من ديوان الفيروزه وسنرى رغم أن القصيدة أيضاً مـــن بحر الرمل لكن القافية وفرت للشاعر تلك المساحة الساخرة العنيفة.

المهم أن وطنية الفضول وإحساسه القوي تجاه الوطن دفعه لأن تكون أكثر أشعاره من بحر الرمل وكأنه لا شعورياً مدفوع إليه دفعاً، سنتعرض لاحقاً لقـــضية الأوزان الـــشعرية وعلاقتها بالنفس والحالة النفسية للشاعر، ويتعرض الشاعر لقضية بيع الحـــروب لـــصالح الأعداء في مقابل المال، أما الدم الذي سفح في المعارك بصدق فيجري فيه الشحم والدهون – والضمير يعود على الهزيل الذي باع التضحيات والدماء مقابل المال والمادة، وقد أصبح بديناً و الشحوم والدهون تجري فيه – فلا خجل ولا خزي، ولكن عجرفة تخبر عن حالنا، فمتى فحشت العجرفة فينا دعونا المنصفين ليحكموا بيننا، فنحن أوغاد، والعدل لا ينصف الأوغاد لأن أخلاق العدل لا تُبارك وجوهاً وخدوداً مستكينه وذليلة.

ليتنـــا يـــومَ هُزمنـــا قـــد رجعنا على أحقادنـــا منتـــصرينا
لم نُحـــارب بـــل تحاربنـــا وسار بنا السَّوءُ صغاراً حاقـــدينا
وأتـــت أخلاقُنـــا النُبـــلَ لتفتح في أخلاقه جُرحـــاً ثخينـــا
وغـــدرنا الـــدَّم والقُـــربى وطُفنا على الناس بأشلاء أخينـــا
وحرقنا الكرْمَ والأفياء والخـــير والثـــوبَ وســـترَ الآمنينـــا
ونسفنا الدورَ فيها كل حاضـــنة أو حامـــلٍ تـــؤوي جَنَيْنـــا
وبترنـــا كـــلَّ ثـــدي رُبَّمـــاً قَدْ رَضعْنَا منـــه يومـــاً ورَوينـــا
وقطفنا كـــلَّ أكبـــاد اليتـــامى كمـــا لـــو أَنَّنـــا نَقْطـــفُ تينـــا
وتركنّا الـــوحشَ فينـــا مطلقـــاً لم يجده العقـــل في يـــوم ســـجينا

فالغاء الشاعر لحضارة العرب ولإنسانية العرب، ولكل ما يتصل بالعرب من وجود فكل ما يحمله الصدق لنا أننا كنا غزاةً فغزينا، فالنكوص الذي أصاب العرب منذ وقـــت مبكر حقيقته عند الشاعر عدم إيمان العرب بما قاموا به من فتوحات إسلامية، أو ضـــعف اعتقادهم بعقيدتهم جعلهم أشبه بالغزاة منهم بالفاتحين وإنما أراد الشعر أن يـــضع مـــرآة

الصدق أمام العرب لينظروا أنفسهم وهم عراة من إنسانيتهم، فلو كان في أعماقهم اعتقاد قوي لما أصبحوا على ما هم عليه من ذل وهوان تحت نيران الغزاة والمستعمرين، وكما قال عمر بن عبدالعزيز – رضوان الله عليه – من أن أمة محمد لم تختلف في دين أو عقيدة و إنما تختلف على الدينار والدرهم، وهذا هو داء العرب والمسلمين، أما قال الفضول مفلسفاً ذلك بطريقة استفزازية وساخرة تاريخياً:

واذكروا فيه بأنا غالبا.. مادخلناه إلى الفيء حنينا
وانتشرنا فيه كي نثري الخليفة والتبريرُ أن ننشر دينا

ولم يقف الشاعر عند حدود، بل عمل على تعرية الواقع العربي تعرية كاملة وعنيفة وفاضحة، والقصيدة، ترصد ذلك بالتفصيل.

ومن شدة ألم الشاعر يقول: ليت أنا يوم هزمنا توخَّينا الدرس والهزيمة ورجعنا وقد انتصرنا على أحقادنا التي كانت سبب هزائمنا المتلاحقة، فما أصغرنا ونحن نتحارب مع أنفسنا ونحارب بعضنا بعضاً، والحاقدون صغار، فيسير بنا السوء صغاراً حاقدينا.

وقيادات المذلات التي سرحت تملؤنا ضُعْفاً مَهيْنَا
تشترينا غضباً فينا تُعَلِّمُه التقوى وصبرَ المتقينا
وتُرينا في القدرة محـ ـض احتمالات وفي العجز يقيْنَا
كم لبثنا نعلنُ الحربَ ضُحىً فإذا ما غابتْ الشمسُ نَسيْنا
وإذا قُلنا كلاماً راعداً جاء كذّاباً وجئنا كاذبينا
هكذا عَلّمنا الردَّة والأثمَ والعارَ نفاقُ الخائفينا
فأتى الخزيُ على أوْجُهنا لم يَدع وجهاً ولم يترك جبينا
ووقفنا حيث شاء الصدقُ في حرب من حاربنا لا حيث شينا

وحتى لا يكون الشاعر غافلاً عن مسرح الحياة، فإنه يتحول إلى تلك القيادات التي سرحت واستماتت كي تملأنا ضعفاً ومهانة وإذلالا فضعف الأمة نابع من إذلال القيادات لها ... / تشترينا غضباً فينا / تعلمه التقوى وصبر المتقينا / فيضع الشاعر يده على مكمن الألم وبيت الداء حيث تصور تلك القيادات لشعوبها أن القدرة ليست سوى محض احتمالات واعتقادات وأوهام، أما العجز فإنه اليقين بذاته، ولذلك طغى العجز واستبد بنا التخاذل استبداد العجز والحقد و الرداءت و الأسوآء .

ولا يختلف الشعراء في إدراك أن العرب ليس لهم غير الشعارات الرنانة والفحولة الإعلامية..يقول أحمد مطر:

وإذا بنا مزَقٌ بساحات الوغى وبواسل بوسائل الأنباءِ

أما الفضول ففي بيته الرابع من المقطع السابق وما يليه لب القول.

–وهذا التعدد المعنوي في لغة الشاعر يعطي بعداً للمعاني، وطعم الشهد لتقليبات الفكر واللغة، من خلال تقليبات القارئ لا شعورياً لبعض معاني الأبيات فحاربنا من الحيرة ومن الحرب ....

وفقانا أعين الأطفال دمعاً على أحلامهم يذري سخينا
إذ رأونا كَذبَ أيامهم لبستنا كذبًا حتى بُلينا
وتهرأنا نكوصاً بَشعَاً وتحوَّلنا رَعاعاً صارخينا
ومشينا صيغةً للإثم يبصُقُنا الغفرانُ قوماً آثمينا
وتمزقنا وقد مات بنا غضبُ الصدق وصدقُ الغاضبينا
وتركنا خلفنا مسجدنا وأبحنا خصمنا قبر أبينا

فالأطفال قد رأونا أكذب ما في أيامهم وأبلى ما في أيامهم، وقد جاءت هذه الأبيات عام ١٩٨٢م، ثم جاء أحمد مطر ليقول لنا عام ١٩٨٨م ....:

وألقنُ الأطفالَ أن عروشهم زبدٌ أُقيمَ على أساس الماء
وألقن الأطفالَ أن قصورهم مبنية بجماجم الضعفاء
وأن كنوزهم مسروقة بالعدل واستقلالهم نوع من الاخصاء

وهموم الشاعر العربي في أن العرب تهرأوا نكوصاً و ارتدادا بشعاً إلى طفولتهم وجاهليتهم وصراخهم، فكانوا ومازالوا وسيظلون نسخة من الإثم الذي لا يغتفر (يبصقنا الغفران / تمزقنا / مات بنا غضب الصدق وصدق الغاضبينا / وكما قال البردوني / اليوم تسعون مليوناً وما بلغوا نضجاً وقد عصر الزيتون و العنب ...

هذه كلُّ المرايا فاكسروها فكم تبدون فيها بشعينا
وأقرُّوا هذا بمقت والصقوا كلَّ حرف معكم كان أمينا
والعنوه والعنوا الصدق به طالما للصدق كنتم لاعنينا
وقطعتم داخل الأظلام عُمراً وعشتم خارج الضوء سنينا
وسقطتم فادخلوا أجحاركم وأنشدوا فيها نشيد الضائعينا

وكما قلنا سلفاً بأن الفضول لم يقل تلك القنابل النووشعرية إلا لتكون مرايا كي ينظر العرب إلى أنفسهم، وهي رؤى أصفى من شعاع الشموس، ولكن من فيها ومن ينظر إليها سيكون حزيناً وتعيساً لأن ما يبدو فيها في منتهى البشاعة، فهل سيكسر العرب بشاعة المرايا ومن فيها حين ينظرون إليها ولا يرون أنفسهم القبيحة فيها، وعلى العرب أن يعترفوا ببشاعتهم فيلصقوا كل حرف كان أمينا في نقل ما أنتم عليه من قبح ودمامة وعجز وهزل وعبث وطفولة وجهل وقصور ومجانات ومن مرايانا القبيحة التي يدعونا الشاعر إلى كسرها من شدة ما فيها وفينا من قبح وما جاء في القصيدة.

نعم، هذه كل المرايا اللعينة والساخرة والتي أبرزت عيوب العرب القبيحة ويجب الإقرار بذلك، وفي الأبيات التي يصل عددها إلى (٩٠) بيتاً، قنابل شعرية ساخرة، وفي كل بيت من السخرية ما نعجز عن وصفه وسرده، ويكفي أن يعود القارئ اللبيب إلى قراءة الأبيات بتأن وترو، ليحصد المرارة والألم من العرب والعروبة، وتصل السخرية إلى أن يطلب الشاعر من العرب أن يلعنوا كل حرف كان صادقاً معهم، لأن عاداتهم أن يلعنوا الصدق ويقطعوا داخل الأظلام عمراً، ويعيشوا خارج الضوء سنينا.

ونترك القارئ هنا مع آخر بيت في قصيدة (العرب وفلسطين):

وسقطتم.. فادخلوا أجحاركم وانشدوا فيها نشيد الضائعينا

وما أبعد ما بين نشيدين، نشيد الوطن ونشيد الضياع الكبير، فكما يكون نشيد الوطن والأوطان والشمس تعزف ألحان الضحى والفجر والشروق ((رددي أيتها الدنيا نشيدي)) يكون نشيد الضياع، يدفن الأعمار في الجحور والسراديب اللعينة.

فما أبشع السقوط، – ومنظرنا ونحن ندخل الجحور، لننشد نشيد الظلام والضياع الأبدي بذُلٍّ منقطع النظير.

وليَبقى الدهر راوياً لسقوطنا واظلامنا وإنشادنا أن نشيد الضياع، وليبقى الدهر راوياً للنار والنور الذي تركه الفضول لنا، ونأبى إلا أن نعيش خارج الضوء أبد الدهر.

الهم العربي في ديوان الفيروزة (عَرَبَاً كُنَّا):

إن قصيدة عرباً كنا التي يبلغ عدد أبياتها أكثر من خمسين بيتاً عمودياً من بحر الرمل... وهي منثورة كالشعر الحر أو الحديث، يدفعنا إلى التساؤل عن سبب ارتماء النفس الشعرية في هذا البحر الذي يتناسب كثيراً مع أناشيد الوطن الحماسية، ولا يتناسب مع القصائد التي تحمل مضمون العتاب والكشف والتعرية للواقع العربي من خلال الرمز أحياناً، ومن خلال المواجهة المباشرة أخرى، فعندما نظم نزار قباني مثلاً قصيدته الشهيره أنا يا صديقية متعب بعروبتي كان البحر الكامل هو الذي أحتوى تلك الآلام القومية العربية، فحصدت القصيدة إعجاب الشعب العربي، باستثناء القيادة المصرية، لأنه نالها من شظايا القصيدة وجمراتها، وهي القصيدة التي ألقاها نزار في تونس عام ١٩٨٢م بحضور الزعامات، فحرك الدنيا وأقامها وأقعدها وقبل ذلك فجر البردوني رائعته أبو تمام وعروبة اليوم عام ١٩٧٣م في مهرجان المربد في العراق، وكانت القصيدة معارضة لقصيدة أبي تمام في فتح عموريه، من البحر البسيط، وهو من أكثر البحور استيعاباً لآلام الأمة وأحزان الذات وفلسفة الحياة لتحريك الماء الراكد أما بحر الرمل فلا يستوعب إلا حب الوطن والزهو والفخر به في لحظات الانتصارات، وهذا ليس معناه أن القصائد الأخرى ليس فيها حب

الوطن، ولكن نقصد أن فيها حب الوطن الممزوج بالنقد العنيف وموسيقى التعنيف والتأنيب والإيقاظ الحاد والقوي، أما بحر الرمل فهو، فهو من تلك البحور التي لا تستوعب نقداً ولا تتقبل نبشاً للمواجع، وإنما تخليداً للمآثر والبطولات،مثل (الله أكبر يا بلادي كبري)، وغيرها مثل (رددي أيتها الدنيا نشيدي / املأوا الدنيا ابتساماً / يا سماوات بلادي باركينا)، وغيرها من الأناشيد، وقد نستخلص من ارتماء نفس الفضول في أحضان بحر وموسيقى الرمل قوة الزهو وغلبة روح تمجيد الوطن أكثر من غلبة روح النقد العنيف والعتاب الصارخ، ولعل الفضول من أولئك الذين أدركوا وعانوا تبعات التضحيات والتي ليس من السهل نسيانها فربط الناس بوطنهم من خلال أناشيده ومن خلال أشعاره العاطفية التي عملت على تربية الذوق وتهذيب العواطف ونشر الحب بين الناس و إشعارهم بقوة الأشواق والوطنية، وفي نفس الوقت لم يقف عند نقد السلبيات والأخطاء التي رافقت الحياة الإنسانية بأسلوب يكاد يتميز عن غيره فجعل من الطبيعة رموزاً وفلسفة لأفكاره الوطنية والسياسية والإنسانية، ليكون شعره بذلك ليس فلسفة المجتمع بحد ذاته وإنما فلسفة للناس في كل زمان ومكان، وكما كانت كليلة ودمنه خاصة فأضحت عامة للإنسانية جمعاء، وكما وظف فيلسوف كليلة ودمنه الحيوانات والطيور وظف الفضول الطبيعة وعناصرها بلا استثناء فلم يترك معنى إلا وأعطى له فلسفته، ولا سلوكاً إلا وجعل الطبيعة إيحاءات ودلالات وفلسفات.

ومع كل ذلك فقد تجاوز الفضول قيود بحر الرمل في هذا القصيدة عرباً كنا بإعطائه القافية أو الرُّوي في الأبيات انسيابية اللام،يقول البردوني عن قصيدة نزار أنا يا صديقة وهو يؤنبه عقب وفاته بأيام ((هذه القصيدة من بحر الكامل الذي نقر بيضته، وخرج ليشعل الصمت في سوق عكاظ وذي المجاز – وهذه أول مهرجانات الشعر – والقصيدة كتبها نزار ببحر الكامل الذي هو أول الأوزان لكي يرينا أن زمن الثقافة واحد وإن تغيرت التقاويم وتجددت موجات من بحور))[1].

(عَرَباً كُنَّا):

* كم أرى في الصدق خوفاً أَنْ يقولا
أَنَّنا للخير قد جئنا شمولا..
أو أتينا الأرض غيماً وسيولاً
تغسل الناهدَ، أو يروي السُّهولا
أو مشينا فوقها يوماً عقولا
لم نكن فيها عطاءاتٍ ولا سرنا بها إلاَّ قُحُولاَ

(١) صحيفة الثورة ١٩٩٨/٥/٤م.

لم نكن في أرضنا يوماً وقاراً ولا صدقاً ولا خيراً جليلا
لم تَجدْنا الأرض للأخلاق موسوعةً تَلقَى من النبل قُبُولا
لم تجدنا شرفاً يوماً لإنسانها المقهور بل حزناً ثقيلاً

****

لم نكن في شمسها إلا الزَّوالَ.. وفي أنجمها إلاَّ الأفولا
لم نكن في أُفقها فجراً يضيءُ ولا في وجهها ظلاً ظليلاً
لم نكن في روحها يوماً سوى جَرَبٍ قَرُشهُ دَاءً وبيلا

****

تشرق أنفسنا بالوعي الشعوري التاريخي في شعر الفضول، وبنبراته التي تنبع من معين الحكمة نار التجربه وبعد النظر وهدوء الخطاب الشعري إلى الحد الذي يجعلك تشعر وكأنك تسمع لشيخ أنطقه الدهر بحكمته الأبدية وسلسبيل الشعر والشعور والانتماء والمنطق وحسن الاستهلال الذي يتحدث فيه الشاعر عن نفسه فيه فقي المقطع الأول (كم أرى في الصدق خوفاً أن يقولا) فهي إذن رؤية للشاعر بذاته وهو يرى الصدق وكأنه يرتجف خوفاً من أن ينطق بالحق، وهو ارتجاف لا يراه سوى الشاعر، ولذلك نظم قصيدته – ولو كان غيره يرى ما يراه الشاعر من منظر الصدق وهو يرتجف لما كان هناك من ضرورة لأن ينظم قصيدته، وهذه هي منطقية الشعر، وحجة الفلاسفة لشد القراء لينتبهوا له، – ففي المقطع الأول من البيت تجسيم للصدق وإظهاره بمظهر المرتجف والتعليل سبب الخوف من قول الحقيقة، وفي نطاق نظرية فلسفية تقول إن نفي النفي إثبات تحول الشاعر من الذاتية إلى العام فأعطى لنفيه منطقية الطرح وقوة الإثارة، فهو يخاطب الأمة بلسان وضمير الأمة ومنطق العقل الذي ما مشى ولا حبا ولا زحف فوق الأرض العربية يوماً ما، والشعر يخاطب العقل ويتسأل عن العقل لإثارة الدهشة، هو كثيراً ما يسال عن العقل العربي، باعتبار أن العقل العربي غائب أو مغيب أو متغيب / كم أذلوا العقل نبذاً وأجتنابا.

فالشاعر يرى في العقل نور الحياة وفي العقل شمس الكون التي تضيء العالم، كما يضيء العقل جوانب النفس، ولأن العرب لم يكونوا كذلك –يوماً – أبداً، فإنهم وهو معهم / لم نكن / لم تجدنا / أننا / وهذه هي فتنة الفضول، فهو لا يتجنى على أحد، إنما يقرأ ويفلسف الواقع والحياة.

وهكذا يمضي الشاعر في تجريدنا لإيقاظنا دون جدوى. لم تجدنا الأرض – أنسنة الأرض –.

والأولى جاءوا إلى الدنيا عباقرةً منَّا بها كانوا قليلاً
في نبيٍّ أو صحابيٍّ وفيّ فَلَتَةً عانى من القهر طويلا

وغـــدرنا فيـــه إشـــراقا وخُنَّـــا مـــضيئاً جـــاءَ للفكـــر رســـولا
نفـــرُ منّـــا أتـــوا لـــلأرض فجـــراً وسرحنا نحن في الفجـــر وُحُـــولا
نفر قد مـــات مـــذبوحاً بأحقادنـــا أو مـــاتَ مقبوحـــاً ذلـــيلاً
وركبنـــا مجـــدَهم خـــيلاً بهـــا تمـــلء الـــدُّنيا غبـــاراً وصـــهيلاً
وكـــذبْنَا أنهـــم داخلنـــا وبهم نَسْرَحُ في الـــدُّنيا فَحُـــوْلا

وتطالعنا ثقافة الشاعر في كل ما كتبه من شعر، لأن الموهبة بالثقافة تنمو وترتفـــع، فبعد أن جرد الشاعر العرب من كل شيء من الوقار والصدق والأخلاق والنبل والشرف والشروق والضحى والفجر والظل الظليل ونقاء الروح وصفاء جوهرها، يأتي ليدلل قائلاً: إن الذين جاءوا إلى الدنيا عباقرة – كانوا قليلاً – أي أن العباقرة الذين جاءوا منا إلى الدنيا كانوا قليلاً، في نبيٍّ أو (صحابيٍّ وفيٍّ) في إشارة تاريخية قوية إلى الـــسنوات الأولى للـــدين الإسلامي، فهذه السنوات عند الشاعر رمز من رموز العدل الذي يجب أن يكون.

نحن مهزومون في أنفسنا... لم نجد يومـــاً إلى نـــصرٍ ســـبيلا
كُلما سرْنا زُحُوفاً ترُجفُ الأرض عُدْنا فوقها نحبـــوً فُلُـــولا
في خشوعٍ لم يعُدْ يسمعُ فينـــا أهازيجـــاً وحَرْبـــاً وطبـــولا
ورجعنا الدَّارَ إمَّا قاتلاً غلـــبَ الأخـــلاق فيهـــا أو قتـــيلا
وأتى البَغيُ على مَـــتْنِ هزائمنـــا يَجْتَثُّنـــا أُســـداً وَغـــيلا
نحنُ أقـــزام، فَلَـــنْ تنطـــادَ قاماتُنـــا ولـــن تـــزدادَ طُـــولا
عَرَباً كُنَّا وأعرابـــاً غـــدونا فقبيـــل ماقَـــتَ منَّـــا قَبـــيْلا

نحن مهزومون في أنفسنا فلو حشرنا علماء النفس أجمعين ليضعوا تشخيـــصاً للأمـــة العربية لما أفلحوا لكن الشاعر لخص ذلك بضمير وحرف ومفردتين ... (نحن / مهزومون / في / أنفسنا) – ويقول الله سبحانه وتعالى ((إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، فلم ننتصر حتى على أحقادنا، ولم نقف مع أنفسنا لأن حقيقة وجوهنا مؤلمة فلذلك لا نحب أن نراها.

قد تبرأنا مـــنَ الرُّشـــد فجَانَبَنَـــا الرشـــدُ، وجافانـــا رحـــيلا
كم مقتناه كما لو كانَ فيه عُمرنـــا ابـــن حـــرامٍ أ ودخـــيلا
كم قَبُحْنَا وتَوَقحنا علـــى النـــاس أنْ تنظرنـــا قبحـــاً جمـــيلا
وَبأَنَّ الضوءَ والمجدَ والأخلاقَ مـــن أملاكنـــا جـــيلاً فجـــيلا
ثُمَّ أثبتنا لها أن لـــيسَ منَّـــا علـــى أَنْفُـــسنا أكـــذبَ قـــيلا

تَعبَ التاريخُ بَحْثاً أن يصيب لنا في الكذب الـضخم مثـيلا
والدماماتُ بنا لم تُرْجِعِ الهجرةَ كي تلقـى لهـا عَنَّـا بـديلا
همجاً عشنا معَ السوءِ بها ومغـولاً قبـل أن نلقـى المغـولا
أبداً – نحن – ورائيونَ، عَمِي الطمُوحـات صُـعُوداً ونـزولا
لا أمـاميون نمـشي، لنَـرى مبتغانـا ممكنـاً أم مُـسْتحيْلا
يلطم الصخر قفانا فندورَ، لكـي نـسْقُط عجـزاً وذهـولا
وإذا قُمْنَا من الصرع بنـا فلكـي نهتـفَ بالنـصر قفـولا
ولكي نسقطَ أُخرى، ثم ننـهضُ سـحابين للمجـد ذيـولا
أيُّ مجد لكسيح مقعدٍ أتعـبَ الأسـيافَ مـشقاً، وصـليلا

****

إن من الشعر ما يكون للأيقاظ ومن الشعر ما يكون فلسفة للحياة وما من شاعر عبر تاريخ الأدب العربي الطويل، من خاطب الأمة العربية بهذا المنطق الهادئ الرزين، فـالجميع أماً هاجياً أو محطماً أو لاعناً أو شاتماً أو قاذفاً. وبدلاً من الطرح الحكيم يكـون الـسفه والطيش، وبدلاً من التعميم يكون التخصيص والتجريح، هنا يطالعنا الفضول بقسوة عارمة على العرب، ولكن قسوة الأب الحكيم والذي يرغب بتعليم الأجيال وليس القفز فـوق حبال المعجزات، فلا نجد أبداً ولم نجد في شعر الفضول السياسي غير الحكمة والاتـزان – وما يستطيع غير ذلك لأنه مطبوع على السخرية والأدب لا على السفه والطيش، ومـن يراجع كل ما أوردنا من شعر ومقاطع لا نجد بيتاً واحداً يخرج فيه عن حكمتـه وإذا مـا حاول الخروج عن الحكمة وقع في دنيا الفلسفة القاسية / قد تبرأنا / من الرشد ولذلك فإن الرشد قد جانبنا، وجافانا رحيلا إلى أين؟

إلى قوم آخرين، ألفاظ موحية وإيقاعية وتصويرية قد تبرأنا من الرشد / فجانبنا الرشد / وجافانا رحيلا / كم مقتناه / كم قبحنا / وتوقحنا / قبحاً / أكذب قيلا / تعب التاريخ / الكذب الضخم / والدمامات بنا / همجاً عشنا / أبداً نحن ورائيون / عمى الطموحات / لا أماميون نمشي / يلطم الصخر قفانا / فندور لكي نسقط / عجزاً وذهـولا / وإذا قمنـا / فلكي نهتف بالنصر قفولاً / ولكي نسقط أخرى / أي مجد لكسيح مقعد / أتعب الأسيافَ مشقاً وصليلا/.

قد عرفتُ النومَ في الأعينِ غَمْضَا.. فَلَمَّـا صـارَ تحـديقاً مُمـضَّا
لـيسَ للـنفس حقـوقٌ أو عليهـا حقـوق، كيـف تَقَـضَّى؟
مِضْجعي المقضوض لا بأسَ، فكم مضجع – مثلك – بالهَمِّ أُقِـضَّا؟

عزُّ نومي، أنـــني في أُمـــةٍ بعـــضُها – في نَهَـــمٍ – يأكـــل بَعـــضاً
ويـــرى كـــلُّ فريـــق أنَّـــه.. قَـــدَر في النـــاس ابرامـــاً ونَقْـــضَا

***

عَرَباً كُنَّا وقد مُتْنَـــا علـــى.. بعـــضنا بعـــضاً دنـــاءات وبغْـــضَا
وخيولُ الناس، تجري فوقَ أضـــلعنا.. تُحطِّمنـــا، شـــدَّاً وَرَكْـــضَا

ووصل الهم القومي والعربي بالشاعر إلى تفاصيل الحياة الجزئية – والكلية – ليجعل منها صورة مجسمه لما هو عليه من ألم عنيف حالة عجيبة من اختلاف وانعكاس تلك التفاصيل الدقيقة، فقد عرف الشاعر أن النوم يكون في الأعين، لكنه قد صار يعرفه تحديقاً ممضاً ومؤلماً لما يراه من هوان عربي، وذل ذليل، وكأن ليس للنفس حقوق وليس عليها حقوق، فكيف تقضي النوم وانتهى وهو حق من حقوق النفس الإنسانية وهي إشارة إلى أن حق النفس قد صار من حقوق الأمة العربية للخلاص من واقعها الآسن، وهي دعوة عميقة وعنيفة لكي يتحمل كل إنسان عربي ثقلاً من أمانة وواجب الخلاص، ويبدو الفضول من علماء النفس الجهابذه، وهو يضع المضجع المقضوض بالهم القوي ميزاناً للمسؤولية والأمانة وأي ثورة نفسية يمكن أن تتحول إلى عنف ودماء وخلاص من تلك الثورة النفسية التي تجتاح الأخضر واليابس لتقتلع من يكون السبب في تحديقك الممض والمؤلم فلا تقدر أن تغمض جفنيك.

هكـــذا ســـارَ بنَـــا القـــبحُ إلى طَرُقِ الأدغالِ في السُّوءِ وأفْـــضَا
ودخلنـــا غابـــةَ الأنيـــاب لـــيسَ بمـــا يمليـــه غـــيرُ النـــاب نَرُضَـــىْ
طالـــتِ الألـــسنُ في أفواهنـــا فحسبناها، مـــن القـــوة أمـــضى
واحتكرنا الرَّفضَ، حتى لـــيس للـــصدقِ أن يُبـــدي لمـــا نـــزعُمُ رَفْـــضا

****

كم تَشَوَّهنا مـــن الحقـــدِ ومـــا منْـــهُ عوفينـــا، ولا منَّـــا تَقَـــضَّا
مَجْـــدُنا عاهاتُـــه لـــو شُـــفيَتْ لاقترضنا الحقدَ، والعاهات قَرْضا
والـــشماتاتُ بنَـــا شَـــآمَتَةَ أننـــا زمـــرةَ أقـــزام ومرضـــى
أنَّنَـــا في صـــغر الطفـــل، وإنْ كُبُرَت أجسامُنا طَولاً، وعَرْضَـــا

****

أننـــا عُـــشَّاقُ غَـــدْرٍ، وفـــسادٍ وصُـــنَّاعُ رداءآتٍ، وفوضـــى

وبأنـــا رهـــطَ حقـــد، بعـــضُنا يطلبُ البعضَ، ولا يطلبُ أرضـــا

ويمضي الشاعر في فلسفة النفس العربية وفلسفة اليقظة الممضه للعيون، وأن ذلـــك بسبب:

١- أنه في أمة يأكل بعضها بعضاً في نهم ودموية .

٢- كلاً منهم يرى في نفسه الجدارة والأحقية لأن يكون في الناس ابراماً ونقضا.

وهي إشارة إلى الديكتاتورية الفردية والجماعية والأسرية ... وغيرها، وهم الـــذي يرون أنفسهم القدر الذي يصدر البقاء أو العدم عن متى أراد إلغاء الآخر.

فالدناءات العربية التي اجتاحت الأمة، والبغض الذي جرف براءة النفوس العربية هي السبب في تلك التقليبات التاريخية التي فلسفها الشاعر لأنها نتاج أزمة نفسيه هزت عروش النفوس العربية المهترئة، وبنيانها الهش، وضلوعها التي ملأتها الشقوق والشروخ لتجـــري فوقها خيول الناس الاستعمار والاستكبار والإذلال والاستغلال فتحطمنا شدَّ وركضاً.

هكذا سارَ بنا القبح – قبح النفوس وقبح الأفعال وكل أنواع وأشكال القبح إلى – طرق الأدغال.

الباب الثاني عشر

كم .... في شعر الفضول!

(دلالة ومبالغة وبلاغة وإيجازاً وتفصيلاً... ومفاتيح اللفظ والروح والتعبير والشعور)

(كم) شهيداً من ثرى قبرٍ يُطِلّ ليرى ما قد سقى بالدم غرسه

خمائل الورد (كم) يا ندا أعطيت قلبي ولكن ما رتوى لي صدى!

((إن كم تأتي على وجهين: خبر بمعنى كثير، واستفهاميه بمعنى أي عدد، ويشتركان في عدة أمور وهي خمسة (الأسميه، والإبهام، والافتقار إلى التمييز، والبناء، ولزوم التصدير.....))[1]

كم ... من أسماء الاستفهام عن الكمية ودلالاتها لا تزيد على أن تكون أسم من أسماء الاستفهام الأخرى، ولكن أن تظل هذه الأداة أو هذا الأسم محور انطلاق وبداية رحلة أو رحلات شعرية في عالم الفضول فهو أمر يجدر بنا أن نقف عنده وقفه جادة، لأن كم تكررت في شعره الوطني و الغنائي والسياسي عشرات المرات وقد لا يتنبه لها القارئ العادي، لأنها وضعت في مواضعها التي لا تثير الريبة أو الشك أو التساؤل، والروعة في شعر الفضول أنك وأنت تقرأ أشعاره تجد،نفسك،وكأنك تقرأه من جديد كلما أعدت القراءة، فلا تحس بملل من ذلك التكرار الذي بلغ عشرات المرات، وهنا تتجلى عبقرية توظيف الألفاظ، – إن الشاعر كالقائد العسكري الذي يكون لديه قاعدة ينطلق منها لمهاجمة الأعداء ولتنفيذ الخطط أو القيام بجولات استطلاعيه ومعلوماتية ولقد أوضحنا في باب الطبيعة وفلسفتها أسرار تكرار مفردات الظمأ وقطر الندا والظلال والضحى والضوء،ولأن (كم) في شعر الفضول لها مالها من دلالات وعليها ما عليها من إيحاءات وإيماءات إلى آماد بعيدة، أفردنا لها باباً متواضعاً لعلنا نفك بعض طلاسمها ورموزها ولقد علمنا في إحدى المقابلات مع أحد عازفي العود الممتازين أن العازف أمامه عدد من المقامات الفنية التي ينبغي له فيها أن يلجأ إلى نفسه وهو يلجأ إليها في الحالات التي يجد في نفسه الرغبة إلى ذلك المقام شديدة، وكالشاعر الذي يجد راحته في بحور شعرية بذاتها.

(١) ابن هشام / مغني اللبيب / ٢٤٣.

لاشك في أن لمفردة (كم) دلالات عديدة فهي للاستفهام وللتعجب ولاختزال اللغة والزمن والتكرار وللمبالغة والإبلاغ، وللتنفيس عن الذات المثقلة بالتبعات والمسؤوليات وللإيحاء بما لا وقت ولا مكان للإيحاء بمثله أو بغيره.

إن عبقرية (كم) في شعر الفضول تبعث على الدهشة والإعجاب والاستغراب، فبقدر ما هي عليه من وفرة فإنها لا تثير فينا ما تثيره وتبعثه نفس الحالات المشابهة، انك لا تكاد تشعر بها، لأنها حبيبة إلى القلب، محبوبة في لغة الفضول، بليغة في شعره، حتى وأنت تدرك هذه الكثرة فانك لا تشعر بها إلا كما كنت قبل أن تعرف، مثاراً ومنفعلاً، ولا أدري كيف خطر لي قبل أيام أن أقوم بإحصاء مفردات (كم) في شعر الفضول الذي بين يدي، فبلغت عدداً كبيراً لم أكن أتصوره إطلاقاً، ومع ذلك كنت لا أحس بهذه الكثرة، والآن وبعد أن أدركت لا أكاد أشعر بأنها كثيرة، وكأنها ضرورة من ضرورات شعر الفضول لا يكاد شاعر يستخدمها كما أستخدمها عبر تاريخ الشعر العربي الطويل والمتصل.

فماذا نسمي (كم) في شعر الفضول؟

هل نسميها عبقرية الإيحاء؟

هل نسميها عبقرية الإيجاز؟ أم عبقرية الإشعاع؟ أم عبقرية القيم الشعورية؟ أم عبقرية القيم التعبيرية؟ أم عبقرية الإيصال والتأثير؟! أم عبقرية الانفعال الصارم والصارخ الذي لا نهاية له مهما قيل من الشعر؟! أم عبقرية الانطلاق الشعري، والإنطاق المعنوي واللغوي، أم أن الإعجاز الشعري والشعوري هو الأكثر عبقرية في دلالة اللفظ (كم)؟!

كم شهيد من ثرى قبرٍ يُطلُّ ليرى ما قَدْ سقى بالدَّم غرسه

في هذه العبقرية الشعرية التي أنطقها الشاعر، وجاء الفنان مفيد نعمان اليوسفي فصنع بريشته الجذابة لوحة حقيقيه على ظهر مجلة المعرفة – العدد (١٨/١٧)، في ملف وثائقي عن الفضول،واللوحة تصور شهيداً وهو يرفع أو يطل برأسه من القبر لينظر إلى ما حوله، وليرى ما قد سقى بالدم غرسه، وكما قال سيد قطب في رسائله إلى أخته أمينة قطب في أفراح الروح: ((إن كلماتنا تبقى عرائس من الشمع حتى إذا ما متنا من أجلها وسقيناها ورويناها بالدماء أنتفضت حَية وعاشت بين الأحياء)) ويبدو أن الفنان مفيد قد أستلهم رأس الشهيد أحمد الثلايا.

ولنا الآن أن نتخيل عدد الشهداء الذين يطلون برؤوسهم من ثرى القبور التي هم فيها أحياء عند ربهم يرزقون، لينظروا ثمار تضحياتهم ودمائهم التي أرتوت منها أرض الوطن، إنها صورة تبعث على الخجل والحياء من الشهداء.

وهي صورة تجعل الذين لم يحققوا آمال الشهداء أقزاماً.

ولو قال الشاعر مثلاً (كل شهيد من ثرى قبر يُطلُّ) – وكل قريبة من كم كثيراً – لما كان لكل ذلك الإيحاء والإشراق وتلك العبقرية التي في (كم شهيد) إن أصدق ما يقال عن

كم الوطنية في شعر الفضول هي (كم) الحسرة والألم.

كم تألمت مرارا وكم تأملت مرارا –، أما العاطفية في (كم) الظمأ والندا والندى والظلال والضوء .... الخ.

كم في ديوان الفيروزة:

ترددت مفردة (كم) في ديوان الفيروزة في حدود خمسين مرة، في أبيات متباعدة ومتقاربة، فيكاد الديوان بكامله وكل قصيدة فيه لا يخلوا من مفردة (كم) ولبيان دلالتها نستعرض بعض النماذج وتحليلها باختصار للفائدة فقط وقد تختلف وجهات النظر في ذلك ولا خلاف على أن الاختلاف يكون متعدداً عند أصحاب الأفكار الممتازة:

* كم رَهنًا للحب أن يقهر الكِبْرَ فينا
ولكننا خسرنا الرهانا

دلالة على سوء التقدير للأمور والخسران المبين، وهو خسران شعب.

* كم تساءلت ولم ألقَ جوابا
أين عن أرضي وجهُ الصدق غابا

دلالة فلسفية على غياب الصدق مع الوطن والناس والشهداء وصدق الأهداف،وصدق الحياة، لأنَّ الحياة قائمة على فلسفة الصدق في ادراك أبعادها وخوافيها.

* كم فؤوسٍ فوقها جاءت تعْمِلُ في الأخلاق
قصلاً، واحتطابا

دلالة القسوة من الناس تجاه الأهداف النبيلة، وهي قسوة عظيمة وصورة تبعث على الألم العميق من منظر الفؤوس وهي تهوي، قصلاً واحتطاباً...

* وطني المحزونُ،
كم أخزاك مَنْ فيك
كم أشقَوْكَ – ناساً وترابا

دلالة على خيبة الوطن بأهله وناسه وترابه وموقعه الجغرافي محط الأطماع.

* كم أذلوا العقل نبذاً واجتنابا
وأقاموا للمجانين قبابا

دلالة على بشاعة التجهيل، ثم تعظيم المصابين بعلم الجهل وهم في صورة المجانين الذين يسكنون القباب في إشارة إلى القداسة الزائفة لهم.

* كم حيينا للبلاهات بنا / يا ظنوني كم تطامنت إلى مستيسر / كم أراك الليل فجراً كاذباً / كم بمجنون ركضنا فرحةً / لكم نبذت كبيراً في طفولته / كم دللت حبنا الأقدار / كم نثرنا عليها في خمائلها / كم جاءنا الفجر يبغي أن نزيد له من ضوءه فأضأناه ونديناه /

كم أتى الورد يعطينا براعمه / كم أرى في الصدق خوفاً أن يقولا / كم قبحنا وتوقحنا على الناس / كم تشوهنا من الحقد / كم يحزن الليل / كم عشت في عيني / كم عاش في معارك الحب / كم ولعت نفسي وكم جنحت إلى أشجان / كم دلل الأطفال فيك / يا واحة الطاؤوس كم هو فاضح أن تحفلي بدمامة الغربان / كم تخيلتك اصباحاً / كم تخيلتك أفراحاً / كم تصورتك أرباحاً / كم أتى الريب أرتجافاً / كم سيبقى السوء في الناس صناعة / صانعوا الأحزان كم سرتم على شرف الخير / كم سنبقى لا ترى أسواقنا غير سوقياتنا فيها بضاعة / .... الخ.

* كم كسوف يعتري الشمس
ولكنه لا يسلبُ الشمس ضحاها

دلالة فلسفية كونية ومنطقية كرمز للتحدي والصمود وعلى أزلية الحياة واستمراريتها.

* كم عَشقَتْ نفسي الضحى
والشذا العَبق، والظل النديا

دلالة الصبر وعلى عظمة الحب في قلب الشاعر للناس والوطن وديوانه دليل ذلك.

* كم هو السوء دمامات،
ومقت ...
وتشويه،
وخزي ... وفسوقُ

دلالة هائلة على قبح الظلم والسوء والمقت والتشويه ...الخ

* كم به عجز وأحزان وصرعُ،
وكم فيه صريع لا يفيقُ

دلالة منطقية على عجز الظالم عجزاً عظيماً وبشعاً

* ولكم يهون الخير أن تصغي إلى
دود الجذوع.. حمائم الأفنان

دلالة فلسفة عن انقلاب حال النظام الإنساني والإحيائي وكيف أصبحت الحمام تسمع وتصغي لدود الجذوع ... ودلالة على الهوان.

كم في الأناشيد الوطنية وبعض القصائد المتفرقة:

كم شهيد من ثرى قبر يطل / كم سلكنا ومشينا / كم رفضنا ولبسنا رفضنا / كم يكون القبح في الحرف إذا .../ كم بيان سقطت منه الكرامة في الافك / ولكم أحزنني شعر يعمم بالخز رؤوس النعم / ولكم أحزنني شعر به نكهة الخبز وريح اللقم.

كم لبثنا نعلن الحـــرب ضـــحىً فإذا ما غابت الـــشمس نـــسينا

صورة تجسد الحياة العربية القائمة على الشعارات الزائفة والتهديـــدات المرتجفـــة. ومغالطة الذات، ومخادعة الشعوب ومداهنة الباطل.

٣- هذه كل المرايا فاكسروها فكم تبدون فيها بشعينا

فهذه دلالة على بشاعة صورة الأمة العربية فادخلوا أجحاركم وأنشدوا فيها نـــشيد الضائعين.

تلك كانت دلالات وكفايات، وتعدد هذه الدلالات لمحور لفظ (كم)، وتوسع المعاني التي فيها، أعطي لها زخماً معنوياً يجعلنا لا نشعر بكثرتها،لأن كل منها له دلالة مـــع ســـياق النص والعبارة التي فيه ا، فكان تعدد المعنى في العبارات، وتعدد المعنى للمفردة (كـــم) في السياق الكلي للأبيات توسعاً في فائدة (كم)، فهي ليست للاستفهام فقط أو للسؤال عن الكمية، وليس لها عيب شعري،وكم في كل مرة بمعنى جديد وجميل مع كل معنى وعبـــارة جديدة، لأن روح المعنى والمعنى الروحي للسياق فتح أمامنا آفاقاً واسعة للمعاني، فهل هناك شاعر أعطى لمفردة مثل (كم) الاستفهامية هذا العدد الهائل من المعاني والدلالات، ونحـــن عندما استعرضنا الأبيات والمقاطع الهامة كان هدفنا توضيح دلالة معنى (كـــم) في ســـياق العبارة أو النص، ولو توقفنا لدراسة وفهم الإيحاءات والقيم الشعورية والتعبيرية ومقومات العمل الأدبي وأثر (المفردة) لما انتهينا.. ولا شك أن الفضول كان يدرك بحسه الناقد وذوقه الممتاز توابع تكرار هذه المفردات، ولكن إدراكه لشاعريته ولمعانية جعله يضرب صفحاً عن الوقوف أمام مسائل ثانوية كهذه، ولا جدال في أن لكل شاعر صخرة يجلـــس عليهـــا أو شجره يستظل بأفيائها،ويكون أكثر اطمئناناً وهو في هذا المكان أو ذاك أو مع (كم) بمعانيها المذهلة ودلالاتها العميقة وروائحها التي تبعث النشوة في النفوس.

كم في الشعر العاطفي:

سبق القول بأن شعر الفضول عامةً يمكن أن يكون أغنية جميلة من أيـــوب طـــارش وألحانه، ولقد فصلنا عن ذلك في باب المزاج الغنائي وأكاد أجزم بأن (كم) لها دلالة غنائية خاصة في شعر الفضول، لأنها ترجمة وأختزال لما في نفسه من حرمان وظمأ وحب وأشجان.

* خمائل الورد كم يا ورد كم يا ندا
أعطيت قلبي ولكن ما ارتوى لي صدى

* كم سرت في الوديان خضراء رطاب / كم ضَمنا صدر الغرام الرحيـــب / كـــم تشتَّت وقلبي يجمعك / ونشوة الحب وشوق القلوب / كم أرتوى منها صباك الطـــروب / يا بدر كم ذا قاسمتك البدور / كم قطر الورد الندا في فمك / والشمس كم أروى ضحاها دمك / والحسن كم ضمك وكم لملمك / كم غرسوا الشوك والأحزان في دربنـــا / كـــم

أظمأونا فاسقنا ندى حبنا / كم نارهم يا حبيبي قد أحاطت بنا / كم فيك من حسن / كم فيك من ألوان فتنة ليت قلبي نفس / كم يا نجوم زاورت روحي / وكم بدور ضيفتني بعد ما حبيت قلبي من هواها خنس / كم يا قلوب أعطت لأشواقنا حنانها / كم ذا علينا بكين / وكم هامين / وكم دورين / كم يسألوني الناس عن أنسي وإيناسي القديم / اسأل حمام البان كم قد عاش يبكيني الهديل / كم لي أحب كم ورحي كم لها ترشف مباسم وتتغذى قبل / مسارحي فيه كم سارت ظبى بها / وكم فل فيها قد نفل / وامهجتي كم ضاع فيها شراب / كم كنت لميتك لموم الريش في العصف الشديد / كم ناس قد عاشوا بغير الهوى أشباح تأوي في صدور الضياح ...

* كعبة من الحسن قلبي كم إليها هفا ...
كم حجَّها،
كم عاش فيها يطوف
****

والحقائق الفلسفية للجمال علم قائم بذاته لأن الجمال منبعه النفس، فالمحب يرى من يحبها كأكمل ما يكون معنى الجمال.

وبعد هذا الاستعراض الموجز ندرك أن كم قد تلونت معانيها ودلالاتها وكناياتها واستعاراتها،وكأنها في كل عبارة ومعنى ومقطع لفظ جديد وبليغ نقرأه لأول مرة، وكأننا لم نسبق أن قرأناه،ولن نصادفه أمامنا.. لأن براعة الفضول في منطقية المعاني أوصلته إلى أن يكون فارس الشعراء في القرن العشرين لكنه ذلك الفارس الذي لم ينصفه أحد.

إن الفضول ينطبق عليه قول نزار قباني: ((الشاعر العربي هو بدون شك أعظم شاعر في الدنيا لأنه يدفع كمبيالة الشعر مع فوائدها وفوائد فوائدها، فبينما يجلس الشاعر السويسري على ضفاف بحيرة جنيف ليطعم البط، وبينما يجلس الشاعر الفرنسي في أحد مقاهي سان جرمان وأمامه قدح كونياك وفي فمه سيجاره غولواز وبينما يفتح الشاعر الإنكليزي شهيته بسطل من البيرة السوداء، وبينما يجلس الشاعر الأمريكي على سطح بناية (تشيز مانهاتن بنك) في الجادة الخامسة في نيويورك، يجلس الشاعر العربي على قصيدة مفخخه لا يدري متى تنفجر به ...)) [1] أ.هـ ديوان نزار قباني (هل تسمعين صهيل أحزاني).

إن براعة الفضول في توظيف هذه المفردة ذلك التوظيف المذهل، الذي لا تكاد تحس إلا ببراعة المعنى والمبنى والمنطلق فكم وكم وكم دون ملل بل بلاغة وإعجاز شعري عملاق، فلنتخيل وهو يتعلق في توظيف هذه المفردة كيف يتعملق في توظيف الطبيعة

(١) ديوان نزار قباني (هل تسمعين صهيل أحزاني).

والحياة والفلسفة والمعاناة والظمأ والشمس والضوء والظلام والنجوم،.. كيف يتعملق وهو ينقش معاني المعاني في جدار التاريخ، إن من لم يقرأ ديوان الفيروزه فكأنه لم يقرأ شعراً أبداً. وإن من قرأ ديوان الفيروزة ولم يفهم فكأنه لا يفهم أبداً، وإن من يقرأ ويفهم ديوان الفيروزه ولم يحفظ منه مقاطعاً فما زال يحبو في بلاط شعر الفضول.

إن الأنصاف واجب الجميع، فلا يساء الظن بنا. ولكن لنقرأ ونفهم ديوان الفيروزه لنعلم من هو الفضول؟

إن إهمال النقاد والدارسين والباحثين لشعر الفضول لهو بحق جريمة ثقافية جديرة بالعقاب، لأن الفضول هو (جان جاك روسو وفولتير وموليير وهو جو وشكسبير وطاغور وماوتسي تونغ وهمنجواي ونيتشه وجوته وتولستوي وشيخوف ومكسيم جوركي ودستوفسكي ودعبل الخزاعي والمتنبي والمعري والشريف الرضي والعباس بن الأحنف والتوحيدي والغزالي والشيخ أحمد بن علوان – الذي لم يسمع به – شوقي ضيف ليقول سطراً في مؤلفاته الأدبية عن عصور الأدب – وابن جني في فلسفته واشتقاقاته للغة بروح العصر، ان الفضول هو جمال الدين الأفغاني ومصطفى كامل وأحمد عرابي والبارودي والشابي وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه وعبد الرحمن شكري وهاشم الرفاعي والتيجاني بشير وأحمد مطر ودرويش وأبو ريشة .... إن الفضول يختزل كل هؤلاء،ولولم يكن بين أيدينا غير نشيد الأناشيد، وأملأوا الدنيا ابتساماً، وهذه يومي فسيروا في ضحاها ويا سماوات بلادي باركينا وهتافات للشعب، لما عجزنا عن التدليل على مكانته الأدبية والسياسية والوطنية والإنسانية أبداً ، ولأن كتابات روسو و مونتسكيو قلبت أوروبا رأساً على عقب، وديوان الفضول وأعماله الكاملة لم تجد في اليمن من يعيرها اهتماماً قلنا ما قلناه، ونحن واثقون من أن الله لم يخلق موهبة الفضول عبثاً، فحتماً سيجد من ينصفه من الناس، والتاريخ و...

ستعانق الفوز المبين نفوسنا حتماً كما يتعانق الأخوان

ألا وإن عبقرية المعنى في شعر الفضول من عبقرية البيت في العمود الشعري في معماره العمودي ((ففي وزنه وقافيته وأسلوبه، وهو أيضاً سبع خصائص: شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ و استقامته، والاصالة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكله اللفظ وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافره بينهما)) أ.هـ المرزوقي.

وكم في شعر الفضول لسان حال المعاناة والمكابدة ومصارعة الزمن وتقلبات الأيام ومحاولة لالتقاط الأنفاس وقراءة أبجدية الرحلة الطويلة والسفر الذي أدمى القلب.

فتتبدى كم من قاموس الأحزان والتوجع ومحاولة إيصال استحالة وصف ومقدار المعاناة وليس في كم من قيود تمنعنا عن تخيل وتوقع ما بعدها لأن ما بعدها لا حدود له،

ونحن نلمح في كم صيغة مبالغة موغلة بلا غلو ولا اسراف لأنها صورة معقولة وقد تقع، وما أكثر وقوعها حقيقة ونحن نحاول أن نستعيد مراحل حياة الشاعر منذ وقت مبكر من عمره، وحتى توقف قلبه في نهاية رحلة لم يعرف هو متى ستنتهي.

ولا نستطيع أن ندرك أبعاد كم تماماً إلا في إطار جملة وعبارة وبيت من شعر الشاعر الذي أعطى لها صيغة التجدد والتمدد والأصالة وقوة من التعبير ودقة المعنى والتهاب اللفظة واشتعالها وإبراقها في النفوس، وتغلغلها في الذات ومسارب الشعور والمشاعر، وانسكابها في جوف ظمآن كما ينسكب الماء البارد في جوف ظمآن مسافر وهيمان ....

إن الشاعر وهو يوظف مفرداته اللغوية التي تنطق بلسان حال نفسه ومعانيها الباطنة التي تسكن في أخص خصائص الشعور والوجدان ليبعث في النفوس كماً هائلاً من التفاعل والانفعال الذي يكون تحت سيطرة الشاعر الموهوب بكل ما يمتلكه العمل الأدبي من مقومات النجاح التي لا يقف أمامها شيء.

فكم من الناس انفعلوا مع كل قصيدة رائعة على حده وعلى مر التاريخ والعصور الأدبية، وكم، وكم، وكم ... وكأنه لا يشفي غليل انفعالنا غير (كم) التي ما أروت ظمأ الفضول ورغبته العنيفة في تجسيد الصور الشعرية الخالدة التي بوزن كم شهيد من ثرى قبر يطل..

فلو جمعنا كل عباقرة النحت والنقش والرسم ليصوروا لنا ذلك المشهد وهذه الصورة الخالدة لما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً، ولو بالغنا قليلاً ، وتحدينا كل تكنولوجيا العالم المتقدم بأقمارها الصناعية وقنواتها الهائلة العدد وبمختلف اللغات ليحاولوا إيصال بعض الدفقات الشعورية المشابهة للاجتياح الشعوري الهائل التي تقوم به الأبيات الثلاثة السابقة إلى نفوس الناس وإلى النفس الواحدة أو لرسم جزء من تلك الصورة ما استطاعوا أن يأتوا بشيء وهذه هي أسرار الشعور ومقاييس المشاعر لأن رسالة الشعور هي إحياء وبعث الحياة في مظاهر الحياة الإنسانية الجامدة، وتلك أعلى وأرفع قوى الربط والروعة بين النفوس والعقول وحقائق الحياة ... و:

كعبة من الحسن قلبي كم إليها هفا كم حجَّها، كم عاش فيها يطوف!!!؟؟

الباب الثالث عشر

فلسفة العتاب للوطن!

هذه الساحة ليست ساحتي ما فشئ السوء بها، واستعلنا
هذه الرايةَ ليستْ رايتي طالما كانت لحقٍّ كفنا
هذه الأمةَ ليست أمتي إنّ جثى الرَّفضُ بها، أو أذْعَنَا

****

أيُّ صقعٍ فيه ألقى مأمنا لا أَلاقي فيه يوماً حَزَنَا؟!!
مالها آلام أرضي كلّها لم تَجدْ غيرَ فؤادي وطنا
ولماذا أنا وحدي جئتُ بالحسِّ بها ممتحنا؟!
ومعاناتي بها أنّ ليس لي قدرة تقدر ألا تحزنا

(معبد الأوثان --- ديوان الفيروزه)

سيلاحظ القارئ الأبيات السابقة ليدرك قوة البناء الشعري منذ البداية وحتى النهاية في القصيدة، وهذه خاصية للشعراء الكبار، أمتلكها شعر الفضول، وشهد بها أيوب طارش.

ما جدد الحب كالعتاب لحظات الحب المتجدد هي لحظات العتاب، وتلك الغشاوة أو سحابة الصيف هي تنقشع وتتبدد ليبقى الحب مرفرفاً بأجنحة النوارس والصقور، قوياً وشامخاً...

ليس يعطي الحبَّ إلاّ قلبُ مَنْ كان أو من كادَ أنّ يغدو نبيا
لَبسَ الإصباح ضوءاً وندىً فمشى في الناس فجراً بشريا
قد سما إنسانه فيه، ولم يُبقِ فيه الخيرُ معنى حُفريا
كله مرتفع، تحسبه قِمَّةَ تشمخ، أو طوداً عَلَيا
صاعداً – في النجم عملاقاً – بلا، وَحْلٍ يعطيه طولاً حشريا

وعتاب الوطن فلسفة روحية، ورياضة نفسيه واستعداد في النفس، وهي فلسفة مفطور عليها القلب الذي لا يعشق سوى الخير والعدل والحق والجمال، والمحب لوطنه يكون في نفسه استعداد هائل لتقبل الهزيمة بروح رياضية وهمه عالية لأن هناك في الجانب

الآخر من النفس – إن جاز التعبير – متسع من الزمان والمكان للأمل الذي لا ينتهي وليس له حدود أمل بغد جميل بغد مشرق، مادامت أرادة الإنسان قوية قادرة ومرتفعه المعنويات وعامرة بالثقافة والوعي، فليس في تلك الإرادة معاني الأحقاد والضغائن والوقوف عند حدود القشور الباهتة لحقائق الحياة، بل إرادة فيها الرغبة العنيفة في فلسفة الحياة، وفي فلسفة الناس والسلطان والطبيعة والحب، في الرغبة الجارفة لإعادة القول في الأشياء التي سبق أن قيل فيها بمنطقية مجردة من الأهواء، بمنطقية لا تنفي ما قيل بل منطقية تؤكد ما قيل وفق معطيات جديدة، ورؤى جديدة، وحقائق أخذت واقع الحقائق الأجدر بالبقاء، الأجدر بالحياة، بمقياس الإنسانية، الكرامة، والأماني، فلا ينفي الفيلسوف الشاعر ما قال بل نفلسف الواقع الذي أصبح بين ما قيل وما هو كائن ...

هذه الساحة ليست ساحتي ما فشى السوء بها واستعلنا
هذه الراية ليست رايتي طالما كانت لحق كفنا
هذه الأمة ليست أمتي إن جثى الرفضُ بها، أو أذعنا
معبدُ الأوثان لم أدخلهُ يوماً لكي يعيد عقلي وثَنا
أو تجد فيّ المهانات لها هابطاً يحبو إليها مذعنا
أو يعشق الخير فوق ساحاتي سوى الضوء لا يسرح ليل بيننا
عليها قدري لم يعطني عُنُقاً أرضى لها أن تُرْسَنا

فالشاعر لا ينكر أو ينفي صلته بالأرض كما قد يتصور البعض، وإنما يفلسف الأشياء، ويضع الحقائق في موضعها، فالإنسان لا يرضى أن تكون أرضه موطناً للتسوء، وأرضاً للظلم والخراب والدمار العقلي والثقافي والحضاري والإنساني، فعندما يقول الشاعر هذه الساحة ليست ساحتي فلا نقف عند حدود هذه العبارة لأنها ناقصة لغوياً وإنسانياً ومتناقضة مع ما قيل، – فالشاعر يؤكد أنه ما أنكر أن تلك الساحة أو الأرض أو الوطن... ساحته أو أرضه أو وطنه إلا بعد أن أكد على أن هذا التخلي المعنوي الذي يطالب بالخير مربوطاً مع الواقع، فتخلي الشاعر عن ساحته يكون عندما يتحقق ما جاء في الشطر الثاني ((ما فشى السوء بها واستعلنا)) فهذا الارتباط يحمل معنى الوطنية أكثر من أي شيء آخر فالمحب للوطن يسوءه بل ويقتله أن يرى السوء والظلم والفساد والإفساد متفشياً مُعَلناً بدل الخير والحب والعدل والحق والنور والمعرفة ... والعجيب في الأبيات أن الشاعر يوحي ويربط بين ما قال وما يقول لأن الحياة لها فلسفة خاصة في قلب الحقائق، لكن الشاعر يأخذ بعقولنا إلى حيث الجمال والروعة وهو يضع تفاصيل الحقائق والتي لا تتناقض مع ما قيل أو مع ما قال: فهو حين قال ((رايتي ... رايتي.. يا نسيجاً حكته من

كل شمس ... اخلدي خافقةً في كل قمة)) فإنه عندما يأتي ويقول بعد ذلك ((هذه الراية ليست رايتي.. طالما كانت لحق كفنا))، فالحقيقة أن الشاعر يزيد من رفع شأن رايته، لأن الراية التي حيكت من أضواء الشموس وألوان الحرية والمعرفة والنور لا يمكن لها أن تكون كفناً للحق والخير والعدل، ولذلك فالراية التي تكون كفناً للحق ليست الراية المصنوعة والتي حيكت من ضوء الشمس لتبقى خافقة في كل قمة، والزمن بذلك يكون غير الزمن، والنظام غير النظام الذي كان ينشده الشاعر ويأمل به ويعمل له، وينظم فيه وله وبه أعاصير الحرية ومعارف الأمم، فصدمه الشاعر وهو يرى آماله كلها تتبخر أمامه وهو الذي يعرف ما دفع الشعب من ثمن باهض لتلك الأماني والآمال.. فإنه لا يسعه إلا أن ينكر ما يرى ليصحح للناس أن الراية التي تكون كفناً للحق ليست هي الراية التي حيكت من أشعة الشموس وأن الأمة التي تغنى بها ولها (أربعينياتنا فيها رفضنا / وسنمضي رافضين / وضحى سبتمبر فيه رفضنا)

تلك الأمة إن تخلت عن رفضها للظلم والتبعية والتجهيل والأفساد والغبن والتكميم فإنها ليست أمة الشاعر التي قال عنها:

((أمتي ... أمتي
امنحيني البأس يا مصدر بأسي
واذخريني لك يا أكرم أمة)).

ولذلك قال الشاعر هذه الأمة ليست أمتي ... لكن متى؟

إن جثى الرفض بها أو أذعنا

وهل بعد ما نحن فيه من إذعان وذل ومهانة، وأعجب وأروع ما في هذه القصيدة بل وكل قصائد الشاعر في ديوان الفيروزه هو التاريخ المفتوح لتكون القصيدة في منظور فلسفة الزمن طائر العنقاء الأسطورة المفتوحة الأزمنة والأجنحة.. وهنا هنا، تتأكد لنا حقيقة الفيلسوف الذي يرى مئات السنين القادمة في لحظة شعورية جارفة متقدة ومشتعلة النور والنار والخطاب..

أحرفي لا تكذبي حتى أرى أرأفَ الأحكامِ بي أنّ ألّعَنَا
أحرُفي لا تأفكي حتى أرى كلّ حرفٍ منك جُرْحاً مُثْخَنَا
فلقد أعددتُ أجنابي، وأصبح وجداني لخوفي مُدْمناً
وأحفظيني فيه حتى لا أرى شرفاً من صدقِ نفسي أثْمَنَا
لا تكتبي منى نفاقاً.. به تشبعُ روحي عَفَنَا
لا تخفي ديني إلى سردابٍ به أمشي وَضيعَاً هَينَا

وأبـــصقي الخـــيرَ إذا كنـــتُ ســـأعطي بـــه عفـــة صـــدقي ثَمَنـــاً
لا تخـــافي الخـــوفَ أن يلاقـــي الأمـــنَ وجـــداني وعـــيني الوَسَـــنَا
لـــن تلاقـــي أمنـــها نفـــسي، وأنّـــى لهـــا.. في غابـــة أن تأمَنَـــا

فهذه الأبيات ترسم لوحة لا تكاد تتجاوز حدود الحرف ولكنّ لأن الحرف لـــسان الكلمة والكلمة موطن الحقيقة، فقد أعطى الشاعر الحياة للحرف فأصبح الحرف جرحـــاً مثخنا، وأصبح الوجدان للخوف مدمنا، فلا نفاق بالحرف، لأن ذلك هو العفن النفـــسي والروحي فإخفاء الحرف للدين والصدق ضعف وهوان وفي الأبيات أسلوب فني رائـــع – سنتعرض له في كتاب الأبعاد الفنية في شعر الفضول.

ولعل العشرين – عاماً الأخيرة من عمر الشاعر كانت هي الأعوام التي تم فيها حصاد تجارب العمر بمنطق الطبيعة الذي جعله الشاعر فلسفة أشبه ما تكون بفلسفة كليلة ودمنه، وتلك هي الحقيقة، ولابد أن كليلة ودمنه كانت هي البوابة الثانية التي دخل من خلالهـــا الشاعر إلى رموز الطبيعة لإسقاطها على الواقع كما سنقرأ ذلك في المقاطع الشعرية القادمة مثل (ماتت الآساد أم ولت فرارا .... / لم يعد في غابتي غير ضباع...) مع لفـــت نظـــر القارئ إلى أن البوابة الأولى التي دخل منها الشاعر إلى الطبيعة كانت بوابة نفـــسه الـــتي عشقت الريف حتى النخاع، راجع الطبيعة في شعره كرموز، فأستخدم الغابة رمزاً للوطن كإسقاط لكل ما في الغابة من غالب ومغلوب وقوي ومقهور وضعيف وكذلك الآســـاد، والأسود والفيران والفراشات والذباب والزهور و الملاب.. إلى نهاية كل تلك المفـــردات التي سردناها وفصلناها في باب فلسفة الطبيعة.. ما الذي دفع الشاعر؟ مادام الشاعر قـــد فعل ذلك، فلماذا لم يكن ينشر شعره السياسي والفلسفي للحياة وقد أعطى تلك الأبعـــاد الرمزية للواقع والذي أصبح معها الأمر صعباً جداً في تناول وتحليل نصوصه الشعرية لأن لها أبعاداً بعدية ومتعددة ولم يعرض في أشعاره بشخص أو بأحد إطلاقاً، لأنه كان يتنـــاول المنظور العام من واقع حياتي وإنساني شامل بقوة التجارب الشعورية والمعانـــاة والمكابـــدة اليومية ومرارة الواقع الذي يزداد قبحاً ودمامة (كلما قلت انتهى السوء عليها تبدّى هرم السوء شبابا) .... ولقد أدرك الشاعر أبعاد ومقاييس الخلود الإنساني للأدب من خـــلال توظيفه للأدب والشعر الفائق تجربه ولغة ومعنى لفلسفة الحياة والواقع والإنـــسان الأرض والأمة، ولقد جمع الشاعر بين صفتين رائعتين هما الشاعر الموهوب والحَسّ السياسي الذي أحتوى على رؤية للواقع من منظور ساخر وعنيف السخرية،لكنه لم يمتلـــك دبلوماســـية التعامل مع الواقع، بعدد من الأدلة تأتي في مقدمتها التهميش الذي تعرض له الشاعر بعـــد قيام الثورة السبتمبرية حيث لم ينتقل من عدن إلى تعز إلا في عام ١٩٦٧م، ولم يتبوأ منصباً طوال الفترة الأخيرة من عمره حتى عام ١٩٧٢م عندما تولى وزارة الإعلام لمدة لا تتجاوز ثلاثة شهور، رغم دورة النضالي في الثورتين سبتمبر وأكتوبر ودور أسرته وهو أمر يغـــرس

النقمة على الواقع الذي لا يقدر الرجال من منظور إنساني بحت، والنقمة لا تكون على الأرض أو على الإنسان وإنما تكون على من أذلوا العقل نبذاً واجتناباً، وأقاموا للمجانين قبابا وأحتووا ملء مراعيهم ذئابا، بدليل أن أناشيد الشاعر الوطنية كانت في ذلك الزخم المؤلم للواقع ورغبة من الشاعر في بعث الحب حياً في القلوب تجاه الوطن، كل الوطن، حب كل الناس بما فيهم رموز الفساد والإفساد، ولقد أغرق الشاعر نفسه في روعة الحب والعشق لينسى به مرارة الواقع وكي تسير السفينة ومع ذلك كله لم ينس الشاعر الحقيقة والواقع فنسج ديوان الفيروزه من حرير الضحى ومن خيوط فجر البشرية نور الحرية، فكان يكتفي بقراءة تلك الأشعار على أصدقائه المقربين بحكم تلك المرحلة من النظام الشمولي، أما الآن فقد آن لفلسفة الفضول أن تخرج إلى النور لأن تلك كانت فلسفة للواقع الإنساني عامة وليس خاصاً بالوطن اليمني أو بالأمة العربية فحسب، أما بالنسبة للشاعر فقد أحاطت به من الأمور ما جعلته مقيداً بسلاسل من ذهب منها زواجه المبكر في عدن مرتين ثم زواجه في مدينة تعز وصنعاء مرتين، وتهميشه بعد ثورة سبتمبر ونسيان ماضيه النضالي الذي لم يتضح للناس إلا بعد موته، فسجنه الواقع في إطار الشعر العاطفي لأكثر من ١٥ عاماً فكان اختفاء الكثير من أشعاره التي تمثل بداية تجربته الشعرية عام ١٩٤٤م في تعز ثم عدن كقصيدة في وصف منظر سجناء الأحرار (سيروا فما الأغلال في أعناقكم..).

وكذلك القصائد الشعرية الفصحى التي من خلالها تكتمل الرؤية الفنية لشعره وهي فترة استمرت لأكثر من عشرين عاماً من عام ١٩٤٧م حتى عام ١٩٦٧م، خلاف تلك القصائد الساخرة التي كان نشرها في صحيفة الفضول فمن غير المعقول أن يبقى الشاعر ممسكاً عن قول الشعر كل هذه السنوات، فيطالعنا الشاعر بتجربته الناضجة منذ لقاءه بالزبيري والموشكي في عدن فتتجلى موهبته في ذلك البيت الذي يقول:

ستعانق الفوز المبين نفوسنا حتماً كما يتعانق الأخوانَ

ولا شك أن، هناك من الظروف الخاصة التي لا نعلمها كانت سبباً في إحباط الشاعر إضافة إلى الحروب الأهلية بعد ثورة سبتمبر ثم أحداث أغسطس وصراع الأخوة الأعداء الظروف التي وقع فيها الأستاذ / أحمد محمد النعمان،ومصرع الزبيري رفيق الدرب وكذلك تلك الرابطة القوية التي جمعت بين الشاعر نجل الأستاذ أحمد النعمان ونعني ذلك الشاب المتوقد الذهن ... محمد أحمد النعمان وهو الذي كان الامتداد للشاعر في تحقيق الآمال، لكنه مات شهيداً صريعاً للغدر والخيانة والعمالة عام ١٩٧٤م في بيروت، فرثاه الشاعر بقصيدة مطلعها يقول:

صاحبي مات فماتـــت كلمـــاتي ومضى وخبا فناحت أغنيـــاتي(*)

ولم نجد بقية هذه القصيدة لأنها ستقودنا إلى ذات الفضول الخفية، وكـــذلك هنـــاك قصيدتان أثبتناهما في مقدمة البحث في مدح محمد أحمد نعمان والذي يبدو أن، الشاعر كان يرى فيه الآمال التي لم تتحقق بعد...

وهناك من الأحداث التي سردناها في الهم الوطني وغيره من الأبواب التي كانت لهـــا أثراً على نفس الشاعر، ونعجب أيضاً من الفضول الذي كانت حياته الاجتماعية تقوم على علاقاته الخاصة ببعض الأفراد وأصحاب المناصب ولكنه تقديراً وتقديساً منه لطهارة الكلمة وعفة الحرف لم يمدح أحداً منهم أبداً، ولم يحظوا بقصيدة منه.

والأمـــاني راحَ فيهـــا يأسُـــها وقحـــاً مـــلءَ عينيهـــا غَبـــارا
ما لنفسي لم أجـــد فيهـــا قـــرارا واصطباري لا أرى فيه اصـــطبارا
ولعـــيني تَعِبَـــتْ سُـــهداً فمـــا يُـــذَالَ النـــومُ بهـــا الاغـــرَارا
وأحاسيـــــسي تُعـــــاني ألمـــــاً ذابحـــاً في روحـــي انتـــشارا
إن غاباتي، وفيها الأسدُ هـــشتْ ماتت الآساد أم وَلّتْ فـــرارا..؟
لم يعد في غـــابتي غـــيرُ ضـــياعٍ، عليها الـــذئبُ يـــستوزرُ فـــارا
وهي كانت حَرَمـــاً، لا تَرتـــضي فوقهـــا أثمـــاً ولا تقبـــلَ عـــارَا

وينتقل الشاعر إلى الغابات والأوطان التي أصبح فيها البقاء للأقوى ولكنه القـــوي الجبان والمخادع، في ظل هشاشة وضعف الأسد أو موتها أو فرارها من أمام الحقيقة والعجز عن مواجهة الواقع باقتدار.

((ألفُ سيف في يديْ مرتجف
لا تراها عينُهُ إلا عصيًّا))

ويوظف الشاعر الطبيعة كرموز، ويعطيها مدلولها الرمزي كفلسفة أسطورية وتاريخية، عليها الذئب يستوزر فارا، الفأر الذي باعد بين أسفارنا قديماً وحديثاً لأن الـــذئب يريـــد الاستحواذ على كل النعاج والسيطرة عليها،وحتى تبقى النعاج في حـــضيرته أو في غابتـــه أسند مهمة الرعاية للفئران التي لن تنافس الذئب أو الذئاب من حيث الكم، ولكن مـــن حيث الكيف فتكون بذلك السبب الحديث في المباعدة بين أسفارنا وتشريدنا من جديـــد، وبالتالي تتحقق حتمية التكرار التاريخي والذي لم يسمح لنا حتى بحماية أنفسنا وتجنب أخطاء الماضي، أو الاستفادة من بعض أحداث التاريخ المصيرية، كحادثة الفأر وسد مأرب علـــى سبيل المثال، وما وصل إليه الشاعر جاء من متن المعاناة وبراكين الواقع، لأن أرض الشاعر

(*) تم العثور على القصيدة لاحقاً

كانت حرماً مقدَّساً وهي أرض لم ترتضِ فوقها اثماً وظلماً وجوراً وجهلاً وعسفاً، ولا تقبل عارا...

كان الشاعر فيلسوفاً كبيراً، كان الشاعر سجيناً في وطنه، وكانت أشعاره سجينة أيامه، فلو أنطلق في أرض خارج الأرض، وفي أمة غير الأمة، وفي ساحة غير الساحة،وتحت ظل راية غير تلك الراية التي حيكت من كل شمس ثم أضحت كفناً للحق، في أمة غير الأمة التي جثى الرفض بها وأذعنا، وفي ساحة غير الساحة التي فشى السوء بها واستعلنا، ولو خرج الفضول من موطنه كما خرج أحمد مطر وكما فعل نزار قباني، وكما فعل غيره وهم كثير لوجد من وسائل الإعلام التي ترفعه إلى عنان السماء – ولو كان باع ضميره للشيطان لأصبحت فلسفته وأشعاره مترجمة إلى كل لغات الدُّنيا ونحن هنا لا نقول ما لا يحتمل المنطق، الناقد المنصف هو الذي سيتجرد من الأغراض والأهواء ويلج ديوان الفيروزه ولوج القارئ الفائق، القارئ الممتاز، القارئ الفذ، القارئ المتذوق القارئ البصير، القارئ الذي يمتلك كل مقومات الإنصاف، أما أتفق نقد الدنيا في الشعر على أن الشاعر هو الناقد الأول لشعره،ثم القارئ الناقد الفائق أو القارئ للشعر قراءة فائقة، قراءة شامخة، تشمخ في السماوات وبين النجوم؟!

- فما الذي دفعنا لنقول ذلك؟

– دفعنا لذلك ما نراه من تهافت النقاد الكبار الذين في صغر الطفل وإن كبرت أسماؤهم طولاً وعرضاً،صناع الرداءات والفوضى الشعرية، والفوضى الذوقية والتذوقية، ورداءة الأنامل التي لم تعد قادرة على التمييز بين الحرير والرمال، فنطالع أعفن الدواوين وأسخفها وقد جمعت بين نجومية أصحابها،وترجمتها إلى عدد من اللغات، وتناولها بالتحليل دكاترة وكتاب كبار... لا يجمع بينهم سوى الأغراض والأهواء، وهذا من أكبر أسباب التردي الراهن إلى جوار الحداثة والبينيوية واللسانية والسريالية والمصطلحات الغريبة وما لشيطان الشعر فيها من ناقة ولا جمل، – وسنتناول في كتاب الأبعاد الفنية في شعر الفضول كيف جمع الفضول بين الثقافات الإنسانية والشعرية، حتى ثقافة السطر الشعري والمفردة اللفظية والمعمار والبناء العضوي والرمز والترومانتيكة والأسطورة والواقعية ... و.... و.... و.... وإنْ شاء الله.

وما يؤلم القلب ويوجع الحرف هو غمط حق الفضول بصفته الشاعر الأكبر في اليمن من الجميع بلا استثناء رغم مرور أكثر من ١٦عاماً على وفاته،ولم يكتب أحد عن شعره – قبل الأن – دراسة أكاديمية وموضوعية ومنهجية، وأقصد شعره عامة دون تحجيم أو توصيف ضيق – فهو شاعر لم يسجن نفسه في الشعر الغنائي فقط، وديوان الفيروزه بين يدي القارئ الفذ ليرتفع في سماء الشعر ولا بأس من القراءة مرة ومرتين وعشر لأن تلك هي الطريقة إلى فهم الأعمال العظيمة واللذة تتضاعف مع استعصاء الاقتحام السهل، لأن

اقتحام الممتنع والمتمنع يعطي شعوراً باللذة والصعود إلى النجوم، وما تناول الفضول وشعره – قبل الآن – غير عبدالعزيز المقالح في دراسة قصيرة له ضمنها قصيدة الفيروزه.. بعنوان: (اختناق الهديل... قراءة أولى في شعر الفضول).. وضمنها المقالح كتابه (من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي) ووعد المقالح بقراءات أخرى ولم يفعل ويكفي منه هذه البادرة الإيجابية الوحيدة خلال عشرين سنه مضت، والعيب الذي في تلك الدارسة أن المقالح حاول توصيف الفضول بالشاعر الغنائي من خلال عدة محاور أولها عنوان الدارسة – اختناق الهديل – وهو ربط بين الشاعر والمطرب اليمني أيوب طارش ثم تناول الشاعر لقصيدة الفيروزه من منظور عاطفي رغم أن القصيدة سياسية وفلسفية ورمزية اعتمدت على الإسقاط وإيحاءات الطبيعة وفلسفة الحب،وبالتالي كبل المقالح الفضول بحبل العاطفية رغماً عن أنفه – وقد مات – ولو كان المقالح قد فعل ذلك لسبب كان الأجدر به أن لا يتناول شعر له طابع واضح من أصله، والاكتفاء بالقصائد الغنائية والعاطفية،وأثبت المقالح أيضاً قصيدتين للفضول يمدح فيها – محمد أحمد النعمان – دون ذكر ذلك للممدوح والاكتفاء بمعاني القصيدتين الحب والوفاء والصدق..ولعل المقالح قد أنصف الفضول بان حكم بالقصيدة التي مطلعها – ((نحن شعب بحمد الله تقدم للوراء..)) – للفضول باعتبارها تحمل سخريته اللاذعة وأسلوبه الساخر الذي تميز به رغم ادعاء الكثيرين وتنازعهم عليها ونحن نضيف دليلاً آخر من ديوان الفيروزه في بيت من الشعر فيه مقومات فيسولوجية العبارة والنص الشعري:

((أبداً – نحن – ورائيون، عمي الطموحات صعوداً ونزولا
لا أماميون نمشي، لنرى مبتغانا ممكناً أم مستحيلا

– فلفظة – نحن ورائيون – تنطبق سيكولوجياً مع عبارة، تقدم للوراء.. أما البردوني فلم ينقش غير صفحة واحدة اضطرارياً – لعلاقة موضوعية بالنشيد الوطني في كتاب (الثقافة والثورة في اليمن)، رغم أن البردوني لم يترك غنا ولا سميناً إلا وعلق فوق صدره أحكاماً وعبارات حنانه طنانة بلغه شعرية آسره سلباً وإيجاباً، رياً أو مذهباً، – وكأن هناك نفوراً بين البردوني والفضول وبين البردوني وديوان الفيروزه، أو أن البردوني يحتاط من إصدار أحكام من منطلق عدائي وخصومة تحت الرماد فيغضب محبوا الفضول، ويبوء البردوني بالخسران أما إن كان الأمر يتوقف عند حقيقة أن البردوني لم يقرأ ديوان الفيروزه بعد – وهذا مستحيل – فالكلام يأخذ أبعاده الجديدة... والفضول يعلن أشواقه وفلسفته الوطنية.

أنا مشتاقٌ لان يلقى الأولى صنعوا الأحزان للناس – الدمارا
أنا مشتاقٌ لأن يصنع لي صانعوا الإصباح من ارضي نهارا

أنـــا مـــشتاق لأن ألقـــى المـــضيئين في النـــاس يـــسيرون جهـــارا
آمـــني الأنفَـــس، لا يتخـــذون مـــن الـــصمت قناعـــاً أو ســـتارا
أنـــا مـــشتاق لأن تلقـــى الفـــضيلة في أرضـــي لهـــا أهـــلاً ودارا
أن ألاقـــي الخـــير لا يـــأوي إلى مخباءٍ فيهـــا ولا ينـــزلَ غـــارَا
وأرى اختيـــار الـــصَّدقِ في النـــاس مـــن يـــصنع للنـــاسِ القـــرارا
لا الذي جاء على مـــتن معاناهـــا أو جـــاء للـــزور اختيـــارا

*****

– فلم يغادر الشاعر أرض الوطن إلى أرض غيرها، بل ظل فيها بأضعف الإيمان، ظل يشتاق ويشتاق، يشتاق لأن يلقى الذين صنعوا الأحزان للناس الدمارا، لأنهم غير جديرين بالبقاء، وما أكثر الأحزان في حياة الناس

ظل الشاعر يحلم بالإصباح والضوء ظل يشتاق إلى المضيئين بالحرية.

ولكن لأن صانعي الإصباح في الأرض، قد اختفوا من الزمن الـرديء، فالـشاعر يشتاق لأن يلقى المضيئين في الناس وهم يسيرون جهاراً دون خوف أو تكتيم.

فكان ذلك من هواجس الشاعر التي ظلت تؤرقه كثيراً، لأن ما حدث كـان نتـاج مرحلة سياسية اعتمدت نكران الجميل والإلغاء للأجمل، وهذا الواقع يقود إلى تلك المثالية التي أصبحت هي الحلم الأجمل في ذهن الشاعر المناضل، وهي أحلام بديمقراطيـة بوقـت مبكر، ولقد سادت فترة من الفترات ما تسمى بالصمت وحـبس الألـسن في الأفـواه، فأضحى الصمت قناعاً وستاراً يحجب الحقائق التي يجب أن تقال، ويـسترسل الـشاعر في قصيدته من خلال المقاطع السابقة في بث شوقه لأن يأمن المضيئون على أنفسهم إن تحركوا بالحقيقة، مؤكداً على أنه في شوق شديد لأن تلقى الفضيلة والأخلاق في أرضه أهلاً وداراً لها،وهي معان سياسية واجتماعية واقتصادية،ودعوة إلى أن يكون الخير واضحاً للناس، فلا يختبئ في السراديب والمغارات،ومشتاق لأن يرى الناس وهم يصدقون مـع أنفـسهم في اختيارهم للقادرين على اتخاذ القرارات التي تتعلق بمصير الأمة وحرية وثقافة وفكر الأمة،.. وإلى نهاية المقطع السابق يتبدى لنا الشاعر،.. وهو يطالب بالديمقراطية قبل أن تكون بأكثر من عشر سنوات، وهذا يدل على أبعاد موهبة الشاعر السياسية الفلسفية، وكان يعلم أن الديمقراطية ستكون اختيارين أما اختيار الصدق أو اختيار الزور من جانب الناس وهـي مرحلة وعي جمعي بين الناس والشاعر يقرأ ضمير الحياة والأيام للناس، ويستنطق الـزمن، ويفلسف ويخترق أحداث التاريخ لقراءتها قراءة ناقدة بصيرة بنقد التاريخ وتقلب الأيـام، وبذلك نرى الشاعر ديمقراطياً من أعلى شعر رأسه وحتى أخمص قدميه، وهذا ينفي مزاعم

بعض الهراطقه والمجازفين والحمقى بأن الشاعر كان ماركسياً أو اشتراكياً أو يسارياً قليلاً أو كثيراً، فلم يكن الماركسيون والاشتراكيون ديمقراطيين أبداً منذ نشأ مذهبهم وقويت شوكتهم عام ١٩١٧م وحتى انتحار اشتراكيتهم العلمية تحت أقدام البروسترويكا بعد أقل من ٧٤ عاماً، ولعل التصفيات الدموية وحمامات الدم التي استرفتها اشتراكية قادة الحزب سابقاً تنفي ديمقراطيتهم المزعومة، ولذلك نخلص إلى القول التالي: ما أبعد بين ديمقراطية الفضول الشعرية،ودموية الاشتراكية البلشفيه في القوقاز ...، وسنجد في المقطع التالي شوقاً وأنيناً لنظام وقانون وتشريع ينفي بل وينسف ما يقال عن اشتراكية الفضول...

إنَّ شوقاً عشتُ أحياهُ أَنينا..
أن أرى ظُلْمَاً عتيداً فاجراً
بتروا منهُ شمالاً، أو يميناً
أَنْ أرى وَغَداً أثيماً – لا يُرَى
كفَّ عن فحشاه – عجزاً مهينا
أن أُلاقي شاهدَ زور قد شَهدَتْ
إثْمَهُ ساحةُ عدل وأُدَينا.
أنْ أرى سارقَ مَجْد، حيثما
تكشفُ الأوحالُ، مَطْمُوْراً دَفِيناَ

****

أَن أُلاقي فاسقَاً، لم يصنع له الافكُ..
والزُّور، فضلاً وَدينا
أَنْ أُلاقي أَبْلَهَاً، ما شهدتْ
كذْبَةٌ أن له عقلاً رَصينا
أَن أرى مستهتراً بالحق،
والناس..
لم يُنَصَّب على الناسِ
أمينا..
أن أرى مشْنَقة، في حَبلها
رأسُ شنَّاق تولاها سنينَا
أن أُلاقي ظَّالماً ليس يَرَى الطعنَ
في آثامه ....
ظلماً مَبِينا

أن أُلاقي النَاسَ، لا يبقى بها،
عشقُها للسَّوط
إلى السوط حنينا

كان ذلك هو المقطع الشعري الذي نصفع به من يستقطب انتماءات الناس وهم أموات، وبقدر ما يبعد النص الشعري الفضول عن ساحة الماركسية والاشتراكية بقدر ما يبعده عن الجماعات الإسلامية المتطرفة... وهنا فقط نستطيع القول بأن المكان الأجمل والممتاز والأحق به الفضول هو حزبية الوطن والأرض والإنسان والمعرفة والحرية والثقافة والتطور والعدل... حزبية حزب الأحزاب وهو الوطن، فليس في وسع شاعر محب لوطنه وعاشق لترابه وأرضه ولكل ما فيه من جمال الطبيعة أن يكون له انتماء إلى غير الحب والعشق والوطن، والعدل، فالشوق الذي يئن الشاعر من وطأته أن يرى ظلماً أو ظالماً وقد استكان واستسلم للعدل، أن ينتصر العدل على الظلم، وما أنطق الشاعر غير طول الظلم وامتداد أيامه / – ولعل فلسفة الشاعر ومعايشته للواقع والتغلغل في خفاياه أنطقه بهذه الأشواق.

* أن يرى لصاً / عتيداً فاجراً / وقد بتروا منه شمالاً أو يميناً، وهو لا يطلب قطع يد لص صغير بل اللص العتيد الفاجر، الذي يئن العباد من لصوصيته وحتى تستقيم موازين العدل والحق في وسط ذلك الظلم الجاثم فوق الصدور والقبور ويطالعنا الشاعر بثقافته الدينية، وضرورة تطبيق الشريعة، وهو أمر يناقض بعض مبادئ الاشتراكيين، فهم يرون في بتر الأعضاء وحشية، ولعل – عتيداً فاجراً ظهر فساده في البر والبحر يستحق أكثر من ذلك وأبيات أحمد مطر التالية تستحق الرصد هنا من قصيدته الشهيرة ما أصعب الكلام (في رثاء ناجي العلي):

أَمنَ التأدب أن أقول لقاتلي عذراً إذا جرحت يديك دمائي
أأقول للص الذي يسطو على كينونتي شكراً على الغائي
أأقول للمأبون حين ركوعه حرماً، وأمسح ظهره بثنائي
أأقول للكلب العقور تأدباً دغدغ بنابك يا أخي أشلائي
أأقول للقوّاد يا صديقُ أو أدعو البغي بمريم العذراء
.....

* أن يرى وغداً أثيماً لا يكف عن الفحشاء والآثام وقد أصبح عاجزاً مهيناً مخذولاً وتلك صورة لما في نفس الشاعر تجاه الأوغاد والآثمين الذين لا يكفُّون عن الفحشاء.

* أن يلاقي الشاعر شاهد زور – وما أكثرهم – وقد أصبح مفضوحاً ومداناً بإثمه الذي طال مداه ... وكما قال أحمد مطر بعد ذلك:

عشرون عاماً والقضاء منزه إلا من الأغراض والأهواء

– وأن يرى سارق مجد، ومناضل كذاب، ومغتصب لحقوق الآخرين وقد دفن تحت أوحال كثيرة فغدا مطموراً فيها، ومشتاق لأن يلاقي فاسقاً لم يصنع له الإفك والكذب والبهتان والادعاء.. فضلاً وديناً، فلا يصبح الفاسق فاضلاً بين عشية وضحاها، ويتابع الشاعر تصوير الواقع، وهو يشتاق إلى غيره، ويشتاق أن لا يشهد الكذب أن للأبله عقلاً رصيناً، وأن لا يرى مستهتراً – بالحقائق والناس – وقد نصب فيهم أميناً.. وأن يرى شناق على مشنقة قد تولاها سنينا – رمزاً للحرية والخلاص – وأن يلاقي ظالماً ديمقراطياً لا يرى في نقده حرج أو ظلم وأن يلاقي الناس ولم يبق فيها عشقاً للسوط والذل والعبودية، ولعل الأبيات التي في المقطع السابق لوحة بديعة بالصور الشعرية العصرية للواقع الإنساني، وهي خلاصة لأفكار طالما نادى بها الإسلام والأديان وحركات التحرر العالمية، ولعل في الأبيات صورة تجسد التزييف الذي عليه الواقع اللعين، ورغبة الشاعر الفيلسوف بالخلاص وقد قام باستلهام المبادئ الدينية ولإنسانية وإسقاطها على الواقع العنيف بمرراته وقسوته، وبأسلوب ساخر وقد استعان الشاعر بموروث الثقافة العربية، بأسلوب شعري وقالب بديع جاء على متن المعاناة، وبتلك الأبيات والمقاطع الشعرية يؤكد لنا الشاعر ديمقراطيته، ورغبته في إصلاح الواقع بطريقة واضحة وغير مبهمة، بل بطريقة المواجهة والنقد البناء والهادف وليس النقد الهدام و الذي يبطن العمالة والولاء لغير الوطن، ولا يوجد شاعر في تاريخ الشعر السياسي والإنساني، قد عمل على المواجهة والمكاشفة والمصارحة رغبة في تحقيق العدالة الإجتماعيه والوطنية والإنسانية والاقتصادية، دون الانطواء على أي أغراض أو أهواء، بدليل أن الشاعر عبدالله عبد الوهاب نعمان قد نقش على جدار التاريخ و بأحرف من نور ونار وحب تلك الأناشيد الوطنية التي رددتها الدنيا والناس والجبال والسهول والوديان، وملأت بها الدنيا ابتساماً، وباركت الناس تحت السماوات ووهبتهم الرشد والصلاح.

ولو عدنا إلى استقراء تلك الأناشيد لوجدنا وهو في نفس الوقت الذي ينثر الورد والرند والريش في القلوب لحب الوطن ومجد وسماء وحضارة ووحدة الوطن، فإنه لا ينفي ضرورة أن يكون الإنسان والمواطن صالحاً ومحاوراً ومفكراً وناقداً وفيلسوفاً وحراً وكريماً ولا يقبل الذل أو الهوان، فيعطي الشاعر للمواطن والإنسان من أبناء الوطن شمعة يضئ بها طريقهم فلا يبق جاهلاً غير مدرك لما يدور في ضمير و أحشاء الوطن من بثور وأشواك، فحيثما يكون النقد البناء، والنصح والإرشاد، والديمقراطية الممتازة، والوقوف بوجه الظالم يكون أيضاً العمل من أجل حرية الوطن وزيادة جرعات الولاء الوطني، فلا يحق للإنسان أن يكون خائناً لوطنه لعجزه عن الوقوف بوجه الظالمين لأن استبدال حب الوطن بالخيانة يصنع الدمار وليس العمار والحرية، ويخلص الشاعر إلى تأكيد حقيقة هامة جداً وهي

تتلخص في أنه حيثما كان حب الوطن قوياً جارفاً وجب أن يكون الوقوف أمام الظلم والديكتاتورية قوياً نابعاً من وعي وإدراك – وليس جهلاً – لأن النقد القائم على أعمدة حب الوطن الأزلية من شأنه رفع قوة النقد المنطقي إلى أعلى درجات القداسة الإنسانية للأوطان، والحق يقال إن الإنسان يقف عاجزاً أمام تلك النصوص الشعرية للشاعر والتي يعطي فيها للوطن من الحب ما لم يعطه شاعر من قبل، ومادام الشاعر قد فعل ذلك، أفلا يحق له أن يفلسف الوطن أو الأوطان التي عشقها؟؟ إلا يحق له أن يتغنى بحب الوطن؟ أفلا يحق له أن يناقش وينتقد ويحلل ويفلسف قضايا الوطن؟ لأن ذلك هو العتاب وتلك هي فلسفة عتاب الوطن ...

((قد تصادقتُ مع الضرَّاء في أرضي
وزاملتُ أساها
إنها أرضي وقد جغرفتُها
في أحاسيسي وأحببت ثراها))

وبتلك الفلسفة استطاع الشاعر أن يخترق الحواجز والسدود ليصل إلى جوهر الفساد من خلال طريقين، الأول أنه قد تصادق مع (الضراء) فوق أرض الوطن من حيث إفادة معنى طول مكوث الفساد والظلم الذي عشعش فأصبح غير قادر على التخلص منه، ومزاملة الأسى الطويل وليل المعاناة وكأنه جزء من كينونة الشاعر، عبثاً يحاول الخلاص مما هو فيه، أما الطريق الثاني فإفادة معنى آخر خلاصته أن الشاعر يصادق الضراء والفساد الظلم اضطراراً أو كسياسة التقية التي تجيز ذلك.

والشاعر ليس عسكرياً بل فيلسوفاً للحياة، يقرأ ويفلسف الحياة والناس والأرض والعلاقات بين الأشياء ويتركها للناس كي يصلوا إلى الحقيقة بأنفسهم ولتكون تلك الفلسفة دليلاً لهم، وعلى ذلك نخلص إلى تأكيد أن الشاعر وصل إلى تقرير أو إقرار حقيقة هامة جداً، وهي أن، حب الوطن لا يجب أن يتعارض مع ما يحدث فوق أرض الوطن، لأن حب الوطن يدفعك إلى أن تكون واعياً للواقع مدركاً للأبعاد بين الأشياء – فلا يجعلك حب الوطن أن تقع في منْزلق الأضرار بالوطن والانزلاق إلى طريق العمالة والخيانة والغدر، لأن الوقوع في هذه الأخطاء يذهب بالإنسان بعيداً عن حب الوطن وقد مهد الشاعر كي لا يقع الناس في تلك الأخطاء بأن طرح ضرورة أن يتقبل الحاكم النقد البناء والهادف لأن القضية تخص الوطن وكل أبنائه، وعلى هذا يكون الفضول استطاع أن يجسد حقيقة المواطن الصالح بموهبته التي أضاءت سماوات النفوس النبيلة المحبة للأوطان،وفي نفس الوقت أوجد سياسة الديمقراطية والشورى، والنقد وتقبل الرأي والرأي الآخر ورفض الإلغاء للآخرين تحت أي مبرر، فعل ذلك وهو وتحت مؤثرات وطنية قوية رضعها الشاعر مع أول إطلالة لضوء صباح الطفولة من صدور ضاحات الجبال.

ولا شك أن في المقطع التالي سيجد القارئ الحبيب المحب خلاصة مـا دار في آفـاق نفس شاعرنا:

أي صَـقعٍ فيـهِ ألقـى مَأمَنَـا لا أُلاقـي فيـه يومـاً حزنـاً؟
مالهـا الآم أرضـي كلـها لم تَجـد غـيرَ فـؤادي وطنـاً
ولماذا أنا وحدي جئتُ بالحِسّ بها مُمتَحَنَا؟
ومعانـاتي بهـا.. أن لـيس لي قـدرة تقـدرُ ألاّ تَحْزنـا

***

أينَ في أرضـي ألاقـي مُعجِـزاً تحصدُ الشوكَ، وتبقي السوسنَا
ومـتى ألقـى عليهـا فَاضِـلاً شاغلاً بالصدق.. فيهـا الألسُنَا

وكي ندلل على روعة فلسفة العتاب في شعر الفضول للوطن نطلب من القـارئ أن يتابع معنا قراءة هذه الأبيات الشعرية التي نظمها الشاعر في نشيده الشهير (يا سمـاوات بلادي باركينا) ثم العودة إلى قراءة المقطع السابق يجد القارئ فرصة للمقارنة بـين حـب الوطن الذي غرسه الشاعر في وجدان الأمة ثم بين النقد البناء والهادف والذي لا يحتوي إلا على حب الوطن لكن بطريقة متألمة إلى ما صار إليه الحال – آنذاك – ..... الخ: –

يا رحاب المجد مـا روضـنا فيك أو مسكننا طـول عنـاء
هاك منا قسماً يـا أرضـنا خالداً في (شـدة أوفي رخـاء)
لن يَلاَقي البغي إلا رفـضنا رفض جبار شـريف الكبريـاء

ولعل من الأنصاف القول بأن عبد العزيز المقالح هو الناقد الوحيد الذي (حاول) ان ينصف الفضول في دراسته اختناق الهديل.. حيث قال: ((وعبد الله عبد الوهاب لم يتوقف عن كتابة القصيدة الغنائية، وإن كان قد توقف عن الكتابة النثرية إلا أنه لم يكن ينشر شيئاً من تلك القصائد مكتفياً بهذه الأغاني لعله بكلمات الحب الفياضة يستطيع أن يكبل الموت ويحاصر التخلف والكراهية، لكنه إن كان قد نجح في محاصرة التخلف والكراهية فإنـه لم ينجح في محاصرة الموت ولا حتى في تأخير موعده)).

ولعله من الجدير ذكره عبارتين أورد المقالح الأولى منها بعد قصيده للشاعر يتحدث فيها عن صوت الوفاء.. قائلاً: ((يغفر لي القارئ بعد أن يصل إلى البيت الأخير في القصيدة أي مبالغة للإحتفاء بهذه القصيدة النادرة في شعرنا الحديث...)) أما العبارة الثانية فلـو لم يقل المقالح غيرها لكان قد أنصف الفضول إنصافاً كبيراً حيث قال: ((هذه بعض النماذج لشعر الفضول الساخر، وهناك نماذج عديدة تصور بعمق ومرارة أكبر أبعاد المأساة الـتي نزلت بهذا الوطن وسحقت أبناءه و الشعر الساخر الذي تركه الفضول يثير حشداً هـائلاً من الأفكار والملاحظات التي لا تتسع لها سوى صدر الدراسات المعمقة وهـي دراسـات

ينتظر أن يقوم بها جيل جديد من الدارسين الشبان الأكفاء))[١].

وبذلك يكون المقالح قد أنصف الفضول بقوة المنطق والزمن، وبالتالي نقل صورة الرجل الذي ينظر إلى المستقبل، باعتبار أن إنصاف الفضول من مهمات الأجيال ومن دلالات المستقبل.

أما عبدالله البردوني فمن خلال متابعتنا لما يكتب من كتب ومقالات في الدوريات والصحف والمقابلات والمسابقات الثقافية فإنه لم يترك شاعراً قديماً أو حديثاً كبيراً أو صغيراً شاعراً او شويعراً إلا وقلده عدداً من المصطلحات والأحكام والألقاب، ولو قلبنا ما كتبه لوجدنا أنه قد كتب بعمق يستحق وبعمق لا يستحق، – عموماً هذه أمور خاصة بالبردوني لكن ا لمهم بالنسبة لنا القول له، – أما حان الوقت لإنصاف الفضول؟! وأنت الذي تقول دوماً بأن الجودة مع القلة أفضل من الكثرة بدون جودة؟!، أم أن لك مقاييس لم نعلم بها بعد؟! أو أنها الخصومة والعداوة واللدادة بين أبناء الجيل الواحد والمهنة الواحدة، ونذكر هنا – كما سبق وقلنا – بأن البردوني لم يكتب عن الفضول غير صفحة واحدة في كتابه (الثقافة والثورة في اليمن).. اضطراراً.

استدراك حول موقف عبدالله البردوني من الفضول:-

ورد في كتاب ذكرى أربعينية الشاعر منقولاً عن كتاب السيد أحمد محمد الشامي (من الأدب اليمني... قال فيه: ((أظن أن الكثير من أدباء العرب في الحجاز ومصر والكويت.. بل أدباء اليمن الذين تيسر لهم قراءة الرحلة البردونية كانوا يتوقعوه أن يسمعوا شيئاً عن شاعرهم عبدالله عبد الوهاب نعمان صاحب الخرائد في كل فن من فنون الشعر.. لقد غنى، وبكى، ومدح أروع المدائح، وهجا أقذع الهجاء، وقال شعراً سياسياً على مستوى رفيع تناقلته المجالس،وتداولته الألسن، سراً حين تسوء الظروف وجهراً إذا أمكن الجهر ....)).

ولعلّ ما ذكره الأستاذ أحمد محمد الشامي في كتابه من الأدب اليمني منتقداً عبدالله البردوني لاغفاله الفضول في كتابه الشهير (رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه)، على اعتبار الإنصاف للأفذاذ من الشعراء و الموهوبين وقد حدثت معركة أدبية بين الشامي والبردوني حول ذلك الكتاب وحول قضايا كثيرة، ويكفي هنا التأكيد على حقيقة واحدة تتلخص بأن تجاهل البردوني للفضول ليس تجاهلاً عفوياً بل تجاهلاً مقصوداً بذاته، مع بقاء الأسباب غائبة حتى الآن.

أم إن حظ الفضول سيبقى معلقاً على الأيام والألسنه:

وطني أرحني من سؤالٍ حائرٍ ... متقادمٍ، قد شاب فوقَ لساني
ما للحقيقة فيك لا يبدو لها ... ألَقٌ ... وما للزور في لمعانِ

(١) من أغوار الخفاء / المقالح.

الباب الرابع عشر

الفضول: (ثقافته من شعره)

ما تركه الشاعر هي ثقافة الثقافات، فالشعر الممتاز دليل الثقافة الممتازة، وقد تكون الحياة بكل ما فيها من تراث ومحطات ثابتة ومتنقلة للثقافة، والإنسان عامة يدرك أن اليوم من العمر ورصيد الأيام فيه ملامح الثقافة وتحصيل الزاد المعرفي، وقد تكون من الثقافة أبسط المواقف الحياتية اليومية، وقديماً قيل ((من ولد قبلك بيوم أعرف منك بسنه))... وهناك من الشعراء من يصعب على الدارس استنطاق مراحل حياتهم وبالتالي مراحل الثقافة و التثقيف والمثاقفة.. ومن هؤلاء الشاعر عبدالله عبد الوهاب نعمان فلا نكاد نعرف من حياته سوى أنه بدأ التعليم على الطريقة المعروفة بقراءة القرآن على يد أستاذه وأبن عمه أحمد محمد النعمان، ثم ظهور بوادر تفوقه المعرفي المبكرة مثله مثل الأستاذ النعمان.. فرحل إلى صنعاء وتعلم في مساجدها ثم أنتقل إلى زبيد وأخذ العلم على مشايخها في تهامة، ولا نعلم نوعية المعارف التي تلقاها الشاعر هناك، فهي لا تخرج عن تلك العلوم اللغوية والدينية والفقهية والعربية من الملح والأراجيز والألفيات ومؤلفات النجوم والفقه واستظهارها، مع الاستدلال عليها من القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية الشريفة، ولا شك أن ذلك التعليم كان له أثره القوي في تأسيس متين لموهبته الشعرية، وفجأة نجد أنفسنا معه في تعز عام ١٩٤٤م، مع كوكبة من الشباب المستنير – كما أسلفنا – ويعمل مدرساً في مدرسة الأحمدية بتعز والتي أنشأها الأمير أحمد في تعز.. ثم هروبه إلى عدن وعمله بالتدريس في المراحل الأولى، وقد عبر عن عدم رضاه عن ذلك حين خرج من الفصل المدرسي إلى ساحة المدرسة وهو يقول عن مدير المدرسة الذي كان يعمد إلى مضايقتهم بجعلهم يقومون بتعليم أطفال صغار فقال (أنا يخلينا أعلم أولاد زغار وأنا قادر على تعليمه وتعليم أكبر منه)، فكانت هذه العبارة تحمل ثقة كبيرة في النفس وتدل على أن الشاعر كان قد أكتسب ثقافة ممتازة من خلال رحلته السابقة ووجوده في عدن التي كانت نافذة ثقافية في اليمن بتواصلها مع بلاد الشام ومصر وتوفر الكتب والمكتبات التجارية،والتي بدأت تصل إليها الكتب المطبوعة في مصر والشام من كتب التراث العربي فلا شك أن الفضول كان قد عمل التهام كتب التراث التهاماً، فشعره يفيض بذلك وسنتطرق إليه... وقد كان لصحفية الفضول دوراً أكبر في توسيع العمل المعرفي والثقافي في الشاعر ولاشك انه لم يضطلع بتلك المهمة

كاملة إلا عن جدارة، فكان هو الشخص الوحيد الذي ينجز الصحيفة كاملة ما بين أبواب شعرية ونثرية وخطابات وتعليقات وأخبار وسخرية ومواجهات وتعقيبات وإعداد وطبع ولاتوزيع .... ألخ ....

ويذكر الشاعر (عثمان أبو ماهر) في مقدمة ديوان الفيروزه قائلاً:

((ولكي لا نذهب في الأبحار اللغوي بعيداً ...

يمكننا القول أن لغة هذا الشاعر لم تأت من فراغ وإنما جاءت من أعماق متشبع بالقرآن ولغة القرآن بل وتاريخه أيضاً، وبذلك كون منه البنية الإبداعية الشعرية، والبنية الذهنية والأدبية ...)).

كأنما الله أعطانا هدايته

به، وأهداه ما صمنا وصلينا .... أ.هـ.

ولقد توفرت في الفضول أسلحة العطاء الأدبي والشعري والمعرفي والوطني فأمتلك الموهبة الممتازة والمؤهلة وأمتلك الثقافة الأصيلة – كما سنفصل هنا وفي كتاب الأبعاد الفنية في شعر الفضول.. واختلفت الرؤية والهدف من خلال البعد الوطني الذي ترعرع وهو ينمو بين جنبيه.. وظل ينمو فأضحى الوطن بتجسد في كل مفردات الشاعر وهي تجارب شعورية عنيفة بل يمكن القول إنها تجربة شعورية قوية.. ظلت تمد الشاعر بطاقة وطنية هائلة فجعل الحب رمزاً للوطن والإنسان، وبعث الحياة في الطبيعة لفلسفته في الحب، وأنطق الحب لفلسفة الطبيعة.. وكل تلك الفلسفات نبعت من ثقافة أصيلة، ومرجعية لغوية مقتدرة، ومن حس نقدي بديع.. كان يعرف متى يقول؟ وماذا يقول؟ وأين يضع اللفظ؟ وكأن اللفظ يقول له:

ضعني هناك أو هنا.. لا، لا ... إن مكاني الممتاز هناك ...!

وكانت الأرض اليمنية هي اللحن البديع وهي الجبال وهي السهول وهي الجغرافيا التي جغرفها حب الشاعر لها، وامتياز الشاعر فيها:

* كلّما قلت :

((انتهى السوء عليها))
تبدّى هَرَمُ السُّوءِ شبابا
إنها أرضي وقد جغرفها
حُبُّها فيَّ جبالاً ورحابا..
سوف أمضي فوقها سلسبيلاً
وسأحياها، عماراً أو خرابا.

تلك ثقافة فلسفة الوطن، ثقافة الانتماء والولاء والتضحية والنضال والطموح والتحدي وتكتمل الثقافة الوطنية كهذا:

قد تصَادَقْتُ مع الصَّراء في أرضي، وزاملتُ أسَاهَا
هذه الأرض التي جغرفتها في أحاسيسي، وأحببت ثراها
هذه الأرض، وما في وجهها من أسىً لم يُبل أيامي سواها
فوقها الآثام لم يذهب بها وجعي منها، ولا دمعي محاها
لم أجد أمناً من الحزن بها كلما أخفيت أعماقي أتاها
خانها من لو اتى في نفسه أنفٌ أو شرفٌ كان نهاها

****

إن من يقرأ شعر الفضول وبخاصة ديوان الفيروزه... تطالعه عدد من الثقافات الممتازة تاريخياً في الفكر وفي الشعر وفي العقل العربي، وهي ثقافات اختزلتها الأمة العربية بقراءتها لثقافات الأمم والشعوب الهندية،والإغريقية والفارسية واليونانية... قرأ الفضول الثقافة العربية الأصيلة قراءة بصيرة وعميقة، قراءة تميزت بحاسة راداريه جديرة بالتقدير والإكبار والإجلال، يتجلى ذلك من خلال توظيفه لمعلقات الشعر الجاهلي في قضايا سياسية معاصرة في قالب ساخر وقاتل ولاذع وبأسلوب شعري ماهر في سنوات مبكره من رحلته الثقافية في مدينة عدن التي كانت آنذاك النافذة الوحيدة أو الرئة الوحيدة للثقافة في اليمن فكانت صحيفة الفضول الساخرة عن موهبة جديرة بالتقدير... فاعتبر النقاد الفضول رائد الأدب الساخر في اليمن، ولأن السخرية كانت موهبة في ذات ونفس الفضول وشعره في صحيفة الفضول ثم في ديوان الفيروزه – راجع باب الفضول الساخر.

ولعل أقرب الأبواب التي يمكن أن ندخل من خلالها إلى ثقافة الفضول العربية الأصيلة.. هو باب ديوان الفيروزه وأشعاره العاطفية عامةً..

وعندما نعرف أن الفضول لم تتحقق له فرصة دراسيه مثلاً – خارج اليمن، كما هو حال الزبيري مثلاً... سندرك أنه لا مناص من فتح أبواب قصائد الفضول للإطلاع على قدرة الرجل على تحصيل الثقافات، – فنجد البناء الشعري والمعمار الشعري والتجارب الشعورية والمفردات التي نقلت إلينا تلك التجارب نقلاً كاملاً وأميناً،.. ولعل الكثيرين قد وقفوا بصعوبة أمام البوابة اللغوية والمعمار الشعري للفضول، فأصابتهم الحيرة ولعب بهم اليأس كي لا يلجوا مدينة الفضول الشعرية، – لأن ديوان الفيروزه بالذات، – امتاز بمعماره الشعري الذي يوحي بالحداثة الشعرية في طريقة كتابة القصيدة والأبيات،. وفي الحقيقة أن الأبيات والقصائد كتبت بطريقة القائية ١٠٠% وأن لغة الشاعر تقف فريدة

بين كل اللغات التي أستخدمها شعراء العصر الحديث، – منذ محمود سامي البارودي، ولقد قلبنا كثيراً من الدواوين، فوجدنا أن الفضول أخذ لنفسه قوالب لفظية خاصة به في إطارها العام عربية أصيلة، وفي تفاصيلها وجزئياتها روح العصر الحديث بأقوى لغة ومفاهيم وقضايا وتجسيد رائع واختزال كل مفاهيم الشعر منذ الطفولة الإنسانية في الآداب وحتى اليوم فتضمن شعره العاطفي والسياسي والفلسفي كل المعالم التي جعلتها المذاهب الأدبية روحها وريحانها ورحيق الحضارات والعصور، حيث لم يكتف بمحاكاة الشعر العربي من حيث الغنائية واللغة والازدهار بل أخذ من الشعر العربي والموروث الحضاري خلاصة الروح والقوة والمدد ومزج كل ذلك بقدرة وامتداد وموهبة وروح العصر وعطر به القرن العشرين، فكان أروع الكلاسيكيين العرب على الإطلاق حيث استلهم كل إيجابيات الشعر الإنساني، من المتنبي وأيضاً أخذ روح الرومانتيكية الوطنية – إن جاز التعبير – وبالتالي اخترق ميدان الواقعية بقوة فأستلهم الرمز من خلال توظيف كل جزئيات الطبيعة – راجع باب فلسفة الطبيعة –. كأعظم شاعر في تاريخ اللغة العربية أعطى حياة وحركة وانفعالاً ومزجها بنفسه ومزج نفسه بها، – وبالتالي تفوق على الشاعر العربي الأوحد للطبيعة الحية ابن الرومي ومحاولات البحتري، وحسية ابن خفاجة وحمدونه الأندلسية وتكلف محمود سامي البارودي حديثاً، – وجعل من الطبيعة رموزاً حية لإسقاطها على الواقع.. فأنطق الضحى والشمس الشروق والفجر، وجعل من السوء والآثام والدمامات والعجز من الأحقاد والبراثن رموزاً حية، وبذلك أخذ الراية من أبرز النجوم اللامعة في سماء شعر الرمزية ولم يكتف بذلك بل استلهم روح التاريخ الإسلامي لاستنطاق الواقع ولعصرنة العصور،.. أختزل التاريخ والحضارات والثقافات والمعارف الإنسانية، وجعل الحكمة تتفجر في أبياته وقصائده – وسنرى ذلك عما قليل – يقف شعر أبي الشمقمق على رأس ثقافته الشعرية الساخرة، ورضع تلقائية الشاعر الجاهلي و حوليات زهير بن أبي سلمى، توقف أمام الكثير من الدواوين التي أذابت رؤاه النقدية فطاحله الشعراء الفلاسفة والفلاسفة الشعراء والحكماء فأخذ فلسفة المعري وابحاره في الحياة، و أقتنص ثقافة وشاعرية المتنبي وأقتبس روح وإشراقية أبي تمام ...

ولعل أشعار الفضول أكثر قدرة على أن تتحدث عن ثقافته، ولذلك فاعتماده على موهبته وثقافته وأهدافه جعلته يختزل كل الثقافات – العالمية – أما كيف؟ فهكذا؟

معلوم أن ثقافة الغرب وأوروبا قامت على محاكاة الآداب اليونانية والإغريقية وغيرها هذه في العصر الحديث طبعاً،.. ومعلوم أن الثقافة العربية منذ القرون الهجرية الأولى قد اختزلت كل الثقافات التي كانت قائمة فيما حولها في الأمم العديدة وإذن فالنتيجة الحتمية

أن ما في الثقافة الأوربية من أسس في العصر الحديث – مع استبعاد العصر – هو بذور تلك الثقافات اليونانية والإغريقية والفارسية...الخ.. والتي قد اعتصرتها الثقافة العربية في قالب مشرق بالثقافة الإسلامية، وبالتالي فلم يذهب الفضول بعيداً عن ثقافات العصر الحديث.. لكنه إنما ذهب إلى الأصالة والعراقة والنقاء، ولا شك أن الفضول قد استعان ببعض القوالب والتراكيب اللغوية الجاهزة، – لكنَّه أعطاها أبعاداً حديثة وممتازة تتحدث عن موهبة فريدة تعرف ماذا تريد أن تقول، ولعل أشعار الفضول وهذه شهادة للتاريخ والحقيقة بين أيدي النقاد، وأقول إن أشعار الفيروزه بالذات وأشعار الفضول عامة تمتلك ميزة لم تتوفر لدى شاعر عربي على الإطلاق وخاصة في العصر الحديث وهذه الميزة تتمثل في الترابط المتين والقوي بين مفردات البيت الشعري الواحد.. ترابطاً كأنه يقول أنا لا أكون هنا إلا بذاك، وذاك يقود إلى هذا.

هكذا تبدو البيت الواحد وكأنها هرم من أهرام العمالقة ومعجزات اللدينا إن الفضول أختزل – مع موهبته الشعرية – كل الثقافات النقدية فلا نجد إلا أروع ما يقال وأبدع ما يحفظ وأجمل ما يسمع وأجل ما يفهم في تجربة شعورية بل تجارب كاملة الشعور ومتدفقة المعاني بديعة الألفاظ قوية الإيحاءات عميقة التصوير ساحرة للشعور، وساخرة من الواقع، مفلسفة للحياة، محللة للنفوس، كاملة المعمار .... ولا عيب فيها سوى أنها أعظم الشعر والضوء ...

إنما أطلبُ ضوءاً من سماء ومن نجم بها قد نجما
من نجيب كان في الغيب خبيئاً وفي جفن الليالي حلما
ضوءه الصدق لم يتركه لغزاً مبهما
من فتىً راسخ النفس على منكبية المجد يبني هرما
من سموٍ، كلما سرت إليه صرت فيه أكرما

وأقوى تعبير يمكن الاعتماد عليه لتأكيده قوة الترابط اللفظي والمعنوي والروحي والمعماري على مستوى البيت وعلى مستوى القصيدة التي قد تطول وقد تتعدد قوافيها على عدد أصابع اليد الواحدة.. وعلى تأكيد معرفة الفضول لأسرار اللغة والمعاني إلى الحد الذي لا يشبهه بإدراك المعاني إلا ذلك المستحيل المتمثل في الأعمى الذي يثقب لؤلؤاً.. ورغم استحالة هذه فقد كان يسيراً على الفضول هكذا:

نفسه شيدها الصدق فبنيانه النفسي مشدود وثيق
ليس هشاً، كلما هز.. بدت فيه للعين شروخٌ وشقوقُ

وبه نهرٌ على ما حوله من مرابي الخـــير في الأرض دفـــوق

أما يقال إن الحياة ثقافة؟

ولقد أعتصر الفضول في شعره ثقافة الحياة وثقافة السياسة وفلسفة الحياة والنـــاس والسياسة،.. وأرتقى آفاق الثقافة الشعرية عن موهبة جديرة بالخلود وبقدر ما كان صاحب مزاج غنائي كان صاحب مزاج سياسي، وبقدر ماكان مدمناً على مزاجية كأس العشق في أعوامه العشرين الأخيره، فقد كان أيضاً يعشق حتى الهوى احتـــساء كـــأس الفلـــسفات الإنسانية وأنخابها فيلوح حكيماً وقسيساً كبيراً في محراب الشعر ومناضلاً ومعارضاً وناقداً وطنياً موضوعياً يتغنى بحب الأوطان ويفلسف وينتقد الواقع بمنطقية بارعـــة، لم يجـــرح أو يسب أ ويشتم أحد في كل أشعاره، فجعل من السوء – هذه المفردة – جامعاً مانعـــاً لمـــا يقول:

((كُلّما قلتُ انتهى السوء عليها
تبدّى هرم السوء شبابا
... فلسف العدلَ ولعن الظلام والظلم فأشتاق قائلاً:
((إنّ شـــــوقاً عـــــشت أحيـــــاه أنينـــــا
أنْ أرى ظَلْمـــــاً لعـــــدل مـــــستكينا
أن أرى لصّاً عتيداً فاجراً بتروا منه شِمالاً أو يمنيـــا))

..لأن الأوطان لا تحتمل غير الحب، فحب المرأة يقود إلى التفاني في حب الوطن، لأن المرأة الحبيبة قلب الوطن، وكما يتفانى الشاعر في حب المرأة عن صدق عاطفة، يكون حب الوطن امتداداً لصدق من أصل النفس التي هي جوهر الحقيقة، والحقيقة التي كانت أشـــد إشراقاً من الشمس هي حقيقة حب الوطن الذي سكن قلب الفضول، فما كان من صاحبنا إلى أن ذاب وتلاشى في حب الوطن،وهو الحب الذي صنع نشيد الأناشيد عن حب تناهى في العمق القلبي والسمو الإنساني عن ثقافة تاريخية وانتماء وطني وإيمان بحتمية الوحـــدة في الأرض والإنسان.

أسلحة الفضول (الموهبة والثقافة والهدف)... هي التي أوصلته إلى تلك التجليـــات الشعرية، و المؤسف أن الفضول تمتع بالحس السياسي، ولم يتمتع بالسياسة الشعرية،.. أي أنه لم يمتلك الحس الذي كان يجب عليه أن يأخذ ويعمل به من حيث سياسة النشر واقتحام الساحة الشعرية من منطلق غير المنطلق الغنائي، الذي كان يجب أن يكون جانباً أو جـــزءاً من شعر الفضول كما هي الحقيقة، لكن حجب الفضول لأشعاره التي يفلسف فيها الواقع

أضر به إضراراً عنيفاً في حياته وبعد موته، رغم أن شعره كأنقى من ماء المطر فلا تقـــرأه نفس إلا ووجدت لذة ماء المطر تعانقها كما تعانق الأرض حلاوة الحياة وسنتابع مناقـــشة القضايا المتصلة بشعر الفضول في كتاب الأبعاد الفنية.

ولقد كان من السهل علينا جداً الاكتفاء بالبحث عن مصادر الثقافة التي كان يتكئ عليها الفضول،.. لكن رغبة في تحقيق قفزة متواضعة أكاديمياً.. انتابتنا لحظـــات التحـــدي لاستخراج ثقافة الفضول من شعره، لأن ما ينتجه الشاعر يومئ إلى ثقافتـــه ومكانتـــها، والحقيقة التي يجب أن نلفت إليها أن أصعب الأمور التي يمكن للباحث مناقشتها هي ثقافة الشاعر ومصادرها، ويكفي أن نؤكد أن ثقافة الشاعر تكون بالإدراك لها من خلال ما بين أيدينا من إنتاجه وثمار عقله وانفعالات ضميره،.. ولذلك فكل ما أنتجه الشاعر هو حصيلة ثلاث مواهب أحدها فطرية (الموهبة)، والثانية مكتسبة (الثقافة)، والثالثة مؤدلجه بانفعالات الحياة (وهي الهدف) الجدير بالموهبة والثقافة... ولا هدف أنبل من حب الخير للـــوطن.. وللأرض.

الباب الخامس عشر

الاشتقاق الفصيح / ألحان أيوب طارش

في بداية هذا الباب وجب علينا أن نشير إلى نقطه مهمة بل في غاية الأهمية، لأنها قد تكون موضع خلاف و اختلاف بين كثير من المهتمين بالأدب عامة وبشعر الفضول خاص،.. وهذه النقطة أو هذا الأمر خاص بمقدار وحجم وطريقة توظيف الفضول للتراث الشعبي (الفولكلور) في أشعاره الغنائية أو المغناة أو ذات هذا الجانب فيخطئون خطاءً جسيماً إلى الرجل وشعر الشاعر، فيتضاعف جرمهم في حق الشاعر بعد أن أجرموا وما أنصفوه، وهم قد يبالغون في محاولة حصر الشاعر في ميدان شعر الأغنية، وفي محاولة التهميش عن قصد – وغن غير قصد – وهذا يدفعنا إلى حصر موضع الخلاف ليكون في إطار جانب واحد فقط، وهو جانب الشعر الغنائي، ومن هذا الحصر نضع إطاراً آخر إلى حصر آخر لما قد يكون موضعاً لخلاف و رؤى متغايره... وذلك في مجموعة المفردات التي تحمل طابع العامية لمن ينظر بأن الفضول قام بعملية توظيف للتراث الشعبي في قصائده الغنائية سواءً من حيث المفردات ومجموعة التراكيب اللفظية التي تبدوا وكأنها من التراث الشعبي لمن يسمعها للوهلة الأولى، ولما هي عليه من صيغة موسيقية ولحنيه وفنية، وقبل أن نناقش هذا الأمر أو هذه النقطة، علينا أن نلفت الانتباه إلى أن علينا ألا نتعرض لأشعار الفضول الأخرى وبخاصة قصائد ديوان الفيروزه، لأنها ترتبط بثقافة الشاعر العربية، ولا شك في أنه قد نظمها بروح العصر، ولا شك أيضاً في أنه قد استقى وأكتسب موروثاً ثقافياً عربياً ولغوياً كأي شاعر موهوب غيره، قد تكون ظهرت في إنتاجه الشعري ثم كانت لديه شخصيته الفنية المستقلة، وهناك من الشعراء الذين حاولوا تقليد بعض صور القدماء فظهرت صورهم أبرع وأكثر امتيازاً من صور السابقين.

أما بالنسبة لقضية توظيف الفضول للتراث في شعره الغنائي – حسب المفهوم الجديد للشعر الذي يؤدَّى غناءً – فإننا نحصر هذه القضية في عدد من الأمور ...

الأول: إذا كان الأمر يتعلق تحديداً بإدراج الشاعر لمفردات في ظاهرها تبدوا لهجة عامية وفي حقيقتها أنها فصحى – وهو أمر سنثبته لغوياً – فهذه قضية علينا أن نتناقش فيها بجدية وموضوعية ....

والثاني: إذا كان الأمر يتعلق بالتراكيب اللفظية ومجموعة الصور الشعرية، ومجموع العلاقة الروحية بين أشعار الفضول بعد غنائها بصوت أيوب طارش وألحان أيوب طارش، أقول بعد غنائها وأدائها وليس قبل ذلك ... وهذا معناه أن مجموع العلاقة الروحية بين أشعار الفضول الغنائية – إنما مبعثها الألحان، وهذا بدوره يلقي بقضية توظيف التراث الشعبي على الألحان، وبطبيعة الحال فإن الألحان غالباً تكون مستمدة من الموروث والتراث الشعبي من خلال عدة طرق أما أن يتم دراستها والبحث عنها، أو العثور عليها صدفة أو تلقائياً عن طريق المشافهة والمثاقفة الشعبية التي قد تبدو بسيطة للغاية، أو أنها تكون لا شعورية يغلب عليها طابع البيئة والحياة والاكتساب عن طريق الوعي الجمعي للناس، ولتأكيد ذلك فإننا عندما نستمع إلى أيوب طارش وهو يغني من أشعار الفضول – ونحن بعيدون عن مسقط الرأس وموطن الصبا والأهل وعن القرية فإننا نكاد نكتفي بالسماع للحن من بعيد، وإذا ما حاولنا الاقتراب لسماع أو بحجة سماع الكلمات... فإننا لا نعي من الكلمات والأشعار بقدر ما نعي اللحن وهو ينسكب في قلوبنا كما تنسكب الأمطار من السماء إلى الأرض الظامئة، وبذلك يكون الاعتقاد بأن الفضول قد قام بتوظيف الموروث في أشعاره اعتقاداً خاطئاً، وأخطأ منه القول بأن الفضول قد أسرف في توظيف أو ستخدام أو استمداد الموروث... لأن التراث والموروث الشعبي هو في حقيقته في ذات اللحن وفي قامات الألحان والمقامات والأصوات، وبذلك نضع التجني على شعر الفضول في مزبلة المنطق والبرهان، ويكفي أن نعرف من أيوب طارش ما كان يبذله من جهود مضنية إلى أن يخرج اللحن الذي يجعل من القصيدة لوحة تنبض بالحياة والحرية والحركة، وما نعرفه جميعاً أن أيوب طارش من أبناء اليمن ومن مواليد القرن العشرين، ومن بلاد أعظم ما تتميز به ميراثها الفني والغنائي وهو الأمر الذي يجعلها مقصد الموهوبين وبلاد الألحان الرائعة، فتكاد تكون ألحانها ويكون تراثها الفني مطمعاً للصوص الفن وسماسرة الغناء والطرب وفطرته وكل ما توفر له من إمكانيات، كل ذلك أعطاه القدرة الفائقة على صياغة تلك الألحان التي تهز القلوب وتبعث الحياة في النفوس، ومن ذات الأسس الفنية شعراً أو يتدافع الموتورون ليلصقوا بأشعاره البديعة غنائياً وعروضية وأصالة وموهبة... تهمة بيزنطية ساذجة،دون أن يدركوا موضع الاستمداد الذي يحتويه اللحن وليس الشعر، أما بالنسبة لاستمداد الموروث الشعبي في الألحان فإن ذلك من روائع الفن لأن الفن والألحان تقوم على الأصالة و حضارة الموروث وبراعة التوظيف والاستمداد والقدرة على إيصال ذلك الموروث الذي لا يمكن الحفاظ عليه إلا تجسيداً، فالملحن الذي يريد أن يتذكر لحناً ما أبتكره ويخاف من نسيانه فإنه يصوغ اللحن بعبارة من العبارات، إلى أن يجد الكلمات التي تتناسب مع ذلك اللحن.. على سبيل المثال لا الحصر، هل سنجد أبرع شعراً من قول

الفضول (روح لك بعيد)... فلو كان أيوب طارش قد وجد نفسه في بيئة ومجتمع آخر بما هو عليه من إمكانيات لأستمد من روائع التراث الذي يجده ويحس به ويعيشه، وبقدر ما كان سيخسر الشاعر فإنه لا شك واجد هناك إمكانيات مادية وأكاديمية وإعلامية.

وانصافاً... ولو كان أيوب في بيئة لا تملك ما يتناسب مع مواهبه، وليس فيها موروثاً أو حضارة فنية مثلاً لوجد نفسه غير قادر على شيء لأن التراث هو الحضارة الوجدانية للشعوب عامة وللموهوبين منهم خاصة، – فالحضارة الفنية والأصالة تنتقل بين الأجيال كما تنتقل أشعة الشمس وكما تمتد خيوطها الذهبية من كوكب إلى كوكب عبر ملايين السنين الضوئية، وقد أشرنا من قبل إلى روح الطبيعة التي تمثلت في نفس الفضول وأيوب من توحد وتجانس الأمزجة والأحاسيس وتمازج الضمائر وتلاؤم أجزاء وأشتات النفسين، بدليل الارتباط الروحي والمعنوي والفني بينهما فما جاء ارتباط بين اثنين من فراغ، فكما أرتبط أحمد رامي بأم كلثوم فنياً، أرتباطاً وجدانياً حتى نهاية المشوار، ولم تكن المادة أو المال من القواسم المشتركة بين الفضول وأيوب وإلا لكانت العلاقة بينهما قد أنفرط عقدها وتناثرت حباتها، ولكان المال هو القشة التي تقصم الظهور وتفسد متعة الحياة والحب والمودة زاد الرحلة، فمثلاً عندما لحن أيوب طارش نشيد (رددي أيتها الدنيا نشيدي) كان قد أخذه من أحد أصدقاء الشاعر العسكريين بغرض تلحينه وكان من قبل لا يعرف عنه شيئاً، وبعد تلحينه ثم إرسال الشريط بعد تسجيله ليسمعه الفضول الذي أبدى فرط الإعجاب نور سماعة، ونستشف من هذا أن، العلاقة المادية بين الفضول وأيوب كانت آخر ما يمكن أن تكون بينهما لأن إيصال مشاعر القلب من أقصى الأماني في نفس الفضول وأعظمها، ولا شك بأنه كان غير حريص على تنظيم إنتاجه الشعري بطريقة سليمة غالباً، والألحان التي أبدع أيوب في إخراجها نبعت من نفسه التي طبعت على الذوق الممتاز والحس الأصفى من أشعة الشمس و الأنقى من لوحة السماء وقد حاورنا أيوب طارش في لقاء ذات يوم في منزله بتعز، وسألناه عن المراحل التي يمر بها حتى يصل إلى إخراج اللحن أو الألحان،وكان التركيز على لحن النشيد الوطني فأجاب بأن ذلك توفيق من الله وأشار إلى لوحة على حائط الغرفة مكتوب عليها ((وما توفيقي إلا بالله))... تلك هي النفس الأريحية التي طبعت على النقاء والطهر، ولو سئل مطرب آخر نفس السؤال لقضى عدداً من الساعات وهو ينظّر ويعدد الأوهام التي من خلالها استنبط ألحانه العفريتيه،وقد أشرنا في باب المزاج الغنائي في شعر الفضول إلى أن مزاج الفضول الذي يميل أصلاً في جوهره إلى الكلمة التي في مضمونها الشعري أغنية لأن طابعها ومزاجها الرائق واللين والذي يؤهلها لأن تكون أغنية لذيذة، وهذا ساعد أيوب بلا شك على أداء وتلحين أشعار الفضول التي غناها – ويمكن للقارئ العودة إلى ذلك الباب للإلمام بتفاصيل الموضوع – وقد مثلنا بغنائية

الفضول حينما أستمع إلى أيوب وهو يغني الكلمات التي كتب مثلها لحناً وشعراً (بكر غبش في الطل والرشاش) فأعجب الفضول باللحن ولم تعجبه الكلمات لأنها رديئة وسقيمة المعنى،فنظم قصيدته بكر غبش في نفس اللحن الذي سمعه، ولا ينكر أيوب طارش دور الفضول في قضية تذوقه للألحان التي كان يطبقها على أشعاره، أي أن دور الفضول في ذلك يقوم على خاصية التذوق فيبدي رأيه فقط، ونادراً ما كان الفضول يطلب من أيوب أن يغير اللحن أو يقوم بتعديله،وما من موهوب وشاعر إلا ويمتلك حساً موسيقياً، لأن الحس الموسيقي ضرورة أصيلة عند الشاعر، – كما هو موهبة كامنة في المطرب، وكل مطرب لديه إلمام بالمقامات الموسيقية، ولديه ميول خاصة تجاه أحد المقامات فيه يجد المطرب ذاته ونفسه،و كما هو حال الشاعر الذي يميل تلقائياً تجاه بحر من بحور الشعر مثلاً أو أكثر، وقد تحدث إلينا أيوب طارش أنه كان قد وضع لحناً لأغنية وقصيدة (مدارب السيل) غير الذي خرجت به وهي عليه الآن... ولكنه عدل عن رأيه فأخرجها بلحن آخر وهو الذي نسمعه الآن، وترك اللحن الأول من قبل على كلمات هذه القصيدة فأنطبق عليها، فكان لحن (إن كان قلبك قنعني أو هواك أرتوى...الخ)... فهل يعلم أيوب طارش أن انطباق اللحن جاء من أن القصيدتين من وزن شعري واحد وتفعيلات بحر واحد قبل كل شيء؟!

ولا شك من إجادة أيوب للنوتة والمقامات، لكن جودة ألحانه جاءت لأنها كانت ترجمة لوجدان الإنسان اليمني من إيحاءات الطبيعة والجبال والسيول والنهر والزهر وقطر الندا وشبابه الراعي التي بدأ أيوب من خلالها يحاور ما حوله من مظاهر الحياة الريفية وثغاء الأغنام في أعالي الجبال وأطراف الوديان، والشمس ترسل أشعتها في الشروق وفي الأصيل... وفي الغروب و هو أمر شاركه فيه الشاعر أيضاً:

شبابةَ الراعي افصحي وهاتي ورددي لحني وأغياتي
لفجر عمري لصبا حياتي لجدولي لقريتي لشاتي
هناك أحلامي وزرع حُبي هناك إلهامي ووحي قلبي

– أما الأمر الثالث فهو الصورة والإيحاء بمخزون التراث من خلال اللفظ أو التركيب اللفظي واتحاد التركيب اللفظي واتحاد المعاني عامةً،.. وكأنه إيحاء من طريق خفي بأن الشاعر قد استطاع توظيف التراث.

وهذا الرأي ينبع من خلال السماع للأغنيات وهي ملحنه، ولكن عندما، نقرأ القصيدة هكذا كما هي يزول من أذهاننا ذلك الاعتقاد العميق وأن الفضول لم يأخذ من التراث غير الأصالة من حيث الانتماء أما من حيث حقيقة وأصالة أشعاره فإنها من أخص خصائص مواهبه الشعرية، وهذه المراجعة كفيلة بأن تفتح أبواب الحقيقة، فسنجد أن الفضول قد استلهم الطبيعة وجسدها كأروع ما يكون التجسيد والتصوير والشاعرية

حيث إن مجال الطبيعة والوصف هما المحك الحقيقي لكل شاعر موهوب، ولذلك سنعرف أن الفضول يمكن تصنيفه – بإنصاف – رائداً لشعر الطبيعة، وأشعاره وقصائده الغنائية والسياسية وغيرها تكاد تكون حياة تنبض بالحركة والإيحاءات وبالتالي نصل إلى تأكيد حقيقة هامة جداً وهي أن عناصر الطبيعة بجزيئاتها المختلفة والمتباينة والهائلة وهي التي عملت على إيصال وزرع مفهوم أن الشاعر وظف التراث الشعبي في شعره، ولأن الطبيعة وعناصرها من العناصر الخالدة والتي لا تنتهي فإنها نقلت إلينا ذلك المفهوم دون قصد بإيحاءات وظلال وصور هائلة يصعب تجاهلها باعتبار ذلك من مقاييس الأدب من حيث الأثر الإنساني الخالد والميراث الأبدي، ولذلك فإن شخصية الفضول مستقلة أدباً ولغةً وصوراً وموهبةً، فإذا ما سمعنا شعراً له أدركنا بمجرد سماعنا أنه من شعر الفضول، وهو الأمر الذي قد يحدث مع أي شاعر آخر كالزبيري أو الشابي أو إبراهيم ناجي أو نزال قباني وذلك على سبيل المثال لا الحصر، – وكما أشرنا أيضاً إلى أن ثقافة الفضول الشعرية من التراث العربي كان لها صداها في شعره عامة والغنائي خاصة ... ففي غنائيته دق القاع دقه ... يقول (ما فاز باللذات إلا الجسور) في جزء من بيت شعري، وهذه العبارة من أشعار أبي الشمقمق وهو من شعراء العصر العباسي.. وغير ذلك كثير. واستلهام التراث العربي ليس قاصراً على الفضول بل أعتمده أبرز الشعراء وعلى رأسهم محمود سامي البارودي، حتى تكونت له شخصيته المستقلة، وكذلك الأمر بالنسبة للفضول، وذلك دليل أكيد على الأصالة والجدَّة والثقافة المتأصلة، والأدب العربي عامة ليس كالأدب الأوربي من حيث التقليد الأعمى للقديم ومحاكاته البلهاء، بل تمتع الأدب العربي بتياراته ومدارسه ومختلف اتجاهاته بنفاذ البصيرة واتقاد الرؤية من حيث الاستفادة من الأدب والتراث العربي القديم، ونحن لا نرمي إلى نفي توظيف الفضول للتراث وخاصة الغنائي فلم يكن حامداً أو كحاطب ليل سواءً الموروث العربي الفصيح أو الموروث الشعبي الذي دفنته القرون والسنون بالجهل والظلم والعدمية التي كان الشعب يرزح تحتها على مدار أكثر من خمسة قرون كاملة، كان اليمن يعيش خلالها خارج دائرة الزمن ونظام الحياة الإنسانية.

وعلى ما سبق نقرر أن توظيف الفضول للتراث العربي كان قائماً على الأصالة والجدة وحرارة الموهبة ومنطقية المعاني والمباني والأوزان والتجارب،... وهو أمر قد أشرنا إلى بعضه في باب ثقافة الفضول،.. أما قضية توظيف الفضول للموروث الشعبي أو (الفلكور) فيجب أن نحدِّد المواضع التي كان من خلالها الإشارة أو الرجم بالغيب.. فهل أنحصر التوظيف في اللحن؟ وهو أمر قد فصلنا فيه القول قبل قليل وهو أمر يخص الفنان، وسنجد الشاعر قد أعتمد الأوزان الخليلية المعروفة في أشعاره ولا نكاد نجد قصيدة غنائية للفضول لا تنتمي إلى بحر تام أو مجزوء أو مشطور أو منهوك، عكس أشعار حسين أبو بكر

الحضار الشاعر والموسيقي والتي تقوم على التراث اللحني والغنائي، وهكذا يكون توظيف الموروث – فلا يوجد في شعر وديوان الحضار ما يشير إلى شعر يقوم على الأوزان الخليلية،لأن أشعاره ترتكز على الموروث الكبير لحناً وغناءً ولذلك يمكن أن نقول على الحضار أنه فاق الجميع في قضية توظيف الموروث في شعره لأن شعره يتكئ على اللحن والتاريخ والحضارة الفنية في حضرموت وحضارة الدان الحضرمي المشهور، أما إذا كان التوظيف المقصود يقوم على توظيف الكلمة واللفظ والمعاني والمعاناة، – فيجب أن نحدد مواضيع ذلك التوظيف وبأدلة ناصعه – كما سبق وقلنا – لا أكاد أرى في شعر الفضول عامة والغنائي خاصةً،. إلا شعراً يقول بفصاحة وطلاقة واختيال وفخر أنا الفضول – أنا الفضول.. أنا عبدالله عبد الوهاب نعمان!

وإذا ما حاول أحد أن يدخل إلى ذلك القول الذي يهدف إلى التقليل من شأن الفضول وشعر وثقافة وبيئة الفضول...فنذكره بأن أيوب طارش سبق وأن طلب – طلب خاص – من الفضول عدداً من القصائد لمناسبات معينه أحدها وأهمها قصيدة الزفة وألحانها من الفلكور ... فنجد الشاعر ينظم قصيدته وهي تنطبق تماماً على لحنها... وبالنظر العودة إلى مفرداتها سنجد الشاعر يعمل على صياغة بعض مقاطعها صيغة تتناسب مع العادات والتقاليد السائدة، – وهو الأمر الذي يشير إلى عبقرية الشاعر وهو يربط ويمزج في شعره وبين الناس وعاداتهم وتقاليدهم كهذه المقاطع:

رشوا عطور الكاذيه فوق العروس الغاليه
وعوذوها بالنبي وادعوا لها بالعافيه
صفوا الصفوف دقوا الدفوف شلُّوا الزفوف العاليه
تسوى وتستأهل إذا عدَّ الألوف الوافيه
وكل شبان القرى قد شاركونا في الهنا
عليك من الحساد ألفين حجاب معلقات فوق كل طاقة وباب
ياليت والأيام توفي الوعود شعطر الدنيا بعرف الورود
وبخّر أيامي بعنبر وعود وأسامر الريحان فوق الخدود

هكذا ربط الشاعر بين شعر وعادات الناس، وجاء اللحن المأخوذ من (الفلكور) مباشرة ليعطي النص أو القصيدة طابع الموروث الثقافي والشعري والشعبي... ولذلك يكون اللحن هو الذي أعطى للقصيدة طابعها الأصيل، وليس الشعر لكن الشاعر ربط بين اللحن وعادات الناس والمناسبة الاجتماعية الهامة، فكان القول بتوظيف الفضول للتراث من هذا الباب، والحقيقة أنه لا يعيب الفضول القول بتوظيف التراث الشعبي، لأن ذلك نابع من الأصالة، ولكن التحفظ لدينا جاء من الاحتراز أن يكون ذلك القول نابعاً من رغبة

حاقدة ودفينة... ينضحها خصوم الشاعر الأحياء أو لغرض في نفس كل حاقد، أو حسداً لمتفوق ورغبة في التقليل من شأنه.. وما أكثر حساد الفضول، ولكن عماية التضليل وابتسامات الخبث وتواري العداوات تحت رغبة الحرص على المحافظة على المصالح الشخصية وخوفاً من الاحتراق ولأن الخصومات والعداوات بين شعراء اليمن وأدبائها أمر مجهول، وليس كما كان عليه الحال بين عمالقة مصر... كل ذلك لم يترك مجالاً لاكتشاف الأعداء والأصدقاء،.. ولذلك نخلص إلى القول إن ثقافة وموروث الفضول كان قائماً ومرتكزاً على ذهنية المكان التي يصفها عبدالله البردوني هكذا:

((وعندما ينبثق الوليد إلى أضواء الوجود وضوضائه، فإن أول من تستقبله قابلة من وطنه.... ومن ذلك الحين تتكون الوطنية لأن الوليد خرج من أم تكون كيانها من تراب الوطن، ومن مائه وأنفاس أهويته، وأستقبلته ذراع تكونت من تربة الوطن، وأحتضنته قطعة من تراب الوطن، تسمى المهد أو مسقط الرأس، وهذه البقعة الصغيرة عضو من الوطن تلقت عضواً من بنيه، لكي يكون رقماً من الأعداد وعرقا من كيان الوطن.

ثم يتجاوز الطفل المهد إلى الرضاعة، فيرتضع عطاء الوطن من ثدي أمه، ثم ينتقل إلى الملعب فيصبح عضواً في مجموعة البراعم التي أطلعتها شجرة الوطن، فيشارك مع أبناء الأقارب والأباعد الحس بسعة الوطن في عيون اللدَّات والرفاق... لأن أخوته قد كثروا وجاءوه من عدة أمهات جئن من أم وحدة.. هي تربة الوطن، ثم ينتقل الطفل على حسب بيئته، إما إلى المدرسة فيلاقي أبوةَ الروح وأمومة الوجدان، أو ينتقل إلى المرتع أو الحقل إذا كان فلاح، فتحتضنه أمومة طبيعة الأرض، يحتضن محبة التربة التي أطلعت المرعى، مدت قامة السنابل والغصون، وبمقدار، نموه تنمو وطنيته، إذ لم يعد إبن أبوية، وإنما أصبح ابن الوطن الذي كون أبويه، فقد لاقى أمومة الأرض وأبوة المعلم، وأخوة زميل المدرسة أو رفيق الحقل أو المعسكر، وكلهم فلذ من قلب هذا الوطن، وموطن هذا الوطن))[1].

وهكذا كانت الطبيعة منبع الإلهام والوحي للفضول وأيوب طارش بألحانها وموسيقاها وخلودها الوجداني الذي يتمثله المسافر والمغترب والمهاجر والمفارق والعامل والفلاّح والفقير والغني والعاشق والغاضب والمحب والزوج والزوجة والشيخ والشاب والمرأة والفتاة والصبيان والصبايا... فلا يسمع الواحد من كل هؤلاء وغيرهم لحناً إلا وأهتزت أفئدتهم شوقاً وحنياً، وما سمع الواحد منهم شعراً إلا وأنفعل انفعالاً حاداً،.. فكوَّن الاثنان الفضول وأيوب مدرسة فنية لها طابعها الفريد والممزوج من كل الألوان الغنائية والتراثية والشعبية... وساعد على ذلك التنقل الذي قام به الفضول بين عدن وصنعاء وتعز والريف اليمني فأستوعب وأستلهم وجدان الناس جميعاً وعبر عنهم...

(١) عبد الله البردوني / من أول قصيدة إلى آخر طلقه ص ٢٦٧.

((وتجربة الفضول في الشعر وشعر الأغنية بوجه خاص مثال آخر على أنه مجدِّد ناجح وهنا أيضاً كان مؤسساً، فقد أدخل الأغنية الجديدة التي تمنح الحياه من أغاني العمل في الحجرية وبالذات أغاني النساء، ومزج ذلك بحب وعمق لجمال الأرض التي يحبها لسمائها وبجبالها وجداولها فنسج مع الأخ الفنان أيوب طارش ألوان أغنية يمكن أن نقول إنها استمرار لأغنية المدينة في اليمن فأضاف بتلك الأغنية التعزية – إن صح التعبير – إلى اللحجيه والصنعانية والحضرمية واليافعية ....الخ، فخياله بلا شك خيال مثقف وإن كان يغترف بدراية ومحبة من الفيض الشعبي والكلام المديني الدارج...))[1].

وكما نرى كلام أبو بكر السقاف ...فيه منطقين وفيه تجاوز لهذه المنطقية.... فلا ندري أين الشاهد الذي دل على أن الفضول أخذ من أغاني العمل والنساء الريفيات،... ولكن يكفي أن نأخذ من أقواله أن الفضول وأيوب أقاما مدرسة غنائية متكاملة الأسس والإمكانيات أما مسألة اغترافه وخياله في الفيض الشعبي والمديني الدارج... فلنا عليه كما أشرنا تعليق لتتضح الأمور... أكثر.

ونضيف هنا إلى أن قصائد الفضول الغنائية تتمتع بالخلود الإنساني بمقاييس الأدب لأنها نبعت من موهبة جديرة بالخلود ومرتكزة على الأصالة والتراث العربي الأصيل ولذلك استحقت أن تكون مجالاً وموضعاً للدراسات الأكاديمية لأصالتها الأدبية والشعرية، هذا بالنسبة للأشعار الغنائية والنصوص المغناة، أما النصوص التي احتواها ديوان الفيروزه فهي خالدة بكل المقاييس ،ولم يتبق أمامنا غير مناقشة تلك المفردات التي وردت في أشعار الفضول والتي يعتقد الكثير من الناس أنها دارجة أو عامية،.. وهي في حقيقتها فصيحة مائة في المائة، وفصاحتها تلك هي التي أعطت لشعر الفضول خلوده الإنساني عكس القصائد الغنائية التي تنتهي بانتهاء إلقائها وسماعها لمرة واحدة أو مرات كقصائد الغناء بالعامية المصرية مثلاً ... لأنها عامية حقيقة، وهانحن نأخذكم إلى كل المفردات التي يعتقدون أنها (دارجة أو عامية أو مدنية) في شعر الفضول الغنائي....

واصبايا واملاح / اقطفين / واطرحين / غبش / الملاح / منصت / بجنبي / لفلفي / يا ناس / قولي وامدارب لما /ضاحات / شنَّان / سيولك / شعاب / ولىّ وخلاني لوحدي / ريح الصِّبا بالله لأين المسير / قوى / شمشي / شاعيش / وأنت جرب / شوف من با ينفعك / أين تروح / وان قنعته / تشتي تروح / عندي مرجعك / أخلي / باخليك / ما سخى / دق القاع دقه / دلا / ما دامك حلا / واعط القلب حقه / شن / ضمَّك / وكم علمك / يهندس / الفتنة / سكاب / فراسكك / واصبرنا / ما تسبب / ضرس / حمًّا / محلى / يرحم ابوه / ملانه حب / ويغلط / ماشي / غطس / شاكرم / واشوف / يجيئين / يعرفين /

(١) أبو بكر السقاف / الكتاب ... ٨٢ م.

عشعشين /.. (وكثير من مفردات؟؟؟؟ من أجل عينك) / يدورنك / يريدنك / ...الخ... يتخاوصين / ذي راح / أمرة مطاع / إن أجا / وان راح / من ذي دهاك / مريوش الجناح / من يبايعني / ششتري لجل أنسى الحب ذي ضاع / في طريقي سوى / روح لك بعيد ما عدناش لك / وبعد ما قد كنت لي بكلك / مو اعمل بعمري / خلك طريح مكبود ينفخك ريح / ما اسخاش بدمعي يستكب لمثلك / غبني على نفسي / وغبن قلبي / شصبر / وراعيلك سنين / ما دامك / ماناش مقضي ساعتي عندك ولا جازع طريق / في السحايب يعوم / حتى الدموع اللي سكبناها بأيام العذاب / آتي من الجنة وما يصلحش إلا عطر عيد / شاعود للخلان والأحبة / راجع لشمس الصبح والمغارب / ما عاش بي حسي ولا نفسي أوت إلا لديك / مدريش كيف قلبك رضي يروى وقلبي مارضيش / ولكن ما رتويش / وجهك ما يضيش / أعشى مستضيش / ولا خليت ريش / وأحرقت أعشاشي وأرياشي ولا خليت ريش / فارجع إلى أحضان أيامي وخليني أعيش / بك أنت مش بالنجم / مش بالفجر مش بالغيم /لا قاني وواعدني القدر /.

مهلنيش بين الهنا والافراح / ما فيش طريق بين الفرح وبيني / ما شي حلمت أو ترأيت / باعدوا من طريقنا / الحمى والظمأ لكم / منتش ملومي أنت أو خصيمي / اتأملك / أغويتني حتى حروف أسمي / ما تكتتبش إلا إذا تهجاك .... إلى آخر تلك المفردات التي وردت ...وقد أثبتنا أكثرها ... وتفسيرها وتحليلها وفصاحتها واشتراكها في بناء القصيدة كما يلي بيانه وتفصليله..

نعلم يقيناً أن الفضول منذ بدأ حياته الصحفية والشعرية كان يحرص حرصاً بالغاً على إيصال خطابه وتعليقه وأرآه ومواقفه وأفكاره إلى طبقة واسعة من الناس على حد سواء، أكانوا من بسطاء الناس ثقافياً أم غيرهم، فوصول كتاباته إلى الناس البسطاء لرفع شعورهم بالمسؤولية الوطنية من خلال صحيفة الفضول بطريقة بسيطة وساخرة وعميقة وعنيفة ولاذعة، ولعل ذلك كان إيذاناً مبكراً بإدراكه لما يجب على الأحرار آنذاك أن يفعلوه لتهيئة الوعي الجمعي لدى الناس للاسهام والمشاركة في قضية التحرر والحرية، وهو الأمر الذي غاب عند كثير من الأحرار، وبقدر التفات الفضول لهذا الجانب الذي أصبح راسخاً في وجدانه أي بمعنى يجب أن نخاطب كل الناس باختلاف مستوياتهم الثقافية من خلال الكلمة المؤثرة و الوخز بالابر الفضولية، فعمل على توظيف الشعر التعليمي في قضايا سياسية واجتماعية،و عمل على توظيف المعلقات التي نظمها شعراء الجاهلية فعارضها بأسلوب ساخر لكشف الكثير من مساوئ نظام الحكم الأمامي والاستعمار البريطاني... وهو في ذلك استطاع ببراعة أن يوظف مفردات عامية في قصائد ساخره يفهمها البسطاء من الناس بسهولة لتحقق أهدافها المنشودة في بناء شعري ممتاز... ومع ذلك يمكن اعتبار تلك الموهبة

هي الخطوة الأولى التي أصبح الفضول ينظر باهتمام إلى ضرورة ووجوب إيصال مشاعره إلى الناس كافة في إطار مكتمل البناء والروعة والمعمار... فبقدر ما كان حريصاً على إشراك الناس في قضايا الوطن، أصبح أكثر حرصاً على دغدغة مشاعر الناس والتعبير عن مكنونات قلوبهم لتكون للرسالة الأدبية أهميتها وبالتالي تعبيراً عن وظيفة الشاعر وواجبه الشعري والشعوري، ويؤكد ذلك تماماً أن الفضول وهو ينظم ديوان الفيروزه قد جعل من ذلك الديوان عمقاً لغوياً ومعمارياً شعرياً وشعورياً لا يدركه إلا الخاصة من المثقفين، أي أنه وهو يخاطب الخاصة صعد بهم إلى أعالي الإدراك والروعة، وحين يخاطب الناس جميعاً فإنه بقدر ما يجعل قصيدته مكتملة المعمار، فإنه يعمل على إدخال بعض المفردات التي تتميز بخصائص عديدة ولأسباب عديدة أيضاً.....

١- قد تكون مفردة فصيحة فيعتقد بعض الناس أو أكثرهم أنها عامية بينما هي في الحقيقة فصيحة مائة بالمائة.

٢- قد تكون مفردة تميل بنسبة كبيرة إلى الفصحى أكثر من انتمائها إلى العامية والدارجة..

٣- قد تكون مفردة لضرورة شعرية وزناً، ولضرورة فنية صوتاً وأداءً، ولضرورة اجتماعية فهماً واستيعاباً، أو لضررورة لحنية أي لاستقامة اللحن مثلاً ...

٤- قد تكون مفردة لا تمثل أي عنصر هدم أو عيب في البناء الشعري فتبدو وكأنها من صميم العمل الفني، وهذا يعطيها مكانة المفردة الفصيحة.

٥- قد تكون مفردة فيها خاصية الجدة الاشتقاقية اللغوية ...

٦- قد تكون مفردة تنتمي إلى لهجة عربية فصيحة ... مثل (أيش – تشتي).

٧- قد تكون مفردة أو بعض المفردات التي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ... ضمن قصيدة كاملة البناء اللغوي الفصيح، فلا يمكنها التأثير على العمل الأدبي بل تزيده جمالاً وقرباً من سواد الناس ...

٨- قد تكون إضافة إلى العمل الأدبي لضرورة من الضرورات التي تطرأ ليكون العمل الفني مكتملاً.

٩- قدرة الشاعر على الاشتقاق ومهارته التي تتكئ على ثقافة وأصالة وذوق أصيل مكنه من وضع المفردات التي لا يمكن أن تكون غيرها بديلاً لها حتى ولو كانت فصيحة.

١٠- أن شعر الفضول الغنائي مكتوب بالفصحى بنسبة (٩٩%)، وبالتالي فإن دخول عدد من المفردات – أكثرها فصيحة ولها شروطها الفنية وضرورتها الشعرية ... يعطي لتلك المفردات حرارة الفصحى تماماً حتى وإن كانت فصاحتها بنسبة معينة،

وهذا موجود في كتب علوم اللغة وأصولها وفقه اللغة أيضاً، فاللغة العربية نامية ومتطورة ... ولذلك فهي تستوعب الكثير من المفردات فتكتسب الفصاحة عبر مئات السنين، وكذلك هناك ألفاظ يعتقد الكثيرون عاميتها – ونظراً لبعض التحريف اللهجوي – دخل في إطار العامية والدارجة.. رغم فصاحتها.

١١- أن الشاعر لم يوظف مفردات بعيده عن البيئة التي هو منها، وهي بيئة أثبت الكثيرون من الدارسين أنها أقرب بيئة إلى العربية الفصحى .... مقارنه بغيرها..

١٢- وقد أثبتنا في السطور السابقة – أكثر المفردات التي هي موضوع الطرح والنقاش فلا تكاد تخرج عن إطار ما وضحناه في هذه الفقرات مثل (مريوش الجناح، فمريوش الجناح مشتقة من الريش، أو سكاب وهي صيغة مبالغة للإنسكاب وكذلك كغبَّش .... الخ)، وقد أستوعب الفضول اللهجات اليمنية الأصيلة من خلال اتصالها القوي بالفصحى فأعطاها قالباً غنائياً (مادامك / مهلنيش / جازع / منتش (بمعنى لست أنت) – وغيرها من المفردات.

١٣- أثبت الفضول براعة فائقة في تطعيم أشعاره الساخرة في صحيفة الفضول بعدن بألفاظ بسيطة ومألوفة للناس البسطاء، فيعتقد الناس أنها عامية وهي فصيحة تماماً مثل مفردة (يتخاوصين) مثلاً ... وعلى سبيل المثال يقول الزبيري في قصيدة له:

يتخاوصين بأعين مذعورة تتجرع البلوى كما نَتَجَّرعُ

١٤- انتقال الشاعر بين عدد من المحافظات فعاش في كل منها فترة أتاحت له استلهام مفردات البيئة فانعكست الفصيحة منها على وعيه الشعري واللغوي.

١٥- مراعاة الشاعر للقامة الصوتية للفنان أيوب طارش، وهي قامة كثيراً ما تطابقت مع كلمات ومفردات الشاعر دون عناء لما بينهما من قواسم مشتركة (الطبيعة والبيئة و الموهبة، والنقاء الفطري .... الخ)، فلاشك من وجود بعض المفردات التي تتطلب تعديلها لتتناسب مع اللحن أو مع الصوت وامتداده ... مثل (الدموع اللي سكبانها).. فالاسم الموصول الذي تحول إلى ما تطلبه اللحن أو الصوت، أو مثل كلمة حمًّا يطوفين المدينة فالأصل (حينما) وللضرورة حذفت الياء والنون لذلك.

١٦- أن عودتنا لمراجعة مفردات الفضول العامية التي وردت في قصائده الغنائية لا تمثل ما نسبته ٥ % ... وهذه الندرة أعطت لشعر الفضول المقياس الفني الخالد مقارنه ببعض شعراء الأغنية العامية في مصر أو سوريا أو غيرها.. فالقصائد العامية وقتية عكس الفصحى التي تحتفظ بصورها البلاغية وحرارة التجربة الشعورية وروعة القيم التعبيرية.

١٧- معرفة الشاعر عبدالله عبد الوهاب نعمان باللغة وأسرارها، وبالمعنى وأثره جعله معلماً في قدرته على وضع المفردات المناسبة في مكانها المناسب الذي يجعل منها قوة دافعة للنص وليس العكس، ولعل القارئ للفضول سيجد قصائده تمتاز بالقوة منذ بدايتها وحتى نهايتها، وهذا دليل على فنية المفردات وأن ذلك ليس عجزاً كما يتوقع أو يظن البعض،.. وقد أكد على ذلك أيوب طارش.. وهو يقول أنه دائماً يجد تلك القوة الكاملة في قصائد الفضول منذ البيت الأول وحتى نهاية القصيدة عكس الكثيرين الذين قد يبدأون بقوة ولا يصلون إلى نصف القصيدة إلا وهم يلهثون.

١٨- بعض المفردات الغارقة تحت مفهوم العامية في شعر الفضول كانت لغرض إيصال المعنى للناس جميعاً كما هو عادته من قبل في شعره الساخر في عدن وفي ذلك ايصال للرسالة الوجدانية التي تعمل على تهذيب المشاعر، والارتقاء بالوجدان الجمعي للناس، ولدلالاتها البلاغية والجمالية والإنسانية والشعورية، لمخاطبة سواد الناس وثقافتهم الخاصة، والتعبير عن مشاعرهم ولإشراكهم بالهموم الإنسانية ولمخاطبة المغتربين، خارج الوطن وفي أنحاء الأرض وهم فئة من بسطاء الناس، ورغبة في انتزاعهم من غربتهم الروحية والعودة بهم إلى أوطانهم روحياً على الأقل.. ولعل انتماء الشاعر والفنان المطرب إلى بيئة معينة وطبيعة متشابهة ولهجة واحدة، دفع الشاعر إلى ذلك كثيراً ولأن المطرب أكثر إجادة لذلك من غيره.

١٩- أثبت أيوب طارش قدرة فائقة في القصيدة والفن التهامي من خلال قصيدة (وازخم ثم لعثمان أبو ماهر قصيدة (واطائر امغرب) لعلي عبد الرحمن جحاف.. الذي اطراه الفضول وقال وهو يسمع قصيدته (هذا هو الشعر)، ولعل إعجاب الفضول بلحن أيوب التهامي دفعه إلى نظم قصيدة (باللهجة التهاميه) أو الأصح (ملّحى باللهجة التهاميه) وهي القصيدة الوحيدة على ما يبدو للفضول في ذلك المضمار، وتلك القصيدة بحوزة أيوب طارش كان الفضول قد سلمها له بخط يده – كما رآها كاتب السطور وقرأها له أيوب طارش.. ولعلنا نذكر هنا لحن قصيدة واطائر امغرب وكيف أبدع أيوب في ذلك، لأنه فنان ومطرب بالفطرة... ويعترف هو بذلك عكس بعض المطربين المنظرين للموسيقى وليس لهم لحناً يعبر عن ثقافتهم الموسيقية بجوار أصواتهم النشاز.

٢٠- نؤكد أن القليل من مفردات العامية والمدنية كانت لرغبة في إيصال الرسالة الفنية وليس عجزاً.. مع إدراك للمعنى...

٢١- كان الفضول ناقداً من الطراز الأول الممتاز.. و بالتالي فقد كان هو الناقد الأول لشعره.. يقول أيوب طارش في الكتاب الذي صدر في الأربعينية: ((لم يكن عبدالله عبد الوهاب بالنسبة لي شاعراً فحسب بل لقد كان أستاذاً علمني كيف يرتفع الفنان بأذواق الناس من خلال الكلمة الرفيعة البعيدة عن السطحية والابتذال، الكلمة التي ترسم أمامي لوحة متناسقة تجعلني أتفنن في تلوينها بكل ما أوتيت من موهبة في التلوين والإبداع ، ولقد كان كثيراً ما يعدل بعض الكلمات عندما يسمعها مني وفيها بعض الصعوبات في الأداء ويجعلها سلسة، وموسيقية، فيقول لي ما رأيك بهذه بدلاً عن تلك فأقول له: يا سلام هذه أفضل، وأحياناً يقترح تطويلاً في الأداء هنا أو تقصيراً هناك فيكون هذا هو الصواب، ولو أنني كنت أضجر منه بعض الأوقات عندما أشعر أنه يريد أن يحصرني في لحن معين عندما يطلق تلك الهنهات الرتيبة – التفعيلات والأوزان الشعرية والتي يعطيها لكل قصيدة جديدة – وأذكر مرة وأنا أقوم بتلحين إحدى القصائد عنده و إذا به ينظر إلى أصابعي ويبر عوداً صغيراً من أعواد القات ليضعه بين أصابعي مما يجعل الإصبع الوسطى غير قادرة على العفن قائلاً هذه لا تستعملها، عندها ضحكت وقلت كيف لا أستعملها وأنا أمضيت ثلاث سنوات في الدراسة في القاهرة أتدرب على استعمالها هي والبنصر.. لكنني لا أنكر أنه كان يكبح جماحي في التطوير اللحني الذي يخلق هوة كبيرة بين الفنان وجمهوره فقد كان يشدني دائماً إلى الطابع اليمني الأصيل..)) أ.هـ كلام أيوب طارش.

٢٢- الفضول من أولئك الشعراء الذين يجيئون في غفلة من الناس فيصنعون تاريخ (الفلتة الزمنية) ،فبقدر ما كان ينقح قصائده التي في ديوان الفيروزه بقدر ما كان يعطي لشعره ذلك الرباط الروحي بين مفرداته وعباراته وقوالبه اللفظية – وهو أمر سنناقشه في كتاب عن الأبعاد الفنية في شعر الفضول – فكان بحق الرجل الثاني – وبدون مبالغة – بعد زهير بن أبي سلمى في تنقيح قصائده ونحن هنا ندعوا النقاد إلى قراءة شعر الفضول قراءة منصفة وعميقة.. وسيجد النقاد أنَّ الشاعر يتحداهم بقوة أن يقول أحدهم فقط أن الشاعر قد اخفق هنا أو هنا،.. وكأنه – أيضاً – يطلب منهم أن يرفعوا من أذواقهم بقراءة شعره الغنائي والسياسي والفيروزه الديوان..

٢٣- ان مفردات الفضول التي في غنائياته هي مفردات يفهمها أي مواطن عربي في أي دولة عربية.. وهذا ما أكده كثير من الأشقاء العرب في دراسة أجريناها عليه في مدينة الحديدة – حيث قدمنا لهم القصائد والأبيات التي في أحشائها المفردات التي

طرز بها الفضول قصائده فلم يخطئ أحد منهم في فهم معناها، فكان هذا دليل كبير على فصاحة تلك المفردات.. وكان الأشقاء من مصر وسوريا والعراق ولبنان والسودان وليبيا.. وخلاصة لذلك نقف هنا في هذا المجال لأن الفقرة رقم (٢٣) دليل قاطع لا مناقشة فيه لأنه قائم على البحث العلمي والميداني.

ويقول قائل: إن الفضول استلهم ووظف التراث اللغوي الشعبي في مفرداته فإننا نقول له.. هات الدليل على ذلك من خلال إحضار نصوص الفضول ومن ثم مقابلتها بنصوص التراث في جدول للمقارنة بطريقة علمية.. أما أنه وظف التراث من خلال فطرته وموهبته وبإيحاء من الطبيعة والبيئة والناس والثقافة والممارسة والحس القوي في التقاط روح التراث فأمر لا شك فيه لأنه دليل على الأصالة – ولأن ثقافة الفضول كانت ثقافة عربية تقليدية أصيلة في أولها حيث حفظ القرآن ثم تلك الأراجيز والمتون والملح والفية ابن مالك سواء في الجامع الكبير في صنعاء أو في مساجد زبيد.. ثم أكمل مسيرته الثقافية في عدن رئة اليمن ولنا حديث حول ثقافة الفضول قد سبق ذكره ولعلنا نعود إلى هذا الباب إذ رأينا ذلك مُلحاً.

الباب السادس عشر

موج البحور وصدق الشعور في شعر الفضول

(الأوزان الشعرية وعلاقتها بالشعور):

كم زائرٍ جآء ساحاتي فيما نسبت قيثاراتي يصدى لحـــنٍ، ولا نغـــم
إذا أتاكَ بـــشعري زائـــراً قلمـــي لأنت أكبر من قولي ومن كلمـــي
لكل طـــير أوى في قمـــتي كَـــنَنُ لكنَّني لا أقيسُ البـــازَ بـــالرَّخم
(عاشقوا المجد — الفيروزه)

كم بازغٍ بـــدأت بـــه أيامـــه مكـــسوةً غُـــرراً مـــن الإحـــسان
غَنيتهُ وشغلتُ أو تـــاري بـــه وطرحتـــهُ نغمـــاً علـــى أوزانيَ
(في ذكرى ٤٨م — الفيروزه)

نستفتح هذا الباب بأجمل وأوجز ما قيل عن عبقرية البيت العمـــودي ((إن البيـــت الواحد من القصيدة –العمودية – وما يلخصه من مجد أدبي خالد لهذه الأمة وما يحتويه في معماره من آفاق وآماد، مفردةً ووزناً وقافية موضحين ما للمفردة العربية من مقدرة عالية اختزاناً وإشعاعاً وإمتاعا، وما للوزن من قدرة عالية وتكنيك فذ يتجلى عند جريان العملية الشعرية من استدعاء وانتقاء وتكثيف وما للعربية من أطر وقواعد صرفية ونحوية ونغمية ثم الناتج الكلي لكل تلك العناصر والمكوِّنات مما يعده المقصرون والقاصرون قيداً، وإنما هـــو مهاميز ضاغطة تتحول بها (الموهبة الحقة) إلى توربينات ((مولدات)) تطير بالمولود الشعري إلى الطبقات العليا من سماء الإبداع مؤكدين أن البيت الشعري شاهد خالد بالذوقية العالية لهذه الأمة منذ فجرها السحيق، إنها أمة الأرقى معنى والأنقى لفظاً والألقى عمراً شعرياً.

لقد حرص العربي الأول – لا لبداوته وإنما لارتفاع ذائقته –أن يجعل البيـــت هـــو الوحدة النغمية المستقلة قدر الإمكان يفرغ فيه بروقه ورعوده ليخلق في روعة الأســـاطير وعظمة الخلود فلم يأت البيت الموزون (إذن) من تأثر بسير القافلة وترجيع الحداة فقـــط، وإنما أيضاً جاء بالأوزان كتنهدات قلوب وزغردات مشاعر، إنها بتعبير آخر (مزامير نفسيه اخترعتها الذات وشاركت في بنائها أغاريد الطبيعة ومناخاتها، فلا عجب أن نرى تأثيرها

البالغ لا في النفسية العربية وحدها وإنما شاركها التأثر والتجاوب الحيوان من جمال وغزلان وخيول وذلك ملموس ومعروف حتى الآن، ولأمر ما لم يسمها العرب واحات أو أشواطاً، وإنما اسموها بحوراً لأن الشاعر يركب فيها موج نفسه ويسبح عبرها في أثباج أحاسيسه ومشاعره وأخيلته ومعيار البيت المكتمل – نضج الولادة وروعة الخلق – هو اشتماله ووفاءه لكمال المعنى وبلاغة التعبير ونغمية الأداء ...))[1].

: ((ورغم اقتناعي أن الشعر موهبة قبل أن يكون شكلاً ورغم ترحيبي بالجيد منه دون التفات إلى الثوب الذي جاء فيه إلا أن تجربة الشعر الخارج عن الوزن والمتخلي عن التقفية رغم مرور أكثر من خمسين عاماً على مجيئة فإنه لا يزال مخلوقاً هلامياً، لم تتوفر له شواهد الاكتمال وسمات الاستواء، وضاعف من اهتزاز مكانته ولوج صاحب الموهبة والمتطفل ساحته حتى طغى الرديء على الجيد كما ضاعف من محنته أيضاً، تراجع كبار أدباء التجربة كنازك وبلند الحيدري ونزار، وفي داخل اليمن كبار شعرائه أمثال غانم وباكثير والشامي، وقد كشف التتبع عجز هذا الشعر الجديد الغريب عن التناول المقبول فضلاً عن الرائع الموفق في ميدان النفس بهجساتها الوجدانية وخلجاتها الشعورية السارية في الأغوار البعيد وعن الضجيج وعجزه أيضاً في المجال الوصفي حتى أني لا أعرف نصاً ناجحاً يستحق التوقف – والتنويه وهذان المجالان: عالم النفس ووصف مجال الطبيعة هما محك الشاعرية الحقة والموهبة السخية المطبوعة، من أجل ذلك أحببت أن تجئ هذه الكلمة عارضة مقدرة البيت العمودي الذي يسخرون منه ويتعالون عليه في تقديم اللوحات النفسية الغامضة والغائرة في المسارب البعيدة واقتداره البارع الرائع في استجلاء الطبيعة واستيحاء مشاهدها بالمفردة الفذة النغم المتساوق في تصاعد ينتهي برسم عالم بأكمله في بيت واحد..... والاهتمام بخاصيتين متلازمتين لكل بيت من الشعر العمودي.. أولاً: بروز المعنى بروزاً وافياً بيناً، وثانياً: الإيجاز الذي لا يستطاع الحذف منه والإضافة إليه – طالباً من أصحابنا عشاق المنثور الشعري أن يأخذوا أي بيت يشاؤن منها ويستفرغوا الجهد في الإتيان بمثله في إطارهم الشعري حتى يستبين لهم ما يقدمه العمود الصادر عن الموهبة الحقة لصاحبه من الاستدعاء والانتقاء ولتكثيف مفردات وجملاً وفقرات حتى لكأنما الوزن أي وزن يمتلك في داخله قدرة مغناطيسية وكهربية رائعة الجذب والارتفاع بمن يتعامل معه لنخرج من هذه التجربة العملية باكتشاف مناجم الروعة ومنابع الإبداع.

تلك كانت عبارات وأقوال ونبضات قلب لشاعر وناقد ومؤرخ وحافظ للقرآن الكريم وفي الخامسة والخمسين من العمر – ١٩٩٨م – والحياة في خاطره موسيقى وأوزان، والألوان بالنسبة له أحاسيس ودفقات مشاعر وموسيقى وألحان وأصوات وهدوء وضجيج

(١) بعكر / نوافذ / ع ٧،٨.

وضحكات تجلجل وآذان تعي وتلتقط وكأنها رادار عظيم من صنع خالق الخلق ورب الكون والسموات والأرض.

غيره لا حصر لهم من الذين امتلكوا أذاناً في غاية الحساسية وفي أعلى درجات الشاعرية وصفاء الذات التي تسمح لهم استيعاب الأوزان الشعرية وهي تتطابق تماماً مع أحوال النفس والشعور والمشاعر ... ولقد أوردنا عدداً من الأمثلة التي تتحدث عن التطابق بين الشعر والحالة النفسية التي يمر بها الشاعر وبين الأوزان الشعرية وبحور الشعر التي ينظم بها الشعراء قصائدهم ونفثات صدورهم، وها نحن وقد أمضينا سنوات طويلة نقرأ الشعر ونتذوقه ونتابع الكثير من قضاياه الفنية والموضوعية.. فنجد في أنفسنا العميقة تفاعلاً قوياً يختلف باختلاف الوزن والقافية التي ينظم فيها الشاعر قصيدته، ولو سئلت بصفة خاصة عن القصائد التي أثارتني وتمكنت من أحاسيسي بمواصفاتها وأوزانها لقلت بأنها تلك القصائد التي من بحر البسيط والكامل وفي أي موضوع من الموضوعات سواء كانت حزناً أم فرحاً أم مأساةً أم سياسةً، فهذان البحران بالتحديد يعطيان للتجربة الشعرية العنف والزخم وهدير البحار وحزن العشاق وثورة الشجعان والأسود.

ولعل الشعراء قد أدركوا ذلك بفطرتهم فنظم المتنبي مثلاً قصيدته الأخيرة في مدح وتأنيب سيف الدولة من بحر البسيط، ونظم البردوني قصيدته أبو تمام وعروبة اليوم من بحر البسيط، وكما كانت قصيدة (فتح عموريه) لأبي تمام من بحر البسيط.. ولو تتبعنا ما يدور في هذا الفلك لما انتهينا.. وكذلك نظم الزبيري قصيدته النارية والتاريخية (سجل مكانك في التاريخ يا قلم – صيحة البعث).. لأن بحر البسيط يحتوي الثورة والنار.. أما بحر الكامل فقد أشرنا في باب سابق إلى رأي البردوني في هذا البحر الذي جعله نزار قباني بحره الذي خاض عبابه وصارع أمواجه في قصيدته الشهيرة (أنا يا صديقة متعب بعروبتي ....) وكان عنترة بن شداد قد خاضه من قبل في معلقته الشهيرة والتي تعددت أغراضها تعدداً تميز به الشعر الجاهلي فكأن البيت قصيدة ... وعندما أطلق الشاعر الشاب الشهيد/ هاشم الرفاعي (٢٤عاماً) – قصيدته الأشهر من نار على علم (رسالة في ليلة التنفيذ ...) كانت من بحر الكامل – متفاعلن متفاعلن متفاعلن ×٢ .... وعند تثور ثائرة الشعر في صدر الشاعر أحمد مطر فإنه لا يتردد في أن يخوض بحر الكامل في أكثر من قصيدة كما فعل ذلك عام ١٩٨٨م في قصيدته – التي رثى بها الشهيد الفلسطيني رسام الكاريكاتير المشهور ناجي العلي الذي أغتاله الموساد في لندن – ما أصعب الكلام ...ثم أطلق أعنف صرخة شعرية في قصيدة (العشاء الأخير لصاحب الجلالة أبليس الأول عام ١٩٩٠م ولم يكتفِ بذلك بل أظهر أوزانها شعراً هكذا:

وشواعرٌ كي لا أُسمي واحداً، يتسترون وسترهُم عُريانُ!
يزنون بالقبَّان أبياتاً لهم (فيميل) من أوزاره القبانُ
في كَفَّة تَسبيلة ودارهم وبكفة تفعيلة وبيانُ
متفاعلنٌ متفاعلن علاَّنةً متفاعلنٌ متفاعلن علاَّنُ
وتقرقعُ الأوزان دونَ مَبادئ لمبادئ ليست لها أوزانُ

وقد بسط لنا الدكتور عزالدين إسماعيل هذه القضية وعرضها في كتابه التفسير النفسي للأدب..باعتبار أن الأوزان الشعرية لها علاقة بالحالة النفسية للشاعر.. وقد أورد ذلك الاستقراء الذي طرحه الخليل بن أحمد الفراهيدي في ذلك حيث ذكر بأن العرب كانوا ينظموا أشعارهم التي تعبر عن مشاعر حزينة بأوزان الطويل والبحور التي تتميز بسعة التفعيلات لاستيعاب تلك المشاعر الحزينة.. وأنهم عندما يفرحون فانهم ينظمون أشعارهم بالأوزان القصيرة ومجزوءت ومشطورات البحور الشعرية.. وكان ذلك بطبيعة الحال استقراء عام ذكره الخليل بن أحمد دون الدخول في ميدان تطبيقي من خلال النماذج التي تدلل على ذلك – ولذا بقي استقرا الخيل بن أحمد ناقصاً وغير قاطع الدلالة.. حيث قام الدكتور عز الدين إسماعيل بعرض نماذج شعرية مخالفة لما ذكره الخليل حيث جاء بقصيدة قصيرة البحر والوزن في رثاء أم السليك لولدها.. ودلل بذلك على أن الأوزان الطويلة ليست هي أوزان خاصة بالأشعار الحزينة وإنما كذلك الأوزان المجزوءة والبحور قصيرة النفس والوزن.. وللأسف أن الدكتور عزالدين قد أعتبر ذلك نهاية المشوار، وأن التقرير والقول بوجود علاقة مابين الحالة النفسية للشاعر والأوزان الشعرية فيه الكثير من المجازفة وعدم المنطق النقدي.. وأشار خاصة وأن الخليل بن أحمد واضع علم العروض قد ترك الأمر استقراءً ذاتياً ....

وقد يعن لنا أن ندلي بدلونا في هذه القضية على أن نتفق أولاً على أن من البحور الشعرية ما يكون أكثر قدرة على استيعاب التجربة الشعرية والشعورية عامة، وسبق أن قلنا بروعة بحر البسيط والكامل في هذا الميدان يليهما بحر الطويل.. والسريع والوافر والرجز والهزج ... وغيرهم، ويكاد يكون بحر الطويل قادراً على استيعاب كل التجارب الشعورية وخاصة التجارب الشعورية الحزينة إلى حد كبير، على أن لا نغفل أن امرأ القيس في معلقته من بحر الطويل قد أعطى للبحر تجارب أخرى متنوعة ومتعددة شعوراً وموضوعاً وشعراً ومعاناة..وبالتالي كان قولنا ذلك بالنظر إلى قصيدة ابن الرومي في رثاء أبنه وقصيدة محمود سامي البارودي (وداع – محا البين ما أبقت عيون المها) ... وقد يلحظ المتابع والناقد الفطن أن أكثر القصائد شيوعاً وانتشارا تلك القصائد التي تنتمي إلى بحر الطويل والكامل والبسيط ..... سواءً من العصر الجاهلي وأشعار الجاهليين أو مختلف أشعار

العصور الأدبية بين المهتمين، وقد يكون لذلك تفسيراً عميقاً قد لا تدركه بعد تفكير وتأمل..وقد خطرت في ذهني خواطر أهمها أن قوة الموهبة وحرارة التجربة هي التي تدفع بالشاعر إلى بحر الشعر الذي ينبغي أن يخوضه ليجد فيه – وفي نفسه الرغبة والقدرة – القدرة والعنفوان والزخم والأمواج والرياح التي ستدفع به إلى أن يصل إلى شاطئ الانفعال ودفء الإلهام ولذة التجربة وفوائد السفر وتجارب الرحلة وهدوء الأعصاب،وأيضاً للمفردات ومخزون الشاعر ونوع التجربة ومسافاتها بعداً لا يستهان به أبداً.. أما قال المتنبي وهو يقذف كافور بحممه ونيرانه (من البحر البسيط)!؟:

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أمَّا الأحبة فالبيداء دونهم فليت أنها بيد دونها بيدُ
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تتيمه عين ولا جيدُ
يا ساقييَّ! أخمرٌ في كؤوسكما أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيدُ
أصخرةٌ أنا؟ مالي لا تحرِّكُني هذي المدام ولا هذي الأغاريدُ
لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معه إن العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ

وأيضاً الشاعر عندما ينظم قصيدته ألا يقوده انفعاله إلى البحر الشعري والوزن ثم يعتمد الشاعر ويتكئ على انفعاله وموسيقى البيت الأول ليكمل الرحلة على نار التجربة والانفعال وموسيقى ووزن البيت الأول إلى أن يبلغ غايته ... كلا، كلا، أنها الموهبة ونار التجربة وقوة الأمواج وسرعة الرياح التي تجري بسفن المعاناة، وحساسية الأذن الموسيقية للشاعر، وشعوره بالارتياح والاطمئنان إلى البحر الذي هو فيه، وإحساسه بالقدرة على إيصال ما يريد أن يقوله بهذا الوزن أ وذاك، أو إحساساً ما بالتكافؤ بين التجربة والوزن.. ومن ثم الشعور بالأمان الشعري والعروضي لإيصال تجربته كما هي في نفسه إلى نفوس الآخرين ...أليس كذلك؟!

وقد تكون القضية تتعلق بمزاج وذوق وطريقة خاصة أو خبرة عميقة لا يستطيع الشاعر ترجمتها لكنه لا يجد ما يقوله تعليلاً إلى ميزان خاص في نفسه ولا شعوره، ولا وعيه لأنه ليس من السهل على أي شاعر أن ينظم قصيدة ما على بحر من دون أن يكون هناك دافعاً آلياً وذاتياً من الداخل.. فقد ينظم الشاعر قصيدة ما في إحدى الليالي من وزن وبحر بذاته فلا يمكننا في الصباح – وبع نظمه القصيدة – أن نطلب منه أن ينظمها من بحر وزن آخر لتكون مطابقة تماماً مرة أخرى لما اسبقها، وإذا ما حدث فلا شك في وجود اختلاف بين التجربتين الشعريتين أو سيكون حتماً هناك تباين واختلاف ... وهناك قول (دارج) فحواه (كل إنسان ينام على الجنب اللي يريحه) وهذا طبعاً في مجال الحياة عامةً، أما في مجال النفس والشعور فأن تكون النفس والإحساس والشعور الذاتي المنبع الأول والأخير لأي

تجربة شعورية ... فلا شك في ذلك..لأن هناك ما يقال له المعنى النفسي أو معنى النفس فنقول مثلاً: لقد قال فلان المعنى الذي في نفسه، وعند تقويم وتقييم العمل الأدبي في أي زمان أو مكان فعندما نطبق كل المناهج الأكاديمية والخاصة والعامة والتذوقية والجمالية وقضايا المعنى والمضمون والصور والظلال والألفاظ والإيحاءات وكل ذلك..فإن هناك ذلك الشعور الهائل بالأثر الذي يتركه العمل الأدبي شعراً، وهو ما يطلق عليه المقياس الأدبي التاريخي والذي يجعل من القصيدة مثلاً – أي قصيدة – مثاراً للإعجاب الجدير بالاحترام بلغة العمل الأدبي أو بغير لغته، فالقصيدة التي هزت المتذوقين للشعر أيام كافور الإخشيدي مثلاً ما زالت تهز – وستظل كذلك تهز– كل المتذوقين لأن القصيدة كانت من تلك المعاني التي تسكن النفس العظيمة في أبي الطيب، وأجزم أن المتنبي لو كان قد نظمها مثلاً بغير ما هي عليها من وزن وتفعيلات لما وصلت أو لما بقيت خالدة الأثر بنفس القوة التي بقيت عليها بذلك الوزن والانفعال النفسي والشعري، ولكانت فقدت تلك الموسيقى والمقياس الأدبي والإنساني الذي ضمن لها خلوداً وأثراً عظيماً ونحن نقيسه بمعاني نفس الشاعر وهو يرى كل أمانيه وآماله التي علقها تتبدّد وتذهب أدراج الرياح ... ومع ذلك لا يمكن لنا أن نغفل المقومات الأخرى لعظمة العمل الإبداعي ... إذن لا شك بأن الوزن والتفعيلات العروضية من أسباب بقاء وخلود العمل الإنساني والأدبي والشعري، وكذلك هو الأمر بالنسبة للقافية ... فهناك القافية القوية القادرة على أن توصل المعنى والمعاناة بجرس إيقاعي قوي، وهناك من القوافي – أو بالأصح (الروي) – ما يجعل من القصيدة وكأنها تسير على عكاز على وشك أن يتحطم والشاعر الموهوب يجد نفسه يمتطي انفعالاته الذاتية بمجموعة من المفردات والألفاظ والعبارات التي لها دلالات لغوية ذاتية وموضوعية، وبإيقاعات موسيقية حافلة وتكون متناغمة مع الكلمات والتراكيب الخاصة بلغة الشاعر وثقافته ... فيرسم لنا صوراً وظلالاً زائدة على المعاني اللغوية، فنجد أنفسنا وهي مع ذات الشاعر وانفعالاته ونحن نخوض بحراً من بحور الشعر ... وهو بحر أختاره الشاعر فوجدنا في بحره وتجربته ومعماريته ذواتنا المفقودة، وفي شواطئه نجاة انفعالاتنا من الغرق أو الفشل أو التعثر فلا يسع القارئ أو السامع إلا أن ينفعل مع، وبالعمل الأدبي فنياً وموضوعياً وتعبيرياً وشعورياً ... وهذا الحال ينطبق تماماً على عباقرة الشعراء، وكما ينطبق إيجاباً قد ينطبق سلباً ... أما كيف يكون ذلك سلباً؟ فالجواب هكذا باختصار شديد:

فقد سبق أن تحدثنا عن التناسب الذي يصنعه بحر الكامل للشعر السياسي والقومي والانفعالي والثوري، هو نفس الحال الذي يقوم به بحر البسيط أيضاً – وقد سبق أن ذكرنا أمثلة لبعض القصائد التي وردت في موج هذين البحرين مع بحر الطويل وأحزانه وتعدد موضوعاته وأغراضه.. وهنا كان من الضروري أن نلفت نظر القارئ اللبيب إلى أن

الفضول قد وقع في مطب الانفعال من خلال خوضه غمار تجربته الشعرية (العرب وفلسطين) وهي القصيدة التي نظمها عام ١٩٨٢م في قمة نضجه وعبقريته الشعرية واندفاعه القومي وانفعاله الوطني – وقصيدة (العرب وفلسطين) تقع في تسعين بيتاً شعرياً بالضبط – ورغم وفاته في عام ٨٢م فكأنه يشير إلى نكسة العرب التاريخية عام ١٩٩٠م – والمطب الذي وقع فيه الفضول يكمن في الفشل الذريع الذي أصيبت بها التجربة الشعرية القومية والعربية حيث امتطى الشاعر أمواج بحر الرمل، وهو البحر المشهور بين الشعراء باستيعابه للأناشيد الوطنية مثل ((الله أكبر يا بلادي كبري) أو (أخي جاوز الظالمون المدى) أو (رددي أيتها الدنيا نشيدي) أو (يا سماوات بلادي باركينا) أو (عن طريق شقّه ذو يزن) أو (هذه يومي فسيروا في ضحاها) .... الخ الأناشيد التي لا حصر لها ... والتي هي ألحان القلوب تجاه الوطن وزناً وموسيقى ولحناً وعروضاً وضرباً وانسياباً وانفعالاً روحياً ... وهذه لعمري الكبوة الوحيدة التي وقع فيها الفضول وأعتقد جازماً أنه لو كان قد كتب له العمر لأدرك خطأه الكبير ولكان أصلحه بأي تضحيات كانت ومهما بلغت حتى أنه في بعض الأبيات في القصيدة يتخللها تعثر في الوزن الشعري والعروضي، ومعروف عن الشاعر أنه كان كثير التنقيح لقصائده.. إلى حد كبير جداً ومن يراجع ويقرأ بتمعن ديوان الفيروزه لوجد أثر ذلك واضحاً وجلياً من خلال البناء المحكم والوثيق والترابط القوي بين أجزاء القصيدة والبيت الواحد.. إلى الحد الذي نكاد نرى فيه تماثلاً قوياً من حيث أداء كل بيت شعري وكأنه يخرج مع بناء وتشييد أبيات معلقة زهير أبن أبي سلمى من مشكاة التجربة والعقل والموهبة والمنطق والذوق الواحد والموحد أضف إلى ذلك أنه أستخدم قافيةً رائعة لكنها لا تتناسب مع بحر الرمل، والدليل على ذلك أنه يقول مثلاً:

قدر، إنا خلقنا هازلينا قدر، إنا حيينا عابثينا[1]
قدر أن ترشد الدنيا ونرفضَ أن نبدو عليها أرشدينا
قدر أن تنتهي كلُّ المجانات في الناس ونبقى ما جنينا

وهذه القافية التي أستخدمها الفضول تناسب أكثر بحر البسيط والدليل هو قول ابن زيدون – (مع مراعاة الاختلاف في نوع العاطفة):

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

.... الخ القصيدة ...

والمدمن لقراءة الشعر سيجد قوة الإيقاع والانفعال وامتداد النفَس – بفتح الفاء – وأشياء لا تقال وإنما تحس ... فندعو المدمن لقراءة الشعر أن يعطي للأبيات السابقة وقعها

(١) وقد يكون الشاعر أراده نشيداً للضياع العربي.

في نفسه – أبيات الفضول ثم أبيات ابن زيدون – وسيجد الفرق بين القراءتين – بشرط القراءة الصحيحة والمتقمصة لتجربة الشاعرين ... وبذلك ندرك ونؤكد خاصية البحر البسيط والتي ذكرناها سابقاً في استيعاب التجارب الشعرية الكبرى.. نعم هكذا التجارب الشعرية الكبرى.. فهل لنا أن نتخيل – وهو أمر مستحيل أبيات وقصيدة العرب وفلسطين وقد احتواها بحر البسيط بأوزانه وآهاته، وتكون قافية الفضول كما هي.. – أو بغيرها – فلا شك أن التجربة الشعرية الكبرى التي خاضها الفضول في أكبر عدد من الأبيات – حتى كتابة هذه الدارسة كما هو بين أيدينا – ولو – التي لا فائدة منها هنا ولن تفتح باباً واحداً – توفرت للفضول وسائل إعلام يديرها بنو آدم وظروف مشابهة لما توفرت من إمكانيات ... وأيضاً القليل من الحظ العظم الذي حصل عليه نزار قباني أو أحمد مطر أو ماياكوفسكي أو شكسبير أو فيكتور هوجو أو جان جاك روسو – مع مراعاة الظروف المختلفة والعصور المتباينة والأجناس المتباعدة والمواهب المختلفة – أو نجيب محفوظ أو نسيم كشميم أو أحمد فتحي أ و أبو بكر بلفقيه أو علي حميدة أو أحمد عدوية أو ميمي جمال أو كاظم الساهر أو ديانا أميرة ويلز ومادونا، وقد نكون خرجنا من بلاد إلى بلاد وليس فقط من موضوع إلى موضوع، ولكن الحقيقة ستبقى حقيقة أبد الدهر ... وفحوى هذه الحقيقة أن العقول والنوابغ في بلاد كاليمن يكون مصيرها أن يطمرها السوء ويشوهها الحقد والدمامات والعجز وضيق الأفق، وشره الإثم ولعنة الفراعنة وغفلة الحميريين وصفعة أكبر فأر تآمر على سد مأرب ... والحقيقة الأكثر سطوعاً هي أن أشعار الفضول التي يجمع بعضها (ديوان الفيروزه) والملحمة التاريخية والتجربة الشعورية الكبرى – (العرب وفلسطين) – واللعنة المأساوية الأبدية فلسطين السليبة، والأجناس الغريبة التي لوثت مقدسات المسلمين في فلسطين ... نقول إن تلك الأشعار أروع وأقوى وأضخم – وكل ما يمكن أن يكون إنصافاً – من كل تلك الخواطر الصحفية والعبارات الهوائية التي رفعت نزار قباني إلى أعلى ذروة وقمة شعرية ... ومشكلة الفضول الكبرى أنه ظل في اليمن ولم يخرج منها، وأنه أعطى لنفسه هواها وفي السنوات العشر الأخيرة من حياته الخاصة، وأنه لم يواجه الواقع بالعلنية الشعرية، بل نظم أشعاره وصوَّر الواقع مستخدماً رموزاً من وحي الطبيعة، فكان ذلك هروباً من الواقع مع تواصله من خلال قصائده الغنائية أما أشعاره التي بين دفتي غلاف (ديوان الفيروزه)، فلم يسمع بها أو يقرأها سوى عدد محدود من الناس الذين كانوا على تواصل دائم وبصفة شخصية مع الشاعر،فلما خرج ديوان الفيروزه لم يكن من السهل أن يتعرف عليه الناس،لأنه يتحدث بلسان شاعر لم يسمعوا منه سوى أشعار الحب والهوى وأناشيد الوطن، وعلاقة الشاعر بمجتمعه التي كانت على ما يبدو علاقة (برجماتية) بحكم عدم وجود مصدر دخل للشاعر وليس أمامه غير علاقاته ببعض الأفراد الذين يتمتعون

بمراكز ومناصب هامة، ونحن قد أشرنا إلى صدمة الشاعر بمرارة الواقع في باب الهم الوطني، ويكفي أن نعلم أن حرص الشاعر على علاقاته الاجتماعية كان تعبيراً عن سلوك خارجي ودبلوماسية التعامل. وهذا دفع بالشاعر إلى أن يعمل في شعره على استلهام الطبيعة وما فيها من صور ومظاهر الحياة والأحياء لتكون تجسيداً لفلسفته في الحياة ... وكأن قصة الفيلسوف الذي وضع (كليلة ودمنه) تتكرر بصورة تتفق مع روح العصر، ولم يعتمد الفضول على الإثارة الشعرية التي تبدو ملتمعة للوهلة ثم لا تلبث أن تخبو رويداً رويدا ...إنما أعتمد على لغة خاصة به، وهي لغة الخاصة من الناس، لغة خالدة بمقاييس الأدب.. والأيام هي الكفيلة بإنصاف الفضول من الدهر والناس.. ولكن وجب أن نقول بصدق أن الفضول لم تكن لديه الرغبة ليدفع فاتورة التصادم في مواجهة رموز الواقع (آنذاك) ولعل سنوات النضال التي سبقت تشفع له.. ولاشك في هذا ... وقبل كل شيء هناك إرادة الله في أن يكون الأمر هكذا، ولنا الأن أن نعود إلى موسيقى وأوزان الشعر في قصائد الفضول لنبحث علاقات الأوزان بالأحوال النفسية في شعره وتجاربه الشعرية عامة ...

ففي مجموع قصائد ديوان الفيروزه الذي يحتوي على (١٣) قصيدة عمودية، مكتوبة كما لو كانت من الشعر الحديث أو شعر التفعيلة ... فندرك ونحن نقلب صفحات الديوان أن أكثر قصائده منظومة وفقاً لتفعيلات بحر الرمل، ونجد قصيدتين من بحر البسيط، ونقابل في بعض القصائد عدداً كبيراً من الأبيات والتي قد تتوزع على عدد من حروف الروي والقوافي..فنكاد لا نشعر بذلك الانتقال ونحن نقرأ، لأن الحالة النفسية في الحالتين تكاد تكون واحدة، وفي ذلك يثبت الفضول إدراكه لأدب العصر وتفاعله مع مدارس وتيارات الشعر المختلفة التي ترى في اختلاف القوافي وتعددها نوعاً من تحطيم القيود التي فرضت على الشعر العربي فأسأت إليه من حيث لا تدري.

وهناك ارتباط وثيق بين بحر الرمل والحالات النفسية والشعورية عند الفضول، وقد أشرنا سابقاً إلى أن كل أناشيد الوطن التي نظمها الشاعر – أو غيره مثلاً – كانت من بحر الرمل (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن (مكررة)، ولذلك نقول: أن يعبر شاعر عن حبة للوطن بأناشيد من بحر الرمل فأمر طبيعي لأن فيه تجسيد موسيقي لتلك المشاعر الوطنية وألحان المطربين وتجاوب الطبيعة مع ذلك، ولكن أن ينظم الشاعر ذاته قصائده التي يفلسف فيها الحياة وينتقد المجتمع والوطن والأمة العربية .... و..... و... و فأمر فيه نظر وتحته عشرات الخطوط وأمامه مئات من علامات الاستفهام؟! وقد يكون لنا الحق في أن نقول: أليس في ذلك معنى من معاني النفس الإنسانية التي تحب وتحب و تحب.. فإذا ما حاولت أن تعبر عن بغض ما استطاعت أن تقول إلا حبك يا وطني ... ما استطاعت إلا أن تحب وتحب و تحب؟!

والفضول في ديوان الفيروزه هو ذلك السياسي الذي لا تجد له نظيراً، وهو ذلك الدبلوماسي الذي ما خانته دبلوماسيته مع كل الناس أبداً ... فما نشم تجريحاً أو مساساً بشخص قط ... والفضول هو ذلك الفيلسوف يريد أن يضع المرآة أمام الناس وهو الحكيم الذي اعتصرته تجارب الحياة ومعاملات الناس والرجال والسياسة، وهو المؤرخ الذي لا يهتم بوصف وتحليل الأحداث وإنما يعمل على إعادة صياغة التاريخ وفلسفة الحوادث والربط بين الأحداث وما عليه الواقع ... وفي اللحظة التي تعتقد أنه يقصد الوطن فأنك تعتقد أنه يتحدث عن الأمة وفي الزمن الذي تذهب فيها إلى أنه يقصد ويعني الجزء فإنه يقصد الكل ... لأن الحياة الإنسانية مترابطة كأشد ما يكون عليه الترابط ولأن فلسفة الحياة أمر لا يخص أمة دون غيرها وخاصة في ميادين فلسفة الحق والخير والجمال، ولذلك يطالعنا الفضول وكأنه بحق فيلسوف جمع القرون ومئات السنوات بين يدي القرن العشرين، وكي لا نكون في موضع الاتهام بالمبالغة نكتفي بالدعوة إلى قراءة الديوان قراءة شعرية ... ولكن بروح الفيلسوف الشاعر.

...قد تكون لكلمات ناقد كبير بحجم سيد قطب بعض الإنصاف لشعر الفضول حيث يقول: ((منذ عهد قريب جداً، كشفت عن ظاهرة تستحق التسجيل وذلك أن لوناً من ألوان الموسيقى، يتفشى في ... على اختلاف أوزانه وموضوعاته ويجب قبل الحديث في هذا أن أذكر أن موسيقى القصيدة، غير وزنها فالوزن يتحقق بأي الألفاظ ولكن الموسيقى كما تعتمد على الوزن تعتمد على الألفاظ والتراكيب الخاصة – هذه هي الموسيقى السمعية، ولكن هناك موسيقى أخرى أرقى وهي الموسيقى الفكرية، ثم الموسيقى الروحية، وتتحقق الأولى بالوزن والألفاظ والثانية بتسلسل الفكرة وتلاؤم أجزائها والثالثة بالجو العام الذي يحس به القارئ للقصيدة،وما من شك في أن جواً نفسياً خاصاً يحفُّ بالقارئ دون أن يحدد أسبابه ، وهذه الموسيقى الروحية هي التي أعني أنها واحدة ... وهي من لون واحد ... لون الموسيقى الريفية ! موسيقى أولئك القرويين) الغرباء وهم يرتلونها في نغم رتيب،فيه شجو وفيه ألم وفيه حنين ولكن فيه كذلك رجولة وخشونه وروعة وتعليل هذا من الوجهة العلمية سهل، ونظرية ((العقل الباطن)) تفسره فقد (أنست) هذه الألحان في نفس الشاعر وهو طفل ... وهو يقول عن هذا الريف:

((إني فقدتُكَ في الطفولة غافلاً عَّما حويت من الوجود السامي
لكن وجدتُكَ إذ كبرُتَ بخاطري رمزاً أحيطَ بغمرةِ الأبهامِ ....))[1]

ولعل هذه الموسيقى أكثر أنواع الموسيقى اتحاداً بموسيقى شعر الفضول ... حيث في شعره تلك الألحان والأنغام والآلام والتلاحين الريفية اليمنية عامة وأرياف تعز وقضاء

(١) ديوان سيد قطب من المقدّمة.

الحجرية خاصة ... بدلالة الأشجان التي تجتاح من يستمع للشعر والألحان وأنغام الشعر وقصائد الغناء وترانيم النفوس اليمنية النبيلة .

وقد يكون من المناسب أن ندخل موسيقى شعر الفضول الغنائي.. من باب موسيقى الأناشيد الوطنية، ((فإن من عزم الأمور أن نختتم تطوافنا بالنشيد الوطني للجمهورية اليمنية ومقارنته بأسلافه وأشباهه ...لقد سبق التنويه إلى هذا النشيد في سياق تطور الفن الغنائي والإنشادي من ناحية شعرية وفنية غنائية، باعتباره ملمحاً من ملامح تطور شعر الغناء وغناء الشعر ...)) [1] ... وقد كان النشيد الحادي عشر من (الياذه هوميروس) هو النشيد الوطني لليونان، وكذلك كان النشيد الحادي عشر زفة وداع المحاربين، والنشيد الرابع والعشرين تحية استقبال المحاربين وفي العصر الحديث كان الهولنديون عام ١٦٦٠م، أول من جدد النشيد الوطني عن الأصل اليوناني وقد قام النشيد على قاعدة الخلفية التاريخية والكرائم الخلقية، وإيضاح الوجهة السياسية. فكان النشيد الهولندي قدوة لغيره في أوربا حيث تبعها الفرنسيون عام ١٧٨٩م، فكان النشيد الفرنسي أطول وأحمس.. لأنه من إنشاء ضابط شاب كان متقداً بالثورة وقد تسمَّى ذلك النشيد (المارسلياز) نسبة إلى (مرسيليا)، ثم تبعته بريطانيا، وفي عام ١٩١٧م – الثورة البلشفية – توهج نشيد الثورة السوفيتية أعلى رنيناً وأحمس شعراً وأعرض أصواتاً ونغماً.. وفي عام ١٩٢٥م كان نشيد مصر الوطني من تأليف مصطفى صادق الرافعي:

حماة الحمى يا حماة الحمى لقد لهبت في العروق الدِّما

ثم كان نشيد أحمد شوقي الأقوى التزاماً بالشروط الفنية والتاريخية فنال القبول:

اليوم نسود بوادينا ونعيد محاسن ماضينا

أما في الجمهورية اليمنية... فقد كان الوقوع على اختيار نشيد الأناشيد (رددي أيتها الدنيا نشيدي من كلمات الفضول وألحان وغناء وأداء أيوب طارش عبسي... ليكون نشيد اليمن الموحد الواحد... فكانت أكثر صلاحية لاشتمالها على شروط النشيد الوطني من خلفية تاريخية وتصوير وجهة سياسية وقيم أخلاقية ووطنية، كما يبرهن أهم أجزائها – كما ذكر ذلك البردوني:

يا بلادي نحن أبناء وأحفاد رجالك
سوف نحمي كل ما بين يدينا من جلالك
وسيبقى خالد الضوء على كل المسالك
كل صخر في جبالك كل ذرات رمالك

(١) البردوني/ الثقافة والثورة في اليمن. ص ٥٥٩ وما بعدها بتصرُّف.

كـــل أنـــداء ظلالـــك ... ملكنـــا
إنهـــا ملـــك أمانينـــا الكـــبيرة ... حقنـــا
جاء من أمجـــاد ماضـــيك المـــثيرة ... ارثنـــا
في ســـيوفٍ زارت الـــدنيا مغـــيره

((يكتنز هذا المقطع الوطني بكل أماناته وبكل واجبات البنوة الوطنية للأبوة التاريخية هذه هي الواجهة السياسية أما الخلفية التاريخية فتكمن في الأشعار الثلاثة الأخيرة.. فهـــذا الأمتلاك الوطني من تراث تاريخ هذه البلاد (جاء من أمجاد ماضيك المثيرة) أمـــا الوجهـــة الأخلاقية والسلوك القويم فتتضمنها الأبيات المبتورة من النشيد (بعد الوحدة):

قـــد قهرنـــا المـــوت بـــالموت اقتحامـــا
وبهرنـــا الخـــير بـــالخير التزامـــا
نحـــن أوفـــى النـــاس للنـــاس ذمامـــا

إلاّ أن الحذف غير المبرر هو انتزاع ما يمثل صورة الأخلاق الوطنية التي يفصح عنها ذلك المقطع الذي جسد الشجاعة بقهر الموت بالموت، وبهر الخـــير بـــالتزام الخـــير ...ثم يتساءل البردوني: أليس في تنحية هذا البيت تنحية شرط من شروط النشيد الوطني ...)؟!

ولعله يجدر بنا اقتطاف آخر ثمرة من كتاب البردوني الثقافة والثورة في اليمن وهـــو يقول:

((أما أيوب طارش فتمتع بخامة ملحنة فأدى صوته من كل طبقاته كلما يحس وكلما يوحي إلى سامعه، فذكر بالتراث بدون أن يكرره، وظفر بشاعر خاص بـــه هـــو عبـــدالله عبدالوهاب نعمان، الذي يعرف هندسة الكلمة الشعرية والذي يجيد تطويعها على قامـــة الصوت الغنائي، لأنه عرف خامة (أيوب) ففصَّل أغنياته على قامة صوت مغنيه، كما يوحي هذا المقطع:

نجـــم الـــصباح، قـــل للـــصباح إن لاح
قلبي جراح، ظلام مغلق، ما عليه مفتـــاح

فهذا التقطيع يتدرج من آخر مقدمة اللحن إلى اختتام الأغنية التي قطعها شـــاعرها متفاوتة القامات: نجم الصباح: مستفعلان – قل للصباح: مـــستفعلان،إن لاح: فعـــلان، والملحوظ أن التفعيلة الأولى على حجم التفعيلة الثانية على حين كانت الثالثة أقـــصر (إن لاح)، وجاءت التفعيلة الرابعة من حجم التفعيلة الأولى/ قلبي جراح/، ثم أختتم المقطع بكل ما في التفعيلات من طاقة صوتية: ظلام مغلق – ما عليه مفتاح – فكان هذا الاختتام معبأ بعناصر سوابقه وبخصوصيته، فتفجر من كل الطبقات الصوتية، فشكل انفجار نفسه ومـــا تنفس فيه، وتتالت مقاطع القصيدة على هذا النحو الغنائي والمعد سلفاً للـــتغني... إلا أن

نعمان لم يتبع هذه الطريقة في كل قصائده الغنائية، فأنشودته التي يؤديها أيوب: (رددي أيتها الدنيا نشيدي) لا تشد عن أي قصيدة رقيقة من بحر الرمل، ولعل الشاعر جارى قصيدة (الجندول) لعلي محمود طه – غناء محمد عبدالوهاب، إذ توالت قصيدة نعمان هكذا:

رددي أيتها الدنيا نشيدي ردديه وأعيدي وأعيدي
واذكريه في فرحة كل شهيدِ وامنحيه خُلَلاً من ضوء عيدي

وهكذا توالت القصيدة رباعية المقاطع بدون لازمة كلازمة أغنية الجندول التي جاءت لازمة كل مقطع من حرفية أول بيت:

أين من عيني هاتيك المجالي يا عروس البحر يا حلم الخيالِ

فهل أراد النعمان بترك اللازمة تشكيل فارق بين الأنشودة السياسية والأغنية العاطفية؟!)) أ.هـ.

ونظراً لأسباب لم يتسن لنا إكمال هذا الباب الخاص بالأوزان الشعرية وعلاقتها بالحالة النفسية، ولكن من باب الإحاطة بالشيء وجب أن نذكر أن الدكتور عز الدين إسماعيل قد نفى وجود علاقة بين الحالة النفسية للشعر والأوزان الشعرية كما سبق وذكرنا، بل وأضاف عدداً من الأفكار أهمها أنه قام برد الأوزان والتفاعيل العروضية (فاعلن – فعولن – متفاعلن – مستفعلن – مفاعلتن – فاعلاتن – متفاعلن – مفعولات – مستفعلن – فاعلاتن ....)، ومزج بعضها ببعض قائلاً إننا عندما نقرأ هذه الأوزان عامة أو أوزان البحور خاصة لا نكاد نجد صلة نفسية .. وبذلك أعتبر أنه دلل على صحة رؤيته.. ويكفي هنا أن نقول رداً عليه ...إن العلاقة النفسية قائمة بين المعاني الشعرية التي صبت في قالب الأوزان وبين نفس الشاعر، ومن الطبيعي أن لا يكون لتلك الأوزان المجّردة أي صلة أو دلالة نفسية لأنه من الصعب جداً أن نجعل من الميزان دلالة على ما ليس فيه ... أي أن الميزان ليست له دلالة أو أهمية إذا لم يكن فوقه ذهباً أو نوعاً من السلع .... لأن الميزان تتبدى قمته وأهميته بما يوزن فيه.. وليس فارغاً، وكذلك الأوزان الشعرية، من الطبيعي أن لا تكون للتفعيلات أي دلالة بدون تلك الألفاظ والمعاني المشحونة بالأحاسيس والتجربة الشعرية ...

مع ملاحظة أن أشعار الفضول أخذت قوالب الأوزان الشعرية التي تميل إلى اللحن والمزاج الغنائي، فهي وإن كانت عروضية وملتزمة بالبحور فهي أقرب إلى التفعيلات التي تميل إلى الطابع الغنائي ... كما كان حال الشعر العربي الذي كان صالحاً للغناء والعزف..وطبعاً لم يكن الشعر العربي كله قابلاً للأداء الغنائي، رغم أنه يحمل مفهوم الشعر الغنائي المعبر عن الذات بكل أحاسيسها واعتبارها محور الإبداع الشعري.

الباب السابع عشر

الحكمة في شعر الفضول!

والمحبون أهونُ في الخلـــق، إذا كـــان فـــيهم الحـــبُّ هانـــا

يقال للرجل الذي امتحنته الحياة والدنيا ... (لقد أنضجته التجربة) والإنسان يعيش حياة مديدة حافلة بالمعاناة والتجربة باختلاف أنواعها ودرجاتها.. فهناك تجربة الجوع أو العلم أو الحزن أو الموت أو الصراعات بين البشر.. الخ تلك القائمة الطويلة من التجارب التي يحفل بها عمر الإنسان، فلا يصل الإنسان إلى الثلاثين من عمره إلا واعتبر نفسه أكبر من عانى من الحياة ومتاعب الحياة والناس، فتجسَّدت فيه هذه السنوات على صورة أقاويل أو تجارب مر بها ... والقليل من الناس من يلتقط هذه الآلام فيصوغ منها أجمل حكمة وأخلد عبارة ... وما الأمثلة والأقاويل التي وصلت الينا إلا ثمار مئات السنين وملايين البشر... اجتمعت على لسان أو ألسنه ....

وقديماً سمعنا بحكيم الفرس وحكيم اليونان ... وغيرهم من الحكماء، ومن الذي لا يعرف (لقمان الحكيم) ... وكذلك فهَّم الله نبيه سليمان عليه السلام.. وعلمه الحكمة، فالحكمة علم من عند الله، تعتمد على فهم الحياة وقوانين الحياة وسنة الكون، والسنن الكونية، وقضايا التاريخ، فليس كل من صاغ عبارة كان حكيماً..لأن الحكمة ضالة المؤمن لا يفتأ يبحث عنها.. ولذلك قيل خذوا الحكمة من أفواه المجانين ... وهي إشارة مجازية لبيان قدسية الحكمة، وكثيراً ما نصادف المجانين وهم ينظِّرون – شدة مع الكسرة فوق الظاء – ويطلقون الحكمة ضربة لازب، فنكاد نقول له: ما أصدقك ...!!

إذن الحكمة هي لسان المعاناة ونضج التجربة وسرعة البديهة وقوة التصور، وموهبة الإصدار للأقوال وتعميم التجربة على الناس... والمرء بأصغريه قلبه ولسانه... لأن القلب واللسان هم رادار الإنسان في هذا الكون، فالقلب يستقبل تجارب الحياة والناس ويتفاعل معها، واللسان يطلق ما تفاعل معه القلب من التجارب على هيئة حكم إنسانية لتكون للناس دليلاً... فمن عادات الإنسان إنضاج التجارب والتناضج معها بنية المصالح الإنسانية العامة، وما من حكمة إنسانية... إلا وهي تفرد أجنحتها لتطير إلى كل الشعوب بغض النظر عن اللون والجنس والأرض كما حدث مع ابن المقفع (١٤٠هـ) الذي نقل كليله

ودمنه من الفارسية التي بدورها كانت نقلاً عن الهندية... فالحكمة فيها ليست خاصة بلون أو جنس بل إنها حكمة عالمية، وإذن فالحكمة أشبه ما تكون بالعولمة بطريقة تلقائية دون قصد... وبذلك فقد سبقت عولمة الحكمة... النظام الدولي الجديد الذي يريدها عولمة ثقافية وسياسية واقتصادية بل وأكثر جدة أو بمصطلح آخر – أن تكون العولمة هي نهاية التاريخ، كما قال ذلك فيلسوف الرأسمالية الغربية ((الأمريكي فوكوهاما... الذي من أصل ياباني))..

ولعل المتخصصين يعرفون المستشرقين وأذنابهم من الذين قالوا بأن العرب من الجاهلية... لم تكن لهم حياة عقلية (ثقافة معرفة حضارة.. تجارب حكم وغيرها).. ولعل الحكمة تنبع من معين لا زمان ولا مكان له فقد نلاقي في تلك الابدية والصحراء العربية شاباً شاعراً... عجنته الحياة وأنضجته التجارب فقال في معلقته – وهو طرفة بن العبد – قبل أن يقتل وهو في مقتبل العمر:

ستُبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبـــار مـــن لم تُـــزَوِّدِ
ويأتيك بالأخبار من لم تبـــع لـــه بتاتاً، ولم تضرب له قـــط موعـــدِ

فما الذي أنطق هذا الشاب غير نضج التجربة، وحرارة المعاناة وناريتها، والاستعداد الكامن في نفسه والمتأصل في وجدانه وضميره ... فجعلته يقف أمام الأيام لينطق لنا بحقيقة ما تبديه الأيام، وما ستبديه، فهو يدعونا إلى التحلي بالآناءة والصبر على التعلم وعلى تتبع الأيام والأحداث .... وكأنه يريد أن يقتل نزعة حب الاستطلاع أو غريزة حب الاستطلاع عند الناس ... ولكن هيهات هيهات.

عندما نقارن بين طرفة بن العبد في ذلك العـــصر وبـــين الـــشابي في هـــذا القـــرن العشرين... لما أدركتنا الحيلة أو أعيتنا، حيث أنطقت المعاناة أبا القاسم الشابي.. فقال من الحكم ما لم يقله الكهول و الشيوخ.. وما لن يقوله هو بذاته لو كان قد عاش مديداً مـــن العمر... كهذه الحكمة أو الحكم المتتابعة:

إذا الشعب يوماً أراد الحيـــاة فلابـــد أن يـــستجيب القـــدر
ولابـــد لليـــل أن ينجلـــي ولابـــد للقيـــد أن ينكـــسر
ومن لا يحب صعود الجبـــال يعش أبد الدهر بـــين الحُفـــر
ومن لم يعانقه شـــوق الحيـــاة تبخـــر في جوهـــا وانـــدثر

وهناك من الشعراء الذين تميزوا بلون الحكمة دون أن تقيدهم السنوات، أو تسجن ألسنتهم في أفواههم، فليس كل الحكماء شعراء، وليس كل الشعراء حكماء... ومن أبرز الشعراء الحكماء: أبو الطيب المتنبي الذي أنطقته الآمال والطموحات والمواجهات والموهبة والفراده ليتحدث كأعظم حكماء الدنيا..

الظلم من شيم النفوس فإن تجـــد ذا عفّـــة فلعلـــة لا يظلـــم

ومن قبل زهير بن أبي سلمى في معلقته الخالدة... ومن ومن ومن... ومن يغترب يحسب عدواً صديقه...الخ الأبيات.. فزهير قد أنضجته الموهبة والسنوات الطويلة والحروب الطاحنة، والاتزان العقلي، والهدوء النفسي والقراءة لأحداث التاريخ الإنساني في الجزيرة لا أكثر... فماذا كان سيقول لو تثقف بالثقافات الإنسانية المختلفة... ومن الحكماء الشعراء أو الشعراء الحكماء أبو تمام وأبو العلاء المعري وعلى عبدالعزيز الجرجاني... وغيرهم لا حصر لهم... مع أن الذين تفوقوا كانوا قليلاً، والكثير من الشعراء لهم بعض الأبيات التي يبدو عليها مزاج الحكمة، ولكنه مزاج خفيف..كأحمد شوقي مثلاً.. لأن الحكمة موهبة قبل كل شيء ثم ثقافة..الخ ذلك..

ومن طبيعة شعراء الحكمة سرعة البديهة وقوة التصور والخاطر، وحضور الذهن واتقاده، والشاعر الساخر أقدر على شعر من غيره، ونقصد بالشاعر الساخر، الشاعر الذي يمتلك مقومات السخرية اللاذعة ن لأنه بذلك اقدر على صياغة الحكمة المتلألئة..

وفي حال مثل حال الفضول.. فإن الحكمة وليدة موهبة وتجارب ومعاناة ونضج عقلي ووجداني ونضالي وعاطفي، واحتراق بتجارب الحياة والناس.. ولأن الفضول أشبع الناس حباً وعشقاً وهياماً بالوطن ثم بالمرأة ثم بالوطن ثم بالمرأة ثم بالشهداء وقبل ذلك بشهداء الثورة الدستورية..فكيف للفضول أن يفلسف الحب والحكمة أو قل يفلسف الحكمة والحب والمحبين، سواء كانوا محبين للوطن أم للمرأة أم للأهداف النبيلة أم للنفوس السامية والأريحية.. إنه يقول في قصيدة الفيروزه ...في آخر بيت في القصيدة، وبعد أن تحدث عن حب الوطن الشعرية وكأنه حب بين أثنين أو بين الناس جميعاً هكذا:

(غدرنا بهوانا – فقدنا الأمانا – قسمنا الدموع ارثاً حزينا – وسيمشي مع الندامة والأحزان – في ذمة الضياع كلانا – حبنا كالضرير – ندى أدمع – لن تعيد الدموع حباً غدرناه – نثرتنا الرياح لليل – خدعتنا الظنون – وذبحنا أشواقنا – ومشينا فوق أشلاءنا وفوق دمانا – رزحنا تحت الخطيئة – كأن صلبنا أبانا – وتركنا الظلال تبكي علينا – هجرنا الضحى – أسبل الدمع – كان فيئها ملتقانا – لؤلؤاً.. فوقها أدرنا رحانا.. وهوينا من السماء – وسقطنا على التراب ....)، وبعد هذا الاستطراد في ايراد الصور الإنسانية يأتي إلى نهاية القصيدة ليضع خلاصة القصيدة والمعاني لأن الحكمة والتجربة والموهبة هي التي أنطقته ليقول:

والمحبونَ...
أهونُ الخلقِ – في الخلقِ ...،
إذا كان فيهم الحبُّ هانَا

ومعنى ذلك أن:

المحب لوطنه أهون الخلق إذا هان عليه وطنه أو حب وطنه.

والمحب للإنسان أهون الخلق إذا هان عليه أخيه الإنسان

و المحب للأرض النبيلة أهون الخلق – في الخلق – إذا هان عنده تلك الأهداف

والمحب أهون الخلق إذا هانت عليه نفسه أو هان عليه من يحب

امرأة أو ووطناً أو أهدافاً أو أرضاً أوأنساناً ....ولا شك أن ثقافة الفضول قد تجاوبت مع الثقافة العربية مع ثقافة نفسية أصيلة جمعته مع المتنبي – في قوله:

مَنْ يهنْ يسهلُ الهوانُ عليــه ما لجـرح بميِّـت إيـلامُ

..وهنا نسأل أنفسنا سؤالاً: أليس الهوان عند المتنبي والفضول هـو هـوان الأمـة العربية؟

وأبيات الفضول في ديوان الفيروزه تشع بلسان الحكمة.. وسنقتطف بعض النماذج الأكثر إشعاعاً... رغم أن كل أبياته تتبدى كل واحدة منها أكثر إشـعاعاً.. بالحكمـة.. فيقول في ركاب المجانين:

كُلَّما قلتُ: ((انتهى السوء عليها)).. تبدَّى هَرَمُ الـسوءِ شـبابا

فهو يتحدث عن الأرض التي طال الظلم والليل فيها ، والسوء رمز الظلم والفساد والغلاء والبشاعة والحقد..فهو يقول كلما اعتقدت أن السوء عليها قد كبر إلى حد الهرم، فإذا به يتبدى شباباً أو قد عاد شاباً قوياً..والبيت يتحدث عن الظلم الطويل الذي يزداد طولاً وشباباً وإن تطاولت به السنوات.. وهي كناية عن اليأس من انتهاء السوء والظلم.. وبالمعنى البسيط ((كلَّما قلنا انتهينا، قالت الأيام هذا مبتداها..)).

*((وانتصار الباطلِ المُتعَب،

أسوءُ سوءاً منه – فينا – أن يُحابَا))

.. ومعنى البيت باختصار أنه أسوأ من السوء – (الظلم) –أن نحابي وننافق انتصار الباطل الذي أتعبنا – وكما هو عليه من تعب – ولذلك فالسوء فينا أ وفي أنفسنا أشد من السوء الذي عليه الظلم ....

((وسقوط الناس أن يمضي بهـا الجهـدُ في اشـقائها جهـداً مُثابـا

وترى في مقتها الـسُّوءَ، هروبـاً مـن الفـضل، وإبقـاً واغترابـا

وشـقاء الأرضِ أن يُلزمهـا مجـدهُ مَـنْ أجْهَـدَ الإثم ارتكابـا))

ومعنى هذه الأبيات الثلاث يتلخص كما يلي – مع الحق في التأويل للآخرين –:

إن سقوط الناس من عين السوء والظلم – فلا يكون لهم وزناً أو حساباً... أن يمضي بالناس التعب والجهد إلى الشقاء فيكون شقاؤهم وجهدهم هذا ثواباً للظالم وللسوء، وكأن

هذا الشقاء أيضاً ثواب للظالم.. فمتى كان ذلك الجهد والشقاء ثواباً للناس أو للظالم فقد سقط الناس من عين الحياة و الوجود ولم يعد لهم ما يحفظ كرامتهم.. وكذلك يرى هؤلاء الناس أن في مقتهم للسوء وتعبيرهم عن بغضهم له.. ابقاً وخروجاً عن الطاعة وابتعاداً عن الفضل، فالفضل لديهم ألا يقتلوا أو يبغضوا السوء.. والخلاصة أنهم يرون في مقت وبغض السوء عصيان وابقاً ويقال العبد الآبق..أي العبد السوء – رغم انه من الواجب بغض السوء، وليس العكس.. وفي البيت الثالث... إن شقاء الأرض والناس أن يلزمها من أجهد الإثم ارتكابا –الظلم والطغيان – أن يحققا له المجد، فيكون السوء ماجداً، وقد أرتكب من الآثام، ما أجهد الآثم ذاته، فكم هي الأرض شقية تلك التي تبني أمجاد الأشخاص على حساب الشعوب كما حدث في اندونيسيا ومع سوهارتو.. تشسكو في رومانيا، وفي غيرها من الأرض والبلاد والعباد.. الأن أليست هذه حكم إنسانية خالدة..

ومع كل ذلك يبقى الأمل قائماً إلى آخر الدهر ... هكذا:

* كم كسوف يعتري الشمس ...
ولكنه لا يسلِّبُ الشمسَ ضحاها
أجلُ الصدق طويل طوله
ورحابُ الخيرِ ممدود مداها
****

* والدماماتُ قصارُ العمر..
مهما تبدَّت في عنفوان تتباهى
رُبَّ عملاق طوى قامتهُ..
لم يقصر طوَله حين طواها
وتعالي القزمُ لا يعطي له
قامةً، حتى لو صار إلها
****

* يا مصابين بعلم الجهل ...من
فيكم العارف والداري مصيره
إن علمَ الجهل لا يعطي مصابيه إحساساً بفقدان البصيره
خدر، صاحبه يحسب رقدته فوق الخوازيق وثيره.

إن بكارة الفلسفة أدبية، لأن بكارتها عقلية، وبكارة العقل متجددة، كما تتجدد بكارة حور العين في الجنة.. وبذلك تكون الفلسفة هي الطريق إلى الحكمة، والحكمة هي صور العين في العقل لأنها من ثمار العقل والفكر... لا أعتقد أن هناك حكمة لها وجه

واحد، وكما هو حال الحقيقة التي له عدة وجوه فإن الحكمة كذلك، ونحن عندما نبسط الحكمة التي أنطقت الفضول فإننا نتعرض لوجه واحد، وعلى القراء أن يبحثوا عن بقية الوجوه... لأنها وجوه جميلة كوجوه حور عين العقل والضمير والروح.. من العبث أن يقف القارئ الكريم وقفه سطحية مع كل أشعار الفضول، لأن ذلك مخالف للحقيقة التي يجب أن تكون، فالحقيقة أن نقف بوعي مع كل بيت من الشعر في ديوان الفيروزه بالذات، لأن للبيت الواحد من المعاني والملامح والوجوه ما يثير الإعجاب ويبعث على الدهشة والسؤال.. أين كانت هذه القصائد الشعرية والأبيات التي تعتبر بمقياس التاريخ من أروع ما نظمته الموهبة الشعرية للإنسان، وأبدع ما أنضجته – ديوان الفيروزه – لها امتداد ثقافي... وصله إلى حد ما مع بعض الأبيات التي نظمها العقل العربي، ولا بأس في ذلك، لأن أبيات الفضول اتسمت واختلطت بموهبته الشعرية والنقدية وامتزجت بروح العصر الحديث..

* قد يورقُ العودُ محطوباً..
مقطعة جُذورهُ
لو سقيناه حنانينا

يتحدث الشاعر عن نفسه وعن المحرومين من الحنان، فلو أعطينا الأشرار قليلاً من الحنان فلعلهمً يورقون بالخير، لأن بذرة الخير موجودة في كل مكان حتى في أولئك الذين يبدو عليهم من الوهلة الأولى أنهم فقراء الشعور ... فهي بذرة تريد من ينميها ويعمل على رعايتها.

* أيُّ مجد لكسيحٍ مُقْعَد..
أتعبَ الأسيافَ مشقاً وصليلا

– حكمة عن حال الأمة العربية، وعن الأشرار وعن السوء وعن الجبان وعن غيرهم وأمثالهم.

* – واهمٌ..
إن شئتَ أن يعطيك الحبَّ..
أو يمنحك الودَّ النقيا
جاهلٌ، نشأه الجهلُ
ورعرع في جنبيه قلباً جاهليا

فلا يعطي الخير والحب والسلام والود والنقاء جاهل نشأه – ونشأ في – الجهل لأن ذلك يخالف سنة الحياة ... ولأن الجهل قد صار منقوشاً على جدار القلب الجاهلي الذي بين جنبي من نشأه الجهل والسوء والظلم ... ولذلك يقول الشاعر:

* أيُّ شيءٍ قادر أن يقلبَ الحالك النفسِ
... حَميًّا مضريًّا
ألفُ سيفٍ في يدي مرتجفٍ..
لا تراها عينُه إلا عصيًّا

فينتقل الشاعر من الجهل إلى سواد النفوس وإلى الجبن الذي يرافق الجاهل والجبان والحالك النفس ...

* ليس يعطي الحبَّ إلا قلبُ من كان
أو من كادَ ... أن يغدو نبيًّا

... فقدان الشاعر للأمل بالعثور على الحب بين الناس والعدل هو الحب عند الشاعر ... فلذلك جعل من يعطي الحب أو العدل للناس يكاد يكون نبياً لاستحالة ذلك..

* إن أرقى نمط في الناس مَنْ..
قلبُهُ بالخيرِ مخضَّرٌ وريقُ

والقلب المخضر بالخير والموروث بالعدل أرقى نمط بين القلوب والناس، الأرقى من الناس هو ذلك الذي يقود جماعة أو أمة، قلبه مورق ومخضر بالخير والعدل للأمة التي حكمها.

ليس بئراً،
حُفِرَتْ شؤماً..
ففي قاعها، إما جفاف
أو غريقُ

وهذه مفارقة عجيبة لمن لا خير فيه أبداً، فالبئر التي حفرت شؤماً، لأنها حفرت، في غير مكانها، فإن قاعها لا يكون فيه غير شيئين فإما جفاف وخيبة ظلم، أوغريق وخوف وظلم وديكتاتورية بشعة، و إن ارتدت ثوب الأمم المتحدة والنظام الدولي الجديد.

* كيف يعطيك جمال الخير مَنْ
كلُّه للخير نبذٌ وعقوقُ
كيف يعطيك وقار المجد من نفسه
ما مجدت.. كيف يطيق ...!
أغنيات الشمس، لا يعزفها
غير قلب، فيه فجر وشروق
وحديث النجم لا يرويه منحدرٌ يمضغه عمق سحيق
في الثرى، تلصقه نفس ترابية، فهو على الأرض لصيق

جاهلٌ ....
ما نفسه – يحسبها..
جهله مأذنة .... وهي طريق..

.. فلا يذهب الشاعر بعيداً عن علماء النفس الكبار، بل إنه يفوقهم، فلا يعطيك جمال الخير – وليس الخير – فالشاعر نظر إلى أبعد من ذلك، أنه ينظر إلى جمال الخير لأنه التطبيق العملي للخير، ولم يقل الخير، لأن الوعود بالخير لم تأفل أ وتنتهي، فطالما وكم سمعنا أن الخير قادم.. ولذلك فالشاعر ذكر جمال الخير بالتحديد.. وكذلك وقار المجد، فلا يعرف المجد إلا من كانت نفسه ماجدة وطموحة..لأن الحالك النفس لا يطيق الأعمال العظيمة ... ولذلك يصيغ الشاعر حكمة قلبه الذي عزف أغنيات الشمس لأنه قلب فيه فجر وشروق.. فيه الخير وجمال الخير فيه المجد ووقار المجد، وتسلسل الحكمة بسلاسة ومنطق مذهل.. إلى نهاية المقطع بقوة وتجربة وأصالة وموهبة ممتازة.

* حزني لمن رفضت طفولتهم بهم
أن يكبروا فيما سوى الأبدان

... هكذا تتبدَّى أبيات قصيدة (في ذكرى ثورة ١٩٤٨م).. والتي نظمها في الثمانينات (٧٠–٨٠) – حيث قفز الشعر إلى الثورة التي أحتفظت بطهارتها ولم يدنسها المال والسلطان..

لا تطلقن علـــى غراســـك دابـــةً تأتي نواجـــذها علـــى الأغـــصان
ودع الـــدواب إلى اليـــف رقابهـــا أدب الـــدواب مذلـــةُ الأرســـانَ
والخير خصم السيئين فمـــا يُـــرى قـــبس يـــضيء بمكمـــن الثعبـــان
ومتى أفاضَ علـــى المجانـــة غبطـــة ســـوطٌ يحـــد مبـــاذل المجـــان
أو عـــانق الـــذوبان يومـــاً راعيـــاً يقظـــاً أطـــال مجاعـــة الـــذوبان

...ولعل القارئ اللبيب يدرك المعاني، وقد تكون إعادة القراة مفيدة لاستخراج كنوز الحكمة التي تنضح بها الأبيات السابقة واللاحقة.. وكل الديوان بلا استثناء ونكاد نزعم أن الديوان يقطر حكمة كما قطَّر الورد الندا ... في فمك..

حقد القصور على التفـــوق محنـــة تلقـــى الحيـــاء بـــسوؤة العريـــان
ولطالما لاقـــى الكمـــال خـــصومة شـــتمته فـــوق منـــابر النقـــصان
لا يحمل السيف الشريف غـــضاضة إن طاولتـــه هـــشاشة العيـــدان
ويُرى ثبوت الصدق فـــوق غـــراره يعطي العـــصي قناعـــة الـــبطلان

والبيت الثاني من المقطع السابق له صلة روحية بما قاله المتنبي:

إذا أتتك مذمتي مـــن نـــاقص فهي الـــشهادة لي بـــأني كامـــل

وطني أرحني مـن سـؤال حـائر متقادم، قد شـاب فـوق لـساني
ما للحقيقـة فيـك لا يبـدو لهـا ألق ... ومـا للـزور في لمعـان
كم دُلِّلِ الأطفال فيـك وألبـسوا يدل السخاب قلائـس الفرسـان
وتوثنت فيـك الـصغار وكلّـفَ الرشدُ الكـبيرُ سـدانة الأوثـان
وجثا شموخ الصادقين كمـا جثـت للانتـصار ضـراعةَ الخـذلان

وتتابع إشعاعات الحكمة الخالدة هكذا:

ومشى ثراء العقل فيـك منابـذاً، والمفلسفون... فـوارس الميـدان
وتبادل النـاس الركاكـة عملـة معصومة – أبداً – من الخـسران
فسما هبوط الجهل، واضطهدت به ضوءَ العيـون ضـرارةُ العميـان

*** ***

كم تشبع الأخـلاق وزراً حينمـا تهب الأثـيمَ سَـماحة الغفـران
وتـصادق الأثم الكـبير يـذلها وتـسوسها قربـاه كـل هـوان

والشاعر في أبياته التي تستند على أداة الصدارة (كم) كأنه ينفخ نار الحكمة ... فتتحمل الأخلاق – وتشبع – أوزاراً وهي تهب وتعطي الآثم السماحة والغفران والعفو والصبر ....

ولكم يهون الخـير أن تـصغي إلى دود الجـذوع.. حمـائمُ الأفنـان
رزق السيوف على الشجاع وما أتى رزقٌ إليهـا مـن ذراع جبـان

أيُّ أرض قاعُها قال بـأّن زقاقـاً – فيـه – أضـحى جـبلا
لا يؤاخي النجمَ إلا من يُرى كـل يـوم بالـضحى مغتـسلا
والـذي يحبـو علـى الأرض، ويألفُـه القـاعُ
يؤاخي الوحلا وإذا أذكـى بـه الـشرُّ علـى الخـير حربـاً
جاءها منقتلا إن من في روحة حنظلة لا يلاقيه الناس إلا حنظلا

في حياتي كم نفوسٍ مـرَّة شـئتُ أن أهـزم فيهـا العلقمـا
فأنتـهت كـل حـلاوتي بهـا فـشلاً في مرِّهـا منـهزما
أي نـاموسٍ بـه النـار أتـى جمرهـا بقطـر مـاء شـبما

والبيت الأخير معناه، أن ليس هناك قانوناً وسنة كونية جاء بها أن الناس يمكنهم أن يحصلوا على قطرات ماء باردة من جمر النار فكذلك لا نجد في النفوس المرة أي خير أو عدل أو حلاوة.

كم أتى الريب ارتجافاً، في طمانينة النفس وفي لـــب اللبيـــب
لن يتم المرء إلا قاتلاً، وحشة الكـــامن في الـــشك المريـــب،
كل نفس وبها وحشٌ من الشك يعطيها ضـــروات النيـــوب

هذه البيت لها صلة روحانية شعريه من قول المتنبي:

الظلم من شيم النفوس فـــإن تجـــد ذا عفـــة فلعلـــةٍ لا يظلـــم

كم سيبقى السوء في الناس صناعة يهب الهابط في الناس رفاعه
فيُرى الصدقُ انحداراتٌ والعفافُ عن الأثم هبـــوطٌ ووضـــاعه
ويسير الخيرُ عرياناً كـــضيف لـــصوصٍ ســـرقوا منـــه متاعـــه

هكذا يمزج الشاعر الحكمة بالسخرية بالـــشاعرية بالـــصورة الرائعـــة بالإيحـــاءات والاشارات والصور، فلنتخيل ضيف لصوص سرقوا منه متاعه، وقد صار عريانا ومـــثيراً للضحك... إلى حد الوقوع على القفا من الخيبة والسخرية اللاذعة للذات.

كم طوال نحـــن، والطـــول بنـــا لم تـــزل فيـــه إلى الثـــدي مجاعـــه
قـــصر الرشـــد علـــى قاماتنـــا ومشى في طولها ســـنُّ الرضـــاعه

حكمة أخيره تتبدى كأنه إبتداء الى الحكمة وليس خروجاً منها.. ولعلنا نصارح القارئ أن الحكمة في شعر الفضول –في ديوان الفيرزوه – قد تكون أطروحة بذاتها وكتاباً بذاته، والأمل أن يقوم بذلك اخوان وزملاء وأصدقاء أكفاء.. وها نحن نقف لأن الموانع.. ما أكثرها.. وبخاصة ونحن في باب الحكمة في شعر الفضول... في ديوان الفيرزوه...

* المجازات البارعة والتي تفرد بها الفضول في ديوان الفيروه:

هي في جوهرها صور شعرية فريده وعبارات وتراكيب لفظية أمتاز بها الشاعر عبدالله عبدالوهاب نعمان إلى درجة الروعة والأعجاز الإنساني.. وسنختصر هنا قليلاً منها للاستدلال فقط، ولا شك أن القارئ بعد ذلك قادر على أن يتعامل معها مباشرة دون وسيط سوى الذات والانفعال...

إرث الدموع الحزين – ذمة الضياع – ندى أدمع – الحب المغدور – لوح الحب العظيم – وجه فجرها – وجه الصدق – هرم السوء – مرابي الزهر – خوابي الشهد – عرى الزور –خلعنا العبقريات – رحلة الافك – فادح الآثام – أوجه الخير – رأي صدق – جثى الرفض – معبد الأوثان – صدق نفسي – عفة صدقي – صانعوا الاصباح – المضيئين في الناس – شاهد زور – ساحة عدل – سارق مجد – عشق السوط –لهو الطفولات – ديجور المسيرة – زاملت أساها – أجل الصدق – رحاب الخير – والدمامات قصار العمر – قحطها الخالد – علم الجهل – وجه غروب – ذمة التاريخ – وجه الدروب

– كف الغريب – شماتات الشعوب – ماجد الشيم – عزة القمم – شباب النبل – يد الأيام والقدم (من التقادم) –وما على القارئ إلا التفتيش عن وجه المجاز ليخرج بصور هائلة الروعة والجمال.

يقول عثمان أبو ماهر في مقدمة ديوان الفيروزه:

((وابداع الفيروزه في قصيدة (هدية الله) :

وكم نثرنا عليها من خمائلها رنداً ووردا، وريشاً من جناحينا
فليس للحب ليل في جوانحنا ولا ارتعاشة اثم في ضميرينا
وما حملنا به إلا جلالته كمصحف قد رفعناها بأيدينا

(قد رفعناها) ...

انظر إلى (رفعناها) ولم يقل رفعناه ...

أنه لا يتحدث عن الحب، إنه يتحدث عن جلالة الحب نفسه ...

أو إن شئت فابحث عن وجه المجاز إذا هو يتحدث عن المصحف بـ ((رفعناها)) فما وجه المجاز.

ولكي لا نذهب بعيداً في الإبحار اللغوي ...

يمكننا القول إن لغة هذا الشاعر لم تأت من فراغ وإنما جاءت من أعماق متشبع بالقرآن الكريم ولغة القرآن بل وتاريخه أيضاً، وبذلك كوّن منه البنية الإبداعية الشعرية والبنيه الذهنية الأدبية ...

كأنما الله أعطانا هدايته

به، و أهداه ما صمنا وصلّينا)) أ.هـ.

فلله هدانا بالحب واهداه ما صمنا وصلينا / وكأن صلاتنا وصيامنا هي للحب وذلك للتدليل على قداسته بين الناس.

الملاحـــق

أيوب طارش

من الدندنه إلى المئذنه

مذكرات أولى(١)

* بين الحاضر والماضي مسافات لا تقاس.. واختلافات يصعب تحديدها.. إن مامضى هو ذكريات ثملة بالشوق والحنين، تمتد في النفس تاريخاً مثقلاً.. تارة بالآهات وأخرى بالذكريات الحميمة.. تلك الذكريات التي تثقلنا توقا ورغبة إلى العودة إليها بكل ما يفيض في انفسنا من شوق وشجن.. فنتخلص من جمود الحاضر وصلابته.. بشفافية الماضي وروحانيته.

ومثلما تختلف حياة الناس وتتباين وتتنافر.. كذلك لكل إنسان في هذا الوجود قصة وذكريات وشجون وأشواق واحلام.. وكل له طريق تصنعه الأقدار.. وتخلقه البيئة.. فيتشكل في دروبه حسياً وشعوريا واخلاقيا.. وكل بيئة وطبيعة لها انعكاساتها في نفسيات البشر.. وفي مشاعرهم واحاسيسهم وإبداعاتهم.. وفي سفرنا هذا في حياة الفنان القدير أيوب طارش نكتشف أن البيئة بكل ما يفيض فيها من جمال وقبح وأحلام وآلام وجمود وحركة وهجرة وعودة واغتراب ومعاشرة.. وغير ذلك.. دفعته ليتخذ من الغناء استراحة يستمع فيها إلى إيقاع خطواته، ونبض الوجود في نفسه.. فمن بين غبار الطريق الذي كان يقود فيه أغنامه من البيت إلى الجبل صدعت أنفاس الفن الزاخرة بالأحاسيس المرهفة تترجم أصداء الطبيعة إلى أصداء من الأنغام الزاخرة بالألحان الشجية.. تلك التي ظلت على مدى تاريخ طويل تصعد من حنجرة اشتغلت في تلوين اللغة وجعلها حقولاً حسية تنغرس في الأسماع عالما يشكل ذاته ويخلق نفسه.. عالما تحلق في سمائه صباحات القرى الندية.. وتتسابق في الغبار المثار في خطوات أغنامه نشوات الطرب وحنين الكلمات ورغبات النفس الإنسانية المنتمية إلى وجود خارج الوجود.. وجود يحمل الواقع وينسجم معه.

---

(١) أجرى هذا الحوار مع الفنان أيوب طارش رئيس تحرير صحيفة الثقافية سمير رشاد اليوسفي في ٩٧/٧/١٧م. على سبع حلقات.

(*) في الطبعة القادمة من هذا الكتاب ستضاف أشياء جديدة عن أيوب طارش، والشعراء الذين تعاون معهم غير الفضول .

أيوب طارش الذي تكاد قرى اليمن وجبالها وشعابها أن تنطق في صوته وكلماته باعذب الألحان التي ظلت ومازالت تمتد في قلوب الناس مثارات للدفء والحنين.. ودفقات للأنس والإبتهاج والذكريات الحميمة حين يعود إلى بداية شعوره بوجوده.. يقول: إنه وجد نفسه ينهض في الصباحات التي تتقلب في الصلاة أطيار الله وبهجتها بانسحاب ظلام الليل مختفية بشروق الشمس.. وهو معها يحتفي بالشروق من ناحية وماشيته من ناحية أخرى.. حيث يبدأ نهاره مترحلاً إلى المراعي المعشبة يقود جيشاً من الأغنام، التي كانت رفيق صباحات الهثيم والطريق والجبال ومعاشرة الطبيعة بكل ما تزخر به من حياة.. وفي هذا الفضاء الذي يعانق الحياة الجياشة بكل شيء كانت الألحان تنطلق تلقائية ومتدفقة.. وكانت فرحته بحيازة شبابه لا تقاس بثمن، فبها أصبح للغة جمال جديد وصوت عذب.. يضمه فضاء الله الرحب ويعيده إلى أحاسيس جياشة ملهمة.. وينساب بنغمات تمس شغاف القلب وهي تحث البعيد والمهاجر والمسافر والعاشق للعودة إلى الأرض والحول والبئر والشواجب وضاحات الجبال وصدر الحبيب ومراعي الوديان والروابي وأوراق الزهور وهمس السواقي.. إنها شبابة الراعي التي شدا بها بمعسول النشيد.

أيوب طارش الذي استقبل الشبابة فرحاً مسروراً يغني للحياة.. هو ذاته أيوب الذي يختم سفره الطويل في عالم الدندنة بمناجات (الخالق) بكلمات تجلو صدأ القلوب وألحان تخاطب أرواح المؤمنين:

يا نبياً ما له في الكون مثل يا حبيباً لي به هم وشغل
عين ذات عينها روح وعقل
يا نبياً ذكره للقلب يجلو أنا يا خير الورى عبد مقلٌ.

يقول فنانا الكبير: ولدت سنة ١٩٤٤م في منطقة الأعبوس قضاء الحجرية لأسرة متوسطة الحال وعشت طفولتي المبكرة هناك حتى سن الحادية عشر وقمت برعي الأغنام لمدة أربع سنوات، فقد كان عندنا في البيت مجموعة كبيرة منها قمت برعيها إضافة إلى أنني كنت أرعي الغنم لبعض الأهل والجيران بمبلغ مالي يصل لبضع ريالات في السنة (...) وفي (الجبل) حيث كنت أرعي حاولت أن أشغل أوقات فراغي الطويلة ((بالدندنة)) على عادة ((الرعيان)) آنذاك.. ويبدو أن رغبة لاشعورية كانت تقودني نحو التلحين والغناء.. فبدأت أتعلم العزف على الناي ((الشبابة)) حتى أتقنتها.. وللشبابة ذكريات جميلة في نفسي.. فقد حصلت عليها كهدية من ((الحاج سعيد)) رحمه الله وهو رجل طيب من القرية (....) ومازلت اتذكر قصة تلك ((الشبابة)) المصنوعة من النحاس.. وما أخبرني به الحاج سعيد من أنها مصنوعة في مخرطة بعدن واستمريت على هذا النهج أعزف على الشبابة وارعي الغنم.. وقبل الغروب أنزل من الجبل أنا وأغنامي لأعود إلى البيت.. وهذه المرحلة ((مابين الجبل والبيت)). استمرّت أربع سنوات كاملة.

والحقيقة أنني لم أذهب إلى ((معلامة)) أو ((مدرسة)) كما لم أتلق العلم علي يد أساتذة أو مدرسين في القرية.. والحاصل أن الذي كان يقوم بتعليمي الحروف الهجائية (أ، ب، ت، ث،..الخ) عندما يرجع من عدن للقرية، فقد كان والدي – رحمه الله – يعمل ((أوسطى)) في أعمال الأسمنت لدى بلدية عدن، وكان يعود إلينا كل عامين ويجلس معنا (أنا واخواني محمد والبنات) ما بين شهرين إلى أربعة أشهر ثم يقفل راجعاً إلى غربته من جديد.

وفي إحدى زياراته للقرية – وكنت في التاسعة من عمري تقريباً – أخذني معه إلى عدن بغرض تعليمي هناك.. وبدأت أدرس القرآن الكريم في معلامة كانت تقع جوار سينما كريتر التي يملكها المستر حمود.. وبعد فترة بسيطة انتقلت للدراسة في مدرسة الانقاذ والتي كانت تتبع السيد محمد عبد الوهاب العجيل وتقع في طريق ((الطويلة)) وتتكون من ثلاثة فصول ابتدائية فقط.. وهناك درست حتى الصف الثالث الابتدائي.. وفي تلك الفترة افتتح الشيخ محمد بن سالم البيحاني المعهد العلمي الإسلامي في عدن بعد أن جمع لانشائه التبرعات المالية من عدد من الدول العربية حتى تمكن من إنجازه.. واستبشر الناس خيراً بافتتاح المعهد الإسلامي.. خصوصاً أبناء المحافظات الشمالية – ومن ضمنهم والدي – والتحقت للدراسة بالمعهد في الصف الرابع الابتدائي.. وكان هذا المعهد يحوي المراحل الدراسية الثلاث – الابتدائية والمتوسطة والثانوية – وبالنسبة لي درست في المعهد العلمي والإسلامي حتى الثاني ثانوي وكان المعهد لا يختلف عن بقية المدارس من حيث تدريسه للعلوم واللغة الإنجليزية.. ولكنه كان يمتاز عنها بتدريسه للمواد الدينية بطريقة مكثفة.. وأتذكر أنني درست في المعهد على أيدي مدرسين أصبح معظمهم – في الشمال – وزراء ومسئولين كبار مثل أحمد حسين المروني ومحسن العيني وعلي محمد عبده، وقاسم غالب، وسالم زين، ونخبة (متميزة) من الأساتذة الكبار.. وأنهيت دراستي (الصف الثاني ثانوي) في عام ١٩٦٣م تقريباً.. والحقيقة أن هاجس الغناء ظل ملازماً لي طيلة فترة الدراسة وكلما كبرت كبرت معي هوايتي خصوصاً وأن زملائي في المعهد كانوا يشجعونني على ذلك ويستفزونني من أجل الغناء بعد أن عرفوا بموهبتي ومنهم زميل عزيز – كنت أحبه كثيراً – ونمشي سوياً وهو الأخ جمال محمد عبده الشرجي – وزير الكهرباء سابقاً – وابن محمد عبده الشرجي صاحب استوديو الشباب بعدن ورئيس تحرير جريدة سبأ وابنه جمال كان من الأذكياء جدا في الدراسة.. وكان يمتلك مسجلاً صغيراً.. وكان يعتبر في يومها وهو شيء نادر في تلك الفترة.. وكان يحب الاستماع للفنان العربي الكبير محمد عبد الوهاب.. وكنت أنا أيضاً مولعا بغنائه ومن شدة إعجابي كنت أترقب حفلاته التي كانت تبثها إذاعة عدن حينذاك مساء كل أحد وكانت تبث أغانيه القديمة.. مابين الساعة التاسعة والعاشرة وكنت أعلن حالة الطوارئ في

تلك الليلة وأعود للمنزل قبل الموعد، وأسارع بفتح الراديو، وإطفاء السراج.. وبانسجام غير محدود وتركيز شديد أظل استمع لغنائه العذب.. فحفظت مع الأيام الكثير من أغانيه وأخذت أرددها لزملائي في الفصل اثناء الاستراحة بتشجيع من الأخ جمال الذي كان يستحثني ويخبر الزملاء بموهبتي.. ويتجمعون حولي في المدرسة وأغني لهم ما أحفظه من أغاني محمد عبد الوهاب فإذا انتهيت من أغنية يطالب جمال بأغنية أخرى.

* قلت للفنان/ أيوب طارش.. لعل تلقيك التعليم في المعهد العلمي الإسلامي الذي أسسه علامة شبه الجزيرة العربية محمد بن سالم البيحاني ودراستك لتجويد القرآن الكريم ومخارج الحروف ساعدك على حسن الغناء وفن الإلقاء وطريقة الأداء بشكل مميز.. وهذا ما قرأناه عن كوكب الشرق السيدة أم كلثوم على سبيل المثال.. التي أكدت.. أن إتقانها لتجويد القرآن الكريم أعطى صوتها حلاوة وطلاوة تفردت بهما في عالم الغناء والطرب الأصيل.. ومن المعروف.. إن أبا السيدة أم كلثوم حفظها القرآن الكريم وعلمها التجويد، وكان يأخذها معه لقراءة القرآن في سرادقات العزاء والمناسبات الدينية المختلفة واكتشف الناس صوتها (الملائكي) كقارئة للقرآن.. قبل أن تتحول إلى مطربة متميزة تمتلك صوتا لم يضاهى حتى الآن، كذلك الحال الفنانة / ياسمين الخيام التي اضطرت إلى استعارة لقب الخيام بعد أن تبرأ منها أبوها الشيخ/الحصري، قارئ القرآن الشهير.. فهي بدأت حياتها بالتلاوة في الحفلات الدينية التي يشارك فيها إخواننا المصريون بحشود جماهيرية تبحث عن الطرب وتعبر عنه بتلقائية معهودة ((.....)) إذا بدلاً من أن يصاحب قراءة القرآن السكينة والخشوع نفاجأ باشقائنا المصريين يرددون بعد كل آية ينطقها قارئهم المفضل.. ياسلام.. الله.. كمان والنبي.. وغير ذلك..ويستمر الإعجاب والثناء طيلة المولد أو الاحتفال بغض النظر عما تعنيه الآيات المقرؤءة وحديث الجنة والنار.. والثواب العقاب.

والاحتفالات التي كان يقرأ فيها الشيخ الحافظ / محمد رفعت أو عبد الباسط عبد الصمد كانت تشهد حضوراً جماهيرياً منقطع النظير.

والشاهد هنا أن فن الإلقاء مطلب أساسي بالنسبة للمطربين والمذيعين ولذلك قد نجد مطرباً أو مذيعاً يجيد الترتيل وقراءة القرآن أفضل من كثير من المتدينين ((.....))

ووصل الحال ببعض المطربين والمطربات الجدد الاستعانة ببعض علماء الأزهر لتعليمهم التجويد والإلقاء وإخراج الحروف بطريقة صحيحة من مخارجها السليمة.

وأيوب طارش تقترب ذكرياته من مجمل الشواهد التي ذكرناها سالفا فهو كما يقول بدأ حياته الدراسية في معهد الإمام البيحاني، الذي كان منارة دينية يشع نورها ويضيء مدينة عدن بأكملها أن لم نقل اليمن ، وصار كذلك جامعة إسلامية عظمى في شبة الجزيرة العربية، بذل الإمام البيحاني جهوداً جبارة في تأسيسها من خلال قيامه بجمع المال من كافة

زعماء الدول العربية والإسلامية، والتجار، ويصف فنان اليمن الكبير أيوب طارش هذا المعهد بقوله.. أنه كان يقدم دروساً مكثفة في العلوم الدينية في نفس الوقت الذي يجد فيه طلاب المعهد كل ما تقدمه المدارس الأخرى من علوم ومناهج معاصرة.. فكانت الدراسة في المعهد تشتمل علوم الدنيا والدين.

وفي هذا المقام تبدأ خيوط الذكريات عند أيوب طارش في الإنسياب حيث يرجع بنا بكل ما يحمله من فيض حب واعتزاز بالشيخ الإمام البيحاني إلى أول مواجهة تمت بينهما حيث يقول بصوت يملؤه الحنين إلى الماضي.. في إحدى الأيام نظم طلبة وأساتذة المعهد رحلة ترويحية لبستان الحسيني بمحافظة لحج.. وقام الأساتذة والطلاب بتنظيم مساجلة شعرية بينهم.. تم فيها القاء بيت من الشعر من قبل أحد المشتركين ومن ثم يقوم الأخر بالرد عليه من آخر حرف في البيت الشعري.. وهكذا.. أما أنا والأخ جمال الشرجبي فقد كان لنا شأن آخر.. حيث احضر الأخ جمال ((مسجله)) الصغير معه – وهو كما قلت.. أنه كان في تلك الفترة شيئاً نادراً لا يتوفر إلا للأغنياء واصحاب الحظوة وأولاد المترفين حيث أنزوينا في مكان بعيد عن زملائنا وأساتذتنا.. وأخذت أغني من محفوظاتي لمحمد عبد الوهاب مقلداً صوته: ((أحب عيشةالحرية)).. ((عندما يأتي المساء)).. وأغاني أخرى رحت أتغنى بها وجمال يعمل على تسجيلها دون علمي..

وحين عدنا إلى الزملاء والأساتذة الذين يتبارون في الشعر وبينهم الشيخ العلامة محمد بن سالم البيحاني.. ولم أكن أتوقع من الأخ جمال أن يثير تلك المفاجأة التي لم تترك أمامي من خيار للهروب من الموقف الذي وضعني فيه غير أن أبحث عن مخبأ ألجأ إليه مما اعتبرته آنذاك فضيحة.. فقد قام الأخ جمال بتشغيل المسجل وسط حلقة الأساتذة والزملاء.. صانعا بذلك مفاجأة لم أتوقعها.. ولم يكتف الصديق بهذا.. بل اشهر أمام الجميع تحدياً كبيراً لمعرفة صاحب الصوت الذي أجاد فيه تقليد الفنان عبد الوهاب بامتياز.. وتفوق.. وفي هذه الأثناء التي كان فيها صوتي يعلو وسط الجميع من شريط المسجل وجدت مخبأ قريبا منهم مردداً في نفسي.. وفي مشاعر متناقضة.. أفتضحت يا أيوب ؟.. على أنني حين شاهدت الجميع مرهفي أسماعهم.. انتابتني مشاعر الفخر.. وجعلتني أزهو أمام نفسي.. حتى انتهت الأغنية.. ليتحول الزهو إلى مشاركة في التنهيدة التي اطلقها الشيخ البيحاني.. آآآه.. أيوب..!؟

لقد كان يعرف أنني من المجودين القلائل للقرآن الكريم.. وسبق له أن أهداني مصحفاً صغيراً.. لازلت احتفظ به ذكرى عطرة لشيخ جليل.. كما كنت أيضاً أقرأ القرآن في المعهد صباح كل يوم أثناء حضور الطلاب والمدرسين واتلوه كذلك في المناسبات والاحتفالات التي يقيمها المعهد.. الأمر الذي جعلني أشعر بالخجل الشديد من شيخي

البيحاني الذي أذهلته المفاجأة.. وجعلته يتنهد بحرقة وهو يستمع إلى صوتي.. ومازال صدى صوته يتردد في مسمعي معبراً بصراحة متناهية عن رأيه فيما استمع إليه حيث قال: ما شاء الله.. ((ما شاء الله)).. مزمار داؤود هذا !!.

ورغم عبارات الثناء وكلمات التشجيع التي غمرني بها الأساتذة والزملاء إلا أنني لم أستطع الخروج من خلف الأشجار التي اتخذت منها مخبئاً وملجأ للهروب مما قام بعمله الأخ جمال الذي وضع المسجل أمام الجميع شادياً بصوتي.. وأخذ جسمي يتصبب عرقاً.. ومشاعري تنـــزف خجلاً من افتضاحي حسب تصوري آنذاك.. ومن ذلك اليوم اختفيت ولم أظهر أمامهم قط.. بل وامتنعت – حياء وحرجاً – من الذهاب لمنزل الشيخ البيحاني مساء حيث تعودت أن أذهب إلى منزله للنوم أحياناً.. وأحيانا لقضاء ساعات من النهار مع الزملاء والأصدقاء لتبادل المعارف أو للحصول على الأنس.

* قلت لأيوب طارش.. وهل شعرت بأن الشيخ البيحاني تغير أو استاء من غنائك حتى تمتنع عن مقابلته أو الذهاب لمنـــزله رد بصوت هادئ.. الحقيقة لم أسمع منه إلا ثناء عطرا وكلمات طيبة.. إنما سمعت الناس يقولون.. إن الشيخ البيحاني قال عني بيتاً من الشعر عبر فيه عن خيبة ظنه فيما توقعه لي من مستقبل.. على أن ما سمعته منه غير ذلك تماماً.. وما دفعني للإبتعاد عنه هو حيائي وتوقيري الشديد له.. وهذا هو السبب الرئيسي في عدم ذهابي لمنزله حينها.. رغم أن الزملاء كانوا يوصلون لي سؤال الشيخ عن عدم حضوري..والأسباب التي حالت دون ذلك.. وكانوا يدفعونني وبإلحاح من أجل الذهاب إليه.. ولكن موقف المفاجأة تجسم في نفسي حياء غير عادي.. خاصة وأنا أرى البيحاني يسمع مني صوت مغن.. بعد أن وصلت معه إلى مرتبة عالية جاءت بعد إشادة مدير المعهد – وهو أردني الجنسية – وكان أيضا قد شهد لي بالتفوق والإجادة في قراءة القرآن وتجويده.. فأخذ يشجعني سواء بواسطة المصحف الشريف ذي الحجم الصغير الذي أهداني أياه كما ذكرت.. أو من خلال الإطراء في القول..وقد ندمت كثيرا على انقطاعي عن زيارة الإمام وقطع عادتي.

* قلت لأيوب طارش.. هل تذكر البيت الذي قيل إن الإمام البيحاني عبر فيه عن خيبة ظنه فيك والذي تعتبره غير صحيح بعد سماعك لإشادته..

* رد أيوب ضاحكاً:

البيت الشعري هو:

ظننت ظنـــاً فخـــاب ظـــني ظننـــت شـــيخاً طلـــع مغـــني

والحقيقة المعروفة أن الشيخ البيحاني لم يكن له موقف رافض للغناء.. وقد عبر في إحدى قصائده عن اعجابه ((بالأغاني من كلمات الآنسي)) الذي يصف الغصن كقدٍ مائس لفتاة ذات طرف ناعس!..

وهي قصيدة مشهورة قالها بعد خروجه من عدن إلى مدينة تعز فراراً من الماركسيين الذين صادروا المعهد واتخذوه وزارة للداخلية بل أحرقوا مكتبته وأرشيفه.. فقال الشيخ البيحاني هذه القصيدة تصف تلك المأساة وتصور حال عدن قبل سيطرة هؤلاء عليها وما حصل لها بعد استيلائهم عليها والقصيدة تقول:

آح يـــــا قلـــــبي المعـــــنى ثم آح
لست أدري لـــست أدري هـــل يبـــاح؟
أم حـــــرام في الأقاويـــــل الـــــصحاح
أن يبـــــث المـــــرء آلام الجـــــراح
نبـــــؤني يـــــا صماصـــــيم الكفـــــاح
مـــا علـــى الـــصب إذا مـــا قـــال آح

ونسأل أيوب: عما فعله بعد أن استمع الشيخ البيحاني وأساتذته وزملاءه لصوته وهل امتنع بسبب الخجل عن العودة إلى المعهد.. فيقول: في الحقيقة عدت إلى المعهد. غير أن تلك السنة لعدة أسباب كانت الأخيرة بالنسبة لي وكانت نوايا البحث عن عمل في العطلة موجودة من قبل وبمجرد انتهاء الدراسة.. أخذت في البحث الجاد عن وظيفة مناسبة.. وكتب لي الله أن التحق في تلك الفترة بالشركة الصينية التجارية كبائع أقمشة.. وكانت تلك الشركة حديثة التأسيس.. وبعد مضي شهرين تقريباً أتممت نصف ديني.. حيث عدت مع والدي إلى القرية وتزوجت نزولاً عند رغبته وبعد إلحاح منه وكان عمري آنذاك عشرين عاماً وقام أبي – رحمة الله عليه – يدفع كافة التكاليف الخاصة بالعرس.. والحقيقة أني لم استجب له إلا بعد أن وعدني بمساعدتي على استكمال دراستي في المعهد.

وهل عدت إلى المعهد مرة أخرى ؟

– يرد فناننا القدير معززاً اجابته بإبتسامة عذبة تعكس روح الأشواق إلى الماضي.. فقال: عندما بدأ العام الدراسي الجديد.. أردت العودة إلى المعهد.. لكن الوالد كان قد غير رأيه وذلك بسبب تغير الحال.. حيث لم يبق أمامه إلا أن يدفعني للعمل قائلا: ((وهل تريدني أصرف عليها وعليك)).. ويضحك الفنان القدير ويتابع كلام والده الحبيب إلى قلبه حيث قال له: ((يكفي دراسة)) وانقطع الأمل أمامه في مواصلة تعليمه وواجه ذلك بالقبول والإذعان والاستجابة السريعة.

ويواصل أيوب طارش حديث الذكريات قائلاً ((أعلنت الشركة التي كنت أعمل فيها عن اختبار لجميع الموظفين لشغل وظيفة أمين مخازن وبمرتب مضاعف ولحسن الحظ نجحت في الاختبار وتفوقت على جميع المشاركين وساعدني في ذلك لغتي الإنجليزية الجيدة ودراستي التي تلقيتها في المعهد وتم تعييني أميناً لمخازن الشركة.. كما ارتفع راتبي – كما

قلت – إلى الضعف.. وانبسطت لذلك النجاح كثيراً كما سر والدي بذلك وقال لي ((ما فيش أحسن من كده)) وهكذا استمررت في العمل بنجاح.. ولم يكن يشغل بالي سوى هاجس الغناء.. وكيفية الحصول على ((عود)) خصوصاً وأنني كنت قد حفظت معظم أغاني عبد الوهاب في تلك الفترة.. بل ومن شدة تعلقي بعبد الوهاب فقد جعلته رفيقي في طريق العودة من الشركة التي كانت تقع في المعلا إلى البيت الذي أسكنه في القلوعة.. حيث كنت أردد أغانيه التي أحفظها طيلة الطريق.. ورغم تعمدي السير في المنعطفات والأزقة المظلمة بهدف تطويل المسافة وزيادة الاستمتاع بالطرب الأصيل والإنسجام مع الدندنة فقد كنت أشعر بالأسى عندم تنتهي الطريق وأصل إلى المنزل بسرعة لم أكن أرغب فيها.. وبعد ذلك انتقلت للمبيت مع عمال الشركة وأصبح معي سرير خاص بي إلى جانب بقية العمال الذين يسكنون الدور الرابع والأخير لآحدى العمارات إضافة إلى السطوح التي كنا نتخذها مسرحاً للهو والسمر.. وكنت أصعد إليها ومعي العود الجديد الذي أشتريته مناصفة أنا وصهري أخو زوجتي والذي لم يكن يهتم كثيرا بالغناء وقد دفعت نصف المبلغ بعد أن رهنت الخاتم الخاص بأم العيال على أحد التجار الذي يبيعون إطارات السيارات بخمسين شلنا واشترينا العود بمائة شلن.. وأتذكر أن الخاتم الذي رهنته من أجل شراء العود قد سبب لي العديد من المشاكل بعد أن فشى الخبر بين الأهل.

قال الفنان أيوب طارش عبسي بعد أن اشتريت العود الأول في حياتي (مشاركة) مع صهري.. بدأت أتعلم العزف ((بدون معلم كما يقولون)) فلم يكن هناك من يعلمنا طريقة ضبطه.. وكنا نكتشفه اكتشافاً.. ومن شدة إهتمامي وحبي للفن كنت اجتهد في وزنه بحسب محفوظاتي من الألحان.. مثلاً كنت أدندن بأغنية ماهر العطار ((غدارين)) وهنا أخذ الفنان أيوب طارش يدندن بلحن الأغنية المذكورة.

– ويواصل أيوب حديثه قائلاً: ((أغنية غدارين كانت بدايتي لتعلم العزف لبساطة لحنها وسهولة تقليده.. وبعدها انتقلت إلى لحن ((يالله يارب لاطف عبدك الحائر)) وهي من أغاني محمد قعطبي وكنت قد بدأت أجيد العزف.. ولم يستمر معي هذا العود كثيراً فقد أضاعه صهري وشريكي فيه مما اضطرني لشراء عود آخر أغلى منه وبالتقسيط.. وبدأت أتمرن عليه بمفردي.. حتى التقيت بالأخ محمد أحمد بشر – رحمه الله – وكان عازفاً وفناناً للأغاني التراثية ويجيد العزف بيده اليسرى (..) واستنفذت العود والتلحين.

وللحقيقة فإن محمد أحمد بشر هو أول من تتلمذت على يديه وبعده ذهبت للفنان حمودي عطيري – كنت من أشد المعجبين به آنذاك ولذلك قلدت أغنيته التي تقول ((خدعوها بقولهم حسناء)) كلماتها لأحمد شوقي والمقصود بالتقليد هنا تقليد العزف وأما بالنسبة لتقليد الفنان الكبير محمد عبدالوهاب فقد كان ترديدا للصوت وتقليداً.. للهجة

الأغنية.. ومن الصعوبة بمكان تقليد الألحان وعزفها بالعود وذلك لأن أغاني عبدالوهاب لا تعتمد في موسيقاها على العود فقط وإنما ترافقها الموسيقا التصويرية.. واللحن فيها لا يحاكي الوتر.

ويقول فناننا الكبير أيوب طارش بأن حبه للغناء لم يكن بغرض الكسب المادي أو لأجل الشهرة وإنما كان يغني لنفسه ومن أجل إشباع هوايته فقط (!!) وكان شديد الحرص على كتمان هذه الهواية عن أعز أصدقائه ويلخص أيوب طارش هذه المرحلة الأساسية في حياته بالقول ((كنت أمارس العزف والغناء في سطوح العمارة التي أسكنها من أجل نفسي ولما علم والدي وهو في القرية بأنني اشتريت عودا وعرف أيضا باستقلالي في السكن غضب غضباً شديدا ظانا بأنني سوف أنحرف وقال لأصدقائه ((هذا العود سيجعل أيوب ينخرط مع المجموعات الفاسدة ولابد أن أنقذه من هذه الورطة التي وقع فيها)) ويبدو أن وجهة نظر والدي لم تكن مقبولة من أصدقائه حيث قال له بعضهم بأن أيوب يهوى الغناء.. كما أن الفن رسالة اجتماعية لا يستهان بها ويمكن أن ينجح فيها ولدك وينفع بها نفسه والناس وحتى تزول مخاوفه وتنتهي شكوكه نصحوه بإرجاعي إلى السكن معه والغناء بحضوره ولكي أكون موضع بصره.. وهكذا عدت إلى البيت الذي كان فارغاً إلا من أمي التي كانت تأتي مع الوالد من القرية أحياناً.. وكان هنالك متسع من الوقت خصوصاً ووالدي يعمل ليلاً ((OF ER TIME)) فكنت أقضي معظم الوقت في تعلم العزف على آلة العود وأجدت تلحين معظم الأغاني التراثية مثل: ((وامغرد)) وكذلك أغاني الفنانة ((بنت شريان)) وهي مغنية من العدين وتمتلك هذه الفنانة صوتاً ساحراً يخلب الألباب وللأسف ضاعت معظم تسجيلاتها التي عندي((الكلام لأيوب طارش)) وأيضاً قلدت معظم أغاني السنيدار والحارثي والآنسي والقعطبي كما قلت سابقاً.. وبدأ صيتي ينتشر في عدن بسبب الأصدقاء الذين كانوا يتوافدون لسماعي ومعهم القات والهدايا.. مما جعل صدر أبي ينشرح إضافة لكلمات الثناء والاعجاب التي أصبح يسمعها من الجميع.. وهنا بدأ التشجيع والاهتمام يتجه نحو تسجيل شريط خاص بي والذي سجلته بالفعل في عام ١٩٦٥م تقريباً بمشاركة عازف الإيقاع الفنان محمد أحمد بشر – رحمه الله – والذي شجعني بافراط وانضم إليّ كعازف إيقاع وأنا أغني وأعزف بالعود وضم الإصدار الأول بعض الأغاني الجديدة الخاصة بي مثل ((بالله عليك وامسافر)) ((قد كان طبعك حلا)) ((يوم السفر أصبحت أوادع أهلي)) ((بس لا تؤشر لي سلام)) وكل هذه الأغاني من كلمات أخي الأكبر محمد طارش عبسي كما احتوى الشريط الأول على بعض أغاني الفنان محمد أحمد بشر ومن الحانه ((قلبي جريح والروح عليك هائم)) وأغنية ((صدفة من الصبح)) من كلمات عبده علي الذبحاني.

وسألنا أيوب طارش عن أخيه محمد وقصته مع الشعر الغنائي.. فقال:

((محمد طارش لم يكن متعلما ولم يكن له اهتمام بالفن وكان ((البتول)) حق الأسرة، ويعمل في القرية.. ومن محاسن الصدف أن تتزامن إجادتي للغناء مع إجادته للشعر الغنائي)).

وبعد الانتهاء من تسجيل الشريط تم إرساله إلى تعز مع واحد اسمه عبد الغني العمشة وكان يقوم بنقل الرسائل بين عدن ومديريات محافظة تعز.. وقام الأخ عبد الغني بتوصيل هذا الشريط لإذاعة تعز والتي بدأت تبث أغانيه في فترات الإرسال ولقي قبولا واسعاً لدى الناس وبدأنا نستمع لأغانيه كثيراً في برنامج ((ما يطلبه المستمعون)) وخصوصاً أغنية ((بالله عليك وامسافر)).

ويحك الفنان أيوب طارش عبسي رأسه وكأنه ينبش فيه الذكريات التي كاد ينساها بفعل تقادم العهد ويعود للحديث قائلاً:

((لم يدم التعاون مع الفنان المرحوم محمد أحمد بشر كثيراً وتفرقنا بعد الإصدار الأول والسبب في ذلك أصحاب الاستريوهات الذين كنا نتعامل معهم في طبع الإسطوانات والقضية أنني كنت أتعامل مع صاحب تسجيلات.

والمرحوم محمد بشر يتعامل مع شخص آخر وكل واحد منا كان يريد جر الآخر للتعامل مع صاحبه ولم ننجح في ذلك فافترقنا.. وغنى كل واحد منا أغانيه الخاصة به.

وأتذكر أنني كنتُ أسجل حينذاك في أسطوانات ((صوت الوحدة)).

قال الفنان الكبير أيوب طارش عبسي:

بعد انتشار الاسطوانة الأولى التي ضمت بدايايَ الغنائية في أوساط الناس أصبحت أسمع كلمات الغناء في كل مكان أذهب إليه.. وأذكر أنني ذهبت في تلك الفترة للمقيل عند أحد الأصدقاء اسمه علي سيف أحمد وجلسنا للتخزين في إحدى الغرف العليا من منزله ومعنا العود.

وكان صاحبنا من هواة الغناء ويجيد العزف – وأثناء المقيل حضر إلينا أحدهم من عند المكاوي – الذي يسجل الاسطوانات في تلك الفترة – وأخبرنا بوجود مفاجأة مهمة بالنسبة لنا عند المكاوي وطلب منَّا الذهاب إلى هناك.. وبالفعل.. فوجئت بوجود الفنانة منى علي في منزل المكاوي وفوجئت أيضاً باتفاقهم على أن أقوم بأداء أغنية مشتركة مع منى علي.. وكانت القصيدة موضوع الأغنية ((رحلك بعيد)) للفضول معدة وكذلك اللحن وبدأنا بعمل ((بروفة)) سريعة لقيت استحسان الحضور وبعدها قمت بكتابة القصيدة ودخلنا للاستريو للتسجيل بصورة ارتجالية.. وكان الأخ فضل محمد اللحجي حاضراً.. وغنيت من الورقة. أما الأخت منى علي فكانت ((حافظة)) للقصيدة وخرجت

الأغنية المشتركة بأداء جيد وحصلت على أول أجر من الغناء في حياتي وكان مبلغ مائة شلن.. وهو مبلغ كبير في تلك الفترة وكان في نظري كأنه مليون ريال

ونزلت الاسطوانة بعد أيام إلى الأسواق وتوزعت بشكل جيد.. وتم تسجيل اسطوانات جديدة.

وحينها بدأت الهواجس تساور المكاوي – صاحب الاستريو خوفاً من مطالبتنا له بمزيد من الحقوق.. فجاء إلينا طالبا منا التنازل له عن كافة الحقوق وعمل استلام بذلك.. ولكن بعض الأصدقاء – والكلام لأيوب طارش – نصحوني بالرفض وطلب المزيد وبعد أخذ ورد زادني المكاوي مبلغ خمسين شلنا وتنازلت له عن كافة الحقوق الخاصة بالأغنية.

وتعود الذاكرة بالفنان أيوب طارش إلى صاحب المترل الذي كان يقيل فيه ((علي سيف أحمد)) والذي يقول عنه أيوب: كان شاعراً مجيداً وملحناً بارعا وقد غنيت له: بلادي بلادي اليمن من كلماته وألحانه.. وهذه تعد أول أنشودة لي غنيتها في تلك الفترة وكذلك غنيت له قصيدة البلبل الشادي.

بعدها يقول أيوب طارش: خرجت من العمل في الشركة الصينية وقررت العودة إلى تعز وكان ذلك في عام ١٩٦٧م.. وفي مدينة تعز التحقت بالعمل في الطيران اليمني وخلال عملي في شركة الطيران اليمني شاركت في مهرجان الشباب العالمي في صوفيا.. وقبل ذلك كنت قد التقيت بالشاعر الكبير عبد الله عبد الوهاب نعمان ((الفضول)) وقصة لقائي بالفضول تبدأ عندما كنت جالساً بجولة فندق الأخوة في بوفية أبو خالد – وهي الآن مكان مهجور – فعندما جئت من عدن استقبلني أصحاب البوفية وسكنت عندهم وفي إحدى الأيام جاءني سائق ((الفضول)) وطلب مني الذهاب معه لمقابلة الشاعر عبدالله عبد الوهاب نعمان.. واتفقنا على مقابلته في اليوم التالي.. وبالفعل جاء الفضول إلى البيت الذي كنت أسكن فيه.. وبدأنا رحلتنا المشتركة و الممتعة.

قال أيوب طارش: لم يضع الفضول الوقت وأخذ يقرأ لي قصائده وأنا مأخوذ بروعة الكلمات وسحر المعاني.. وأتذكر أنه بدأ يقرأ لي قصيدته ((وادي الضباب)) وبعدها ((مدارب السيل)) و((هات لي قلبك)) و((طاب البلس)) وكنت أردد بعد كل مقطع كلمة ((ياسلام)) دون وعي مني.. وبعد الانتهاء من قراءة قصائده قلت له: معي لحن وكلماته لأحد الأصدقاء وهي تقول: الأخضري خضر من الرشاشي حضر من الله لا مطر ولا شيء)). وبعد استماعه للأغنية أعجبه اللحن ولكنه اعترض على الكلمات وقال ((الخبر هذا مش مليح)) كيف الأخضري خضر من الرشاشي وبعدين يقول: خضر من الله لا مطر ولا شيء.. هذا ما يستويش.

وفي اليوم التالي جاءني بقصيدة أخرى لنفس اللحن تقول كلماتها: ((بكر غبش بالطل والرشاشي بكر بكور قبل الطيور ماشي.. حالي الوسط ململم الحواشي أخضر من

الله لا مطر ولا شيء).. وطبقتها على اللحن فكانت موزونة عليه تماماً.. وركنت القصيدة الأولى وبدأت أغني.

سألنا الفنان أيوب طارش عبسي عن الأغنية التي يشعر أنها أقرب إلى نفسه فقال: لا استطيع أن أحدد أغنية بذاتها.. والإنسان تمر عليه أوقات يحب فيها أغنية محددة.. وبعد فترة يحب أغنية غيرها..

إضافة إلى أهمية الزمان والمكان في تحديد الأغنية المحببة إلى النفس.. فمثلاً لا يصح في وقت العرس أن أغني ((مدارب السيل)) لأن ((مدارب السيل)) بحاجة إلى الاسترخاء والهدوء.. وأما العرس فهو بحاجة ((للزفة)) والكلمات المناسبة.

قلنا لأيوب: على ذكر زفة ((العرس)) التي أضحت ملازمة لحفلات الزواج في بلادنا.. ماهي قصة الكلمات واللحن الخاص بهذه الأغنية القريبة من نفوس الشباب ؟

– فرد الفنان أيوب طارش عبسي بالقول: بدأت أغني الزفة بكلمات شعبية سمعتها من مغنيات الأعراس في القرية ومن الخادمات اللواتي يغنين في حفلات الزواج.. وتقول هذه الكلمات الشعبية:

بسم الله المبتدأ
على العروس ربي حجا
اليوم ألا يسعدنا
يا كبد ألا حسادنا

واستمريت لفترة أدندن بهذه الكلمات في حفلات الأعراس.. إلى أن تعرفت على الأستاذ عبد الله عبد الوهاب نعمان وطلبت منه أن يقول قصيدة عن الزفة وبوزن اللحن المعروف.. وبعد أيام جاءني الفضول بقصيدته الرائعة:

رشوا عطور الكاذية
على العروس الغالية

واشرت على الأستاذ الفضول ببعض الإضافات لزوم اللحن مثل:

((مرحبا يازين الشباب)).

وهذه مأخوذة من التراث الديني والصوفي السائد في بلادنا.

قلت لأيوب طارش:

– غنيت للفضول.. كما غنيت لشعراء آخرين.. هل كان ذلك يزعج الشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان ؟

– قال أيوب:

الفضول لم يكن يعجب بالقصائد التي أغنيها من كلمات الآخرين.. وكان في العادة يقول لي: ((ارجم.. أرجم.. أرجم)) من هذين الأغاني اللي ما ينفعنش..

ومثلاً كنت أغني أمامه الكلمات التالية:

يا أخو القمر شلوك قبال عيني

ما زاد وقف دمعي ولا حنيني

فقال لي بلهجة محتدة ساخرة: إيش من كلام هذا ؟

شلوك قبال عيني.. وأنا جالس أبكي..

بس إيش من خبر هذا

ها.. خذ غني هذه الكلمات..

وأعطاني كلمات بدلاً عن ((أخو القمر)) وبنفس الوزن تقول:

طال الفراق وانا إليك مشتاق

صابر وصبري يا حبيب قد ضاق.

أظما وتسقيني الحياة أشواق

وبالفعل استمعت للأستاذ ((الفضول)) ورجعت ((بخبر)) المرحوم علي الآنسي على حد قول عبد الله عبد الوهاب نعمان.

ويضيف الفنان أيوب طارش قائلاً:

ولم يتراجع الفضول عن آرائه الساخرة من أشعار الآخرين الذين كنت أغني لهم إلا مرة واحدة فقط اعترف فيها للشاعر علي عبد الرحمن جحاف في قصيدته التي غنيتها والتي يقول:

واطائر امغرب ذي وجه سن أم هائم

قلبي ضناه أم أذاب

قال: هذا هو الشعر

وزاد صحح في آخر القصيدة وعدل بعض الكلمات وقال:

قل هكذا.. بدلاً عن هكذا ((نسى أيوب الكلمات المعدلة)) ولن يغضب جحاف من التعديل.. وإلا أسأله ؟

* قلنا لأيوب:

– غنيت للفضول ولآخرين من الشعراء.. فهل غنى فنانون غيرك للفضول ؟

– قال: عندما كنت أغيب عنه كان يبحث عن فنانين آخرين ليغنوا كلماته مثل: عبد الباسط عبسي والحارثي.

* وسألت أيوب:

– هل وضع لك الفضول أغنية خاصة بك.. وبحسب الطلب ؟

– قال: عندما نويت السفر إلى صوفيا للمشاركة في المهرجان الذي أقيم هناك.. قلت لنفسي: هذه أول مرة أغادر فيها أرض الوطن.. إلى بلاد مجهولة وتخيلت أنني أثناء السفر

سوف أشعر بالغربة والحنين وشعرت أيضاً بالحاجة لكلمات تعبر عما في نفسي وقلت ذلك للفضول.. فجاءني في اليوم التالي بقصيدة تتحدث عما في نفسي.. وكانت أغنية:

جنحت وأجناحي حديد لا ريش
فارقت أرضي حيث أحب واعيش
لا أين لا أي البلاد مدريش.. الخ

وقد قمت بوضع اللحن لهذه الأغنية التي تتحدث عن الغربة في مدينة صوفيا..

الحقيقة أنني طلبت هذه الأغنية بسبب الغربة المبكرة التي عشتها في مدينة عدن بعيداً عن قريتي.. ولشعوري أيضاً بأن معظم اليمنيين مغتربون في الخارج وقد تكون هذه الأغنية زادهم وراحتهم من المعاناة والحنين.. كما أن هذه الكلمات تعد الطلب الثاني بعد كلمات الزفة.

* وسألت الفنان الكبير عن أكثر أغانيه شعبية عند المستمعين.. فقال:

معظم المستمعين كانوا يطالبونني بأغنية: ((وازخم)) من كلمات عثمان أبو ماهر.. إضافة لأغنية: ((مدارب السيل)) وتحت جنح الليالي للفضول.

* وسألت الفنان أيوب طارش عبسي عن درجته الوظيفية الحالية وفوجئت بعدم معرفته ناهيك عن رفضه المطالبة بدرجة محددة تتناسب والدور الكبير الذي قام به في التعريف بالتراث والأغنية اليمنية على مدى ثلث قرن من الزمان..

وقال بهدوء ((المكتوب ستجده بدون إلحاح أو مطالبة.. خصوصا وأنا أشعر بأنني لم أقدم شيئاً يذكر في عملي الرسمي استحق عليه التكريم.. وكثر الله خيرهم أنهم كانوا يعطونني إجازات من أجل تقديم حفلاتي الغنائية.. كما أنهم أعطوني ((انتداباً)) في وقت من الأوقات للتفرغ لجمع التراث.. حيث قمت بجمع التراث الشعبي بالاشتراك مع الأخ عثمان أبو ماهر في محافظات تعز وإب وحجة.

– واستمر أيوب في حديثه بعد أن أخرجنا بدبلوماسية لبقة من إحراج السؤال عن درجته الوظيفية.. مما جعلني أسأله عن قصة جمعه للتراث مع الأستاذ / عثمان أبو ماهر وهل تسنى لهما جمع ذلك في كتاب..؟ فقال أيوب:

– كلفونا بالعمل.. وبعد جمعه لم يطلبه أحد منا.

* وسألت أيوب:

– طيب.. ومن الذي كلفكم بهذا العمل.. فقال: الاتحاد العام للتعاونيات وبتشجيع من أحد المسئولين بالاتحاد اسمه عبد الحفيظ بهران بالإضافة لدعم الأستاذ / عبد العزيز عبد الغني رئيس / المجلس الاستشاري.. وانتهت عملية الجمع بالنسبة لي بتسليمها لعثمان أبو ماهر واثقا من أنه سيظهرها بطريقته الخاصة.

– قلت لأيوب طارش: بعد رحيل الفضول هل تعاونت بشكل ثنائي مع شاعر آخر؟

فقال: بعد أن توفي الفضول قلت: ((مهلنيش)) مستشهداً بقوله: يامن رحلت إلى بعيد.. قصر مسافات البعيد.. وهي كلمات الفضول التي رثيته بها وقلت: ((يامن رحلت إلى بعيد)) مخاطباً الأستاذ / عبد الله عبد الوهاب نعمان.

– سألت أيوب: أين كنت عندما توفي الفضول ؟ فقال:

كنت في عدن.. والتقيت به قبل النـــزول إلى هناك لغرض التسجيل لإذاعة وتلفزيون عدن.

وقال لي: روح سجل أغانيك.. واجلب معك ((التمباك)) وسوف نسمر أنا وأنت طيلة شهر رمضان القادم.. وانتبه تتأخر.. وبعدها سافرت لأفاجأ في نفس الأسبوع بإعلان نبأ وفاته عبر التلفزيون.. وعندها أصبت بصدمة شديدة.. وتملكني الذهول..

واعتذرت عن التسجيل وعدت إلى تعز.

والحقيقة أن هاجس أغنية ((يا من رحلت إلى بعيد)) أخذ يتشكل في وجداني ليتبلور في أربعينية الأستاذ الفضول.. وهكذا رثيته بكلماته.

– سألت الفنان أيوب طارش عن الشعراء الذين غنى لهم فقال:

غنيت لعباس الديلمي ((دمت يا سبتمبر)) و((عن طريق شقه ذو يزن)) و ((وهبناك الدم الغالي)) و((عش خالداً)) وأنشودة خامسة لا أتذكرها..

كما غنيت لراشد محمد ثابت ((جنين المفارق)) وغنيت للقمندان ((سامحني وانا باتوب)) و((أحبك والدموع تشهد)) لعبد الله هادي سبيت أخذها من فضل محمد اللحجي رحمه الله تعالى قبل مقتله بأسبوع أثناء لقائي به في منـــزله بطريق الطويلة بعدن.. وكنت قد التقيته في بداية مشواري الفني في منزل المكاوي عندما غنيت مع منى علي.. وفي هذا اللقاء سلمني فضل محمد اللحجي ألحان هاتين الأغنيتين بعد أن سجلهما بصوته.

وغنيت لعثمان أبو ماهر بحدود عشر أغان منها شريط ((معينة الزراع)) يحتوي على أربع أغاني وأغنية ((وازخم)) و((شني المطر يا سحابه)) وأنشودة ((مدرســـتي)) للطلبـــة وأنشودة ((يانسيما عابقاً كالزهر)) وغيرها بالإضافة لأغـــاني عبـــد الحميـــد الـــشائف وعبدالرحمن عبد الجليل وجحاف وأحمد الجابري والدكتور / سلطان الصريمي وعلي بـــن علي صبرة ومطهر الإرياني وغيرهم.

– قلت لأيوب.

– لماذا عدت لأغاني التراث وبالتحديد لشعر أحمد بن علوان ؟

فقال: أيوب:

أحسست مع بداية الثمانينات بضرورة العودة إلى الله والصحوة من الغفلة التي كنت أعيشها والتي أخذت ما سلف من عمري.. ودق ((الجرس)) في وجداني لكي ينبهني بانني لم

أخلق لهذا وإنما كما قال الله عز وجل في كتابه الكريم ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) ودخلت مع نفسي في محاسبة طويلة خرجت منها بأهمية العودة إلى الله وشكره على نعمه المتتالية وتعويض التقصير والغفلة التي مررت بها.. ولم أجد وسيلة أشكر بها الخالق عز وجل أفضل من الوسيلة التي وهبني إياها.. وقررت استغلال هذه الموهبة في هذا الإتجاه الصائب.. وبدلاً مما كنت أقول..

يا حبيبتي..

يا روحي

أقول الآن: يا حبيبي يا رسول الله.. ووجدت في قصائد الشيخ / أحمد بن علوان قدس الله سره بغيتي وبدأت بغناء قصيدته ((أحباب وادي جيرون)) وهذه القصيدة أوعز لي بها وأعطاني كلماتها وشارك في الكثير من ألحانها سيدي الشيخ الأكبر / عبد الحميد الشائف.

– قلت لأيوب طارش.

– ولكن حسب معلوماتي أنك غنيت لعبد الحميد الشائف أغانٍ عاطفية قبل هذه الأغنية..

فقال: نعم.. غنيت له وهو يعمل في السلك العسكري أغنية ((فاض بي وجدي وأضناني الشجن)) وأغنية ((أبات الليل اشكو الويل مدامع مقلتي كالسيل.)) وأغنية ((طاب اللقاء كل من لقى حبيبه)).

وغنيت له ((صابر صبر أيوب)) والتي اعتبرتها بداية العودة لي والجرس الذي أيقظني من الغفلة في عام ١٩٤٨م وهي الأغنية التي خرجت بها عن مألوف الناس الذين يبحثون عن الطرب وإرضاء هوى النفس..

ويستطرد أيوب في حديث الرجوع والعودة إلى الله فيقول: لم أجد نفسي في أي أغنية من التي غنيتها مثل أغنيتي الأخيرة ((جلاء القلب)) التي تقول كلماتها:

يا نبيا ماله في الكون مثل

يا حبيباً لي به هم وشغل

عين ذات عينها روح وعقل

وهي من كلمات الشيخ / محمد الجنيد من مشائخ صبر.

– سألت أيوب طارش عن الأستاذ الفضول.. وهل عاش عودة مشابهة لعودتك فقال:

– الحقيقة أن قصائد الفضول يصعب حصرها في حبيبة أو تجسيده في معشوقة وهي يمكن أن تُفهم بمعان مختلفة.. بل هناك قصيدة فهمت منها أنه يخاطب من خلالها الخالق عز

وجل وهي القصيدة التي يقول فيها:

يا أنـــت يـــا مـــن أنـــت لا اسميـــه
يـــا صـــدق حـــبي لا ســـراب وهمـــي
أغـــويتني حـــتى حـــروف اسمـــي
مـــــا تكتتـــــبش إلا إذا تهجـــــاك

ففكرت كثيرا: كيف حروف اسم ((الفضول)) لا تكتب إلا إذا تهجى اسم محبوبه هذا.. واكتشفت أنه من الصعوبة أن نعرف عبد الله عبد الوهاب نعمان دون أن نذكر اسم الله الوهاب.

بس لا تأشر لي سلام (*)

بـــس لا تأشـــر لي ســـلام بيـــدك — قلـــبي تعـــب مـــن فرقتـــك وصـــدك
مرت شهور من حين خلفت طبعـــك — ولا دريت ما هـــو الـــسبب وعـــذرك
ماكنـــت داري يـــا حبيـــب مابـــك — وأيـــش الـــذي تفكـــره بعقلـــك
وقلت لـــك قلـــبي بمـــا في قلبـــك — ولا تخلـــيني مـــشغول بـــأمرك
أنـــت الـــذي ولعتنـــا بحبـــك — أمـــا أنـــا مـــا كـــان، بـــالي عنـــدك
واليـــوم توعـــدنا تقلـــي جيلـــك — وقـــد قنعـــت يـــا حبيـــب منـــك

يوم السفر (*)

يوم السفر أصـــبحت اوادع أهلـــي — وكـــل واحـــد منـــهم قريـــب لي
بكى الحبيب مـــن ســـاعته وقـــال لي — أين تـــروح يـــا وحـــشتي يـــا خلـــي
بعـــد الهنـــا والـــود والعنـــاق — دمـــوع تجـــري في الخـــدود ســـواقي

وكيف يكون حالي بعد الفراق

تشتي تروح وانـــا امـــسي لحـــالي — وابـــات وحـــدي ســـاهر الليـــالي
يزيـــد بي شـــوقي وانـــشغالي — عليـــك يـــاروحي وراس مـــالي
ورحـــت واحبـــابي يتفرجـــوالي — اســـير واتلفـــت مـــو يقولـــوا لي
وهم بـــسقف الـــدار يلوحـــوالي — ســـلام باليـــدين يـــؤ شـــروا لي

(*) كلمات: محمد طارش عبسي ، ألحان وغناء: أيوب طارش عبسي

قد كان طبعك حلى (*)

قد كان طبعـــك حلـــى ولـــيش غيرتـــه
بعد المـــوده خـــصام يـــا خـــل رجعتـــه
احـــرمتني مـــن هـــواك وقلـــبي عذبتـــه
وانـــا اتوقـــع لقـــاك اليـــوم أو بعـــده
لأن حبـــك ســـكن قلـــبي وصـــونته
وانت جازيـــت حـــبي بـــالفراق هنتـــه
بذلت روحي معـــك يـــا خـــل وانكرتـــه
بعـــد الهنـــا والمـــودة رحـــت فارقتـــه
وانـــت يـــا خـــل قلـــبي فيـــك ولعتـــه
كم من ليالي معـــك بالوصـــل افرحتـــه
ياناس خلي ظلمـــني كيـــف اســـوي بـــه
كان قلبي معـــه عـــصفور يلعـــب بـــه
مابا اقدر انسى هواه مهما خلف عهده
لأن قلـــبي تولـــع بـــايروح بعـــده
أقول لقلبي كفى بس تـــوب مـــن حبـــه
وقـــال خلـــي شـــفيق مـــسؤول في رده

(*) كلمات: محمد طارش عبسي ، ألحان وغناء: أيوب طارش عبسي

رسالة حبيب (*)

بـــالله عليـــك وامـــسافر لا لقيـــت الحبيـــب
بلـــغ ســـلامي إليـــه وقلـــه كـــم باتغيـــب
أمسيت أناجي القمـــر والنـــاس جمعـــه رقـــود
أدعي لـــربي واقـــول أيحـــين حبـــيبي يعـــود
ما طيـــق أنـــا يـــا منـــائي للجفـــاء والبعـــاد
القلب مـــن فرقتـــك خلـــى حيـــاتي ســـهاد
إلى مـــتى واحبـــيبي بـــا يطـــول الغيـــاب
اذكـــر محبـــك وعـــود للـــصفاء والـــوداد
كتبت لك ألـــف خـــط ولا رجعلـــي جـــواب
حتى ولو كـــان يحمـــل فيـــه علـــيّ عتـــاب
يـــا خـــل أوفي بوعـــدك واتركـــه ذا العنـــاد
أو قد نسيت ما مضى أمـــرك بـــرب العبـــاد
هذا جزاء مـــن يحبـــك تحرمـــه مـــن خطـــاب
ويلك من الله قـــد حولـــت حبـــك عـــذاب
هي كفى يـــا حبـــيبي بـــس كفـــاني التـــهاب
الشوق خلى دمـــوعي جاريـــة في انـــسكاب

صـدفة (١)

صـــدفة مـــن الـــصبح لاقيتـــه وهـــو يجـــري
فقلت لـــه خفـــف الـــسرعة عليـــك بـــدري
وقـــف شـــاقلك صـــباح الخـــير يـــا قمـــري
على الحلى والنحافـــة كـــم شـــكون صـــبري

(١) كلمات: عبده علي ذبحاني الحان وغناء: أيوب طارش

أنا اللـــي هـــائم بحبـــك وانـــت مـــا تـــدري
من يـــوم عرفتـــك وحبـــك ســـر في صـــدري
واليـــوم فاضـــت شـــجوني وافتـــضح أمـــري
يـــاليتني مـــا عرفتـــك آه يـــا قهـــري
كـــان الجـــواب ابتـــسامه ســـحر في الثغـــر
وعـــاد يجـــري كأنـــه لم يكـــن يـــدري
هل قد فهـــم مـــا قـــصدته أو نـــوى هجـــري
يـــا حـــيرتي يـــا عـــذابي يـــا ظنـــون فكـــري
قلـــبي المعـــذب أمامـــه مويكـــون عـــذري
أقله في الابتـــسامه أمـــل اعـــيش لـــه عمـــري
مهما الأمـــل بـــايطول أو في الـــصبر صـــبري
يمكن يكـــون قـــد قبـــل حـــبي ومـــن يـــدري

البلبل الشادي (١)

غني يا شـــادي بـــاللحن الطـــروب وابعث الأشـــواق في كـــل القلـــوب
أنـــا مـــشتاق إلى سمـــع الغنـــاء ليخفف بعـــض مـــا بي مـــن كـــروب
ردد الأنغـــام كـــي أســـلو بهـــا مـــن همـــوم في فـــؤادي لم تـــذب
كم سهرت الليـــل اشـــكو للنجـــوم حـــائر الأفكـــار مـــا بـــين الـــدروب
حرت في أمـــر الهـــوى مـــالي دواء غير أن أحظى مـــن الغـــاني اللعـــوب
دمعـــة العيـــنين كـــم باتـــت علـــى وجنـــة الخـــدين تتحمـــل ذنـــوب
دوبـــت قلـــبي نظـــرات الغـــرام مـــن غـــواني ســـاحرات للقلـــوب
همـــت في الحـــب واضـــناني الهيـــام واصيب القلب مـــن قبـــل الغـــروب

(١) كلمات / علي سيف أحمد عبسي. لحن وغناء / أيوب طارش عبسي

بلادي (•)

بـــلادي بـــلادي بـــلادي الـــيمن أحييك يـــا مـــوطني مـــدى الـــزمن
أحيـــي الرجـــال الـــذين لهـــم رصـــيد النـــضال بنـــصر الـــيمن
فقـــد حطمـــوا القيـــد في ليلـــة بهـــا الظـــالم بـــات رهـــن الكفـــن
أزاحـــوا ســـتار الظـــلام الـــذي على الـــشعب كـــان يـــثير الحـــزن
وإنـــا جميعـــاً سنمـــضي علـــى قتـــال الأعـــادي طـــول الـــزمن
ســـنحمي الـــبلاد بأرواحنـــا وكـــل دمانـــا فـــداها ثمـــن
لنـــا النـــصر والمـــوت للظـــالمين وكـــل عميـــلٍ خـــان الـــوطن

(•) في الطبعة القادمة سنورد فهرساً لأعمال أيوب مع شعراء غير الفضول وبعض النصوص لأهم الشعراء أو قصائد التراث.

قصة الحب الكبير
بين الفضول وملهمته الصغيره!(*)

في أول ظهور لملهمة الفضول بين يدي الذكرى الـ"١٧" منذ رحيلة المفاجئ والذي ترك فراغاً هائلاً في الساحة الأدبية في اليمن ... وفي محاولة مستمرة لإنصاف هذا العملاق الذي أمتع الناس والوطن بشعره الجميل غنائياً وسياسياً وفلسفياً، ها نحن نستبق الذكرى التي ستكون في ٩٩/٧/٥م و لأن الفضول رحل بشخصه وترك فكره وشعره ونثره.. للأجيال.. فما هو واجبنا نحو هذا الفكر الرفيع؟

وعن الفضول والحب والسياسة والموقف.. نقف مع المرأة التي كتب لها الفضول:

هواجسي كلها عنده ويلغط نبض قلبي لو بغيره هجس/كم يا نجوم زاورت روحي وما شي نجم غيره وسط روحي جلس/ وكم بدور ضيفتني بعدما حبيت قلبي من هواها خنس.

من هي المرأة التي كتب لها الفضول "دق القاع– مهما يلوعني الحنين– وأنا مع الحب في بيت – من أجل عينك – مهلنيش – هات لي قلبك – أذكرك والليالي – وادي الضباب – قلبي يسائلني عليك ... إلى أخر هذه القائمة من الأغاني الرائعة والخالدة؟

– إنها عزيزة أمين عبدالواسع نعمان – بنت أبن عم الفضول – حيث عاش معها من عام ١٩٧٢م وحتى رحيله – أي أنها عاشت معه ((١١)) عاماً.. وعاش معها الشاعر قصة حب قبل ذلك بسنوات تكللت بالزواج الذي زاد في إشعال عواطف الفضول في ظاهرة غريبة بين المحبين.. وعن هذا الحب وعن الفضول الشاعر والفضول الإنسان وعن الذكرى والوفاء كان لابد أن نفاجئ الوسط الثقافي في اليمن من خلال الجمهورية الثقافية بهذا اللقاء استعداداً لأحياء ذكرى الفضول السابعة عشرة. ذكرى الغائب الحاضر في كل أفراحنا وعواطفنا وأناشيد النفس اليمنية الرقيقة والتي تعجز عن وصف التجاهل ومحاولة التهميش التي لحقت بالفضول من الجميع. حتى اليوم ومحبوا الفضول ينتظرون ما ستقدمه مؤسسات الثقافة لهذه الذكرى أم أن وراء الأكمة ما وراءها؟! وأين دور التلفزيون؟ أسوة بالقنوات الفضائية التي تقوم بإعداد برامج رائعة لنوابغ مفكري وشعراء بلادها ... فهيا لنبدأ الحوار: –

(*) هذا اللقاء أجراه المؤلف ونشر في الجمهورية الثقافية في ٢٠ / ٥ / ١٩٩٩م. وشاركت في الحوار الزميلة المبتدئة انتصار الحارث لأسباب اجتماعية .

*من هي عزيزة النعمان في حياة الفضول الإنسانية والشعرية؟

– هي المرأة التي أحبها الفضول في أنضج مراحل حياته كإنسان وكشاعر فلم يكن حبه نزوة بل كان حبه حب شاعر صادق في مشاعره.. ويكفي كدليل على عظمة هذا الحب وقوته أنه أستمر متدفقاً عنيفاً حتى بعد الزواج عام ١٩٧٢م وإلى أن فارق الحياة يوم ١٩٨٢/٧/٥م ١٤ رمضان ١٤٠٢ هـ وهو ما لم يحدث في حياة كل ا لعشاق.

*هل معنى ذلك أن هذا الحب هو الذي أيقظ عواطف الفضول غنائياً منذ عام ١٩٦٧م وهو العام الذي ألتقى فيه بأيوب؟

– إن الحب العظيم هو الذي يأتي بالشعر العظيم ولقد كان حب الفضول يفوق التصور والخيال حتى أنني أعجز عن وصف حبه.. ويكفي أنه وصف ذلك بنفسه ويمنعني من وصفه كوني الشخص أو الإنسانة التي حباها الله بحب هذا الإنسان الشاعر العظيم ولذلك فكل ما كتبه وخرج إلى الناس وما لم يخرج حتى اليوم هو صورة ناطقة لحبة الذي فلسفه بقوله:

هات كل الزهـــر والعطـــر اليَّـــا أنا غير الحب لاشـــيء لـــديا
كل أعماقي وضـــوح وجوانـــب نفسي تلبس الإشـــراق زيـــا
وهـــو الحـــب الـــذي هندســـني تحت هذا الضوء إنسانا ســـويا

ولا أعتقد أ، شاعراً عبر التاريخ مارس الحب بهذا الصفاء وهذا العنفوان النقي كما عبر عنه الفضول.

*هل معنى هذا أن حب الفضول كان كله للمرأة؟

لا لا تفهم الأمر كذلك فالإنسان عندما يحب امرأة ليس معنى ذلك أنه ينسى حب الوطن والناس وأصدقكما القول إن حب الفضول للوطن والناس جاوز حدود المعقول ولعل أناشيده الوطنية ومواقفه النضالية منذ الأنات الأولى وحتى قيام الثورة وما بعدها لأكبر دليل على ذلك.. وحبه لوطنه ليس بحاجة لإثباته من أحد – حتى أنا – ولكن إجابتي على السؤال السابق كانت تدور حول مضمون السؤال ولم أتجاوزه..لأن لكل مقام مقال ولكل سؤال جواب.. أليس كذلك؟.

*يتهم الناس أو أكثره الفضول بأنه كان بعيداً عن السياسة وعن هموم الوطن وقضاياه المعقدة وعن الواقع؟

– اسمحوا لي أن أقول لكل الناس الذي يعتقدون ذلك أن الفضول أمتلك عقلية سياسية جبارة ومارسها بطريقته الخاصة وكان بجوار الزبيري والموشكي من أوائل الذين أقسموا على تحرير الوطن من الظلم وخوض غمار السياسة فكانت السياسة تجري في دمائه ولعل أوضح الأدلة على عقليته السياسية صلته القوية التي جمعت بينه وبين عدد من

الزعماء اليمنيين والعرب. وكان مستشاراً للرئيس عبدالرحمن الارياني في فترة ما بين ٦٧-٧٤م باختصار كان الفضول يعلم ما معنى السياسة؟ وما هو دورها؟ وما أبعادها؟

*نحن نقصد دور السياسي كشاعر ...!

- إذن.. أنت تسأل عن شعر الفضول السياسي.. سأقول لك أشياء لا يعلمها الكثيرون من الناس كان الفضول يرى بأن الحب هو القادر على تحرير الناس من أحقادهم وتحرير القادة والأحزاب والمسؤلين من ممارساتهم الخاطئة.. الفضول أرخ الواقع أصدق تاريخ في فن الشعر فكان يكتب شعر الحب وينشره بصوت مطربة المفضل أيوب طارش - حب المرأة وحب الوطن - ولم ينشره مكتوباً - وكان يكتب الشعر السياسي الممتاز ويكتفي بقراءته على أصدقائه في مجالس القات - وكان كثير التنقيح له لثلاثة أسباب الأول: حتى يؤرخ ويقرأ الواقع بحيادية ودون تأثير من أحد..أو جهة والثاني: أنه كان يريد أن يجمع أعماله الشعرية كاملة ويقدمها للناس في صورة كاملة للشاعر وهذه من الأسباب التي منعته من طباعة أعماله الشعرية في حياته والثالث: إحساسه بحاجة الناس إلى الحب أكثر من السياسة التي أرهقت اليمنيين.. ولا تنسوا انه من أسرة رضع أبناؤها السياسة رضاعة وشعره السياسي لم ينشر وهو كثير وما ديوان الفيروزه الذي أخرجه نجله عبدالكريم إلا غيض من فيض.

*وأين هذا الشعر حتى اليوم؟

هذا سؤال يمكنكم توجيهه إلى أبناء الشاعر.. ولو كنت أحتفظ بأوراقه لبعت ما فوقي وما تحتي لطباعته وإخراجه للناس كواجب خاص وعام.. وكواجب تجاه الحبيب وواجب تجاه الوطن لأن ما تركه الفضول أصبح من حق الوطن اليمني الذي أحبه بكل جوارحه وحق الناس الذين وجدوا ويجدون أنفسهم وهم يسمعون شعر الفضول.

*ولماذا لم يعد الناس يسمعون شعر الفضول العاطفي من أيوب طارش؟

- هذا السؤال مهم جداً لأن الفضول كان قد أعطى أيوب طارش مجموعة ممتازة من قصائده كما هي العادة وما أعطاه الفضول لأيوب طارش أصبح حقاً من حقوق العلاقة الفنية والإنسانية بينهما.. على أيوب طارس واجب الوفاء لإخراج هذه الأعمال إلى الوجود، وليس من حق طرف من الأطراف الاعتراض لأي سبب كان ولأن الأمر منتهي بتسليم الفضول لقصائده لأيوب طارش وعلى أيوب أن يكون وفياً وعملياً - ولما تقره القوانين الفكرية والحقوق الفينة يتساوى فيه حق الشاعر أو غيره مع أمثاله - لإخراج هذه الأعمال إلى الوجود والناس ونحن بانتظار ذلك وليعتبر أيوب ذلك كلاماً رسمياً ولا أظن إنساناً في حاجة إلى وفاء صاحبة كحاجة الفضول لوفاء أيوب طارش على ما بين الأثنين من بعد وما كان من حب ومودة وأستاذية وتلمذة.

*عفواً إن دخلنا في أمور جادة كهذه من البداية لكن نعود إلى البداية.. فكيف كانت بداية الحب بينك وبين الفضول؟

– استمرت علاقتي العاطفية بالفضول قبل الزواج عدة سنوات ولقد طالت بسبب معارضة والدي لهذا الزواج لعدة أسباب أهمها فارق السن بيننا ومسئولية الفضول تجاه أولاده من زوجتيه وأسباب أخرى فألهبت هذه المعارضة مشاعر الفضول فكتب قصائده الرائعة لهذه المرحلة المهمة في حياتنا.

*ما هي هذه القصائد لو أمكن؟

– مثل دق القاع دقه ووادي الضباب وكنا قد ذهبنا ذلك الوادي وكان أبي معنا وقصيدة مهما يلوعني الحنين، وكنت حينها بصحبة والدي في ألمانيا وقصيدة مدارب السيل التي بدأ ينظمها ونحن في زيارة للشلالات التي تقع على الطريق بين الحديدة وصنعاء – باب الناقه – ثم أكملها فيما بعد كما هي عادته في كتابة قصائده.. حيث تبدأ القصيدة بموقف ثم يكملها فيما بعد.. كعادة الشعراء العظماء الذي يستدعيهم الموقف في امتحان صعب مع النبوغ والشاعرية والعبقرية التي كان يتمتع بها الفضول.

*هل آمنت بعبقرية الفضول الشعرية؟

نعم لقد أمنت بعبقرية الفضول الشعرية كشاعر وعبقريته كإنسان؟

وماذا؟

– كنا ضيوفه في أحد الأيام وكان مريضاً فنظم قصيدته الشهيرة "هنوا لقلبي عند قلبي ضيوف" ثم أكملها فيما بعد وكانت هدية زواجنا فيما بعد مع قصيدة "واصبايا واملاح اقطفين لي مشاقر".

*كيف كان شعوره عندما عرف موافقة والداك على الزواج؟

تدخل في الأمر مجموعة كبيرة من وجاهات اليمن مشايخ ومسؤولين وقادة ويوم علم بموافقة أبي من "محمد علي عثمان" الذي أتصل به وكان نائماً فأصر على إيقاظه من النوم لأمر مهم فقال له: أنهض وقم من أجل عينك.. تمت الأماني.. أي أن أبي وافق على زواجنا.. فطلع إلى صنعاء في نفس الوقت فكتب قصيدته الخالدة.

من أجل عينك واحبيب القلـــب شـــاكرم ألـــف عـــين
وأصـــبر وداري قلـــوب قـــد حـــبين لكـــن نـــسين

فهل لنا نتخيل مشاعره في تلك اللحظة؟!

ولها قصة أخرى حيث كان هناك من يخدمني وقد طلب مني مسدساً وقلت أذهب لعمك عبدالله وقل له إني أرسلتك له.. فذهب وأعطاه عبدالله مسدسه وقال له "من أجل عينك واحبيب القلب شاكرم ألف عين" وكان يتحمل الكل من أجلي.. فقال هذه

القصيدة، أصرت انتصار على سماع هذه القصيدة لتكشف أثر هذه اللحظة على ملامح ملهمة الفضول عزيزة النعمان.. وفعلا كادت تبكي – بل وبدأ الأثر واضحاً على كل ملامح عزيزة النعمان التي اهتزت مشاعرها من الأعماق.

*كيف كان بحب الفضول للقرية؟

– كان يعشق القرية عشقاً تفضحه كل أشعاره ولكنه لم يكن يسافر إلى القرية وأذكر أنني سافرت معه مرة واحدة والسبب هو مشاغل الحياة الكثيرة منذ حياته في عدن وحتى وفاته ولقد كان ينوي بناء منزل لي في القرية لكنه تردد بسبب خوفه من الفارق الكبير بين حياتي هناك وحياة المدينة وقال انه يريد العيش في المدينة لأنها أكثر في مآسي الناس وهو يريد أن يعيش هذه المآسي ويسجلها في شعره ويمارس دوره كشاعر.

*هل استطاع الفضول أن يعبر عن حبه للناس وإيصاله؟

–كان يحاول إيصال حبه للناس وكان يعاملهم بحب وحنان وعطف وكان أباً مثالياً مع أولاده. وكان يتعاطف مع هموم الآخرين.. كمثال فحين ماتت أختي وكانت أقرب الناس إلي وبمثابة الأم، وكان الفضول بمجرد خروجي من المنزل ينخرط في البكاء الطويل حتى جاء يوماً في حدود العاشرة مساءً رأيت دموعه الغزيره وقال لي أنا إن لم تبك عيوني يبكي قلبي على أي إنسان في هذه الدنيا فما بالك وهي أختك التي كنت أعتمد عليها في مساندتك لو رحلت أو حدث لي أي شيء.. وكان قد كتب في هذه الحادثة قصيدة "مهلنيش بين الهناء والأفراح" يتحدث فيها على لساني وبعد فترة أهدى هذه القصيدة للأخ / الرئيس علي عبدالله صالح عندما ماتت زوجته آنذاك.

*حب الفضول الكبير الذي أمده بالقوة الشاعرية المتدفقة هل عرفتيه؟

– نعم عرفت هذا الحب من خلال تعامله معي والحياة المشتركة بيني وبينه والآخرين ومن خلال قصائده العاطفية التي غمرت الدنيا ولم أكن أحس بها في حياته قدر إحساسي بها الأن بعد موته وكان مخلصاً لكل من حوله من الناس.

*الفضول الإنسان والفضول الشاعر..ماذا عنهما؟

– لا يوجد انفصال بينهما فقد أمنت بعبقريته الشعرية وكنت أشاركه فرحته بولادة قصائده الجميلة وما كان الشاعر فيه إلا امتداد الإنسان فأنا عندما أحضرت له يوماً المسجلة ليضعها تحت رأسه ليستعين بها وقت حضور الإلهام الشعري فقد كان يخرج من الغرفة إلي مكان ليكتب الشعر والمسجلة بجانبه فقد كان يقول كل ما بخاطره ثم يعود إلى النوم لذا قال لي: لقد أنقذتني لماذا لم تحضري لي المسجلة منذ وقت طويل أما بالمسجلة فقد كان يواصل النوم بعد قول ما لديه وقلت له في إحدى الليالي خلي المسجلة ستعمل عليها قصيدة الأن!

*كيف كانت علاقاته الاجتماعية بالأصدقاء والناس؟

-كانت علاقاته الاجتماعية قوية بالناس وكان يحبهم ويرحب بهم دائماً ولا يخجل إن تركهم وقت المقيل حين تطرأ له قصيدة أ وخاطر ما ثم يعود بعد نصف ساعة وإذا كانوا من أصدقائه المقربين فهو لثقته بهم يكتب إلى جانبهم مهما تحدثوا إليه فإنه لا يسمع منهم ولا كلمة لأن فكره كله يكون في الكتابة والقصيدة التي بين يديه.

*هل عرفت أنه ندم يوماً ما على قصيدة؟

لا لم يندم على قصيدة قالها لأنه كان يعرف ماذا يقول وتلاحظون أنه لم يمدح إلا من يستحق رغم علاقاته العديدة والكثيرة ولكنه لم يقع تحت طائلة الإحراج أبداً أبداً.

*من هم الشعراء الذين كان يعتبرهم مثله الأعلى من الناحية الفنية؟

-المتنبي.. كان هاجسه الأكبر ثم البحتري وأبو نواس وأنتم تلاحظون امتيازه في شعر الطبيعة الذي كان قد تفوق فيه من قبل البحتري. وكان يؤكد على أنه ينبغي للشاعر أن تكون له شخصيته المستقلة والمتميزة وكانت للمعري مكانه كبيرة في نفسه وكذلك قرا كثيراً لإبراهيم ناجي وعلي محمود طه وشوقي وحافظ إبراهيم .

*علاقته بالتراث الشعبي في الفن اليمني كيف كانت؟ ومن كان يحب أن يستمع إليهم؟

-كانت علاقته بالموروث الشعبي قوية جداً وكان يؤمن بالتجديد لا بالتكرار ويؤكد على التميز والخلق الجديد للموروث. وكان يستمع إلى العديد من أغاني التراث ولا سيما الأغاني الأصيلة وذات الذوق الفريد والرائع ولا يرتاح للأغاني الركيكة المعاني والألحان كان مشدوداً إلى الأصالة وكان يسخر من الشعراء والمطربين الذين ليس لهم شخصيتهم المستقلة ومعانيهم الأصيلة وألحانهم الفريدة.

*الظمأ العاطفي المتقد عند الفضول في كل قصائده ما سببه؟ هل عاش طفولة حرم فيها من حنان الأمومة والأبوة. لماذا لم يرتوا هذا الشاعر المحب؟

-افرضا انه لم يحرم من حنان الأم. التي ماتت فيما بعد ثورة سبتمبر بل حرم من حنان بلاده ووطنه لأكثر من ٤٥ عاماً فقد تشرد وتغرب طويلاً وسألت دماؤه في شوارع عدن وتحمل الفقر والمشقة طويلاً وعمل في الطباعة في بدايته في عدن وعانى من الاغتراب داخل بلاده. عندما طلع إلى صنعاء لإنزال والده بسبب حكم الإعدام عليه قال له أبوه أنا أعرف أني سأعدم ولكنني خائف عليك أنت وطلب منه الهرب فما مشاعر ابن يترك أباه للإعدام وهذه الحادثة كانت قاسية عليه بشده وأنت يا محيي الدين قد ركزت على هذه النقطة في دراستك عن الفضول التي نشرتها في الجمهورية الصحيفة الوفية للخالدين من الناس.

*هل حاول الفضول الخروج من الوطن أو عرض عليه السفر؟

-عرض عليه عدد من الرؤساء العرب منهم صدام حسين رئيس العراق وجابر الصباح أمير الكويت ذلك فرفض الأمر بلطف ملقياً بالحجة والعذر علي أنا التي لا أريد مفارقة الوطن.. وهو كان يتحدث عن نفسه كان يريد الحياة ببساطة وبدون رسميات ولذلك عاش حياته داخل اليمن رغم معاناته فتخيلا لو أنه سافر ونشر شعره السياسي والعاطفي في الخارج ومن لندن ...! ومع العلم أنه قال للأمير جابر بأنني لو سافرت أوروبا فلن تسمع مني كلمة لأن أوروبا تسد نفسي نعم كانت اليمن هي التي تفتح أحضانها لشاعريته.

*الفضول وعلاقته بالطبيعة وتشابهه مع أبي القاسم الشابي.. كيف تنظرين إلى علاقته بالطبيعة ومفرداتها ومناظرها وصورها؟

يكفي من تغزل الفضول بالطبيعة أنه قال " شل السيول التراب " فلا أحد من الشعراء تطرق لهذه وغيره كثير وهذه الظاهرة لم أراها جميلة كما رآها الفضول وشعر الطبيعة لديه لم يكن هروباً من الواقع. كما تسمونه أنتم النقاد والكتاب بل كان فناً في داخله وفي أحاسيسه. بجمال الطبيعة من حوله ويعتبر شعر الطبيعة عند الفضول امتداداً لحسه العاطفي بالأشياء من حوله.

*ما هو شعورك وإحساسك وأنت المقصودة بأجمل ما كتبه الفضول من قصائد عاطفية؟

-شعور لا يوصف لقد استطاع أن يعبر عن حبه الكبير وكنت سعيدة بهذا الحب الذي قل أن تحظى به امرأة في التاريخ.. كان مؤمناً بتحقق لقائنا فجهز قصائد العرس والزفة والاستقبال قبل موافقة أبي كان حبه عظمياً وخالداً ولا يزول..وكما قال:

ريح الصبا لا أدري ماذا أقول شامشي طريق الصبر مهما يطول
وازرع دموعي في ضفاف الغيول ورود حب خالد لا يزول

*هل كان للفضول أعداء في ميدان الشعر والأدب، ومن هم بالاسم والتحديد؟

- لا.. لا أبداً لم يكن له أي عداوات مع أحد فقد كان محباً وصادقاً للآخرين ولو كان كذلك لم كان محباً صادقاً وكانت علاقاته طيبة مع الجميع.. حتى أنه قبل وفاته كان قد وجه دعوة شفوية للمقالح والبردوني لزيارة مدينة تعز.. إيماناً منه بواجب الأخوة بين الشعراء.. ولكن للأسف لم تتم الدعوة لوفاته وقد ذكر المقالح ذلك في أربعينية الفضول.. ولكنني أتساءل عن السبب في تجاهل البردوني الفاضح لشاعر بحجم الفضول.. ولا أقول ذلك لأنه زوجي ولعلاقتي به لقد كتب البردوني عن الزبيري وعن الموشكي وغيرهم والفضول تجمعه بهذين الشاعرين علاقة عظيمة من الأربعينات..فلماذا تجاهل البردوني

الفضول لا أدري ولكنه أمر يسيء إلى البردوني كثيراً بين محبيه ومحبي الفضول في وقت واحد.

*قد تكون العداوة بسبب الحسد أو الحقد؟

– لا.. لا.. كان شعار الفضول الدائم هو أن " الحقد ضد التفوق " ولقد أشار إلى ذلك في كثير من شعره كقوله في قصيدة أغنيات الشمس:

كيف يعطيك جمال الخير مَنْ كلُّه للخير نبذٌ وعقوقُ
أغنيات الشمس لا يعزفها غير قلب فيه فجر وشروق

ولذلك لا أستبعد أن يحقد عليه أحد بسبب نجاحه وتفوقه ونبوغه الشعري كما كان الحال بالنسبة للمتنبي.. وهو المثل الأعلى للفضول لكنه كان يكرر ويردد دائماً عبارته "الحقد ضد التفوق" بمعنى أن الرجل الذي يريد التفوق يجب عليه الابتعاد عن الحقد على الآخرين.. وما نجح شاعر حاقد.. أبداً.

*مطالعاته وقراءته ماذا عنها؟

–فترة حياتنا كانت فترة إثمار ونتائج فقد نال حظاً كبيراً من التعليم العميق وكان رحمه الله يحفظ القرآن كاملاً وكان مجيداً للغة الإنجليزية ويكاد يكون في فترة مابين ٧٢–٨٢ / قد تفرغ لكتابة الشعر في وقت المقيل وما بعده وما بين الساعة السابعة مساءً وحتى التاسعة أو العاشرة أو يصحوا في الليل لكتابة ما يجود الإلهام الشعري إذا كنتما تقصدان ثقافته فحياته كلها ثقافة منذ صنعاء وزبيد وعمله كمدرس في الاحمدية وفي عدن وفي الصحافة إن كل ذلك يدل على ثقافة أصيلة ولعل شعره يقودنا إلى ثقافته السياسية والتاريخية والفكرية وغير ذلك.

*علاقته المادية بأيوب طارش.. كيف كانت؟

– كما ذكره كان الفضول يريد إيصال حبه إلى الناس ودون هدف أو غاية إلى المال وكانت علاقتهما أكبر من المادة و المال ولذلك ما زلت أكرر الطلب لأيوب لإخراج بقية أعمال الفضول التي لديه لأنها ملك الناس ولم تعد ملكاً لأحد فالفكر وأعمال العقل لا تورث ولا تقدر بمال.

*التجاهل الذي مازا ل مخيماً على حياة الفضول وشعره السياسي والعاطفي..ولماذا لم يكن يشارك في المهرجانات الشعرية واللقاءات التلفازية؟

– لم يكن له أعداء كما قلنا ولكنه تعرض للتهميش والتجاهل وهو لم يكن يحب الظهور والأضواء.. ولم يكن يشارك في المهرجانات الشعرية وقد حاول معه التلفزيون في عدن وكذلك حاول السماوي من صنعاء وعدد من الصحفيين من الخارج غير أنه لم يكن يوافق أبداً وكانوا يحاولون أن يجعلوني وسيطة لإقناعه حتى بكتابة إجابات على أسئلة

وإرسالها وكنت أستقبل الصحفيين والإعلاميين وأعتذر لهم وأعلل بمرضه.. ومنهم من كان يريد أن يروي لهم أحداث ٤٨م والأربعينيات بصفته معايشاً للأحداث ومدركاً لأبعادها ولكن دون قائدة حتى أنه كان يرفض الرد على التلفون إذا كان الأمر يتعلق بهذا الموضوع وكان يتضايق من أي مقابلة أو تدخل في حياته وكان يقول لهم باستمرار " أنا لو تكلمت فإنه لن يكون في صالحكم فدعوني وشأني " ولعل هذه العبارة تشرح السبب حيث كان يرفض أن يقول غير الصدق ولأن الصدق سيغضب الكثيرين ولن يسمحوا به فقد قرر ألا ينافق أحداً أياً كان ولذلك توجه إلى كتابة الشعر السياسي لتعرية وفضح الواقع بالكلمة والرمز والإيحاء ودن تجريح لأحد وهذه ميزة تفرد بها الفضول عن غيره من الشعراء السياسيين عبر العصور فهو لم يوجه اللوم إلى أحد بعينه بقدر ما وجه اللوم إلى الجميع مسؤولين ومواطنين.

*عفواً سؤال خاص ونفساني.. لماذا كان الفضول دائماً يلبس النظارة هل هناك سبب ما؟

– من الطفولة كانت عينه طبيعية ثم حدث قليلاً من الحول.. وقد تعالج لها حيث التقى مع الأمير جابر في الطريق إلى نيروبي بعد ما تزوجنا.. فأرسل الأمير بطاقة تهنئة وتذكرتي سفر للعلاج وكما قال أيضاً " لإصلاح العوينات " وسافرنا لندن وتمت العملية بنجاح وعادت عينه طبيعية كما كانت وكان الأمير جابر يحبه بشدة وأعطاه سيارتين واحدة له وأخرى لي وكانت العملية على حسابه وقد أراد منه أن يعيش في أحد قصوره في الكويت ملتزماً بتوفير أسباب الراحة غير أنه لم يقبل وقد نسيت ذكر ذلك من قبل وكان يشعر بأنه كالطائر المحبوس فطلب مني أن أقول إنني غير مرتاحة للحياة في الكويت بسبب تعلقي بأولاد أخي فقال الأمير جابر إنه على استعداد لكي يأتي بهم إلى الكويت غير أن الفضول كتب له قصيدة بين له أنني أريد العودة إلى اليمن.

*ما الذي كان يمنعه من نشر قصائده في دواوين شعرية؟

– طبعاً لم يكن الأمر العجز المادي بل لأن نيته كما ذكرت سابقاً جمع أعماله الكاملة وطباعتها. وكان قد أسر لي أنه سيهديه إلي.. وحاولت عدد من الجهات الحصول على أعماله الشعرية لطباعتها على نفقتها وهي جهات سواء في بيروت أم من العراق أو من علي ناصر محمد وغيره و لكن.. ما خفي كان أعظم كما يقولون.

*أقرب الناس إلى الفضول.. من الناس؟

– كان أحمد العديني الذي حفظ كثيراً من أشعار الفضول وكان متعلقاً به إلى حد كبير جداً ويعرف عنه الكثير والكثير لأن الفضول هو الذي رباه وزوجه وبعد زواجنا سافر إلى السعودية وعاد رأسا إلى الفضول يراه وبعد رحيله مات الفضول.. وهذا كان أعز إنسان عند الفضول.

*مراجعته لأشعاره – تنقيحه لها – الاحتفاظ بها كيف كان ذلك؟

– كان يحتفظ بقصائده ويحافظ عليها بشده ولا يسمعها إلا للمقربين وكان يعتمد على في حفظ أوراقه جميعاً.. وفعلاً احتفظت بها في شنطة ولكن حدث ما لا أحب أن أذكره هنا الأن الأسباب خاصة.. وذهبت الشنطه وتسربت منها قصائد كثيرة ومنها ما ضاع حتى الأن وللأسف اعتبروها ميراثاً خاصاً رنسوا أنها ميراث لكل الناس وللوطن اليمني.. وكان عندما يبدأ بالقصيدة ثم ينقلها مرتين أوثلاث والبعض مرة واحدة بعد التنقيح.

*هل عاش الفضول قصص حب أخرى وصارحك بها ولمن كان يكتب هل لحبيبه واحدة أم أكثر؟

– كان يحدثني عن المواقف والأسباب التي استدعته لينظم الشعر في لحظة معينة وعن الحالة التي كان فيها أثناء كتابته لقصيدة ما. وعن موقعي من كل قصيدة ويحدثني عن فرحته فيها.. وعلاقتي بها.

*إذا قلت لك إنني أريد كتابة بحث بعنوان " الفضول عاشقاً " فمن أين تنصحيني بالبدء والانتهاء؟

–لماذا تبدأ بالفضول عاشقاً.. لماذا لا تكتب عن الفضول السياسي؟!

*الفضول السياسي قضية أنا نذرت جهودي لها.. لكن أين الفضول عاشقاً؟!

لقد سألني الفضول يوماً هل تشعرين بأن كل قصائدي هي من أجلك ولك أنت وكما أقصد أنا فقلت هل هي حقاً لي أنا ومن أجلي؟ فقال إن كل قصيدة حتى ولو كانت سياسية فإنني موجودة فيها وقال أنت كل قصائدي ....

*كيف استطعت الوصول إلى هذه المكانة الخالدة حتى بعد الزواج على غير العادة؟

– عرفت كيف أتعامل معه أكثر من أي إنسان آخر وأكثر من أولاده وزوجاته ولو لا فهمي له لما تحملت عصبيته الشديدة رغم سنوات عمري مع الـ ((١١)) سنه فلم يكن عصبياً معي أبداً وأحياناً إذا تعصب على الغير أحاول تهدئته فكان ينصحني بالابتعاد عن التدخل حتى لا يوجعني بأي كلمة أو تصرف ولذا استطعت أن أحتويه وأفهمه وأشعر كيف أنه طيب وإنسان عظيم.. ولقد أمنت بعبقريته – كما قلت – لذا لم يحدث أي خلاف ولو بسيط بيني وبينه طوال فترة حياتنا رحمه الله.. كان حبنا فريداً في التاريخ وما زال وسيظل خالداً بتوفيق الله ومهيأ الأسباب بعبقرية الفضول وصدق عواطفه ونبوغه وأنا باستحقاقي لهذا الحب العظيم من شاعر عظيم وعظمة هذا الحب بإرادة الله جعلت منه رافداً لشاعريته ونبوغه العاطفي أيضاً فالفضول فيلسوف سياسي وفيلسوف للعشاق والمحبين الصادقين وما أريد أن أقوله للناس جميعاً هو أن الفضول بقدر ما كان شاعراً عظيماً

في الحب والعشق فقد كان أعظم منه في حب الوطن وفي نظم الشعر السياسي..فقط عليهم أن يبحثوا عن شعره السياسي ويتابعوه ويقرأوه بعمق ودقة ليفهموه وليعرفوا أنهم أمام شاعر سياسي عظيم.

*يطلق بعض الناس على الفضول أنه كان شاعراً باللهجة العامية وأنه شاعر شعبي؟

– من يقول ذلك فقط لأنه لم يقرأ ولم تتح له الفرصة الكافية ليعرف الفضول.. لقد خاطب الفضول الناس بلغة راقية وحضارية ومعان نادرة وحاول الوصول إلى كل الناس على اختلاف مستوياتهم المعروفة الإدراكية ومن يقول ذلك فلأن الفضول وصل إليه وإلى قلبه ولكنهم لم يفهموا الأمر جيداً وهذا دور النقاد والباحثين والدارسين لشعر الفضول.. لكن فقط كان الفضول يقوم بتطعيم قصائده الغنائية ببعض المفردات التي يعتقد الناس أنها عامية لأنهم يتعاملون بها في حياتهم ولو رجعوا إلى القواميس لوجدوا تلك المفردات في منتهى الفصاحة ومن صميم اللغة العربية الفصحى ولذلك على الناس أن يعرفوا أن الفضول ما كتب شعراً عامياً أو شعبياً لكنه حاول الوصول إليهم بلغته.. والواجب أن يفهمه الناس كما يجب وكما يحبون أن يفهمهم الآخرون.

*القصائد الغنائية التالية ما هي المواقف التي جاءت من خلالها؟

– لك أيامي و شوقي وحنيني.

ذات مره قال لي: ماذا أفعل لك؟ لأن أبي كان رافضاً للزواج تماماً وحتى مسألة الأولاد كان أبي يريد أن يكون لي أولاد وكنت أقول له بأنني مقتنعة فقال لي الفضول: لك أيامي وحياتي وعمري كله ومن هنا كانت بداية القصيدة واستقر عليها.. وكان الفضول يعتز بنفسه كثيراً.

*لكن ما هي قصة الفضول مع أم كلثوم حول هذه القصيدة وغيرها؟

–كان الفضول قد أرسل بقصائد إليها ومنها هذه القصيدة الطويلة التي غنى أيوب جزاءً منها فيما بعد – فأرسلت له أم كلثوم تريد رؤية هذا الشاعر الذي أعجبتها قصائده فلم يقبل ذلك وأرسل إليها يطلب منها هي أن تحضر إلى اليمن وكان عبدالعزيز الحروي وسيطاً بينهما وأنه عند حضورها سيعطيها القصيدة بدون مقابل مادي هدية منها لها وهي بدورها تهديها إلى اليمن هذا الذي حدث ولكنه لم يتم وهو موقف لا يعبر عن مادية في الفضول بل يعبر عن احترام لذات واعتزاز بالنفس والفضول كان معتزاً بنفسه وثقته بذاته وموهبته بلا حدود لذلك يتهمه البعض بالمادية وهو لم يكن كذلك والدليل موقفه مع أم كلثوم.

*وعن النسيان؟

– مرة قلت له نستني فكتب قصيدة مطلعها:

نسيتني النسيان كيف أنساك " وموجودة بصوته ".

*وفيروز أين كان موقعها في خيال الفضول الشعري؟

–كان معجباً كثيراً بفيروز وبصوتها وكان يتمنى أن تغني له فيروز بدون أي عائد مادي أو ربح من الشريط وأرسل لها رسالة وأراد الذهاب إلى بيروت للاتفاق معها أو إرسالي أنا نيابة عنه ولم يتم هذا الأمر فلم يعطها أي قصيدة ولكن كان يتمنى أن تغني له بسبب إعجابه بصوتها الملائكي.

*وادي الضباب.. أرجوا إعادة قصتها؟

–كنا في الطريق إلى " يفرس " وحضر معي بالسيارة ثم توقفنا وجلسنا بعض الوقت في الضباب.. ثم واصلت رحلتي بينما عاد هو وفي الطريق ظهرت وبدأت هذه القصيدة وعاد وهو يغني بها.

مرة ناديته..هات لي.. هات لي. فقال والقات بيده.. ماذا أعطيك فقلت له مازحة.. هات لي قلبك.. فكانت قصيدة:

هات لي قلبك وخذ قلبي معك غير قلبي قلب من بايوسعك

*مهما يلوعني الحنين..

– كما ذكرت سابقاً.. عندما سافرت مع الوالد إلى ألمانيا.. وكان الوالد رغم حبه الشديد للفضول إلا أنه رافض لزواجي منه بشدة وكان كلما سافر يأخذني معه فظهرت هذه القصيدة بعد سفري وغيابي عنه في ألمانيا.

*روح لك بعيد..؟

–هذه القصيدة موجهة على لسان شخص آخر ولإنسانة أخرى.. وليست لي بها علاقة، وكان هذا الشخص مسجوناً وبينه وبين زوجته مشاكلٌ وقد تخلت عنه في أزمته وتركته فتأثر الفضول بالقصة والموقف فعبر عن أحزان هذه الشخص المسجون والحزين.. فكان يتفاعل مع أحزان الناس ومآسيهم.. أما أن أكون المقصود أنا.. فهذا الأمر لم يحدث لأن الفضول لم ييأس من ارتباطنا ولقائنا في بيت واحد.

*هيمان حتى لو سكنت السحاب؟

– هذه من قصائده الأخيرة وكتبها بعد الزواج يعبر فيها عن استمراريته في حبي رغم زواجه بي.. لأنه كان عاشقاً ووفياً معي إلى أبعد حد.

*حبيت ما شي حلمت أو تراءيت؟

– قالها بعد طلوعه من عدن وبداية الحب بيننا.. وهي تتحدث عن قصتها وقد تبدأ القصيدة في موقف وتنتهي بعد وقت أحياناً.

*طير مالك والبكاء خلي البكاء لي؟

– هذه يعبر بها عن هواجس الشاعر وعن الطبيعة الطيور فقد كان يملك هواجسه الخاصة وخيالة المتطلع للحياة وأبعادها عن العواطف المرتبطة بي شخصياً فالشاعر بالذات

شديد العشق إذا حدث هذا الأمر أن أمنعه لأنه أما عن عشقه لامرأة أخرى فأنا لا أستطيع إذا حدث هذا الأمر أن أمنعه لأنه شاعر ومرهف وحسَّاس وقد يعشق الجمال أينما كان.

*وماذا أيضاً؟

– وكتب أنا اشتيك وقلبي يشتهيك وكذلك وداعة الله يا عقلي وغيرها.

*يا حب يا ضوء القلوب؟

– هذه للناس وللمجتمع.

*عاصي الهوى؟

في مقطع " الذئب عوى "

فلم أجد فيه إنساناً ولكنني

وجدته الذئب في مرعى ظبائي عوى

يوجد إيحاء سياسي قصده الفضول ولا تعبر عن أي خلاف كان بيننا لأن ذلك لم يحدث.

*يا من رحلت إلى بعيد؟

– هذه القصيدة من القصائد الغامضة في شعر الفضول بدلالاتها فقد نجد فيها الأستاذ النعمان أو تجده هو نفسه المهم أنني رفضت غناء هذه القصيدة وكان الفضول يسألني عن السبب لرفضي فأقول له المهم لا أريدها أن تغنى فيقول الذي يعجبك المهم رضاك.. ولا أدري ما الذي حدث لي ولماذا كرهت وخفت من هذه القصيدة التي لم يغنها أيوب إلا بعد وفاة الفضول.

" ذكر أيوب أنه لم يجد ما يعبر به عن أحزانه في فقدان الفضول فرثاه بهذه القصيدة،

* بردان بردان

–كان في صنعاء ويتحدث معي بالتلفون ويقول إنه بردان ثم فاجأني بهذه القصيدة.

*دق القاع دقه؟

– انتشرت في البداية – بداية قصة الحب وكذلك نجم الصباح وغيرها الكثير والكثير من القصائد.

*هل من أحد أدرك أن الفضول يصفك في كل قصائده؟

– نعم الأمير جابر الصباح قال له: إن محبوبتك في كل قصيدة تكتبها حتى السياسية فقال لي الفضول إنه تفاجأ بذكاء الأمير ولذلك مدحه بقصيدة لفهم هذا الأمر وإحساسه العميق بأشعاره.

*هل نضيف أسميكما إلى اشهر الشعراء العشاق فنقول " الفضول وعزيزة "؟

-لا شك في ذلك؟

الفضول شاعر منذ طفولته المبكرة وحساس وعطوف وله تجاربه الكثيرة في الحياة ولكني كنت أعرف في قرارة نفسي وأشعاره تؤكد ذلك بأنني في كل قصائده وقوله لي: هل تشعرين بأنك موجودة في كل قصيدة كما أشعر أنها لك.

كانت نظراته لي لها خصوصية لا يمكن لي أن أنساها أبداً شاركته أفراحه ولقد تفجرت مشاعره وكثرت أشعاره منذ أحب.. حتى قبل وفاته كان يخفي علي أنه مريض وقبل موته بيومين كنت اصحوا من النوم العميق فجأة لأراه ينظر إلى بتمعن فأساله مالك يا حبيبي فيقول:

لا شيء وإنما النوم لم يجئ وكان يتساءل دائماً عن حالتي بعده ويعلن خوفه الدائم علي وكان يقول: أنه يتمنى لو يراني بعد الثالثة من الأيام من موته ليرى كيف حالي. وليته رأى ماذا جرى؟

وما سبب اختياره لأيوب طارس بالذات..؟

العوامل المشتركة بينهما كثيرة ولتميز أيوب في شعر الفضول وإتقانه له حتى أن السنيدار والحارثي قالوا إن الفضول متحيز لأيوب فقال لهم: أنا سأعطيكما أشعاراً وأنتما ستعرفان السبب وحقاً أعطاهما ولكنهما فشلا في أدائها بالشكل المطلوب وكان الفضول يوجه أيوب إلى اختيار اللحن المناسب ويوجهه ويرشده بتعصب ويدق رأسه بالجدار أحياناً حتى يكتمل اللحن وكل هذا بفضل التعاون المشترك بينه وبين أيوب.

*نعود إلى قصائده السياسية بصراحة لماذا لم ينشرها حينذاك؟ أهو الخوف؟

-قلت إن قصائده الرومانسية حتى بها إيحاءات سياسية وكان مؤمناً بالوحدة اليمنية إلى درجة أنها كانت همة الدائم فكنت أقول له وحدة - وحدة دائماً تتحدث عن الوحدة ... أين هي الوحدة؟

فيجيبني لا تتعجلي الوحدة ستأتي ولكن بعد سفك الدماء وهو ما نادى به علي عبدالله صالح بالوحدة أو الموت.. ولم يكن الخوف هو الذي يمنعه من نشر قصائده بل كان يرى أن الوقت غير مناسب ولماذا يخاف الفضول غير أن الوقت لم يسعفه ولم يكن حزبياً ولا ينتمي إلى أي حزب سياسي فقد كانت سياسته في عقله وحبه لوطنه يملأ قلبه.وكان يرى الحزبية تدميراً للحب بين الناس ويرى تولي الحكم للقادر على العطاء وصناعة المعجزات والمنجزات وتحقيق الخير والعدل والوحدة.

*كيف كانت سعادته أو شقاؤه بقصائده؟

–كنتُ أسأله دائماً. لماذا تفرح بعد كتابتك للقصيدة وعندما تلقيها وتقرأها تحـزن كثيراً؟ فيقول لأن المعنى يتضح ويتجدد في لحظات القراءة أما عند ولادة القصيدة فأنا أفرح بولادتها وبعد قراءتها أشعر بكل كلمة توحي بها بل كان يذكر انه هو الذي كتـب هـذه القصيدة أو تلك. إعجاباً بها ويقول لي أنا لا اصدق أنني كتبتها.. وكان يلقـي أشـعاره ويقولها بصدق وإحساس بكل حرف فيها أما شقاؤه فلم يكن إلا بعد وفاته حيث اكتفـى الناس بشعر الفضول الغنائي ولم يعملوا على هضم أشعاره السياسية وفهمها.. والشاعر في منهج الفضول مثل النحلة ينتقل من زهرة إلى زهرة.

*من أبرز الرؤساء الذين قابلهم؟

– صدام حسين – جابر الصباح – زايد بن سلطان – الحمدي – الملك فيـصل – علي عبدالله صالح – معمر القذافي.

*ما الذي كان يبهرك في شخصية الفضول؟

– إحساسه وقدرته على استنطاق بعض الأحداث المستقبلية وقدرته على تهيئة الناس لممارسة الحب للوطن وترقب الوحدة اليمنية وقدرته على معرفة الناس واستنطاق ضمائرهم وعبقريته الشعرية وشخصيته كإنسان صادق ومحب.

*لا نعتقد أن الفضول لم يكن له خصومات سياسية وأدبية؟

– لا يوجد إنسان يمارس لعبة السياسة ولا يكون له خصومات ولكنه كما ذكـرت من قبل كان يتعامل مع هذه الخصومات بروح الشاعر وحكمة الفلاسفة فعنده الحقد ضد التفوق قاعدة مع خصومه واعتذر عن ذكر أسماء خصومه سواء في الـسياسة أم في الأدب فهل حصلتما على ما تريدان نعم كان له خصومات في السياسة والأدب والشعر يحسدونه على تفوقه ونبوغه الشعري وما من متفوق إلا وله خصوم لكن نار الخصومة لم تكن مـن عند الفضول كان يلاقيها بالحب فهو يقول:

كـم نحـن والحـب صـافحنا خـصومتها
وعـن مكارههـا كـم نحـن أفـضينا
وكـم نثرنـا عليهـا في خمائلـها رنـداً
ووردا وريـشاً مـن جناحينـا

.. إلى آخر قصيدة هدية الله!

*هل وجد الفضول في نفسه يوماً الحيرة في مدح أحد؟

– نعم وجد نفسه مرة غير قادر على مدح شخص احتفظ وأعتذر عن ذكر أسمه قائلاً: إن قلبي غير قادر على حب هذا الرجل وأنت يا محيي الدين تعرف من هو؟!

*أين الفضول من الإعلام اليمني وأين دور الإعلام في اليمن تجاه رموزه؟

– الفضول إذا لم ينصفه الحاضر المؤلم سينصفه الأوفياء والمستقبل الجميل والتاريخ الذي لا يبقى في ذاكرته غير النابغين والجديرين بالخلود فإعلامنا وتفكيرنا عندما يلغي أسم بلقيس ملكة سبأ مثلاً والتي جاء ذكرها في القرآن.. ليحط بدلاً عنه أسم لا يستحق ما حصل عليه فإنه ينظر إلى ما حوله بعين عوراء إعلامنا لا يطبل إلا للأحياء والقادرين على الدفع المادي أو المعنوي والمنفعة المتبادلة وفيه بعض الكوادر التي تسئ إلى اليمن ولا أنسى أن أشكر صحيفة الجمهورية الثقافية على أنها أعطت للفضول حقه كواجب يجب أن تحذو حذوه بقية وسائل الإعلام المرئية كالفضائية اليمنية والقناة الثانية والمسموعة كذلك.. وشكراً لكل من يعمل بإخلاص.. فهل يعرف العرب ما يقدمه الإنجليز لأدب شكسبير وشكر خاص للمشرف / سمير اليوسفي ولكم جميعاً.

بقي أن نذكر أمراً مهما ... خلاصة أن هذه المرأة لها حق على الوطن اليمني وهو من حقوق الفضول حيث لا تستلم هذه المرأة من الدولة سوى " ثلث " مبلغ وقدرة ثلاثة عشر ألف ريال.. منذ وفاة زوجها إلى أن تطور الأمر وخرجت إحدى النساء من القسمة ليصبح المبلغ الذي تحصل عليه ستة آلاف وخمسمائة ريال فقط فهل هكذا يكون رد الجميل للعباقرة ولأسرهم من النساء .

ملحق خاص
بقصائد سياسية وغنائية للشاعر (*)

غـدَّار

من القصائد التي سلمها الشاعر الكبير إلى مطربه المفضل أيوب طارش وأتفق معه على تلحينها وغنائها وإخراجها إلى الوجود :

غـدَّار لا ترجـعْ إلى معشـقي تجتـاحُني كـاللافح المُحـرق
أو كـالظلامِ الكـالحِ المغُـدق لبثـتَ في خمـري فلَـمْ تَعتُـقِ
وعمـتَ في فجـري ولم تُـشْرِق وغمـتَ في زهـري ولم تَعبُـقِ
ودمتَ في قطري فلم تُورِقِ
ما يصنـعُ الحـبُّ لعـودِ شـقي مـا صـاغَهُ طقـسٌ ولا أقلَمـا
غـدَّار حـتى لـو سـكنتَ السَّمَا لحنـتَ في أقطارهـا الأنجُمَـا
غـدَّار حـتى لـو لبـستَ الضُّحى وسرتَ في جـوف السماوات مـا
غـدَّار لـو أُنزلـتَ بـين الندا مـا كنـت لـلأوراق إلا ظمـا
يـا غابـةَ الـشوك الـتي زارَهـا قلـبي بحبِّـي الأخـضرِ المُـورق
سـوف أرى قلـبي إذا عادَهـا كمـا أرى القـدِّيسَ في المُفْـسقِ
غـدَّار بعـد اليـوم لـن تـستقي هـواكَ أحلامـي فقـد سُـمِّما
غـدَّار لـو أدهقـتَ لي دورقـي للحـتَ لي في قاعهـا أرقمـا
ولـو رأتـكَ النحـلُ في زئبقـي لا خرجَـتْ لي شـهدَها علقمـا
ولـو صـباحي لاحَ في مَـشرِقي لكنـتَ في عـينيْ صـباحي عمـى
كـم صـحتُ في روحـكَ لا تُحـرق مـا طـرَّز الحـبُّ ومـا نمنمـا
وكـان فيـكَ الأثمُ لا يتَّقـي وكان فيـكَ الـذَّنبُ قـد صُـمِّما
لم تـأت للحـب ولم تخلـقِ بـل جئـتَ للـدنيا لكـي تأثمـا

(*) مدَّنا بها أيوب بخط الشاعر ومن بعض الصحف والملهمة وأحمد العديني وبعض محبِّي الشاعر العظيم.

خبـــأتَ لي نفـــساً ظلاميـــةً سـرحتُ فيهـا عاشـقاً مغرمـا
حـسبَّتُ فيهـا الفجـر لكـنني وجـدتُ للـوحش بهـا مجثمـا
مـن أيِّ شـيء فيـك لم أقلـقِ تكوينـك المرجـوف كـالزئبق[1]
أم ورطـني في طبعـك المرهـقِ وأيُّ وجـه فيـكَ لم يُـصْفَقِ
وضـل مثـلَ الفجـرِ لم يبـصُقِ وغـيرَ مـشتومٍ ولم يُـشْتَما
لا شـيء قَـدْ أبقيـتَ لم تُحـرقِ
أو قائمـاً مـازالَ لم يُـصْعَقِ
وأيُّ شـيء فيـكَ لم ينعُـق علـى حيـاتي ناعقـاً أسـحما
أنبـتَّني كالبـاذل المفتـدي وفيـك روحُ الـصائل المعتـدي
تُهـين كـلَّ الطهـر في مـسجدي وتبـصقُ الأقـداسَ في معبـدي
فأرجع إلى الأحـراشِ يـا قُنفـدي واخرج من الـريش الـذي ترتـدي
ما عُـدْتَ طاؤوسـي ولا هدهـدي نفـضتُ كفِّـي لم تعـد سـيِّدي
أخـشى ضـلالي فيـك أن يهتـدي
رفعـتُ أنفْـي لم تَعُـدْ مُجلـدي بـسوطكَ الملعـون في مَجلـدي
غـسلت طـرفي لم تعـد أثمـدي بـل أنـت في عـيني كـالمبردي
نجـوتُ مـن لجِّـكَ المغـرقِ
وعـدت للـشطآن في زورقَ
لم أشـرب البحـرَ ولم أغـرَقَ
وزورقـي صـدري صـديقي قلـبٌ بغـير الحـبِّ لم يخفُـقِ
رزقـتُ فيـه الحـبَّ مـن مخلقـي وأنـت غـيرُ الغـدر لم تُـرزَقِ
منـك تعافيـتُ وقـد كنـتَ لي شـجني بحلقـي نـازلَ المخْنَـقِ
نزعتُهـا مـن نابـكَ الأزرقِ روحـي وقـد رشَّـته منـها دمـا
أرحـتُ نفـسي منـكَ يـا مقلقـي وكنـتَ فيهـا قيـدَها الأدهمـا
نجـا وريـدُكَ منـك يـا مـشْنقي يـدعو لغـيرك فيـك أن يَـسْلَما
أعـد وفـائي لي أعـدْ مَـوثقي فلـم يعُـدْ مـا بيننـا مبرمَـا
غـدَّار بعـد اليـومَ لـن نلتقـي لقـد صـنعتَ الـنعشَ والمأتمـا
ولـيس عنـدي خـشيةَ الْمُـشْفقِ أن انتـهى حُزْنَـاً وأن أنـدَما
فلـو طرحـتَ التـاجَ في مِفرقـي مـا كنـتَ إلا قـاتلي الأعظمَـا

(١) كما في المخطوطة .

رسالة إلى القين

أيها القين[١] لمن هذي السيوفُ ولمن أنتَ بها اليومَ تطوفُ؟
قين إن القينَ في أيديهم مثلُ أسيافك قَدْ ذلَّتْ أُلوفُ
لم يعد للعزِّ في أذرعهم نسباً يزهو به السيفُ الشريفُ
والدَّمُ الماجدُ فيهم رشَّه تحت أقدام الحقارات نزيفُ
إنَّهُمْ جافوا فكلٌّ منهمُ فيه معنى رِمَّةٍ حين تجيف
ما هو السيفُ إذا يستلُّهُ جَشِعٌ ، يفتنُ عينيه رغيفُ
إنَّه مكنسةٌ قد وسِخَتْ وبها يتَّسخُ الشيءُ النظيفُ
ولو أني شئت أن أُعرضه لحروفي هرَبَتْ منه الحروفُ
كذبٌ ، يرفضه التصديقُ أنْ ينضدَ اللؤلؤُ في صنف كشيفُ
إنَّ حقَ السيف لا يقضيه متَّ سخُ الكفِّ ، ولا لصٌّ ضعيفُ
كيف يعلو الطِّرفَ مكضوضٌ ومَنْ يدُهُ في حَوْطِه كيفَ يسيفُ
طمعُ النفسِ مذلٌّ ساحقٌ كم به هامَتْ وجوهٌ وأنوفُ
كم يُضيعُ الليثُ ليثيَّتَهُ فيُرَى في مطمعٍ وهو خروف
وتُرى عُفْرَتُهُ قد أصبحت خرقةً ، يلبسُها قطٌّ أليفُ
ويُرى ثابورُه كشكاً يبـ ـاعُ به البرثنُ والنابُ المخيفُ
أين ناسٌ كان يلقاني بهم شممٌ يُعجبُ عينَّي عنيفُ
لم أعد أشهدُ إلا أنفُساً رثةً يمشي بها عُجْبٌ سَخيفُ
يبست للضيف والسيف فلا أنفسٌ تسموا ولا جودٌ يُضيفُ
أيها القينُ اصنعِ الأسيافَ إن شئت مسحاةً ومحراثاً كبيرا
قبل أن تفضح أسيافك في أذرعٍ تمتدُّ بالسيف قصيرا
إنني في هيجة محطوبة لم تَعُدْ تؤوي أسوداً أو نمورا
زاملَتْ غربانُها ملتقطٌ ين بها الديدانَ من كانوا صقُورا
إنني في أنفسٍ هالكة مُلئَتْ ليلاً وويلاً وثبورا
رقدَ الغطريفُ فيها وغدَتْ صهوةُ المهرِ لجنبيه سَريرا

(١) القين: صانع السيوف. / الجمهورية الثقافية ٢٢/ ٤/ ١٩٩٩م .

وانتـــهت منـــها البطـــولاتُ الـــتي ... في ذُراهـــا نشـــرَ المجـــدُ الزهـــورا
صـــعلكَ الأقيـــال فيهـــا طمـــعٌ ... مُلحفٌ أمسى بـــه الـــضخمُ حقـــيرا
رُبَّ مَـــنْ كنـــتُ أراه باذخـــاً ... ويـــرى ظنِّـــي لـــه شـــأناً خطـــيرا
أكـــل الاســـفافُ مـــنْ ذروتـــه ... رأسَهَا الـــشامخَ والـــوعْرَ العـــسيرا
فَـــتَّ فيـــه الـــصخرُ لم يبـــقِ بـــه ... مـــنْ معـــاني جبـــلٍ شـــيئاً كـــثيرا
بـــل غـــدا معنـــاه غَـــوراً وارتفـــا ... عاتُـــهُ أضْـــحَتْ بـــه قعـــراً وبـــيرا

**** ****

وحمىً مِنْ عيـــارِ الليِّـــث كـــــا ... نَ احتمـــالاً في الحـــسابات مُـــثيرا
وخيـــالي كـــان مفتونـــاً بـــه ... فارســـاً يعتنـــقُ الهـــولَ جَـــسورا
أُجهِـــضَتْ قدرتُـــهُ في نفـــسه ... فاســـتحَالتْ فيـــه حُمقـــاً وغـــرورا
مـــلأت حُمَّاهُمـــا عرْنينَـــهُ بـــدلَ ... الـــصولة إذعانـــاً كـــسيرا
وهـــنَ الأصـــرارُ في أنيابِـــه ... فانتـــهى يمـــضُغُ تبنـــاً وقُـــشُورا
فـــإذا بالليـــث فيـــه قـــد غـــدا ... يمـــلأُ الـــدنيا سُـــعالاً لا زئـــيرا

**** ****

أيهـــا القـــينُ اطبـــع الـــسيفَ لمـــن ... يضحكُ الـــسيفُ في يمنـــاه حُبُـــورا
لفـــتىً تـــأتي معـــاني الـــسيف في ... وجهـــه ، صـــدقاً ومعروفـــاً ونـــورا
واسرجِ الطرفَ لمنْ يـــسرحُ بـــالطر ... فِ مـــن مجـــدٍ إلى مجـــد نـــضيرا
وصِـــحَابي ، تبِّـــرِ الـــزادَ لهـــم ... واعطهـــم إيـــاهُ مـــا شـــئتَ وفـــيرا
واعقـــرِ الخيـــلَ علـــى ســـاحاتهم ... ليوافوهـــا ضـــباعاً ونـــسورا
إنَّ صـــحبي قـــد غـــدوا أكذوبـــةً ... ومـــشوا يـــا قـــينُ للأقيـــال زورا
إنَّهـــم لـــن يطمحـــوا أن ينطحـــوا ... أوجهاً بالـــسيفِ أو يُـــدموا نحـــورا
زَهِـــدوا في الخيـــل والليـــل ورا ... يـــاتُهم مُدَّتْ على الأرضِ حـــصيرا
يهـــربُ التـــاريخُ مخزيـــاً بهـــم ، ... فهو لـــن يعطـــيَهُم حـــتى القبـــورا
فاخبـــأ الأســـيافَ عـــن أعيـــنهم ... واطـــرقِ الفـــولاذَ للطـــبخ قـــدورا
لا تكن يا قـــينُ فـــيهم مثـــلَ مَـــنْ ... يُعلـــفُ النـــسرين عـــيراً أو بعـــيرا
لا تكـــنْ يـــا قـــينُ بـــزَّازاً، بـــه ... جِنَّـــةٌ ، يكـــسوا المجـــانين حريـــرا

مكانكم معانا

يا أمنيات لملمتها من بهجة الثريـــات في ضوءها ومـــن نـــدا الـــسحابات
في غيِّهـــا وروعـــة الـــسماوات في وجههـــا تـــوحي ســـور وآيـــات

****

يـــــا قلـــــب كالثريـــــات يـــــا نفـــــس كالـــــسحابات
يـــــا روح كالـــــسموات كم للمنى اعطيـــت مـــن عطـــاءات
لا عـــد يحـــصيها ولا حـــسابات كلك عطا مذكرش قلـــت لي هـــات

****

يـــا شـــوقنا الطـــاغي ويـــا منانـــا
مكـــــانكم في بيتنـــــا معانـــــا
تـــــروون مـــــن هوانـــــا
مـــن عمرنـــا الخالـــد مـــن صـــبانا
لـــن تـــذهبوا عنـــا إلى ســـوانا
مكـــــانكم معانـــــا
تبـــــاركوا لقانـــــا
وهنئـــــوا هنانـــــا
وتـــــسمعوا غنانـــــا
وتعرفـــــوا سمانـــــا
وتـــــشربوا نـــــدانا
مكـــــانكم معانـــــا
مكـــــانكم معانـــــا

حبَّك تمادى

ضـــوَّعت في الأيـــام عمـــر فجـــر وعمر ضـــوئي في هـــلال شـــهري
كم أوحشت روحي والحنين وكـــري وجف تحـــت الـــساقيات زهـــري
حـــتى لقيتـــك واكتـــشفت نهـــري وكـــوثري في جانبيـــك يجـــري
حبَّك تمـــادى فـــوق جهـــد كـــبري إذا اختفى طِلِّـــي وجـــف عطـــري

وإن أتى الأضحى وعيد فطري أو كان لي أغنتي وأثري
ولو رصفت الدُّر فوق نحري
يا كبرياء قلبي على القلوب كنت الندا بقطره السكوب
فأنت لي ثوبي وأنت ظلي وأنت كنْزي وأنت يا حبيبي
مَنْ غير حبك كان من عيوبي؟
يا شوق أعماقي ويا جواها وبدء أشواقي ومنتهاها
ويا منى نفسي ويا هواها وكل ما فيها وما أواها

رسالة وحكاية حب !

حكاية الحب اللي حكاها جواك أنساني بها سواها
كم للمنى تبتَّل في نداها وكم تلاها الشوق كم تلاها
وما عساها الأرض أن تريني أعلى وأجلى منك في سماها
وما عساها النفس أن ترى لي في الأرض أغلى منك ما عساها
**** ****

أتيت وجداني وكنت أدري وما أتت سمعي خُطى غريبِ
إذ كنت في قلبي انتظار صبري لرزقه الآتي من الغيوبِ
**** ****

حبك سهول الخير تحت صدري على مداها الأخضر الرحيب
وزرع أشواقي وطلع بدري في وجهها المفَردس الخصيب
والشمس تجري فوقها وتجري وشي الضحى لا صفرة المغيب
وأنت فيها فتنتي وسحري وساجعي فيها وعندليبي
**** ****

في عمرك أمتد الهوى وعمري بك الهوى يبدا وينتهي بي
وأنت في قلبي ولي أمري تمشي معي في مزهر الدروب
وأنت ايماني ولست كُفري فكيف أغوي الهوى رقيبي
وإن غوى قلبي فأنت عذري وأنت عفو الله عن ذنوبي
يا غيم قطري لن تكون جمري ولن أُلاقي النار من نصيبي
**** ****

يا روحك الشوقية الوثوب تأتي لحس عاش يحتويها

يـــا نفـــسك الفجريـــة الغيـــوب أدخلـــــتني فيهـــــا لا تتَّـــــشيها
لـــو لم يكـــن ربي بهـــا مشـــيبي في يوم حشري كي أكـــون فيهـــا
لبعـــت مـــن غفرانـــه نـــصيبي لأني فرعـــــون ... لا أشـــــتريها

طاؤوس الجمال !

أهـــلاً بطـــاؤوس الجمـــال أهـــلا أهـــلاً بمـــن مـــن الجمـــال أغلـــى
بمـــن رفعـــني حبـــه وأعلـــى أهلاً بمـــن يَـــسلي ولـــيس يُـــسلى
أهلاً بمن مـــن كـــل عيـــد أجلـــى أهـــلاً بهـــذا كلّـــه (وســـهلا)
**** ****

مـــن ضـــيقة الإغـــلاق والمحـــابس وحولهـــا الحـــرَّاس والمحـــابس
تـــأتي وغـــير الـــشوق لا مـــؤانس كأن قلبك تحـــت صـــدر فـــارس
تختـــال في خطـــو الملـــوك مـــائس ميس الغصون الخـــضر في المغـــارس
وفرحتـــك حـــتى علـــى الملابـــس وفوق وجهـــك بـــسمة العـــرائس
تمشي وقلبـــك في هـــواك جـــالس آكـــل وشـــارب للـــهنا ولا بـــس
عندي وقد هزَّيـــت كـــل حـــارس إن قـــال لا (جوَّبـــت أنـــت إلاَّ)
**** ****

كم منك عطر الحـــسن قـــد أتـــاني ومن ندا روحـــك نـــدا الريـــاحين
واشوف عطر الحـــسن فيـــك ثـــاني غير الـــذي في الزهـــر والبـــساتين
وأطعـــم فيـــك طعـــم في لـــساني غير الذي يـــأتي علـــى اللـــساسين
وأسكب ندا صـــوتك علـــى قنـــاني عـــودي فيـــأتي للغنـــاء تلاحـــين
ولـــو رآك الحـــسن مـــن مكـــاني لشاف كم ذا فيـــك قـــد (تجلّـــى)
وكم لك ســـنين تنهِّـــد المـــساكين فيها وكم ســـرَّحت مـــن مجـــانين
وزاد لون الحـــسن فيـــك تحـــسين وازداد فوقـــك زخرفـــة وتلـــوين
والحسن في غيرك ثيـــاب مـــسكين خيوطهـــا في كـــل يـــوم (تبلـــى)
**** ****

يا حلـــو زائـــد مـــا يريـــد تـــزيين من سُكَّرك شازيد حـــلاوة العيـــد
ومن رنـــا طرفـــك ولفتـــة الجيـــدْ شاشـــل منَّـــك للمـــلاح والغيـــد
فالحسن منك للملاح (أحلى)

لو في حياتي عشت منك خيالي ما كان لي بها دنيا ولا دين
لكنَّني ملأت لك خيالي وبعت لك قلبي بغير تثمين
فاجلس بهذا الحسن في ظلالي لتجتلي روحي مفاتن العين
فلو يشوف الفجر ما قبالي لظنَّك القرآن فيه (تتلى)
**** ****

يا ما بقلبك من هوى وأحلام وفي حديثك من ندا وأنغام
وكم يشل الحسن منك إلهام ما لمش قلبي إن ظمي وإن هام
وإلا سهر بك ما غفا ولا نام وإلا لحسنك قد نذر بما صام
لله في مساجدي (وصلَّى)

سؤال الظبأ

ملء عيني ندا وطيفك قبالي تحت روق الضحى وجنح الليالي
وشجون الهوى ضيوفي يقيلين ويسمرين في خيالي
**** ****

وإن جئت الظلال رأت أشواق نفسي حريقها في ظلالي
وإن سألت الظبأ عنك رنت نحوي كما لو تعجبت من سؤالي
وأزور البقاع حيث التقينا ومكانك بها على العشب خالي
وما بقى عطرك يلاقيني وذكرك فيه تمشي خلالي
**** ****

لم تزل فرحتي وابتساماتي وألوان خضرتي في ربيعي
أجمعك ملء حسي كيفما كنت في يقظتي وإلا هجوعي
واسمعك ملء نَفسي كلَّما أنحنى القلب في حنايا ضلوعي
وانظرك في دموعي حينما تشرغ العين من سواجم دموعي
وانشرك فوق روحي مثلما أنشر الضوء من ذبائل شموعي
**** ****

وأهناك في هنائي إن أتى فجر عيد
وأشربك بين مائي لو ظمايا يزيد
والبسك في كسائي إن لبست الجديد
واحملك في دمائي إن مشيت في الوريد

هويَّة الحسن

هذه المروج الضاحكات الجلال عنها فؤادي لا يشد الرحال
وعن رُبى الوديان لو هاجرت نفسي لقاتلني فؤادي قتال
أنا هنا في الظل بين الهوى عند الندى تحت الغصون الطوال
سقفي سمائي وكلي تحتها مضوأ الحسن مغسول الخيال
أسمع الطير تجري بينها ملاحم الشوق في مغنى سجال
عيونها مثل عيني كلما غنيت للحب منها الدمع سال
هويتي من رعايا الحسن ما حكمي ولا دولتي إلا الجمال
وكله فيك يا من كنت لي أندى من الزهر في درب الظلال
كم كنت لما غبت عني فلا تدري يميني كم بنان الشمال
وراح يطوي الشوق ما بيننا من صخر أو من بحر أو من رمال
تجري تناديك نفسي كلما رأت خطاوي ظبأ فوق التلال
ويحملك حسي مع الفجر إن تعممت ضوءه رؤوس الجبال
واتأملك في الزهر لو شفت طل الفجر باقي فوقها لا يزال
واتخيلك غافي بحضني إذا رأيت صدر الليل حاضن هلال

وحشية حب

عناق كم ذا ضمَّنا من عناق وكم روينا للشفاه ارتحاق
وكم أتينا الزهر كي نبتني لنا من الأوراق فيها رواق
وكم تعانقنا على ظلها تحت الندا والغيم تمشي طباق
وكان يحمي حبنا كلما يخافه العشاق حتى الفراق
صبراً على البعد الذي بيننا مهما تضنِّى الصبر فينا وضاق
والصدق في الحب صديق العنا وتوأم الأحزان وجه المشاق
ولا تخف منِّي جفاف المنى فكأسها ما زال عندي دهاق
كم وحَّش البعد هوانا لنا فصار وحشياً بنا لا يطاق
وكثلكت أشواقنا حبنا فما لنا في شرعها من طلاق
مهما كتمنا الحب ضاقت به مواطن الكتمان والانغلاق
حتى دم الأعراق فينا سيفشينا ويفشي حبنا لو يراق

الحـــب أســـكناه في زهرنـــا فأحرق الزهر جوى واحتـــراق
والحب أســـكرناه مـــن خمرنـــا فما صحى من سكره أو أفـــاق
والـــشوق بردنـــاه في فجرنـــا فلم يزدنـــا فيـــه إلا احتـــراق
الحـــب ضـــوء الله في عمرنـــا يأتي مع الفجـــر إلينـــا يُـــساق
فلو خشينا الناس مـــن جهرنـــا به لكنـــا مالنـــا مـــن خـــلاق
ولو لبـــسنا الأثم مـــن غـــدرنا بالحب واجهنا السماء بالـــشقاق
وجاء أثم الكفـــر مـــن كفرنـــا في هـــذه الـــدنيا وأثم النفـــاق
حياتنـــا الحـــب إلى قبرنـــا وبعثنـــا فيـــه أكيـــد الوثـــاق
إن كانت الجنات مـــن أجلنـــا سرنا مع الحـــب إليهـــا ســـباق
وإن دخلنـــا النـــار في حـــشرنا كُنا وهذا الحـــب فيهـــا رفـــاق

معركة حب

مـــا في فؤادينـــا عتـــاب أبـــداً فقـــد مـــات العتـــاب
والحب قد سوى الحـــساب والحـــب علمنـــا كتـــاب ....
..... فيـــــــه التـــــــسامح لا العقـــــــاب
الحـــب ربَّانـــا فمـــا أبقـــى بـــداخلنا ذئـــاب
فتراشـــقت نفـــسك ونفـــسي بـــالأزاهر لا الحـــراب
وتقاتلـــت فينـــا المـــنى بالـــشوق لا غـــصص العـــذاب
فـــإذا دخلنـــا فيـــه معركـــة فـــساحتنا الـــسحاب
والغـــيم فيهـــا خيلنـــا وســـيوفنا ضـــوء الـــشهاب
ودمائنـــا فيهـــا النـــدا وغبارنـــا فيهـــا الـــضباب
قد كنـــت تنـــوي هجـــر أعـــشاشي وتنـــوي الاغتـــراب
فطويـــت أجـــنحتي عليـــك فـــلا تـــرى طـــرق الـــذهاب
مـــاذا يـــريني نـــاظري لـــو أن وجهـــك عـــني غـــاب
ســـتكون قـــد أطفـــأتني ومـــلأت فردوســـي خـــراب
وحفرت قـــبري حيـــث زهـــرك كنـــت ألبـــسها ثيـــاب

******

هـــا نحـــن عـــدنا للـــصباح وخلفنـــا وجـــه الغـــروب
ومواكـــب الأشـــواق تمـــلأ مـــن حوالينـــا الـــدروب

تمشي وتمسح ما حملنا في القطيعة من ذنوب
كم جاء في الدنيا فراعنة نؤلفها قلوب
والحب فرعوني بها وبألف موسى لن نتوب

حبيب

حبيب كم أخبرني الهوى والحب لكن أنت أحلى خبر
حبيب كم أقدار جاءت على عمري ولاقيتك حنان القدر
حبيب كم أقمار قد واجهت روحي ، ولكن أنت ضوء القمر
وكم على أنهار قد حوّمتْ لن تلقى إلا فيك روح النهر
وكم على أزهار حطّت أمانيها ولاقت فيك طيب الزهر

أخبار ، لكن أنت أحلى خبر
واقدار لكن أنت أحنى قدر
واقمار لكن أنت ضوء القمر
وانهار لكن فيك روح النهر
وازهار لكنّك عبير الزهر

****

أخذتني من كل ما كان لي في دنياي ودنيا البشر
معي معي كلّك أشلك كما أشل من عينيك نور البصر
معي إذا فصلي زهور معي إذا يمتد طول السَّهر
معي وإن وافى مسير السحر معي وإنْ غمَّتْ حمام البكر
معي وإن يأتي الندا في الشجر معي وفي شمسي إلى المستقر
كلك معي فيما سرى أو جرى حولي ووحدك في خيالي فكَرْ
وقبل أن ألقاك في العمر ما كانت مرائي الحسن إلا صُور
وفيك قد جاءت وضآءت معانيها كما تأتي معاني السُّوَر
تعبت من أحمال حبك .... فليت الحب في الإمكان أن يختصر

**** ****

قلبي نذرتك لحبي حيثما .. رمى بنا الحب يا قلبي رمى
وقد عشقنا وحبينا فما تزلزلت أرض وطاحت سما
وقد روينا هوانا إنما من خاصموا الحب قد ماتوا ظمى

**** ****

حبيب قلبي لك وحبك معي يمشي بأيامي إلى ملتقاك
وما بقي يأتي إلى مسمعي من ساحل الأنغام إلا مناك
وإن ذكرتك قام في أضلعي قلبي وفتَّحها عسى أن يراك
**** ****

حبيب هذه شجوني بها حنيني أتاك
حبيب حتى عيوني لو شفت منك جفاك
أخرجتها من جفوني كي لا تريني سواك
****

خرائط الأيام قلبتها حتى أرتني أن أرضي سماك
وقفت أحلامي وقدرتها فما كساني الحس إلا هواك
وخضرة الوديان قد طفتها فلفني بها ظلُّك أو نداك
وكلها الأزهار قطفتها فلم أجد في الزهر إلا شذاك
وكل أيامي التي عشتها ما عاش بي إلا انتظاري لقاك
فإن غفَتْ عيني وأغمضتها ولستَ فيها طار نومي وراك
ولو رأى طرفي عيون المها أو الظبأ لاقيت فيها رناك
حتى المرايا لو تأملتها لكي أرى نفسي لقيتك هناك[1]
**** ****

اجلس معي !

اجلس معي وانا قريب ظلك وكبرياء الحسن فيك حصنك
لا طفت بك ولا استلمت ركنك ولا أتى حضني ولف حضنك
إلا بحبي لك وبعد اذنك لكي ترى كم لك حملت أشجان
**** ****

كم راعني فيك امتداد وصلك وشاقني منَّك رخيم لحنك
حتى الوتر لما رآك رنَّك وساق أحلامي يرددنَّك
وطاف بالأشواق يسمعنَّك ولملم الأحداق يسكرنك
ويشربين ضوءك ويسألنك هل جآء حسنك في جمال قرأن

(١) الجمهورية الثقافية العدد (١٠٩٠١) تأريخ : ٢٤/٦/٩٩م .

ما أنت ما يكفيش أقول فتّان
كم أنت ما يكفيش أقول سبحان
****

كم طفت في وادي الجمال وديان ترادفت أغصان جنب أغصان
وكلهن أغصان لو رأنك في شكلة جاءين يطلبنّك
قليل من حسنك لو أعجبنك لعلهن فيّ الحسن يشبهنّك
ويلبسين حسنك ويكتسنّك لكنهن لن يلبسين فنّك

وما بروحك من ندا وريحان
ما أنت ما يكفيش أقول فتّان
كم أنت ما يكفيش أقول سبحان
****

حسنك حرير ، الحسن فيك قد لف أهيف ، رقيق الحاشيات مُرهف
مثل الندا فوق الزهور نطّف وماء حسنك بالعيون يُعرف
يُغرف ، ولكن ما نقص ولا جف ولا سُكب في كأس أي ظمأن
ما أنت ما يكفيش أقول فتان
كم أنت ما يكفيش أقول سبحان

أنساك؟!

أنساك والفجر المنير مرآك كأنما في جانبيه ربّاك
نسّيت نسياني فكيف أنساك وإن أتى النسيان أين يلقاك
والحب مدّك في دمي وأجراك تيار في مفاصلي وأسلاك
ومنه لما فيضك وملاك وفيه قل لي أيّ حين أرواك
**** ****

شامشي بلا أعياد في سنيني وامحي شعاع الضوء من عيوني
وأفرح بكل الليل في جفوني لو أن قلبي سيبك وخلاّك
أنت المنى قد أثقلت ديوني وكنت أغنى الدائنين لولاك
وكم قد أعطيت لك رهوني والحب أم قبض الرهون أغناك
وأنت وحدك جئت في غصوني تمد لي وردك بغير أشواك
**** ****

فُتَّاك مَنْ جاءوا ليعذلوني ولو أتوني في ثياب نُسَّاك
ما ناش مبادل بك يملّكوني لو يقدروا حتى سما وأفلاك
ولو بها قاموا وألهوني وحمّلوا عرشي رقاب أملاك

أخذتني من أسر من سبوني
قبلك وشاقوني ودلّهوني
وقد أطالوا عندهم سجوني
كأنما كانوا يلقنوني صدق الهوى فيها وكيف أهواك[1]

تتشمَّسك روحي

فيك الهوى تحملك وشلك وسار بك يمشي إلى محلك
عندي وعندي كان منتظر لك قلبي لو أبطأت لا ترحلك
يا عبقري الحسن ما أجلك ما زلت في عرش الهوى مملك
ومطلع الأقمار مستهلك ما هونك حسنك ولا أذلك
ولا تساهل في هواك سهلك فكيف أغنى عنك أو أملك
وأين يلقى لي هواي مثلك بعدك وقد جرَّب سواك قبلك
أجزلت بذلك ما عرفت بخلك وأعطيتني واديك فيه أملك
ما فيه من مغارسك وظلك ومن رشاش الغيم ما يظلك
ومن حمامك في علاو نخلك ومن حلا حلوك وشهد نحلك
وأرتحت واستوطنت فيك كللك تتشمسك روحي وتستظلك

إله أشواقي !

حاولت جهدك يا فؤادي فما قدرت تطلقني وقيدي حرير
وأنت مثلي في قيود الهوى فكيف تطلقني وأنت الأسير
فخلي في أرض حبي التي ألفتها من يوم عادك صغير
ألوي حبالي في جبالي إذا دخلت في الحب العنيف الكبير

(١) صحيفة نبأ الحقيقة – العدد (١١) – ٩٩/٨/١م .

وما أرى الأيـــام مهمـــا قـــوت
تقوى علـــى حـــبي ومـــا أبرمـــا

****

يـــا مـــن إليّ الحـــب قـــد أوفـــدك لأرتوى السلـــسال مـــن مـــوردك
قيـــدتني والحـــب قـــد قيـــدك عندي وفي روحي الهـــوى أوجـــدك
فكنـــت بعـــد الله مـــن وحـــدك هـــواي، وأســـتوحاك واســـتلهمك

**** ****

إلـــه أشـــواقي مـــتى موعـــدك بـــلا عـــسى يـــأتي ولا ربمـــا
مـــا للأمـــاني لم تنـــل مـــن يـــدك في الكـــأس إلا مـــا يزيـــد الظمـــأ
كم قد ســـرى نـــومي إلى مرقـــدك فمـــا غفـــى طـــرفي ولا هوَّمـــا
وكم هـــوت روحـــي إلى معبـــدك وفي محاريبـــك هواهـــا أرتمـــى
وفـــوق أعتابـــك مـــضى يحمـــدك وطاف بالأشـــواق حـــول الحمـــى
كم قدســـك حـــبي وكـــم مجـــدك قلبي ، وكـــان الحـــق أن يكرمـــا
ولـــو عبـــدت الله كمـــا يعبـــدك لكان أعطاني الـــضحى والـــسماء

رهان الشجون !

شاتي معك قد كنت أطلـــب أمـــان زمان أمـــا اليـــوم فأنـــت الأمـــان
عندك مكاني لانت قـــالي ولا قلـــبي رأى لي غـــير قلبـــك مكـــان
كم راهنَتْ عقلـــي شـــجوني علـــى حبك فأكسبت الـــشجون الرهـــان
وأرتحـــت في روحـــك كلـــو أنـــني غسلت روحي تحت غـــيم الجمـــان
أو أنـــني زفيـــت حـــبي إلى بـــيتي الـــذي زخرفتـــها مـــن زمـــان
بـــردتُ فيهـــا مـــن حنـــيني ولا قيتـــك بظمـــآتي وكأســـك مـــلان

روحي بغير أيوب!

وشفت وجـه الفجـر في سمـائي وقـامتي شـبت ولا .....(*)
مـا كـان لي مـائي ولا غـذائي ولا نـسيماتي ولا هـوائي
إلا الهـوى المـشبوب في دمـائي والـشوق بـيتي والمـنى كـسائي
والحـسن أهلـي والظبـأ سـربي ولا بـدا صـبحي ولا مـسائي
إلاّ علـى صـبابتي وحـسّي
كم من هوى نفسي ومـن مُناهـا أرشفت غـيري وارتـشفت أكـواب
كم زار نفسي حـب كـم أتاهـا والشوق فيها مـا اختفـى ولا غـاب
مالي وروحـي مـن أتـى أواهـا كأنمـا روحـي بغـير أبـواب
أو أن فيهـا الـشوق قـد بناهـا لكـل أشـواق القلـوب محـراب
أو لم يجـد مـن صـاغها سـواها تؤوي هـواه أو تستـضيف أحبـاب
يا تـوبتي كـم كـان قـد نـوى عن الهـوى قلـبي وكـان كـذاب
وعاش أيـامي علـى مـداها
وهـام في دنيـا هواهـا
يا مـا غمـائم كفكفـت نـداها إلا غمـامي مـا يـزال سـكاب
وكم قلوب قـد سـيبت هواهـا إلا فـؤادي مـا قنـع ولا تـاب

شبّان القبيلة

أيـن شـبان القبيلـه والـصبايح الجميلـه
والهـوى قبـل المـشيبه كـل مـن يغـنم حبيبـه
والحبيـب مالـه جفـاني أظنـه بعـدما اسـتكفى نـساني
ونـسى دمعـي وحـبي في روابي دم قلـبي
والهوى والمحبة قد ربط قلبي بقلبه
يـوم كـان القلـب واحـد الهـوى والحـب شـاهد
يـوم غنينـا غنانـا والقـرى غنـت معانـا
كـم هامـسنا سـويه في ليالينـا الهنيـه
وجنينـا مـا اشـتهينا وبـدأنا وانتـهينا(١)

(*) كما هي في المخطوطة .
(١) غناها الثلاثي الكوكباني ومحمد مر شد ناجي لحنها وهي من بدايات الكتابة الغنائية للشاعر .

خطر قبالي والمليح يُعرف !

خطـــر قبـــالي والملـــيح يعـــرف وتطعمـــه نفـــسي ولـــو مـــشرشف
قلـــبي إلى حيـــث المـــلاح يلتـــف من قبل مـــا حـــسن المـــلاح يوصـــف
والعطـــر يعـــرف لي ولـــو مغلـــف
يا من هـــوى غـــير الحـــلا ولفلـــف مـــا نـــاش مخاطبـــك ولا مكلـــف
أقطف مليح مثـــل النـــسيم رفـــرف أقطف طـــري وســـيب الـــذي جـــف
ريحـــان راوي بالنـــدا مقطـــف ومـــاء حـــسنه بـــالعيون يغـــرف
**** ****

وأشرب قبل مرشف يـــضم مرشـــف والـــضم مـــا يـــرويش لـــو تخفـــف
وأجلس طرف والزم أواخـــر الـــصف فمـــن دخـــل بـــين الـــصفوف ودف
محـــبتي لمـــن أحـــب وألـــف ما تمتحيش مثـــل الخطـــوط بـــالكف
كلي شغف والحـــس حـــس مرهـــف روحي نـــدا فـــوق الزهـــور نطـــف
**** ****

مـــن يـــوم قلـــبي للـــهوى تـــألف من يوم عرف طعم الحـــلا وغطـــرف
من يـــوم عربـــد وانتـــشى وكيـــف من يوم طوى الهوى سجادته وعطـــف
وأحباب قلـــبي صـــف يتبعـــه صـــف والحـــب يجـــري بي ولا توقـــف[1]
**** ****

يشتيك قلـــبي أنـــت وأنـــا اشـــتهيك وأهواك كيف ما كنت لي وارتـــضيك
مهمـــا يقـــل في العـــواذل وفيـــك شعطيك عمري جبا وأهديك ورد الربا
واقول لسرب الظبأ غيبي فخلّي معي
****

مـــا قيمـــة أيـــامي بـــدونك حبيـــب شنسى بعيد الناس وأنـــسى القريـــب
وأنسى فؤادي لـــو فـــؤادي نـــسيك وكيف ينسى الهوى مَنْ مِنْ هواك ارتوى
ما زال عهد الجوى ريان من أدمعـــي
فوق الهـــضاب المزهـــرات الخـــصاب وفي نـــداها تحـــت ظـــل الـــسحاب
أظمـــأت أحلامـــي لكـــي أرتـــوي أحلام مثل الشفق قلبي بها كـــم خفـــق
وضمها وأعتنق معي على مـــضجعي

(١) غنّاها عبد الباسط عبسي .

كم كنت أحلم بك تكـن لي خليـل كـثير علـي أنـت وأنـا قليـل
عليـك يـا أصـفى وأوفى شـريك يا ليت كان القلوب تدري خبايا الغيوب
ما عاش قلبي يذوب هيمان في أضـلعي وكيف ينسى الهوى مَنْ مِنْ هواك ارتوى
ما زال عهد الجوى ريان من أدمعـي
أعطيـتني بالحـب عمـري الجديـد مـاذا مـن الـدنيا فـؤادي يريـد
ما دام في دنيـا الهـوى قـد لقيتـك وأنت أغلى منى قلـبي وأحلـى غنـاء
حبي ولحن الهنـاء رنـان في مـسمعي يمـوت مـن قـد غـار مـن حبنـا
إذا الهـوى الغـالي الـذي بيننـا وأنـا بعمـري واحبيـب افتـديك
شعطيك عمري جبا وأهديك ورد الربا وقل لسرب الظبأ غيبي فخلّي معـي[1]

وداعة الله يا عقلي

وداعـة الله يـا عقلـي ويـا قلـبي هـيم
مقـدرش أفلـت هـوى نفـسي وحـبي المقـيم
شـاعيش مـع العمـر أجـري لي ورا كـل ريم
والعمـر مـشوار إمـا نـار و إلا نعـيم
****
مـن القمـارى شـاسمع التغاريـد
واسـجع معـاهن وارفـع الزغاريـد
كـأن روحـي مقبلـة علـى عيـد
****
شـاعيش بـالعرض وأحيـا لي مـلان الحيـاة
مـا نـاش مـشعّب أمـوت يانـاس قبـل الممـات
ورزق قلـبي علـى الله مـن حـلا الفاتنـات
****
يـا قلـب طـوف الزهـر مثـل نحلـه
يـا قلـب يكفـي كـل يـوم قبلـه
عـشرين مـرة قبـل كـل أكلـه
****

(١) غنّاها أيوب طارش .

مـــا نـــاش مغطـــى ولا طـــافي ولا لي ســـياج
كلـــي مـــضوأ ومـــن يـــشتي أخـــذ لـــه ســـراج
مـــن ضـــوء روحـــي يـــسامرني وراء الزجـــاج
مـــا بعـــش حـــبي ولا قلـــبي ولا لي خـــراج[1]

وادي قدَسْ !

وادي قـــدس فيـــك النـــسيم نـــسنس
يمـــسح بعطـــرك وجهـــك المـــشمس
وأنـــت في حـــضن الـــضحى مجلّـــس
تجلـــي لنـــا فردوســـك المهنـــدس
والحـــس فيـــك غلـــس ولا دري ولا حـــس
نشرب نـــدا ونلـــبس تحـــت الظـــلال نـــرجس

****

خليتنـــا في فتنتـــك أســـارى
نمـــشي بهـــا كأننـــا ســـكارى
يـــا حاضـــن الأقمـــار والقمـــارى
والحـــب والأحـــلام والعـــذارى
مشى بنـــا وغلّـــس تحـــت الظـــلال نـــرجس[2]

أيها الفجر أضىء روحي !

أيهـــا الفجـــر أضـــىء روحـــي وعطّـــر صـــلواتي
وأســـكب الرضـــوان في قلـــبي ولألـــىء بـــسماتي
واحتـــضن حـــبي وأحلامـــي وبـــارك أمنيـــاتي
وأغـــسل الأحـــزان عـــن وجهـــي وجفـــف دمعـــاتي

****

كلمـــا غنيـــت للحـــب أضـــاءت كلمـــاتي
ومـــضت تـــسمع في الـــدنيا صـــداها أغنيـــاتي

(١) غناها أيوب طارش
(٢) الجمهورية الثقافية / ٩٨م.

ومـــــشت تطلـــــب في النـــــاس مناخـــــاً للنبـــــات
لنبـــــات الـــــصدق فـــــيهم والنوايـــــا الخـــــيرات
فتـــــرى في بعـــــضهم يجثـــــوا ظـــــلام الأمـــــسيات
فـــــيهم الـــــسوء قـــــد أســـــتفحل وحـــــشي الـــــسمات
إنهـــــم لا شـــــيء في الأشـــــياء غـــــير الـــــسيئات
إنهـــــم قـــــيحُ جـــــراح وبثـــــور نتنـــــات
إنهـــــم لا شـــــيء في روحـــــك يـــــا
وطـــــني المجـــــروح غـــــير الطعنـــــات
وتـــــرى في آخـــــرين الفجـــــر رطـــــب النـــــسمات
فـــــيهم الأنـــــداء والغـــــيم وروح الزهـــــرات
وبهـــــم مـــــا شـــــئت مـــــن نبـــــل النفـــــوس المـــــؤثرات
إنهـــــم في وطـــــني أثمـــــن أشـــــياء الحيـــــاة

****

إن من يحترف الآثـــام لا يفتـــدي أرضـــاً ولا يحـــرس عرضـــا
ليت معنى الخير جبـــاراً وأن لـــه في الخلـــق ابرامـــاً ونقـــضا
كنت في غاراتهم صرت مغيراً علـــى الآثـــام إبطـــالاً ودحـــضا
ليت أني جئت في الدنيا لأحيا عليها في قلـــوب النـــاس نبـــضا
كان في الإمكان أن أزرع في كل صدر قاحـــل للحـــب أرضـــا
وتمردت لأعطي كـــل أفئـــدة النـــاس لكـــره النـــاس رفـــضا
وتساميت وما كنت بغير الـــصفا والحـــب والغفـــران أرضـــا

****

يا قلوب الليـــل والكـــره المهـــول نبـــضها يـــشبه دقـــات الطبـــول
كـــل روح الـــشرفي أعماقهـــا أبـــداً ، راكـــضةً ركـــضَ الخيـــول
أبـــداً للـــسوء مستـــشرفةً تـــسحق الخـــيرَ كـــأجلاف المغـــول
كم نفوس تحـــضن الأشـــواكَ مـــن كرههـــا للزهـــر والنبـــت الجميـــل
كلمـــا اخـــضرت حقـــول ونمـــا زرعها باضـــت جـــراداً في الحقـــول
كم بدت بالصدق فيهـــا وانتـــهى كـــذباً منـــها وغـــدراً بـــالعقول

**** ****

أي أرض هـــــاذه فيهـــــا أخٌ يـــــردي أخـــــاه
طبعُهـــــا الجـــــارحُ قـــــد أعطـــــى لقابيـــــل مُـــــدَاه

فأراهـــا يـــذبح الأخـــوة لم تتعـــب يـــداه
ومـــشاها دمويـــات علـــى الأرض خطـــاه
عـــاش في ســـاحاتها وحـــشاً ووحـــشياً هـــواه
كـــم بـــدا فيهـــا نظـــيراً سمتـــه وانتـــهى فيهـــا حقـــيراً محتـــواه
لم يمـــت داخلـــه الـــشيطان مَـــنْ كـــان في داخلـــهِ ألقـــى عـــصاه

**** ****

يـــا فـــؤادي كـــم ظمئنـــا للنـــدا وتطلّعنـــا لـــضوء في النفـــوس
لم تجـــد ظمأتنـــا فيهـــا ســـوى ظمأ الأحقاد مـــن عهـــد البـــسوس
والتعاســـات بهـــا مـــشبوبة أبـــداً نـــشبهها نـــار المجـــوس
شـــاع طبـــع الفـــأس في أخلاقهـــا فمضت تُجـــري حـــواراً بـــالفؤوس

**** ****

يا نفوساً مثـــل غربـــان تلملمـــوا يقلقـــوا ضـــحانا بـــالنعيق
أنفَتْ أن ترضع الكره غذاءً من الغـــسلين يجـــري في العـــروق
تغمض الأعينَ والجمر بها دون أن يـــشملها لـــدغ الحـــر يـــق
تـــؤثر الـــسمَّ علـــى رشـــف الرحيـــق
وتبـــث الـــشوك في كـــل طريـــق
مالهـــا غـــير دجاهـــا مـــن صـــديق
كـــم توقعتـــك أن تطّرحـــي
للـــرداءات ولكـــن لم تطيـــق

****

كـــم ســـنبقى في ثنايـــا عمرنـــا لا يلاقـــي الخـــير فينـــا مأمنـــا
ليس يـــدري علمنـــا كـــم بيننـــا سَـــبْعٌ أغفـــى وصِـــلٌ كمنـــا
أيهـــا النـــاس أضـــيئوا مـــرةً وهبـــوا للحـــب فـــيكم وطنـــا
أو خـــذوا أنفـــسكم مقـــبرةً والبـــسوا الاظـــلام فيهـــا كفنـــا
فلقـــد عـــشتم بهـــا مقفـــرةً وانطفـــأتم في دجاهـــا زمنـــا
وســـتبقى فـــرحتي مـــسفرة وســـيبقى لي صـــفائي ديـــدنا
بهجـــتي لـــن تمحقوهـــا حـــسرةً مهجـــتي لـــن تحرقوهـــا حزنـــا[1]

(١) (الجمهورية الثقافية ع - ١٠٨٥٩- ٩٩/٥/١٣م) .

الرُّبَّان

تحت الدُّجى
والبراق والأنواء والسحب الرَّواعد
يا روعة الربان
أعطته السماء جلال زاهد
يغشى متون اليمِّ
والإعصار فيه عليه حاقد
شرسٌ يلوك شراعه
والموج أعلى منه صاعد
وهو الوقور وروحه
روحٌ أتته من الشدائد
أعطت له حذقَ الحصيف
فلا يلين ولا يُعاند
وحبته إدراك المجرِّب
لا يهون ولا يجالد

* * *

في صدره ملك
وفي أعصابه جبروت مارد
تأتي له الأهوال قاصرةً
ويأتي الهول راشد
بيديه لمسة ساحرٍ وبقلبه خشعات عابد
محرابه في الغيم
يصحبه.. وفيه يظل ساجد
وضميره في السُّوء منكمشٌ
وفي الخيرات ناهد..

ونجيُّهُ الفجر الندي الضوء
في عينيه خالد
وأنا هنا..
* * *
في الشاطئ الملهوف تجزعني المشاهد
عيناي تنتظرانه
بطلاً بزهو النصر عائد
أعطيه من غاري أكاليلاً
وأُلبسه قلائد..
ويدي على قلبي..
ولُبِّي خلفه في الموج شارد
* * *
يا من يسير بفلكه
مستهدياً ضوء الفراقد
جزعي وإشفاقي على
من وحده فوق المراصد
متلفتاً ما حوله
لا ناس ثمة غير واحد
* * *
هو وحده اليقظان
في فلك على الأمواج مائد
عيناه جاحظتان..
مما يستبين وما يشاهد
مشدودتان إلى الهموم
حزينتان لما يكابد
* * *
والآخرون جواره
غافون في ترف المراقد

وثرت مضاجعهم
وأرخى منهم الدِّفء السواعد
يتطلعون إلى معاركه
بإحساس المحايد..
يتضاءلون وينقصون
لدى المواقف.. وهو زائد
ويراهم فيشد في
جنبيه للعزم المعاقد
ويخوض منهم في شتاء
قارس اللفحات بارد
ويلفهم في قلبه
جرحاً تغطيه الضمائد
إلا القليل..
تعلموا من جهده خلق الأماجد

* * *

قلبي على الربان
مكدوداً.. وقد عز المساعد
بيديه يحتضن القلوع
كأن فيه لهن والد..
جزعي على مستبسلٍ
تقع الشوامخ وهو صامد
جزعي على بذل الشجاع
به وإيثار المجاهد
جزعي على ما فيه
من بطلٍ وإنسان ورائد
جزعي على ما فيه
من نصرٍ ومُنتصرٍ وقائد

* * *

كم يفزع المحراب
لو أخلوه من طهر المساجد
وسطا على قنديله المشبوب
سُرَّاق المعابد...
* * *

كم ذا يسوء الخير
إن لاثت به قطط الموائد
والصدق يهزم صدقه
إن ظل إثم الزور سائد
* * *

كم يخمل الضرغام
أن تخلو من الأسد المآسد
فينام منتقصاً
وفي عينه كل الغاب راقد
* * *

كم يخذل المقدامُ
أن تغفو الفوارس وهو ساهد
ويروح يلوي مهره
ويرى لنصل السيف غامد
والنار تصبح جمرها
ثلجاً إذا تشتو المراقد
إن لم تصب فيه الروافد..

الـواعـظ

أيها الواعظُ هذا الصبح لاحا
يملأ الرؤية ضوءاً واتضاحا
فالبس الضوء وخذ منه وشاحا
واصعد المنبر لا تأخذ عصاك

ولكن خذ بيمناك سلاحا
يملك القدرة أن يحميك من
سوء من ليس يرى الوعظ مباحا
وبه تأمنُ أن يعلو ليملأ منك الصوت
أجناباً وساحا
فيها من عطلوا أسماعهم
وأطالوا النوم للصحو اطّراحا
وبها من عجزت أنفسهم
من وباء الإثم أن تمشي صحاحا
أيها الواعظ، قل للابسين سواد الليل
إن الديك صاحا
أيها الواعظ قل للجالسين على الجرح
بأن الجرح قاحا

* * *

حزنٌ.. أن تنفقوا الجد مزاحا
حزنٌ.. أن تنطقوا الحرف افتضاحا
حزنٌ.. أن تخنقوا للصدق صوتاً
كما لو كان من كلب نُباحا
حزنٌ.. أن تطلقوا السُّوءَ وأن
تخجلوا أن تكبحوا منه جماحا
حزنٌ.. أن تسبقوا كل الكوارث
للإنسان جرفاً واكتساحا
حزنٌ.. أن تثقوا أن الظلام سيحميكم
ولن تلقوا صباحا...

* * *

أيها الواعظُ خذ صوتاً مديدا
قل لمن صاغوا من الناس عبيدا
سيظل الحق ممتد الخلود ولن يسقطه الإثم شهيدا
والفساد الآثم العابث بالناس لن تبقى له الناس سجودا
إنهم ليسوا بأهل الكهف حتى ينفقوا الأعمار في الكهف رقودا

وجراح الناس لن تيبس صمتاً وليس الإثم دهراً لن يبيدا
وجلال الله لن يصبح مرتزقاً يحرس طغياناً عتيدا
وسماء الله لن تمنح تفويضها في الخلق مجنوناً عنيدا
أتعب الناس جنوناً جامحاً
لم يجد منهم حبالاً أو قيودا

* * *

إن يكن في السوط إثمٌ عَجزَ السوط أن يوقع في الإثم الحدودا
وتغاضى السوط عن جلد البشاعة لا يعطي له صيتاً حميدا
بل ترى كل المذمات وقد سرحت فيه عفونات ودودا
وهو إما ضالعٌ في الإثم أو عاجزٌ أفظع عجزٍ أنْ يريدا
وهو سوطٌ سيئ
لا يجلدُ السوء.. بل يجلد بالسوء الجلودا
كم يئن الخير من عشاق أنفسهم
جهلاً ببلواه سعيدا
إن عشق النفس لا يبدر إلا سلوكا
يرهق الناس بليدا
وثبوت العقم يدعو النرجسية
في كل عقيم أن تزيدا
ليجيئ الناسُ أحزاناً وعجزاً صارم الإصرار
إلا أن يسودا
أن يراه الناس عرياً ساتراً
ويراه العقل معتوهاً مجيدا

* * *

وصمةٌ تضطهد الإنسان أن..
يلبس الخزي بها ضوءً وعيدا
وعلى الإنسان أن يعطي التكاليف
أخلاقاً.. ورزقاً.. ووجودا
أن يعول العار والقبح وأن
يقطع العمر من التقوى طريدا
أن يرى مغتبطاً أن كرامته

تسقط صمتاً وبرودا
وعلى الناس جميعاً أن تصوغ
لمن أدخلها النار نشيدا
وعلى الناس جميعاً أن تقوم على
مجد الحثالات شهودا
أن ترى جالدها لا يخلع الجلد بل يلبسها جلداً جديدا
وأحق الناس بالآثام ناسٌ
مشوا في موكب السوط حشودا

الوطنُ الحزين

قلبي يُزلزِله حنينه ويكادُ يبكيني أنينه
حُزناً على وطنٍ به قد عشتُ تحضنني جُفونه
وحييتُ تفرحني أمانيه وتترحني شجونه
عطرُ الرحاب كأنما فيها يمجُّ المسك طينه
مهما تبدَّا وجهه رثّاً تجلّلهُ غصونه
هو موطني لي غثّهُ عبر الحياة ولي سمينه
حدبت عليَّ سهوله وحنت على قلبي حزونه
من غيبتي ومن اغترابي عنه أرأفُ بي سجونه
عزُّ الحياة به على الـ أيام قد رسخت حصونه
ما جاء يطفئَ ضوءها فسلَ النجار ولا مهينه
واليوم أشهدها كروح القبر يغشاها سكونه
تمشي بلا فرحٍ ولا مرحٍ تحركها الحونه
مهمومةً كمزاج مديونٍ تجهمه ديونه
خشبيةً.. ناقوسها الخشبيُّ لا يعلو رنينه

وكـــأنني مـــع أعجمـــيٍّ لـــست أدري مـــا رطينـــه
حـــتى النـــدا ملـــحٌ، وحـــتى الفجـــر لا تبـــدو فتونـــه
والأغنيـــاتُ مناحـــةٌ والنـــاي مبحـــوحٌ أنينـــه
كم رُحتُ أرسُـــف وســـطها كالـــسجنِ يلعنـــه ســـجينه
مُلئـــت بـــأرواحٍ بهـــا الشيطان قـــد شـــرعت قرونـــه
وحـــشيةَ الجنبـــات فيهـــا الـــسُّوء جـــن بـــه جنونـــه
لم يُبـــقِ في أخلاقهـــا صـــدق الـــوداد ولا متينـــه
أو يلقـــني مـــن ناســـها مـــن في خلاقـــي أســـتبينه
أو أصـــطفيه ســـوى أخٍ بـــالخير قـــد عبقـــت ســـنينه
وكأنـــه وادٍ بغـــيم الفجـــر قـــد كَـــسيت متونـــه
في روحـــه ســـرحت أصـــالته بنبـــلٍ لا يخونـــه
متحـــصِّنٌ في نفـــسه كالليـــث لا يُـــؤتى عرينـــه
مـــا أخطـــأ التقـــدير في شـــيءٍ ولا أثمـــت ظنونـــه
لم يـــأت بعـــدُ بأرضـــه من أهلـــها مـــن قـــد يكونـــه
هو وحده فيهـــا الـــصحيح يـــرى الـــصحيح ويـــستبينه
يرعـــى الإخـــاء كأنـــه ضـــوءٌ بـــه ملئـــت عيونـــه
مـــا جـــاء عـــبر مـــسيره في العمـــر آثامـــاً تـــشينه
عـــصماهُ مـــن كبواتـــه فيهـــا مروءتـــه ودينـــه
وضَّـــاح لم تعـــتم بـــه نفـــسٌ ولم يُطفـــأ جبينـــه
تُخفـــي البـــشاشة همـــهُ والهـــم أثقلـــه دفينـــه
كـــالطود لم يـــسكن بـــه رزقٌ ولم يُوطـــأ حـــصينه
معطاءَ لـــو ملـــك الـــسما لـــسخت بأنجمهـــا يمينـــه

أرضُ المروءات

هاهنـــا في القيـــد مـــن قيثـــاريّ نغمٌ يناســـب حُزنـــاً في وجـــودي
ووجـــودي هاهنـــا يـــشهد مـــا جاء أرضي مـــن وقاحـــات العبيـــدِ
الأولى تلقـــى الكرامـــات بهـــم محنـــةَ تـــنطحُ في لـــؤمٍ حقـــودِ
الأولى جـــاءوا معانـــاةَ ســـواء على الأحيـــاء أو مـــن في اللحـــود
الأولى قبلتـــهم أرضـــي بهـــا حزنـــاً يحزنـــه كـــل شـــهيد
والأولى جـــاءوا عليهـــا جربـــاً نـــتن الـــريح مرشـــاً بالـــصديد
مـــا لهـــا الـــدنيا أتـــاني نـــصرها كاشر الـــسوءة كالخـــصم اللـــدود
خائباً يسرحُ مفتوناً بكـــلّ مُنْـــ ـــحدرٍ منطفـــئ الـــنفس بليـــد
يصطفي للنـــاس مـــن يبـــدون في شرف الناس كـــصفعٍ في الخـــدود
ممسكاً منهم صـــكوكاً مـــا بهـــا طهر مكتوب ولا صـــدق شـــهود
ويـــرى كـــل المـــضيئين زُنـــاةً وفَـــسَّاقاً علـــى كـــل صـــعيد
فـــسقوا إذ رفـــضوا أن يـــشنقوا رشـــدهم في كـــبره الغـــير رشـــيد
نجسوا بـــالرفض تقـــواه.. فهـــم يـــستتابون بتمزيـــق الجلـــود
مارسوا التبشير فينـــا أن للـــسوء في نياهـــا أعـــتى رصـــيد
وأروناها على الـــساحة ممقوعـــةً حبلـــى بطغيـــانٍ جديـــد
أينـــها مـــصرُ لكـــي يخجلـــها أدب الأحـــزان بالعتـــب الـــودود
هـــذه أحزاننـــا لـــيس بهـــا أنةَ تخـــرج مـــن صـــدرٍ جحـــود
إنها مأســـاتنا قـــد جـــاء يـــصـ ـــنعها فينـــا حـــديثاً للخلـــود
مـــسلمٌ أنبـــت في إســـلامنا ألسناً تُـــثنى علـــى رفـــق اليهـــود
ثم أرخـــى دمعـــةً تبـــدي بـــه صـــالحاً أكمـــده كفـــرُ ثمـــود
لتـــرى مـــن طرحـــوا أخلاقهـــم ســـيفها في عنـــق الفجـــر الوليـــد

وأتوا فينا على مجهودها بصفةً يُمحى بها فضلَ الجهود
واحداً كنتُ من الناس الأولى علموا ناسهمو رفض السجود
فلماذا أنا مصفود وصيحة سجاني نشازٌ في نشيدي
ألأرضي وهبت نفسي غضي لألقى القيد عضّاً في قديدي؟
ألهذا القيد كفي دفنت في حنايا وطني أغلى شهيد؟
أيها القيدُ اجرح الكف التي دميت في الزحف حملاً للبنود
واحتبسني مهجةً فاضلةً مامشت إلا إلى قصدٍ حميد
أيها القيدُ تباركت فما زاد في إصرارنا غير الحديد
وذرِ الأقزام إن سارت بهم قدرة التزوير في طولٍ مديد
لعنةَ جاءوا على الشعب سيصـ ـلَبُها الشعب على أقذر عود
هذه أرضي التي ما ركعت جبهةً فيها لجبارٍ عنيد
هذه أرضي التي حفظت كبرها يوماً ليأس أو حشود
لا تُؤاخي غير ما يرضي مروءةً قومي وكرامات جدودي
ليس في إصرارها الشَّهم وتاريخها الضخم سوى روحُ الصمود
لم تتح في السهل والسفح وفي القمم الشم مُراداً لِمُريد
لم يعد في سوقها من باعها سلع الغش بروح المستفيد

أتيتك بالبشر لا بالعزاء (*)

أتيتك بالبشر لا بالعزاء وجئتك بالزهر.. لا بالرثاء
ولم أستطع أن أذلّ الحروف فتأتي إليك بمعنى البكاء
فإني تعلمتُ أن لا يكون عزاءَ الرجال بدمعِ النساء

(*) قصيدة عزاء للأستاذ النعمان في نجله محمد.

وأنت الفتى تحت كل الظـروف أتـت بالـشدائد أو بالرخـاء
وكفّك فيـك سـخيُ النـدى وطرفـك فيـك عـديم الـسخاء
فمـا رطـبَ الحـزن أهدابـه ولا بلـهن.. ولـو في الخفـاء
ولـيس بعينيـك غـيرُ الرضـا وغـيرُ الخـشوعِ لوجـه الـسماء
ولـو لاح منـها نـدى دمعـةٍ لغيـضه مـا بهـا مـن حيـاء
فقلبك فيـك أليـفُ الجـراح ودمعـك معـصمهُ الكبريـاء
وقد جئت في الناس من معـدنٍ عـصيَّ الطبـاع علـى الإلتـواء
أشاطرك الحزنَ حـزن الرجـال وقد واجهـوا البـأس دونَ انحنـاء
وأسـعى إليـك حمـيم الخطـى ويـسبق خطـوي حمـيم الوفـاء
وأعرف كيف فـراق الحبيـب أعايـشه في رجـاء اللقـاء
فكيـف بـه دُونمـا رجعـةَ وقـد غـاب في آبـدِ الإنطـواء
وأدري مُـصابك لكـنني عرفتـك صـبراً مُـصرَّ الإبـاء
ومـا للمواجـع مـن رجعـةٍ بقلـبٍ مـشى طرقـاتِ العنـاء
وكم صد سيلاً ثباتُ الـصخور وما جـرف الـسيل غـير الغثـاء
فكيف لهـا أن تهـين الخطـوب رشـاد العمالقـةِ الأقويـاء

ألفنـا الـسنين أتـى عمرنـا
بهـا المـوت مقتطفـاً زهرنـا
فمـا هـدَّ في كفـه صـبرنا
ولا بـشبا سـيفه إزرنـا
ولا اجتـاح في عُنفـه بـشرنا
ولا أتربـت روحـه نهرنـا
ولا مدَّ فوق المـروج الـصحاري

ولا هُزمـــــت فيـــــه أحلامنـــــا
ولا بئـــــست منـــــه أيامُنـــــا
ولا ارتجفـــــت فيـــــه أقـــــدامنا
ولا وَلْوَلَـــــتْ فيـــــه آلامنـــــا
ولا صـــــغرت فيـــــه أحجامنـــــا
بُكاءَ علـــى راحـــلٍ قـــد تـــوارى

وكم فـــتح المـــوت فينـــا جراحـــاً
ومكّن وســـط الجـــراح الرِّماحـــا
وأرخـــى الظـــلام وشـــدَّ الرياحـــا
فلـــم نلتـــزم كالثكـــالى مناحـــا

وولّى الـــدجى ولقينـــا الـــصباحا
لنـــزرع فـــوق القبـــور الأقاحـــا
ويرتاح مـــن في القبـــور اســـتراحا
لأنـــا كرهنـــا عليـــه النُّواحـــا
ولم نـــشهد المـــوت إلا كبـــارا

وعـــــشنا الحيـــــاة وأيامهـــــا
تُهاترنـــــا ثوبهـــــا المـــــستعارا
وتعـــــصِمُنا قـــــوة الكبريـــــاء..
على الموت أن نطلـــب الإعتـــذارا
ومـــن كـــبرت فيـــه أحزانـــه
ولـــيس صـــغيراً رآهـــا صـــغارا

وقد غبتُ عنك وهـذا لقـائي بمـا يقتـضيه حقـوق الإخـاء
فللـودِّ منـك ديـونَ علـيَّ تـؤدَّى إليـك وهـذا أدائـي
بـه يلتقيـك فـؤادي بمـا تعـانق في كلمـي مـن وفـائي
وقد احتوت كـل صـدقي لهـا فلـيس بهـا لحظـةَ مـن ريـاء
وحمِّـل فـؤادك مـن حزنـه بقـدر العدالـة لا الإكتفـاء
وكـن منـصفاً.. إنَّ أحزاننـا مقـسمةَ بيننـا بالـسواء
ولـيس خيـاراً لنـا أنهـا ضـريبةَ أيامنـا للبقـاء

صاحبي مات(*)

صاحبي مـات فماتـت كلمـاتي وخبا ومـضى وناحـت أغنيـاتي
وأغاريـدي وشـعري وأنـا لم يعد فينا سوى معـنى الرُّفـاتِ
وصـلاتي حزنـت في معبـدي أبلغَ الأحـزان حـزن الـصلوات
راحـل ألبـسته أكفانـه بُـرداً عطرتهـا مـن دمعـاتي
إنه كان سـحاباً مـلءَ عمـري ونهـراً دافقـاً مـلء حيـاتي

يا أحبـاي القـدامى في الثـرى هـاكمُ اليـوم حبيبـاً آخـرا
لم أكن أعرف أني سـوف أفـ ـقد فيـه الأمـل المـدَّخرا
وحميمـاً طالمـا بـوأني سُـدةَ أحـرق فيهـا العنـبرا
وداعٌ، أودع قـبراً مثلمـا أودعـوا عُقـر كنَّـاسٍ جـؤذرا
وسـنأتيكم تباعـاً بعـده ذات يـومٍ وسـنغدوا خـبرا
إنـه دربٌ إلـيكم ينتـهي أنجـد المـرءَ بـه أو أصـحرا
وسـواءٌ مـن مـشى مـستعلناً أو أوى في قلـبِ ليـثٍ حَـذِرا

(*) في رثاء الشهيد محمد أحمد نعمان.. الذي أغتيل في بيروت عام ١٩٧٤م.

صـــاحبي ولّـــى وولّـــت بعـــدهُ فـــرحتي تقـــتصُّ منـــه الأثـــرا
عاش بحاثاً عـــن الـــصعب يُحـــا ضـــنه شـــوكاً ويلقـــي الزهـــرا
طالمـــا أغـــرب أو أغـــضب أو أوصـــبَ الزهـــو بـــه أو بهـــرا
هكـــذا مـــن لم يـــداهن جأشُـــهُ قـــدرةَ راح يلاقـــي قـــدرا
وكـــذا ســـال دمٌ بعـــد دمٍ في دروب الغـــاب يجـــري هـــدرا
وسيمـــضي فوقهـــا مستـــشرياً مُحرقـــاً فيهـــا النـــدا والـــشجرا
أيهـــا المـــوت كفـــاني حزنـــاً حـــزني خـــلا إهـــابي كفانـــا
لفَّ روحـــي وطواهـــا عاصـــفاً لا أراني فيـــه أدري مـــن أنـــا
وفؤادي بعـــد أن كـــان لبـــشـــيري حمىً أضحى لـــدمعي وطنـــا
وأحاسيـــسي غفـــت خاويـــةَ لم يعـــد مـــن أهلـــها مـــن طعنـــا
وحيـــاتي لا أرى أيامهـــا أبـــداً إلاّ شـــجىً أو شـــجنا
لكـــأني أرضُ أجـــداثٍ بأجـــوافها كل حبيـــبٍ قـــد ســـكنا
ولقـــد أصـــبح دمعـــي عارضـــاً إن رأى شـــاهد قـــبرٍ هتنـــا

تضيقُ بنا الدنيا وصدرك يرحب(*)

تضيقُ بنا الـــدنيا وصـــدرك يرحـــب وأنت القريـــب المـــستجيب المجـــبُ
ولم ألـــق إلا فيـــك نفـــساً مـــضيئة يتاح لنـــا منـــها الـــضياء ويوهـــب
ولم تبـــق إلا أنـــت للفجـــر واحـــةً نلـــوذَ إليهـــا مـــن دُجانـــا ونهـــرب
كأن كـــل صـــبحٍ مـــرَّ خـــلا وراءه من البشر فيضاً بين جنبيـــك يُـــسكب
وكل مـــساءٍ مُقمـــرٍ منـــه رطّبـــت حنايـــاك أنـــسام.. وزارك كوكـــب
نـــذرتُ قريظـــي للهمامـــة نفـــسه أمجّـــده فيمـــا أقـــول وأكتـــب

(*) في مدح الرئيس الخالد إبراهيم محمد الحمدي.

فألقـــاه نُـــبلاً تـــستبيني ضـــحوكةً بـــشاشته.. والنبـــل يـــسبي ويخلـــب
تزور نفوس الناس غيمـــاتُ نفـــسه بمعروفـــه مـــن كفّـــه يتـــصبَّبُ
ولـــو أنهـــا كفّـــت لبـــات فـــؤاده يعاتبـــه في صـــدره ويؤنـــب
يجيءَ لقلبي حيـــث كنـــتُ صـــنيعه ويذهب خلفي بـــرُّه حيـــث أذهـــب
أيا واسع النـــاس الخـــصيب جنابـــه ويـــا طيبـــاً أهـــداهُ للنـــاس طيـــبُ
يكاد يُضيءَ الطرس تحـــت يـــراعتي إذا راح فوق الطرس اسمـــك يُكتـــب
ســـأنقل للـــدنيا وفـــاءك تاركـــاً عجائبـــها مـــشدهةً منـــك تعجـــبُ
وأصـــنع للأيـــام منـــك حـــديثها وكل حديثٍ عنـــك يحلـــو ويعـــذب
وفيت فحق الصدق غـــير مـــصدقٍ إذا قـــال يومـــاً إن برقـــك خُلّـــبُ
خدعت مُنَى نفـــسي بـــأني ســـألتقي بغـــيرك شـــهماً والمؤمـــل يكـــذب
وراهنـــتُ أيـــامي بـــأني قـــد أرى سواك أخـــاً يحنـــو عليهـــا ويُحـــدب
وعُدت ومـــا أعقبـــت إلا ضـــلالةً يـــصاحبني فيهـــا خيـــالي وأشـــعب
ولو كنت قد لاقيتُ قلـــب مهـــذب فتحـــت يـــديك الماجـــدون تهـــذبوا
ألا رُب مـــاء غـــير مائـــك جئتـــه فغطاه عن عـــيني بعـــوض وطحلـــبُ
وكم غيظةٍ قد نمت في ظـــل دوحهـــا غدا دوحها تحت القواطـــع يُحطـــب
وكنت ألفت السجع فيها وقد مشت ذيـــول طواويـــسي فيهـــا تتـــسحَّبُ
وجالس قلبي الـــورد فيهـــا ونعمـــةً تراخيـــت في أعطافهـــا أتقلـــب
تناثر فيها الـــورد قـــشاً وأصـــبحت فراشـــاته في قـــشّه تتعنكـــب
وبعد الطـــواويس النفـــيس رواؤهـــا بهـــا ســـار مختـــالاً غَـــرابٌ وثعلـــب
وبعد الظبا يـــسرحن فيهـــا أوانـــساً مـــشى الـــذئب في أجنابهـــا يتوثـــب
على كل ضيمٍ من يراعـــي حريقـــةً وللخير في صـــدري كـــلامٌ مـــؤدب
لمن أطرح العتب الـــذي في جـــوانحي يقيم ومـــن يـــصغي إليـــه ويعتـــبُ؟
ومن أهب الصدق الذي طـــال لبثـــه حبيساً بأعمـــاقي يـــضجُّ ويـــصخب؟

لقد عشته في عقر داري غَربةً كأني في قومي نبيٌّ مكذب
وعاشت معي أحزان نفسي كأنها عقابٌ على صدقي به أتعذب
أيا عقل هذه الأرض إنك كنزها وغيرك كنزٌ قد يفيض وينضب
وأثمن ما تعطي السماء لأمه فتى ملؤه ضوءٌ وعقلٌ مُجرِّبُ
يضاعف قَربي منك كبري كأن لي على النجم متنٌ أمتطيه وأركب
ويكبرُ إكباري لنفسي كأنني أمامك قيلٌ أو مليكٌ معصبُ
تهزُّك ألفاظي وكل سميدعٍ يحركه القول المضيء ويطرب
وتحرث نفسي فيك تربة جنةٍ بها يمرع الغرس الكريم ويخصب
وحيد يراعي أنت بكر مديحه تجرُّ ذيولاً من ثنائي وتحسب
وقبلك لم ألق الذين نفوسهم صنائعها تغزو النفوس وتغلب
ستنفر من شعري روائع وحيه إذا هبطت نفسي به تتكسَّب
وتقتل في نفسي القوافي نفوسها وكل يراعٍ في بناني سيصلب
وما جنحت نفسي إليك طلوبةً لما تتوخاه النفوس وتطلب
ولكن نفساً بين جنبيك حرة تقود هوى نفسي إليك وتجذب
وتأويك شهماً كلما جئتُ نحوه مشى قلبه نحوي حميماً يرحِّبُ
ضلالاً لقلبي إن أتى غيرك ماجدٌ يزاملَ فيه المجد قلبي ويصحب
تُقرُّ به عين المروءة راضياً وتعجبها أخلاقه حين يغضب
وتعطي سجايا نفسه كل زهرةٍ شذاها ومنها كل طيبٍ يُطيَّبُ
وتعساً لإلهامي وفطنتي وتحطم أقلامي بكفي وتحطب
إذا أنا لم أعطِ الكريم مكانه بقلبي كما يقضي الوفاء ويوجب

التماعات من ألق الحرف الرافض

لا من مضى هو خير لي من السلف ولا الجديد عن الماضي بمختلف
ولا الضلالات تلهيني زخارفها عن كبريائي وعن قدري وعن أنفي
فألثم القاع مأخوذا بموكبها تظفر الزحف لم يهدأ ولم يقف
لقد حزنتُ وأحزاني تجلل ما حولي وتعطيه من حزني ومن أسفي
فلاح لي كل شيء شأنها خرباً وكل معنى جمالي إلى تلف
وكل شيء هنا تبدو ملامحه تحيا الحياة بلا طعم ولا شغف
حتى البيوت تبدت وهي ساهمة كئيبة الضوء والأبهاء والغرف
حتى المرايا على حيطانها كبيتٌ كأنما هن ألواحٌ من الخزف
حتى الشجيرات جفت في منابتها وأصبحت حطباً في كل منعطف
حتى الأزاهر ما عادت مرونقة كأنما جئن من بؤس ومن شظف
حتى الندى فوق أوراق النبات غدا تحت الشعاع بليداً خامل النطف
طوبى لنفسي كم أحببتُ ذا خلق من الرجال وكم صاحبت ذا شرف
وويح نفسي كم مرت على نتن من النفوس وكم أوفت على جيف
يا من علمت بأن الصدق جاء به كالفجر يسدل أضواء على السدف
ومن يرى في غثاء الخلق جوهرة بما يحط ويخزي غير متصف
هل الهوان غدا في أرضنا نمطاً من الرخاء ومروداً من الترف
يعطي اللطيم كلا خديه لاطمه لكي يقوم سوياً غير منحرف
تمشي الوقاحة في أرضي مبجلة كأنها تحفةٌ من أندر التحف
حتى الذبابات تأتي من مزابلها طنينها قد غدا لوناً من الظرف
يا محنة الصدق من زيف بقبضته سيفٌ.. ومركبه وحش من الصلف
كما هابط تقبل الدنيا لتفضحه فسل العروق وبيئاً سيء السلف

يا أمتي أين أحلامـــي؟ وكيـــف أرى فيك النظيف رفيق الـــسيئ النطـــف
وكيف أشهد فيك الـــصدق مفتقـــداً صدق المعـــايير والتمييـــز والنـــصف
وكيف يصحب فيك الفجـــر غرتـــه ليـــل المغـــاور والأنفـــاق والجـــرف
فرشت للناس وديان الحريـــر نـــدى فراح يذري عليهـــا يـــابس العلـــف
ما للأرائك أمـــست فيـــك حـــائرة يجالس الطين فيهـــا لؤلـــؤ الـــصدف
وفي يمينـــك تبـــدو باقـــةَ جمعـــت فيها خليط مـــن الريحـــان والـــسنف
كأنمـــا فيـــك تمـــارٌ مـــضت يـــده في الغش تخلط بين التمـــر والحـــشف
مدائح الزور مـــا ســـارت بـــذاءتها على حروفي ولا امتدت على صـــحفي
كم يفسق الحرف إن ذلـــت كرامتـــه لجـــارم آثم الوجـــدان مقتـــرف
إني لأرفـــض إثم الآثمـــين ولـــو أن السماوات قد تهوي علـــى ســـقفي
لا أرض لي فوق أرضٍ قد أعيش بهـــا بـــدون رفـــض ولا لامٍ ولا ألـــف
أرضي التي وهبت نفسي الشباب لهـــا وعشت أنسف فيهـــا كـــل معتـــسف
تبختـــر الإثم في أجنابهـــا وغـــدت مصائر النـــاس للأقـــدار والـــصدف
يقصر الخـــير فيهـــا مـــن مـــساحته وفوقها الـــسوء ممتـــداً بـــلا طـــرف
ويبطئ الصدق في خطواتـــه حـــذراً من العقاب ويمـــشي مـــشي مرتجـــف
من ملزمي طاعـــةَ فيهـــا ومـــسكنة لـــصولة قبحتـــها أوجـــه الـــشرف
أكـــاد أفقـــد إيمـــاني بهـــا وأرى أن البقـــاء عليهـــا بـــاهض الكلـــف

دربُ الحُب

إن كان درب الحب قد أتعبك
فاسرح على الدرب الذي يعجبك
كم قلت لي
إن الهوى.. قد كوى
قلبك.. وإن الشوق قد عذبك

ندامتي لا تنتهي أنني..
خاصمت ظني حينما كذبك
ولمتُ شكي فيك
لكنني.. صدقت صدقي بعدما جربك
لو لم تكن في نبض قلبي لما
صلبتني.. من قبل أن أصلبك
ماذا تبقّى منك لي بعدما
حرقت يوم الصدق في مكذبك
لا تنتظر نفسي وأشواقها
تأتيك.. إن الحب قد سيَّبك
وكلها الأشياء ضاقتك
حتى الكذب.. كم يخزيه أن يكذبك
لو كنت لي ظلي.. فلن أحجبك
أو كنت لي زادي.. فلن أقربك
أو كنت لي مائي.. فلن أشربك
لو كنت لي ما تحت جفني وقد
طفأتَ في عيني فلن أندبك
ماشتكش من أيام عمري ولو
كان الضحى يمسي على مغربك
ماشتيش حتى النوم لو جاء
من عندك.. وحتى الفجر لو مر بك
ولو صلتني الشمس في وقدها
وفي يديك الغيم.. لن أطلبك
لو كنت سيل الله تأتي.. وبي
حرائقي.. ما جئت في مدربك
ألبستك الثوب المندى فما
زكّاك ثوب الورد أو طيَّبك
لم تأت للورد ولا عطرها
بل جئت للأيام كي تحطبك
لو كان فيك الحب كان الذي

في الحب من روح الندى رطّبك
ضاعت مُنى الحب وقد كنت ما
أصدقني فيها.. وما أكذبك
فدع سماوايَ التي زرتها
وسار في أبراجها موكبك
ما عُدتَ من أهلي بها بعدما
أسقطت من أفلاكها كوكب
وأترك طريقي لا تكن شوكها
واسرح على الدرب الذي أعجبك
وبيننا أيامنا لن ترى
خسارتي فيها ولا مكسبك
شاسير تحت الشمس في قيضها
لأحرق اللحن الذي أطربك
وأمشي على النيران أرمي على
مشبوبها نايي الذي شببك
وتجتلي عيني جلال السماء
لتشكر الله الذي غيبك
وامتد في الفجر الغزير الندي
أُطهر القلب الذي هام بك

مستوطنات الشوق

مُـــــستوطنات الـــــشوق في فـــــؤادي
طلـــع بهـــا زهـــر الهـــوى وســـنبل
وسُـــــنبلاتي مـــــا رأت حـــــصادي
مكانهـــا تحـــت الظـــلال تطـــول
ون شـــفت عنـــها الظـــل راح غـــادي
أتـــى لهـــا غـــيم الـــسما وظلـــل

وامـــــشي وحـــــبي للجمـــــال زادي
مـــا راح مـــن روحـــي ولا ترحَّـــل
كـــم قلـــب قـــد ألقـــى بمـــا تحمـــل
ومـــا شِـــبع قلـــبي ولا مـــل
إذا استـــضافته البـــدور بـــسمل
وإن رأى ضـــوء الجمـــال هلـــل
وإن دعـــى داعـــي الهـــوى تشلـــشل[1]
كأنمـــا هـــلال عيـــد قـــد هـــل
كَلَـــو[2] سمـــع دعـــوى نـــبي مرســـل
مـــن الـــسماء إلى الهـــدى يُنـــادي

يـــا حُـــب يـــا مـــن نمـــت في ســـهادي
محـــلا الهـــوى تحـــت الـــصدور يُحمـــل
كفـــى رشـــاش الغيـــث يـــا غـــوادي
رُوحـــي بأضـــواء الجمـــال تُغـــسل
وإن ظمـــي قلـــبي وهـــام صـــادي
في أضـــلعي لاقـــى الملـــيح وابتـــل
كأنمـــا قـــد زار كـــل وادي
والتـــف في ثـــوب الغمـــام والطـــل

تقـــول نفـــسي والـــشجون تـــسأل
مـــا كـــان ضـــر الخـــل لـــو تجمَّـــل؟

(1) تشلشل: تحرك.
(2) كلو: بمعنى "كما لو".

واعطـــى مـــنى قلـــبي بقـــدر مـــا شـــل
مـــاهوش ملـــيح لـــك يـــا حبيـــب تبخـــل
زَكِّ جمالـــــك بالعطـــــا ولـــــو قـــــل
أو روح مـــــن روحـــــي وشـــــد وارحـــــل
ورد في عـــــــيني هنـــــــا رُقـــــــادي

مجراتُ النجوم

هل كل فجرٍ تقضَّى قـــد أوى فينـــا؟ أم أن كـــل صـــباحٍ بـــات يأوينـــا؟
أم أفرغت ضوءها الأقمار داخلنـــا؟ أم أننـــا في فـــؤاد الـــشمس يحوينـــا؟
أم أن كل مجـــرَّات النجـــوم غـــدت نجومها يـــا حبـــيبي ملـــك أيـــدينا؟
هـــل ثم ســـرٌّ وراء الغيـــب يأســـرنا في فتنةٍ ملءَ هذا الكـــون تـــسكرنا؟
فكـــل شـــيءٍ حوالينـــا يعطرنـــا والـــضوء يبـــهر دنيانـــا ويبـــهرنا
لم ندرِ من أين هذا الـــضوء يغمرنـــا وفيـــضه الـــدافق التيـــار يطوينـــا
من أين إن لم يكن قد جـــاء منـــسكباً من حبنا.. من هوانا.. مـــن أمانينـــا؟

وقبـــل أن تمـــلأ الأجفـــان دمعتنـــا أو يبهر الفجـــر والأضـــواء فرحتنـــا
وقبل أن تـــسكر الأحـــلام نـــشوتنا بالحب والحب يغـــدو وهـــو قـــصَّتنا
قل لي حبيبَ فـــؤادي أيـــن قـــدرتنا كانت؟ وكيـــف نمـــى فينـــا تحـــدِّينا؟
من أين إن لم يكن قد جـــاء ملتـــهباً من حبنا.. من هوانا.. مـــن أمانينـــا؟

من أيـــن ألحاننـــا جـــاءت منغَّمـــةً؟ من أين شجواً بـــه ســـارت أغانينـــا؟
من أين نـــشوةَ روحينـــا معربـــدةً؟ مـــن أيـــن أفـــراح قلبينـــا تواتينـــا؟

من أيـــن بـــشراً بـــه تختـــال باسمـــةً مواكب الحـــب في جنـــات وادينـــا؟
من أين إن لم يكن قد جاءنـــا طربـــاً من حبنا.. من هوانا.. مـــن أمانينـــا؟

وقبـــل نـــصبح أنغامـــاً وألحانـــاً وترتوي مـــن شميـــم الـــورد دنيانـــا
ونكتسي من بـــشاش الحـــب ألوانـــاً ويـــصبح الحـــب مأوانـــا ومثوانـــا
من قبل ذا يـــا حبـــيبي كـــم تلقّانـــا حضن الضياع وكم عشنا مـــساكينا؟
قلبي وقلبك قبل الحـــب مـــا عرفـــا إلا جفافهمـــا المحمـــوم يـــصدينا
قبل الهوى يا حبيبي أيـــن كـــان لنـــا دنيـــا؟ وأيُّ حنـــانٍ كـــان يروينـــا؟
من أين إن لم يكن قد جـــاء مُنـــسكباً من حبنا.. من هوانا.. مـــن أمانينـــا؟

تـــساؤلاتٌ كـــثيراتٌ تطـــوف بنـــا نشوى وأجراســـها راحـــت تناغينـــا
في رقـــةٍ كرفيـــف الـــوحي يحـــضنه ضـــوء الـــصباح وتـــسبيحُ المـــصلينا
من أين فجـــراً مـــذاباً في مـــشاربنا ضـــوءاً إلى ورده الـــدنيا تنادينـــا؟
من أين؟ إن لم يكن قد جاء منـــسكباً من حبنا.. من هوانا.. مـــن أمانينـــا؟

من أين سحراً بـــه عاشـــت مدلّهـــةً أحلامنـــا بعـــذابٍ كـــاد يفنينـــا
من أين صبراً كتبنـــا منـــه ملحمـــةً بهـــا محونـــا أســـاطير المحبيثـــا
من أين جاء وفـــاء كـــان معجـــزةً مـــشت إلينـــا وأعطتنـــا تلاقينـــا
من أيـــن عطـــراً بـــه تـــأتي مبللـــةً أيامنـــا وبـــه تنـــدا ليالينـــا؟
من أين؟ إن لم يكن قد جاء منـــسكباً من حُبِّنا.. من هوانا.. مـــن أمانينـــا؟

الرسالة الخامسة

أيُّ شيءٍ بعد الهوى قد لقينا
يا حبيبي.. وأي شيءٍ بقينا
ما ترانا من بعده
غير ما يتركه الهدمُ في خرابٍ دفينا
لست شيئاً على الحياة
ولا أنت.. فمن قلبها الحميم مُحينا
كم حُسِدنا على هوانا لأنا
قد لبسنا حريره وكسينا
فلماذا حرَّقتَ سندساً منه
ومزَّقت سترنا فعرينا

* * *

كيف ألحدْتَ بالهوى يا حبيبي
والهوى كان في فؤادك دينا
كيف أغرقت ملء فجرٍ من الضوء
بليلٍ أسدلته فعشينا
كيف أحرقت وجه شمسٍ كما لو
كنت فيها وفي ضحاها كمينا

* * *

إنه الحب كان فجراً ندياً...
وضُحىً باسم الجوانب فينا
ومروجاً خُلدية العطر خضراً
أورفت فوقنا وماءً معينا
وغماماً سحريةً في نداها
لبس الشوك حولنا الياسمينا

لم نجد بعدها ندىً أو ظلالاً
لكأنا إلى جحيمٍ نُفينا

* * *

لن تُعيدَ المروج والعطر والطلّ
إلينا دموعنا لو بكينا
والندامات لن تعودَ بحبٍّ سُحيٍّ
في غيمه قد ندينا
فلتقم بيننا القناعةُ أنّا
قد أضعنا هناءنا وشقينا
ومُنانا تيتّمت وهي تدري
أيُّنا لم يكن عليها أمينا

قائمة بالمراجع والمصادر

١- ديوان الفيروزه
٢- الجمهورية الثقافية
٣- كتاب أغاني أيوب طارش –مكتبة الفكر – تعز – ٧٤م
٤- مشكلة الحب/ د . زكريا إبراهيم
٥- الفضول/ كتاب صدر في أربعينية الشاعر عن مؤسسة سبأ ٨٢/٨/١٥م
٦- من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي/ د . المقالح – دار الكلمة – صنعاء
٧- مجلة المعرفة العدد ١٨/١٧
٨- أفراح الروح / سيد قطب
٩- مجلة الفضول – دار الكتب – صنعاء
١٠- التفسير النفسي للأدب / د . عز الدين إسماعيل
١١- أوراق الورد/ مصطفى الرافعي – دار الكتب العربية – بيروت
١٢- التحليل النفسي والأدب/ جان بلامان نويل – ٤٣ – منشورات عويدات/ بيروت
١٣- علم الجمال/ دني هويسمان/ ترجمة ظافر الحسن/ منشورات عويدات
١٤- مجلة علم النفس/ ميكانيزم النكوص/ كمال عبد الحميد ٢/ ١٩٥٠
١٥- رافائيل/ ترجمة أحمد حسين الزيات/ ٤٨
١٦- الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث، د.طلعت أبو العزم/ ١٧٨
١٧- الشاعران المتشابهان/ أبو القاسم بدري/ ٥٧
١٨- ثمانون عاماً من حياة النعمان ، عبد الرحمن طيب بعكر
١٩- النقد الأدبي أصوله ومناهجه – سيد قطب – دار الشروق
٢٠- فن الشعر/ د . احسان عباس/ ٢٩
٢١- أنا/ عباس محمود العقاد/ ص ٨٦/ فلسفتي في الحب
٢٢- وحي القلم/ مصطفى صادق الرافعي

٢٣- مجلة العربي ٤٦٧/٤ د . وليد صالح خليفة
٢٤- اليمن الجمهوري/ عبد الله البردوني
٢٥- السخرية في أدب عبد الله النديم/ د . يوسف خليفة
٢٦- المتنبي/ شيخ المحققين محمود محمد شاكر
٢٧- صحيفة الجمهورية (م . أعداد) انظر فهرس أعمال أيوب طارش من شعر الفضول .
٢٨- صحيفة ٢٦ سبتمبر ٤ (٧٢٢)
٢٩- ديوان أبو القاسم الشابي
٣٠- ديوان المتنبي
٣١- ديوان العباس بن الأحنف
٣٢- ديوان ذو الرُّمه
٣٣- لافتات أحمد مطر
٣٤- الأعمال الكاملة لنزار قبَّاني
٣٥- الثقافة والثورة - عبد الله البردوني -
٣٦- رحلة في الشعر اليمني - البردوني-

فهرس أعمال أيوب طارش من شعر الفضول بالكامل / مصادر إضافية للقصائد .

القصيدة	اللحن والغناء	المصـــدر
جنحت أجناحي	أيوب طارش	الجمهورية الثقافية ٩٨/٤/١٦م
لمع البروق	//	الجمهورية الثقافية ٩٨/٤/١٦م
طال الفراق	//	صحيفة الجمهورية (١٠٤٨٧٠)٩٨/٤/٢٦م
طاب البلس	//	صحيفة الجمهورية(١٠٤٨٧٠)٩٨/٤/٢٦م
واصبايا واملاح	//	صحيفة الجمهورية (١٠٤٨٧٠)٩٨/٤/٢٦م
أملأوا الدنيا ابتساما	//	صحيفة الجمهورية (١٠٤٨٧٠)٩٨/٤/٢٦م
أنا مع الحب	//	الجمهورية الثقافية ٩٨/٤/٣٠م
عدن عدن فيها الهوى ملون	//	الجمهورية الثقافية ٩٨/٥/٧م
مهلنيش	//	صحيفة الجمهورية (١٠٥١٠) ٩٨/٥/١٩م
دق القاع	//	صحيفة الجمهورية (١٠٥١٠) ٩٨/٥/١٩م
عاصي الهوى	//	صحيفة الجمهورية (١٠٥١٠) ٩٨/٥/١٩م
اذكرك والليالي	//	صحيفة الجمهورية (١٠٥١٢) ٩٨/٥/١٩م
مدارب السيل	//	صحيفة الجمهورية (١٠٥١٢) ٩٨/٥/١٩م
بكر غبش	//	صحيفة الجمهورية (١٠٥١٢) ٩٨/٥/١٩م
هنوا لقلبي	//	صحيفة الجمهورية (١٠٥١٢) ٩٨/٥/١٩م
هيمان هيمان	//	صحيفة الجمهورية (١٠٥١٢) ٩٨/٥/١٩م
من أجل عينك	//	ج . الثقافية٩٨/٥/٢٨م
زفة العروس	//	ج . الثقافية٩٨/٥/٢٨م
قلبي يسائلني	//	ج . الثقافية٩٨/٥/٢٨م
يا حب يا ضوء القلوب	//	ج . الثقافية٩٨/٥/٢٨م
حبيت من خاب فيه الظن	//	ص . الجمهورية (١٠٥٢٥) ٩٨/٥/٢٨م
الليل والنجم وهمس النسيم	//	ص . الجمهورية (١٠٥٢٥) ٩٨/٥/٢٨م
محلى هواك	//	ج . الثقافية ٩٨/٦/٤م
مهما يلوعني الحنين	//	ج . الثقافية ٩٨/٦/٤م

القصيدة	اللحن والغناء	المصـــدر
وافي العهود	//	ج . الثقافية ٤/٦/٩٨م
نجم الصباح	//	ج . الثقافية ٤/٦/٩٨م
هات لي قلبك	//	ج . الثقافية ٤/٦/٩٨م
يا من رحلت إلى بعيد	//	ج . الثقافية ٤/٦/٩٨م
يا سماوات بلادي	//	ج . ث ١١/٦/٩٨م
رددي أيتها الدنيا نشيدي	//	ص . ج(١٠٥٢٤)٢٠/٦/٩٨م
هتافات للشعب	//	ص . ج(١٠٥٢٤)٢٠/٦/٩٨م
يا مرحبا بالضيف	//	ص . ج(١٠٥٤٤)٢٠/٦/٩٨م
هذه يومي فسيروا في ضحاها	//	ص . ج(١٠٥٤٤)٢٠/٦/٩٨م
الوطن المضياف	//	ص . ج(١٠٥٤٥)٢٣/٦/٩٨م
عطايا تربتي	//	ص . ج(١٠٥٤٥)٢٣/٦/٩٨م
رحلك بعيد	أيوب طارش /منى علي	ص . ج(١٠٥٤٨)٢٦/٦/٩٨م
أشتيك وقلبي يشتهيك	أيوب طارش	ص . ج(١٠٥٤٨)٢٦/٦/٩٨م
وداعة الله يا عقلي	//	ص . ج(١٠٥٤٨)٢٦/٦/٩٨م
في رحاب الصنه	//	ص . ج(١٠٥٤٨)٢٦/٦/٩٨م
طير مالك والبكا	//	ص . ج(١٠٥٤٨)٢٦/٦/٩٨م
باعدوا من طريقنا	//	ص . ج(١٠٥٤٨)٢٦/٦/٩٨م

قصائد الفضول التي غناها عبد الباسط عبسي :

(طعمه قبل/ بردان بردان/ في مبسم الفجر/ هاتوا لقلبي كل طل الصباح/ يا حب يا أرضي ويا سمائي/ حسنك لعب بالعقول/ من الضحى حتى قدوم الأصيل/ أو كما سماها الشاعر مسارح الظبأ / خطر قبالي والمليح يعرف .....) . أ.هـ

آخـــــرون:

١- باعدوا من طريقنا// عبد الجليل العبسي/ ايوب طارش
٢- شق البحر شقه// رجاء باسودان
٣- شبان القبيلة// محمد صالح عزاني/ الثلاثي الكوكباني- محمد المرشدي
٤- الكويت بلاد السلام // عبد الكريم عبد القادر
٥- إن كان درب الحب قد أتعبك // المطري/ عزّاني
٦- يا حب يا أرضي ويا سمائي // محمد عبد الله العديني / عبد الباسط عبسي
٧- مافعل أنا بالعمر والعافية // علي السمه
٨- يا غصن صنعاء اليمن// السنيدار
٩- حبيب ما في حدا غير الزهور // السنيدار
١٠- ما عزّني أبكي عليك واندم // عبد الباسط القرشي
١١- من أجل عينك // محمد قاسم الأخفش
١٢- وادي الندى فيك النسيم نسنس // العدادي